

الجزء التاسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ
يَشْعِبُ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ
أُولَؤُ كُنَّا كَرِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

هذه الآيات وما بعدها تنمى قصة شعيب عليه السلام . مبدوءة بجواب قومه
له عما أمرهم به من البر ونهاهم عنه من المنكرات والآثام ، وأنذرهم إياه من
الانتقام ، بقوله (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) ورد بأسلوب الاستئناف الديباجي
كأمثاله من مراجعة الكلام وتولاه الملاء منهم أى كبار رجالهم كدأب الجماعات
والأقوام ، وهو :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى قال أشرف قومه وأكبرهم الذين
استكبروا عن الإيمان له وعثوا عما أمرهم به ونهاهم عنه اتباعاً لأهوائهم —
وقد استضعفوه — تقسم لنخرجك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من
قريتنا الجامعة أو من بلادنا كلها — فلفظ القرية والبلد يطلق أحياناً على القطر
أو المملكة — أو لتعودن إلى ملتنا وما ندين به من تقاليدنا الموروثة

عن آباءنا فتكون ملة اسمك ومحيطه بكم معنا. ضمن العود معنى الظرفية ، وهو يتعدى باللام والى وفى ومنه (١٧ : ٦٩ أم أنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) يعنى البحر إذ الخطاب قبله لمن مسهم الضر فيه وليس فيه من معنى الظرفية ما فى قوله (٢٠: ٥٤ منها خلقناكم وفيها نعيدكم) يعنى الأرض والمعنى نقسم ليكون أحد هذين الأمرين : إخراجكم أو عودتكم فى الملة . فاختاروا لأنفسكم ، قيل إن التعبير بالعود يقتضى أنهم كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها وهو يصدق بالجمع فلا ينافى القول بعصمة الأنبياء من الكفر حتى قبل النبوة ، على أن شعبياً عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه فيمنعهم ذلك من التعبير فى شأنه بالعودة ، وكونه لم يشاركهم فى شركهم ولا فى بغض الناس أشياءهم وهضم حقوقهم أمر سلبي لا يلتفت اليه جمهورهم ، ولا يمدونه به خارجاً عنهم ، وقال الراغب : العود الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرافاً بالذات أو بالقول والعزيمة اه ومنه ذمه والدعوة إلى غيره ولا يقتضى هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه ، فلا حاجة إذن إلى تصحيح التعبير بما قيل من تفسير العود بالمصير ، وفيه من التكلف ما ليس فى القول بالتغليب ، ولا سيما فى جوابه عليه السلام .

﴿ قال أو لو كنا كارهين ؟ ﴾ يعنى أنعود فى ملتكم على كل حال من الأحوال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها وما يترتب عليها من الفساد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ؟ فالاستفهام للانكار و «لو» للفاية ، أو أتأمروننا أن نعود فيها وتهددوننا بالنفى من وطننا والإخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الأمرين ؟ - على الأصل فيما يحذف متعلقه ، وهو أن يتناول كل ما يصلح له ، فالاستفهام للتعجب من صنيعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة ، ووجه كل من الانكار والتعجب جهل هؤلاء الملاء بكنه الدين والملة ، وكونه عقيدة يدان الله بها ، وأعمالاً يتقرب اليه بأدائها وإن كان غنيا عنها ، وإعماشها لتكمل الفطرة البشرية بالتزامها وجهلهم بكون حب الوطن ، وإلف السكن ، لا يبلغ هذه المنزلة ، وجهلهم هذا ظنوا أن شعبياً عليه السلام قد يؤثره ومن آمن معه التمتع بالأقامة فى وطنه ومجاراة أهله فى كفرهم وذنابلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من أدران الخرافات ، وبالفاضل المرقية للنفس فى معارج الكمال ذلك بأن الملة عند أولئك الملاء الخاسرين رابطة تقليدية . وعصبية قومية ، يجرى أصحابها فيها على قول الشاعر :

وهل انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد
 وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك بل هي دين مالك للنفس، حاكم على الوجدان
 والعقل ، يقصد به الكمال البشرى الاعلى بمعرفة الله تعالى والقرب منه، وما يتبع ذلك
 من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تمكن صاحبه من إقامة في وطنه واصلاح أهله به فهم
 أحق به بدءاً ودواماً، وان منع فيه حريته ففتن في دينه كان تركه واجباً، فان لم يخرج منه
 شعيب ومن آمن معه إخراجاً لهم كارهون كما أخرج خاتم النبيين مع السابقين الأولين
 إلى الإسلام ، خرجوا مهاجرين كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، (٢٩ : ٢٥) وقال
 إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم (وقد أوجب الله تعالى الهجرة على من
 يستضعف في أرض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها ، ويوجب المتعصبون للوطنان
 في هذا العصر الهجرة منها إذا منعوا حرية الشخص فيهما دون الدين والوجدان ،
 بل يعز على بعضهم أن يقيم في وطنه إذا منع فيه حرية الفسق والآثام ، ورب أناس
 عز عليهم ترك وطنهم ، فأثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم ، فأظهروا الكفر ليأمنوا
 على حياتهم ، وظلوا يسرون المحافظة على الإسلام في خاصة أنفسهم ، ولكنهم لم
 يتمكنوا من تلقينه لأولادهم وتربيتهم عليه فارتدت ذريتهم عنه في زمنهم أو من
 بعدهم ، كما وقع لبعض مسلمي الأندلس بعد نيل الأسبانين لعرش دولتهم العربية
 وإكراههم على التنصر أو الخروج من البلاد فخرج بعض وبقى آخرون تحت وعيد
 قوله تعالى (٩٦ : ٤) إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا
 كنا مستضعفين في الأرض - قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم
 جهنم وساءت مصيراً (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون
 حيلة ولا يهتدون سبيلاً (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً)
 وقد قدر بعض المفسرين الفعل المحذوف من الجملة ومتعلق الكراهة هكنا :
 قال أخرجونا من وطننا بفعل ذنب يقتضى الإخراج ولو كنا كارهين لفارقتنا
 حريصين على الإقامة فيه ؟ وهو تخصيص لوجه له ، فاللفظ يقتضى تقدير كراهة
 كل من الأمرين لحذف متعلق الكراهة والمقام يجوز تخصيصه بالعود في ملتزم
 لأنه الأهم عند الأنبياء ، والمناسب لبقية جوابه عليه السلام :

﴿ قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

هذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمور وأولاهما بالرفض والكره وهو إنشاء في لفظ الخبر فاما أن يكون تأكيداً قسمياً لرفض دعوة الملأ إياهم إلى العود في ملتهم كما يقول القائل : برئت من الذمة أو من ديني أو من رحمة الله تعالى ان فعلت كذا فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد - وإما أن يكون تعجباً خرج لاعلى مقتضى الظاهر وأكد بقدر الفعل الماضي ، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله تعالى ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهذا الصراط المستقيم ، بالخليفة ملة إبراهيم ، وإذا كان من يتبع ملتكم بعد مفترياً على الله تعالى بقوله عليه مالا يعلم ، لاهتدائه من الوحي ولا برهان من العقل ؟ فكيف يكون حال من افتري عليه وضل عن صراطه على علم ؟ وان كفر الجحود وهو إنكار الحق وغطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله تعالى فيه أظفر ضرر الافتراء التي لا يقبل فيها أدنى عذر ؟ وأنت ترى أن النتيجة أدل من العود على إثبات أنهم كانوا على ملة قومهم حقيقة . وقد علمت أن المفسرين يجعلونه تعليلاً لاستثنائه عليه السلام . وتقول بناء على ما قررناه من أن عدم إياه من أهل ملتهم لا يقتضي أنه كان يعبد ما يعبدون ، ويفعل من التطفيف وبخس الناس أشياءهم ما كانوا يفعلون : إنه يصح أن يشمل إيجاب الله تعالى إياه منها بمعنى أنجائه من الالتئام إلى ملة ما كان يؤمن بعقيدها ، ولا يعمل عمل أهلها ، ولا كان يهتدى بعقله ورأيه إلى ملة خير منها ، فكان موقفه موقف الخيرة في شأنها ، كما يؤخذ من قوله تعالى في خطاب النبي الخاتم الأعظم ، ﷺ (ووجدك ضالاً فهدى) وتفسيره بقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) الآية

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ هذا رفض آخر للعود في ملتهم مؤكداً ببلغ التأكد معطوف على مناسبة ، والتعبير يدل على نفى الشأن ، وهو أبلغ من نفى الفعل ، لأنه نفى له بالدليل وهو كونه غير مستطاع ، ولا جار على سنن الله في الاجتماع ، والمعنى ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله ربنا ، المتصرف في جميع شؤوننا ، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن أيضاً ، لأننا موقنون بأن ملتكم

باطلة ضارة مفسدة ، وملتنا هي الحق ، التي بها صلاح الناس وعمران الأرض ، والموقن
 لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره ، وإنما ذلك بيد مقلب القلوب سبحانه ورهن
 مشيئته ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ فعنده من العلم بأسباب الإيمان والكفر
 والهدى والضلال والصلاح والفساد ما ليس عندكم ولا عند أحد من الخلق ، ومشيقته
 تجري بحسب علمه وحكمته وخلفه وبما كان يعلمه عليه السلام من حكمته تعالى وسننه
 في خلقه أنه يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل وينصرهم عليهم بالقول والفعل
 ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم إليه منه ، فكأنه يقول لهم : إذا كان الأمر
 كذلك فلا تطعموا إذاً أن يشاء ربنا الخفي بنا عودتنا في ملتكم بعد إذ نجانا بفضل
 منها وأقام الحجة عليكم بنا ، وما كان تعالى ليدحض حجته ، ويبطل سنته

فهذا الاستثناء مؤنس للملأ من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من
 آمن معه في ملتهم ، لأنه بعد أن نفي وقوع العود منهم باختيارهم نفيًا ، مؤكداً بأنه ليس
 من شأنهم ولا مما يحى من قبلهم في حال ما من الأحوال التي تطرأ عليهم كالترغيب
 والترهيب والرجاء في المنافع والخوف من المضار ، ومنها الإخراج من الديار واستئني
 حالاً واحدة وهي مشيئة الله تعالى وحده ، فدل على عموم النفي فيما عدا المستثنى وقد
 يستعمل لتوكيده من غير ملاحظة لتعلق المشيئة هل هو ممكن يجوز أن يقع أم لا ،
 كقوله تعالى (سفررتك فلا تنسى إلا ما شاء الله) أو للتنبيه على النفي بكرم الله وفضله
 لا بالإيجاب عليه وهو الوجه الذي اختاره شيخنا رحمه الله تعالى في تفسير سورة الأعلى ، ولا
 يخل بتوكيد عموم النفي جواز تعلق المشيئة بالنفي في كلام شعيب عليه السلام والقراش
 اللفظية والمعنوية تدل على عدم وقوع هذا الجائز وهو أنه تعالى لا يشاء عودته مع من
 آمن معه في ملة قومهم . فهو قد قرر أن هذا شيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى فطلبه
 من غيره عبث ، يؤكد ذكر الرب مضافاً إلى ضمير المتكلم ومن معه فأفاد بدلالة
 الالتزام أو الاقتضاء أنه لا يشاء لهم إلا ما عودهم بحسن تربيته إياهم ولطفه وعنايته بهم
 إذ أنجاهم من تلك الملة الباطلة ، وهو تأييد عصمة رسولهم وحفظ جماعتهم من
 العود فيها ، فكان هذا بمعنى قول عبد أمين أراد أن يغويه بعض اللغوين
 ويغريه بخيانة سيده الخفي به وصرف بعض ماله فيما يضره هو ويفسد
 عليه نفسه . ليس هذا من شأنى ولا مما يدخل في تصرفي إلا أن يشاء سيدي
 الصالح المصلح المعنى بشأني . وهو أعلم مني بأمرى . فالتعبير ليس مسوقاً

لتقرير حجة الأشاعرة على جواز مشيئة الله لكفرهم بالفعل ، ولا حجة المعتزلة على وجوب رعاية الصلاح والأصلح لهم ولغيرهم بالعقل ، ولكنه يدل بطريق الاتزام على ما ذكرنا من عناية الرب سبحانه وتعالى برسله وأتباعهم المستقيمين على دينهم ومضى سنته ووعدته بتأييدهم ، المصرح به في آيات أخرى كقوله تعالى (إنا لننصر كفرهم بالفعل ، بل يختار لهم الأصلح بحكمته وفضله لا بإيجاب العقل .

وقد روى ابن جرير وغيره عن السدي أنه قال في الآية : وما كان ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله إلا أن يشاء الله ربنا والله لا يشاء الشرك ولكن يقول إلا أن يكون الله قد علم شيئا فانه وسع كل شيء ، علما اه ولعله يريد أنه لا يشاء ذلك لأنه مخالف لسنته الحكيمة وفضله العظيم على رسله ومن آمن بهم وإن كان لا يقع من أهل الشقاء بسوء اختيارهم إلا بإرادته ومقتضى سنته ، وسنته في الفريقين مختلفة كما شرحناه مرارا

وقد سبق مثل هذا الاستثناء في سورة الانعام ، حكاية عن إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال لقومه (٦: ٨١) ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء . علما أفلا تتذكرون) وقد اخترنا هنالك أنه استثناء من عموم الأوقات وأنه منقطع معناه : لكن إن شاء ربى أن يصيبنى في وقت من الأوقات مكروه من قبل ما تشركون به كوقوع صنم على يشجنى ، فانه يقع بقدرته تنفيذاً لمشيئته ، لا بقدره شركائكم . ولا بمشيئتهم لأنهم لا قدرة لهم ولا مشيئة ، ثم علل ذلك بمثل ما علله به بعده شعيب عليهما الصلاة والسلام وعلى نبينا وآله فقال (وسع ربى كل شيء . علما) أى ومعبوداتكم لا تعلم شيئا . الخ واخترنا هنا جعل الاستثناء من أعم الأحوال لا الأوقات وإن جاز الجمع بينهما ، لأن الوقت لا شأن له هنا ، على أن عموم الأحوال يستلزم عموم الأوقات

ثم أكد عليه السلام ذلك كله بقوله ﴿ على الله توكلنا ﴾ أى اليه وحده وكلنا أمرنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من المحافظة على الدين الذى شرعه لنا ، فهو يكفيننا أمر تهديدكم ، وكل ما لم يجعله فى استطاعتنا من جهادكم . وذلك أن أصول المعرفة بالله عز وجل التى يعرفها جميع رسله أن من توكل عليه كفاه (ومن يتوكل على الله

فهو حسبه) وإن من شروط التوكل الصحيح في الأمر القيام بكل ما أوجبه الله تعالى فيه من الأحكام الشرعية، ومراعاة ما اقتضته حكمته فيه من الأسباب والسنن الكونية والاجتماعية. فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مغرور، لا متوكل منصور ولا مأجور. وقال النبي ﷺ لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله تعالى « اعقلها وتوكل ». رواه الترمذي وقال تعالى لرسوله بعد أمره بمشاورة أصحابه في غزوة أحد (فإذا عزمته فتوكل على الله) وإنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب ومنها مظاهرتة ﷺ يومئذ بلبس درعين. وقد بينا ذلك مفصلاً في مواضع من هذا التفسير (١)

وإخلاصة أنه ﷺ بدأ جوابه للعلاء من قومه بالتمعجب من تهديدهم وإنذارهم وإقامة الأدلة الدينية والعقلية على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم. وعدم استطاعة أحد على إجبارهم عليه غير الله تعالى الفعال لما يريد والاستدلال على أن هذا مما لا يريد. وثنى ببيان توكلهم على الله تعالى الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه وهو فوق كسبه واختياره، فتجتمع له العناية الكسبية والوهمية. ثم ثلث بالدعاء الذي لا يكون شرعياً مرجو الإجابة إلا بعد القيام بما في الطاقة من العمل الكسبي. والتوكل القلبي فقال

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ المعنى لمادة (الفتح) كما حققه الراغب إزالة الإغلاق والاشكال، وهو ضربان (أحدهما) ما يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والمغلق والمتاع من صندوق وغرارة وخرج وعلبة و (الثاني) هو ما يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق، والمغلق من مسائل العلم، والمبهم من قضايا الحكم والنصر في وقائع الحرب، وفي آيات القرآن استعمالات من الضر بين كليهما ولك أن تقسمه إلى حسي ومعنوي. ومن الأول الفتح الذي يكون بالكلام كحكم القاضي وفتح المأموم على الإمام في الصلاة وهو أن يقرأ الآية التي أخطأ فيها أو وقف عن القراءة ناسياً لما بقي منها. وإلى حقيقى ومجازى ومن مجاز الأساس: فتح على فلان إذا جد وأقبلت عليه الدنيا، وفتح الله عليه - نصره. وفتح الحاكم بينهم، وما أحسن فتاحته أى حكمه، قال

(١) راجع كلمة التوكل في فهارس أجزاءه ومن أوسعها ما في ص ٢٠٧-٢١٤ ج ٤

ألا أبلغ بنى وهب رسولا بأنى عن فتاحتهم غنى
 وبينهم فتاحات أى خصوصيات . وفلان ولى الفتاحة بالكسر وهى ولاية
 القضاء وفتحها حاكمه . وعن ابن عباس : ما كنت أدرى ما قوله تعالى (ربنا افتح
 بيننا وبين قومنا) حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفتحك .
 وقالت إعرابية لزوجها بينى وبينك الفتح اه وأثر ابن عباس أخرجه قدماء التفسير
 المأثور وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء والبيهقى فى الأسماء والصفات وفسر
 المفتحة فيه بالمقاضاة . وهو يدل لغة على أنها ليست قرشية بهذا المعنى ويؤيد
 ما روى عن السدى من أنها يمانية وخصها بعضهم بالحيرية وذو يزن من أسائهم .
 والمناسب أن كل فتح بين فريقين فهو بمعنى الحكم والفضل بينهما إما بالقول
 والفعل أو بأحدهما ومنه النصر ، ومن الآيات فيه (٢٦ : ٣٤) قل يجمع بيننا ربنا ثم
 يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم) ومنها حكاية عن نوح عليه السلام (١١٩ : ٢٦)
 فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى من معى من المؤمنين) وهذا عين مراد شعيب
 عليه السلام فى دعائه الملاقى لإنذاره قبله بقوله (حتى يحكم الله) الخ

والمعنى : ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك
 فى التنازع بين المسلمين والكافرين ، وبين سائر المحققين المصلحين ، والمبطلين
 المفسدين فى الأرض ، وأنت خير الحاكمين ، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم
 وتنزهك عن الظلم ، واتباع الهوى فى الحكم

(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمُ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا تَخْمِرُونَ (٩٠) فَآخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ (٩١)
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْقَهُوا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
 الْخَمِيرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

لما يئس الملا من قوم شعيب من عودته فى ملتهم ، وعلموا أنه ثابت على مقارعتهم ،
 خافوا أن يكثر المهتدون به من قومهم ، فحذروهم بذلك بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله :

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾

هذا عطف على (قال الملأ الذين استكبروا) وليس جواباً لشعيب عليه السلام ولا دخلاً في هذه المراجعة بينه وبينهم إذ لو كان كذلك لفصل ولم يعطف ، بل ذلك ما قالوه له والمناسب فيه وصفهم بالاستكبار فهو الذي جرأهم على تهديده وإنذاره الإخراج من قريتهم المشعر بأنهم هم أصحاب السلطان فيها ، وهذا ما قالوه لقومهم اغواء لهم يصدمهم عن الإيمان له ، والأخذ بما جاء به ، والمناسب فيه وصفهم بالكفر . فهو الحامل لهم عليه ، سواء كان سببه الاستكبار عن اتباعه أو غيره ، بل لو علم أولوا الرأي من قومهم أن سبب صدمهم عنه هو الاستكبار والعتو لما أطاعوهم ، ولذلك عللوا لهم صدمهم عنه بما يوهمهم أنه هو المصلحة لهم إذ قالوا لهم بصيغة القسم لئن اتبعتم شعيباً إنكم في هذه الحالة لخاسرون ، وحذف متعلق الخسار ليعمم كل ما يصلح له ، أي خاسرون لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملتته على ملة آبائكم وأجدادكم ، ومناطق عزكم وفخركم ، واعترافكم بأنهم كانوا كافرين ضالين وأنهم معذبون عند الله تعالى . وخاسرون لثروتكم وريحكم من الناس بما حذفتهم من تطفيف السكيل والميزان ويخس الغرباء أشياءهم لا يترأض أموالهم وأي خسارة أكبر من خسارة الشرف والثروة ؟ فعلوم أن اللام في قولهم « لئن » موطئة للقسم وهي أقوى مؤكدة للكلام ، والجملة الاسمية وتصديرها بأن وقرن خبرها باللام وتوسيط « إذا » التي هي جواب وجزاء بين طرفيها . كل ذلك من المؤكدات لمضمونها الخادعة لسامعيها ، وإن مثلها مما يروج بين أمثالهم في كل زمان ، ولا سيما من التفاخر بالآباء ، والنهصص للأقوام والأوطان ، فإننا ابتليتنا في دعوتنا إلى الإصلاح بمن كانوا يصدون الناس عنا وعن نصيحتنا لأهل ملتنا بأننا لم نولد في بلادهم ، ولا ننتمي إلى أحد من أجدادهم ، على أننا ننتمي بفضل الله تعالى إلى آل بيت نبيهم ﷺ ، وأن منهم من لا يعرف له نسب ، ومنهم من ليس من القبط ولا العرب ، وإننا نرى أشد الشعوب عصبية للوطن لا يجعلونها سبباً للصمد عن العلوم والفنون ولا الدين ومذاهبه وإنما التنافس بينهم في جعل كل واحد منهم وطنه أعز وأقوى وأغنى وأقنى ولو باقتباس العلم من الآخر . نرى رجال الدين الكاثوليك من الألمان والفرنسيين أعواناً على نصر الكثرة ونشرها في بلادهم وغيرها ، كما نرى مثل هذا بين رجال البروتستانتية من الألمان والانكليز ، كدأهم وسيرتهم في العلم ، فعلماء كل شعب

يتسابقون الى اقتباس ما يظهر عند الآخر من اختراع أو كشف عن حقيقة علمية أو اهتمام لسنة كونية أو منفعة للخلق . ويعززون كل أمر الى صاحبه ، ويقولون إن العلم لا وطن له . وانما يقع التغير والتفرق بين البشر في مثل هذا في إبان ضعفهم وغلبة الجهل عليهم ، وفشو التحاسد وسائر الأخلاق الرديئة فيهم . واعتبر ذلك في الأمة الإسلامية في إبان ارتقائها العلمي حتى القرن الخامس والسادس إذ كان مثل أبي حامد الغزالي يحجى بغداد عاصمة العلم والملك الكبير في الأرض فيكون رئيساً لأعظم مدرسة فيها بل في العالم (وهي النظامية) ولا يحول دون تلك كونه من قرية طوس في بلاد الفرس — وفيما بعده إذ تغيرت الحال ، كما بيناه في مواضع من المنار ، ونحمد الله أن تلك النزعة الشيطانية تكاد تنزل من مصر بارتقاء العلم والعمران على كون النزعة الوطنية العصرية تزداد قوة وانتشاراً

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ تقدمت هذه الجملة بنصها في بيان عذاب قوم صالح عليه السلام من هذه السورة (الآية ٧٧) فيراجع تفسيرها (في ص ٥٠٧ و ٥٠٨ من المجلد الثامن) وفيه أنه عبر عن عذابهم في سورة هود بالصيحة بدل الرجفة . وكذلك قوم شعيب — والرجفة المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب . ويصدق برجفان الأرض وهو الزلزال ومنه (يوم ترجف الأرض والجبال) وبرجفان القلوب من الهول والخوف ومنه قول عائشة (رض) في حديث بدء الوحي « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤده » والراجع هنا الأول والمعنى فأخذتهم الزلزة فأصبحوا في دارهم باركين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين . فهذا عذاب أهل مدين عبر عنه هنا بالرجفة وفي سورة هود بالصيحة ، كعذاب نوح في السورتين ، وقد بينا وجه الجمع بينهما .

وفي سورة الشعراء أن الله تعالى أرسل شعيباً إلى أصحاب الأيكة وهم غير مدين فإنه وصفه في سورة الاعراف بأنه أخو مدين أي في النسب كما تقدم ولم يصفه في سورة الشعراء بذلك كما وصف من ذكر قبله : نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً (ع . م) وقد أخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى — من سورة الشعراء (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) قالوا : كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين الخ فأفاد هذا أن الله تعالى أرسله إلى قومه أهل مدين وإلى من

اتصل بهم إلى ساحل البحر الأحمر، وأن حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة وكان يذرحهم متنقلاً بينهم في زمن واحد ، فلا يبعد حينئذ أن يكون العذاب قد أخذ الفريقين في وقت واحد أو وقتين متقاربين ، فكان عذاب مدين بالرجفة والصيحة المصاحبة لها . وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم وشدة الحر الذي انتهى بظلة من السحاب ، فزعوا إليها يبتعدون بظلماء ، فأطبقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون وذهب بعض المفسرين إلى أن عقاب الفريقين واحد ، وسأني بيان ذلك في تفسير سورة الشعراء إن شاء الله تعالى

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها — الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ يقال غنى بالمسكان يعني بوزن « رضى يرضى » إذا نزل به وأقام فيه . هكذا أطلقوه وقيدوه بعضهم بقيد أو قيدين ، قال الراغب : وغنى في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره ، واكتفى بعضهم بقيد طول الإقامة وبعضهم بالإقامة في رغد عيش

والآية بيان مستأنف من قبل الله عز وجل ناقض لقول الملائم من قوم شعيب لقومهم (لئن اتبعتم شعيباً أنسكم إذاً الخاسرون) وقولهم قبله (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) كأن سائلاً يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الأمر فيها وكيف كان عاقبة أهلها ؟ فأجيب عن الأول بقوله : الذين كذبوا شعيباً وهددوه وأنذروه الإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموها . كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو في ذلك العيش الرغد ، والأمد المديد ، فمضى الشيء صار كأنه لم يكن

وأجيب عن الثاني بقوله : الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً وأكذبوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعمنون به من تقاليد ملتهم ، ومن مالههم ووطنهم ، ولما كانوا موعودين به من معاد الدنيا والآخرة لو آمنوا دون الذين اتبعوه ، فانهم كانوا هم الفائزين المفلحين ، فالجملية تنفيذ حصر الخسار في المكذبين له بالنص ، وتمتضي نفيه عن المتبعين له بالأولى ، ومناسبة الجزاء للعذاب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستعداد فيه على أهل الحق سبباً للحرمان الأبدي منه ، وجعل الحرص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل سبباً للخسران بالحرمات منه ومن غيره واختار بعضهم في نكتة الفضل والتكرار وجهاً آخر وهو أنه بيان

مستأنف من الله تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة في الوعظ والتوبيخ وما في معناها نحو : أنت الذي جنيت علينا ، أنت الذي سلطت علينا أعداءنا ، أنت الذي فرقت كلمتنا ، أنت الذي أوقعت الشقاق بيننا .

وقال الزمخشري في الكشاف : ان في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة عبالغة في رد مقالة الملائشياعهم وتسفيهاً لأربهم واستهزاء بنصيحهم لقومهم ، واستعظاما لما جرى عليهم . وقد خفيت على بعض العلماء الأذكياء دلالة العبارة على هذه المعاني كلها لعدم تأملها ، فأما المبالغة في الرد فظاهرة لما يدركه كل من الفرق في نفسه بين ما مثلنا به أنفسنا لأسلوب الخطابة وبين ذكر تلك المسندات بالعطف ، وسببه أن تكرر ذكر المسند إليه بصيغة الموصول والصلة المؤذن بعلة الجزء يعيد صورة كل منهما في الذهن ، ويكون حكماً جديداً بعد حكم ، ولحكيم من التأثير في النفس ما ليس للحكم الواحد . وأما تسفيه الرأي ، والاستهزاء بذلك النصيح ، فهو تابع لهذا التأثير ، المتضمن لما ذكر من التصوير والتثليل .

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾
تقدم تفسير مثله في قصة صالح (ص ٩٠٩ ج ٨ تفسير) وفيه بحث دقيق في ذكر التولي عن القوم ومخاطبتهم بعد هلاكهم . وقد اتحد إغزار الرسولين لاتحاد حال القومين وعذابهما ، ولكن تنمة الآية هناك (ولكن لا تحبون الناصحين) وتنمة الآية هنا ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ ولا يبعد عندي أن يكونا قد قالا هذا وذلك ، فعبر عنهما بأسلوب الاحتيك . والمعنى : اننى يا قوم قد ابلغتكم رسالات ربي - أى ما أرساني به إليكم من العقائد والمواعظ والاحكام والآداب - فجمع الرسالة هنا بحسب متعلقها وأفرادها في قصة صالح بحسب معناها المصدرى - ونصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وانذار عاقبة الكفر بها « فكيف آسى » أى أحزن الحزن الشديد على قوم كافرين اعذرت إليهم ، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم ، فاختراروا ما فيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصيح والانذار .

(٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ

سَلَّاهُمْ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ

مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿سنن الله وحكمه في هذه القصص وأمثالها ، والاعتبار بها﴾

من سنة القرآن الحكيم أنه يبين العقائد بدلائلها ، والأحكام مؤيدة بحكمها . وعليها ، والقصص مقرونة بوجوه العبرة والموعظة بها وسنن الاجتماع فيها ، كما ترى في هذه الآيات التسع التي قفي بها على قصص القوم المهلكين .

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾
الوإ في أول الآية لعطف الجملة وما بعدها إلى آخر السياق الذي وضعنا له العنوان على مجموع ما قبلهم من القصص لمشاركته إياه ^(١) في كونه حكما له . وعبرا مستفادة منه — فعطف الجمل يشمل الكثير منها ، كالسياق برمته — ولا وجه للفصل هنا . والقرية المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها في عرف هذا العصر بالعاصمة كما تقدم مرارا ، وكان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا . والبأساء الشدة والمشقة والحرب والجذب وشدة الفقر والضراء ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه أو معيشته ، والأخذ بها جعلها عقبا ، وقد تكون تجزية وتربية نافعة . وتقدم مثل هذا في قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ٤٢) ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (في ص ٤١٢ ج ٧ تفسير) فانه بمعنى ما هنا ، ولكن السياق مختلف ، فلما كان ما هنا قد ورد عقب قصص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة في الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه في عصر التنزيل وما بعده . ولما كان ما هنالك قد ورد في سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحاجة قومه جعل خطابا خبريا له للتسليته وتثبيت قلبه من جهة ولتخويف كفار قريش وإنذارهم من جهة أخرى — وهذا ملاحظ هنا أيضا ولكن بالتبع للاعتبار بالسنة العامة لا بالقصد الأول .

والمعنى : ذلك شأن الرسل مع أقوامهم المهالكين ، وما أرسلنا نبيا في

قوم إلا وقد انزلنا بهم الشدائد والمصائب^(١) بعد إرساله أو قبيله، لنعدم ونؤهلهم بها للتضرع، وهو إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع لنا، والاخلاص فى دعائنا بكشفها، فلمعل تنفيذ الاعداد للشيء وجعله مرجوا. ومما ثبت بالتجارب وتقرر عند علماء النفس والاخلاق ان الشدائد وملاحج الأمور مما يربى الناس ويصلح من فسادهم، فالؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته إلى ربه، والشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها، فينقلب شاكرًا بعد عودها، بل الكافر بالله عز وجل قد تنبه الشدائد والأحوال مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق فى دماغه، وتذكره بما أودع فى فطرته من وجود مصدر لنظام الكون واقداره، كما وقع كثيرا، والآيات فى هذا كثيرة تقدم بعضها، وقد روى لنا أن الحرب العظمى قد كان لها هذا التأثير حتى فى أقل الناس تديناوهم أهل مدينة باريس، فكانت المعابد ترى مكتظة بالمصلين فى أثناء شدائد الحرب ومن مباحث البلاغة ان نكتة خلوجلة « أخذنا أهلها » الحالية من الواو وقد هى أن الأصل فى المقترنة بهما ان يكون مضمونها مقدما على العامل فيها كالجملة الاسمية. فاذا قلت: ما فعل زيد. كذا الا وقد عد له عدته — كان المتبادر أنه أعدها قبل الشروع فى فعله لأجله كقوله تعالى فى الجملة الاسمية (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) أى متلبسون بالظلم من قبل لآحال الاهلاك فقط، وإذا قيل ما فعله إلا أعد له عدته — شمل إعدادها قبله لآجله وهى الحال السابقة، وإعدادها عند الشروع فيه وهى الحال المقارنة، بل هذه المتبادرة إلى الذهن هنا. كقولك: ما سألته إلا أجابنى، أى عند السؤال، ولا يصح أن تقول إلا وقد أجابنى، ويصح أن تقول: ما سألته الا وقد أذن لى، أى قيل السؤال. فان قلنا إنه يتعين أن تكون الحال مقارنة فى الآية اقتضى ذلك أن يكون ما أفادته هى وما بعدها من الابتلاء بالسبئية ثم بالحسنة ثم بما يترتب عليها من الكثرة وكفر النعمة واقما كان بعد ارسال الأنبياء وفى عهدهم، وهو قد يصدق فى قوم نوح دون من بعده فلذلك قلنا انها تشمل الحال السابقة والمقارنة، فليتأمل فاننا لم نر لأحد بحثا فى هذه المسألة ولكن الامام عبد القاهر الجرجاني حقق أن الحال المفردة تنفيذ المقارنة والجملة الحالية (١) قالوا: ان جملة أخذنا الحالية ولم تقرن بالواو وقد، لوقوعها بعد (إلا) وهو جائز بالثلاثة الأوجه: الواو وحدها، والواو مع قد، وحذفهما معا.

تفيد سبق . ضمونها و فرق بعض الفقهاء بين قولك على أن اعتكف صائما وقولك على أن اعتكف وأنا صائم وقد بينا هذا في تفسير (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً) الآية (فراجع في ص ١١٥ ج ٥ تفسير) .

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أى ثم بلوناهم بضد ذلك فجعلنا الحالة الحسنة في مكان الحالة السيئة كاليسر بعد العسر ، والغنى في مكان الفقر ، والنصر عقب الكسر ﴿ حتى عفوا ﴾ أى كثروا ونموا ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما وهو من عفا النبات والشحم والشعر ونحوه إذا كثر ، وله شواهد عن العرب ، وذلك أن اليسر والرخاء سبب لكثرة النسل وبه تتم نعم الدنيا على المومنين . ومن الشواهد على هذا الابتلاء في القصص التى قفى عليها بهذه العبر : قول هود عليه السلام لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تتلحون) وقول صالح « ع م » لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتتحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا فى الأرض مفسدين) وقول شعيب « ع . م » لقومه (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ولكن لم تزد الآلاء هؤلاء الكافرين إلا بغيا و بطرا وفسادا فى الأرض ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أى وقالوا مع ذلك قولاً يدل على فساد فطرتهن ، وانطاس بصيرتهن ، وفقدن الاستعداد للتماظ والاعتبار بأحداث الزمان ، وتغير أحوال الإنسان ، وتقلب شؤون العمران ، قالوا قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وتناوبهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم ، فتلك عادة الزمان فى أبنائه ، فلا الضراء عقب من الخلق الحكيم على معاصى تقترف ورذائل ترتكب ، ولا السراء جزاء منه على صالحات تعمل ، وفضائل تلتزم . والمراد أنهم جهلوا سننه تعالى فى أسباب الإصلاح والفساد فى البشر وما يترتب عليهما من السعادة والشقاء ، المعبر عنها بقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلما ذكرهم رسلهم بها لم يتذكروا ولم يعتبروا ، بل نسوا وأعرضوا وأنكروا .

﴿ فآخذناهم بغتة وهم لا يشمعون ﴾ أى فكان عاقبة ذلك أن آخذناهم

بالعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيحل بهم ، لأنهم كانوا يجهلون سنن الله تعالى في الاجتماع البشري فلاهم عرفوها بعقولهم ولاهم صدقوا الرسل في نذركم ، وهذا معنى قوله تعالى في سياق سورة الأنعام الذي ذكرناه آنفاً (٦ : ٤٤) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وذلك شأن الكافرين والجاهلين : إذا مسهم الشر يشعروا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير أشعروا و بطروا ، فإذا كان ذلك الخير قوة وسلطة بغوا في الأرض ، وأهلكوا الحرث والنسل

أصاب أهل بيت في إحدى المدن السورية نفحة من جاه الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي أحد المقربين من السلطان عبد الحميد في عصره ، فتهبوا بجباه الأموال و انتسكوا الأعراض ، و بغوا في الأرض الفساد ، فكنا نتحدث مرة في أمرهم فقلنا : ألم يكن خيراً هؤلاء لو اغتنموا هذه الفرصة باصطناع الناس بالمعروف ، وعمل البر النافع للوطن ، فإن جاه أبي الهدى ليس له دوام ، ونحواً من هذا الكلام ، فقال السيد الوالد رحمه الله تعالى : إن أمثال هؤلاء لا يفهمون هذه الحكمة ولا يعقلونها ، واقد أصاب والدم من قبلهم رياسة إدارية صغيرة كواحد منهم فبغى و بطر و تكبر و تجبر و آذى الناس ، فنصحت له إذ كان يوادنى و يحترمني و ذكرته بتفسير الأحوال ، فقال لي ياسيد : إن لكل أحد يوماً يرقص له فيه الزمان فيلبيغى له أن يستمتع فيه ولا يضيع الفرصة على نفسه

وقد قال الله تعالى في هذا المعنى (١٧ ، ٨٣) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا (٨٤) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) وقال (٤٥ : ٤٢) وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصيبهم سبئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) المراد بالفرح ما كان عن بطر وغرور ، وقال (٢٢ : ١٠) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجينتنا من هذه لسنكون من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) اقرأ تنبة الآية وما بعدها

وأما المؤمنون بالله وما جاء به رسوله حقافهم الذين تكون الشدائد والمصائب

تربية لهم وتمحيصاً ، كما تكون للكافرين عقاباً وإبلاسا ، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه إياه بالتفصيل في قصة أحد من سورة آل عمران إذ قضت حكمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب فيظهر عليهم المشركون فينزل تلك الآيات الحكيمة المبينة للحقائق وسنن الاجتماع في الحروب والشدائد التي أولها (١٣٧:٣) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظرو — إلى قوله — ١٤١ — وليحص الله الذين آمنوا وبمحق الكافرين) ومنها قوله (١٤٠) وتلك الأيام نداؤها بين الناس) ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداومات بأسبابها وحكمها ويتحرى الاتعاظ وتربية نفسه بها ، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها ، والآيات التي بعد ما أشرنا إليه منها تنتم و إيضاح لها فيراجع تفسيرها في الجزء الرابع من التفسير . وفي معناها أحاديث كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سرأء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » . رواه احمد ومسلم من حديث صهيب الرومي رضى الله عنه

(فإن قيل) إننا نرى غير المسلمين يعلمون في هذا العصر ما لا يعلم المسلمون من هذه السنن الاجتماعية التي أرشد إليها القرآن ويستفيدون منها عبراً وتقوى للمضار يظهر أثرها باستعدادهم المصائب قبل وقوعها ، حتى لا تأخذهم بغتة ، وحتى يتلافوا شرورها بعد وقوعها بقدر الطاقة . ونرى أكثر المسلمين جاهلين وغافلين عن ذلك ، وقد فتن بعضهم بهؤلاء الأفرنج وحسبوا أنهم لا يكونون ، شلهم في استمناعهم واستعدادهم لدفع الشدائد ، والاستفادة من الأحداث والوقائع ، إلا إذا تركوا الاسلام ، ونبتذوا هداية القرآن ! ! كما فتنوا هم بالمسلمين باحتقارهم لدينهم تبعاً لاحتقارهم لهم ، وطعناً فيه بما يظنون من تأثيره في إذلالهم وإضعافهم ، فما قولك في ظلم الفريقين له ، وفي انتهاء الحرب العامة الأخيرة باستيلاء غير المؤمنين ، على أقطار عظيمة من بلاد المسلمين ؟ وكون أشد أهل هذه الأقطار استسلاماً للذل وخضوعاً للقره ، هم الذين يدعون أنهم أصبح إيماناً ، وأحسن إسلاماً ؟ حتى كان ذلك فتنة لبعض زعماء شعب سلم من الهلاك بعد أن كان يحاط به ، فظنوا أن التقليد بالاسلام سبب الهلكة ، والالقاء بالأيدي إلى التهلكة ، وإن في الانسلال منها المنجاة وارتقاء المملكة ؟

(قلنا) اننا كشفنا أمثال هذه الشبهات ، في تفسير كثير من الآيات ، وفي غير التفسير من المنار ، وبيدنا مراراً أن المسلمين قد تركوا هداية القرآن في حكوماتهم ومصالحهم العامة ، وفوضوا أمورهم إلى حكاهم الذين يندران يوجد منهم من له الملم بتفسيره أو علم السنة ، حتى من ساموا لهم بمنصب خلافة النبوة - كما تركوا هداية الكتاب والسنة في أعمال الافراد ، فأكثرهم لا يعرف من دينه إلا ما يسمعه ويراه ممن يعيش معهم من قومه وفيه الحق والباطل والسنة والبدعة ، وأقلامهم يلقى عن بعض الشيوخ بعض كتب الكلام الجدلية التي ألغت الرد على فلسفة نسخت وبدع باد أهلها ، وكتب الفقه التقليدية الخالية من جل هداية القرآن والسنة في مثل موضوع الآيات التي نحن بصدد تفسيرها ، وما أشرنا إليه في هذا التفسير من آيات الشواهد ، حتى بلغ الجهل من المسلمين في أم المسائل الخاصة بحياتهم السياسية التي هي مناط دولتهم وبقاء ملكهم أو زواله (وهي مسألة الامامة العظمى) أن يكتب الافراد والجماعات من علمائهم فيها ما هو مخالف لجمع أئمتهم ومباهجهم ولإجماع سلفهم ، على تهافت ظاهر ، واختلاف فاضح . على أن العلماء المتقدمين قد قصرُوا في هذه المسألة وعم الذين كان العلم صفة من صفاتهم وملكة من ملكاتهم ، لا ورقة شهادة يحملونها من سبق الاجماع على أن مثلهم من المقلدين لا يعد عالماً في خاصة نفسه ، حتى يعتمد بشهادته لغيره ، بله ما عرف عن بعضهم من شهادة الزور وقول الكذب وأكل السحت ، وقد استسفر بعض مجاورى الأزهر المتقدمين لامتحان شهادة العالمية واحداً منهم لعرض الرشوة على الأستاذ الامام رحمه الله تعالى ليساعدهم في الامتحان فضر به الأستاذ رحمه الله بيديه ، ورفسه برجليه ، وقال له : يا عدو الله أتريد أن أغش المسلمين بك وبأمثالك من الجاهلين بعد هذه الشبهة وانتظار لقاء الله ، فأكون ممن يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ؟ ولو كنت ممن يطيبهم المال ، ويحفلون بجمعه ولو من الحلال ، لكنت من أغنى الأغنياء ؟

ولما كان القرآن هو الذي هدى المسلمين إلى أنواع العلم وأعطاهم الحكمة والحكم كان تركهم لهدايته هو الذي سلبهم ذلك حتى انقلب الأمر ، والعكس الوضع ، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع - كما صح في الحديث - فالسواد الأعظم الجاهل اتبع سنن أهل الكتاب في شر ما كانوا عليه في طور جهلهم من الخرافات وابتداع الاحتفالات ، وتقليد الآباء والأجداد ، واتخاذ الأرباب والأنداد ، فأعطاه

حق التحريم والتحليل للأخبار والرهبان ، وطلب النفع ودفع الضر من دجالى
الآحياء وقبور الأموات ، فغشهم ماغشى أولئك من ظلمات الجهل ، وجعل الدين
عدوا للعلم والعقل ، والذاتة العصرية المتفرجة اتبعت سنن المرتدين وانفاسقين منهم فى
شر ما صاروا إليه فى طور فساد حضارتهم ، وقلدهم حتى فيما لا ينطبق على أحوالهم
ومصالحهم ، كذلك ضل الفريقان عن هداية القرآن ، واشتركا فى إضاعة مابقى
من ملك الاسلام

لا عالم الشرق بدينه ولا مقتبس العلم من الغرب هدى

وأما الافرنج فهم وإن كانوا على علم واسع بسنن الله فى أحوال البشر وسائر
امور الكون ؛ قد نالوا به ملكا عظيما فى الأرض ، فأكثرهم يحجل مصدر هذه السنن
وحكم الله تعالى فيها ولا يعتبرون حق الاعتبار بما تعقب الشرور والمعاصى من الفساد
فى الأرض ، فهم كأقوام أولئك الرسل الذين لم تقدم النعم شكر الرب المنعم ، ولم
تقدم النعم تقوى الرب المنتقم ، فقد استعملوا نعمه بالعلوم والفنون وتسخير قوى
العالم لاستعباد الضعفاء ، والسرف فى فجور الأغنياء ، والتقاتل على السلطان
والثراء ، ولذلك سلط الله بعضهم على بعض ، وصدق عليهم قوله عز وجل :
(٦ : ٦٥ قل هو القادر على ان يبعث عليكم عداءا من فوقكم أو من تحت أرجلكم
أو يلبسكم شيعا ويليق بعضهم بأس بعض * انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم
يفقهون) كما بيناه فى تفسيرها (ص ٤٩٢ ج ٧ تفسير)

فعلم بما ذكر وبغيره أن العلم بسنن الاجتماع والعمران لا يغنى عن هداية الدين
التي توقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجمح إلى ما لا غاية له من الشر ، ولولا
أن عند بعض أمم أوربة بقية قليلة منها تتفاوت فى أفرادهم قوة وضعفا لحشرت
المطامع والاحقاد صفا صفا ، فدكوا معالم أرضهم التي بلغت منتهى العمران دكا دكا ،
فجعلوها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، بل جعلوها بعد ذلك صروحها
وهاجبا عميقة ، ومهاوى سحيقة ، بقائف المدافع الضخمة التي تشق الأرض شقا ،
وتسحق ما فيها سحقا ، على أنهم قد شرعوا ، فلما أن يجهزوا وأما أن ينزعوا .

قال تعالى فى سورة هود (١١ : ١١٦) فلولا كان من القرون من
قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أحيينا منهم واتبع

الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين (١١٧) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (القرون هي الأجيال والشعوب، وأولو بقية: أصحاب بقية من دين وتقوى وعقل وحكمة، روى ابن مردويه عن أبي ابن كعب قال: أقرأني رسول الله ﷺ (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية - وأحلام - ينهون عن الفساد في الأرض) والأحلام العقول الراجعة^(١) والمراد من التحضيض في الآية الأولى النفي أى أنه كان ينبغي أن يكون في القرون الذين كانوا قبل ظهور الإسلام بالإصلاح العام أصحاب بقية من دين موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء أو حكماء العقلاء الذين فسر بهم الآمرون بالعدل في قوله تعالى (ويقولون النبيين بغير حق ويقولون الذين يأمرون بالقسط من الناس) ولكن لم يكن ذلك إلا قليلا من أنجبنا منهم، واتباع الأكتزون ما أترفوا فيه من الشهوات واللذات، وكانوا ظالمين لأنفسهم وللناس، أى أزال الله ملكهم بظلمهم وبطرم وتركهم للإصلاح في الأرض قال مجاهد في اتباع هذا الاتراف في ملكهم وتجزئهم وتركهم الحق ومعنى الآية الثانية أنه لم يكن من شأن ربك أيها الرسول المصلح ولا من سنته في خلقه أن يهلك العواصم والمداين بظلم منه أو بشرك من أهلها والحال أنهم مصلحون في أحكامهم وأعمالهم. وفي تفسير المرفوع إلى النبي ﷺ أنه سئل عن قوله تعالى (وأهلها مصلحون) فقال « وأهلها ينصف بعضهم بعضا » رواه الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير « رض » وروى عنه موقوفا أيضا

وهؤلاء البقية لا تخلوا منهم أمة فهم حجة الله على الأقوام، ومقى قلوبا في أمة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها. وقد شهد القرآن بوجود أناس منهم كانوا في أهل الكتاب. وهم يقولون في أوربة عاما بعد عام، وقد كان من أصحاب الأحلام منهم الفيلسوف هربرت سبنسر الإنجليزي الذي نهى اليابانيين عن الاستعانة بقومه الإنكليز على إصلاح بلادهم فيها، وقال لهم إنهم إذا دخلوها لا يخرجون منها. وقال للأستاذ الإمام حين تلاقيا بمدينة (بريتن في صيف سنة ١٣٢١ - ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣) ما ترجمته: محي الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية

(١) ما وردت في أحاديث الآحاد مثل هذا مما لا تثبت به قراءة فهو من قبيل التفسير فإن كان ظاهر لفظه أنه قراءة حمل على أنه مروي بالمعنى

فذهبت بالفضيلة . وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقري بذلك ، وسترى هذه الأمم تختببط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طامة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم

قال له الامام . إني آمل أن يحول دون ذلك هم الحكماء (مثلكم) واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق والعدل ونصر الفضيلة

قال الفيلسوف : وأما أنا فليس عندي مثل هذا الأمل فان هذا التيار المادي لا بد أن يبلغ مده غاية حده

وأقول إنني ذاكرت في هذا المعنى سياسيا أوربيا في جنيف من بلاد سويسرة ف رأيته يعتقد اعتقاد سبنسر بل أخبرني أن كثيرا من حقلاء أوربة يعتقدون أن فساد الأخلاق بالترف الذي أهلك الأمم الكبرى كاليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك أن يقضى على أوربة وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الأخيرة ، وما هي بعيدة ونصح لنا بأن لا نقلد أوربة في مدنييتها المادية ، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله وأن نجتمع كلمتنا ، ونجعل الزعامة فينا لأهل الرأي والفضيلة منا ، ونتر بص الدوائر بالاوربيين المعتمدين علينا^(١)

وجملة القول أن الإنسان حيوان إنسي وحشئ بجسده ، وملك روحاني بعقله وروحه ، وأنه إنما يكمل بكامل العقل والروح ويعتدل بالتوازن بينهما ، ولا يكون هذا إلا بهداية الاسلام الجامع لكل ما يحتاج اليه البشر من ذلك ، ولهذا نصحن لزعماء الترك المفتونين بمدنية الافرنج المادية لجهلهم بما يفتك بها من دود الفساد بأن يقيموا حكم الاسلام وإصلاحه الذي يكفل لهم القوة المادية والعمران و يقيمهم غوائل هذا الفساد كالبششية التي ثلث عرش قيصرية الروسية فقلنا في فاتحة الكتاب الذي صنفناه في مسألة (الخلافة --- أو --- الامامة العظمى ما نصه :

« أيها الشعب التركي الحى ! إن الاسلام أعظم قوة معنوية في الأرض ، وإنه هو الذى يمكن أن يحيى مدنية الشرق ، وينقذ مدنية الغرب ، فان المدنية لا

(١) راجع النبذة ٦ من راجعنا الأوربية التي نشرت ج ٨ من المجلد ٢٣ من المنار

تبقى الا بالفضيلة ، والفضيلة لا تتحقق الا بالدين ، ولا يوجد دين يتفق مع العلم والمدنية الا الاسلام ، وانما عاشت المدنية الغربية هذه القرون بما كان فيها من التوازن بين بقايا الفضائل المسيحية مع التنازع بين العلم الاستقلالى والتعاليم الكهنسية ، فان الأمم لاتنسل من فضائل دينها ، بمجرد طروء الشك فى عقائده على أذهان بعض الأفراد والجماعات منها ، وانما يكون ذلك بالتدريج فى عدة أجيال ، وقد انتهى التنازع ، بفقد ذلك التوازن ، وأصبح الدين والحضرة على خطر الزوال ، واشتدت حاجة البشر إلى إصلاح روحى مدنى ثابت الاركان ، يزول به استعباد الأقوياء للضعفاء ، واستئلال الأغنياء للفقراء ، وخطر البلشفية على الأغنياء ، ويبطل به امتياز الأجناس ، لتحقق الأخوة العامة بين الناس ، ولن يكون ذلك الا بحكومة الاسلام ، التى بينهاها بالاجمال فى هذا الكتاب ، ونحن مستعدون للمساعدة على تفصيلها ، إذا وفق الله للعمل بها

« أيها الشعب التركى الباسل : انك اليوم أقدر الشعوب الاسلامية ، على أن تحقق للبشر هذه الأمنية ، فاغتنم هذه الفرصة لتأسيس مجد إنسانى خالد ، لا يذكر معه مجدك الحربى النالك ، ولا يجرمك المتفرنجون على تقليد الافرنج فى سيرتهم ، وأنت أهل لأن تكون إماما لهم بمدنية خير من مدنياتهم ، وما نم إلا المدنية الاسلامية ، الثابتة قواعدها المعقولة على أساس العقيدة الدينية ، فلا تزلها النظريات التى تعبت بالعمران ، وتفسد نظم الحياة الاجتماعية على الناس » .

نصحننا للشعب التركى بهذا ولكن زعماء السكاليين اليوم كزعمائه الاتحاديين من قبلهم قد فتنوا بهذه المدنية المادية ، وجعلوا كنه الاسلام والحكومة الاسلامية ، وقد اعدرنا إليهم بيانها ، وانذرناهم عذاب الله باهمالها ، فتماروا بالنذر ، وطلقوا يطمسوا مابقى من الاسلام فى حكومتهم وأمتهم ، وسنرى ما يكون من أمرهم ، وقد ظهر ماكان مستورا من فسادس برتهم ، ونسأله تعالى لنا ولهم هلايح الخال ، وحسن المآل .

(٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاَخَذْنَاَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

لما بين الله سبحانه أنه أخذ من أهل القرى الذين كذبوا الرسل بما كان من كفرهم

وظلمهم لأنفسهم وللناس بين لأهل أم القرى « مكة » ولسائر الناس ما كان يكون من اغدق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسول ، واعتبروا بالسنن ، فقال :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أى آمنوا بما دعاهم إليه رسلم من عبادة الله وحده بما شرعه من الأعمال الصالحة واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد فى الأرض بالظلم والمعاصى كارتكاب الفواحش ، وأكل أموال الناس بالباطل ،

﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ قرأ الجمهور فتحنا بالتخفيف من الفتح وقرأها ابن عامر بالتشديد من التفتيح الدال على الكثرة ، والمعنى لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يعمدوها بمجموعة ولا متفرقة ، فإذا أريد ببركات السماء معارف الوحي العقلية ، وأنوار الإيمان الروحانية ، وفتحات الإلهامات الربانية ، فالعنى أن فائدة الإيمان واتباع الرسل عليهم السلام تكون تكميل الفطرة البشرية روحا وجسدا ، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخرة ، وإذا أريد ببركات السماء المطر وبركات الأرض النبات كما قيل فالعنى انها أبواب نعم تكون بركات لهم غير التى عهدوا فى صفاتها ونماؤها وثباتها وحالتهم فيها وأثرها فيهم ، وبذلك تكون بركات فان مادة البركة تدل على السعة والزكاء من بركة الماء ، وعلى الثبات والاستقرار من برك البعير ، ألم تقرأ أو تسمع قوله تعالى من سورة هود (١١ : ٤٨)

قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) فخص المؤمنين بالبركات وجعل نعمة الدنيا متاعا مؤقتا للكافرين ينلوه العذاب ، ولذلك لم يعطهم على من قبلهم . روى عن محمد بن كعب القرظى أنه دخل فى تلك البركات كل مؤمن ومؤمنة - وفى ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة . وعن الضحاك قال (وعلى أمم ممن معك) يعنى ممن لم يولد أوجب لهم البركات لما سبق لهم فى علم الله من السعادة - (وأمم سنمتعهم) يعنى متاع الحياة الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم لما سبق لهم فى علم الله من الشقاوة) فالناهدة المقررة فى القرآن أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة

الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق وأن الكفار قد يشاركونهم فى المادى منها كما قال تعالى فيهم من سورة الانعام (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ) . فذلك الفتح ابتلاء واختبار لآلهم كان أثره فيهم فرح البطر والاشربدلا من الشكر وترتب عليه العقاب الالهى فكان نعمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ،

وأما المؤمنون فإن ما يفتح عليهم يكون بركة ونعمة ويكون أثره فيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاعتباط بفضله ، واستعماله في سبيل الخير دون الشر ، وفي الإصلاح دون الفساد ، ويكون جزاؤهم عليه من الله تعالى زيادة النعم ونموها في الدنيا وحسن الثواب عليها في الآخرة ، فالفارق بين الفتحين يؤخذ من جعل هذا البركات الربانية ، ومن تشكيه الدال على أنواع لم يعهدا الكفار .

وموارد في الآيات الأخرى الدالة على أن غاية هداية الايمان الجمع بين سعادة الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى خطا بالبشر موجه لا بوجه من قصة آدم في سورة طه (٢٠، ١٢٠) فإما يأتيتكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى (١٢١) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقوله في خطاب بنى آدم من هذه السورة بعد ذكر قصته المبينة لخواص هذا النوع وحكم الله في خلقه والأصول العامة لدين الرسل الذين يبعثهم لهدايتهم ٣١: ٧ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكواواشر بوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣٢) قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فراجع تفسيرهما فى الجزء الثامن من التفسير فهذا بيان لسكون أصل الدين يقتضى سعادة الدنيا قبل الآخرة من أول النشأة البشرية فى عهد آدم وتقدم آفا ما أنزله تعالى على نوح وهو الأب الثانى للبشر وقال تعالى حكاية عن هود فى سورته (١١: ٥٣) ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) وهذه الآيات كلها حاجج على أعداء الاسلام من المنتهين إليه ومن غيرهم الزاعمين انه - وكذا كل دين الهى - سبب للضعف والفقر !

ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * من أعمال الشرك الخرافية والمعاصى المفسدة لنظام الاجتماع البشرى ، فكان أخذهم بالعقاب أثرا لازما لكسبهم بحسب سنن السكون ، وعبرة لامثالهم ان كانوا يعقلون .

(٩٦) أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَامُونَ (٩٧)

أَوَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ؟ (٩٨) أَفَأَمِّنُوا

مَكَرَ اللَّهُ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْغَاسِرُونَ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطِيعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ؟

هذه الآيات الأربع إنذار لامة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة لاعتبار بما نزل بغيرها كما ترشد إليه الاربعة منها. وأهل القرى فيها يراد به المجلس أى الأمم ، ويحتمل أن يكون المراد به مذكور حالهم فيما تقدم وضع المظهر فيه موضع المضمحل ليدل على أن مضمونها ليس خاصا بأقوام بأعيانهم فيذكر ضميرهم بل هو قواعد عامة فى أحوال الأمم ، فيراد بالإسم المظهر العنوان العام لها ، لا آحاد ما ذكر منها ، ولو ذكرها بضميرها أو اسم الإشارة الذى يعينها لدل على أن العقاب كان خاصا بها لا داخلا فى أفراد سنة عامة ، وهذا عين ما كان يصرف الأقوام الجاهلة الكافرة عن الاعتبار بعقاب من كان قبلها ، ويحتمل أن يكون المراد به أهل أم القرى عاصمة قوم الرسول الخاتم وعشيرته الأفرين وسائر قرى الأمم التى بعث ﷺ إلى أهلها من حيث إن بعثته عامة .

﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون﴾ الاستفهام للتذكير والتعجب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل والفاء عطف على محذوف تقديره على الوجه الأول . أغر أهل تلك القرى ما كانوا فيه من نعمة حين كذبوا الرسل فأمنوا أن يأتيهم بأسنا ؟ إلخ وعلى الثاني أجهل أهل مكة وغيرها من القرى التى بلغت الدعوة - ومثلها من سبقها - ما نزل بمن قبلهم وغرهم ما هم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم - أو إتيان بيات - وهو الهجوم على العدو ليلا وهو بائث فقلوه « وهم نائمون » حال مبينة لغاية الغفلة وكون الأخذ على غرة كما قال فيمن عذبوا « فأخذتهم بغتة » وليراجع تفسير الآية ٣ من هذه السورة وكم من قرية أهلكتنا فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون

﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم نائمون﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر « أو » بسكون الواو ، والمعنى بحسب أهل اللغة أأمنوا ذلك الاتيان أو هذا ؟ وهو لا يمنع الجمع بين الامنين - وقرأ الباقون بفتح

الواو على أن الهمة للإنكار والواو للعطف على محذوف كالذى قبله ، وقد أعيد الاستفهام وما يتعلق به لتسكئة وضع المظهر موضع المضمحل التي بينها آتفا . والضحى انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، أو ضوء الشمس في شباب النهار ، واختاره الاسم مأذ الإمام ، واللعب بفتح اللام وكسر العين مالا يقصد فاعله بسبب منفعة ولا دفع مضرة بل يفعله لانس له به أو لذة له فيه كالعاب الأطفال ، وما يقصد به العقلاء رياضة الجسم قد يخرج عن حقيقة اللعب ويكون إطلاقه عليه مجازيا بحسب صورته ، وكمن عمل صورته لعب أو هزل ، وحقيقته حكمة وجد ، وكمن عمل هو عكس ذلك كالعامل الفاسد الذي يقصد به ما يظن أنه نافع وهو ضار ، وما يتوهم أنه حكمة وهو عبث وخرق ، وقد يكون إطلاق اللعب على أعمال هؤلاء الجاهلين الغافلين من هذا الباب ، أى أو أمن أهل القرى أن يأتبهم عذابنا في وقت الضحى وهم منهمكون في أعمالهم التي تعد من قبيل لعب الأطنال لعدم فائدة ترتب عليها مطلقاً أو بالنسبة إلى ما كان يجب تقديمه عليها من سلوك سبيل السلامة من العذاب ؟

فأما أهل القرى من الغابرين فالظاهر ما حكاه الله تعالى عنهم أنهم كانوا آمنين إتيان هذا العذاب ليلاً ونهاراً فكان إتيانه إياهم فجأة في وقت لا يتسع لتلافيه وتداركه فلا استفهام لا يظهر في شأنهم إلا بتأول لاحتياج إلى مثله في أهل القرى الحاضرين ، ومن سيكون في حكمهم من الآتين ، والمراد أنه لم يكن لهم أن يأمنوا لو كانوا يعلمون ، فإن وجود النعم ليس دليلاً على دوامها ، فكمن من نعمة زالت بكفر أهلها ، وهذا ما كان يجهد الذين قالوا قد مس آباءنا الضراء والممراء ، قرأوا صورة الواقع وجهلوا أسبابه ، وأما الحاضرون فلا يمدرون بالجهل بعد أن بين لهم القرآن كنه الأمر ، وسنن الله في الخلق ، ولكن أدعياء القرآن ، قد صاروا أجهل البشر بما جاء به القرآن ، ويدعى بعضهم أن سبب جهلهم الانتماء إلى دين القرآن !!!

﴿ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ قال الراغب المسكر صرف الغير عما قصده بحيلة . وقسمه إلى محمود ومذموم . وأصبح منه وأدق قولنا في تفسير (٣ : ٥٤) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين : المكر في

الأصل التدبير الخفي المفضى بالمكور به إلى ما لا يحتسب . وقفيما على هذا التعريف ببيان السيء والحسن من المكر وكون الأ أكثر فيه أن يكون سيئاً كالشأن في غيره من الامور التي يتجرى إخفاؤها ، وفيه أن مكر الله تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس إنما يكون باقامة سفسفه وإتمام حكمه ، وكلها خير في أنفسها وان قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بحيلهم وسوء اختيارهم اه والمراد بالجهل ما يتعلق بصفات الله تعالى وسننه اغتراراً بالظواهر ، كأن يغتر القوى بقوته ، والغنى بثروته ، والعالم بعلمه والعابد بعبادته ، فيخطئ تقديره ما قدره الله تعالى فيظن أن ماعنده يبقى ، وما يترتب عليه من الآفاري ظنه لا يتخلف ، كما أخطأ الألمان في تقدير قوتهم وقوة من يقاتلهم من الدول فلم يحسبوا أن تكون دولة الولايات المتحدة منهم . والمعنى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بيانا أو ضحى وهم غافلون أنهم أمنوا مكر الله بهم باتيانهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدروا ؟ ان كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وقد سبق الكلام في خسران النفس في غير هذا الموضع

وإذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلا يورث الخسر ، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ قال تعالى (وذلکم ظنکم الذی ظننتم بربکم أردا کم فأصبحتم من الخاسرين) فأعلم الناس بالله وأعبدهم له وأقر بهم اليه هم أبعد خلقه عن الامن من مكروه ، إذ لا يصح أن يأمن منه إلا من أحاط بعلمه ومشينته ، وليس هذا الملك . قرب ولا لنبي مرسل ، (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ألم تر إلى الرسل الكرام كيف كانوا يستمنون مشيشته حتى فيما عصمهم منه ؟ كقول شعيب الذي حكاه الله عنه قبيل هذه الآيات (تد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسمع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا) وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل ﷺ يكثرون الدعاء بقوله « ياقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك » كما ثبت في الصحاح وقد ذكر تعالى أن الراسخين في العلم يدعون به بقوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ويقابل الأمن من مكر الله ضده وهو اليأس من رحمة الله . فكل منهما مفسدة تقبعا مفسدة كثيرة .

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾
يقال هدا السبيل أو الشئ وهدا له وهدا إليه - إذا دله عليه وبينه له ، وأهل الغور من العرب كانوا يقولون هدى له الشئ بمعنى بينه له . نقله (لسان العرب) وذكر أنه قد فسر به ما في الآية وأمثالها . وهذا التعبير ورد في سياق النفي والاستفهام . ومثله في سورة طه (١٢: ٢٠) أفلم يهد لهم كم أهلكننا من قبلهم من القرن يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهي) وفي سورة (الم - السجدة) (٢٦: ٣٢) أو لم يهد لهم كم أهلكننا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) والسياق الذي وردت فيه آية الأعراف التي نفسرها مثل السياق الذي وردت فيه آيات طه والسجدة والاستفهام هنا داخل على فعل محذوف عطف عليه ما بعده كما سبق في نظائره وللتقدير وجوه كلها تنقيد العبرة فهو مما تذهب النفس فيه مذاهب من أقربها أن يقال : أكان مجحولا ما ذكر أنفا عن أهل القرى وسنة الله تعالى فيهم ولم يبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن وجيلا في أثر جيل - أو لم يتبين لهم به - أن شأنا فيهم كشأننا فيمن سبقهم وهو أنهم خاضعون لمشيئتنا فلو نشاء أن نصيبهم ونعذبهم بسبب ذنوبهم أصبناهم كما أصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها . وقوله تعالى ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ معطوف على «أصبناهم» لأنه بمعنى نصيبهم إذ الكلام في الذين يرثون الأرض في العصر الحالي أو المستقبل على الإطلاق وليس في قوم معينين طبع الله على قلوبهم بالفعل كآظن الزخشرى وغيره فمنعوا هذا العطف وقالوا المعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . والمراد أنه ينبغي لمن يستغلهم الله في الأرض ، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك والمالك ، أن يتقوا الله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين ، ولا من المترفين الفاسقين ، وأن يعلموا أن من الحتم عقاب الأمم على السيئات ، وقد خلت من قبلهم المثالات فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات ، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار ، فلا هودة فيه ولا ظلم ولا محاباة . والناس في ذلك فريقان : فريق يصاب بذنبه ، فيتمتع ويتوب إلى ربه ، وفريق يصبر عليه حتى يطبع على قلبه ،

وهو مستعار من طبع السكة ونقشها بصورة أو كتابة لا تقبل غيرها أو من الطبع الذى بمعنى الختم كقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) والطابع والخاتم (يفتح الباء والتاء) واحد . وقيل إنه مأخوذ من الطبع (بالفتح) وهو الصمد الشديد يعرض للسيف ونحوه فيفسده يقال طبع الطبايع السيف والدرهم - أى ضربه ، وطبع الكتاب وعلى الكتاب وختمه إذا ضرب عليه الطابع والخاتم بعد إتمامه ووضع في ظرفه حتى لا يدخل فيه شيء آخر . ومنه الطبع والطبيعة وهى الصفة الثابتة للشيء أو الشخص ، فالسجية نقش النفس بصورة ثابتة لا تتغير لأن ما يتغير لا يسمى طبيعة . ومنه طبع الكتب فى الآلة المعروفة بالمطبوعة سمى بذلك لأنه لا يقبل الخو والتغيير كالخط ، على أن الناس قد صنعوا أحباراً لا تمحى أيضاً .

ولا يستعمل الطبع على القلوب إلا فى الشر والمراد به أنها وصلت من الفساد إلى حالة لا تقبل معها خيراً كالهدى والإيمان والعالم النافع الذى هو فقه الأمور ولياها ، وإنما يحصل بالإصرار على الشرور والمعاصى استحلالاً واستحساناً لها حتى لا يعود فى النفس موضع لغيرها ، قال تعالى فى اليهود (٤ : ١٥٤) فيها نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف — بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) أى إلا قليلاً منهم وهم الذين لم يطبع على قلوبهم . وقال تعالى فى المنافقين (٩ : ٨٨) وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وشبهه فى سورتهم . وقال هنا ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحكم والنصائح سمع تفقه وتدبر واتعاظ ، (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون) ما يراود منها ، لأن قلوبهم قد ملئت بما يشغلهم عنها ، من آراء وأفكار وشهوات ملكت عليها أمورها ، حتى صرفتهم عن غيرها فجعلتهم من (الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

قد كان ينبغى للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التى هلك بها من قبلهم وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم ، إذ بين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب بعض الأفراد وسفته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصرُوا

أولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الأمة بها ، وانذارهم عاقبة الإعراض عنها ، وترك الاعتاض بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فانما يعنى بأعرابها ، والبحث في الفاظها ، أو جدل المذاهب فيها ، ثم انهم يعملون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون أنفسهم مسلمين ، وطالما انكر علينا بعض أديباء العلم والدين ، اننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار ، شاملة لأهل الإسلام والإيمان مأفوكين عن تدبرها المراد منها جاهلين للسنن العامة فيها وكذلك كان يقول أهل الكتاب من قبلهم ، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحابي الأقوام لأجل رسولهم ، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم ، وقد راجت هذه العقائد الفاسدة في المسلمين ، وكانت تجارة الشيوخ المقلدين الجامدين والدجالين الضالين المضلين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) بل كانوا فتنة للكافرين ، وحجة على الدين ، كما بيناه من قبل وفي هذا السياق أنفا (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟ أفلا يعتبرون يقول رسولهم ﷺ « شبيمتني هود واخواتها » ^(١) (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون)

(١٠٠) تِلْكَ الْقُرْآنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ

وجه الخطاب في هاتين الآيتين إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأجل تسليته وتثبيت فؤاده بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن التي

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عقبه بن عامر وأبي جحيفة بسند صحيح ، ورواه هو والترمذي والحاكم عن غيرهما وفيه زيادة بيان لآخواتها وابن عساكر مرسلًا بزيادة « وما فعل بالأُمم قبلي » وهو وجه العبرة بهود

بين فقهها ومافيهما من الحكم في الآيات السبع التي قبلهما . قال تعالى

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ كلام مستأنف تفي به على جملة قصص الرسل عليهم السلام التي تقدمت وما عطف عليها من بيان حكمها وفقهها فكانت كالمذكاة لها ، فالقرى هنا هي المعمورة في هذه القصص ، وحكمة تخصيصها بالذكر أنها كانت في بلاد العرب ماجاورها وكان من بعد قوم نوح من العرب ، وكان أهل مكة وغيرهم من العرب الذين هم أول من وجهت اليهم دعوة الإسلام يتناقلون بعض أخبارها مبهمه مجملة ، وكانت على هذا كله قد طبعت على خرار واحد في تكذيب الرسل ، والتمارى فيما جاؤا به من النذر ، إلى أن حل بهم النكال وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فيها كلها واحدة . وليس كذلك قوم موسى فانهم آمنوا . وإنما كذب فرعون وملؤه فعدبوا ، ولذلك أخر قصته

والمعنى تلك القرى التي بعد عهدنا ، وطال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك أيها الرسول حقيقة حالها ، نقص عليك الآن بعض أنبائها ، وهو مافيه العبر منها ، وإنما قال نقص لا قصصنا لأن هذه الآية نزلت مع تلك القصص لا بعدها .

﴿ ولقد جاءهم رسلم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم ، وبالآيات التي اقترحوها عليهم لإقامة حججهم ، بأن جاء كل رسول قومه بما أعذر به اليهم ، فلم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كانوا كذبوا به من قبل مجيئها عند بدء الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصي . وقيل ان الباء للسببية والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد بعثته بسبب تعودهم تكذيب الحق قبلها ، وهو تأويل واه جدا فان قوله فما كانوا نفي للشأن ، وليس من شأن كل من كذب بشيء أن يصبر عليه بعد ظهور البينات على خطاه فيه ، ولكن شأن بعض المكذبين عنادا أو تقليداً أن يصبروا عليه بعد إقامة البينة لأنها لا قيعة لها عندهم ، فهم إما جاحد معاند ضل على علم ، وإما مقلد يأبى النظر والعلم . على أن ما قالوه لا يفهم من الآية إلا بتكلف يخالفه المنبادر من اللفظ . فالعجب ممن اقتصر عليه ولم يفهم غيره . وسيأتى في صورة يونس بعد ذكر خلاصة قصة نوح عليه السلام . ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب

المعتدين) فالمراد بهؤلاء الرسل الذين بعثوا بعد نوح من ذكروا في سورة الاعراف، ولذلك قال هنا وهناك (ثم بعثنا من بعدهم موسى) وحينئذ يحتمل أن يقال في آية الاعراف أن أهل تلك القرى في جملتهم ومجموعهم لم يكن من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم وهم قوم نوح بالنسبة إلى الجميع ثم قوم هود بالنسبة إلى قوم صالح الخ والراجح المختار هو الأول - ويليه هذا - والثاني باطل ألبتة .

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أى مثل هذا الذى وصف من عناد هؤلاء واصرارهم على ضلالهم ، وعدم تأثير الدلائل والبيّنات في عقولهم ، يكون الطابع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم ، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم ، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على أفكارهم ، وعلا حب شهواته جوانب قلوبهم ، ويصير وجدانا تقليديا لهم ، لا يقبلون فيه بحثا ، ولا يسمعون فيه نقداً ، فيكون كالسكة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصيرة وإذا بته تم جمدت فلا تقبل نقشا ولا شكلا آخر .

ومن وجوه تسليمة النبي ﷺ بالآية إعلامه أن من وصلوا بالاصرار على الجحود والعناد أو التقليد إلى هذه الدرجة من فساد الفطرة وإهمال استعمال العقل لا يؤمنون بالبيّنات وإن وضحت ، ولا بالآيات وإن اقترحت ، فقد كان كفار مكة يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى أن يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصا على إيمانهم ، حتى بين الله تعالى له هذه الحقائق من طباع البشر وأخلاقهم ، وتقدم هذا البيان في آيات من أوائل سورة الانعام وأنشأها ، ومما يناسب ما هنا قوله تعالى (١٠٨: ٦) وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون (١١٩) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون (فقوله تعالى) (كالم يؤمنوا به أول مرة) بمعنى قوله هنا «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل» .

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ العهد الوصية بمعنى إنشائها وبمعنى متعلقها وهو ما يوصى به الموصى . وعهدت إليه بكذا وصيته بفعله أو حفظه . ويكون بين طرفين وهو المعاهدة كما يكون من طرف واحد وهو من يعهد إليك

بشيء ، ومن تلتزم له شيئاً . والميثاق العهد الموثق بضرب من ضروب التأكيـد .
قال تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) أى أوفوا بما عهدت به إليكم أوف لكم
بما وعدتكم به من الجزاء على ذلك . وكل منهما يسمى عهد الله . وقال الراغب :
عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب والسنة
رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها .
والمراد من الأول العهد الذى تقتضيه فطرة الله التى فطر الناس عليها فهى عهد
منه يطالب الناس به ويحاسبهم عليه ومنه الخفيفة وأصلها الميل عن جانب الباطل
والشر إلى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان
غيبى فوق جميع قوى العالم — وعلى إشار ما تراه حسنا واجتناب غيره — وعلى
حب السكال وكراهة النقص . ولكنهم يخطئون في تحديده هذه المعانى ويحتاجون
إلى بيانها بوحى من الله تعالى وهو عهد الله المفصل الذى يرسل به رسله لمساعدة
الفطرة على تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار .
ومن الأصول العامة لعهد الله العام ، على السنة الرسل عليهم السلام ، ما بينه
تعالى في أوائل هذه السورة بعد بيان النشأة الآدمية ، والنشأة الشيطانية ، وما
بينهما من التنافر والتعادى ، أعنى تلك المناذرة التى نادى بها بنى آدم في
الآيات العشر من ٢٥ إلى ٣٤ ومنها التحذير من فتنة الشيطان وهو ما عهد
إليهم بقوله (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ^(١)) (ومنها) الوصايا
العشر التى هى أصول الدين وقواعده الكبرى فى الآيات الثلاث ١٥١ — ١٥٣
من سورة الانعام وفى الثانية منها قوله تعالى (وبعهد الله أوفوا) ^(٢) .

وقد فسر بعض السلف العهد بالميثاق الفطرى العام الذى يأتى بيانه فى
قوله تعالى من هذه السورة (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) الخ رواه ابن أبى حاتم عن أبى
العالية وابن المنذر عن أبى بن كعب ، وهما وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد

(١) راجع تفسيرها فى ص ٣٥٧ — ٤٠١ ج ٨ تفسير .

(٢) راجع تفسيرها فى ص ١٨٣ — ١٩٩ ج ٨ تفسير .

وروى أبو الشيخ عن قتادة قال : لما ابتلاهم بالشدة والجهد والبلاء ثم أتاهاهم بالرخاء والعافية ذم الله أ أكثرهم عند ذلك فقال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) ويعنى ما تقدم من شأن الفطرة في الرجوع إلى الله عند الشدة وكون هؤلاء لم تؤذ بهم البأساء والضراء . وهذا فرع من فروع العهد الفطرى ، وقيل انه أراد به أنهم كانوا يعاهدون الله تعالى عند الضيق بأن يشكروا له ويؤحدوه إذا أنجاهم كما حى عن بعضهم فى عدة سور . وروى عن ابن مسعود تفسير العهد بالإيمان أخذنا من قوله تعالى (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وهو يتفق مع القول الأول وإن لم يصرح به كما قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الجملة : وما وجدنا لأكثرهم أى لا أكثر الأمم الماضية من عهد (ثم قال) والعهد الذى أخذه هو الذى جبلهم عليه وفطروهم عليه وأخذ عليهم فى الاصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دلائل ولا حجة لامن عقل ولا من شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم « يقول الله : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم من دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » الحديث : ١ هـ

والصواب أن العهد يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطرى وشرعى وعرفى مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض فى تعاهدهم وتعاقدهم لأنه جاء نكرة فى سياق النفى مع تأكيد النفى بمن ، كأنه قال : وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهداً ما يفون به ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أى وإن الشأن الذى وجدنا عليه أكثرهم هو التمكن من الفسوق وهو الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر ، وغير ذلك من المعاصى . وإنما حكم على الأكثر لأن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهد الله عليه أو عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس ، ومنهم من كان ينفى ببعض ذلك حتى فى حال الكفر إذ لا تتفق أفراد أمة كبيرة على الشر والباطل فى كل شيء ، وهذا من دقة القرآن فى تحديد الحقائق بالصدق الذى لا تشوبه شبهات المبالغة بما يسلب أحداً حقه أو يعطى أحداً غير حقه ، وقد نوهنا

بهذه الدقة من قبل ، وغفل عنها بعض المفسرين فزعموا هنا أن المراد بالأكثر الكل في الكل

والفسق في الأصل أعم من نكث العهد ويتساوى مفهومهما بما فسرنا به عموم العهد هنا . ففي التعبير من محاسن الكلام الطرد والعكس ، باعتبار مدلول اللفظ ، إذ الأول يقرر بمنطوقه مفهوم الثاني الذي يقرر بمفهومه منطوق الأول . وفيه الجنس التام بين وجدنا الأولى وهي بمعنى ألفينا والثانية وهي بمعنى علمنا . والمقابلة بين النفي والاثبات في سلب الوجود الأول واثبات الثاني

(١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بَايَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ

﴿ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴾

هو موسى بن هيران - بكسر العين - وأهل الكتاب يضبطون اسم والده بالميم في آخره (عمرام) وافتتح أوله ، وجميع الأمم القديمة والحديثة تتصرف

في نقل الأسماء من لغات غيرها إلى لغتها . ومعنى كلمة « موسى » المنشأ من الماء .
 أى الذى أنقذ منه ، وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : إنما سمي موسى لأنه
 ألقي بين ماء وشجر ، فالماء بالقبضية « مو » والشجر « سى » . وذلك أن أمه
 وضعتة بعد ولادته في تابوت (صندوق) أقفلته إقفالا محكما وألقته في اليم (بحر
 النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور
 بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون إناثهم — وقالت لأخته قصيه أى تتبعه لنعلم
 أين يفتى ومن يلتقطه ، حتى لا يخفى عليها أمره ، فإزالت أخته تراقب التابوت
 على ضفاف اليم حتى رأت آل فرعون ملك مصر يلتقطونه إلى آخر ما قصه الله
 تعالى من خبره في سورة القصص .

وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة أولها هذه السورة
 (الاعراف) فهي أول السور المكية في ترتيب المصحف التي ذكرت فيها قصته ،
 ومثلها في استقصاء قصته طه والشعراء ويليهما سائر الطواسين الثلاثة (النمل
 والقصص) وقد ذكر بعض العبر من قصته في سور أخرى كيونس وهود والمؤمنين
 وذكر اسمه في سور كثيرة غيرها بالاختصار ولا سيما المكية وتكرر ذكره في خطاب
 بنى إسرائيل من سورة البقرة المدنية وذكر في غيرها من الطول والمئين والمفصل
 حتى زاد ذكر اسمه في القرآن على ١٣٠ مرة فلم يذكر فيه نبى ولا ملك كما ذكر اسمه
 وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد
 صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من حيث إنه أوتي شريعة دينية دنوية ،
 وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية ، وسنمين ما فيها وفي غيرها من
 حكم التكرار واختلاف التعبير في مواضعها إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ﴾
 هذه القصة معطوفة على جملة ما قبلها من القصص من قوله تعالى (لقد
 أرسلنا نوحا) إلى قوله (وإلى مدين أخاهم شعبا) — القصة ، فهي نوع وهن
 نوع آخر ، والفرق بين النوعين أن تلك القصص متشابهة في تكذيب الاقوام فيها
 لرسلمهم ومعاذتهم إياهم وإيذائهم لهم . وفي عاقبة ذلك باهلاك الله تعالى إياهم بعذاب
 الاستئصال . ولذلك عطف كل واحدة منهم على الأولى بدون إعادة ذكر الارسال

للإيدان بأنها نوع واحد فقال (وإلى عاد أخاهم هوداً . . . وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . . ولوطاً . . . وإلى مدين أخاهم شيباً) وقد أعاد في قصة موسى ذكر الإرسال للفرقة ولكن بلفظ البعث وهو أخص وأبلغ من لفظ الإرسال لأنه يفيد معنى الإثارة والازعاج إلى الشيء المهم، ولم يذكر في القرآن إلا في بعث الموتى وفي الرسالة العامة أي بعث عدة من الرسل، وفي بعثة نبيينا وموسى خاصة، وكذا في بعث نقيب بني إسرائيل وبعث من انتقم منهم وعذبهم وسبهم حين أفسدوا في الأرض . فالتعبير بلفظ البعث هنا يؤكد ما أفادته إعادة العامل من التفرقة بين نوعي الإرسال - أعني أن لفظه الخاص يؤكد المعناه العام - كما يؤكد هذا عطف هذه القصة على أولئك بتم التي تدل على الفصل والتراخي إما في الزمان وإما في النوع أو الرتبة والآخر هو المراد هنا . ويبيانه أن هذا الإرسال وما ترتب عليه وأعقبه في قوم موسى مخالف لجملة ما قبله بخالفة تضاد فقد أنقذت به أمة من عذاب الدنيا وهو تعبيد فرعون وملئه لها وسومهم إيها أنواع الخزي والنكال ، وانتهت إلى عبادة الله تعالى وحده وإقامة شريعته فأعطاه في الدنيا ملكاً عظيماً ، وجعل منها أنبياء وملكاً ، وأعد بذلك المهتدين منها السعادة الآخرة الباقية فأين هذا الإرسال من ذلك الإرسال، الذي أعقب أقوام أولئك الرسل في الدنيا عذاب الاستئصال، وفي الآخرة ما هو أشد وأبقى من الخزي والنكال ؟ وقد يظهر للتراخي الزماني وجه باعتبار كون العطف على قصة نوح فإن ما عطف عليهما من قصص ومن بعده قد جعل تابعاً ومتمماً لها بعدم إعادة العامل «أرسلنا» كما تقدم آنفاً ، وإلا فإن شيعياً وهو آخر أولئك الرسل كان في زمن موسى وهو حموه، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى وهو لديه مع زوجته وأولاده في سيناء وأرسله منها إلى فرعون وملئه لانتقاد بني إسرائيل من حكمه وظلمه . ويؤيد ذلك كله أن الله تعالى ذكر لإرسال نوح في سورة يونس وقفى عليه بقوله : (ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم) الخ وقال بعد هذا (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه) ومن المعلوم عقلاً واستنباطاً أن التراخي بين بعثة نوح ومن بعده من الرسل زمني إذ كان بعد تناسل الذين نجوا معه في السفينة وتكاثرهم وصيرورتهم شعوباً وقبائل ، وهذا الاجمال في سورة يونس في الرسل مبني على التفصيل الذي سبقه في سورة الاعراف التي نزلت قبلها أو هو أعم منه فإن الأمم قد كثرت بين نوح وموسى عليهم السلام وقد قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً) وقال لخاتم رسله (منهم من قصصنا

عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وقد بينا حكمة تخصيص من ذكر في هذه السورة منهم بالذكر وكذا من ذكر في سورة الأنعام وغيرها

والمعنى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بآياتنا التي تبدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وملئه . أما فرعون فهو لقب للملوك مصر القدماء كلقب قيصر للملوك الروم . وكسرى للملوك الفرس الأولين و « الشام » للملوك الإيرانيين في هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً . واختلف في اشتقاق كلمة فرعون ومعناه ، وفي إسم فرعون موسى وزمنه ، وليس في الآثار المصرية ما يبين هذا ، أما ملؤه فهم أشرف قومه ورجال دولته ، ولم يقل إلى فرعون وقومه لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل وبيدهم أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شيء ولأنهم كانوا مستعبدين أيضاً ولكن الظلم على بني إسرائيل الغرباء كان أشد ، وإنما بعث الله تعالى موسى لإنقاذ قومه بني إسرائيل من فرعون ورجال دولته وإقامة دين الله تعالى بهم في بلاد أجدادهم ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر قومه لأنهم كانوا تبعاً لهم بل كان هذا شأن جميع الأقوام مع ملوكهم المستعبدين الجائرين ، وقد علم الله تعالى أن فرعون وملؤه لا يؤمنون بموسى وإن قومه تبع له لا اختيار لهم وأكثروهم مقتلون ولذلك قتل السحرة لما آمنوا بموسى ، وإنما آمنوا لأنهم كانوا علماء مستغنى العقل أصحاب فهم ورأى ، وكان السحر من علومهم وفنونهم الصناعية التي تتلقى بالتعليم وليس كالأيات التي جاء بها موسى فاتهم من خوارق العادات التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى

وقد أقام الله تعالى الحجة بآيات موسى على فرعون وملئه ﴿ فظلموا بها ﴾ أى فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرّموا من الإيمان بالتباعم لهم ، كما كان يكون لهم مثل أجورهم لو آمنوا بالتبع لهم ، وجلة القول أن موسى عليه السلام كان مرسلًا إلى قومه بني إسرائيل بالذات وإلى فرعون وملئه بالتبع . ولك أن تقول إن الإرسال إلى بني إسرائيل مقصد وإلى فرعون وملئه وسيلة . وقد عدى الظلم في الجملة بالبناء لتضمينه معنى الكفر فصار جامعاً للمعنيين ولا يصح تفسيره بأحدهما إذ لو أريد أحدهما لعبر به ولم يكن للتضمين فائدة . وقيل إن البناء في قوله ﴿ فظلموا بها ﴾ للسببية أى فظلموا أنفسهم وقومهم بسبب هذه الآيات ظلماً جديداً

وهو ما ترتب على الجحود من العذاب بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ثم بالفرق كما سيجيء في محله ، والأول أظهر وأبلغ على أنه لا تنافي بينهما في المعنى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أى فانظر ايها الرسول — أو أيها السامع والتالى بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين فى الأرض بالظلم واستعباد البشر حين أجمعوا آيات الله وظلموا بها عملاً بمقتضى فسادهم ، وهذا تشويق لتوجيه النظر لما سبقه تعالى من عاقبة أمرهم إذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستضعف مستعبد لهم ، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصوله وقوة ، نصره عليهم أولاً بإبطال سحرهم وإقناع علمائهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من الله تعالى ، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن اتبعه من ملئه وجنوده وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر ، على القائلين إنما القلب للقوة المادية على الحق ، ولا سيما المغرورين بعظمة دول أوربة الظالمة لمن استضعفهم من أهل الشرق ، وعلى أولئك الباغين بالاولى ، فأولى لهم اولى ، ثم اولى لهم اولى بعد هذا التشويق والتنبيه قص تعالى علينا ما كان من مبدأ أمر أولئك

المفسدين الذى انتهى إلى تلك العاقبة فقال : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتمكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴿ نبأ بما فى هذه الآية من المباحث اللفظية والقراءات ونكت البلاغة لفهم عبارتها كما يجب ويكون سياق القصة بعد ذلك متصلاً ببعضه ببعض ، وفيها بحثان دقيقان . أحدهما بدء القصة بالعطف وكونه بالوار ، والثانى قول موسى (ع م) (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق)

لم أر من تكلم على وجه بدء الآية بالعطف وبيان المعطوف عليه والتفرقة بينها وبين مثلها من سياق القصة فى سورة طه إذ قال بعد أمر موسى بالذهاب مع أخيه هرون إلى فرعون وتبليغه الدعوة مبيناً كيف كان امتثالها للأمر (إنا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) فجاء به مفصلاً على وجه الاستئناف البيانى غير موصول بالوار ولا بأو ولا بالفاء ، ومثله فى الفصل قوله تعالى فى القصص التى قبل قصة موسى من هذه السورة (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله) وكذا ما بعده من قصة صالح ولوط وشعيب ، ولم يقل

فقال أو وقال لكنه عطف تبليغ نوح (عم) قبلها بالفاء (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) الآية وقد بينا الفرق بين هذا الوصل وما بعده من الفصل في قصة هود عليه السلام

والحاصل أن لدينا هنا عطفًا بالفاء في قصة نوح وعطفًا بالواو في قصة موسى وفصلا بيانيا في القصص التي بينهما يشبهه الفصل في قصة موسى في سور أخرى وله نظائر كثيرة. فأما الأول فعطف التبليغ فيه على الإرسال بالفاء لإفادة التعقيب وعدم جواز تأخير تبليغ الدعوة. وأما الفصل في القصص بعده فلأنه لما صار هذا معلوماً وكان ماجرى من أمر قوم نوح عبرة لقوم هود وكانا معا عبرة لقوم صالح وهلم جرا - حسن في كل قصة من هذه الفصل على أنه جواب لسؤال مقدر، كأن قائلًا يقول في كل منها ماذا كان من أمر هذا النبي مع قومه؟ كما تقدم بيانه. وأما الأخير الذي نحن بصدده فوجه العطف فيه وكونه بالواو وهو أنه قد قفي في قصة موسى هنا على ذكر إرساله إلى فرعون وملئه بذكر نتيجة هذا الإرسال وعاقبته بالاجمال وهو قوله تعالى (فظهوا بها) الخ. وبدأت القصة بعده بتفصيل ذلك الاجمال ومقدمات تلك النتيجة فكان المناسب أن يعطف عليها لأن يستأنف استئنافا بيانيا لما هو ظاهر من الاشتراك بين المقدمات والنتيجة، أو بين التفصيل والاجمال - وأن يكون العطف بالواو لا بالفاء لأن الفاء تدل على التعقيب والترتيب وهو لا يصح هنا لأنه يقتضى أن تكون المقدمات متأخرة عن النتيجة وذلك باطل بالبداية، فتعين أن يكون العطف بالواو، وهذه دقة في البلاغة لا يهتدى إلى مثلها إلا غواصو بحر البيان، ولا يكادون يجدون فرائدها إلا في أسلوب القرآن، وأعجب للامام الزمخشري كيف غفل عنها إذ لم يتعرض المسألة من أصلها وحكمة بدء القصة بذكر نتيجتها والعبرة المقصودة منها، هي - والله أعلم - أن تكون متصلة بما يناسبها من العبرة في القصص التي قبلها، من حيث إهلاك معاندى الرسل عليهم السلام بجهودا واستكبارا، وقد ذكرت هذه العبرة بعد جملة تلك القصص لتشابهها مبدأ وغاية كما تقدم، وقصة موسى عليه السلام طويلة فهي تساويها في هذا من حيث رسالته إلى فرعون وملئه فقط، وفيها عبر أخرى فيما تشابه به أمر خاتم الرسل عليه السلام من حيث إرساله إلى بني إسرائيل وإرسال محمد خاتم النبيين إلى العرب وسائر البشر وتوفيق الله قومه للإيمان ونشر شرعتهما فيمن أرسلنا إليهم - إلى آخر

ما يبداه آتفا في نكتة عطفها على ما قبلها ثم ونكتة التعبير ببعثنا ، ولذلك ذكر في
 أواخرها تبشير موسى وكذا عيسى بالنبي الأمي الخاتم محمد صلوات الله عليهم أجمعين
 وأما قوله (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) على قراءة الجمهور فقد جاء
 على غير المشهور عن العرب في هذه الكلمة إذ يقولون: أنت حقيق بكذا - وأنت
 حقيق بأن تفعل كذا، كما يقولون أنت جدير به وخلق به ، ولم ينقل عنهم استعماله على
 ولكن ورد في كلامهم استعمال «على» بمعنى الباء كقولهم: اركب على اسم الله - وهو الذي
 اعتمده ابن هشام في المغنى في تخريج الآية عند ذكر المعنى السابع من معاني «على»
 الجارة وأيده بقراءة أبي بن كعب رضى الله عنه (حقيق بأن لا أقول) ومثلهما قراءة عبد الله
 ابن مسعود رضى الله عنه (حقيق أن لا أقول ..) لأن المتبادر أن الجار المحذوف من
 أن هو الباء وحذف الجار من أن الخفيفة وأن المشددة قياسى معروف. وقد سبقه إلى هذا
 الاختيار بعض المفسرين، قال الحافظ ابن كثير في الجملة عن بعضهم: معناه حقيق
 بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان
 يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة. وقال بعض
 المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق اه والمراد من القول الثانى
 أن حقيقا قد ضمن معنى الحرص وهو منقول عن الفراء النحوى المفسر المشهور، وقد
 بينا مراراً أن التضمين جمع بين المعنى الأصلى للكلمة والمعنى الذى أفادته التعدية
 فيكون المراد من العبارة: إني رسول من رب العالمين حقيق وجدير بأن لا أقول على
 الله إلا الحق وحرى على ذلك فلن أخل به، وما قيل من أنه قلب الحقيقة إلى المجاز
 أو من باب الاغراق في وصف موسى نفسه بالصدق حتى جعل قول الحق كأنه يسمى
 ليكون هو قائله والقائم به ولا يرضى أن ينطق به غيره - فلا يخلو من تكلف، وإن
 قال الزمخشري في الأخير إنه هو الأوجه الأدخل في نكت القرآن
 وقرأ نافع (حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق) أى واجب وحق على أن
 لا أخبر عنه تعالى إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه - كما قال
 الحافظ ابن كثير. إذ علم هذا فنقول في تفسير الآيات:

بلغ موسى ﷺ فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم - أى سيدهم

ومالكهم ومدير جميع أمورهم - وأنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول على الله إلا الحق إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق فى التبليغ عن ربه ومعصوم من الكذب والخطأ فيه ، وشديد الحرص عليه بماله من الكسب والاختيار - فاشتمل كلامه على عقيدة الوحداية وهى أن للعالمين كلهم رباً واحداً ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ والهداية ، وقد ناقشه فرعون البعث فى وحداية الربوبية العامة لله تعالى كما هو مبين فى سورة الشعراء فوصفه موسى بما يليق به تعالى ، ويوضح المعنى المراد فى أجوبة عدة أسئلة أوردها عليه ، وقد سأله هو وهارون عن ربه فى سياق سورة طه ، وجاء فيها حكاه الله تعالى عنهما فيها ذكر البعث والجزاء . وكان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث كما يؤمنون بالرب الإله الغيبى ولكنهم شابوا العقيدتين بنزغات الشرك وبعض الخرافات الناشئة عنه .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملأه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، وفى كل سياق من قصة موسى المذكورة فى عدة سور فوائد فى ذلك وفى غيره لا توجد فى الأخرى - وأبسطها وأوسعها بياناً هذه السورة (الأعراف) وطه والشعراء والقصص - وإنما التكرار لجملة القصة لا التفصيل لها كما سيأتى :

ثم ذكر أن الله تعالى أيدته ببينة تدل على صدقه فى دعواه وتبليغه عنه ورتب عليه ما هو مقصود له بالذات أو بالقصد الأول فقال حكاية عنه : ﴿ لقد جئتمكم ببينة من ربكم فآرسل معى بنى إسرائيل ﴾ أى قد جئتمكم ببينة عظيمة الشأن ، ظاهرة الحجة فى بيان الحق ، فتتكبر البينة للتفخيم ، والتصريح بكون هذه البينة المعجزة من هند ربهم نص على أنهم مر بوبون ، وأن فرعون ليس رباً ولا إلهاً ، وعلى أنها أى البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام - وبنى على هذا قوله (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى بأن تطلقهم من أسرك ، وتعتقهم من رق قهرك ، ليذهبوا معى إلى دار غير ديارك ، ويعبدوا فيها ربهم وربك . وبم أجاب فرعون ؟

﴿ قال : إن كنت جئت بآية ﴾ أى قال فرعون لموسى عليه السلام : إن

كنت جئت مصحوبا ومؤيدا بآية من عند من أرسلاك كما تدعى — والشرط بأن يدل على الشك في مضمون الجملة الشرطية أو الجزم بنفيها — فائت بها إن كنت من الصادقين * فائتني بها بأن تظهرها لدى إن كنت من أهل الصدق ، الملزمين لقول الحق ، وهذا شك آخر في صدقه ، بعد الشك في مجيئه بالآية .

* فأتى عصاه فإذا هي ثعبان مبین * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * أى فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت بيمينه أمام فرعون فإذا هي ثعبان — وهو الذكـر العظيم من الحيات — مبین أى ظاهر بين لاختفاء فى كونه ثعباناً حقيقياً يسمى وينتقل من مكان إلى آخر تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها تسعى كما سيأتى من أعمال سحره فرعون — ونزع يده أى أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين إليه وهم فرعون وملؤه أو سكل من ينظره والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الأمور الغريبة . وقد وصف الله تعالى بياضها فى طه والنمل والقصص بأنه (من غير سوء) أى من غير علة كالبرص .

وفى التفسير المأثور روايات فى صفة الثعبان الذى تحولت إليه عصا موسى (ع . م) وفى تأثيره لدى فرعون ما هى إلا من الإسرائيليات التى لا يصح لها سند ولا يوثق منها بشئ ، ومنها قول وهب بن منبه : إن العصا لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضها وقام فرعون منهزماً . قال ابن كثير : رواه ابن جرير والامام احمد وابن أبى حاتم وفيه غرابة فى سياقه والله أعلم اهـ وقد اقتصرنا على هذه الرواية لا قول انى أرجح تضعيف عمرو بن على الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له بل أنا أسوأ فيه ظناً على ما روى من كثرة عبادته ، ويغلب على ظنى أنه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين كانوا يكيّدون للإسلام وللعرب ويدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع فقد ذكر الامام احمد أن والده منبها فارسى أخرجته كسرى إلى اليمن فأسلم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأن ابنه وهباً كان يختلف من بعده إلى بلاده بعد فتحها وههنا موضع لشبهة فى الغرائب المروية عنه وهى كثيرة — ومثله عندى كعب الاحبار الإسرائيلى — كلاهما كان تابعياً لكثير الرواية للغرائب التى لا يعرف لها أصل منقول ولا معقول ، وقومهما كانوا يكيّدون

للأمة الإسلامية العربية التي فتحت بلاد الفرس وأجلت اليهود من الحجاز ،
فقاتل الخليفة الثاني قارسي مرسل من جمعية سرية لقومه ، وقتله الخليفة الثالث
كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودي . وإلى جمعية السبئيين وجمعيات
الفرس ترجع جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواية في الصدر الأول

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾ يريد أن يخرجكم من
أرضكم فإذا تأمرون ﴿

﴿ فصل في حقيقة السحر وأنواعه ﴾

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع
سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ،
ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتمدى علماء الانكليز وغيرهم
من الافرنج إلى تعليل بعضها أو كشف حقيقته ، ولا يزالون يحفلون بتعليل بعض
والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على
جماهير الناس لجهلهم بأسبابها فتى عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر
عليه ، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدون آيات الرسل الكونية التي يؤيدهم الله
تعالى بها من قبيل السحر ، ويعملون هذا مانعا من دلتها على صدقهم وتأيد الله
تعالى لهم ، لأن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين فيمكن لكل أحد أن يكون
ساحرا إذا أتيح له من يعلمه السحر . ومن المعلوم في التاريخ القديم والحديث أن
السحر لا يروج إلا بين الجاهلين ، وله المسكانة المهيبة الخيفة بين أعرق القبائل في
الهمجية ، ولا يكاد يوجد في البلاد التي ينتشر فيها العلم والعرفان بل يسمى أهله
بأسماء أخرى كالشعوذين والمختالين والدجالين

وقد سبق لنا بيان حقيقة السحر في قصة هاروت وماروت من جزء التفسير
الأول ، وفي بعض مجلدات المنار و خلاصته أنه ثلاثة أنواع (أحدها) ما يعمل
بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها
ومنها الزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم كما سيأتي .

ولو شاء علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر أن يجعلوا أنفسهم سحرة في بلاد
أواسط افريقية الممجية وأمثالها من البلاد الجاهلة التي يروج فيها السحر العتيق
لأروم من عجائب الكهرباء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الألوهية
فيهم ، دع دعوى النبوة أو الولاية . وقد اجتمع السحرة في بعض هذه البلاد على
بعض السياح الغربيين ليرهبوهم بسحرم وكانوا في مكان بارد والفصل شتاء
فأخذ بعض هؤلاء السياح قطعة من الجليد وجعلوها بشكل عدسى بقدر ما يرى
من قرص الشمس وقال لهم انني أعلم منكم بالسحرو انني أقدر به أن أجعل في يدي
شمسا كشمس السماء ثم وجه عدسيته إلى الشمس عنسد بزوغها واكمل ضوءها
فصارت بانعكاس النور فيها كالشمس لم يستطع السحرة أن يشبثوا لظهم إليها
فخضعوا له ولن معه ، وكفوا شرهم عنهم خوفا منهم

(النوع الثاني) السحرة التي مدار البراعة فيها على خفة اليدين في اخفاء
بعض الأشياء و اظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو
معروف في هذه البلاد وغيرها من بلاد الحضارة بكثرة المكتسبين بها من الوطنيين
والغرباء ، ولم يبق أحد في هذه البلاد يسميها سحرا

(النوع الثالث) ما مداره على تأثير الأتفس ذوات الارادة القوية في الأنفس
الضعيفة ذات الامزجة العصبية القابلة للاوهام والانفعالات التي تسمى في عرف
علماء هذا العصر بالمستيرية ، وهذا النوع هو الذي قيل إن أصحابه يستعينون
على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الأوقاف والطلسمات للحب
والبغض وغير ذلك . ومن يقول إن للحروف خواص وتأثيرات ذاتية يخرج عمل
الأوقاف والنشرات وما في معناها من السحر . ومن هذا النوع ما استحدث في
هذا العصر من التنويم المغناطيسى وأخباره مشهورة

ومما سبق لنا بيانه في هذا الباب تخطيط من قال من المتكلمين إن السحر من
خوارق العادات الذي هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ،
وفاتهم أن السحر صناعة تتلقى بالتعليم ، كما ثبت بنص القرآن وبالاختيار الذي
لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون في هذا العصر

ولعلنا نكلام كثير في السحر بعضه صحيح وبعضه أوهام ، وإننا ننقل هنا كلام بعض كبار محققى المفسرين فيه . ومن أخصره وأفيدته قول ابن فارس : هو إخراج الباطل في صورة الحق . وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته لغريب القرآن مانصه : تعريف السحر ومأخذه من اللغة

السحر^(١) طرف الحلقوم والرئة ، وقيل انتفخ سحره وبغير سحر ، عظيم السحر والسحارة (بالضم) ما ينزع من السحر عند الذبح فيرمى به وجعل بناؤه بناء النفاية والسقطة ، وقيل منه اشتق السحر وهو اصابة السحر . والسحر يقال على معان . (الأول) خداع وتخييلات لاحقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الابصار عما يفعله خلفه يد ، وما يفعله الخيام يقول مزخرف عاتق للأسماع ، وعلى ذلك قوله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم) وقال (يخيل اليه من سحرم) وبهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحراً فقالوا (يا أيها الساحر ادع لنا ربك) (والثاني) استجلاب معاونة الشياطين بضرب من التقرب اليهم كقوله تعالى (هل أنذركم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفك أنثم) وعلى ذلك قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)

(والثالث) ما يذهب اليه الاغتنام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع ، فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . وقد تصور من السحر تارة حسنه ف قيل «إن من البيان لسحراً» وتارة دقة فعله حتى قالت الأطباء : العليقة ساحرة وسموا الغذاء سحرا من حيث أنه يدق ويلطف تأثيره . اه وقد عقد الشيخ أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالخصاص من أئمة الحنفية في القرن الرابع بابا خاصا من تفسيره الجليل (أحكام القرآن) لبيان معنى السحر وحكم الساحر عند كلامه على قوله تعالى (واتبعوا ما تنلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) قال في أوله «الواجب أن تقدم القول في السحر لخفائه على كثير من أهل العلم فضلا عن العامة ، ثم نعبه بالكلام في حكمه في مقتضى الآية في المعاني والأحكام فنقول :

(١) ذكره بالفتح ، وفيه ثلاث لغات بأوزان فلس وسبب و قفل .

«إن أهل اللغة يذكرون أن أصله في اللغة لما لطف وخفى سببه، والسحر عندهم بالغتج هو الغذاء الخفائه ولطف بحاربه . قال لبيد :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

«قيل فيه وجهان: نعلل ونخدع كالمسحور والمخدوع — والآخر نفذى . وأى الوجهين كان فعناه الخفاء . وقال آخر :

فإن تسألينا : فيم نحن فائنا عصافير من هذا الأنام المسحر

«وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الأول، ويحتمل أيضا أنه أراد بالمسحر أنه ذو سحر . والسحر : الرئة وما يتعلق بالحلقوم، وهذا يرجع إلى معنى الخفاء أيضا . ومنه قول عائشة «توفى رسول الله ﷺ بين سحري ونحري» وقوله تعالى (إنما أنت من المسحورين) يعنى من المخلوق الذى يطعم ويستقى . ويدل عليه قوله تعالى (وما أنت إلا بشر مثلنا) وكقوله تعالى (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق) ويحتمل أنه ذو سحر مثلنا . وإنما يذكر السحر في مثل هذه المواضع لضعف هذه الأجساد ولطافتها ورقتها وبها مع ذلك قوام الانسان — فمن كان بهذه الصفة فهو ضعيف محتاج — وهذا هو معنى السحر في اللغة، ثم نقل هذا الاسم إلى كل أمر خفى سببه وتخيل على غير حقيقته، ويجرى مجرى التوبة والخداع . ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ضم فاعله . وقد أجرى مقيدا فيما يمتدح ويحمد ، كما روى «إن من البيان لسحرا»

وهنا ذكر الخصاص روايته لهذا الحديث وهو في الصحيح وأطال الكلام عليه في زهاء ورقة كبيرة ذكر في أثناءه سحر سحرة موسى لأعين الناس وتخيلهم إن حبالم وعصيم تسمى ولم تكن تسمى، وذكر ما قيل من حيلتهم في ذلك بوضع الرثيق فيها وتحريك النار الخفية للزئبق فكان سبب حركتها، وسيأتى نقل ذلك عنه قريبا . ثم ذكر قصة تاريخية في أصل السحر ببابل وقفى عليها ببيان أنواعه فقال :

كلام الخصاص في السحر وأنواعه

«وإذ قد بينا أصل السحر في اللغة وحكمه عند الإطلاق والتقييد فلنقل في معناه في التعارف والضروب الذى يشتمل عليها هذا الاسم وما يقصد به كل فريق

من متعلقيه ، والغرض الذى يجرى اليه مدعوه ، فنقول وبالله التوفيق : إن ذلك ينقسم إلى أنحاء مختلفة .

« (فتمها سحر أهل بابل) الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة . ويعتقدون ان حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للسكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى اليهم ابراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم إلى الله تعالى وحاجهم بالحجاج الذى يهرم به وأقام عليهم به الجبة من حيث لم يمكنهم دفعه ، ثم ألوه فى النار فجعلها الله بردا وسلاما . ثم أمره الله تعالى بالهجرة إلى الشام . وكان أهل بابل وإقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقالة إلى أيام بيوراسب الذى تسميه العرب الضحاك . وإن أفريديون وكان من أهل دنيابند استعجاب عليه بلاده وكاتب سائر من بطيعة وله قصص طويلة حتى أزال ملكه وأسره . وجهال العامة والنساء عندنا يزعمون ان أفريديون حبس بيوراسب فى جبل دنيابند العالى على الجبال وأنه حى هناك مقيد ، وأن السحرة يأتونه هناك فيأخذون عنه السحر . وأنه سيخرج فيغلب على الأرض وأنه هو الدجال الذى أخبر به النبي ﷺ وحذره ، وأحسبهم أخذوا ذلك عن الجوس . وصارت مملكة إقليم بابل للفرس ، فانتقل بعض ملوكهم اليها فى بعض الأزمان فاستوطنوها ، ولم يكونوا عبدة أوثان ، بل كانوا موحدين مقرين بالله وحده ، إلا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الأربعة الماء والنار والأرض والهواء لما فيها من منافع الخلق ، وأن بها قوام الحيوان ، وإنما حدثت الجوسية فيهم بعد ذلك فى زمان كشتاسب حيث دهاه زرادشت . فاستجاب له على شرائط يطول شرحها . وإنما غرضنا فى هذا الموضع الابانة عما كانت عليه سحرة بابل . ولما ظهر الفرس على هذا الاقليم كانت تدين بقتل السحرة وإبادتها ولم يزل ذلك فيهم ومن دينهم بعد حدوث الجوسية فيهم وقبله إلى أن زال عنهم الملك . » وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الخيل والنير نصيبات وأحكام النجوم ،

(تفسير القرآن الحكيم) (٤) (الجزء التاسع)

وكانوا يعبدون أوثانا قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلًا فيه صنمه، ويتقربون إليها بضررب من الأفعال على حسب اعتقاداتهم من موافقة ذلك للكوكب الذي يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر، فمن أراد شيئًا من الخير والصالح بزعمه يتقرب إليه بما يوافق المشتري من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها ومن طلب شيئًا من الشر والحرب والموت والبوار اغيره تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافق من ذلك ، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافق من ذلك من ذبح بعض الحيوانات ، وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب إلى ما يريدون من خير أو شر ومحبة وبغض فيعطيهم ما شاءوا من ذلك فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ما شاءوا في غيرهم من غير مماسة ولا ملامسة سوى ما قدموه من القربات للكوكب الذي طلبوا ذلك منه . فمن العامة من يزعم أنه يقلب الإنسان حمارًا أو كلبًا ثم إذا شاء أعاده، ويركب البيضة والمكنسة والخاوية ويطير في الهواء فيمضي من العراق إلى الهند وإلى ما شاء من البلدان ثم يرجع من أبلته . وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل مادعا إلى تعظيمها اعتقدوه . وكانت السحرة تحتال في خلال ذلك بحيل تموه بها على العامة إلى اعتقاد صحته ، بأن يزعم أن ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ ما يريد إلا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون

« ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم في ذلك بل كانت السحرة عندها بالحيل الأجل لما كان لها في نفوس العامة من محل التعظيم والإجلال ، ولأن الملوك في ذلك الوقت كانت تعتقد ما تدعيه السحرة للكواكب ، إلى أن زالت تلك الممالك . ألا ترى أن الناس في زمن فرعون كانوا يقبأرون بالعلم والسحر والحيل والخدائق ولذلك بعث إليهم موسى عليه السلام بالعصا والآيات التي علمت السحرة أنها ليست من السحر في شيء ، وأنها لا يقدر عليها غير الله تعالى ، فلما زالت تلك الممالك وكان من ملوكهم بعد ذلك من الموحدين يطلبونهم ويتقربون إلى الله

تعالى يقتلهم كانوا يدعون عوام الناس وجهالهم سرا كما يفعل الساعة كثير من يدعى ذلك مع النساء والاحداث الاغمار والجهال الحشو .

وكانوا يدعون من يعملون له ذلك إلى تصديق قولهم والاعتراف بصحته . والمصدق لهم بذلك يكفر من وجوه (أحدها) التصديق بوجوب تعظيم الكواكب وتسميتها آلهة (والثاني) اعترافه بأن الكواكب تقدر على ضره ونفعه (والثالث) ان السحرة تقدر على مثل معجزات الأنبياء عليهم السلام . فبعث الله إليهم ملكين يبينان للناس حقيقة ما يدعون ، وبطلان ما يذكرون ، ويكشفان لهم ما به يوهون ، ويخبرانهم بما في تلك الرقى وأنها شرك وكفر ، ويحيلهم التي كانوا يتوصلون بها إلى التمويه على العامة ، ويظهران لهم حقائقها ، وينهيانهم عن قبولها والعمل بها ، بتوهمها لهم (إنما نحن فتنة فلا تكفر) فهذا أصل سحر بابل ومع ذلك فقد كانوا يستعملون سائر وجوه السحر والحيل التي نذكرها ويوهون بها على العامة ويعزونها إلى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها ويسامها لهم .

« فمن ضروب السحر كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها (فمنها) ما يعرفه الناس بجران العادة بها وظهورها ومنها ما يخفى ويلطف ، ولا يعرف حقيقته ومعنى باطنه إلا من تعاطى معرفة ذلك ، لأن كل علم لا بد أن يشتمل على جلي وخفي وظاهر وغامض ، فالجلي منه يعرفه كل من رآه وسمعه من العقلاء والغامض الخفي لا يعرفه إلا أهله ومن تعاطى معرفته وتكلف فعله والبحث عنه وذلك نحو ما يتخيل راكب السفينة إذا سارت في النهر فيرى ان الشط بما عليه من النخل والبنيان سائر معه ، وكما يرى القمر في مهب الشمال يسير للقيم في مهب الجنوب ، وكالدوران الدوامة فيها الشامة فيراها كالطوق المستدير في أرجائها ، وكذلك يرى هذا في الرحي إذا كانت سريعة الدوران ، وكالعود في طرفه الحجر إذا أداره مديره رأى تلك النار التي في طرفه كالطوق المستدير ، وكالعنبة التي يراها في قسح فيه ماء كالخوخة والاجاصة عظام ، وكالشخص الصغير يراه في الضباب عظيما جسيما ، وكبخار الأرض الذي يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيما فإذا فارقت وارتفعت صغرت ، وكما يرى المرئي في الماء منكسرا أو معوجا ، وكما يرى

الختام إذا قرينه من عينك في سعة حلقة السوار . ونفاثر ذلك كثيرة من الأشياء التي تتخيل على غير حقائقها فيعرفها عامة الناس .

« ومنها ما يلطف فلا يعرفه إلا من تعاطاه وتأمله كخيط السحارة الذي يخرج مرة أحمر ومرة أصفر ومرة أسود . ومن لطيف ذلك ودقيقة ما يفعله المشعوذون من جهة الحركات وأظهار التخييلات التي تخرج على غير حقائقها حتى يريك عصفورا معه أنه قد ذبحه ثم يريك وقد طار بعد ذبحه وأبانة رأسه وذلك لخفة حركته ، والمذبوح غير الذي طار لانه يكون معه اثنتان قد خبا أحدهما وأظهر الآخر وخبا خفة الحركة المذبوح ويظهر الذي نظيره ، ويظهر أنه قد ذبح إنسانا ، وأنه قد بلغ سيفا معه وأدخله في جوفه ، وليس شيء منه حقيقة .

« ومن نحو ذلك ما يفعله أصحاب الحركات للصور المعمولة من صفر^(١) أو غيره فيرى فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر ويتصرف بحيل قد أعدت لذلك ، وكفارس من صفر على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمس أحد ولا يتقدم إليه .

« وقد ذكر السكابي أن رجلا من الجند خرج ببعض نواحي الشام متصيدا ومعه كلب له غلام فرأى ثعلبا فأغرى به الكلب ، فدخل الثعلب ثعبا في تل هناك ودخل الكلب خلفه فلم يخرج فأمر الغلام أن يدخل فدخل وانتظروا صاحبه فلم يخرج فوقف متبشرا للدخول ، فر به رجل فأخبره بشأن الثعلب والكلب والغلام وأن واحدا منهم لم يخرج وأنه مشأب للدخول ، فأخذ الرجل بيده فأدخله إلى هناك ففضيا إلى سرب طويل حتى أفضى بهما إلى بيت قد فتمح له ضوء من موضع ينزل إليه بمرقتين فوقف به على المرقاة الأولى حتى أضاء البيت حينئذ قال له : انظر ، فتظر فإذا الكلب والرجل والثعلب قتلى ، وإذا في صدر البيت رجل واقف مقتنع في الحديد وفي يده سيف فقال له الرجل : أترى هذا ؟ لو دخل إليه

هذا الماخذل ألف رجل لقتلهم كلهم ، فقال : وكيف ؟ قال : لأنه قد رتب وهندم على هيئة متى وضع الانسان رجله على المرقاة الثانية للنزول تقدم الرجل المعمول في الصدر فضر به بالسيف الذي في يده ، فاياك أن تنزل إليه . فقال : فكيف الحيلة في هذا ؟ قال : ينبغي أن تحفر من خلفه سردابا يفضى بك إليه ، فإن وصلت إليه من تلك الناحية لم يتحرك . فاستأجر الجندي أجراء وصناعا حتى حفرُوا سردابا من خلف التل فأفضوا إليه فلم يتحرك ، وإذا رجل معمول من صقر أو غيره قد ألبس السلاح وأعطى السيف ، فقلعه ، ورأى بابا آخر في ذلك البيت ففتحه فإذا هو قبر لبعض الملوك ميت على سريره هناك ، وأمثال ذلك كثيرة جدا ^(١)

« ومنها الصور التي يصورها مصورو الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بين الإنسان وبينها ، ومن لم يتقدم له علم أنها صورة لا يشك في أنها إنسان ، وحتى تصورها ضاحكة أو باكية وحتى يفرق فيها بين الضحك من الخجل والسرور ، وضحك الشامت .

« فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل وخفيها ، وما ذكرناه قبل من جليها وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب على النحو الذي بينا من حيلهم في العصي والحبال . والذي ذكرناه من مذاهب أهل بابل في القديم وسحرم وجوه حيلهم بعضه ممنهنا من أهل المعرفة بذلك ، وبعضه وجدناه في كتب قد نقلت حديثا من النبطية إلى العربية ، منها كتاب في ذكر سحرم وأصنافه ووجوهه وكلها مبنية على الأصل الذي ذكرناه من قربانات السكواكب وتعليقها وخرافات معها لا تساوي ذكرها ولا فائدة فيها .

(وضرب آخر) من السحرم وهو ما يدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرق والعزائم ، وينوصلون إلى ما يريدون من ذلك بتقدمة أمورهم ووطأة قوم قد أعدوهم لذلك ، وعلى ذاك كان يجري أمر السكمان من العرب في الجاهلية ، وكانت أكثر مخاريق العلاج من باب المواطات ، ولولا أن هذا الكتاب لا يحتمل

(١) هذا ما يسميه العامة إلى هذا العهد بالرصد .

استقصاء ذلك لذكرت منها ما يوقف على كثير من مخاريقه ومخاريق أمثاله^(١) وضمر أصحاب العزائم ، وفتنتهم على الناس غير يسير ، وذلك أنهم يدخلون على الناس من باب أن الجن إنما تطيعهم بالرقى التي هي أسماء الله تعالى فانهم يحجبون بذلك من شاءوا ، ويخرجون الجن لمن شاءوا ، فتصدقهم العامة على اغترار بما يظنون من انقياد الجن لهم بأسماء الله تعالى التي كانت تطيع بها سليمان بن داود عليهما السلام ، وأنهم يخبرونهم بالخبايا وبالسرقة .

« وقد كان المعتضد بالله مع جلالته وشهامته ووفور عقله اغتر بقول هؤلاء . وقد ذكره أصحاب التواريخ ، وذلك انه كان يظفر في داره التي كان يغلو فيها بنفسائه وأهله شخص في يده سيف في أوقات مختلفة وأكثره وقت الظهور ، فإذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه ولم يوقف له على أثر مع كثرة التفتيش ، وقد رآه هو بعينه

(١) المواطات : جمع مواطاة وهي الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر . والمخاريق جمع مخراق وهي في الأصل خرق كانوا يقتلون بها ويلعبون بها بإدارتها بخفة ومهارة . ومواطات الحلاج هي انه كان يتفق مع أناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى السكرامات وقد اكتشف ذلك في عصره كإيثاره الشوخي في جامع التواريخ « نشوار المحاضرة » ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وإنما هو مختبر ، فقال له الحلاج : تشبه على ماشئت ، فقال : أريد سكا طريا وكانوا في بعض بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتا خاليا من داره وأغلق عليه بابا وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وبيده سمكة تضطرب فزعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال ففضيت إلى البطائح فخفضت الأهواز وهذا الطين منها حتى أخذت هذه . فقال الرجل : تدعى أدخل البيت فان لم ينكشف لي حيلة فيه آمنت بك . فقال شأنك — فدخل وبعد عشاء وتمقيب اهتدى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم فيه صنوف الفاكهة والثمار والنباتات ومنها ما ليس في وقته . ولكن محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزان مليحة فيها أنواع الاطعمة الناضجة والخواارج لما هيأ بسرعة ، ورأى في الدار بركة ماء مملوءة سمكا فأخذ واحدة منها وخرج ... فتمعه الحلاج فرمى بالسمكة وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقنتله ان حدث أجدا بذلك ولو في تخوم الأرض ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لعلمه بأنه لو أمر أحد المفتونين به ان يقتله فانه يفعل .

مراراً ، فأهنته نفسه ودعا بالمعزمين فحضرُوا وأحضروا معهم رجالاً ونساءً وزعموا أن فيهم مجانين وأصحاء ، فأمر بعض رؤسائهم بالمعزمية فعزم على رجل منهم زعم أنه كان صحيحاً فجن وتخبطن وهو ينظر إليه ، وذكروا له أن هذا غاية الخلق بهذه الصناعة إذ أطاعته الجن في تخبيط الصحيح ، وإنما كان ذلك المعزوم بمواطاة منه لذلك الصحيح على أنه متى عزم عليه جنن نفسه وتخبطن ، فجاز ذلك على المعتضد فقامت نفسه منه وكرهه ، إلا أنه سألهم عن أمر الشخص الذي يظهر في داره فمخروا عليه بأشياء علقوا قلبه بها من غير تحصيل لشيء من أمر ماسألهم عنه فأمرهم بالانصراف وأمر لكل واحد منهم ممن حضر بخمسة دراهم . ثم تفرز المعتضد بغاية ما أمكنه وأمر بالاستيثاق من سور الدار حيث لا يمكن فيه حيلة من تسلق ونحوه وطلعت في أعلى السور خواب لئلا يَحْتال بالقاء المماليق التي يحْتَال بها الاصصوص

« ثم لم يوقف لذلك الشخص على خبر إلا ظهوره له الوقت بعد الوقت إلى أن توفي المعتضد وهذه الخوايا المبسوطة على السور ، وقد رأيتها على سور الثريا التي بناها المعتضد . فسألت صديقاً لي كان قد حجب المقنن بالله عن أمر ذلك الشخص وهل تبين أمره ؟ فذكر لي أنه لم يوقف على حقيقة هذا الأمر إلا في أيام المقنن ، وإن ذلك الشخص كان خادماً أبيض يسمى (يقق) وكان يعيل إلى بعض الجوارى اللاتي في داخل دور الحرم ، وكان قد اتخذ لحي على ألوان مختلفة ، وكان إذا لبس بعض تلك اللحي لا يشك من رآه أنها لحية ، وكان يلبس في الوقت الذي يريده لحية منها ، ويظهر في ذلك الموضع وفي يده سيف أو غيره من السلاح حيث يقع نظر المعتضد فإذا طلب دخل بين الشجر الذي في البستان أو في بعض تلك الممرات أو العطفات ، فإذا غاب عن أبصار طالبيه نزع اللبحة وجعلها في كفه أو حوزته ^(١) ويبقى السلاح معه كأنه بعض الخدم الطالبين للشخص ولا يرتابون به ، ويسألونه هل رأيت في هذه الناحية أحداً فأناد رأيتاه صار إليها ؟ فيقول ما رأيت أحداً . وكان إذا وقع مثل هذا الفرع في الدار خرجت الجوارى من داخل الدور إلى هذا الموضع فيرى هو تلك

(١) الحزة بالضم الحجة وهي من الأزار معقده ومن السراويل ما تسكون فيه النسكة ، وهي معقده أيضاً وفي كل منهما نجاً للدارم ونحوها .

الجارية ويخاطبها بما يريد، وإنما كان غرضه مشاهدة الجارية وكلامها فلم يزل هذا دأبه إلى أيام المقتدر، ثم خرج إلى البلدان وصار إلى طرطوس وأقام بها إلى أن مات وتحدثت الجارية بعد ذلك بحديثه ووقفت على احتياله . فهذا خادم قد احتال بمثل هذه الحيلة الخفية التي لم يمتد لها أحد مع شدة عناية المعتضد به وأعباء معرفتها والوقوف عليها ولم تكن صناعته الحيل والمخاريق فما ظنك بمن قد جعل هذا صناعة ومعاشا ؟

(وضرب آخر من السحر) وهي السعي بالنخمة والوشاية بها ^(١) والبلابات والافساد والتضريب من وجوه خفية لطيفة ، وذلك عام شائع في كثير من الناس . وقد حكى أن امرأة أرادت إفساد ما بين زوجين ، فسارت إلى الزوجة فقالت لها : إن زوجك مريض عنك وقد سحر وهو مأخوذ عنك وسأسحر ذلك حتى لا يرب يد غيرك ، ولا ينظر إلى سواك ، ولكن لا بد أن تأخذني من شعر حلقه بالموسى ثلاث شعرات إذا نام وتعطينيها فإن بها يتم الأمر ، فاعترت المرأة بقولها وصدقها . ثم ذهبت إلى الرجل وقالت له : إن امرأتك قد علفت رجلا ، وقد عزمت على قتلك ، وقد وقفت على ذلك من أمرها فأشفقت عليك ولزمتي نصحك فتيقظ ولا تغتر ، فإنها عزمت على ذلك بالموسى وستعرف ذلك منها فما في أمرها شك . فتناول الرجل في بيته فلما ظنت امرأته أنه قد نام عمدت إلى موسى حاد وأهوت به لتحلق من حلقه ثلاث شعرات ، ففتح الرجل عينه فرآها وقد أهوت بالموسى إلى حلقه فلم يشك في أنها أرادت قتله ، فقام إليها فقتلها وقتل ، وهذا كثير لا يحصى

(وضرب آخر من السحر) وهو الاحتيال في إطعامه بعض الأدوية المبلدة المؤثرة في العقل والدخن المسدرة المسكرة نحو دماغ الحمار إذا طعمه إنسان تبلد عقله وقلت فطنته مع أدوية كثيرة هي مذكورة في كتب الطب ويتوصلون إلى أن يجمعوه في طعام حتى يأكله فتذهب فطنته ويجوز عليه أشياء مما لو كان تام الفطنة لا نكرها ، فيقول الناس إنه مسحور ^(٢)

(١) بهذا فسر الاستاذ الامام النقات في العقد من سورة الفلق

(٢) قد كثرت بعد عصر المؤلف العقاقير المفسدة للعقل والمبلدة للذهن ولا سيما في زماننا هذا ، ومنها الحشيشة المشهورة وما يتخذ منها ومن غيرها من المعاجين ، والكوكايين ، ولكنها لا شهرتها لم تعد من اعمال السحر

«وحكمة كافية تبين لك أن هذا كله مخاريق وحيل لاحقيقة لما يدعون لها أن الساحر والمعزم لو قدرنا على ما يدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون وأمكنهما الطيران والعلم بالغيوب وأخبار البلدان النائية والخبثات والسرق والاضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا لقدروا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا يبدأهم مكروه ، ولما مسهم السوء ولا مشتعوا ممن قصدهم بمكروه ، ولا استغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس فإذا لم يكن كذلك وكان المدعون لذلك أسوأ الناس حالا وأكثرهم طمعا واحتمالا وتوصلا لأخذ دراهم الناس وأظهرهم فقرا وإملاقا . علمت أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك .

« ورؤساء الحشو والجهال من العامة من أسرع الناس إلى التصديق لساوى السحرة والمعزمين وأشدهم تكبرا على من جحدوا ، ويروون في ذلك أخبارا معتلة متخرصة يعتقدون صحتها ، كالحديث الذي يروون أن امرأة أتت عائشة فقالت إني ساحرة فهل لي توبة؟ فقالت وما سحرك؟ قالت سرت إلى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببابل لطلب علم السحر . فقالا لي يا أمة الله لا تختاري عذاب الآخرة بأمر الدنيا ، فأبيت ، فقالا لي اذهبي فبولي على ذلك الرماذ فذهبت لأبول عليه ففكرت في نفسي فقلت : لا فعلت وجئت إليهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت؟ فقلت : ما رأيت شيئا ، فقالا : ما فعلت اذهبي فبولي عليه ، فذهبت وفعلت ، فرأيت كأن فارسا قد خرج من فرجي مقنعا بالحديد حتى صعد إلى السماء . فجئت بهما فأخبرت بهما فقالا ذلك إيمانك خرج عنك ، وقد أحسنت السحر ، فقلت وما هو؟ فقالا لا تريدين شيئا فتصورينه في وهمك إلا كان . فصورت في نفسي جبا من حنطة فإذا أنا بالحب ، فقلت له انزرع فانزرع وخرج من ساعته سنبلا فقلت له انطحن وانحبر إلى آخر الأمر حتى صار خبزا ، وإني كنت لا أصور في نفسي شيئا إلا كان . فقالت لها عائشة ليست لك توبة .

« فيروى القصص والمحدثون الجهال مثل هذا للعامة فنصدقه وتستعيده وتسأله أن يحدتها بحديث ساحرة ابن هبيرة فيقول لها : إن ابن هبيرة أخذ ساحرة فأقوت له بالسحر فدعا الفقهاء فسألهم عن حكمها فقالوا القتل . فقال ابن هبيرة : الست

أقنلها إلا تغريقا . قال : فأخذ رحي البئر فشدها في رجلها وقذفها في الفرات
فقامت فوق الماء مع الحجر تنحدر مع الماء فيخافوا أن تغرقهم . فقال ابن هبيرة
من يسكنها وله كذا وكذا ؟ فرغب رجل من السحرة كان حاضرا فيما بذله .
فقال اعطوني قدح زجاج فيه ماء فجاءوه به فقمعد على القدح ومضى إلى الحجر
فشق الحجر بالقدح فتقطع الحجر قطعة قطعة فغرقت الساحرة - فيصدقونه ، ومن
صدق هذا فليس يعرف النبوة ولا يأمن أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام
من هذا النوع وأنهم كانوا سحرة . وقال الله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى)
وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أظم من هذا وأفظع ، وذلك أنهم زعموا
أن النبي ﷺ سحر ، وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه « إنه يُخيل إلى أتى
أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله » وإن امرأة يهودية سحرت في جف طلعة
ومشط ومشاقة ^(١) حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرت في جف طلعة
وهو تحت راعوفة البئر ^(٢) فاستخرج وزال عن النبي ﷺ ذلك المعارض . وقد
قال الله تعالى مكذبا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي ﷺ فقال جل من
قائل (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) ومثل هذه الأخبار من
وضع الملحدين تلعبا بالخشو والظغام ، واستجرا را لهم إلى القول بابطال معجزات
الأنبياء عليهم السلام ، والقدح فيها ، وإنه لافرق بين معجزات الأنبياء وفعل
السحرة ، وإن جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم
السلام وإثبات معجزاتهم ، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع
قوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر
ببطلان دعواه وانتحاله . وجائز أن تكون المرأة اليهودية يجهلها فعملت ذلك ظنا

(١) جف الطلع بضم الجيم هو الوعاء الذي يخرج منه طلع النخل ، والمشاقة من السكتان
معروفة وفي أكثر الروايات مشاطة وهي بالضم الشعر الذي يسقط من الشعر عند تسريحه
بالمشط والمراد أن المشط والمشاطة وضعاف في جف طلعة وصفت عند الشيخين بأنها طلعة
ذكر أي من النخل « ٢ » راعوفة البئر الحجر الثابت الذي يقف عليه المستقي من البئر

منها بأن ذلك يعمل في الاجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها ، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته ، لا ان ذلك ضره ، وخلط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره وإنما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له ^(١)

« والفرق بين معجزات الأنبياء وبين ما ذكرنا من وجوه التخييلات ، ان معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكما تأملتها ، ازدادت بصيرة في صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . ومخاريق السحرة وتخييلاتهم إنما هي ضرب من الخيلة والتلطف لاظهار أمور لاحقيقة لها ، وما يظهر منها على غير حقيقتها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ، ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتى بعقل ما أظهره سواء » اهـ هذا جل ما قاله أبو بكر الجصاص في معنى السحر وحقيقته وعقد بعده بابا في ذكر قول الفقهاء فيه وما تضمنته الآية من حكمه وما يجري على مدعى ذلك من العقوبات . ومنها القتل كفراً في بعض أنواعه المتضمنة للشرك والمستلزمة للريب

« ١ » أنكر الجصاص الحديث المروى في ذلك . وكذلك الأستاذ الامام لمعارضته للقرآن وما فيه من الشبهة على عصمة النبي ﷺ حتى في أمر التبليغ مع انه مروي في الصحيحين لأن من علامة الحديث الموضوع مخالفته للقطعي من القرآن وغيره ، ومثل هذا انكار النووي لما روى عن ابن مسعود (رض) من انكار كون المعوذتين من القرآن مع تحسنده . والجمهور يؤولون هذا وذلك ويغرم ان المقلدين يسلمون لهم كل تأويل ولو متكلفا ، وينسون ان اعداء الاسلام ومستقلي الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذي لا يطعن له القلب ، والظاهر أن الجصاص لم يطلع على روايات الشيخين في مسألة كاطلاع النووي على جميع الروايات في مسأله : وفيهما ان الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم اليهودي لامرأة ، ومذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرا حقيقيا ، وليس كله حيل ومنه انه أثر في جسم النبي ﷺ وخياله دون عقله وروحه ، فكان يحيل اليه أنه أذى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد ، وقال الأستاذ الامام ان هذا تأثير في النفس ومداركها ورسول الله أجل وأعظم من ذلك ، فنفسه أعلى الانفس وأزكاها وأقواها فلا يمكن أن تؤثر فيها نفس خبيثة فاسدة

في معجزات الرسل . وإن كثيراً من العلماء يثبتون ما أنكره من تأثير الجن واستخدام بعض الناس لهم . ومن العجيب أنه لا يزال في هذا العصر من يتوسل إلى الاستعانة بالجن على بعض الأعمال السحرية بما هو كفر قلعاً كإبط بعض القرآن على السوأتين كما علمت من بعض الخنبرين لهؤلاء الدجالين الذين يعيشون بكتابة العزائم والحجب للحب والبغض والجمل وغير ذلك والمغاسد في ذلك كبيرة جداً وقد ذكرنا بعضها في تفسير (٧ : ٢٦) إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون (في ص ٣٦٧ - ٣٧١ من المجلد الثامن تفسير)

✽ عود إلى تفسير الآيات ✽

لما أظهر موسى عليه السلام آية الله تعالى في مجلس فرعون ✽ قال الملا من قوم فرعون ✽ أى أشرف قومه وأركان الدولة منهم : ✽ إن هذا لساحر عليم ✽ أى راسخ في العلم - كما تدل عليه صيغة عليم ✽ يريد أن يخرجكم من أرضكم ✽ أى قد وجه إرادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره بأن يستميل به الشعب المصرى فيتبعه فينتزع منكم الملك ويستبد به دونكم ، وبلى ذلك إخراج الملك وعظماؤه من البلاد لئلا يناوؤه لاستعادة الملك منه ، كما فعل متغلبه الترك في هذه الأيام بعد إسقاط الدولة العثمانية ، فانهم أخرجوا جميع أفراد الأسرة السلطانية من البلاد التركية التى بقيت لهم . وفي معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ما حكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه في سورة يونس (١٠ : ٢٨) قالوا أجمعنا لتبغتنا عسا وجدنا عليه آيةنا وتكون لنا السكينة ✽ وما نحن لسكان مؤمنين (

وما قال الملا من قوم فرعون هذا القول إلا تبعاً لقوله هو ، الذى حكاه تعالى عنه في سورة الشعراء (قال الملا حوله إن هذا لساحر عليم ✽ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فإذا نامرون ؟) أى ردّدوا قوله وصار يلقاه بعضهم إلى بعض ، كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهاراً للموافقة عليه ، وتعمياً لتبليغه . وإنما لم يصرحوا بكلمة « بسحره » كما صرح هو لأنهم كانوا دونه خوفاً وإذطاجاً ، وأقل منه حرصاً على الطعن في دعوة موسى ،

ولكن ذكرها السحرة في تمنّاهم مع فرعون وهو أجدر بذكرها فحكاه الله تعالى عنهم بقوله من سورة طه (فتنّاعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى * قالوا إن هذان ساحران يريدان أن يخرجّاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجهموا كيدهم ثم اتقوا صفاءً وقد أفلح اليوم من استعمل)

والامر في قول فرعون لهم وقول بعضهم لبعض (فماذا تأمرون) ليس هو المقابل للنهي ، بل هو بمعنى الادلاء بالرأى في الشورى ، قال الزجاج في الأساس : وتأمّر القوم واتّمعروا ، مثل تشاوروا واشتوروا . ومرني بمعنى أشر عليّ . قال بعض فتنّاكم :

ألم تر أنّي لا أقول لصاحب إذا قال مرني - أنت ماشئت فافعل
ولسكنني أقرى له فأريه بينلاء تنجيه من الشك فيصل
وقال في مادة (ب زل) ومن الجاز : بزل الأمر والرأى : استنحكم ، وأمر
بازل . وتقول خطب بازل ، لا يكفيه إلا رأى قارح ، وإنه لذو بزلء ، أي ذو
صريرة محكمة ، وهو نهاض ببزلء أي بخطئة عظيمة . قال :

إني إذا شغلت قوماً فروجهم رحب المسالك نهاض ببزلء

(أقول) ومعنى يبيّ الفائنك أن صاحبه إذا استشاره فقال له : امرني --- أي
أشر عليّ --- لا يقول له افعل ماشاء إغراضاً عن نصيحه أو عجزاً منه ، بل يفري
أي يقطع له الرأى المحكم بخطئة بزلء أي قوينة محكمة تخرجه من الشك والتردد
وتكون فيصلاً أي فاصلة بين الخطأ والصواب . والبزلء وبزول الأمر والرأى مأخوذ
من بزول نلب البعير وهو أن يلقح ويخرج عند دخوله في السنة التاسعة فهو بازل
ولذلك أطلقوا لقب البازل على الرجل القوي المحكم التجربة

﴿ قالوا أرجه ^(١) وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ أي قال الملأ لفرعون

(١) في هذه الكلمة عدة قراءات لفظية محضة ، سببها اختلاف لهجات العرب
في إنبات الهمزة وحذفها تخفيفاً وقد بينها السيد الألو سي في روح البيان مع تعليلاتها فقال
وأصل أرجه أرجه بهمزة ساكنة وهاء مضمومة دون واوهم حذف الهمزة
وسكنت الهاء لتشبيهه المتفصل بالمتصل وجعل أرجه كابل (كذا) في إسكان وسطه
وبذلك قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على أنه من أرجأت ، وكذلك قراءة ابن كثير
وهشام وابن عاصم « أرجهوه » بهمزة ساكنة وهاء متصلة بواو الأشباع وقرأ نافع في
رواية ورس وإسماعيل والكسائي « أرجه » بهاء مكسورة بعدها ياء من أرجئت =

حين استشارهم بقوله « فإذا تأمرون ؟ » أرجه أى أرجىء وأخر أمره وأمر أخيه ولا تفصل فيه بآدى رأى وأرسل فى مدائن ملكك رجلاً أو جماعات من الشرطة والجند حاشرين أى جامعين سائقين للسحرة منها - فالخشر الجمع والسوق - وإنما يوجد السحرة فى المدائن الجامعة الأهلة بدور العلم والصناعة ، فإن ترسلهم ~~ب~~ يأتوك بكل ساحر عليهم ~~ب~~ بفنون السحر ماهر فيها وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى فلا يفتن به أحد .

قرأ الجمهور (ساحر) بصيغة اسم الفاعل ، وحزرة والكسائى هنا وفى يونس (سحار) بصيغة المبالغة ، له وجاء ذلك بالإماله وعدمها وبها قرأ الجميع فى الشعراء ورسهما فى المصحف الامام واحد هكذا (سحر) ليحتمل القراءتين ووجهها أن فرعون لما طلب كل ساحر عليهم فى مدائن البلاد خص بالذكور المهرة المتميزين فى السحر المكثرين منه - أو أن بعض ملئ طلب هؤلاء فقط لأنهم أجدر بإتيان موسى بمثل ما جاء به من الأمر العظيم ، كما حكى الله تعالى عن فرعون فى سورة طه (قال أجتئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلما أتيتك بسحر مثله) وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين فى العلم لعله يوجد عند بعض المقتصدين أو المقلدين من السحر ما لا يوجد عند المكثرين منه - فبينت القراءتان كل ما قيل مع الإيجاز البليغ

== وفى رواية قالون إن أرجه بحذف الياء للاكتفاء عنها بالكسرة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان أرجه بالهمزة وكسر الهاء وقد ذكر بعضهم إن ضم الهاء وكسرها والهمز وعدمه لغتان مشهورتان ، وهى همامتان ، أو الياء بدل من الهمزة كتوضأت وتوضيت ؟ قولان . وطعن فى القراءة على رواية ابن ذكوان فقال الحوفي : إنها ليست بجيدة وقال الفارسي إن ضم الهاء مع الهمزة لا يجوز غيره وكسرها غلط لأن الهاء لا تكسر إلا بعد ياء ساكنة أو كسرة . وأجيب كما قال الشهاب عنه بوجهين أحدهما : أن الهمزة ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصين فساكن الهاء وليت الجيم المكسورة فلذا كسرت والثانى أن الهمزة عرضة للتغيير كثيراً بالحذف وإبدالها ياء إذا سكنت بعد كسرة فكأنها وليت ياء ساكنة فلذا كسرت ، وأورد على ذلك أبو شامة أن الهمزة تعد حاجزاً وأن الهمزة لو كانت ياء كان الختار الضم نظراً لأصلها ، وليس بشئ . بعد أن قالوا إن القراءة متواترة وما ذكر لغتنا بآية عن العرب اهـ .

(١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

﴿ وجاء السحرة فرعون قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ أى وجاء فرعون السحرة الذين حشرهم له أعوانه وشرطته ولم يذكر الكتاب الحكيم ولا الرسول المعصوم عددهم إذ لا فائدة منه وكل ما روى فيهم من أنهم عشرات الألوف فهو من الأسرائيليات التي لا أصل لها عندنا ولا في التوراة التي بين أيديهم . فلما جاءوا قَالُوا لفرعون إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا وجزاء عظيمًا يكافئ ما يطلب منا من العمل العظيم إِنَّ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ لموسى . ذكر قولهم هنا بأسلوب الاستئناف البياني كأنه جواب سائل ماذا قَالُوا ؟ وجاء في سورة الشعراء بصيغة الشرط والجزاء (فلما جاء السحرة فرعون قَالُوا) وهو تفنن في العبارة قرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم (إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا) بهزة واحدة ، قيل إنه على الاخبار الدال على إيجاب الأجر وكونه لا بد منه . وقيل إنه على حذف همزة الاستفهام الذي يكثر في كلام العرب ، وهو المتبادر والمختار ليوافق قراءة ابن عامر بإثباتها هنا وهو ما اتفقوا عليه في سورة الشعراء

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى قال فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا نعم إِنَّ لَكُمْ لَأَجْرًا عظيمًا وإنكم مع ذلك الأجر المالى والمادى لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ من جنابنا السامى ، فيجتمع لَكُمْ المال والجاه وذلك منتهى نعيم الدنيا ومجدها ، أكدهم نيل ما طلبوه منه وما زادهم عليه تأكيذاً بعد تأكيّد لاهتمامهم بهذا الأمر وخوفه من عاقبته ، فانه لو قال لهم نعم ولم يزد عليها لأفاد إجابة طلبهم ، ولو قال فى منحة القر بى : وتكونون من المقر بين ، لكفى ولكنه عبر عنها بالجملة الاسمية المؤكدة بأن وبتمحلية الخبر باللام وبعطف التلقين أى عطف « وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » على

الجملة المقدرة التي دل عليها حرف الإيجاب « نعم » وهي « إن لكم لأجراً » فما عطف عليها إلا وقد قدر إعادتها . وفي سورة الشعراء زيادة « إذن » أي وإنكم في هذه الحالة وهي كونكم أنتم الغالبين دون موسى لمن المقرين وحذفها من هذه السورة دليل على أنه قالمهمة دون أخرى فأفاد أنه تكرر لهم الإجابة والوعد وذلك تأكيد آخر

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ استئناف بياني

كنظائره أي قال السحرة لموسى عليه السلام بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم : إما أن تلقى ما عندك أولاً ، وإما أن نكون نحن الملقين الماعندنا من دونك . أما تخييرهم إياه فليقتسمهم بأنفسهم ، واعتدادهم بسحرتهم ، وإدراجاً له ، وإظهاراً لعدم المبالاة به ، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصر بما يقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه ، وما قيل من إن علة التخيير مراعاة الأدب لوجهه الأبتة ، بل مقامهم بخسرة ملكهم الذي يدعى الألوهية والربوبية فيهم ومطلبوه منه وما وعدهم إياه - كانه يقتضى أن يحتقروا خصمه لأن يتأدبوا معه كما يتأدب أهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض إذا تلاقوا للمباراة وهو ما وجه الزخشرى به التعليل ، وما قاله البيضاوي وغيره من أن علمته إظهار التجلد فضعيف إذ لم يروا من موسى شيئاً بأعينهم يقتضيه وإنما سمعوا أنه ألقى عصاه بخسرة فرعون فصارت ثعباناً فاستعدوا لمقابلته بعضى وحبال كثيرة يخيل إليه وإلى كل ناظر أنها ثعابين تسعى فيبطلون سحره بسحر مثله كما قال ملكهم (فلنأتينك بسحر مثله)

وذهب الزخشرى ومن تبعه إلى أن هذا التعبير عن إلقاءهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبت عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل « نحن » وتوكيد الضمير المستتر به . وفي سورة طه (إيمان تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) وفيه من التوكيد ما يدل على الرغبة في الأولوية التي صرحوا بذلك بها هنا . فلا فرق بين التعبيرين في المعنى فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل ، وقد اختلف فيه على أقوال ، ثالثها وهو الصحيح المعتمد أنه جائز وواقع فيما لا يخل بأداء المعنى ، ولا ينافي البلاغة العليا ، فكيف إذا كان مزيد تفنن قد يصل إلى حد الإعجاز فيها ، وذلك أن تأدية دقائق المعنى مكررة بألفاظ مختلفة في منتهى العسر وكثيراً

ما يكون منعذراً ، فلم يؤكّد الضمير المنصل ههنا بالضمير المنفصل «لنح» لما أفاد معنى الرغبة في أولية الالقاء المصريح به في سورة طه ، وبذلك علم أن مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وحد بينهما بجعل كل منهما دالاً على رغبة السحرة في التقدم والأولية ، فأى خطيب أو كاتب يقدر على إفادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به ، وأى مترجم تركى أو أفرنجى يفقه هذا ويؤديه في ترجمته للقرآن ؟

﴿قَالَ ألقوا﴾ وفي سورة طه (قال بل ألقوا) وهو أدل على رغبته عليه السلام في سبقهم للالقاء . ولعله نطق أولاً بما فيه الاضراب فقال بل ألقوا أنتم من دوني ثم أعاد كلمة ألقوا وسببها التأكيد رغبته والابتداء بعدم مبالاته . وفي سورتي يونس والشعراء (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة طه لأنه جواب لخطابهم إياه باسمه بالتخيير ، فاللقام في مقام الالقاء الاضراب حتماً . وأما إظهاره في سورتي يونس والشعراء فسيببه أنه ليس فيها ذكر لبدء السحرة إياه وتخييرهم له فأول آية يونس (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا) وقبلها طلب فرعون للسحرة فلم يصرح باسم موسى لكان المتبادر أن الذي أمرهم بالالقاء هو فرعون حسب قاعدة هود الضمير إلى أقرب مذكور ، وكذلك آية الشعراء جاءت بعد ذكر طلب فرعون للسحرة وبجيتهم ، وسؤالهم إياه الأجر إن كانوا هم الغالبين وإيجابته إياهم ، فهي أولى من آية يونس بما ذكر . وأما زيادة (ما أنتم ملقون) فانها فائدة نافلة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون معاً عظم أمره وكان مجهولاً عنده ، وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية الإعراف فيجتمع بينهما .

وقد قيل كيف أمرهم موسى عليه السلام بالقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر ؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداءً وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاءوا لأجله ولا بدّ لهم منه ، وأراد التوسل به إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته ، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حثاه تعالى عنه في سورة يونس (قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ومثله توسل إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وآله إلى إظهار حقيقة التوحيد لبيدة الكواكب من قومه لما رأى كلام من النكوك والقمر والشمس بأذا فقال « هذا ربي » ثم تعقبه بما يدل

على كونه لا يصح أن يكون ربا أو اسماعه إياهم بعد إبطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين).

﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجلاؤا بسحر عظيم﴾ أي فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيمهم كما في سورتي الشعراء وطه سحروا أعين الناس الحاضرين ومنهم موسى عليه السلام ففي سورة طه (فإذا حبالهم وعصيمهم يحيل إليهم من سحرهم أنها تسعى) واسترهبوهم أي أوقعوا في قلوبهم الرعب والخوف كما قال تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ وأصل الإسترهاب محاولة الإرهاب وطلب وقوعه بأسبابه ، وقد قصدوا ذلك فحصل ، وجاءوا بسحر عظيم أي مظهره كبير ، وتأثيره في أعين الناس عظيم ، قال الحافظ ابن كثير : أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صفة وخيال . ثم ذكر عن ابن عباس «رض» أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً «قال» فأقبلت يحيل إليهم من سحرهم أنها تسعى . ثم ذكر عن ابن إسحق أن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر وأن الحيات التي أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمنال الجبال قد ملأت الوادي — وعن السدي أن السحرة كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً ، وعن القاسم بن أبي بزة ٧٠ ألفاً . وذكر غيره ما هو أعظم من ذلك من المبالغة والتهويل ولا يصح شيء من ذلك في خبر مرفوع وإنما هي من الأسرائيليات الباطلة المروية عن اليهود كآفة قسم . على أنه ليس في توراتهم منها شيء وإنما جاء في الفصل السابع من سفر الخروج منها أن فرعون دعا الحكماء والسحرة «فجعل عرافو مصر أيضاً يسحرون كذلك : طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصا هارون ابتاعت عصيمهم» وقد ذكر بعض المفسرين سر صناعتهم في ذلك بما أراه استنباطاً علمياً لا نقلاً تاريخياً . قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن : قال الله تعالى (سحروا أعين الناس) يعني موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيمهم تسعى ، وقال (يحيل إليهم من سحرهم أنها تسعى) فأخبر أن ما ظنوه سعيهاً منها لم يكن سعيهاً وإنما كان تخيلاً . وقد قيل إنها كانت عصياً مجوفة قد ملئت زئبقاً ، وكذلك الجبال كانت معمولة من آدم (أي جلد) محشوة زئبقاً ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسراباً وجعلوا أزواجا ملؤها نارا فلما طرحت عليه وحى الزئبق حركها

لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مموها على غير حقيقته ، والعرب تقول لضرب من الخلى مسحور أى مموه على من رآه مسحور به اه فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها ، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كاطلاق أبخرة أثرت في الأعين فجعلتها تبصر ذلك أو تجعل العصي والخيال على صورة الحيات وتحريكها بحركات خفية سريعة لا تدرکها أبصار الناظرين ، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء .

(١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هَٰؤُلَاءِ فَأَنقَلَبُوا صُغَرٍ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أى أوحينا إليه بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها فألقاها كما أمر فإذا هي تلقف ما يأتون به من الإلفك ذكر هنا وفي سورة طه أمره تعالى لموسى باللقاء . وفي سورة الشعراء أنه فعل الالتقاء الذى أمر به ولم يذكر الأمر فحذف من كل سورة ما أثبت مقابله في الأخرى وهو من قبيل الاحتباك في السور والإيجاز المؤدى للمعاني المتعددة بأخصر عبارة . قرأ حفص تلقف بالتخفيف من الثلاثي والباقون بالتشديد وأصله تتلقف وهو يدل على لقف شئ بعد شئ . ما معنى لقف العصا للإلفك ؟ الإلفك بالكسر اسم لما يؤفك أى يصرف ويحول عن شئ إلى غيره ويستعمل في التلبس والشر وقلب الحقائق ، وبالفتح مصدر أفك «بالفتح كجلس وضرب» ويقال أفك بالكسر «كتمب» قال في الأساس : أفكه عن رأيه صرفه ، وفلان مأفوك عن الخير . وقال الراغب الإلفك كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتمكة قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتمكات بالخطئة) وقال تعالى (والمؤتمكة أهوى) وقوله تعالى (قاتلهم الله أنى يؤفكون) أى يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق في

المقال إلى الكذب، وعن الجليل في الفعل إلى التبجح. ومنه قوله تعالى (يؤفك عنه من أفك * أني يؤفكون) وقوله (أجبتنا لنأفكننا عن آلهتنا) فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف عن الحق إلى الباطل - فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا أنه ويعلم منه ومن سائر استعمال المادة في القرآن وغيره أن الإفك يكون بالقول ومنه الكذب وما يؤدي المراد من الكذب كالايهام والتدليس والتجوزات والكنايات والمعارض التي توم السامع أو القارئ لها ما يخلف الحق وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون.

وأما لقف الشيء وتلقفه بالتشديد فهو تناوله بحذق وسرعة، كما قال الشاعر:

كرة حذقت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

قال الراغب لقفت الشيء ألقفه « أي من باب علم » وتلقفته تناولته بالحذق سواء في ذلك تناوله بالغم أو اليسد قال (فإذا هي تلقف ما يأفكون) أي ومن مجازة تلقف العلم أي تلقفه بسرعة وحذق. « وما » في قوله تعالى « ما يأفكون » إما موصولة وإما مصدرية وعلى الأول يخرج ما نقل عن ابن عباس وقسادة والحسن والسدي من كون عصا موسى عليه السلام التقمت حبال السحرة وعصيمهم واسترطتها أي ابتلعها فهو مما يحتمل اللفظ، والراجح أنه مأخوذ عن اليهود لما علمت آتفا من نص سفر الخروج فيه. وينافيه كونها مصدرية إذا المعنى عليه أنها تناولت عملهم هذا فأنت عليه بما أظهرت من بطلانه وحقيقة الأمر في نفسه بسرعة، فإن كان إفكهم عسارة عن تأمير أحداهم في الآعين فلتلقفها إياه عبارة عن إزالته وإبطاله وروية الحبال والعصى على حقيقتها - وإن كان تحريكها بها بحركات خفية سريعة فكذلك - وإن كان قد حصل بحملها بحجوة مخشوة بالزئبق وتحريكها إياها بفعل الحرارة سواء كانت ناراً أعدت لها أم الشمس حين أصابتها فلتلقفها لذلك يجوز أن يكون بعمل من الحيلة أخرجت به الزئبق من الحبال والعصى لانهكشت به الحيلة. قال الشيخ محي الدين بن عربي مامعناه أو محصله على ما تذكر إن إبطالها لسحر السحرة أنه ترتب على إلقائها أن رأى الناس تلك الحبال والعصى على أصلها ولو ابتلعها لبقي الأمر ملتبساً على الناس إذ قصاره أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمراً غريباً ولكن أحد الغريبين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم، وهذا لا يتأني كونهما من جنس واحد، ولكن زوال غشاوة السحر ونخبيلها حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التي ألقاها

السحرة ليست إلا حيالا وعصيا لا تسقى ولا تتحرك ، وإن عصا موسى لم تنزل حية تسقى — هو الذى ماز الحق من الباطل ، وعرفت به الآية الإلهية ، والحيلة الصناعية . وكل ما فى الأمر أن عصا موسى أزال هذا التخيل بسرعة وهو معنى اللطف ولكن لا نعلم بماذا كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية حقيقة لا أمر صناعي حتى نعرف صفته وحقيقته .

وقوله تعالى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ اظهر فى هذا المعنى منه فى ابتلاع العصا للحبال والعصى إذا فسرت ألفاظه بمعانيها الحقيقية فالذى بطل كان عملا عملوه ، وكيدا كادوه ، وليس شيئا ماديا أوجدوه ، كما علم من سورة طه وسورة يونس ، أى ثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل وذهب تأثيره ﴿ فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ أى قلب فرعون وملؤه فى ذلك الجمع العظيم الذى كان فى عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم ضربه موسى موعدا لهم بسؤالهم كما بين فى سورة طه (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضعى) لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجسار الناس ، ولم يقل فعلبهم موسى لأن ذلك لم يكن بكسبه وضده — وانقلبوا أى عادوا من ذلك الجمع صاغرين أذلة . بما رزقوا به من الخذلان والخيبة ، أو صاروا صاغرين . وإنما خص هذا بفرعون وملئه وكان المتبادر أن يكون للسحرة أولا وبالذات وفرعون بالتبع أو للجميع على سواهم . لأنه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله

﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ فسره فى السكشاف بقوله : وخروا سجدا كأنما أقامهم مائق لشدة خروهم ، وقيل لم يتم السكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا اه والمراد أن ظهور بطلان سحرهم وإدراكهم فجأة حقيقة آية موسى « ع . م » وعلمهم بأنها من عند الله تعالى لإصنع فيها مخلوق قد ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم إيمانا ، فكان هذا اليقين فى الإيمان البرهاني السكامل . والوجدانى الحاكم على الأعضاء والجوارح ، هو الذى أقامهم على وجوههم سجدا لله رب العالمين الذى بيده ملكوت المخلوق أجمعين ، ولم يبق فى أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظامة الدنياوية الزائلة ، ولا سيما وقد ظهر لهم صفاته أمام هذه الآية ، وفى آية سورة طه (فألقى السحرة ساجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) فالفاء

تدل على التعقيب ومثلها في سورة الشعراء .

(فان قيل) ولم قال هنا « وأتى » ولم يقل « فأتى » ليدل على التعقيب أيضاً (فالجواب) ان ألتى هنا عطف على قوله تعالى (فقلبوا) فهو يشاركه بما تفيد فآؤه من معنى التعقيب وكونه مثله أثراً لإبطال سحر السحرة ووقوع الحق بثبوت آية موسى (ع . م) ولو عطف عليه بالفاء لدل على كون السجود أثراً للغلب والصفار لا لظهور الحق وإبطال كيد السحر ، وحيثما يكون منافياً لما في سورتي طه والشعراء

﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ رب موسى وهارون ﴿ الجملة إما بيان مستأنف وإما حال من السحرة أى حال كونهم قائلين في سجودهم آمنا . . . ومثله في سورة الشعراء

(فان قيل) ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم آخر فيها اسم موسى وقدم اسم هارون (فالجواب) عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها ، ولا سيما وقد نزل قبلها ، فالإيمان برب هارون وموسى هو الإيمان برب العالمين لأنهما قالا لفرعون (إنا رسول رب العالمين) وقد بينا مراراً أن القرآن ليس كتاب تاريخ تدون فيه القصص بحكايتها كلها كما وقعت ويدكر كل ما قيل فيها بنصه أو بترجمته الحرفية — وإما هو كتاب هداية وموعظة . فهو يدكر من القصص ما ينبت به الإيمان ، ويتزكى الوجدان ، وتحصل العبرة ، وتؤثر الموعظة ، ولا بد في ذلك من تكرار المعاني مع التفتن في الأسلوب والتنويع في نظم الكلام وفواصل الآى ، وتوزيع الفوائد وتفرقةا ، بحيث يوجد في كل قصة مالا يوجد في غيرها

(١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضْلِبَنَّكُمْ أَجْمِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)

وَمَا تَنْقُمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ .

بعد ما كان من إيمان السحرة كان أول ما يخطر في البال ، ويتوجه اليه السؤال ، ما فعل فرعون وما قال ؟ وهاك البيان ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ قرأ حفص آمنتم بصيغة الخبر ويحتمل فيه تقدير همزة الاستفهام فهو قياسى يعتمد في فهمه على صفة الأداء وجرس الصوت فيه . وبذلك يوافق سائر القراء في المعنى فهو عندهم استفهام إنكارى توبيخى أثبت همزته حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب ، وروى في اثباتها تحقيق الهمزتين بالتفريق بهما وتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين ، وقرئ بذلك في أمثاله . والمعنى أآمنتم بموسى أو برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم وأمركم بذلك ؟ وفي سورة طه (قال آمنتم له) والضمير فيه لموسى قطعاً لأن تعدية الإيمان باللام تضمنين يفيد معنى الاتباع والخضوع المعنى ، وأآمنتم به متبعين له إذعانا لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ ولذلك يعمين استعمال هذا التضمين في الإيمان بالرسول والاتباع لهم كقوله تعالى حكاية عن فرعون (أؤمن بالبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) وقد اقتبس المعرى هذا الاستدلال في قوله أعباد المسيح يخاف محبى ونحن عبيد من خلق المسيح

ومثله قوله تعالى في سورة الشعراء حكاية عن قوم نوح عليه السلام (أؤمن لك واتبعك الارذلون ؟) وقوله حكاية عن كفار قريش (وقالوا ان تؤمن لك حق تفجر لنا من الأرض ينبوعا) وليس منه قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) بل هذه لام التقوية أى وما أنت بمصدق لنا . وقد بين فرعون علة إيمانهم بما ظنوه أو أراد أن يعتقدوه قومه فيهم فقال مواصلاً تهديده

﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أى ان هذا الصنيع الذى صنعتموه انتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلامكراً مكرتموه فى المدينة بما أظهرتم من المعارضة والرغبة فى الغلب عليه مع إصرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته ، زاد فى سورة طه (إنه لكبيركم الذى

علمكم السحر) فأجمعتم كيدكم لتنافي هذه المدينة لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين (بسحركم) وهو ما كان اتهم به موسى وحده — ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء كما حكاها تعالى عن فرعون وملئه في سورة يونس — ﴿فسوف تعلمون﴾ ما يحل بكم من العذاب، جزاء على هذا المكر والخداع، وبين ذلك بقوله: ﴿لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لا لصلبكم أجمعين﴾ أي أقسم لأفعلن كذا وكذا في عقابكم والتنكيل بكم وهو قطع الأيدي والأرجل من خلاف كأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، ثم لأصلين كل واحد منكم وهو على هذه الحالة المشوهة لتكونوا عبرة لمن يحدثه نفسه بالكيد لقاء أو بالخروج عن سلطاننا، والتفرغ عن الخضوع لعظمتنا. وقد تقدم الكلام على هذه الألفاظ في العقاب الذي حدد به البقرة من سورة المائدة. ومن المعقول ما قاله بعض المفسرين من كون اتهم فرعون للسحرة بالمكر والكيد له والمصريين، وبتواطئهم مع موسى للدلالة منهم لبني إسرائيل — إنما كان تمويهها على قومه المصريين لئلا يتبعوا السحرة في الإيثار، ويقع ما يخافه وقدره واتهم به موسى عليه السلام، فهو على غفوة على الخلق، وعلوه في الأرض، قد خاف عاقبة إيمان الشعب، واقتصر على ادعائه الربوبية إلى إيهامهم بأنه لا ينتقم من السحرة إلا حبا فيهم، ودفاعا عنهم، واستبقاه لاستقلالهم في وطنهم، وحفاظتهم على دينهم، وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفرادهم وتعاونوا على ضور هذه الحقوق، إلا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكا جبارين.

﴿مباحث لغوية بيانية فيما اختلف فيه التعبير من قصة موسى في السور المتعددة﴾ ومن مباحث المقابلة والتظاير بين سياق هذه السورة في القصة وسياق غيرها أنه زاد في سورة الشعراء اللام في حرف التسويف فقال: (فلسوف تعلمون) ولم يذكر هذا التسويف في سورة طه. قال الاسكافي في هذه اللام إنها تبدل على تقريب ما خوفهم به حتى كأنه حاضر موجود قال: «واللام للفعال والجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال إنما هو تحقيق الفعل وإدناؤه

من الوقوع كما قال تعالى (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) فجمع بين اللام وبين يوم القيامة على ما قاله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقد بينا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً لأحوال موسى عليه السلام في معناه وإبتداء أمره وانتهاء حاله مع عدوه فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له لتحقيق وقوعه — إلى اللفظ المفصح بمعناه ، ثم وقع الاختصار في السورة التي لم يقصد بها من اقتصاص الحال ما ذكر في سورة الشعراء على نقص ما في موضع البسط والشرح وهو التعريض بالوعيد مع الإفصاح به

(قال) « فأما في سورة طه فانه اقتصر فيها على التصريح بما أوعدهم به وترك « فسوف تعلمون » وقال (فلا قطعن أيديكم ...) إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ، ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها ، وهو قوله بعده (وتعلمن أينما أخذن عذاباً وأبقى) فاللام والنون في « تعلمن » لإدناء الفعل وتوكيده كما أتى باللام في طه (فسوف تعلمون) لإدناء الفعل وتقريره ، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل » اهـ

أقول : من المعلوم أن هذه اللام لام الابتداء وأن فائدتها الأولى المتفق عليها توكيد مضمون الجملة وقد سكنت الاسكافي عن التعليل بها على ظهورها وعدم خفاء شيء من شواهداها واقتصر على توجيه ما ذكروا لهذه اللام من معنى الحال إذ قلوا أن الفائدة الثانية لها تخلص معنى المضارع للحال : نقله ابن هشام في المغني وقال إن ابن مالك اعترضه بقوله تعالى (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) ويقول يعقوب عليه السلام فيما حكاه الله عنه (إني ليحزنني أن تذهبوا به) فإن الذهاب كان مستقبلاً فلو كان الوزن حالاً لزم تقدم الفعل في الوجود على فاعله مع أنه أثره (قال) والجواب عن الأول أن الحكم في ذلك اليوم واقع للاحالة فنزل منزلة الحاضر المشاهد — وإن التقدير في الثاني قصد أن تذهبوا به والقصد حال اهـ

وأنت ترى أن تعبير الاسكافي في هذه الفائدة أوسع من التعبير الذي ذكره ابن هشام وغيره وأبعد عن الاشكال فقد قال هو : إن معنى الحال فيها عبارة عن تحقيق الفعل وأدائاته من الوقوع ، وهو يصدق بجعل المضارع للحال حقيقة أو بجعل معنى الاستقبال فيه قريباً جداً حتى كأنه حال ، ولا يرد على هذا ما

يرد على قولهم : تخليص معنى المضارع للحال . وجوابهم عن الآيتين لا يظهر في تعبيرهم كما يظهر في تعبيره هو بغير تكلف ما .

ثم إنه لا بد في صدق التعبير بقوله (فلسوف) من كون فرعون ذكر في وعيدهم المستقبل أنه قريب وأنه قطعي لا مرد له ، سواء قاله على سبيل الإيضاح أو على سبيل الاستدراك . ورب جملة أو جملة طويلة تؤدي في القرآن بجملة قصيرة أو كلمة أو حرف في كلمة كاللام هنا ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن وهو ضرب من ضروب إيجازه اللفظية في غير الأسلوب والنظم ، وكلها دون إعجازه في بيان حقائق الشرع والعلم ، فكيف يمكن لبشر أن يؤدي هذه الدقائق بالترجمة ؟ ومثله في هذا ما سبق وما يأتي من تنمة هذه المباحث

(ومنها) - أى مباحث المقابلة والتنظير بين السور - أنه قال هنا (ثم لأصلبكم) وقال في طه والشعراء (ولأصلبكنم) ولا تعارض بين العاطفين فان العطف بالواو مطلق يصدق بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء بالتراخي الذي تدل عليه ثم وليس مقيدا بأحدهما ، وغايته أنه أفاد بهم معنى خاصا وهو ما تدل عليه من التراخي في الزمن أو الرتبة وكلاهما جائز هنا فانه بعد أن أفاد بقوله (فلسوف) وقوله (فلا قطعن) إن الوعيد سينفذ حالا في المجلس بقطع الأيدي والأرجل من خلاف - أفاد بقوله (ثم لأصلبكنم) أن التصليب نوع آخر ورتبة ثانية من التنكيل بهم ، وأسيئاخر عن المقطع في الزمن بأن يظلوا بعده مطروحين على الأرض إهانة لهم ثم يعلقون على جذوع النخل ويجوز الجمع بينهما . وكون التصليب في جذوع النخل فائدة أخرى زادها في سورة طه وتخصيصها بهما مناسب لنظمها وأملك تدرك ذلك بالدق كما تدرك به التفرقة بين محور الشعر أوردنا هذا البحث الفني وأمثاله من هذه القصة على اجتنابنا للاصطلاحات الفنية والعلمية في الغالب لثلاثة أسباب

(١) أن هذه المسائل مما يقع فيه الاشتباه ولم نر لها بيانا في التفسير المتداولة

حتى التي تمتاز بالعناية بعثها

(٢) بيان ما فيها من الدقة في تحديد المعاني ، وغرائب الإيجاز ، والاتفاق في مظنة الاختلاف ، وهو المجهود في كل موضوع طويل يعبر عنه بعبارات مختلفة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) إذ ليس في استطاعة بشر أن يحكي قصة كقصة موسى بعبارات مختلفة بمثل هذا التحديد المعاني مع

سلامتها كلها من التعارض والتناقض وغيرهما من أنواع الاختلاف وإن كتب ذلك كتابة وقابل بعضه ببعض منقحاله ومصححا، فكيف إذا كان يرتجل الكلام ارتجالا في أوقات مختلفة كما أن النبي ﷺ يتلو القرآن كل مرتجل له، وإنما كان يتلقاه فيؤديه كما تلقاه فيعجل به خائفا أن ينسى منه شيئا حتى لقن فيه نبأ عصمته من نسيان شيء منه، وأنه تعالى كفل حفظه (سنقرئك فلا تنسى) (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) وتلك ضروب من إعجازه اللفظي، ولضروب إعجازه المعنوي أكبر

(٣) إثبات عجز البشر عن ترجمة القرآن بلغة أخرى تؤدي معانيها كلها، وإذا كان من المتعذر أدائها بعلمها من لغتها، فترجمتها بلغة أخرى أولى.

وقد تصدى بعض المغرورين في هذه الأيام لترجمته باللغة التركية الفقيرة المملقة من عدة لغات لأجل أن يستعين بهذه الترجمة الملاحدة من زعماء الترك على ما يبتغون من سل الشعب التركي من الاسلام بأن يحمله على الاستغناء بهذه الترجمة عن كتاب الله المنزل من عند الله تعالى (بلسان عربي مبين) كما ثبت في عدة آيات

فإن اتخذه هذا الشعب المسلم بهذا سهل على هؤلاء الملاحدة أن يحولوا بينه وبين السنة النبوية العربية أيضا لأنها في المرتبة الثانية، ثم أن يحولوا بينه وبين آثار الصحابة والتابعين فإنها في المرتبة الثالثة — ثم أن يحولوا بينه وبين ما كتبه أئمة العلماء في التفسير وشرح الحديث وما استنبط منهما في أمور الدين من العقائد والآداب وأحكام العبادات والمعاملات. وبعد هذا يتحكمون في تفسير هذه الترجمة باسماء واء، ويوردون الشبهات على الاسلام المشوهة المأخوذة من ترجمتهم القابلة لذلك — وحينئذ يتم لهم ما يريدون من جعل الترك أمة لادينية. ولكن إن يتم لهم ذلك إن شاء الله تعالى، فالشعب التركي راسخ في الاسلام، ومتى عرف كيف هؤلاء الملاحدة المضلين فإنه ينبذهم نبذ النواة.

تتمة تفسير الآيات

وههنا يرد سؤال : ماذا كان من أمر السحرة عند ما سمعوا هذا التهديد والوعيد، وهم أجابوا ذلك الجبار العنيد ؟ وجوابه هنا ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منتقمون ﴾ يجوز أن يكونوا قد عنوا بقولهم هذا أنفسهم وحدها وأرادوا أنهم

لا يبالون ما يكون من قضائه فيهم وقتله لهم لأنهم راجعون إلى ربهم ، راجون مغفرته ورحمته بهم ، وحينئذ يكون تعجيل قتلهم سبباً لقرب لقاءه ، والتمتع بحسن جزائه ، ويجوز أن يكونوا قد عنوا أنفسهم وفرعون جميعاً وأرادوا أننا وإياك سننقلب إلى ربنا ، فلئن قتلنا فما أنت بخالد بعدنا ، وسيحكم عن رجل يذله بينك وبيننا ، وفيه تعريض بكذبه في دعوى الربوبية ، وقصص يحوي إشارات ما عند الله تعالى على ما عندنا من الشهوات الدنيوية ، وفي سورة الشعراء (قالوا لا خير إنا إلى ربنا نقليون) إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وهو يؤيد المعنى الأول ولا ينافي الثاني لأنه يشمل الأول

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ قال الراغب : انقمت الشيء ونقمته (أي من بابي فرج وضرب) إذا أنكرته إما باللسان وبما بالعقوبة قال تعالى (وما تقوموا إلا أن أغناهم الله) (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) (هل تنقمون منا) الآية والنقمة العقوبة قال (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم) الخ وتفسيره هذا لنقم أدق وأشمل من قول المفسرين في الأساس : وانقمت كذا — أنكرته وعيته . فانه لم يذكر إلا القول منه وقد استشهد له بقوله تعالى (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا) وهو في أصحاب الأخدود وكان النقم منهم بالفعل لا بالقول ، فسبحان من لا ينسى ولا يغفل . وما ذكره السحرة من نقم فرعون منهم كان بالقول وهو الاستنكار التوبيخ لا لعلمهم والهمة فيه والوعيد عليه . والظاهر أنه نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل واستنبط بعض المفسرين من قوله تعالى لموسى وهارون (أنما ومن اتبعكما الغالبون) أن فرعون لم يقدر على تنفيذ الوعيد فيهم . وأجيب عن هذا بأن المراد الغلبة بالحجة والبرهان وفي عاقبة الأمر ونهايته ، وإلا لم يقتل أحد من أتباع الرسل عليهم السلام ، وهو ضريح قوله تعالى في أول هذه القصة الذي ذكرنا أنه بيان لتعيجها ووجه العبرة فيها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعني فرعون وملاؤه ، ويؤيد ماورد في معناه من الآيات الكثيرة . كقوله تعالى حكايه عن شعيب في قصته التي مرت في هذه السورة أيضاً (وانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وقوله قبله في قصة لوط منها (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) وقوله تعالى في مكذي الرسل عامة بعد ذكر تكذيب قوم خاتم الرسل « من »

(كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ويجوز أن يراد بن اتبع موسى وهارون قومهما خاصة وهم الذين بشرهم موسى بأن العاقبة لهم بعد وعيد فرعون لهم عقب خبر السحرة وهو ما تراه في الآية الثانية بهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها . وهذه العاقبة قد بينها الله تعالى بقوله في سورة القصص (فأخذناه - يعني فرعون - وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين

﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ أي ربنا هب لنا صبراً واسماً نغنيضه وتفرغه علينا أفرغاً بتثيتك إيانا على الإيمان وتأييدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب ، حتى لا يبقى في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك ، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك . وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لا مرك وثريك ، مستسلمين لقضائك ، غير مفتونين بتبديده فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل . جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والاسلام

يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر - تنكيره والتعبير عن أيشائه بالأفراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإيمان فأخذناه من النقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس وهو عبادة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمساكنة بغير تهرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالإيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوى هذه الصفة في النفس ، ومأخذ من النقل آيات كقوله تعالى ، في بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة (٢٩ : ٢٩) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقوله فيهم (وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر) ومما يناسب المقام قوله (فلا تخافوهم وخافون أن كنتم مؤمنين)

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعلمها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبراً على مشاق الحرب من غيرهم ، ولذلك يحرص أوسع الناس علماً بستان الخلق ، وأشدهم عناية بفنون الحرب ، كالشعب الألماني - بالمحافظة على الدين في جيشهم . ولايرأس بلمارك مؤسس وحيدتهم

ووزيرهم الأعظم بل أكبر ساسة أوربة في كلمة في هذا المعنى أثبتناها في المجلد الأول من المنار من ترجمة الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى عن كتاب (وقائع بسمارك ومذكراته) التي نشرها كاتم سره مسيو بوش بعد موته نكتفي منها هنا بقوله «جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه : كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئا فشيئا كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هنالك أمل في الجزاء والمكافأة (أي في الدنيا) ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الإيمان — ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحدا مهممنا يراه وهو يجالده ويموت وإن لم يكن قائده يراه

فقال بعض المراقبين أظن سعادتك أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس : ليس هذا من قبيل الملاحظات ، وإنما هو شعور ووجدان ، هو بواذر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو لاحظوا لغتدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان ، هل تعلمون انني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ، أو كيف يحسمون غيرهم على أداء ما يجب عليه — إن لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحى سماوي ، واعتقاد بالذي يجب الخير ، وحاكم ينتهي إليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة ؟ ثم أطل في ذلك بأسلوب آخر صرح فيه بأنه لولا عقيدته الدينية لما خدم سلطانه وعاهله (الإمبراطور) ساعة من الزمان الخ ما قاله فراجع في محله (١)

(١٣٦) وَقَالَ الْمَلَأَمِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٣٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ

أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَلَى رَأْسِكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

خاف ملاً فرعون عاقبة تركه لموسى حراً مطلقاً في مصر فكأموه في ذلك وقد
أخبرنا الله تعالى بما قالوه له، وما أجابهم به وما كان من تأخير جوابه في موسى وقومه
من نصحه لهم وما دار بين موسى وبينهم في ذلك فقال :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : أتندر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك
وأهلكك ؟ ﴾ أى قالوا له : أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين لتكون عاقبتهم أن
يفسدوا قومك عليك في أرض مصر يادخلهم في دينهم، أو يجعلهم تحت سلطانهم
ورياستهم، ويتركك مع أهلك كالشيء اللقأ، فيظهر للمصريين عجزك وعجزها، وقد
رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة — إذ الظاهر من السياق أن هذا القول كان بعد
قصة السحرة — وسيأتى ما فيه. وجمهور المفسرين على المراد بتركه وأهلكه عدم عبادته
وعبادتها، وقرأ ابن عباس (وإلهتك) أى عبادتك. ومن المعلوم من التاريخ المستمد
من العاديات المستخرجة من أرض مصر أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس
واسمها في لغتهم (رع) وهو متضمن في لقب فرعون فهو عندهم سليل الشمس وابنها.
وسنقل بعد جوابه لهم أثراً يدل على ذلك ويذكر فيه بعض هذه الآلهة .

﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ﴾ أى قال مجيهاً للملأ : سنقتل أبناء
قومه تقيلاً ماتنا سلوا - فتعبيده بالتقيل يدل على التكثير والتدريج - ونستبقى نساءهم
أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادته حتى ينقضوا ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وإنا
مستعلون عليهم بالعلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يستطيعون إفساداً
في أرضنا ، ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا. وفي سورة المؤمن (وقال فرعون ذروني
أقتل موسى وليدع ربه : إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)
وهو يدل على أنه كان لديه من يدافع عن موسى عن آمن به سرا ومن كان يحبه وإن
لم يؤمن به فقد قال تعالى له (وألقيت عليك محبة مني) وفيه تصريح بما كان له في أنفـس

المصريين من المحبة والاحترام. وقد حكى الله تعالى لنا دفاع واحد من آمن به فقال (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم . إن الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب)

والمرجح عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العاديات المصرية أن فرعون موسى هو الملك (منفتاح) وكان يقرب بسليل الآله (رع) وقد جاء في آخر الآثار المصرية الوحيد الذي ذكر فيه بنو إسرائيل (وهو المعروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ في متحف مصر) أن مصر هي السليقة الوحيدة للعبود (رع) منذ وجود الآلهة وأن « منفتاح » سليله أيضا وهو الجالس على سدة المعبود « شو » وأن الآله « رع » انتفت إلى مصر فولد « منفتاح » ملك مصر ورشيء له أن يكون مناضلا عنها فتخضع له الولاد دولة لا يرفع أحد من البدو رأسه فخصم له القديريون والحيثيون والكنعانيون وعسقلان وجزال وبنهم وفيه : وانفك الإسرائيليون فلا يزر لهم ، وأصبحت فلسطين خلية لمصر ^(١) والأراضي كلها مضبوطة في حفظه ، وكل اسم وعنه « اضبفه وأذله » الصيدين القب (منفتاح) سليل الشمس معطي المعيشة كل نهار مثل الشمس اه ^(٢) وما ذكر لا يثنائي ادعاءه الانفراد بالآلهية والرؤية العليا بعد . وقوله : فلا يزر لهم ، هو بمعنى قولنا انقطع دابرهم ، يستعمل في الحقيقة وفي المجاز من باب المبالغة أو بالنظر إلى المال ومن البديهي أن يخاف بنو إسرائيل هذا الوعيد ، وأن يطعهم موسى عليه السلام ، وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿ قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أي اطلبوا معونة الله تعالى وتأيدته لكم على ما سمعتم من الوعيد واصبروا ، ولا تجزعوا ، فإن سألتهم لماذا وإلى متى ؟ أقل لكم إن الأرض - جنسها : أو الأرض التي وعدكم ربكم إياها وهي فلسطين - لله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء يورثها من يشاء من عباده لا لفرعون ، فهي بحسب سنته تعالى دول والواقبة الحسنة التي ينتهي

(١) الخلية التي لازوج لها ، وهذا كناية عن كون فلسطين تحت كفاة مصر

وتصرف فرعونها ويؤيده ما يحكي بعد فليحفظ

(٢) تراجع ترجمه هذا الأثر في ص ٣٨٧ م ١٨ من المنار

اليها التنازع بين الأمم للمتقين، أى الذين يتقون الله بمراعاة سننه فى أسباب إرث الأرض كالاتحاد وجمع الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر على المسكاره والاستمانة بالله، ولا سيما عند الشدائد، ونحو ذلك مما هدى اليه وحيه وأيده التجارب. ومراده عليه السلام أن العقابة ستكون لكم بإرث الأرض ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى بإقامة شرعه، والسير على سننه فى نظام خلقه، وليس الأمر كما اتهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوى على قوته والضعيف على ضعفه، أو أن الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه، على عظمتهم وجبروتهم وظلمهم.

ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه ؟ وهل فهموها وتدبروها قدرها ؟ وبم أجابوه ؟ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ؟ يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئا، فهم يؤذيه ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيه من قبله أو أشد. وهذا الإيذاء مبين فى الفصل الخامس من سفر الخروج من التوراة ففيه أن موسى وهارون لما طلبا من فرعون إطلاق بنى إسرائيل لىكى يعبدوا ربهم ويعبدوا له فى البرية وينبحروا له، قال لهما : لماذا تعطلان الشعب عن أعماله، وأمر فرعون فى ذلك اليوم مسخرى الشعب ومديره أن يمنعوا من إعطائهم التبن الذى كانوا يعطونه إياه ليحمل به اللبن (الطوب النى) الذى كان مفروضا عليهم كل يوم وأن يكافوه جمع التبن من البلاد. ولا ينقصوا من عدد اللبن المفروض عليهم شيئا، فتفرق الشعب فى جميع أرض مصر ليجمعوا جذامة (*) عوض التبن فعجزوا عن تمام المقدار المفروض عليهم من اللبن والمسحرون يلحون عليهم : أكلوا فرية كل يوم كما كانت عندما كنتم تعطون التبن، فجاءه مديره بنى اسرائيل الذين ولاهم عليهم المسحرون لهم من قبل فرعون واستغاثوا فرعون نفسه قائلين (١٥) لماذا تصنع بعبيدك هكذا ؟ (١٦) إنه لا يعطى لعبيدك تبن وهم يقولون لنا اعملوا لبنا، وما أن عبيدك يضربون وشعبك يعاملون كذنبين (١٧) قال إنما أنتم مترفون ولذلك تقولون تمضى ونذبح للرب (١٨) والآن فامضوا اعملوا، وتبن لا يعطى لكم، ومقدار اللبن تقدمونه (١٩) فرأى مديرو بنى اسرائيل نفوسهم فى شقاء إذ قيل لا تفعلوا

(*) الجذامة بالضم مابقى من الزرع فى الأرض بعد الحصد

من لبسكم شيئا بل فريضة كل يوم في يومها (٢٠) وصادفوا موسى وهارون وهما واقفان
للقائمتين عند خروجهم من عند فرعون (٢١) فقالوا لها ينظر الرب ويحكم عليكما كما أفسدتما
أمرنا عند فرعون وعند عبده وجعلتما في أيديهم سيفا ليقتلونا انتهى المراد منه .

قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون
أى قال موسى عليه السلام إن المرجو من فضل ربكم أن يهلك عدوكم الذى سخركم
وأذاكم بظلمه ويجعلكم خلفاء في الأرض التى وعدكم إياها ، ويمنعكم فرعون من
الخروج إليها ، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها : هل تشكرون
النعمة أم تكفرون ؟ وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون ؟ ليجازيكم في الدنيا
والآخرة بما تعملون .

وقد عبر بـعسى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلموا ويتركوا ما يجب من العمل
أو لئلا يكذبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون
وقومه واستعظامهم لملكه وقوته ، وفي التوراة ما يؤيد هذا وما قبله .

جاء في آخر الفصل الخامس من سفر الخروج بعد ما نقلناه آنفا ما نصه :

(٢٢) فرجع موسى إلى الرب وقال يارب لماذا ابتليت هؤلاء الشعب لماذا بعثتني ؟

(٢٣) فإني منذ دخلت على فرعون لآتكم باسمك أساء إلى هؤلاء الشعب وأنت
لم تنقذ شعبك »

وفي أول الفصل السادس منه (١) فقال الرب لموسى : الآن ترى ما أصنع

بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقهم وبيد قديرة سيطردهم من أرضه » — وأعلمه

بأنه أعطى إبراهيم واسحق عبدا بأن يعطيهم أرض كنعان وأنه سمع أنين

إسرائيل الذين استعبدتهم المصريون فذكر عهده ثم قال (٦) لذلك قل لبني إسرائيل

أنا الرب لأخرجكم من تحت أثقال المصريين وأخلصكم من عبوديتهم وأفديكم

بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة (٧) وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم آلهة وتعلمون

أننى أنا الرب آلهكم أخرج لكم من تحت أثقال المصريين (٨) وسأدخلكم

الأرض التى رفعت يدي مقسما أن أعطيها لإبراهيم واسحق ويعقوب فأعطيها

لكم . يراى أنا الرب (٩) فكلم موسى بذلك بني إسرائيل فلم يسمعوا لموسى

لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة اه المراد منه ، وهو من ترجمة اليسوعيين

كالذى قبله . ويليه عودة موسى إلى فرعون ومطالبته باخراج بنى إسرائيل وامتناعه وإظهار الرب الآيات له واحدة بعد أخرى كما يأتي مجمل في الآيات التالية (فان قيل) ظاهر ترتيب الآيات هنا يفيد أن هذه المراجعة بين فرعون وملئه من جهة وبين موسى وبنى إسرائيل من جهة أخرى وقعت بعد قصة السحرة ، وسياق التوراة صريح في وقوعها قبلها وبعد تبليغ أصل الدعوة - فهل يجب ان نقول إن ظاهر السياق هنا غير مراد وهو معطوف بالواو التي لا تدل على الترتيب — أعنى قوله (وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه) الخ ليوافق التوراة وتتم به الحجة على رسالة نبيينا ﷺ من هذا الوجه ، وهو أنه كان أمياً لا اطلاع له على التوراة ولا غيرها من كتب أهل الكتاب ولا غيرهم ، وأنه لم يعلمه إلا بوحى الله إليه ؟ كما قال له تعالى عقب قصة نوح (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وما في معناه من قصة موسى في سورة القصص ؟

(قلنا) إنه لا مانع من هذا الجمع ولا تتوقف الحجة عليه ، فان القرآن مشتمل على حجج كثيرة من هذا النوع ومن غيره تدل على كونه وحياً من الله تعالى لا يقدر على مثله محمد الامى ﷺ ولا غيره من القارئین السکاتین أيضاً وهو على كونه كما قال مصداقاً لتكون تلك الكتب من عند الله تعالى أى فى الأصل قد قال أيضاً ان أهل التوراة أوتوا نصيباً منها وولسوا حظاً من نصيب آخر وأنهم حرفوا بعض ما عندهم منها ، وأنه هو أى القرآن مهيم عليها ، فما أقره منها فهو الذى لا شك فيه ، وما صححه بإيراده مخالفاً لما عندهم فهو الصحيح سواء كان بإيراده إياه مخالفاً لما فيها من بعض الوجوه ككون موسى هو الذى ألقى العصا فاذا هى حية وإذا هى تلقف ما يأفكون لاهارون كما فى التوراة . أو دلت قواعده أن نصوصه على امتناعه كما جاء فى أول الفصل الثامن من سفر الخروج من أو الرب جعل موسى إلهاً لفرعون ويكون أخوه هارون نبيه ١١ فأصول القرآن وكذا التوراة - تمنع أن يكون إله غير الله عز وجل . وقد ثبت فى توارىخ أهل الكتاب وغيرهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام قد فقدت وأن عزرا الكاتب هو الذى كتب الاسفار المقدسة بعد السبي البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو الذى استبدل الحروف السكندانية بالعبرائية ، على أن ما كتبه عزرا قد فقد أيضاً ولكن جميع نسخ التوراة الموجودة فى العالم مستمدة مما كتبه وفيها تحريف كثير لا يمكن أن يكون

من الأصل ويسمونه مشكلات يتكلمون الأجوبة عنها . وقد بيتنا نموذجاً منها من قبل ، ومنها ان الفصل الأخير من سفر التثنية وهو الأخير من التوراة قد ذكر فيه وفاة موسى عليه السلام وأنه لم يبق بعده نبي مثله ، والمرجح عندهم أن يشوع هو الذي كتبه على أن فيه ذكر يشوع ..

ومما يوضح معجزة القرآن فيما أخبر به عن التوراة ويؤكد خطأ المفسرين الكثيرين من المتقدمين والمتأخرين في تفسير بعضه وتعيين المراد منه لعدم اطلاعهم على ما عند أهل الكتاب منها ومن سائر كتبهم المقدسة وغيرها من التواريخ والعاديات المستخرجة من آثار قدماء المصريين والبابليين ، وإنما كان جل ما يعرفون عن بني إسرائيل ما سمعوه ممن أسلم منهم وما كل من أسلم منهم بحفيظ عليهم ، ولا بصادق أمين . ثم ما أخذوه عن كتب تاريخية غير موثوق بها ، فكان أكثر ما كتبوه في التفسير منها مشوها له وحجة لأهل الكتاب علينا . فإذا كان هذا حال علماءنا في أخبار أهل الكتاب بعد انتشار العلوم في الاسلام فكيف حال أهل مكة عند ظهوره ولم يكن فيها كتاب يقرأ ولا أحد يقرأ ويكتب ، قيل إلا ستة نفر من التجار كانوا ممن يقال فيهم اليوم « ينكون الخط » فأنى لمن كان أبعدهم عن ذلك وهو محمد بن عبد الله ﷺ ان يعرف هذه الدقائق المفصلة السالمة من الشوائب التي لا يصدقها العقل أو لا تتفق مع توحيد الأنبياء وفضائلهم لولا ما أنزل عليه من الوحي الالهي ؟

(١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ أَعْلَهُمْ
يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

هذه الآيات تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبلها وإنجاز وعد الله تعالى لبني إسرائيل بالاستخلاف في الأرض

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾
صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لآله لنا كيد مضمونها وتعميم شأنه وكيف لا

وهومن أظهر آياته سبحانه على تأييد رسله وقدرته على الإدلة للظالمين المستضعفين من الأقوياء الظالمين . وقد كثر استعمال مادة « الأخذ » في العذاب وما في معناه كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) (فأخذناه أخذاً وببلا) يعني فرعون موسى (فأخذهم أخذاً رابية) وآل فرعون قومه كما أطلقه المنسرون ، أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة وهم الملأ من قومه الذين كثر ذكركهم في قصته ، ووجه أنهم هم المذنبون المعاندون لموسى وإنما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لهم لأنهم كانوا موافقين ومقررين لهم على ظلمهم . وقد قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذه سنة من سنن الاجتماع العامة وسيأتى توجيه القول الأول

وأصل اللغة أن آل الرجل أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه ، وهو لا يضاف إلا إلى أعلام شرفاء قومهم وكبرائهم كالأنبياء والملوك والرؤساء ثم أطلق على أهل الاختصاص بهم أو جميع أتباعهم ، ومن هنا قال بعض العلماء إن آل النبي ﷺ يطلق على جميع أتباعه وإن هذا هو المراد بالصلاة على آل النبي في التشهد وغيره . قال الراغب : الآل قبل مقلوب عن الأهل ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والامكنة يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفاضل يقال آل الله وآل السلطان ، والأهل يضاف إلى الكل يقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا . وقيل هو في الأصل اسم الشخص ويصغر أو يلا ويستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً إما بقرابة قريبة أو بموالاتة قال عز وجل (وآل إبراهيم وآل عمران) وقال : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) قيل وآل النبي عليه الصلاة والسلام أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم ، وذلك أن أهل الدين ضربان ضرب متخصص بالعلم المتقدم والعمل المحكم ، فيقال لهم آل النبي وأمتة ، وضرب يختصون بالعلم^(١) على سبيل التقليد ، ويقال لهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يقال لهم آله ، فكل آل للنبي أمة له وليس كل أمة له آله . وقيل لجعفر الصادق رضى الله

عنه : الناس يقولون المسلمون كلهم آل النبي ﷺ ، فقال كذبوا وصدقوا ، فقيل ما معنى ذلك ؟ فقال كذبوا في أن الأمة كافتهم آلهم وصدقوا في أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته آلهم ، وقوله تعالى (رجل مؤمن من آل فرعون) أي من المختصين به وبشريعته وجعله منهم من حيث النسب أو المسكن أو من حيث تقدير القوم أنه على شريعتهم اه بعد هذا نقول إن « آل فرعون » أطلق في القرآن على أهل بيته خاصة في موضع واحد لا يحتمل غيرهم وفي موضع آخر محتمل لغيرهم فالأول قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) والثاني قوله (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) وأطلق كثيراً بمعنى ملته وخاصة أتباعه أو جملتهم كقوله (وأغرقنا آل فرعون) (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) (وإذ نجيناكم من آل فرعون) (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) (ولقد جاء آل فرعون النذر) كذلك كثير ذكره في إرسال موسى إليهم وما دار بين فرعون وبينه وهم أشرف قومه ورجال دولته كما تقدم ولولا أن ورد ذكر قومه في بعض الآيات لحملنا الآل في الآية التي نحن بصدد تفسيرها وفي أمثالها عليهم دون سائر قومه ، فقد قال تعالى في أول قصة موسى من سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون) وقال في سورة الدخان (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) الخ ومن الواضح أن عامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الأخذ بالسنين ونقص الثمرات ما لا ينال فرعون وأهل بيته وخاصة ملته ، فالمراد بآله قومه وهم أهل مصر في عهده ، وهم مؤخذون بظلمه وظغنيانه لأن قوته المالية والجندية منهم ، وقد خلقهم الله أحراراً وكرمهم بالعقل والفطرة التي تنكره الظلم والظغيان بالفرية فكان حقاً عليهم أن لا يقبلوا استعباده لهم وجعلهم آلة لظغنيانه وإرضاء كبريائه وشهواته ولا سيما بعد بعثة موسى ووصول دعوته إليهم ورؤيتهم لما أيده الله به من الآيات

وأما السنون فهي جمع سنة وهي بمعنى الحول والسكن أكثر ما استعمل في الحول الذي فيه الجذب كما قال الراغب وغيره ، أي إلا إذا ذكرت في مقام العدد والإحصاء . والأخذ بالسنين صريح في إرادة العقاب بالجذب والضيق ويؤيده نقص الثمرات ، وهل يدخل نقص الثمرات في عموم المراد من السنين أم هي خاصة بنقص الغلال التي عليها مدار الأقوات دون الفاكة التي لا

تكفي القوت وإن كان منها التخييل والاعتاب ؟ وجهان . ونقص الثمرات نص على شدة الضيق في كل حال ، وهذا إجمال يفسره قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وما هو ببعيد

وجملة معنى الآية : أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجذب وضيق المعيشة لعلمهم يشذرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم الجبار المتفطرس وعجز آلهتهم ولعلمهم إذا تذكروا اعتبروا واتعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه الأنفس إلى مرضاة رب العالمين والنضرع له دون غيره من المعبودات التي اتخذت في الأصل وسائل إليه وشفعاء عنده ، ثم صار ينسى في وقت الرخاء لأنه غيب لا يرى وتذكر هي لأنها مشاهدة بمحاسة لعابديها بل هي أو أكثرها دونهم لو كانوا يعقلون ، فإذا باغ الشرك من الناس أن يفسوا الله تعالى حتى في أوقات الشدائد فذلك هو الضلال البعيد

كذلك كان دأب آل فرعون بعد إنذار موسى إليهم ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾

من خصب ورخاء وهو الغالب ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ دون غيرنا ونحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس ﴿ وإن نصبهم سيئة يطبروا بموسى ومن معه ﴾ أي وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أي حالة تسوءهم كجلب أو جائحة أو مصيبة أخرى في الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار كأخيه هارون أو جميع قومه ، ويرون أنهم إنما أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، ويففلون عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى لأن هذا عندهم من الحقوق ، كما هو شأن الأفرنج في ظلمهم إن يستضعفونهم من أهل الشرق

أصل « يطبروا » يتطبروا فأدغمت التاء في الطاء وسبب استعمال التطير بمعنى التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير حتى أنها تزرعها إذا لم تمر من تلقاء نفسها فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت أي رجحت وقوع الخير والبركة والخير وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر والمصيبة ، ويسمى الطائر الأول السائح والآخر البارح ، ثم إنهم سمو الشؤم طيراً ومائراً ، والتشاؤم تطيراً ، ولذلك قال تعالى في رد خرافتهم

﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكنزهم لا يعلمون ﴾ ابتداء الرد عليهم

بأداة الافتتاح « ألا » للاهتمام به إذ المراد بها توجيه ذهن القارئ لما يليق بعدها حتى لا يفوته شيء منه ، أى ألا فليعلموا أن الشؤم الذى نسبوه إلى موسى وعدوه من آثار وجوده فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدراً من حسنة وسيئة ، بمعنى أنه وضع لنظام الكون سقناً تتكون فيها المسببات على قدر الأسباب ، ولكل منها حكم ، فبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم ، وهو امتحان واختبار لهم بما يسوءهم ليشربوا ويرجعوا عن ظالمهم وبغيتهم على بني إسرائيل وطغيانهم وإسرافهم فى كل أمورهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكم التصرف الرباني فى الخلق ولا أسباب الخير والشر الصورية ولا المعنوية وكون كل شيء فى هذا الكون بمشيئته تعالى وتدبيره

وفى الآية من نكت البلاغة أنه عبر عن مجيء الحسنة بإذا الدالة على تحقق الوقوع وعرفها ، لإفادة أنها الأصل الثابت الغالب بغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه ، وعبر باصابة السيئة بأن التى هى أداة الشك — أى إن شرطها إما مشكوك فى وقوعه وإما منزل منزلة المشكوك فيه لندرتة أو لسيب آخر — وذكر السيئة لإفادة أن وقوعها قليل وخلاف الأصل الغالب . وأفاد بالتعبيرين أن القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات ، وأن الحسنة على عظمتها وكثرتها ما زادتهم إلا غروراً بحالهم ، وتعادياً فى ظلمهم ، وإصراراً على بغيتهم ، وأن السيئة لم تفدهم عظة ولا عبرة ولم تحدث لهم توبة ، وهاك تفصيل ذلك

(١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّتَّصِلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

قلنا : إن القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات . ولم يدعنوا لما أيد الله به تعالى موسى من الآيات ، بل أصرروا بعد إيمان كبار السحرة على عد آيتى موسى من السحر ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

« مهما » اسم شرط يدل على العموم ، والمعنى : أنك إن قمبشنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستبدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أى تصرفنا بها بدقة ولطف فى التأثير ، عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك فى خدمتنا وضرب الابن لمبانينا — فما نحن لك بصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ أى فأنزلنا عليهم هذه المصائب والنكبات حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلا لا إجمالا ، لتكون دلائلها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها — فاستكبروا عن الإيمان به استكبارا ، مع اعتقاد صحة رسالته وصدق دعوته باطنا ، وكانوا قوما راسخين فى الاجرام والذنوب مصرين عليها فلا يهتدون عليهم تركها

جاء فى سورة الاسراء — أو بني اسرائيل — أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وقد عد هنامنها خمسا وهى المذكورة فى التوراة على غير هذا الترتيب وهو غير مراد وعطف بعضها على بعض بالواو لا يقتضيه :

فأما الطوفان فمعهناه فى اللغة ما طاف بالشيء وغشيه ، وغلب فى طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض وكذا كل ما ينزل من السماء بكثرة تغشى الأرض . قال ابن كثير اختلفوا فى معناه فمن ابن عباس فى روايات كثيرة : الأمطار المفرقة المتلفة للزرع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان المساء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن هشام الرقاعى حدثنا يحيى بن هيمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة (رض) قالت قال رسول الله (ص) « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن هيمان به وهو حديث غريب . وقال ابن عباس فى رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) اهـ

أقول : أما حديث عائشة المرفوع فهو ضعيف لا يثبت بمشله قول مخالف للتمتاد من اللغة — فيحيى بن هيمان الذى انفرد به هو الكوفي العجلي كان

من العباد ضعفه الإمام أحمد، وقال حدث عن الثوري بمعائب وقال غيره: إنه كان صدوقاً لا يعتمد الكذب ولكنه كثير الخطأ والنسيان وقد أصيب بالغالغ فتنغير حفظه وهذا هو الصواب. والمنهال بن خليفة المعجلي الكوفي الذي روى عنه ضعفه ابن معين وغيرهما، وقال البخاري حديثه منكر. وقال ابن حبان كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير فلا يجوز الاحتجاج به. وهذا طعن مبين السبب فهو مقدم على توثيق البزار له، وكذلك الحجاج وهو ابن ارطاة الكوفي القاضى مدلس ضعيف لا يحتاج به، وأولى الآثار بالقبول قول ابن عباس الأول الموافق المتبادر من اللغة أى طوفان المطر، وماعدا ذلك فمن الاسرائيليات وأولاه بالقبول ما لا يخالف القرآن من أسفار التوراة نفسها وهو ما نقله عنها:

جاء في الفصل التاسع من سفر الخروج: (١٣) ثم قال الرب لموسى بكرى فى الغداة وقف بين يدى فرعون وقل له: كذا قال الرب اله العبرانيين أطلق شعبى ليعبدونى (١٤) فانى فى هذه المرة منزل جميع ضربانى على قلبك وعلى عبيدك وشعبك لى تعلم أنه ليس مثلى فى جميع الأرض (١٥) وأنا الآن أمد يدى وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض (١٦) غير انى لهذا أبقيك لىكى أريك قوتى ولىكى ينهر باسمى فى جميع الأرض (١٧) وأنت لم تزل مقاوماً لشعبى (١٨) ها أنا (٩) ممطر فى مثل هذا الوقت من غد برداً عظيماً جداً لم يكن مثله فى مصر منذ يوم أسست إلى الآن ثم ذكر وقوع البرد مع نار من السماء ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر وان فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئته وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما باطلاق بني اسرائيل وقال فى ختام ذلك

(١) هذا نص ترجمة اليسوعيين التى نقلها وصححها الشيخ ابراهيم اليازجى وهى مخالفة فى المعنى لترجمة الامريكان ونصها: « ١٥ فانه الآن لو كنت أمد يدى وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الأرض » فالأولى جازمت بالضرب وبالوباء والثانية علقته بلو الدالة على عدم وقوعه المتبادر أنها هى الصحيحة المعنى، فتأمل ولا تغفل أن الترجمة التى صححها اليازجى خالية من الخطأ اللغوى كما يظن الغالون فيه، واقرب غلط فى هذا السياق أول الجملة ١٨ ها أنا .. فهى التنبؤية تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة فيقال ها أنا ذا (وقد تكتب هاء نداء اختصاراً) — وهى أنهم أولاً. وهذا الغلط قد تكرر فيها كغيرها وله أمثال

(٣٣) فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فكفّت الرعود والبرد ولم يمد المطر يهطل على الأرض « اه ولم يذكر المطر عند الوعيد بل ذكر هنا عند كف النكبة .

وأما الجراد فهو معروف وقد ذكر في التوراة بعد الطوفان ففيها بعدما تقدم أن فرعون قساقليه فلم يطلق بني إسرائيل فأخبر الرب موسى كما في الفصل العاشر بأنه قسى قلبه وقلوب عبيده ليربهم آياته ولكي يقص موسى على ابنه وابن ابنه (كذا) ما فعل بالمصريين وأمره بأن يندره بإرسال الجراد عليهم فيأكل ما سلم من الثبات والشجر فلم يحسه البرد ولا بيوتهم وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل - فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بني إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والأولاد والمواشي . فمد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب رجلاً شرقية ساقط الجراد على أرض مصر (١٥) فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شيء من الخضرة في الشجر ولا في عشب الصحراء في جميع أرض مصر وفيه أن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئهما وطلب منهما الصفح والشفاعة إلى الرب إلههما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعلاً فأرسل الله رجلاً غربية فحملت الجراد كله فألقته في بحر القلزم . وأما القمل - بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة - فمن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبى وهو الجراد الصغير الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير أنه دواب سود صفار ، وعن ابن جرير أنها دابة تشبه القمل تأكل الإبل ، ونقل عن بعض علماء اللغة البصريين أن القمل عند العرب الحنثان واحدها حنثانة وهى صفار القردان - ذكر هذا كله ابن كثير . وجزم الراغب بأن القمل صفار الذباب وهو موافق لما في التوراة ، ففيها أن البعوض والذبان كان من الضربات العشر التى ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بني إسرائيل مع موسى ففي الفصل الثامن من سفر الخروج أن موسى أنذر فرعون أن الذبان سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل في بيوت بني إسرائيل المقيمين في أرض جاسان وإن ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذبان .

وأما الضفادع فهي المعروفة لا خلاف فيها وفي أول الفصل الثامن من سفر الخروج (١) وقال الرب لموسى ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب أطلق شعبي ليعبدوني (٢) وإن أبيت أن تطلقهم فها أنا (ذا) ضارب جميع تخومك بالضفادع (٣) فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر في بيتك وفي مخدع فراشك وعلى سريرك وفي بيوت عبيدك وشعبك وفي تنانيرك ومعاجنك « الخ وكذلك كان . ولكن فيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك وأصعدوا الضفادع ، وأن فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابته إلى ذلك قال (١٣) ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت (?) والأقبية والحقول (١٤) فجاءوها كواماً وأنتنت الأرض منها » وأما الدم ففسره زيد بن أسلم بالرعاف وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان في مياه المصريين وهو موافق لما جاء في التوراة وهو فيها أول الضربات العشر التي أنزلها الله على فرعون وقومه بعد انقلاب العصا ثعباناً . ففي الفصل السابع من سفر الخروج : أن الرب أمر موسى أن يندفر فرعون ذلك ففعل (١٩) ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وأنهارهم واخلجهم ومناقهم وسائر مجامع مياههم فتصير دماً ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة » وفيه أن موسى وهارون فعلا ذلك وأن سمك النهر مات وأنتن النهر فلم يستطع المصريون أن يشربوا منه ، وفيه أن سحرة مصر فعلوا مثل ذلك (٢٢) وإن الدم دام سبعة أيام

هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن من الآيات التسع التي أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام وليس فيها شيء من المبالغات التي في التوراة فلا هو ينفيها ولا يؤيدها ، ومقتضى أصول الإسلام الوقف فيها إلا ما دل دليل من القرآن على نفيه كما تقدم . وفيها أن من تلك الآيات أو الضربات (البعوض) وذلك أن هارون ضرب بأمر الرب تراب الأرض « فسكان البعوض على الناس والبهائم ، وكل تراب الأرض (؟) صار بعوضاً في جميع أرض مصر » كسدا في ٨ : ١٧ خر) وفيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك ١١ (ومنها الوباء) وقع على دواب المصريين وأنعامهم فماتت كلها من دون مواشي الإسرائيليين فانه لم يمت منها شيء (ومنها البثور والقروح المستفخة) أصابت الناس والبهائم — ومن أين جاءت البهائم بعد

أن ماتت بأسرها؟ (ومنها الظلام) غشى جميع المصريين ثلاثة أيام كان
 الاممرائييون فيها يستمعون بالنور وحدهم (ومنها إمامة جميع أبكار الناس والبهائم)
 وهي الضربة المباشرة ففيها « وقال موسى كذا قال الرب إني نحو نصف الليل
 أجتاز في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على
 عرشه إلى بكر الأمة التي وراء الرحي وجميع أبكار البهائم (من أين جاءت بعد أن
 ماتت منذ أيام؟) ويكون صراخ عظيم في جميع أرض مصر لم يكن مثله (١١: ٤-٦ آخر)

(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُوسَى اأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
 عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ
 (١٣٥) فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 عَنْهَا غَافِلِينَ

بعد بيان تلك الآيات ذكر ما كان من تأثيرها وتأويلها معطوفا عليها فقال عز وجل
 ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك: لننكشف
 عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ﴾ قال في الأساس : ارنجز
 الرعد إذا تداوك صوته كارتجاز الرجز .. والبحر يرتجز بأذيه أى موجه... فإذ الرجز
 تدل في أصل اللغة على الاضطراب ، كما قال الراغب وهو يكون في النفس كما يكون
 في الأجسام ، ومنه قوله تعالى في وصف الماء الذي أنزله على المسلمين في بدر (ويذهب
 عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته لهم بأن يأخذهم العتاش فلا يستطيعون الصبر على
 القتال ، وقيل غير ذلك . وقد يكون في الصوت ، ومنه الرجز في الشعر سمي بما كان لهم
 من اضطراب الصوت في إنشاده ، وقد سمي عذاب قوم لوط رجزا بقوله تعالى في سورة
 العنكبوت (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) وفي

سورتي سباً والجائفة انذار للكافرين بعذاب من رجز أليم. وفسر الرجز هنا بالعذاب وروى عن قتادة وفيه حديث مرفوع عن عائشة عند ابن مردويه، وعن ابن عباس وسعيد بن جببر أن المراد به الطاعون. وكأنهما أخذاه من حديث أسامة بن زيه مرفوعاً « الطاعون رجز أرسل على بنى إسرائيل — أو على من كان قبلكم — فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدسوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » رواه مسلم عنه بهذا اللفظ وألفاظ أخرى بمعناه منها « الطاعون آية الرجز ابتلى الله به عز وجل أناساً من عباده » الخ وفي رواية له « هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بنى إسرائيل أو ناس كانوا قبلكم » الخ وأوله في بعضها « أن هذا الطاعون » الخ ورواه أحمد والنسائي ومصنفو التفسير المأثور عنه وعن سعيد بن مالك وخزيمة بن ثابت ووجه في اللغة أن الطاعون من الأوبئة التي تضطرب لها القلوب لشدة فتكها وذكر المفسرون تفسير قوله تعالى من سورة البقرة (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية — إلى قوله — فأنزّلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وهو يصدق بطائفة من بنى إسرائيل ، وقد نزل الطاعون بهم كغيرهم مراراً

ولا يوجد حديث مرفوع يدل على أن الطاعون هو المراد بالرجز في الآية التي نفسرها ، وضربة القروح المذكورة في التوراة يجوز أن تكون هي الطاعون ، وروت الأبقار يحتمل أن يكون بالطاعون أيضاً

والمبتادر من عبارة الآية أن المراد من الرجز جنسه وهو كل عذاب تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعاشهم وهو يشمل كل نقمة وجائفة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون كالحبس المبينة في هذا السياق . وفي التوراة أن فرعون كان يقول لموسى عند نزول كل منها ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده بأن يرسل معه بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم ويدبحوا لهم يشكت فإذا أريد بالرجز أفراد وافق التوراة في أن فرعون وملأه كانوا يطلبون من موسى عند كل فرد منها أن يدعوه بكشفها عنهم ، ولغظه « لما » لا يمنع من ذلك كما صرح به المفسرون الذين قالوا بهذا ، وأن أريد به جملة ومجموع أفراد أو فرد آخر غير ما تقدم فالمبتادران يكون طلب كشفه قد وقع مرة واحدة ، والأول أظهر ويرجح التبعير عن تكهيم بصيغة

المضارع (ينكثون) فانه يدل على الاستمرار ومعنى النظم الكريم : ولما وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب المذكور في الآية السابقة فاضطربوا اضطراب الارشية في البئر البعيدة القعر ، وحاصوا حيصة البحر فوقوا في حيص بيص . وهو ما يدل عليه تسمية ذلك العذاب بالرجز . قالوا عند نزول كل نوع منه بهم : يا موسى ادع لنا ربك واسأله بما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لإنقاذ قومك ليعبده وحده — فالنبوة والرسالة عهد من الرب تعالى لمن اختصه بذلك يدل عليه قوله تعالى لإبراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين) أو ادعه بالذي عهد به إليك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء — أن يكشف عنا هذا الرجز ونحن نقسم لك لأن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل قال تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوهم إذا هم ينكثون ﴾ أى فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوهم ومنتهون اليه في كل مرة منها . وهو عود الحال إلى ما كانت عليه . أو في مجموعها وهو الغرق الذي هلكوا فيه . إذا هم ينكثون عهدهم وينكثون في قسمهم في كل مرة . أى فاجأوا بالنكث ، وبأدروا إلى الخنث ، بلا روية ولا ريث . وأصل النكث في اللغة نقض ما غزل أو ما قتل من الحبال ليعود انكاثا وطاقت من الخيوط كما كان ، والانكاث ما نقض من الغزل ليغزل ثانية (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم في اليم — وهو البحر في اللغة المصرية الموافقة للعربية في الألف من مفرداتها ^(١) وهو يطلق على النيل وغيره — والفاء الداخلة على انتقمنا تفسيرية كقوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال) وعلل هذا الانتقام كما علل أمثاله بأنهم كذبوا بآيات الله وتكرر هذا اللفظ في قصص الأنبياء من هذه السورة أكثر من غيرها وإن لم يؤت بعضهم غير آية واحدة فإن

(١) قد اكتشف هذه الموافقة علامة العاديات المصرية صديقنا أحمد باشا كمال الاثرى المصرى صاحب المعجم الكبير للغة الهيروغليفية (رحمه الله تعالى) ومنه يعلم أن أصل اللغتين واحد ، أو أن أصل الالامتين واحد

تكذيب الواحدة كتكذيب الكثير و يقتضيه باتحاد العلة ، كما أن تكذيب أحد الرسل كتكذيب الجميع إذا كان بعد ظهور آيته ، وقيام الحجة على دعوته . وكذلك تكرر في القرآن كون الغفلة عن الحق ودلائله من صفات الكفار . وأما جمع الآيات هنا فلائها متعددة ، وأما عطف الانتقام بالفاء فليس تعليلا آخر وإنما هو تعقيب على كونه وقع بعد التكذيب بذلك الآيات كلها ، والمعنى أنهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين عما تقتضيه وتستلزمه من عذاب الدنيا والآخرة ، إذ كانت في نظر أكثرهم من قبيل السحر والصناعة ، وكانوا قد بلغوا فيهما الغاية ، ولذلك كانوا يكابرون أنفسهم في كل آية ، ويحاولون أن يأتى سحرهم وعلمهم بمثلها ، ويحاولون هزيمهم على تفوق موسى عليهم فيها ، ويعيدون إسناده كل شئ إلى ربه من قبيل إسنادهم الأمور إلى آلهتهم الباطلة بحسب التقاليد التي لم يكن حكماءهم يؤمنون بها ، وإنما يحافظون عليها لأجل خضوع عامة الشعب لها ، وأما من ظهرت لهم دلالة آيات موسى على الحق فمنهم من آمن جبرا ككبار السحرة ومنهم من آمن فكتم إيمانه كالنبي عارض فرعون وملأء في قتل موسى بالحجة والبرهان - كما في سورة غافر وذكرناه في هذا السياق - ومنهم من جحد بها لحض العلو والكبرياء ، كفرعون وأكابر الوزراء والوزراء .

ومن العبرة في مجازاة الحكومة الفرعونية للعوام على خرافاتهم أن حكومات هذا العصر توافق العامة على كل ما يعدونه من الدين وإن لم يكن منه كما تفعل الحكومة المصرية في بعض الاحتفالات الموسمية المبتدعة في الاسلام كالموالد بالتبع لجمهور الشعب من كبار علمائه إلى أجهل عوامه وهي مشتملة على كثير من المعاصي المجمع عليها المعلومه من الدين بالضرورة التي يعد مستحبا مرتدا عن الاسلام باتفاق المذاهب ، والجمهور غافلون عن ضرر هذه البدع التي جعلت من قبيل شعائر الاسلام بالاحتفال بها وشد الرحال اليها وإنفاق الأموال العظيمة في سبيلها ، وتعطيل كبرى شعائر الاسلام وهي الصلاة وإبطال دروس العلوم الدينية من المساجد التي فيها لأجلها ، كالمسجد الاحمدى في طنطا والمسجد الابراهيمى في دسوق . وأن أكبر ضررها تشويه الاسلام في نظر العقلاء من أولى العلوم الاستقلالية حتى كثر فيهم المرتدون عنه ، وصد غير المسلمين عن

الاسلام لأن القاعدة التي يجرى عليها عرف الأمم أن دين كل قوم ما هم عليه من التبعيدات والشعائر، وقد تكرر منا اقتناع بعض مستغلي الفكر من غير المسلمين بحقيقة دين الاسلام المقرر في القرآن الحكيم والسنة السنية وتنزهه عن هذه البدع فاقنعوا بأن ما قرروناه لهم حق ولم يقتنعوا بأنه دين الاسلام الذي عليه المسلمون، وقد سبق أن نقلت عن رجل من فضلاء الانكليز منهم أنه قال لي إن كان الاسلام ما ذكرت فأنا مسلم. وكان نعم بك شقير المؤرخ السورى يقول لي اكتب عقيدتك وأنا أمضى عليها بخطى أنها عقيدتي

(١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ
وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْخُسْفَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ

لما ذكر تعالى عاقبة تلك الآيات وتأويلها في المصريين عطف عليه بيان عاقبتها وتأويلها في بنى اسرائيل بهذه الآية الجامعة البليغة فقال عز وجل :

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾
تعدد في القرآن التسمير عن استخلاف الله قوما في أرض قوم بالإيراث أى وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بما تقدم بيانه جميع الأرض التي باركنا فيها بالغصب والخير الكثير مشارقها من حدود الشام ومغاربها من حدود مصر تحقيقا لوعدها (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وننعمن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)
روى عن الحسن البصري وقنادة أنهما قالوا في تفسير مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها : هي أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هي قرى الشام . وعن عبد الله بن شاذب : فلسطين ، وعن كعب الأحبار : قال إن الله بارك في الشام من الفرات إلى العريش . ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى في ابراهيم عليه السلام (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) وقوله تعالى (ولسميان الربح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) وقوله (تفسير القرآن الحكيم)

عز وجل (سبعان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)

وروى عن الليث بن سعد أنها أرض مصر التي كان فيها بنو إسرائيل، وأطلق بعض المفسرين القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعا. وربما يترأى أن إرادة أرض مصر هي الظاهر المتبادر من قوله تعالى في قوم فرعون من سورة الشعراء (٥٧: ٢٦) فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وقوله فيهم من سورة الدخان (٢٤: ٤٤) كم تركوا من جنات وعيون ٢٥ وزروع ومقام كريم ٢٦ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٧ كذلك وأورثناها قوما آخرين) لأن فرعون خرج عن معه من الملائكة والجند من مصر وتركوا ما كانوا فيه من النعيم، إلى الفرق المؤدى إلى الجحيم، ولكن هذا الوصف أظهر في بلاد الشام ذات الجنات الكثيرة، والعيون الجارية، ومعنى إخراج المصريين منها إزالة سيادتهم وسلطانهم عنها وحرمانهم من النعمة بنعيمها، فقد كانت بلاد فلسطين إلى الشام تابعة لمصر، وكان من عادة فرعون مصر كغيرهم من الأمم المستعمرة أن يقيموا في البلاد التي يستولون عليها حكاما وجنودا لئلا تنقض عليهم، وأن يسكنها كثيرون منهم يمتنعون بخيراتهم، وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض) جملة من الآثار المصرية القديمة الوحيد الذي وجد فيه ذكر لبنى إسرائيل تنطق بأن هذه البلاد كانت تابعة لمصر على أنه وجد في بعض التواريخ القديمة ما يدل على صحة ماقله بعض مفسرينا من أن موسى استولى على مصر وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن نذكره للاعتبار به وإن كان صدق الآيات غير مقصور على صحة مضمونه وهو ما جاء في حاشية لأحد مباحث الدكتور محمد توفيق صدق (رحمه الله تعالى) في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية، وهذا نصه (كافي ص ٤٤٦ و ٤٤٧ من مجلد المنار السادس عشر)

وجاء في كتاب (الأصول البشرية) صفحة ٨٨ مؤلفه لينج أن يوسفوس المؤرخ اليهودي الشهير نقل عن (مانيثون) هذه الرواية المصرية القديمة التي ملخصها «أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر — الذي فر إلى بلاد الحبشة — حكم مصر ١٣ سنة وبعد ذلك عاد إليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم قهزده وأخرجوه منها إلى بلاد الشام» وجاء في قاموس الكتاب المقدس

لبوست مجلد ١ ص ٤١٠ أن هيرودوتس المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد قال « إن ابن سيسوسترس ضرب بالعصى مدة عشر سنين لأنه رمى ربحه في النهر وقد ارتفعت أمواجه وقت فيضه بسبب توء شديد إلى دلو غير اعتيادي »
 ١ هـ ويقول المؤرخون إن ابن سيسوسترس هذا (وهو منفتاح الثاني) هو فرعون الخروج ويتخذون هذه العبارة إشارة إلى غرقه في زمن موسى . ولكن يرى القاري منها أنها لو كانت إشارة إلى الفرق لكان الفرق في النيل ^(١) ومن الرواية الأولى يعلم أن موسى حكم بعد فرعون ١٣ سنة في مصر . وهاتان الروايتان هما من أقدم الروايات المصرية وأصحها وربما كانتا الوحيدتين في هذه المسألة ، ولعل المصريين استغاثوا بمملكة الحبشة فأرسلت إليهم جيشاً فأوحى الله إلى موسى بالخروج حيثئذ من مصر وتركها لأهلها ، وعليه يجوز أن المصريين كنتموا خبر غرق ملكهم واستقبلوا به دعوى تقهقره إلى الحبشة وقالوا إنه هو الذي عاد بعد ذلك وأخرج موسى بالقوة سترأ غلزيهم وخذلأنهم وإرضاء للوكرم وأسر (جمع أسرة بالضم) هؤلاء الملوك ، وربما أنه لولا عظم هذه الحادثة وشهرتها بينهم لاشكروها بالمره
 « ومن ذلك تعلم أن الخروج لم يكن عقب غرق المصريين مباشرة كما يفهم من التوراة ولم يكن السبب فيه هذه الحادثة التي غرق فيها فرعون وجيشه بل كان بعد ذلك ببعض سنين

« ويرى المطلع على القرآن الشريف أن هاتين الروايتين صادقتان في مسألة غرق فرعون في النيل ومسألة حكم موسى في مصر ١٣ سنة . وأما الفرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلاً في سورة طه (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اذقيه في التابوت فاذا فيه في اليم) ثم قوله في آخر هذه القصة (فأتبعهم فرعون بجنوده ففشيه من اليم ما غشيهم) فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق في نفس اليم الذي ألقى فيه موسى وهو النيل ، ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة القصص وهو قوله (فاذا خفت عليه فألقه في اليم) ثم قوله فيها بعد (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم)

(١) ويجوز أن تكون عبارة هيرودوتس : رمى ربحه في البحر ، ثم ترجمت بالنهر ، لأن النهر الكبير يسمى بحراً ككل ماء كثير مستبحر

« وأما مسألة حكم موسى في مصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الفرق فهو أيضا المتبادر من نحو قوله تعالى (فأراد) أى فرعون (أن يستفزم من الأرض فأغرقناه - إلى قوله - وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) وقوله (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بني إسرائيل) ويجوز أن الشريعة أعطيت لموسى في الطور قبل تركه حكم مصر » وفي زمن موسى أعطى الله بني إسرائيل - بدلا عن مصر التي أمرهم بتركها - الممالك التي في شرق الأردن كما في كتبهم وفي زمن يشوع أعطاهم كل أرض كنعان إلا بعض أجزاء منها (يش ١٣ : ١) وهذه الأرض التي أعطيت لهم هي من أخصب أراضي العالم وأحسنها وهي المسماة عندهم بأرض الموعد لأنهم كانوا وعدوا بها من قبل .

« فأتى لمحمد صلى الله عليه وسلم علم ما يفناه من ذلك التاريخ وهو أجنبي عنه وعن قومه ؟ ومغاير للتوراة ومخالف لما يعتقدونه جميع اليهود والنصارى من قديم الزمان ، ولكنه موافق لأقدم الروايات المصرية وأصحابها التي لا يعرفها - حتى الآن - إلا واسعو الاطلاع من محققى المؤرخين ؟

« وأما مانيتو (Manetho) المذكور هنا الذى وافقت روايته ما جاء في القرآن الشريف فكان كاهنا لمعبد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس في القرن الثالث قبل المسيح وكان من أدق مؤرخي القدماء وأصدقهم ، وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها في كتابة تاريخه ، إلا أن هذا التاريخ فقد مع ما فقد في حريق مكتبة الاسكندرية ولم يبق منه سوى مقتطفات في بعض الكتب القديمة اليونانية . وقد أيد أكثر هذه المقتطفات ما اكتشف حديثا من الآثار المصرية والمكتوبات العتيقة مع أن آباء النصرانية كيوسيبوس حرقوا كمادتهم كثيرا مما نقلوه منها لتطابق نصوص العهد القديم كما ذكره العلامة لينج في كتابه « الأصول البشرية » ص ١١ منه » (١)

« وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » تمام الشيء وصوله إلى آخر حده ، وكلمة الله وعده لبني إسرائيل بأهلك عدوهم واستغفارهم في الأرض . وفي مجاز الاساس : وتم على أمر مضى عليه ، وتم على أمرك ، وتم

إلى مقصدك : والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشرائد التي كابدوها من فرعون وقومه إذ كان وعد الله تعالى إياهم بما وعدهم مفروغاً بأمرهم بالصبر والاستعانة به والنقوى له كما أمرهم بنبيهم عليه السلام تبليغها عنه تعالى راجع (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) الآية ، من هذا السياق ، وإذا كان قد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلمهم الله تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ، فلم يبق من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى لأنه قد تم ونفذ صدقاً وعدلاً .

(ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) التدمير بإدخال الهلاك على السلام والخراب على العاشر ، والعرش رفع المباني والسقائف للنبات . والشجر المتسلق كمرائش العنب ، ومنه عرش الملك ، والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولاً وبالأذات ماله تعلق بظلم بنى إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام ، فالأول كالمباني التي كانوا يبنونها للمصريين أو يصنعون اللبن لها ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه ليعرق به إلى السماء فيطلع إلى إله موسى ، والثاني كالكيد السحري والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته أو التشكيك فيها كما قال تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر) (وقال فرعون يا هامان ابنى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب — أسباب السموات — فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) والنتاب بمعنى الدمار

وأما أسباب هذا التدمير لذلك الصنع والعروش فأولها الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام من الطوفان والجراد وغيرهما — وتسمى فى التوراة الضربات وفيها من المبالغة فى ضررها وتخريبها ما أشرنا إليه وذكرنا بعضه — ويليهما إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم فى أعمالهم ، وثالثها هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم فى العمران — هذا هو المعروف منها ، وما ظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا أنفسهم فقد أنذرهم موسى عليه السلام كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته فكذبوا بالآيات وأصرروا على الجحود والاعتات

والعبرة فى هذه الآيات من وجهين (الأول) أن يتفكر تالى القرآن فى

تأثير الإيمان والوحي في موسى وهارون عليهما السلام إذ تصديا لأعظم ملك في أعظم دولة في الأرض قاهرة لقومهما ومعبدتهما منذ قرون كثيرة فدعواهم إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتمبيد بني إسرائيل وأنذارهم وهدداهم ، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات البينات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومهما من ظلمه وظلم قومه

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسوله من المسلمين أن يفتقلوا من التفكير في هذا إلى التفكير في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم - وأن لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فان قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجل أو رجلين على أعظم الدول لا تغلب ، إذا نصرناها الله ونحن مئات الملايين والله تعالى يقول (إن تنصروا الله ينصركم) ويقول (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

﴿ الوجه الثاني ﴾ أنه تجدد عندنا في هذا الزمان أعظمهم يتعاقب بهذه الأرض المباركة المقدسة وهو محاولة اليهود انزعاجها من أيدي أهلها العرب وتمازج الفريقين في التعارض والترجيح بين وعد الله لسكل منهما بهذه الأرض وما أنجزه لسكل منهما ، ومن المستحق لها في هذا العصر ، فليستأمل المعتبر في وعد الله تعالى بها لبني إسرائيل من ذرية إبراهيم ثم وعدمها وبغيرها للعرب من ذريته على لسان خاتم الرسل صلوات الله عليهم وعليهم أجمعين ، وآلهم الصالحين المصلحين . ولعنته وخرابه على الفاسدين المفسدين المصريين . فقد أنجز الله تعالى وعده للفريقين عندما كانوا متقين ، وأخطأ كل فريق منهم في عصر رسولهم فأدينهم الله تعالى بما هو منصوص في الكتاب المبين أو أدبوا إسرائيل الذين أخرجهم موسى من مصر أن تكون لهم تلك الأرض ، بغير عمل منهم ولا سعی ، فامتنعوا من قتال من فيها من الجبارين ، قالوا لموسى (إذا ذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون) فخرمها الله تعالى عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض كما عرض الغرور لبعض بني اسماعيل في عصر الرسول الأعظم بما كان من نصر الله تعالى لهم في غزوة بدر مع قلة العدد والعدد الزاد ، وظنوا أنهم ينصرون كما وعدوا ، وإن قصروا فيما أمروا ، فلما أصيبوا بما أصيبوا به في غزوة أحد تعجبوا واستنهموا ، فأجابهم الله تعالى بما علموا به أن وعده المطلق في قوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقوله

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) مقيد بما في الآيات الأخرى كقوله (ان تنصروا الله ينصركم) (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أجابهم بقوله (أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم) الى آخر ما فصلنا في تفسيرها مع سياقها من الجزء الرابع .

نعم ان الله تعالى أنجز وعده الاول لآبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بجعل هذه الارض لدريته ، فجعلها أولاً للمتقين من آل اسحق ، ثم نزعها منهم بظلمهم وافسادهم في الأرض مرة بعد أخرى . ثم اعطاها المتقين من آل اسماعيل ، ثم انتزع السلطان عليها منهم أيضاً بظلمهم لانفسهم ، وتجدد التنازع في رقبتهما بين الفريقين - بنى اسرائيل وبنى اسماعيل - باغراء الانكليز ؛ الذين استولوا عليها وأوقعوا الشقاق بين الفريقين فيها ؛ وهم أخذوا الخلق في ضرب الشعوب بعضها ببعض ، وستكون العاقبة للمتقين ، بحسب سنة الله في البشر أجمعين . فلا يفترون قومنا بالآوهام ، ولا يتكلمون على المنجربين بالاقوام ، ولا ينخدعون بعد بشفاشق الكلام ، ولا ينوطن الزعامة بأصحاب الانساب الفاقدين للعلم والاستقامة ، وسائر الأسباب ، ولا سيما من ثبتت موالاتهم لاعداء البلاد وسالبي استقلالها ، وواضعي الخطة الشيطانية لانتزاع رقبتهما من أهلها ، والقضاء عليهم بالانقراض منها ، بتعذر الحياة عليهم فيها ، لا بالابعاد القسرى عنها ، بأن يكون شأنهم في هذا كسكان امريكا قبل استعمار الانكليز وغيرهم لها .

ولا منجاة لعرب فلسطين من هذا الخطر العظيم الآتي من قبل شعبين إثنين هما أشد شعوب الأرض قوة وثروة ودهاء وكيداً وعلماً وصبراً وجللاً إلا بالتحاد مع سائر الشعوب والقبائل العربية على الاستبسال والاستقلال في الدفاع الحقيقي عن أمتهم وبلادهم . ومع سائر الشعوب الاسلامية في الدفاع المعنوي عن الأرض المقدسة والحرمين الشريفين اللذين لاستقلالهما ولاأمن عليهما ، مع إحاطة هذه القوة الاجنبية بهما ، ولكنهم لم يخطوا خطوة واحدة في طريق الوحدة العربية ، بل خطوا خطوتين واسعتين في سبيل الشقاق والتفرق بين الامارات المسلحة في الجزيرة العربية ، نفروا بهما أكبر الشعوب الاسلامية منهم

(الاولى) موالاة صاحب الحجاز الذي أعان الانكليز على فتح بلادهم ثم

كان هو واولاده مثبتا لافدائهم فيما جاؤوها ، وحائلا بينهم وبين سائرهما ، بأن أقروه على انتحاله لنفسه ملك البلاد العربية وعلى سعيه لاختضاع تلك الامارات لحكمه بالانكال على قوة الغاصب الاجنبية ، فلولا وجود أحد أولاده (عبد الله) في شرق الاردن من قبل الدولة الانكليزية الغاصبة لفلسطين والمنزعة للسيادة العربية منها لآمكن ان يتحد عربها مع عرب نجد الاقوياء على إقادها ، وكذا أهل العراق الذين سمى الانكليز ولده (فيصل) ملكا عليهم . بل لولا افتقاره هو بما فتوه به من تسميته ملكا للعرب وخليفة على المسلمين ، لما ثبتت في بلاد العرب قدم المستعمرين .

(والثانية) مبايعة جمهور كبير منهم له بالخلافة التي يترتب عليها - لو صحت كما يدعى ويدعون له - انه يجب على تلك الامارات شرعا أن تخضع لحكمه والاوجب قتالها واخضاعها بالقوة ، وهل كان في مقدورهم سعى الى شقاق وتفرق شر من هذا ؟ على أنهم كانوا متحدين فانقسموا وصاروا أحزابا متنازعة ، ففسأله تعالى تغيير الحال بخير منها وحسن العاقبة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(١٣٧) وَجُورُنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يُمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْجِلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا فُتِمَ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أُبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

﴿ قصة موسى مع بني اسرائيل ﴾

هذه الآيات وما بعدها شروع في قصة موسى عليه السلام مع قومه بني اسرائيل معطوفة على قصته مع فرعون وقومه على أكل وجوه العبرة مع السلامة من لغو القصص والتاريخ . قال عز وجل :

﴿ وجاوزنا بيني امرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم

قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ جاز الشيء وجاوزه وتجاوزته عباده وانتقل عنه . والعكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم ، ومنه العكوف والاعتكاف في المسجد وهو ملازمته لأجل العبادة . قرأ حمزة والكسائي يعكفون بكسر الكاف من باب جلس ويجلس والباقون بضمها من باب قعد وقعد يعكفون والأصنام جمع صنم وهو ما يصنع من الخشب أو الحجر أو المعدن مثالا لشيء حقيق أو خيالي أو مذكرا به ليعظم تعظيم العبادة ، واتخذ بعض العرب في الجاهلية صنما من عجوة التمر فعبدهوه ثم جاعوا فأكلوه . والفرق بينه وبين التمثال أن هذا لا بد أن يكون مثالا لشيء . وأنه قد يكون للعبادة وحيد يسمى صنما وقد يكون لازمة كالذي تراه على جدران بعض القصور المشيدة أو أبوابها أو في حدائقها ، وقد يكون للتعظيم والتكريم غير الديني كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار علماء الدنيا أو القواد والزعماء للذكور بشاريحهم وأعمالهم للاقتداء بهم ، ويكثر هذا في بلاد الأفرنج وبلادهم بعض بلاد الشرق كصفر ، فنصبت حكومتها تماثيل لبعض اصراء بيت الملك الحاضر وغيرهم من رجالهم . والفرق بين هذا التعظيم السياسي أو العلمي وبين تعظيم العبادة أن الغرض من الأول إما رفعة شأن الدولة وتمكين سلطانها في أنفس الأمة بمشاهدة صور ملوكها وكبراء رجالها وتماثيلهم وهو قصد سياسي صحيح عند أهلهم — وإما بهت شعور حب العلم والاقتداء بالعلماء والأدباء والزعماء الذين انفعوا أمتهم عسى أن يوجد في المستعدين من يكون مثلهم أو خيرا منهم ، وهو قصد اجتماعي صحيح عند علماء التربية ، وأما تعظيم العبادة فالغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب لا الكسب والتعاون عليه من طريق الأسباب العامة . فالتعظيم الشيء الذي يعتقد أن له ساطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو ثوب أو غير ذلك ، من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به في الأمور التي لا تتناول بالأسباب العامة — وهي مثلا يطلب إلا من الله تعالى — أو لأجل التقرب إلى الله تعالى بحاجه — كل ذلك عبادة ظاهرة ، فان قصد المظهر لذلك الشيء أو لما يذكر به الانتفاع به نفسه بما ذكر بما ذكر من التعظيم بالقول كاللغناء والاستغناء أو بالفعل كالطواف بتمثاله أو قبره وتقبيله والتمرغ بارضه — كانت العبادة خالصة

له من دون الله ، وأن قصد التقرب به إلى الله تعالى ليحمله بجناحه على إعطائه ما يريد كانت العبادة له والله تعالى بالاشتراك ، وهذا من مظاهر الشرك الجلي التي لا يخرجها تغيير التسمية عن كونها كفرا أو شركا

﴿ استطراد فقهي ﴾

حظر الشرع الإسلامي نصب التماثيل لأنها إما شرك أو ذريعة إليه أو تشبه بأهل وهي على هذا الترتيب في التدرج ، فأغلظها أولها وأخفها ثالثها . والتشبه درجات في الحظر أشدها ما كان في أمور الدين فإنه قد يكون كفرا ، وأهونها ما كان في العادات وأمور الدنيا فنحسب منه ما لنا غنى عنه وما كان نافعا غير ضار بنفسه لا نأخذه بقصد التشبه فقط لأننا لا يكون إلا من تعظيم التشبه لغير أهل ملته وهو يتضمن أو يستلزم احتقارها أو احتقارهم والشعور بأنهم دونهم . وأما اقتباس العلم والحكمة والفنون والصناعات النافعة لأجل منفعتها بقدرها فليس من التشبه ولا من تفضيل المقتبس منهم على أهل ملته لأن هذه الأمور ليست من أمور الدين ولا اقتبست لأجل التعظيم بل لغايتها ، وقد تكون هذه الفائدة مما تعتز به ملّة المقتبس المستفيد وأهلها . ومن ذلك أخذ النبي (ص) عمل الخندق عن الفرس إذ أخبره سلمان (رض) عنهم بذلك وقد يكون هذا الأخذ واجبا شرعا ومنه أخذنا لغنون الحرب وصناعاتها وآلاتها عن الأفرنج إذا تقنوها قبلنا ، فهو فرض كفاية بلا نزاع فالأمة الحية تقتبس كل شيء نافع يغني حياتها ويريد لها قوة وعزة ، وتقتفي في ذلك كل ما فيه ضعف لها في مقوماتها أو مشخضاتها لاسيما إذا كان فيه تفضيل لخصومها أو غيرهم عليها ، وقد فطن اليابانيون هذه القاعدة فحافظوا على شؤونهم المالية والقومية عند اقتباسهم لعلوم الفرنجة وقنونها فصاروا مثلهم في ثلاث قرن . وغفل عنه الترك والمصريون فأضاعوا من ملكهم وليس في نصب التماثيل فائدة ومنفعة ذات بال لا تحصل بغيرها تيسر للمسلمين تقليد الوثنيين والنصارى فيها ولو في جعلها لغير رجال الدين بعدا عن شبهة عبادتها ، ومن ذا الذي يأمن هذا وقد عبدت قبور الأولياء وأئمة آل البيت كما عبد غلاة الشيعة من الباطنية أشخاصا منهم أحياء وأمواتا ، ونرى الشيعة المعتدلين الذين استباحوا نصب التماثيل غير الدينية قد اتخذ بعضهم في هذه الأيام تمثالا لأمر المؤمنين على كرم الله وجهه في بلاد إيران كما نقلت صحف الأخبار عنهم . وأما الصور فلها فوائد في الحرب وحفظ الأمن وتحقيق معاني اللغة وكثير من العلوم ولا سيما

الطوبى والشرىح ... فلا يحظر منها ما ليس عبادة ولا تشبها بعبدة الأصنام بدليل ما ثبت في السنة الصحيحة من أمر النبي ﷺ بهتك القرام (الستار) الذي نصبته (عائشة) في حجرتها إذ كان على هيئة الصور والمائيل المعبودة فلما جعلت منه وسادة كان ﷺ يستعملها وفيها الصور إذ كان الاتكاء والنوم عليها أمتهانا لا تعظما ولا يشبه التعظيم الوثني وقد حققنا هذا البحث ببيان ماورد فيه من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في فتاوى المناد مرارا

عود إلى تفسير الآية

معنى النظم الكريم «وجاوزنا بني إسرائيل البحر» أنهم تجاوزوه بعنانيته سبحانه وتأييده إياهم بخلق البحر ، وتيسير الأمر ، حتى كأنه كان معهم بدانته تجاوزه مصاحبها لهم ، أو المعنى أننا أيدهم ببعض ملائكتنا ، فجاوز بهم البحر بأمرنا ، فمن المعبود في اللغة أن ينسب إلى الملوك ورؤساء القواد ما يشفده بعض أتباعهم بأمرهم ، وما يقع بجاههم وقوة سلطانهم ، ويجوز الجمع بين المعنيين ، ففرق البحر بهم كان بعناية الله وقدرته . وفي آخر الفصل الثالث عشر من سفر الخروج ذكر خبر ارتحال بني إسرائيل وقال (٢٠) وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود من غمام ليهدى بهم الطريق وليلا في عمود من نار ليضيء لهم ليسيروا نهارا وليلا (٢١) لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب » ثم جاء في الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر اتباع فرعون ومن معه بني إسرائيل (١٩) فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر بني إسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام من أمامهم فوقف وراءهم (٢٠) ودخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل . فكان من هنا غماما مظلمة ، وكان من هناك نير الليل ، فلم يقترب أحد من الفريقين طول الليل .

هنا بعض ما جاء في التوراة مما يوضح أن يكون تفسيرنا لقوله تعالى في القرآن « وجاوزنا بني إسرائيل البحر » قالباء هنا للمصاحبة كقولك سافرت به وجئت به ، وإسناد المسير في عمود الغمام إلى الرب مجازي كقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) « فأتوا » تنقب تجاوزهم إياه ودخولهم في بلاد العرب من البر الاسيوى « على قوم يكفون على أصنام لهم » يعبدونها ، فإذا كان من شأنهم إذ رأوهم يعبدون غير الله تعالى كالمصريين الذين أقدمهم الله تعالى منهم ، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم ؟ هل استهجنوا شركهم وأنكروه كما هو

الواجب عليهم والمعقول من رأى مارأوا من سوء مصير المشركين ، وحسن عاقبة الموحدين ؟ الجواب أنهم لم ينكروه بالسنتهم ولا بقلوبهم ، بل « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة » حينئذ منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها ، فعلم بهذا الطلب أنهم لم يكونوا فهموا التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين ، لأن السحرة كانوا من العامة فأمكنهم التمييز بين آيات الله تعالى التي لا يقدر عليه غيره وبين السحر الذي هو من صناعات البشر وعلومهم ، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامة الجاهلين الذين بلذ الذل أفهامهم وإنما اتبعوا موسى لانقاذه إياهم من ظلم فرعون وتعميده لهم ، لا لفهمهم حقيقة التوحيد بالآيات الدالة عليه ، ولذلك قيل إنهم بعض القوم لا جميعهم ، فالنوحيد الخاضع الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقى إليه عرفان البشر ، وهو المراد من قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) على القول بأن اللام للغاية ، وهو لا يقتضى حصوله لكل فرد منهم ، ولو عقل جميع بنى إسرائيل كنه التوحيد لما وقع من تبرمهم بالشكك والافتقار ، وعرفهم على موسى عليه السلام ما قصه الله تعالى علينا في كتابه ، وفي التوراة التي لديهم من الزيادة عليه والتفصيل له ما هو من مواطن العجب ، وقد ابتلاه الله تعالى ورباهم بالحسنات والسيئات ، وحرم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يقهون في الأرض ، حتى انقرض ذلك الجيل الذي نشأ في حجر الوثنية ، وشبوا أو كنهلوا أو شاخوا في ذل العبودية الفرعونية . وقد رأينا نموذجًا لذلك في طوائف من أممنا ولدوا في مهدة الظلم وشبوا في حجر التفات والفسق ، فسنحت لأهلهم بشؤون الاجتماع والعمران فرص متعددة كان يرجى أن يمرروا فيها أنفسهم من رقها السياسي ويستقلوا بأمرهم فأضاعوها واحدة بعد أخرى ، وكان هذا من غير التاريخ التي تثبت أن فلاح الأمم بأخلاقها وعقائدها ، وأن العلم الناقص شر من الجهل المطلق وأن العلم الصحيح في الرجل أو الشعب الفاسد الأخلاق كالسيف في يد المجنون ربما جنى به على صاحبه أو على نفسه ، وربما نصر به عدوه

ولم يبين لنا كتاب الله تعالى ولا رسوله ﷺ شيئًا من أمر القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل عقب خروجهم من مصر إلى أرض الدرب ، والظاهر أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر . روى عن قتادة أنهم من عرب نخم وعن أبي عمران الجوني نخم وجدام . وعن ابن جرير أن أصنامهم كانت

تمائيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر فذاك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك (أقول) ولم يكن ابن جريج يعلم أن قدماء المصريين كانوا يعبدون عجلا اسمه (أبيس) وكان بنو إسرائيل يعبدونه معهم كغيره من معبوداتهم ، ويرون تماثيله منصوبة في معابدهم ، وأن السامري لم يصنع لهم العجل بعد ذلك إلا لما كان من إلفهم لعبادته ، وتأثر أعصابهم بما ورثوا من مظاهر روعته ، ولذلك قال تعالى فيهم (وأشر بوا في قلوبهم العجل يكفرهم) والمراد عجل السامري ، وقد علل اشرايهم بإيه في قلوبهم بما كان من كفرهم السابق أى بالوراثة المتغلغلة في النفس بطول الزمان وتعاقب الأجيال ، فذلك الذى يطول تأثيره في الأعقاب والانسال . ألم تر إلى ما استحدثه بعض المبتدعة في الاسلام ، وقلدتم فيه بعض الملوك من المنسويين إلى السنة : من تشييد القبور ، وتزيينها بالعمائم والستور ، وبناء القباب فوقها ، واتخاذها مساجد يصلى إليها أولادها ، وإيقاد السرج والشموع عليها ، أنه قد جعل لها مكانة دينية كبيرة في قلوب عامة المسلمين حتى صارت عندهم من شعار الدين ، بحيث يعبدون من روى لهم الاحاديث الصحيحة في لعن الله ورسوله لمن يفعل ذلك مبتدعا فيه أو مارقا منه ، وينهزون في بعض البلاد بملقب « وهابى » اذ كانت طائفة من الخنابلة في بلاد العرب سميت الوهابية قد عمدوا إلى ازالة هذه المنكرات بأيديهم ، لما لم يؤثر في ازالتها انكار علماء السنة المصلحين لها بالسنتهم وأقلامهم ، عملا بقوله ﷺ « من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » يعنى الانكار بالقلب وحده ، ولو مع العجز عما فوقه . والحديث رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى إذا علمنا هذا الشأن من شؤون الضمف البشرى فلا نوجب أن روى عن بعض حديثى العهد من الصحابة بالإسلام ، مثل ما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام ، بما كان من تأثير مظاهر الوثنية في قلوبهم : روى أحمد والنسائى وأكثر مصنفى التفسير المأثور عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع النبى ﷺ قبل حنين فررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط ، كما للكفار ذات أنواط فقال : الله اكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) لتركبون سنن من قبلكم » وروى نحوه ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى

عن كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً وذكر أن المكان الذي طلبوا فيه ذلك بين حنين والطائف . والعبرة في هذا أن المسلمين الآن ذوات أنواط في بلاد كثيرة كشجرة «الست المنذرة» وشجرة الحنفي بمصر ، ونحو من ذلك ما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار والآبار يعكفون عليها ، ويظفون حولها ، ويقبلونها ويتمرغون بأعتابها ، ويتمسحون بها خاضعين ضارعين . خاشعين داعين راجين شفاء الأدواء ، والانتقام من الأعداء ، والغنى والثراء ، وحبل العقيم ، ورد الضالة ، وغير ذلك من النفع وكشف الضر ، خلافاً لنصوص كتاب الله عز وجل . ولكنهم لا يعلمون أنها تسعى في اللغة العربية آلهة ، وأن جل ما يأتونه عندها يسمى عبادة ، وأنه شرك جلي لا يغفر ، ولا فرق بينه وبين شرك عرب الجاهلية وأمثالهم إلا الاختلاف في التسمية ، فأولئك كانوا يسمون الأشياء بأسمائها لأنهم أهل اللغة ، وهؤلاء تحاموا إطلاق لفظ الآله والمعبود والعبادة في هذا المقام ، واستباحوا غيرها من الألفاظ كالأولياء ، والشهداء ، والوسيلة ، والتوسل وهي مشتركة أيضاً ولكنها استعملت في الإسلام بغير المعاني التي كانت تستعمل بها في الجاهلية ، كأن الله تعبد الناس بإطلاق الألفاظ دون حقائق المعاني . وحقيقة معنى العبادة وفي اللغة العربية وكذا في غيرها من اللغات يشمل كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضرره وحده . وهذا هو جود الله أو يرجى ويخاف بالتأثير عند الله تعالى . وهذا هو الشرك بشرط أن يكون هذا الرجاء فيه أو الخوف منه لامر غيبي خارج عن الأمور الكسبية والأسباب الدنيوية ، وقد سبق شرح هذا آفاقه مراراً ، ويظن أهل العلم بكتب الفقه والكلام الذين لم يطلعوا على ملل الوثنيين أنهم يعبدون الأصنام وغيرها من المخلوقات التي ليس كونها بالذاتها أنهم يعتقدون أنها تضر وتنفع بقدرتها وإرادتها ، والصحيح أنهم يتوسلون بها إلى الخالق كما حكى الله تعالى عن مشركي قريش وغيرهم ، وقد سمعت هذا من بعض علمائهم في الهند .

ماذا كان جواب موسى عليه السلام ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ بخصوصهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والخصاف يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم والجهل الذي هو سفة النفس وطيش العقل ، وإهمسه المناسب للام جهل التوحيد وما يجب من أفراد الرب

تعالى بالعبادة من غير واسطة ، ولا التقيد بمظهر من المظاهر يتوجه إليه معه ، ولا سبباً مظهر الأصنام والتماثيل لبعض الخلوقات التي اغتر الجاهلون من قبل بنفعها أو الخوف من ضررها ، فالأول كالكوكب والنيل والعجل أيسس ، والثاني كالشعبان . ثم جهل ما كرم الله تعالى به البشر فجعلهم أهلاً لمعرفة ودعائه ومناجاته كفاحاً بغير واسطة يقرَّبهم إليه فإنه أقرب إليهم من سمبل الوريد ، وهو الواحد الصمد الذي يتوجه إليه ويقصد وحده ، ولذلك قال إماما الموحدين ، ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حقيقاً وما أنا من المشركين)

وهذا النوع من الجهل هو الذي قال الله تعالى فيه (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) واسناد الجهل إلى القوم أبْلَغ من إسناده إلى ضمير المخاطبين ، لأنه حكم على جماعتهم بما هو كالمحقق المعروف من حالهم ، الذي هو علة لمقالمهم ، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولاً أولياً .

وبعد أن ذكرهم بسوء حالهم من جهلهم وسفاهة أنفسهم بين لهم فساد ما طلبوه في نفسه عسى أن تستعدتقوهم لفهمه واستبانة قبحه ، فقال بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل والدليل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) التبر والتبر الهلاك والتبدير الهلاك والتدمير . يقال تبر الشيء من بائ تعب وانصر ، وتبره - بالتشديد : أهلكه ودمره . أي أن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام ، مقتضى على ما هم فيه بالتبر بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار ، وباطل ما كانوا يعملون من الأصنام ، وعبادة غير الله ذي الجلال والإكرام ، أي هالك وزائل لا بقاء له ، فإتباع الباطل في ترك الحق له أو بعده عنه ، وهذا يتضمن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض ، وكذلك كان .

قال البغوي في تفسيره : إن طلب بني إسرائيل المآله لم يكن عن شك منهم بوحدانية الله تعالى ، وإنما كان غرضهم إلهاء عظمونه وبتقربون بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ، وكان ذلك جهاهم كما آذنت به الآيات .

وقال الرازي : اعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) وخالفاً مدبراً ، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتبديره لا يمكن أن يكون خالفاً للعالم ومدبراً له ، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل .

والأقرب أنهم طلبوا من موسى أن يعين لهم أصناما وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، وهذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الأوثان حيث قالوا (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زافى) إذا عرفت هذا فلتأمل أن يقول : لم كان هذا القول كفرا ؟ فنقول : أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى ، كفر سواء اعتقدوا في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى — لأن العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام والاکرام .

ثم قال بعد أن جزم بأن هذا القول صدر عن بعضهم لا كلهم وأنه كان فيهم من يترفع عنه مانصه : ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه أجابهم فقال : (إنكم قوم تجهلون) وتقرير هذا الجهل ماذكر من أن العبادة هي غاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الانعام ، وهو يخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها ، والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لاتليق العبادة إلا به (فان قالوا) إذا كان مرادهم بعبادة تلك الأصنام التقرب بها إلى تعظيم الله تعالى فما الوجه في قبح هذه العبادة ؟ (قلنا) فعلى هذا الوجه لم يتخذوها آلهة أصلاً وإنما جعلوها كالألقاب ، وذلك يشافي قولهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) اهـ

أقول : من العجب أن يقع أمام النظار في علم العقائد على طريقة الفلاسفة والكلام في مثل هذا الخطأ في أسئلته وأجوبته والتناقض في كلامه ، ومنشأ هذا الخطأ الغفلة عن مدلول ألفاظ القرآن في اللغة العربية واستعمالها بلوازم معناها العرفية كلفظ « الاله » فإن معناه في اللغة المعبود مطلقاً لا الخالق ولا المدبر لأمر العالم كله ولا بمضه ، ولم يكن أحد من العرب الذين سموا أصنامهم وغيرها من معبوداتهم آلهة يعتقد أن اللات أو العزى أو هبل خلق شيئاً من العالم أو يدبر أمراً من أموره ، وإنما تدبير أمور العالم يدخل في معنى لفظ الرب .

والشواهد على هذا في القرآن كثيرة ناطقة بأنهم كانوا يعتقدون ويقولون إن خالق السموات والأرض ومدبر أمورها هو الله تعالى وإن آلهتهم ليس لها من أمر الخلق والتدبير شيء ، وإن شركهم لأجل التقرب إليه تعالى وابتغاء الشفاعة عنده بعبادة ما عبدو ، ولذلك كانوا يقولون في طوافهم : لبيك لا شريك لك ،

إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . ولذلك يحتاج القرآن عليهم في مواضع بأن غير الخالق المدير لا يصح أن يكون إلهاً يعبد مطلقاً ، وهو معنى قول بعض المحققين : إنه يحتاج بما يترفون به من توحيد الربوبية ، على ما ينكرون من توحيد الإلهية ، وإذ كنا بيننا هذا مراراً بالشواهد نكتفي بهذا التذكير هنا

ثم إن عبادة طلاب الأصنام من بني إسرائيل لم تنقل إلينا بنصها في لغتهم فنبحث فيها أخطاءً أم صواب . وإنما حكاه الله تعالى لنا بلغة كتابه فمعناها صحيح قطعاً ، فإن الإله في هذه اللغة هو المعبود بالذات أو بالواسطة وإن كان مصنوعاً وإنما جهلهم موسى بطلب عبادة أحد مع الله لا بتسمية ما طلبوا منه صنعه إلهاً فإنه هو سعى المعبود المصنوع إلهاً أيضاً في قوله للسامري الذي حكاه الله عنه في سورة طه (وانظر إلى إهلك الذي ظلمت عليه عاكفاً لنعرقته) الآية وإنما كان عجل السامري من صنعه - وإن جميع من عبدوا الأصنام من قبلهم ومن بعدهم كانت أصنامهم مجعولة مصنوعة متخذة من هذه الخلوقات كالحجر والخشب والمعدن . أنسى امام النظر وصاحب التفسير الكبير ما حكاه الله تعالى من تسمية قوم إبراهيم لأصنامهم بالآلهة ؟ أم نسي ما حكاه الله من حجته عليهم بقوله (قال اتعبدون ما تعبدون ، والله خلقكم وما تعملون ؟) ومن محاجته إياهم بقوله (٢٦ : ٢٤-٢٦) وأتى عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها جاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * وجملة القول أن هذا القول الذي قاله الرازي من أظهر هفواته الكثيرة بطلاناً وسبباً متلذذاً لما عفا الله عنه بنظريات الكلام وجدل الاصطلاحات الحادثة ، وغفلته

عن معنى الاله في أصل اللغة ، ومن آيات القرآن الكثيرة فيه . وإنا نذكره : (قال أغير الله أبعينكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) أي قال لهم موسى أأطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض وكل شيء والحال أنه فضلكم على العالمين ، بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، على ملة إبراهيم وسنة المرسلين ، فإذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ والاستفهام في الآية للإنكار المشرب معنى التعجب ، وإنما هو إنكاراً بتغافل غير الله المستحق وحده للعبادة ، لا إنكاراً تسمية المعبود المصنوع إلهاً ، و«أعني» ينصب مفعولين بنفسه كقوله تعالى (يبعثونكم الفتن)

بدأ موسى عليه السلام جوابه لقومه بأثبات جهلهم بهم وبأنفسهم ، وثق
ببيان فساد ما طلبوه ، وكونه عرضة للتباعد والزوال ، وباطلا في نفسه على كل حال ،
فلا الطالب على علم وعقل فيما طلب ، ولا المطلوب مما يصح أن يطلب (ضعف
الطالب والمطلوب) فهذا ملخص معنى الآية السابقة .

ثم انتقل في هذه الآية إلى المطلوب منه جعل الإله لهم - وهو هو عليه السلام
والمطلوب لأجله هذا الجمل - وهو الله تعالى - وموسى على الحق ، والله تعالى هو
الحق والذي يحق الحق ، وبين هذين الحقيين وذينك الباطلين غاية المباعدة فلذلك
كان هذا جوابا مستقلا مبينا لما قبله بحيث لا ينبغي أن يعطف عليه عطفا ، ولا
أن يعد معه عدا ، ولهذا أعاد فيه كلمة « قال » كما سنبينه . وقد قدم فيه ذكر
الأمم الأفضل المقصود بالذات من هذين الحقيين ، فقال (أعير الله) فغير الله أعم
الآلفاظ الدالة على المحدثات فهو يشمل أحسن المخلوقات وأعجزها عن النفع والنضر
كالأصنام ، ويشمل أفضلها وأكملها كالملائكة والنبیین عليهم السلام ، ليثبت أنه لا يوجد
مخلوق يستحق العبادة مع الله تعالى وإن علاقده ، وعظم أمره . وأن تعجيلهم بما
طلبوا لا لأن المطلوب كالأصنام خسيس وباطل في نفسه ، وعرضة للتباعد فلا فائدة
فيه لغيره ، - لا لهذا فقط - بل لأن العبادة لا يصح أن تكون لغير الله تعالى البتة ،
مهما يكن غيره مكرما عنده ، ومفضلا على كثير من خلقه ، على أن طلب عبادة
الأخس ، دليل على منتهى الخسة والجهل ، إذ لا شبهة توهم قدرته على الانتابة أو
التقريب من الله عز وجل ، كشبهة من عبدوا الملائكة وبعض النبيين والصالحين
زاعمين أنهم بكرامتهم عند الله يقر بون إليه من قصر به إيمانه وعمله إن يتقرب
إليه بنفسه ، مع إصراره على حبسه ورجسه ، جاهلين أن الله تعالى أمر المشركين
والفاسقين ، أن يتوبوا أي يرجعوا إليه لا إلى غيره من عباده المكرمين ، وأن
يدعوه وحده كدعائهم مخلصين له الدين ، وأن يخصوه مثلهم بالعبادة والاستعانة
وذلك ما فرضه علينا في صلاتنا بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين)

وبعد أن قدم المقصود بالذات من الانكار وهو جعل غير الله إلها ذكر من
أرادوا أن يكون الواسطة في هذا الجمل ، الذي دعا إليه ذلك الجهل ، وهو
نفسه عليه السلام بقوله (أبغيتكم إلها) ليعلمهم أن طلب هذا الأمر الإبر

والشئء الآدء ، والمنكر الفظيع منه عليه السلام جهل بقيمته ، وبعنى رسالته ، وبما رآوه من جهاده لفرعون وقومه ، من غير حول ولا قوة له فى شخص أخيه ولا فى شخصه ، بل بالإنكسال على حول الله وقوته ، ولولا إرادة إنكار الأمرين معاً : طلب الله مع الله ، وكونه يجعله عليه السلام — لقال : أغير الله تبغون إلهاء كقوله تعالى (أفغير دين الله يبغون ؟)

ثم أيد هذا الإنكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم ، وهو تفضيلهم على أهل زمانهم ، فقد كان أرقى الناس فى ذلك العصر فرعون وقومه بما أوتوا من العلم والقوة والحضارة وسعة الملك ومن السيادة على بعض الشعوب ، وقد فضل الله بنى إسرائيل عليهم ، برسالة موسى وهارون منهم ، وتحديد ملة إبراهيم فيهم ، وإيتائهما من الآيات ما تقدم بيانه وأثره فى السياتى الذى قبل هذا ، وقيل : إن المراد تفضيلهم على العالمين مطلقاً بكثر الأتباء والمرسلين منهم ، والأول أظهر ، لأنه عليه السلام احتج عليهم بما عرفوا فيبعد أن يراد به تفضيلهم على القرون الأولى وأقوام رسلهم وعلى من سياتى بعدهم وحال كل منهما بمحاول عنده وعندهم ، فقد سأل فرعون موسى عن القرون الأولى فقال (علمها عند ربى) والقرون الآخرة بذلك أولى . وأنت إذا قلت لفتى أو عالم إنك أغنى أو أعلم الناس ، أو الملك : إنك أقوى الملوك ، أو فى شعب إنه أرق الشعوب — فإن أحداً لا يفهم من مثل هذا تفضيل من ذكر على غير أهل زمانهم ، ولا سيما من يأتى بعدهم ، وأهل الحضارة فى زماننا يعتقدون أن الأجيال الآتية سيكونون خيراً من هذا الجيل ، وكان موسى يعلم أن هداية الدين سترقى إلى أن تكمل برسالة خاتم النبیین ، ولكنه أوتى هذا العلم بما أوحاه الله إليه فى التوراة ولم يكن نزل منها شئء عند طلب بنى إسرائيل منه ما ذكر

والدليل على أن المراد بتفضيلهم على العالمين ما ذكرنا أنه عطف عليه أعظم مظاهره

الحديث العهد بقوله ﴿ وإذ أنجبناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم ﴾ قرأ ابن عامر (وإذ أنجبناكم) على أنه من مقول موسى عليه السلام قطعاً والباقيون (أنجبناكم) : وذكر رافيه احتمالين (أحدهما) وهو الأظهر والمتبادر أن يكون مستنداً إلى الله تعالى متمم لسلام موسى ومبين المراد منه على طريقة الالتفات عن الحسكية عنه . ولهذا الالتفات نظائر فى التنزيل وفى كلام بلغاء العرب ، ومنه قوله تعالى فى قصة موسى من سورة طه (الذى جعل

لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شقي (الح) فأول الآية من قول موسى في جواب فرعون وقوله «فأخرجنا» التفات عن الحكاية وانتقال إلى كلامه تعالى عن نفسه خاطب به من أنزل إليهم هذا الوحي من خلقه، تنبيههم بتلوين الكلام، وبما في مخاطبة الرب لهم كفا حامن التأثير الخاص إلى كونه هو المسدي لهذا الانعام، واقتصر بعض المفسرين على أن المخاطب بهذه القراءة من كان من بني إسرائيل في زمن النبي ﷺ فأفادت قراءة ابن عامر أن موسى قالها لقومه في ذلك الوقت، وأفادت قراءة الآخرين أن عمداً ﷺ ذكر بها قوم موسى في زمنه كما تقدم في سورة البقرة وهذه فائدة الجمع بين القراءتين وهي من إعجاز إيجاز القرآن (الثاني) أن قراءة الالتفات من جملة الحكاية عن موسى (ع. م.) أسند الانجاء فيها إلى الله تعالى مع حذف القول للعالم به من القرينة أو بدونه أو إلى نفسه وحده أو مع أخيه للإشارة إلى جملة تعالى هذا الانجاء بسبب رسالتهم وتأيدته تعالى لها بتلك الآيات والمعنى واذكروا إذا أنجاكم من الله تعالى بفضل — أو إذا أنجيناكم بإرساله تعالى إيانا لأجل ذلك وبما أيدنا به من الآيات من آل فرعون حال كونهم يسومونكم سوء العذاب يجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم كالبهائم فلا يعدونكم منهم، وخص بالذكر من هذا العذاب شر أنواعه بقوله: يقتلون ما يولد لكم من الذكور ويستبقون نساءكم بترك الإناث لكم لتزدادوا ضعفاً بكثيرتهم — وهذا يدل بعض من كل وفي ذلك المذاب والانجاء منه بفضل الرب الواحد عليكم وتفضيله إياكم على أولئك الغالين في الأرض وعلى غيركم كسكان البلاد المقدسة التي سترثونها بلاء عظيم أى اختبار لكم من ربكم المنفرد بتربيتكم، وتدبير أموركم ليس وراءه بلاء واختبار، فإن أجدر الناس بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان، من يعطي النعمة بعد النعمة، وأحق الناس بمعرفة وحدانية الله تعالى وإخلاص للعبادة له من يرى من آياته في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون لغيره شريك فيه أى فكيف تطلبون بعد هذا كله ممن رأيتم هذه الآيات على يده وليس له فيها أقل تأثير أن يجعل لكم إلهاً من أخس المخلوقات تجعلونه واسطة بينكم وبين الله تعالى، وهو قد فضلكم عليها وعلى عابديها ومن هم أرق منهم ؟

وقد غفل الشهاب الخفاجي عن كون تفضيلهم على العالمين لم يكن إلا بدعوة

التوحيد المؤيدة بتلك الآيات ، فزعم أن الاحتجاج به خطابي ، لا برهان عقلي ، واعتذر عن عدم احتجاج موسى ببرهان القانع بأنهم من العوام ، وهو لا ينكر أن تلك المعجزات من البراهين القطعية ، وإن اختلف المتكلمون في دلالتها ، هل هي عقلية أو وضعية ، وغفل أيضا عن كون برهان القانع إنما يحتاج به على المشركين في الربوبية دون العبادة فقط . وقد تعقبه في هذا الألوسي فقال : وفي إقامة برهان القانع على الوثنيين القائلين (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) والمجيبين إذا سئلوا : من خلق السموات والأرض ؟ يخلفهم الله - خفاء ، والظاهر إقامته على الثنوية كما لا يخفى اهـ ووجهه أن الثنوية يقولون بوجود درين إلهين اشتراكا في خلق العالم وتدبير أمره أحدهما رب النور والخير ، والثاني رب الظلمة والشر ، ويحتج عليهم بأنهم لو كان في العالم خالقان مدبران أو أكثر لا تمتنع أن يوجد فيه نظام يصلح به أمره إذا فرض جواز وجوده ، لأن تعدد المدبرين لأمر الشيء كتعدد الخالقين يقتضى تعدد العلم والإرادة والقدرة التي يكون بها التدبير ، والخلق والتقدير ، وتعدد ما يقتضى التغاير والاختلاف فيها وإلا فلا تعدد ، وهذا الاختلاف يقتضى التعارض في متعلقاتها بأن يتعلق بعضها بغير ما يتعلق به الآخر من ضد وتقيض ، وأى فساد في النظام وموجب للاختلال أشد من هذا ؟ وإنما قلنا إذا جاز وجوده لأن الإشارة إلى البرهان في قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) قد بنى على أن السموات والأرض موجودتان والنظام فيهما مشاهد بالابصار والبصائر ، وكما يمتنع استقامة النظام وصلاح التدبير الصادر عن علوم وإرادات قدر مختلفة متعارضة ، كذلك يمتنع صدور الكون نفسه عنها بالاولى

وفي الآية التي قبل الأخيرة من نكت البلاغة انه أعيد لفظ « قال » في أولها لما أشرنا اليه من أن هذا جواب مستقل لا يشترك مع ما قبله فيعطف عليه ، ولا هو معه من قبيل سرد الصفات أو الأعداد التي يطلب فيها الفصل . أى كقوله تعالى (التائبون العابدون الساجدون الراكون الساجدون) الخ وقولهم : الأول كذا - الثاني كذا الخ ، فلم يبق إلا إعادة « قال » لامتناع الفصل والوصل كليهما بدونها ، وأن تكون « قال » مفصولة لامعطوفة لإفادة هذا الاستقلال في الجواب ، إذ لا فرق بين عطف القول وعطف الجملة الاستفهامية بدونه في أن كلا منهما يقتضى الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه كما

حققه عبد القاهر في دلائل الإعجاز

ولما كان كل من له ذوق في أساليب هذه اللغة يشعر بأن البدء بهذا الاستفهام هنا بدون «قال» غير مستعذب ولا مستساغ وإن لم يعرف سبب هذا ونكتته . بحث طلاب نكت البلاغة في التفسير عن نكتة هذه الإعادة فلم يجد بعضهم مآقرونا ولم يثبتوه واضحا ليبيته . قال الالوسي : قيل هذا هو الجواب وما قبله تهديد له ولعله لذلك أعيد لفظ قال أم فنقل هذه النكتة بصيغة التريض «قيل» إذ كانت أخفى عنده منها عند صاحبها الذي قال : ولعله . . . فلم يحزم . ثم نقل عن أبي السعود قوله في هذا الجواب : هو شروع في بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا ، لكونه هالكا باطلا أصلا ، ولذلك وسط بينهما «قال» مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام : ثم نقل تعليلا آخر للشهاب وهو : أعيد لفظ قال مع اتحاد ما بين القائلين (٢) لأن هذا دليل خطابي بتفضيلهم على العالمين ولم يستدل بالتمانع العقلي لأنهم عوام انتهى

وأقول : إن العبارة الأولى أصح وأسلم من هذين القوتين المعترضين على أنهما مبنيان على لمح مالمح صاحبها ، إننا لو سلم للأول أن الآية في بيان شؤون الله الخ والثاني أنها دليل خطابي لا بهاني ، لما كان هذا ولا ذاك مقتضيا لإعادة فعل القول لذاته ، وإنما العبرة بموقعه واستماع كل من فضله بدون القول ووصله بالعطف على ما قبله كما علم مما بيناه والحمد لله المومنون ، وقد بينا بطلان قول الشهاب آنفاً وضعف قول أبي السعود لا يحتاج إلى بيان

(١٤١) وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَرْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَأَنَّ رَبَّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ، فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ

هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام وقد بدء الوحي المطلق إليه في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر ، وإنما المذكور هنا بدء وحى كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بنى إسرائيل من العبودية وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لهم من العبادات وأحكام المعاملات ، والأمة المستعبدة للأجنبي لا تقدر على ذلك ، ألم تر أن جميع أحكام المعاملات الدنيوية من شريعتنا المطهرة وأكثر أحكام العبادات لم تشرع إلا بعد الهجرة ؟ وأن الصلاة التي هي عبادة بدنية لما شرعت في مكة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلى هو ومن آمن به في البيوت سراً اتقاء أذى المشركين الذين كانوا يمنعونهم من الصلاة في المسجد الحرام وقد صلى فيه النبي ﷺ مرة فجاء المشركون بسلا جزور - أى كرش بغير بقرته - فوضعه عليه وهو ساجد فلم يستطع رفع رأسه حتى جاءت ابنته السيدة فاطمة عليها السلام فألقته عن ظهره ؟ وهم أبو جهل مرة أن يجلس عليه وهو ساجد فكفنه الله عنه ؟

قال تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه ﴾

أربعين ليلة ﴿ هذا السياق معطوف على السياق الذى قبله المبدوء بقوله تعالى (وجاوزنا بنى إسرائيل البحر) الآيات. قرأ أبو عمرو ويعقوب (وعدنا) من الوعد والباقون (واعدنا) من المواعدة فقليل إنها هنا بمعنى الوعد وقيل إن فيها معنى صيغة المفاعلة باعتبار أن الله تعالى ضرب لموسى عليه السلام موعداً لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ثم صعد جبل سيناء في أول الموعد وهبط في آخره ، وفرق بين الاتفاق على الشيء بين اثنين أو أكثر كاللتلاق في مكان

معين أو زمان معين وبين الوعد به من واحد لآخر لا يطلب منه شيء لأجل الوفاء كقولك لآخر سأدعو الله لك في البيت الحرام مثلا - فهذا وعد محض وذلك يحتمل الأمرين باعتبارين كعبارة الآية . والميقات أخص من الوقت فهو الوقت الذي قرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج . وفي سورة البقرة (وإذ أوعدنا موسى أربعين ليلة) وهو إجمال لما فصل هنا من قبل لأن الأعراف مكية والبقرة مدنية فهي متأخرة عنها في النزول والمراد بالليلة ما يشمل الليل والنهار في عرف العرب عند الإطلاق .

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية أن موسى قال لقومه : إن ربي واعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم ، فلما وصل موسى إلى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله - وذكر قصة عجل السامري - وروى الثاني عن أبي العالبيه في قوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة فنكت على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح فقر به الرب نجيا وكله وسمع صريف القلم ، وبلغنا أنه لم يحدث في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور ، وفي معنى هذا روايات أخرى صريحة في أن هذا الزمن ضرب لمناجاة موسى ربه في الجبل منقطعا فيه عن بني إسرائيل وهو الحق الموافق لما ورد في هذه السورة وغيرها من قصة السامري وعبادة العجل في غيبة موسى ومنه قولهم هارون (إن نهرح عليها كفنين حتى يرجع إلينا موسى) وأخرج الديلمي عن ابن عباس رفعه « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوما وقد صام لييلتين ونهارهن فكره أن يكلم ربه ويرجفه فم الصائم فتناول من نبات الأرض فضغه فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بما كان قال : أي رب ، كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الرج ، قال : أو ما علمت يا موسى أن فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ؟ اذهب فصم عشرة أيام ثم ألقني . ففعل موسى الذي أمره ربه » وهذا الحديث ضعيف السند ومتمنع معارض بما أشرفنا إليه من آيات قصة السامري ومن الروايات التي بمعناها .

ويستدل الصوفية بهذه الرواية على أيام خلوتهم التي يصومون أيامها . (١) استحسّن علماء الرسم أن يكتب هارون بدون ألف واستحسنوا أن يكتبوا من الكتاب كتابته بالألف على الأصل كالحارث لأن أكثر الناس لا يتعلمون الرسم أولا يلقنون مثل هذا الاصطلاح فيخطئون فهمها

الأربعين لا يفتطرون إلا على حبات الزبيب، لما ورد في الأحاديث الصحيحة من النهي عن الوصال في الصيام . والأولى أن يستأنس بالروايات الصحيحة للتفرغ لذكر الله ومناجاته بالصلاة أربعين يوماً وليلة فيجعل مقصداً لا وسيلة .

وهذا ما ورد في التوراة الحاضرة في المسألة من سفر الخروج (١٢: ٢٤) وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ١٣ فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله ١٤ . وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا ، وهوذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم اليهما ١٥ فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ١٦ وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفي اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب ١٧ وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل امام عيون بنى اسرائيل ، ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة) ١٨ وفى الفصل الرابع والثلاثين منه ما نصه أيضاً (٣٤ : ٢٧ وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع اسرائيل ٢٨ وكان هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) ١٩

✽ وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ✽ يعنى أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون عليهما السلام للحكم بينهم والاصلاح فيهم ، إذ كانت الرئاسة فيهم لموسى ، وكان هارون وزيره ونصيره ومساعدته كما سأل ربه بقوله : (واجعل لى وزيراً من أهلى : هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى) وأوصاه بالاصلاح فيهم وفيما بينهم ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين فى الارض . والافساد أنواع بعضها جلى وبعضها خفى ومن كل منهما وسيلة ومقصد ، فمنها الحرام البين ومنها الذرائع المشتبهات التى يختلف فيها الاجتهاد ، ويأخذ التقى فيها بالاحتياط ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ، ومساعدتهم عليها ، ومعاشرتهم والاقامة معهم فى حال اقترافها ، ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها ، ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الانبياء عليهم السلام فيصح

نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذى وقع الاختلاف فيه بين موسى وهارون عليهما السلام في قصة عجل السامري الذى حكاه تعالى عنه في سورة طه بقوله (قال يا هارون ما منعك اذ رايتهم ضلوا الا تتبعن ؟ افعصيت أمري ؟ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي) فالرسالة كانت لموسى بالأصالة وهارون بالتبع ليكون وزيراً لا رئيساً ، وموسى هو الذى أعطى الشريعة (التوراة) وكان هارون مساعدا له على تنفيذها في بني إسرائيل ، كما كان مساعدا له على تبليغ فرعون الدعوة واتقاد بني إسرائيل .

وقد روى الشيخان وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص (رض) أن النبي ﷺ قال لعلى كرم الله وجهه « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ » وذلك أنه استخلفه على المدينة في غزوة تبوك قبل خروجه فقال يارسول الله تخلفني في النساء والصبيان ؟ فقال له . وفي رواية لأحمد : أن عليا (رض) قال : رضيت رضيت . وإنما قال في النساء والصبيان لأنه لم يتخلف عن الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك غير النساء والصبيان ومن في حكمهم من ضعيف ومرضى إلا من استأذن من المشافقين .

قال القاضي عياض في شرحه لمسلم : هذا الحديث مما تعلق به الروافض والامامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقاً لعلى وأنه أوصى له بها . قال ثم اختلف هؤلاء فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره وزاد بعضهم فكفروا علياً لأنه لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء أسخف مذهبا وأفسد عقلا من أن يرد عليهم الخ ما قال . وقد ذكرت هنا من قوله لا ذكر القارىء بأن هذين الفريقين لم يقولوا ما قالاً عن اعتقاد ، بل كانوا من جمعيات الجحوس والسبائين الذين يبعثون الفتنة لابطال الاسلام وإزالة ملك العرب بالشقاق الدينى . وأما الاستخلاف فقد كان النبي ﷺ يستخلف على المدينة بعض الصحابة كما خرج إلى غزوة ، ولم يكن يختار أفضلهم لذلك ، وفي الحديث من المنقبة لعلى ما هو فوق استخلافه وهو جعله أخاً للنبي ﷺ ولا يتضمن ذلك استخلافه بعده ﷺ لأن هارون مات قبل موسى عليهما السلام قطعاً ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرني أنظر إليك ﴾ أى ولما جاء موسى للميقات الذى وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه

(الاعراف . ص ٧) عدم الطاقة هذا الخلق رؤية الرب ومنع موسى منها ١٢٢ عز وجل من وراء حجاب بغير واسطة الملك^(١) استشرقت نفسه الزكية العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حمل تجليتك ما أقدر به على النظر إليك ورؤيتك وكال المعرفة بك بالقدر الممكن أي دون ما هو فوق إمكان المخلوقين من الإدراك والاحاطة المنقبة بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) فيراجع تفسير هذه الآية من سورة الانعام (ص ٦٥١ - ٦٥٢ ج ٧ تفسير)

(قال ان تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) أي إنك لا تراني الآن ولا فيما تستقبل من الزمان ، ثم استدرك تبارك وتعالى على ذلك بما يدل على تعليل النفي ، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد ، بإعلامه ما لم يكن يعلم من سنته ، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته . كما قال (ص) في حديث أبي موسى عند مسلم « حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » فقال : ولكن انظر إلى الجبل ، فإني سأجلبى له فان ثبت لدى التجلي وبقي مستقرًا في مكانه فسوف تراني ، لمشاركته له في مادة هذا العالم الثاني ، وإذا كان الجبل في قوة ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء فاعلم أنك ان تراني أيضا وأنت مشارك له في كونك مخلوقا من هذه المادة وخاضعا للسنة الربانية في قوتها وضعف استعدادها (وخلق الانسان ضعيفا) وقبولها للنقاء

روى عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية وروى أبو الشيخ عن ابن عباس قال حين قال موسى لربه تبارك وتعالى (أرني أنظر إليك قال) له يا موسى إنك (لن تراني) قال يقول ليس تراني لا يكون ذلك أبداً ، يا موسى إنه لن يراني أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إلي من أن لا أراك ثم أحيأ . فقال الله يا موسى (أنظر إلى الجبل) العظيم الطويل الشديد (فان استقر مكانه) يقول فان ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض بما يرى من عظمى (فسوف تراني) أنت اضعفك وذلتك ، وان الجبل تضعضع وانهد بقوته وشدة وعظمه فأنت أضعف وأذل اهـ

﴿ فلما تجلبى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ﴾ يقال جلا الشيء .
(١) راجع تفسير (منهم من كالم الله) في أول الجزء الثالث من تفسيرنا وتفسير (وكالم الله موسى تسليما) في ص ٦١ ج ٦ منه

والأمر والتجلى وتجلي بنفسه أو بغيره وجلاه فتجلي — إذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتي أو اضافي أو خفاء على مجتليه وطالبه . ويكون ذلك التجلى والظهور بالذات وبغير الذات من صفة أو فعل يزول به اللبس والخفاء ، وفي صيغة التجلى ما ليس في صيغة الجلاء والانجلاء من معنى التدرج والكثرة النوعية أو الشخصية قال تعالى (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى) فالليل يغشى النهار ويستتره ثم يتجلي النهار ويظهر بالتدرج وفي الأحاديث أن للرب تعالى تجليات مختلفة كما سيأتي .
والدك الدق أو ضرب منه . قال في الأساس : دككته دقته ، ودك الركبة كبسها ، وجل أدك وناقة دكاه : لاسنام لها ، وأدك السنام : اغترش على الظهر ونزلنا بدكداك : رمل متلبد بالأرض اه وأقول : إن الفرق بين الدق والدك كما يؤخذ من الاستعمال العام الموروث عن العرب أن الدق ما يخطب به الشيء ليتفتت ويكون اجزاء دقيقة ومنه الدقيق . وكان القمح في عصور البسادة الأولى يدق بالحجارة فيكون دقيقا ثم اهتسدا إلى الارحية التي تسحقه وتطحنه . وأما الدك فهو الهدم والخطب الذي يكون به الشيء المدكوك ملبدا ومستويا ، يقال أرض مدكوك وطريق مدكوك ، ودك الحفرة والركبة (أي البئر غير المطوية) دفنها وطمها ، ولا تزال سلائل العرب تستعمل هذه المادة بهذا المعنى ويسمون ما يوضع في الحفرة أو الركبة من الحصى والحصباء لأجل تسويتها « الدكة » . قرأ حمزة والكسائي (جعله دكاه) بالمد والتشديد غير ممنون أي أرضا مستوية كالناقة التي لاسنام لها والجمهور (جعله دكا) بالمصدر أي مدكوكا دكا . ومثله في السد من سورة الكهف والخرور والخر السقوط من علوالانكباب على الأرض ، ومنه (يخرجون للأذقان سجدا) والصعق بكسر العين صفة من الصعق وهو ما يكون من تأثير نزول الصاعقة من موت أو إغماء ثم توسع فيه باطلاقه على ما يشبه ذلك . قال الفيومي في المصباح : صعق صعقا من باب تعب : مات ، وصعق غشى عليه لصوت سمعه ، والصعقة الأولى النفخة ، والصاعقة النازلة من الرعد ، والجمع صواعق ، ولا تصيب شيئا الا دكته وأحرقته اه

وأحسن ما ورد في التفسير المأثور لهذه الآية مطابقا لمن اللغة ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرواية عن ابن عباس (فلما تجلى ربه للجبل)

قال: ماتجلى منه إلا قدر الخنصر (جعله ذكاً) قال تراباً (وخر موسى صمعا) قال مغشيا عليه اه ومارواه ابن المنذر عن عكرمة أنه - أى الجبل - كان حجرا أصم فلما تجلى له صار تلاترابا ذكاً من الذكاوات - أى مستويا بالأرض - ولولا ذلك لجاز أن يقال إن صيرورته ترابا وإن كان بمعنى الذكاء والمدكوك لا ينافى استقرار الجبل مكانه وقد ورد في بعض الآثار والأحاديث المرفوعة أيضا أنه ساءخ أى غاص في الأرض ، وهو يتفق مع المعنى الأول ، أى أنه رجع بالتجلى رجا بست بها حجارتها بساً ، وساءخ في الأرض كله أو بعضها في أثناء ذلك حتى صار كما قال بعضهم ربوة ذكاء كالرمل المتلبد والمعنى: فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلى وأدناه أنه دب وهبط من شدته وعظمته وصار كالأرض المذكورة أو النافة الذكاء - وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه كن أخذته الصاعقة والتجلى إنما كان للجبل دونه فكيف لو كان له ؟

وقد روى في تفسير هذه الآيات من الأخبار والآثار الواهية والموضوعة غرائب وعجائب أكثرها من الأسرائيليات. أمثل المرفوع منها ما روى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك (رض) قال «قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلى ربه للجبل جعله ذكاً) قال :- ووضع الإبهام قريبا من طرف خنصره - فساءخ الجبل» وفي لفظ زيادة (وخر موسى صمعا) فقال حميد الطويل لثابت: ماتريد إلى هذا ؟ فغضب صممه أى صدر حميد وقال من أنت يا حميد ؟ يتحدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وتقول أنت : ماتريد إلى هذا ؟ رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وأبناء جرير والمذنب وأبو حاتم وعدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الرؤية وقد انفرد به عند مصححيه حماد بن سلمة وهو من رجال مسلم إلا أنه قد تميز حفظه في آخر عمره كما هو معلوم وله طريقان آخران عند داود بن الحبر وابن مردويه لا يصحان كما قال الحافظ ابن كثير. والمراد من التمثيل بالإبهام والخنصر أن ذلك أقل التجلى وأدناه ، وسأيت من الصحيح ما يؤيد معناه

ومن أنكر هذه الروايات وأوهاها ما روى عن أنس مرفوعا « لما تجلى الله للجبل طارت لمظلمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة . . . » وذكر أساءها قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث غريب بل منكر . أقول لا يدخل

من ألفاظ الآية ولا معناها في شيء.

﴿ فلما أفلق قال سبحانه تكبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ (فلما أفلق) موسى من غشيه ، والتعبير بالأفلق يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي وبطلان تفسير قتادة له بالموت ، وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا أنه رأى ربه فمات ، أو مات ثم رأى ربه ، ولو مات لقال تعالى « فلما بعث » الخ كما قال في السبعين الذين اختارهم من قومه وذهبوا معه إلى النجبل وطلبوا منه أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فانه قال « ثم بمشناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » كما في سورة البقرة ، وسيأتي خبرهم في هذه القصة من هذه السورة — (قال سبحانه) أي تنزيهاك وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سألته أومن لوازمه — أو كما حكى تعالى عن نوح عليه السلام (أن أسألك ما ليس لي به علم) وأكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى ونفى العلم بما يصح عندهم بمعنى أن ما سألته غير ممكن أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا ، لأنه غير ممكن في نفسه وغير واقع البتة ولا في الآخرة . ومعنى التوبة الرجوع والمراد هنا الرجوع عما طلب ، إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب قال مجاهد (تكبت إليك) أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد : أي من بنى إسرائيل ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد ، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال : وهذا قول حسن له النجاشي . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب عن محمد بن سحوق بن يسار وكأنه تلقاه من الأسرائيليات والله أعلم . خلاصة معنى الآية : أن موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى له بدون واسطة فسمع ما لم يكن يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذي لا شبه له ولا نظير في هذا العالم طلب من الرب تبارك وتعالى أن يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتماً أنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه عز وجل ، فكما أنه سمع كلاماً ليس كمثله كلام بتخصيص رباني — استشرف لرؤية ذات ليس كمثله شيء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم يكن عقل موسى — وهو في الذروة العليا من العقول البشرية بدليل العقل

والنقل - مانعاً له من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى - وهما في الذروة العليا أيضاً - مانعين له منه . ولكن الله تعالى قال له (لن تراني) ولكي يخفف عليه ألم الرد وهو كليمة الذي قال له في أول العهد بالوحي اليه (واصطفتك لنفسى) أراه بعينيهِ ومجموع إدراكه من قبوله للعجل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لامن الجود الرباني ، فنزه الله وسبحه وتاب اليه من هذا الطلب ، فبشره الله تعالى بأنه اصطفاؤه على الناس برسالته وبكلامه أى دون رؤيته ، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ، ويكون من الشاكرين له .

✽ قال ياموسى إلى اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى ✽ الاصطفاء اختيار صفوة الشيء وصفوه أى خالصة الذى لاشائبة فيه ، ومنه الصفى من الغنيمة وهو ما اصطفيه الامام أو القائد الأكبر منها ويختاره لنفسه كالختيار للنبي ﷺ السيف المعروف بذي الفقار من غنائم غزوة بدر . وتعمدية الاصطفاء هنا على التضمنه معنى التفضيل ، فالعنى إني اصطفتك مفضلاً إليك على الناس من أهل زمانك بالرسالة ، قرأ ابن كثير ونافع « برسالتى » والباقون « برسالاتى » فأفرادها بمعنى الاسم من الإرسال وجمعها باعتبار تعدد ما أرسل به من العقائد والعبادات والأحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية ، وقيل بتعدد أسفار التوراة وهو ضعيف لأن التوراة ما أوحاه من الشريعة إلى موسى وهو موضوع رسالته وتسمية الأسفار الخمسة بالتوراة اصطلاحية وقد يطلقونها على جميع كتب أنبياء بنى إسرائيل قبل عيسى ﷺ - واصفتك بكلامى أى بتكليمى لك بعد وحى الإلهام من غير توسط ملك وإن كان من وراء حجاب ، وهو ما طلب رفعه لتحصيل الرؤية مع الكلام ، ووحى الله تعالى ثلاثة أنواع بينها بقوله (٥١: ٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء إنه على حكيم) فهذا النوع الأوسط هو الأعلى وقد أعطى لموسى ﷺ بعد النوع الأول وقيل بالعكس ، وقد بينا ما فيه من وجه الخصوصية في تفسير قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) من سورة النساء ٤: ١٦٣

✽ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ✽ أى فخذ ما أعطيتك من الشريعة

« التوراة » وكن من الراستخين في الشكر لنعمتى بها عليك وعلى قومك ، وذلك

بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها ، وكذا لسائر نعمي ، فإن حذف متعلق الشكر يدل على عمومته ، كما أن صيغة الصفة منه تدل على التمكن منه والرسوخ فيه .

﴿ فصل ﴾

﴿ في اختلاف المسلمين في الرؤية وكلام الرب تعالى وتحقيق الحق فيهما ﴾

كان جماعة الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون هذه الآيات وأمثالها ولا يرون فيها اشكالا ، وهم أعلم العرب بلغة القرآن وبمراد الله تعالى من آياته فيه لتلقيهم إياها من الرسول المنزلة عليه الأمور فيها ببيانها للناس ، ثم انتشر الاسلام ودخل فيه من الأعاجم من كانوا على أديان مختلفة وصاروا يتلقون لغته بالتلفين ويقتبسونها بمعاشرة العرب الخالص ثم بالتعليم الفنى ، ثم صارت السلاسل العربية كذلك . ثم حدثت في الجميع الاصطلاحات العلمية والفنية لما وضعوا من العلوم الشرعية كأصول العقائد والفقه والحديث ، واللغوية : كالنحو والصرف والبيان . ولما ترجموا من كتب علوم الأوائل وما زادوا فيها من الرياضيات والعقليات والوجدانيات . وسائر سنن الموجودات ، فامتزجت هذه الاصطلاحات بلغة القرآن والحديث . فصارت آلات لفهمهما ، وسببا للخطأ في تعيين بعض المراد منهما .

ثم حدث ما هو أدعى إلى الخطأ في الفهم وهو عصبية المذاهب والشيعة التي فرقت بين المسلمين ، على ما جاء في التفرق والتفريق من الوعيد الشديد ، فصار كل منهم إلى شيعة وحزب لا ينظر في الكتاب والسنة إلا بالمنظار المعبر عنه بمذهب الحزب ، وإن كان من أهل النظر والاستدلال ، ومدعى الاجتهاد والاستقلال . والبداهة قاضية بالتضاد بين التقيد بالمذاهب ، والاستقلال الصحيح المسمى عندهم بالاجتهاد المطلق .

وهناك سبب آخر وهو حشر الاسرائيليات والروايات الموضوعة والواهيية في تفسير القرآن وكتب السنة ، وتقاصر الأكثرين عن تمحيصها ، والتمييز بين حقا وباطلها ، حتى إن بعض الاسرائيليات قد اشتبه بالأحاديث المرفوعة ، كما بينه بعض الحفاظ ، ومنهم ابن كثير في تفسيره .

فهذه الأسباب أبطلوا مزية كتاب الله وخاصيته في رفع الخلاف والتفرق المفسدين لأمر الأمة اتباعاً لسنن من قبلهم وهم لا يشعرون ، لأنهم جعلوه هو موضع الخلاف أيضاً ، قال تعالى (٢: ٢١٣) كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم (الآية) . وقال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال تعالى (٤: ٥٩) فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً)

فأرد إلى كتاب الله وما بينه من سنة رسوله لإزالة التنازع وحسم الخلاف تفادياً من التفرق والتنازع المناق لوحدة الدين يتوقف على جعل الكتاب وبيان الرسول له فوق التنازع واختلاف المذاهب والشيعة ، وإلا كان الدواء عين الداء

فإن قيل : إن القرآن ليس موضوع اختلاف بين الشيعة والأحزاب المختلفة في المذاهب الإسلامية ، فهم مجمعون على أن من رد شيئاً منه كان مرتداً عن الإسلام - إن كان قد عد من أهله - وإنما الاختلاف في فهمه ، وأما السنة فاختلَفوا في رواية بعضها وفي فهم بعض ، ومن صح عنده منها شيء يتعلق بأمر الدين وجب الأخذ به في كل مذهب من المذاهب التي يعتمد بإسلام أهلها . والاختلاف في فهم ما كان غير قطعي الدلالة ضرورياً لا يتناوله مثل قوله تعالى (٣: ١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم)

ونجيب عن هذا - أولاً - بأنهم إنما كانوا كذلك في كل ذلك قبل الفتن وعصبية المذاهب . وأما بعدها فقد صرح بعض كبار فقهاء الحنفية بأن الأصل عندهم في كل حكم كلام أصحابهم ، فإن وجدوا آية تخالفه (١١) التمسوا لها ناسخاً ، فإن لم يجدوا أولوها ، وإن وجدوا حديثاً مخالفاً له (١١) بحثوا في أسناده فإن وجدوا فيه مطمئناً نبذوه وإلا فعلوا في النقص منه ما يفعلون في النقص من القرآن (١١) وقد جرى على ذلك أهل كل مذهب إلا أفراداً من كبار النظار خالفوا المذهب في بعض المسائل الكلامية والأصولية بالدليل ، وبعض كبار المحدثين رجحوا بعض الأحاديث الصحيحة الصريحة على المذهب ، وإن شئت فراجع بعض الشواهد على رد

لهافي «كتاب اعلام الموقعين» المحقق ابن القيم. و - ثانياً - بأن الله تعالى يكلفهم أن لا يعملوا ما ليس قطعي الدلالة سبباً للفرق والتعاضد وتأليف الأحزاب والشيعة التي يلحق أتباع كل منها فهم رجل أو رجال يسمونه مذهبهم. يتعلمون معه الرد على مخالفهم وتفسيرهم أو تكفيرهم ، وبهذا كان الاختلاف ضاراً ومفسداً على المسلمين ومن كان قبلهم من أهل الملل لأموال دينهم وديارهم ، وهو المراد بقوله تعالى لرسوله ﷺ (٦ : ١٥٩) إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء (الآية ولولاه لما كان أولئك العلماء الاعلام من المعتزلة والاشعرية يتنازعون بالألقاب ، ويتبارون بالسباب ، ويتهاجون بالأشعار ، كقول الزمخشري المعتزلي بعد تفسيره لآية الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها : ثم تعجب من المتسمين بالإسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة ، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ؟ ولا يغرنك أن تترحم بالبلدكة ، فانه من منصوبات أشياخهم - يعني بالبلدكة قولهم انه تعالى يرى بلا كيف أى ان رؤيته ليست كروية أهل الدنيا بعضهم لبعض فيما يلزمها من كون المرئي جسماً كشيءاً تحيط به أشعة البصر - ثم قال والقول ما قال بعض العدلية فيهم : وجماعة سموها هوام سنة لجماعة حمر لعمرى موكفة قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلدكة

يعنى بالعدلية جماعة المعتزلة فانهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد فانظر إلى جملة اثبات الرؤية الثابتة في الأحاديث المتفق على صحتها منافياً للأقسام بالإسلام والتمسك بأهل السنة ، وهو يعلم أنهم ينفون التقشيب في الرؤية بالنصرح كما ينفيه هو ، فلولا تعصب المذهب لما ألزمهم إياه بدلالة اللزوم الضعيفة التي قالوا فيها «لازم المذهب ليس بمذهب» قيل مطلقاً وقيل فيما لم يدل الدليل على التزام صاحب المذهب له ، وأما ما صرح بنفيه فلا وجه لاسناده اليه البتة ، ومن نسبه اليه وذمه به كان ظالوما جهولاً . ولو أن الزمخشري وشاعر العدلية لم يقولوا ما قالوا من الطعن والهجو في أهل السنة بأن اكتفى الزمخشري في تأويل أحاديث الرؤية بما أولها به من كون الرؤية فيها عبارة عن كمال المعرفة الجلية لما جوزيا على ذلك بمثل ذنبها أو أكثر كما قال أحمد بن المنير الاسكندري في (الانتصاف) حاشيته على الكشف : وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعده الله ما لن يخلقه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم ، فحسبهم سنة
وتلقبوا الناجين ، كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفة
والشيخ تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع وغيره مثل هذا الشعر المحزن ،
والباديء بالشراً ظلم ، وهؤلاء الذين هجوا عدلية المعتزلة بمنزل ما هجا به شاعرهم
أهل السنة كافة هم من الأشعرية الذين يقولون مثلهم بالتأويل ، ويشنعون على
إخوانهم من الحنابلة وغيرهم من السلفيين في بعض مسائل التفويض كالنصوص
في علو الله تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، التي اتبعوا فيها إجماع السلف أو
جمهورهم الأعظم في إمرارها كما جاءت مع تنزيههم الرب تعالى عن مشابهة الخلق
والتحيز والحد والحلول ؛ لأن أصل عقيدتهم أنه تعالى مبين خلقه بذاته وصفاته
(ليس كمثل شيء) بل أول الامام أحمد بن حنبل نفسه نصوص المعية كقول
تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فخصه بالعلم

فالحق الواقع أن المختلفين في فهم النصوص من المسلمين الصادقين يؤمنون
بها ويعظمونها ولكن غلب على قوم ترجيح جانب التنزيه حتى انتهى ببعضهم
إلى التعطيل ، وجعل صفات الرب تعالى سلبية بضروب من التأويل ، وغلب
على قوم جانب الأخذ بالظاهر في ذلك حتى وقع بعضهم في التشبيه فعلا ، كأن
الكتاب والسنة خلو من المجاز والكناية في ذلك مع العلم بأن ما عدا اسم الجلالة من
ألفاظ اللغة قد وضع قبل نزول القرآن للتعبير به عن المخلوقات وشؤونها ، فالفرقان
أرادا تعظيم الرب تعالى وسد ذريعة القول في ذاته وصفاته بقدر الحق الذي يرضيه ،
هؤلاء خافوا التعطيل برد شيء من النصوص أو تحكم الأهواء في تأويلها - وأولئك
خافوا الوقوع في تشبيه الرب سبحانه بخلقهم ، وسد ذريعة ما يعد نقصا في حقه ،
فألنية كانت حسنة من الجانبين كما قال شيخنا الشيخ حسين الجسر الطرابلسي
رحمه الله تعالى في درسه عند قراءة شرح السنوسية والجوهرة

ولكن الذين ضلوا بالتأويل والتعطيل كثيرون حتى خرجت به عدة فرق من
الملة بعضهم باطنا وظاهراً وبعضهم باطنا لا ظاهراً ، كالباطنية الذين تركوا أركان
الإسلام ، من صلاة وزكاة وحج وصيام ، زاعمين أن لها معاني غير ما عمل به
النبي ﷺ وأصحابه وأجمع عليه المسلمون ، وكفلاء الصوفية الذين ذهبوا في التأويل
إلى ما وراء طور العقل والنقل وأساليب اللغة ، فادعوا أنهم يرون الله تعالى عيانا

في جميع الصور ، ويتلقون عنه كلاً نبياء ، وأن فيهم من هم أفضل من الأنبياء وأعلم بالله تعالى ، ومنهم من ادعى رفع التكليف عن بلغ مقاماتهم في المعرفة ، بل منهم من خلا في وحدة الوجود إلى ادعاء الربوبية للبشر والبقر ، والحجر والمدر ، وما يستحي أو يشتره قلم المتدين الأديب عن ذكره - وإلى عدم التفرقة بين موحد ومشرک ، ومؤمن وكافر ، وبروفاجر وعادل وجائر ، وطيب وخبيث ، ولا بين نافع وضار ، وطهور ورجس . ويستدلون على عقائدهم أو مزاعمهم بالآيات والأحاديث ، بضروب من التأويل ، وقد قال بعضهم :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ولم يقع من فرقة تأخذ بظواهر نصوص الكتاب والسنة من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، في مثل هذا الضلال البعيد ، ثم ولأه الظاهرية ومن يسمونهم غلاة الخنابلة من أقوى المسلمين إيماناً ، وأصحهم اسلاماً ، وما رموا به من التشبيه والتمثيل الذي نفاه النص والعقل ظلم سببه التعصب المذهبي . فإذا كانوا يثبتون للرب تعالى كل ما أثبتته لنفسه في كتابه ، وأثبتته له رسوله فيما صح من حديثه ، حتى فيما يفوضون كنهه إليه تعالى للاعتراف بأن عقولهم لا تحيط به ، فهل يعقل أن يثبتوا له ما نفاه عن نفسه بقوله (ليس كمثل شيء) وهو مما يعقلونه ولا يعقلون ضده ؟ كلا إن تعصب أصحاب النظريات الكلامية من المعتزلة ومن يقرب منهم من متأولي الأشعرية هم الذين افتاتوا عليهم بما ألزموهم إياه مما نفوه من لوازم ماصح في الكتاب والسنة من علوه تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وكونه ينزل إلى سماء الدنيا ويحب ويبغض ويضحك الخ مع استصحاب نص التنزيه ، فهم لا يرون فرقاً بينها وبين كونه يسمع ويبصر ويتكلم ، وكذا يعلم ويريد ويشاء ويقدر ، فكل ذلك مما يطلق على الخلق والخلق مع انتفاء التشبيه ، وإعماذنبهم عندهم أنهم لا يستعملون نظريات أفكارهم في التحكم بتأويل هذه النصوص ، ولم يكاف الله تعالى أحداً من خلقه هذه النظريات الفلسفية الكلامية ، وإعماذنبهم الإيمان بجميع ما جاءهم به رسله (ص) وأصل الدين الذي بعث الله تعالى به جميع رسله إلى خلقه هو أن يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئاً من خلقه ، وأن يعبدوه بما شرعه لهم دون غيره ، إذ ليس لغيره أن يشرع شيئاً من الدين بدون أذنه . قاله تعالى قد شرع

الدين لجميع أفراد الأمة ، وهذه الفلسفة الكلامية من دقائق النظريات الفكرية التي انفرد بالنفوس عليها أفراد معدودون من أذكى أكياء الأمم ففترقوا فيها واختلفوا لأن التفرق والاختلاف من لوازمها البينة ، فعصوا الله تعالى في نهيه عن التفرق والاختلاف في الدين ، فكيف يقول عاقل إن جميع المؤمنين قد كفوها ، وإذا كانت صحة الإيمان تتوقف عليها ، فكم عدد المؤمنين في الأمة كلها ؟ وإذا كان الحق فيها واحدا كما يقولون فكم عدد أهل الحق منهم ؟ وكيف السبيل لدى كل من احتسرك الحق فيها لنفسه إلى تلقين السواد الأعظم من الأمة ما يراه بحيث لا يقبل سواء ؟ فإن كان هو أصل الدين الذي لا يقبل الله غيره ففهم الدين متعذرا على كثرة الأمة وأما ما كان عليه السلف الصالح في صدر الأمة فكان سهلا ويسيرا كما وصف الله ورسوله هذا الدين وهذه الملة ، كان جميع المسلمين في الصدر الأول يصفون الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه له بأحد من خلقه ، ومن غير هذه الفلسفة الكلامية التي لم يشرعها الله تعالى ولا أنزل بها من سلطان ، ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة ، ومن خاض فيه بعد ذلك من أتباعهم فلائهم ظنوا أنه يتوقف عليه إبطال البدع وإزالة الشبهات المشكلة في الدين لآلذاته ، وأرادوا به إزالة الخلاف فزادهم خلافا وافترقا ، حتى صار أكثرهم يزعم أن العقائد الصحيحة لا تعرف إلا به ، ويحصرونها كل فريق في مذهبه ، ولا سلامة للمسلمين في دينهم وديارهم إلا بالرجوع في الدين المحض إلى ما كان عليه السلف وفي أمور الدنيا إلى ما أثبتته العلم والتجارب في هذا العصر ، وأن يبتدؤوا جميع الأسباب والكتب التي كانت مثارا لخلاف والتفرق وراء ظهورهم ، ولا يجعلوا قول عالم من علمائهم ولا فهمه سبيلا للتعادي والتفرق بينهم بل يمدوا كل مائيس قطعي من كتاب ربهم وسنة رسولهم واجتماع سلفهم من الاجتهاد الذي يعذر به من قام دليله عنده ومن وثق به ولا يكون حجة على غيره وقد فصلنا القول في هذا في مجملتنا (المثار) مرارا . فبهذا يزول ضرر اختلاف المذاهب في الأصول والفروع ، ويتراجع الجميع إلى وحدة الدين وأخوة الاسلام ، فينالوا من سعادة الدنيا ثم الآخرة ماشرع الله لهم الدين لأجله

بعد هذا التمهيد نقول : إن مسألة الكلام الإلهي كسألة الرؤية فيما اختلف فيه

من تأويل وتفويض ، اجتناباً من قوم للتعطيل ومن آخرين للتشبيه . وإعما الفرق بينهما أن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح في القرآن المجيد في آيات متعددة لا تعارض بينها ، وأما رؤية الرب تعالى فربما قيل بادية الرأي . إن آيات النفي فيها أصرح من آيات الإثبات كقوله تعالى (لن تراني) وقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فهما أصرح دلالة على النفي من دلالة قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) على الإثبات ، فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وكلام العرب كقوله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة) - هل ينظرون إلا تأويله - هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) وثبت أنه استعمل بهذا المعنى متعدياً بالي ولذلك جعل بعضهم وجه الدلالة فيه على المعنى الآخر ، وهو توجيه الباصرة إلى ما تراد رؤيته - أنه أسند إلى الوجوه وليس فيها ما يصح إسناد النظر إليها إلا العيون الباصرة ، وهو في الدقة كما ترى ، ولذلك اختلف في فهمها العلماء قبل هذه المذاهب ، فقد روى عبد بن حميد عن مجاهد تفسير (ناظرة) بقوله : تنتظر الثواب . قال الحافظ ابن حجر : سنده إلى مجاهد صحيح ، والجمهور يرون فهم مجاهد غير صحيح ولكن المعتزلة والخواارج والشيعة يروونه صحيحاً ، وفي الفريقين من أساطين علماء اللغة ما يسوغ لك أن تقول : لكنه كقالبه ليس صريحاً ، أو ليس قطعي الدلالة بحيث يمد حجة على جميع المكلفين ، ويمتنع جعل تأويله عذراً للمخالفين . وقد كان النبي ﷺ يمد أصحابه في اختلاف فهمهم للنصوص ، ويقرهم على ما كان للاجتهاد فيه وجه وجهه كأخذ بعضهم بظاهر تنبيه إياهم عن صلاة العصر إلا في بني قريظة إذ ذهب بهم إليهم ، وأخذ الآخرين بفحواه وهو عدم التخلف ، فصلى هؤلاء في الطريق وأدركوا معه بني قريظة في الموعد ، ولم يصل أولئك العصر إلا فيها ، وكما فهم بعضهم تحريم الخمر والميسر من آية البقرة التي رجحت أنهما على منافعهما فتركوهما ، ولم يتركوهما من لم يفهم ذلك وهم الآن كثيرون إلا بعد نزول النص القطعي باجتنابهما .

فاذا محصنا أسباب الخلاف من جهة النصوص وحدها وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها ما يصح أن يكون له عذراً عند الآخر بمنع جريمة التفرق في الدين ، وجعل أهله أحزاباً وشيعاً متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذي كاد يجعله كالسكر ، مادام كل منهم يعلم أن الآخر يؤمن بأن جميع ما جاء

به الرسول ﷺ من الدين حق ، وأن الخلاف محصور في اختلاف الفهم .
وما كفر بعض علماء السلف بعض منكرى الرؤية وغلاة التأويل لصفات الله تعالى وغير هامن النصوص إلا لا اعتقادهم أنهم زنادقة لبسوا لباس الإسلام للافساد ، وبث دعوة الاتحاد ، والتجربة على رد نصوص القرآن والسنة التي تلقاها الصدر الأول بالقبول أو تحرر بها بالتأويل عما فهمه أو عما ثبت عندهم بالعمل إذ كانوا قد عدوه وأز بهض اليهود كعبدة الله بن سبأ وبشر المريسي وبعض المجوس ومن سلاطهم جهنم صفوان قد بشوا في المسلمين دعوة الكفر أو البدع الداعية إلى النفاق ، أو المفضية إلى الشقاق ، فالامام أحمد كفر منكرى الرؤية من هؤلاء لا اعتقاده فيما نرى أنه اصادرة عن زندقة ، لا لأن هذا الانكار نفسه زندقة بحيث يرتد المسلم المؤمن بالنصوص كلها بقلبه ولسانه وعمله إذا فهم أن آيات نفي الرؤية هو الأصل المحكم الذي يرد إليه ما ورد من الآيات والأحاديث في إثباتها ، إذا الأول هو الموافق للعقل والنقل وهو التنزيه ، دون الآخر المستلزم عنده للتشبيه ، الواجب تأويله للجمع بين النصوص لا رد شيء منها . وأهل السنة يعذرون المتأول وكذا الجاحد لما ليس مجمعا عليه معلوما من الدين بالضرورة فلا يكفرونه بخالفته للظواهر ، ولا يمدون البدعة من هذا القبيل مسقطا للعدة في الرواية ، قالوا إلا إذا كان صاحبها داعية ، لأن الدعوة إلى أمر ديني لم تؤر عن الصدر الأول أحداث لغتة وتفريق بين الموحدين كمسألة خلق القرآن ، فما القول في الدعوة إلى ما أثر عن الصدر الأول خلافه كالرؤية ؟ ثم ما القول في الدعوة إلى مخالفة النصوص القطعية التي لا تحتمل التأويل لغيره ولا شرعا ومخالفة ما أجمع عليه المسلمون وهو معلوم من الدين بالضرورة كدعوى الباطنية المعلومة ، ومثلها دعوى المسيحية القاديانية الهندية ، التي يلقب أهلها بالأحمدية ، أن رئيس نحلتهم ميرزا غلام أحمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم ، السالبيين لاستقلالهم الباطنيين لشريعتهم ، ولا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع بالقتال عن ملته ووطنه ، وإنما جعل القادياني هذا من أصول دينه خدمة للانكليز ، ولا يزال الباب مفتوحا عند أتباعه مثل هذا بزعمهم أن وحى النبوة متصل في خلفائه وأتباعه ، فالقول بهذا خروج من ملة الاسلام ، لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا

حج ولا صيام ، وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل ، فإن قيل : إن كلام من مثبت رؤية الرب تعالى في الآخرة ونفاتها قد ادعى بعضهم أن النصوص التي يستدل بها على مذهبه قطعية ، حتى إن الثاني جعل نصوص الاثبات دالة على النفي ، والمثبت جعل نصوص النفي دالة على الاثبات ، كقول بعض النفاذ إن قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) يفيد الحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق أي تنظر إلى ربها وحده دون سواء كقوله (ألا إلى الله تصير الأمور) (وأن إلى ربك المنتهى) أي لا إلى سواء ، ولما كان عدم نظرها إلى غير ربها ممنوع عقلاً ونقلاً وجب حمل النظر على معناه الآخر وهو الانتظار بمعنى أنها لا تنظر الخ لغير من غيره (راجع الكشاف) ويقابل هذا من بعض أهل الاثبات الاستدلال بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) على رؤيته تعالى من حيث إن الإدراك معناه الاحاطة ، وإدراك الأبصار إنما احاطتها بالمرئي ، فنفي الإدراك يستلزم إثبات رؤية الإدراك فيها ، فكأنه قال لا تدركه الأبصار التي تراه وهو يدرك الأبصار التي يراها ويحيط بها . ونظيره قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) أي هو يحيط بهم علماً لأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم (والله من ورائهم محيط) وهم لا يحيطون به علماً لأن إحاطة المحيط به بالمحيط محال ، وهو يستلزم إثبات أصل العلم به لانفيه ، كآية نفي إدراك الأبصار ، وكل منها جار على قاعدة معروفة في اللغة وهي أن نفي المقيد يقصده إلى القيد وأن نفي وصف خاص لمعنى عام يستلزم إثبات ذلك العام ، كقوله : فلان لا يشبع - فإنه إثبات للأكل ونفي للشبع .

هذا توجيه لهذا الاستدلال فتح الله تعالى به علينا وقد رأينا للشيخ تقي الدين بن تيمية توجيهاً آخر ملخصه أن الله تعالى ذكر هذه الآية في مقام التمدح وإنما يكون المدح بالأوصاف الثبوتية لا بالعدم المحض ، وما تمدح تعالى بأمر سلمي أو عديم إلا إذا تضمن معنى ثبوتياً كنفى السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية ونفي الموت المتضمن لكمال الحياة ونفي الشريك والظهير المتضمن لكمال الربوبية والالهية ، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن لكمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته . . . قال فكذلك نفي إدراك الأبصار ليس معناه أنه لا يرى بحال ، لأن هذا يشاركه فيه العدم المحض والرب جل جلاله يتعالى أن يتمدح بما يشاركه فيه العدم المحض ، فالمعنى إذن أنه يرى

ولا يدرك ولا يحاط به - كمنظاره - فقوله (لا تدركه الأبصار) يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به،^(١) فإن الإدراك هو الاحاطة بالشئ، وهو قدر زائد على الرؤية. ثم استدل على هذا المعنى لغة بما تستغنى عن ذكره بما أوردناه في تفسير هذه الآية من سورة الأنعام فقد حققنا المعنى اللغوي للإدراك والمعنى بمسألة الخلاف في الرؤية ووعدنا بتفصيل الكلام فيها عند تفسير آية الأعراف التي نحن في صدد تفسيرها الآن (وجوابنا) عما ذكر أن هذه الدقائق اللغوية مما يخفى على أكثر علماء اللغة وكذا أهل السلفية أيضاً ولذلك اختلفوا في معناها فكيف يقال في شيء منها أنه نص قطعي لا يحتمل التأويل؟

وغرضنا من هذا التطويل ببيان حجج كل فريق اقتناع أهل البصيرة في الدين والأخلاص في جمع كلمة المسلمين، من المستقلين في الفهم، والراسخين في العلم، حتى المولودين في مهور المذاهب، والناشئين في حجور الأحزاب والشيعة، أن يجتهدوا في التوفيق والتأليف، ومنع جعل هذه المسألة وأمثالها من أسباب التفريق، فضلاً عن جعلها من أسباب التكفير أو النفي، وليعذرنا من يرانا نخالف فهمه أو مذهبه في ترجيحنا للمأثور عن جمهور السلف الصالح فيها وفي جميع أمور الدين، ثم ليعذرنا أخواننا السلفيون في تقريب مذهب السلف إلى العقول التي لا يرجى أن تهتدي به وتأخذة بالقبول إلا بإثباته بما ألفت من طرق الاستدلال، وإيضاحه بما يقر به إليها من ضرب الأمثال، وقد سبق لنا تحقيق هذين الأمرين معا بقتوى نشرت في ص ٢٨٢ - ٢٨٨ من المجلد التاسع عشر من المنار، فيحسن أن تضاف إلى هذا البحث، وإن يلخص الموضوع في قضايا معدودة تكون أضبط له وأجمع للمحتاج إليه المسلمون منه في دنياهم وآخرتهم، وإن كان فيه تكرار فإن التكرار في إيضاح الحقائق ضروري

وإننا نقدم بين يدي ذلك قضايا جامعة في المسئلة وماورد فيها من الأحاديث الصحيحة، وأقوال السلف والخلف فيها.

(١) تعليلنا هنا لعدم ادراكه تعالى باحاطته بكل شيء، اظهر وابعد عن الإيهام من تعليل شيخ الإسلام إياه بمظننه سبحانه، واظهر منه تعليل آية الاعراف نفسها إياه بلفظه تعالى، وكل منهما صحيح ولكل منهما موقع - راجع ص ٥٦ ج ٧ تفسير.

قضايا جامعة في مسألة الرؤية .

(١) ان اثبات رؤية الرب تعالى في الدار الآخرة المخالفة لهذه الدار في شؤونها وشؤون أهلها وسنن الله تعالى فيهما بالقيود التي قيدها بها المثبتون لها من تنزيهه تعالى عن مشابهة خلقه - ليس من المحالات العقلية الثابتة بالضرورة والالما وقع فيها خلاف ألبتة ، ولا بالبراهين العقلية التي تنتهي إلى الضرورة وإلا لارتفع الخلاف فيها بين حذاق النظر عند وصول البرهان إلى هذا الحد ، ولم يقع هذا ولا ذاك

(٢) ان الآيات القرآنية فيها ليست نصوصاً قطعية الدلالة في الإثبات وحده ولا في النفي وحده ، وإلا لما وقع الخلاف فيها ألبتة ، وقد وقع هذا الخلاف فيها بين قليل من السلف وكثير من الخلف ، ففهم عائشة لآية الأنعام ومجاهد لآية القيامة مخالف لرأى جمهور أهل السنة - فلم أنها غير قطعية الدلالة بحيث لا تحتمل إلا أحد الوجهين ؛ فهي إذن ظنية والترجيح فيها بين مظاهره الإثبات ومظاهره النفي محل الاجتهاد ، ولا شك في أن كلا من المثبتين والنفاة يعتقد صحة ترجيحه نظراً واستدلالاً ، أو اتباعاً وتقليداً . فالمسألة بينهما مشتركة الالتزام ، فلا وجه لظن أحد منهما في دين الآخر ولا في علمه بها .

(٣) ان في الأحاديث الصحيحة من التصريح في اثبات الرؤية مالا يمكن المراء فيه ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعي ، وفيها ما قد يدل على عدم الرؤية ، فيأتي فيها الخلاف بين السلف والخلف حتى من المنسوبين منهم إلى السنة ، كالاشعرية بين التفويض والتأويل ، لأنها بحسب اصطلاحهم من النصوص الموهمة للتشبيه ، وقد قال صاحب جوهر التوحيد من الاشعرية :

وكل نص أوهم التشبيهاً أوله أو فوض ورم تنزيهاً

(٤) ان جمهور السلف والحنابلة وأكثر أهل الحديث يفوضون في جملة النصوص الواردة في صفات الله تعالى وشؤونه وأفعاله بمعنى أنهم يبرونها كما جاءت من غير تحكم في تأويل يخرجها عن ظواهر معانيها وينزهونه سبحانه عن مشابهة خلقه فيما أطلق عليهم من مثل تلك الألفاظ الدالة على تلك الصفات والشؤون والأفعال ، وان جمهور الخلف من سائر الفرق يتأولون ما عدا صفات المعاني ، كالعلم والقدرة والارادة حتى الاشعرية من أهل السنة ، وإنما تراهم أقرب إلى السلف في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها مع المعتزلة كالإكلام

الإلهي ورؤية الرب سبحانه وتعالى . وقد شنع بعضهم على الحنابلة بأشد ما يشنعون به على المعتزلة ، ولكنهم لانفاقهم على كون أحمد بن حنبل من كبار أئمة السنة يسلمونه ممن يشنعون عليهم من أتباعه سلا ، ويبرؤنه من أقوالهم فرعاً وأصلاً

(٥) إن من أصح الشواهد على ما ذكرنا في هذه القضايا العامة ما رواه الشيخان عن مسروق عن عائشة واللفظ لمسلم قالت « ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال مسروق : وكنت متكثراً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظري في ولاتك جليلة . ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلقه الله عليها إلا هاتين المرتين . رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . فقالت أو لم تسمع أن الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أو لم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فبوحى بأذنه ما يشاء إنه على حكيم) ؟ قالت : ومن زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) فمأثشة وهي من أفصح قریش تستعمل بنى الإدراك على نفي الرؤية مع ما علم من الفرق بينهما ، وتستعمل على نفيها أيضاً بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) وقد حملوا هذا وذاك على نفي الرؤية في هذه الحياة الدنيا ، ولكن إدراك الأبصار للرب سبحانه محال في الآخرة كالدينا ، والتعليل الصحيح لمثبتي الرؤية في الآخرة دون الدنيا أن البشر لا يقوى خلقه الدنيوي المعد للغناء ولا يطبق رؤية الرب تعالى كما تقدم ، ويقويه بعض الشواهد الأخرى ، وفيه بحث ذكرناه في الفتوى .

(٦) ومنها ما رواه مسلم من حديث أبي موسى (رض) قال « قام فينبأ رسول الله ﷺ بنحو ما كانت تقول (١) أن الله عز وجل لا ينسأ ولا يلبس له أن ينأ (٢) ينفض القسط ويرفعه (٣) يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ،

وعمل النهار قبل عمل الليل (٤) حجاب النور - وفي رواية النار (٥) لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه» ^(١) والمعنى أن النور العظيم هو الحجاب الذي يحول بينه وبين خلقه وهو بقوة وعظمته ملتهب كالنار ، ولذلك رأى موسى عليه السلام عند ابتداء الوحي نارا في شجرة توجه همه كله اليها فنودي الوحي من وراءها ، وفي التوراة أن الجبل كان في وقت تكليم الرب لموسى عليه السلام وإيقاظه الألواح مغطى بالسحاب «وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل امام عيون بني اسرائيل» (خروج ٢٤: ١٧) ورأى النبي الخاتم الأعظم ﷺ ليلة المعراج نورا من غير نار وربما كان هذا أعلى واسكنه كان حجابا دون الرؤية أيضا ، فقد سأله أبو ذر (رض) «هل رأيت ربك ؟ فقال : نور ، أنى أراد ؟» وفي رواية أخرى «رأيت نورا» ومعناها معاً رأيت نورا بمعنى من رؤيته لأنه تعالى نور ، وأنه لذلك لا يرى ، وهذا يتلاقى ويتفق مع قوله «حجاب النور» ولذلك جعلنا أحاديث النور شاهدا واحدا في موضوعنا . وهي تدل على عدم رؤية ذات الله عز وجل وامتناعها كما تمتنع رؤية شيء تكون الشمس دونه حجابا له ، فمن ذا الذي تنفذ أشعة نور بصره من نور الشمس ونارها إلى ما وراءها فتبصره ؟ وما هذه الشمس التي يراها على بعد قدره علماء الهيئة الفلكية بأكثر من تسعين مليون ميل وسائر الشموس البكثيرة التي يرونها بالناظير المقربة للأبعاد والتي لا يرونها إلا ببض ما أقاضه تعالى من النور على خلقه وهو نور السموات والأرض وسبحات نور وجهه أعظم وأقوى ، وأجل وأعلى ، فلا تذكر معها أنوار الشموس إلا من باب ضرب المثل الذي ورد (ولله المثل الأعلى)

وقوله ﷺ «لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه» يدل على أن رؤية ذاته عز وجل رؤية إدراك مما تمتنع على جميع

(١) قول أبي موسى (رض) قام فينا بخمس كلمات معناه انه قام بهم مرة أو ليلة يعلمهم فيها هذه الكلمات الخمس وشرح لهم معانيها . والقسط كما في نهاية ابن الأثير ميزان أعمال العباد المرتفعة اليه أو أرقاقهم النازلة من عنده أي يرفع درجات أعمال بعض العاملين وهم الصالحون المصلحون ويخفض درجات آخرين وهم اضدادهم - أو يزيد وينقص في الارزاق كالوزان الذي يزن لكل مشر بتدري ماله . فالكلام كشيل ، وسبحات وجهه نوره وبهاؤه وجلاله ، قاله النووي .

الخلق حتى الملائكة في الملأ الأعلى لافي الدنيا فقط ، لأن الوجه يعبر به عن الذات وفسروا وجه الله بذاته وإن كان في أصل اللغة ما يواجه به الشخص غيره وفيه معارفه أى ما يعرف به ويمتاز عن غيره . ومعنى الجملة أنه تعالى لو كشف عن وجهه حجاب النور المخلوق الذى هو منتهى ما يصل اليه أكل البشر عند ارتقائهم إلى أعلى درجات المعرفة والعلم به عز وجل ، وتبلى سبحانه للخلق كافة بدون هذا النور الذى يحجبهم عنه ، لأحرقت سبحانه ما انتهى اليه بصره منهم ، أى لأحرقتهم كلهم فان بصره تعالى محيط بكل موجود في العالم كله من سمائه وأرضه ، وهو ضرب مثل خلاصته أن آخر ما يصل اليه العلم هو اكتشاف الحجاب الأخير الذى هو الفاصل بين المخلوق والخالق وهو النور الذى هو مبتدأ التكوين ، ومصدر التطور والتولين

قال الله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً) وخلق الناس وكذا سائر المخلوقات أطواراً قد فصل في علوم سنن الله في التكوين ، ففي خلق الانسان من ذكر وأنثى أطواره ، وفي خلقه قبل ذلك من سلالة من طين أطوار . وفي التكوين الأول للأرض التي خلق منها أطوار ، وهي بعد المادة التي خلق منها السموات والأرض المشار إليها بقوله (أولم يرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) وقوله (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) الخ ، والظاهر أن هذه المادة المعبر عنها أو المشبهة بالدخان في هذه الآية هي المشبهة للغيام المشابه للدخان في قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) فهذا كلام عن إعادة الخلق يوم القيامة وهي النشأة الأخرى ، وذلك كلام في بدئه وهي النشأة الأولى ، وقد قال تعالى (٢٩: ٢٠ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) وقال (١٩: ١٠٤ كما بدأنا أول خلق نعيده).

إذا تذكرت هذا فاعلم أن كل ما يشغل الانسان عن معرفة الله تعالى ومراقبته من أطوار الخلق وشؤونه فهو حجاب له عنه فالحجب بين العبد والرب كثيرة وطوبى لمن آمن وعرف أن له رباً وأن هذه المخلوقات حجب دونه ، وأنه فوقها بائن منها لا تشبهه ولا يشبهها ، فإنها حينئذ قد تكون من وسائل معرفته وشكره ومحبته . ولا تكون حجباً إلا دون إدراك كنهه وحقيقته ، وأن من الناس من تكون حجباً له دون

الإيمان والمعرفة ، وسيأتي الفرق بين الفريقين في شاهد آخر . وقد روى الطبراني في الأوسط من حديث أنس (رض) مرفوعاً « سألت جبريل هل ترى ربك؟ قال إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور، ولو رأيت أذناها لاحتقرت » ورواه عنه سمويه بلفظ « سبعين ألف حجاب من نور وفار » وفي النهاية لابن الأثير أن جبريل عليه السلام قال « لله دون العرش سبعون حجاباً لو دونوا من أحدها لاحترقنا سبعين وجه ربنا » وهذه الروايات صحيحة المعنى وإن كانت ضعيفة الاسناد لما يؤيدها من الصحاح وعلماء الهيئة الفلكية يرون بما اكتشفوه بمناظرهم المكبرة عياناً أن أكثر هذه النجوم التي نراها أو ماعدا الداراري والأقمار منها كلها شموس منها ما هو أعظم من قمرنا عالمنا هذا أو بعد منها بسنين كثيرة من سنى سیر النور الذي يقطع به زهاء مائة مليون ميل في أقل من عشر دقائق ، والنصوص تدل على أنها كلها دون العرش (٧) ومنها ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً « جننان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » قالوا: إن الرداء هنا بمعنى الحجاب الذي ذكر آنفاً ، وقد جمعه من باب الاستعارة ولا إشكال في التعبير وإنما الحديث صريح في عدم رؤية الذات بدون حجاب. وقال الحافظ ابن حجر في شرحه من الفتح نقلاً عن الكرمانى بعد عده من التشابهات : ظاهره يقتضى أن رؤية الله غير واقعة وأجاب (أى الكرمانى) بأن مفهومه بيان قرب النظر إذ رداء الكبرياء لا يكون مانعاً من الرؤية، فعبر عن زوال المانع عن الأبصار بإزالة الرداء - وحاصله أن رداء الكبرياء مانع عن الرؤية فكان في الكلام حذفاً تقديره بعد قوله « الإرداء الكبرياء » فإنه بين عليهم برفعه... الخ ماقاله - وفيه من التكافؤ ما لا ينبغي لحفاظ السنة الاعتداد به وهم ينكرون على الجهمية والمعتزلة مثله وما هو أمثل منه من تأويلاتهم .

ثم إن الحافظ ابن حجر اعتمد في تأويل الحديث جعل رداء الكبرياء هنا عين الحجاب في حديث صهيب الذي أخرجه مسلم بعد حديث أبي موسى هذا وكأنه أراد تفسيره به - ورواه الترمذى والنسائى وغيرهما أيضاً وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟

قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل « وفي رواية زيادة : تلا (الذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفيه أن أهل الجنة هؤلاء لم يكونوا يعلمون أنه سبحانه يرى بدون حجاب وأن رؤيته في الموقف وملاقاته كانت مع الحجاب ، كذه الملائكة في الجنة عند سؤالهم عما يطلبون من زيادة النعيم

ولقائل أن يقول أيضا : إننا إذا قطعنا بأن المراد بهذا الحجاب رداء الكبرياء المذكور في الحديث الذي قبله وأنه كان المانع من النظر فلا يمكننا أن نقول إنه هو حجاب النور المانع من الرؤية في الأحاديث الأخرى ، والنظر غير الرؤية ، فيمكن أن يقال : إن رداء الكبرياء الذي كان مانعا من النظر يكشف فيقع النظر فيرى الناظرون النور الذي رآه النبي (ص) وأخبر أنه كان المانع من رؤية الذات . وسيأتي تحرير هذا البحث (٨) - ومنها ماورد في تجليه سبحانه في الصور ، وأقواها وأصحها حديثا

أبي هريرة وأبي سعيد الخدري (رض) الطويلين في الصحيحين وغيرهما ، ومحل الشاهد فيه أن ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل يضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله قال « فانكم ترونه كذلك : يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعمه ، فيتبعم من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبعم من كان يعبد القمر القمر ، ويتبعم من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيتهم الله تعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعموذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه . فيأتيتهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا فيتبعمونه » اه المراد منه ويليه ذكر الصراط والجواز عليه والنار والحساب الخ وهذا للفظ مسلم عن أبي هريرة ، وفي لفظ البخاري « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » وذكر بعدها القمر

وفي حديث أبي سعيد تشبيه رؤية الرب تعالى برؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر أيضا ، أي في كونه لا مضارة فيه ولا في التزاحم عليه — لا تشبيه المرئي بالمرئي — وفيه ذكر من عبد العزيز والمسيح ودخول كل من عبد غير الله النار ويقول (ص) بعده « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه

فيها قال : فما تنتظرون ؟ تتسبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كننا إليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن يقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتمرقونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رآه فيها أول مرة فقال أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا » الحديث وفيه ألفاظ أخرى في الصورة ، سنأتي في آخر الكلام عليه

وهذا لفظ مسلم أيضاً ويخالفه لفظ البخاري في بعض التعبير ورواها غيرهما باللفاظ توافق كلا منهما وتخالفه بتعبير أو زيادة أو نقصان والمعنى العام واحد ، فمن أمثلة اختلاف اللفظ رواية « فيكشف عن ساقه » وهي لا تعارض رواية « فيكشف عن ساق » الموافقة للفظ القرآن (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) ولكن تنكير الساق وإسناده كشفه إلى المفعول أوسع مجالا للتأويل من اضافته إلى الرب تعالى وإسناده كشفه إليه فهو كالتمشير عن الساعد مثلاً في كلام العرب للجهد والاهتمام وشدة الخطب ، وسبب الأول أن من يريد الفرار من شيء يخوف يكشف عن ساقه ليسهل عليه العدو السريع فلا يتعثر بشو به وسبب الثاني أن من يريد أن يعمل عملاً باتقان وسرعة يشمر عن ذراعيه حتى لا يعوقه كاه ، وفي مجاز الأساس قامت الحرب على ساقها ، وكشف الأمر عن ساقه . قال :

عجبت من نفسي ومن اشفاقها ومن طرادى الطير عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها اهـ

أقول : فخرج بعضهم عبارة الحديث على هذا الاستعمال بمعنى أن أمر امتحان الله تعالى للناس والتزييل بين المؤمنين والمنافقين ينتهي إلى آخر حجه بتفسيره جلت حكمته السجود للمؤمنين دون المنافقين . وذهب بعضهم إلى أن لفظ الساق ورد بمعنى الذات والنفس ، واستشهدوا له بقول أمير المؤمنين على رضي الله عنه في حرب الشراة « لا بد من قتالهم ولو تلفت ساق » قالوا أي نفسي وعليه يصح أن يكون كشف الساق في الآية والحديث عبارة عن كشف

الحجاب ويخرج عليه مارواه عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) قال : عن الغطاء فيقع من كان آمن به فى الحياة الدنيا فيسجدون له . ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون لأنهم لم يكونوا آمنوا به فى الحياة الدنيا ولا يبصرونه . والأول أقرب إلى أساليب اللغة وعليه ابن عباس وجهود مفسرى الساق ، قال ابن عباس فيما روى عنه من طرق (يوم يكشف عن ساق) عن شدة الأمر وجده ، هى أشد ساعة تكون يوم القيامة ، حتى يكشف الله الأمر وتبدو الأعمال . وقال : هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة . وسئل عكرمة عن الآية فقال : إن العرب كانوا إذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الأمر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون . وهذا من التفسير الخلى ، لا من التأويل الخفى بالمعنى الأصولى ، وأما تأويله بالمعنى اللغوى أى ما يؤول إليه ويتحقق به فى الآخرة فلا يعلمه البشر إلا إذا وصلوا إليه .

وقد بين البضاوى أصلاً آخر لكشف الساق تنجيه به رواية عبد بن حميد فى جعله بمعنى كشف الحجاب فنذكره مع عبارته فى المعنى الآخر الذى عليه الجمهور لحسن بيانه له وهما قوله فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشتد الأمر ويعظم الخطب . وكشف الساق مثل فى ذلك وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى الحرب قال حاتم : أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرت أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً ، مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان ، وتشميره للتحويل أو التعميم اهـ

ومن ألفاظ الحديثين التى اضطرب فيها العلماء مسألة الإتيان فى الصور المختلفة ، وإنكار المؤمنين له فى بعضها ومعرفته فى بعض فاختلوا فى تفسيرها وتأويلها ، فمنهم من أبعد النجمة ومنهم من قارب ، قال بعض المؤلفين المراد بإتيانه تعالى رؤيته - أقول ولكن الإتيان كالرؤية فى إيهام التشبيه ، فلم يخص دونها بالتأويل ؟ وقال بعضهم يأتى ملك بأمره لامتحاتهم ، ولكن جاء فى بعض النصوص الجمع بين إتيان الرب وإتيان الملك فيمتنع أن يفسر الأول بالثانى كقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) وقوله (وجاء ربك والملك صفًا صفًا) على وجه . فمخالفة ظاهر « تفسير القرآن الحكيم » « ١٠ » « الجزء التاسع »

الحديث لله رب من إسناد الإتيان إلى الرب لا حاجة إليه مع هذا - فالأولى قول جمهور السلف إنه إتيان يليق به ، لا كإتيان الخلق

وقد اختلفوا في معنى الصورة وأولوها أيضاً ، والظاهر أنها عبارة عما يقع به التجلي من حجاب ومنه رداء الكبرياء الذي سبق الكلام فيه ، وقد ورد لفظ الصورة في عدة روايات في الصحيحين لحديث أبي هريرة وأبي سعيد

(منها) كما تقدم من حديث أبي سعيد « أناهم رب العالمين سبحانه في أدنى صورة من التي رأوه فيها » (ومنها) « فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون » (ومنها) « في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » (ومنها) « ثم يقبض الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناها فيها أول مرة » وفي رواية هشام بن سعد « ثم يرفع رؤوسنا وقد عاد لنا في صورته التي رأيناها فيها أول مرة فيقول : أنار بكم . فتقول نعم أنت ربنا » وفي رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عند ابن منده « فيتمثل لهم ربهم »

ذكر النووي في شرحه لحديث أبي هريرة من صحيح مسلم مذهب السلف في أمثال هذه الألفاظ والصفات وهو الإيمان بها وحملها على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع التنزيه كما تقدم ، ثم مذهب جمهور المتكلمين القائلين بالتأويل ومنه أنه يجيبهم ملك في صورة ينكرونها لما فيها من صفة الحدث ولا تشبه صفات الإله ليمتنعهم « فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنار بكم - رأوا عليه من علامات الخلق ما ينكرونه ويعلمون أنه ليس ربهم فيستعيذون بالله منه » وقال في شرح « فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون » : المراد بالصورة هنا الصفة ، ومعناه فيتمجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونها بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا ، وإنما عبر بالصورة عن الصفة لمشايتها إياها ولجائسة الكلام فانه تقدم ذكر الصورة اهـ وذكر الحافظ في الفتح تأويلات أخرى عن القرطبي والقاضي أبي بكر بن العربي من المالكية وابن الجوزي من الحنابلة تقرب مما اعتمدته النووي وغرضنا من هذه النقل بيان أن أهل السنة قد أولوا بعض أحاديث الرؤية كأولت المعتزلة والخوارج والشيعة فلا مقتضى للتعاضد والتفرق في الدين لأجل التأويل ، وبعض هذه التأويلات أعرق في التكلف من بعض ، وما ساق

في بعض الروايات لا يسوغ في البعض الآخر. وإذا كان الغرض من التأويل تقريب المعاني إلى الأذهان حتى لا يبقى مجال واسع للتشكيك في النصوص فإن الوقتين على علوم هذا العصر وفنونه قديمتا جونا إلى ما لم يكن يحتاج إليه من قبلهم، وقد بينا في مسألة الرؤية ما اشتدت إليه الحاجة في فتوى المنار التي أشرنا إليها في هذا البحث وفي مسألة الكلام الإلهي ما فسرنا به الآيات التي سبقت فيه وسنزيد ذلك هنا، وسنذكر الفتوى بنصها (٩) اختلف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج بين إثبات ونفي ووقف، واختلف المثبتون في الرؤية هل هي بعين البصر أم بعين القلب والبصيرة؟ كما اختلفوا في المعراج نفسه هل كان يقظة أم مناما أم مشاهدة روحية بين اليقظة والنوم لا اختلاف الروايات عن الصحابة والتابعين (رض) فيها ولما ورد في الأحاديث المتعارضة في المسألة عاماً وخاصاً، والتحقيق أنه قد وردت أحاديث مرفوعة صحيحة في النفي دون الإثبات كحديث «نور أنى أراه» المتقدم في النفي الخاص به ﷺ وكحديث «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» رواه مسلم وكذا ابن خزيمة عن أبي امامة وعبادة بن الصامت أما الصحابة، فاشتهر الإثبات عن ابن عباس منهم وروى عن أنس أيضا وأخذ به بعض التابعين وقبله بعض المحدثين والمتكلمين الذين لا يدققون في تمحيص روايات الفضائل والمناقب. واشتهر المنع عن عائشة والرواية عنها فيه أصح وأصرح، وقدم مارواه الشيخان عن مسروق عنها فيه، وفي بعض رواياته أن مسروقا لما سأها هل رأى مجده؟ قالت له: لقد قف شعري ممقلت. وروى النفي عن آخرين من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو هريرة وغيرهما، وأما المحدثون الذين عنوا بالتعادل والترجيح واجمع بين الروايات فمعهم من نظر فيها لإثبات ما سبق إلى اعتقاده ومالت إليه نفسه كالخلفاء ابن خزيمة وتبعه النووي فرجعا رواية ابن عباس على رواية عائشة التي هي أصح سندا وأقوى دليلا بحجة أنها لم تنف الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وإنما اعتمدت على الاستنباط فتأولت آية (لا تدركه الأبصار) وآية (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا) الخ وقد غفلا عما لم يجهلا من حديثها في الصحيحين وقولها لمسروق لما احتج عليها بدلالة آية سورة النجم على رؤيته ﷺ لربه أنها أول من سأله ﷺ عن هذه الآية وتقدم لفظها في رواية الصحيحين،

وفيه رواية أخرى أصرح في المراد وهي ما أخرجه ابن مردويه بإسناد مسلم قالت «انا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا ، فقلت يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال لا، انما رأيت جبريل منهبطا» الخ

ومنه من نظر في الروايات لأجل التخصيص وتحقيق الحق فيها كشيخ الاسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر قبيلا ان الروايات عن ابن عباس بعضها مطلق وبعضها مقيد بالرؤية القلبية لا البصرية فاذا حكمت فيها قاعدة حل المطلق على المقيد زال التعارض بينها وبين حديث عائشة وما في معناه

قال الحافظ في شرح البخاري : جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك ما أخرجه النسائي بسند صحيح وصححه الحاكم من طريق عكرمة عنه «أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد؟» وأخرجه ابن خزيمة بلفظ «ان الله اصطفى ابراهيم بالخلة» الخ وأخرج ابن اسحق من طريق عبد الله بن أبي سلمة ان ابن عمر أرسل إلى ابن عباس «هل رأى محمد ربه؟ فأرسل اليه أن نعم» (ومنها) ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس «رض» في قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى - ولقد رآه نزلة أخرى) قال رأى ربه بفؤاده مرتين ، وله من طريق عطاء عنه قال رآه بقلبه وأصرح منه ما أخرجه ابن مردويه عنه من طريق عطاء أيضا قال : لم يره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه انما رآه بقلبه اه ملخصا : وقد روى الترمذي عن الشعبي ان ابن عباس (رض) سمع حديث قسمة الكلام والرؤية بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم من كعب الأحمري في عرفة ١١

فعلم مما تقدم ان ما روى عن ابن عباس من الإثبات هو الذي يصح فيه ما قيل خطأ في نفي عائشة : انه استنباط منه ولم يكن عنده حديث مرفوع فيه ، وأنه على ما صح عنه من تقييده بالرؤية القلبية معارض مرجوح بما صح من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لا يقي سورة النجم وهو انهما في رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل بصورته التي خلقه الله عليها على ان رواية عكرمة عنه لا يبعد أن تكون مما سمعه من كعب الأحمري الذي قال فيه معاوية «ان كنا ننبأ عليه الكذب» كافي صحيح البخار ، ورواية ابن اسحق لا يعتد بها في هذا المقام فانه مدلس وهو ثقة في المغازي لافي الحديث - فالإثبات المطلق عنه مرجوح رواية كما هو مرجوح دراية

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ان ابن عباس « رض » لم يقل انه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه بقطة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شيء من ذلك . وقال : ما نقل عن الإمام أحمد من اثبات رؤية النبي ﷺ لربه إنما يعنى رؤية المنام فانه سئل عن ذلك فقال نعم رآه فان رؤيا الأنبياء حق . ولم يقل انه رآه بعيني رأسه . وقال بعد ذكر ما تقدم عن ابن عباس : وانظر الإمام أحمد كلفظ ابن عباس ، وأهل السنة متفقون على أن الله تعالى لا يراه أحد بعينه في الدنيا لا نبي ولا غيره ولم يقع النزاع إلا في نبينا ﷺ خاصة مع أن الأحاديث المرفوعة ليس في شيء منها أنه رآه وإنما روى ذلك بإسناد موضوع باتفاق أهل الحديث اهـ .

فتوى المنار المشار إليها آنفاً (من ص ٢٨٢ م ١٩)

✽ التحقيق في مسألة رؤية الرب سبحانه وتعالى ✽

إن من أصول العقائد القطعية المعلومة من الدين بالضرورة أن نعيم الآخرة قسمان روحاني وجسماني لأن البشر لا تنقلب حقيقتهم في الآخرة بل يبقون بشرا أولى أرواح وأجساد ، ولكن الروحانية تكون هي الغالبة على أهل الجنة ، فيكون النعيم الروحاني عندهم أعلى من النعيم الجسماني . ومن الثابت بالاختبار والتجارب أن العلماء الراسخين والحكماء الربانيين والفلاسفة الماديون ^(١) والرؤساء السياسيون - كلهم يفضلون اللذات العقلية الروحية والحياة المعنوية ، على اللذات المادية الجسدية ، فترى أحدهم يزهد في أطايب الطعام ، وكؤوس المدام .

(١) أي وكذا الفلاسفة الماديون : وهو استعمال يعد بليغا إذا كان لما رفع خصوصية في السياق ككون الماديين هنا مظنة لمخالفة الروحانيين . ومنه قوله تعالى في سورة المائدة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) الخ ويقابل هذا الاستعمال في نصب ماهو في مقام الرفع مانصب على الاختصاص أو المدح والذم وهو أكثر في الاستعمال ومنه قوله تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيميين الصلاة والمؤتون الزكاة) الخ والعرضان المقتضيان لتغيير النسق في مثل الآيتين من مقاصد بلاغة اللغة فيجب أن يكونا قياسيين وان كان النقل في الأول قليلا لعدم فطنة رواة اللغة له

ويحتاج في جنبه عن مضجعه، ذاهلاً عن حقوق حليلته، تلذذاً بجل مشكلات المسائل
واكتشاف أسرار الكون، أو بالنفث في عقد السياسة، ومناقضة أعباء الرياسة
الأوان أعلى العلوم العقلية والمعارف الروحية في هذه الدنيا، ومعرفة الله سبحانه
وتعالى والعلم بظواهر أسمائه وصفاته في خلقه والوقوف على سننه وأسراره فيها،
وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال، وفي النظام الذي قامت به من
آيات الكمال، التي هي تجلي صفات بارئها وهو منتهى الجمال والجلال والكمال،
عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وما زال أصحاب الهمم العالية من العلماء والحكماء يستدلون بما ظهر لهم من
تلك السنن والآيات على كمال مبدعها ومبدئها وعصرها، وتطلع عيون عقولهم
إلى كيفية صدور الوجود الممكن الحادث، (وهو مجموع هذه العوالم العلوية والسفلية)
عن الوجود الأزلي الواجب، ويهتمون بارتقاء الأسباب للوصول إلى معرفة أول
موجود ممكن منها، وكيف ابتدأت سلسلة الأسباب بعد ذلك بتحول البسائط
وتولد بعضها من بعض، قبل وجود هذه المركبات المعروفة من السماء والأرض،
طعماً في معرفة حقيقة ذلك الوجود الأعلى على عجزهم عن إدراك كنهه أدنى هذه
الموجودات السفلى، وقد اختلف الحكماء في إمكان وصول العلم البشري، إلى
حقيقة الوجود الأول الأزلي، وكيفية صدور الموجودات الممكنة عنه، فقال بعضهم
بإمكان ذلك وتوقع حصوله في يوم من الأيام، وقال آخرون بأنه فوق استمداد الأنام
والحق في ذلك ما هدانا إليه دين الله الحق، وهو أن إدراك أبصار الخلق له
سبحانه وتعالى وإحاطة علمهم به من الخيال الذي لا مطمع فيه (لا تدركه الأبصار
وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا
يحيطون به علماً) ولكن العجز عن الإدراك والإحاطة، لا يستلزم العجز عما دون
ذلك من العلم والمعرفة، التي ترتقي إلى الدرجة التي عبر عنها بالتجلى والرؤية،
فإن كانت ظواهر الآيات في ذلك متعارضة، فالأحاديث والآثار الصحيحة
المبينة له جليلة واضحة، وإنما وقع المراء بين المتكلمين والمتفلسفين وبين علماء الآثار

في كلمة « الرؤية » فأثبتها أهل الأثر لدلالة ظواهر القرآن ونصوص الأحاديث عليها ، ومنعوا قياس رؤية الباري تعالى على رؤية المخلوقات ، بدعوى استلزامها التحيز والحدود وغير ذلك من صفات الاجسام ، وقالوا إننا لا نبحث في كيفية ذاته ولا صفاته تعالى ، فأننا نحزم بأن له علما وقدره وسمعا وبصرا ، ولكن علمه ليس ناشئا كعلمنا عن انطباع صور المعلومات في النفس ، ولا مكتسبا له بالحواس أو الفكر ، وكذلك قدرته وسائر صفاته ، فنحن نجتمع بين الإيمان بالنصوص في أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر شؤونه ، وبين تنزيهه عما لا يليق به من مشابهة خلقه ، الممنوعة بدلائل النقل والعقل ، كما قال عز وجل (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)

ونقاهما (بعض) أهل الكلام والفلسفة بناء على قياس الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق ودعوى منافية الرؤية للتنزيه ، الذي هو أصل العقيدة وركنها الركن . ولكنهم لا يستطيعون إنكار الحقيقة التي أثبتتها أهل السنة والجماعة إذا عبر عنها بغير لفظ الرؤية ، كأن يقال إن أعلى نعيم أهل الجنة لقاء الله تعالى بتجليه عليهم تجليا يحصل لهم به أعلى ما استعدت له أنفسهم وأرواحهم من المعرفة ، وإن أعظم عقاب لأهل النار حجبتهم عن ربهم وحرمانهم من هذا التجلي والعرفان ، الخاص بدار الكرامة والراضون . فانهم لا يعتنون بتأويل مثل قوله تعالى في المتقين (يحيطهم يوم يلقونه سلام) وقوله في الكافرين (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) كما يعتنون بتأويل قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) بأن النظر معناه الانتظار والرجاء ، وما رده بعضهم على بعض في الآية يطلب من الكشاف والبيضاوي وحواشيهما وسائر كتب التفسير ومن كتب الكلام وشروح الأحاديث *

وكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع
ومن غرائب جدلهم أن كلا منهم يستدل على مذهبه بطلب موسى عليه السلام رؤية ربه وقوله تعالى (لن تراني) الآية . فأهل السنة يستدلون

* (قد عدنا فيلنا آنفا ليلب الخلاف ، وأهم دلائل الفريقين مع الانصاف

على جواز الرؤية بسؤال الكلام إياها وعدم إنكار الباري تعالى عليه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله نجاة ولده الكافر بناء على أنه من أهل الذين وعده بنجاتهم — وبتعليق الرؤية على جائز وهو استقرار الجبل ، والمعتزلة يستدلون بالآية على عدم الرؤية بعدم إجابة الكلام إليها وتعليقها على ما علم الله أنه لا يكون

وإذا كانت الآيات التي استدلت بها كل فريق ليست نصاً قاطعاً في مذهبه ففي الأحاديث المتفق عليها ما هو نص قاطع لا يحتمل التأويل في الرؤية وتشبيهها برؤية البدر والشمس في الجلاء والظهور وكونها لا مضارة فيها ولا تضام ولا ازدحام . وفي كتاب التوحيد من صحيح البخاري أحد عشر حديثاً في ذلك ، وجمع ابن القيم في (حادي الأرواح) ما ورد في ذلك من الأحاديث فكان ثلاثين حديثاً . قال الحافظ ابن حجر عند اشارته إلى ذلك : وأكثرها جيد . وزاد ابن القيم ما ورد عن الصحابة والتابعين وأئمة علماء الأمصار في ذلك وحملهم إياه على ظاهره مع تنزيهه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات ، ولكن بعض مثبتى الرؤية من أهل السنة اختلفوا في معناها فكان بعض ما قالوه تأويلاً أبعد من تأويل المنكرين قال الحافظ في الكلام على تفسير (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) من شرح كتاب التوحيد من البخاري ما نصه : واختلف من أثبت الرؤية في معناها ، فقال قوم : يحصل للرأى العلم بالله تعالى برؤية العين كافي غيره من المراتب وهو على وفق قوله في حديث الباب « كما ترون القمر » إلا أنه منزّه عن الجهة والكيفية ، وذلك أمر زائد على العلم . وقال بعضهم : إن المراد بالرؤية العلم ، وعبر عنها بعضهم بأنها حصول حالة في الإنسان نسبتها إلى ذاته المخصوصة نسبة الابصار إلى المراتب . وقال بعضهم : رؤية المؤمن لله نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم ، وهذا أقرب إلى الصواب من الأول ١٥

ثم ذكر ما تعقب به من قال إن المراد بالرؤية العلم . وإنما قال في القول الأخير أنه أقرب إلى الصواب لما فيه من التفويض وعدم التحديد ، وهذا المعنى هو الذي قال به القرألى وأوضحه في كتاب المحبة من الاحياء بما يعهد من قرأ الاحياء من بيانه وفصاحته

هذا وإن احصاء ماورد في هذا الباب مما استدل به على الرؤية اثباتا ونفيان
الآيات والاحاديث وسرد كلام المتنبين والنفاة وبيان الراجح منه والمرجوح
يستغرق عدة أجزاء من المنار، ولن يرضى ذلك منا أكثر القراء^(١) وجملة القول
في المسألة أن الآيات القرآنية ليس فيها نص قاطع لا يحتمل التأويل، ولكن بعض
الاحاديث الصحيحة والحسنة صريحة في ذلك لا تحتمل التأويل، والمرفوع منها
مروى عن أكثر من عشرين صحابيا، دع الموقوف والآثار، ولم يرد في معارضتها
شيء أصرح من حديث عائشة المتفق عليه عن مسروق قال «قلت لعائشة (رض)
يا أمته هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قف شعري مما قالت:
أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب، من حدثك أن محمدا ﷺ رأى
ربه فقد كذب - وفي رواية: فقد أعظم على الله الفرية - ثم قرأت (لا تدركه
الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا
وحيا أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب؛ ثم قرأت
(وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه - أي النبي ﷺ - كنم
شيئا من الدين فقد كذب، ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) -
الآية - ولكن رأى جبريل في صورته مرتين» اهـ

وقد ذكر النووي في شرح مسلم أن عائشة لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع
ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد
خالفها غيرها من الصحابة الخ وذكر الحافظ في الفتح أنه قال ذلك تبعاً لابن
خزيمة ذاهلاً عما ورد في صحيح مسلم الذي شرحه، وذكر أن في حديث مسروق
عنده زيادة عما ذكرناه من لفظ البخاري وهي - قال مسروق «وكنتم متكئين
فجلسنا وقلت ألم يقل الله (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل
رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: إنما هو جبريل» الخ

فعلم من هذا أن عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه
بالحديث المرفوع وتنفي جواز الرؤية مطلقاً أوفى هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله

تعالى (لا تدركه الأبصار) وقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) وبمعارض هذا الاستدلال أنه ليس نقضاً في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية، وقد قال بها بعض علماء الصحابة وقال بعض العلماء أن عائشة ليست أعلم عندنا من ابن عباس الذي أثبت الرؤية للنبي ليلة المعراج . وفي هذا القول بحث، فإن ابن عباس استنبط إثبات الرؤية في الدنيا من الآيات وقد انفرد بذلك دون سائر الصحابة . وأما من روى عنهم إثبات الرؤية في الآخرة فليس فيهم أحد يقال أنه أعلم من عائشة إلا والدها الصديق وعلى المرتضى وزيد بن ثابت وقد يذكر في طبقتهما منهم العبادة . ولكن الحديث عن أبي بكر وزيد بن ثابت في هذا الباب ضعيف وعن علي موضوع حتى أن ما روى عنها نفسها فيه أقوى سنداً . ويقول النفاة: لو رأى النبي ﷺ ربه ليلة المعراج لما خفي نفا ذلك عن عائشة مع ما علم من حرصها على العلم ، وسؤالها إياه عن آية النعم ؟ وقد يقول النفاة أيضاً: لو كانت الرؤية في الآخرة عقيدة يطالب المسلمون بالإيمان بها لما جهلها عائشة . ولكن هذا القول لا ينهض لمعارضة إثبات المثبتين لها بالأحاديث الصريحة ، وإنما قصاره أن يعد دليلاً على أن المسألة من أمور الآخرة التي كان يذكرها النبي ﷺ أحياناً لبعض الخواص إذ لا يضر العامة جهلها ، فلم يقصد أن تكون عقيدة يدعى إليها مع التوحيد .

وأحسن ما يجاب به عن استنباط عائشة وأقواء عند المثبتين أن يقال : إنها تريد به نفي الرؤية في الدنيا كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا لأن لذلك العالم سنناً ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكل والمشروب ، فناء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أو جوه ، وخرها ليس فيها غول يقتال العقل ولا يصدعون عنها ولا ينفرون ، ولبنها لا يعتريه فساد ، ولا تخالطه جنة (ميكروبات) أمراض ، وكذلك فاكهتها ونمراتها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لا تفسد . قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء . وكذلك أمزجة أهلها ، هي أصح وأسلم من أمزجة أهل الدنيا حتى إنهم يأكلون

و يشربون فيكون هضمهم بالتبخير وشرح العرق ، ففي الحديث الصحيح أنه جشاء وشرح لها ربح المسك ، ولا تعجب في ذلك فإن علماء العصر الذين يظنون أن في كوكب المريح أحياء عتلاء كالبحر يجرمون بأنهم لا بد أن يكونوا أكبر منا أجساماً وأسرع من الخليل العادية في حركتهم العادية ، هذا وعالم المريح لا يعرف فيه من الحياة الروحانية العالية مثل ماورد في حياة الجنة ، ولكن ماذا كره علماء العصر في شأنه يقرب تصور ماورد في صفة الآخرة من الأذهان المقيدة بالمألوفات ، فإن بعض الناس إنما يشكرون أخبار الآخرة لأنها مخالفة لما جردوا عليه من المألوفات ، ولو أنهم أخبروا بما اكتشف من أسرارها لكان في هذا العصر كخواص الكهرباء والراديو قبل أن يصير مشهوداً مقطوعاً به لما صدقوه . قال الله عز وجل في بيان جزاء المؤمنين القاعين بأعمال الإيمان حق القيام (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ووضح ذلك رسوله في حديث قدسي رواه الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة قال : قال ﷺ « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وروى أهل الكتاب مثل هذا عن سيدنا عيسى ﷺ فإذا ثبت لنا أن كل ماورد في دار الكرامة أعلى وأسمى مما في الدنيا حتى الأجسام وصفات الناس وغرائزهم وأنه لا يشارك ما في الدنيا إلا بالاسم ، الذي عبر عنه به لضرورة تقرب تلك المعاني الغيبية من الفهم ، فهل يصح بعد ذلك أن نعمد إلى أعلى ما هنالك من الشؤون الإلهية المعنوية فنشبهه بشؤون الدنيا ؟ فنجعل تجلي الرب سبحانه وتعالى لأولئك العباد المكرمين الذين رقامهم وكلمهم وأهلهم لكمال معرفته تحيزاً ومشابهة للخلق ؟ ونجعل ما يحصل لهم من ذلك التجلي من العلم الأكمل والمعرفة العليا التي تستغرق أرواحهم وجميع مشاعرهم الظاهرة والباطنة إدراكاً لكنه الرب عز وجل وإحاطة علم به — تعالى عن ذلك — ثم نعذر أنفسنا على هذا الجمل بأن ذلك قد سمي رؤية ومعينة ، ولا بد أن تكون الرؤية هنالك كرويتنا التي نهدأ بها ؟

سبحان الله ! أيكون كل ما هنالك من أعيان الخلق وصفاتها وأحوالها مخالفاً لما له اسمه منها هنا إلا ما يتعلق بشأن الخالق عز وجل فهو الذي يجب أن

يكون مشابهة لشؤون الخلقين بعضهم مع بعض ؟ أم هذا هو المذهب الذي يدعى أصحابه اتباع المعقول ، ويسخرون من أهل السنة بزعمهم أنهم جمدوا على بعض أحاديث الأحاد من المنقول ؟ وهم الذين قد جمدوا على مادون ذلك من الألفاظ العربية التي استعملت في صفات الباري تعالى وشؤونه وأخبار عالم الغيب ، فترام يصفونها عن معانيها ويعطون مدلولاتها المقصودة لتوهمهم أنها لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مدلولاتها في عالم الغيب كمدلولاتها في هذا العالم من كل وجه . ثم تحكموا فأثبتوا بعض صفات الباري تعالى بدون تأويل كالعلم والقدرة والارادة ، وهذا عين التشبيه ، وأولوا أكثرها كالسكلام والرحمة والمحبة والغضب والرضا والعلو والوجه واليدن الخ وهذا عين التعطيل — وأهل السنة يثبتون له تعالى كل ما أثبتته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وينزهونه فيه كله عن مشابهة خلقه ، ولا يرون فرقا بين العلم والرحمة والسكلام فكلها من صفات السكالم الثابتة له مع التنزيه — فعلمه ليس كعلم البشر منترعا من صور المعلومات بالحواس أو الفكر — وكلامه ليس كيفية عرضية يحصل بنموج الهواء بتأثير الصوت الذي يخرج من الفم — وكذلك سائر صفاته وشؤونه تعالى . فتجلبه لخواص خلقه في دار كرامته ليس كظهور بعضهم لبعض ، وما يحصل لهم من رؤيته ومعرفته وسماع كلامه لا يشابه ما يكون من بعضهم لبعض

وإذا كنا قد عرفنا بالمشاهدة في عالم الحس أن إيقاد مصباح زيت الزيتون أو زيت البترول لا يشبه إيقاد مصباح الكهر باء بوجه من الوجوه ولا يشترط في الثاني ما يشترط في الأول — ونجزم بأن هذا الفرق لا يمكن أن يتصوره من لم يعرف الكهر باء البتة — فيجب علينا أن لا نستغرب ما هو أبعد من هذا الفرق بين عالم الغيب والشهادة في اختلاف الكيفية لحقيقة واحدة كالرؤية . ومن كان له حظ من معرفة الله تعالى في الدنيا لا يحتاج إلى الأمثال ؛ وحسب المحروم منها أن ينتفع بالأمثال (وتلك الأمثال تضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

﴿ خلاصة وتتمه تزيد المسألة وضوحاً ، ومذهب السلف ثبوتاً ﴾

(١) الرؤية ليست من أصول الإيمان القطعية

قد علم مما تقدم أنه ليس في الرؤية البصرية نص أصولي ولا لغوي متواتر قطعي الرواية والدلالة يجعلها من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ، وليست مما كان يدعى اليه في تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجهلها أو ينكرها كافراً ، وإنما هي من غريب العلم إلا على الذي يستنبطه من القرآن كبار العارفين وربما كان فتنة لمن دونهم - وكذلك كان - حتى إن كبار النظار وعلماء البيان قد اختلفوا في كل من الآيات الثلاث الواردة فيها: في سور الأنعام والأعراف والقيامة . فجعلها بعضهم مثبتة وبعضهم نافية ، والقاعدة في دين الرحمة والشرعية السمحة أن الحجة لا تقوم على جميع المكلفين إلا فيما كان قطعي الدلالة لغة ، وأنهم يعذرون باختلاف الأفهام في غيره كما علم من واقعة تحريم الخمر والميسر فإن آية البقرة تدل على التحريم بمقتضى القاعدة المعروفة عند الفقهاء وهي تحريم ما تغلب المفسدة فيه على المصلحة ويرجح الضرر فيه على النفع ، وقد نطقت الآية بهذا الترجيح في الخمر والميسر (وإنيهما أكبر من نفعهما) وهو ما فهمه بعض خواص الصحابة فتركوهما ولم يكلف جميع المسلمين تركهما إلا بعد نزول آية المائدة التي هي نص قطعي لا يحتمل التأويل إذ نطقت بأنهما رجس من عمل الشيطان وصرحت بالأمر باجتنابه وهو أبلغ من الأمر بالترك وما من مسألة ذكرت في القرآن بنص غير قطعي الدلالة إلا والله تعالى حكمة في عدم القطع بها ، وقد بين حكماء العلماء حكمة ذلك في الخمر والميسر بأن شدة افتتان الناس بهما كانت تقتضي أن يشق على الناس تركهما دفعة واحدة حتى يتعذر على بعض المؤمنين من ضعاف الإيمان تركهما أو يتعسر على بعض ، وينفر غير المسلمين من الإسلام ، فكان من حكمة الرب ورحمته جل جلاله أن يحرمهما بالتدريج ولا سيما الخمر فإنه أنزل آية تقتضي ترك الخمر في عامة النهار وناشئة الليل وهي قوله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فراجع تفسيرها البليغ في سورة النساء - وآية يفهم منها دقيق العلم قوى الإيمان التحريم فيتركها في كل وقت وهي آية سورة البقرة ثم صرح بعد ذلك بسنين بالاجتناب على سبيل القطع

لولا غفلة العلماء الذين طعن بعضهم في علم المخالف له في مسألة الرؤية وفي

دينه عن هذه الحكمة وتلك القاعدة لعند كل منهم الآخر ولم يجعلوا الخلاف فيها عصبية مذهبية ، ولعلم المتبوتون لها منهم أن الله تعالى لو أراد أن تكون عقيدة عامة وركنا من أركان الإيمان لبين ذلك في آية صريحة لا تحتمل التأويل ناطقة بأنه يرى بالابصار عيانا فلا كيف ولا إحاطة ولا تمثيل ، ولقال النبي ﷺ حين عرف الإيمان في حديث جبريل بعد قوله «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم عيانا بلا كيف ولا تشبيه - ولا أمر بتلقين هذا لكل من يدخل في الإسلام ولتواتر عنه وعن أصحابه الجري على ذلك حتى يكون معلوما من الدين بالضرورة ، وإذا لما وقع فيه خلاف ، ولما استنكرت عائشة سؤال مسروق إياها عن رؤية النبي ﷺ له حتى قف شعرها من استعظام ذلك ، ولو كانت تعتقد أن الرؤية تكون في الآخرة لجميع المؤمنين لما استنكرت واستنكرت حصولها للنبي ﷺ في الدنيا امتيازاً له لأن روحه فيها أقوى من أرواح سائر المؤمنين في الآخرة فيطبق مالا يطبقه غيره حتى موسى ﷺ ونفاسات هذا الامتياز على الناس بامتيازهم - عليه صلوات الله - عليهم بالوحي ورؤية الملائكة وغير الملائكة من عالم الغيب ، على أنه ﷺ كان ليلة المعراج في ذلك العالم لاقى عالم الأرض .

فالحكمة الظاهرة لعدم النص القطعي في القرآن على المسألة أنها مما تتحير فيه العقول وربما كانت مما يدخل في عموم ما رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم غفنة» وعموم ما ذكره البخاري في كتاب العلم عن علي كرم الله وجهه «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟» وروايهم وعين ولكن يستندون ضعيفين - والمراد بالمعرفة في الثاني ما يقابل المنكر ومالا يعقل لا ما يقابل الجهل إذ يكون من تحصيل الحاصل وقد زاد فيه آدم ابن أبي اياس وأبو نعم في المستخرج «ودعوا ما ينكرون» ذكره الخافظ في الفتح واستشهد له بأثر ابن مسعود آنفاً ، واستدل به على أن التشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة وفسر مالا ينكرون بما لا يشبهه عليهم فهمه - ولا يسلم قوله هنا على إطلاقه . فإنه يجب استثناء ما في القرآن منه ، إذ لا يجوز كتابته عن أحد ، على أنه كله من قبيل آيات الرؤية ، ليس فيها مثار للفتنة ، مع عقيدة التنزيه ونفي المائلة

وقاعدة التفويض التي جرى عليها السلب ، فهذا هو الذي يحول دون اتباع المتشابه إلا لمن في قلبه زيغ ، كما نص في آية المحكم والمتشابه من أول سورة آل عمران . وهذا يؤيد قولنا إن الإمام أحمد لم يكفر منكرى الرؤية إلا لأنه كان يعتقد أن الجاهل لهم على الإنكار هو الزيغ والزندقة .

ثم قال الحافظ : ومن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات وأبو يوسف في القرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وإن المراد (أي بالثاني) ما يقع من القتن^(١) ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرينين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد من المبالغة في سنك الدماء بتأويله الواهي . وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره في الأصل غير مراد فالامساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم اهـ^(٢)

(١) أي حديث جرابي العلم اللذين حفظهما عن النبي (ص) فثبت أحدهما ونوثر الآخر لقطع بلعومه

(٢) ومن ذلك ما ذكره بعض علماء الشام لجمال باشا السفاك من جزاء البغاة الخارجين على إمام المسلمين وجماعتهم فاتخذ حجة لدى العامة على صلب من صلبهم بغير حق من نابغي البلاد ، ولم يكن هو منفذا لأمر سلطانه الذي لم يكن من أئمة الحق بل لم يكن له من السلطة شيء إذ جهل باشا وجمعيته كانوا هم الخارجين عليه ، وكذلك كان يفعل أمير مكة حسين منذ سمي ملكا في الحجاز : يقطع الأيدي والأرجل ممن يخالف سياسته ولو بذنب معتاد أو بغير ذنب شرعي ، حتى روى أن رجلا فر من سجنه الذي هو أقبح مظاهر الظلم والقسوة ، فأمر بقطع يده ورجله من خلاف وإن رجلا آخر أنكر في حرم المدينة المنورة أطراء الخطيب له في الخطبة بما هو كذب وزور فأمر به فقطع وصلب ووضع على صدره لوح كتب فيه (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) الآية ، وكان هذا من قبل جهرة بدعوى الخلافة ، فلو أقره العالم الإسلامي على هذه الدعوى بإجازة تلك البيعة الباطلة من بعض أولى العصية =

(أقول) هذه مسألة كبيرة من مسائل الاجتهاد تدخل في باب التعارض والترجيح من الأصول ، أعنى التعارض بين ما أوجب الله تعالى من بيان العلم واطهار الشرع وما حرم من السكتان في قوله (ليبينه للناس ولا يكتمونه) وبين ما حرم من الظلم والفساد والغفنة وما وجب من سد ذرائعها مما هو مجمع عليه ، ولم أر لأحد من العلماء تحقيقاً لهذا البحث وليس هذا محله .^(١)

(٢) الرؤية في العمل النوى

قد ثبت بالنجربة المسكورة والرؤية البصرية أن بعض الناس يفعلون في حال النوم المعطل لجميع الحواس أعمالاً دقيقة كالقراءة والكتابة وتركيب الأدبية بسرعة ومهارة يعجزون عن مثلها في اليقظة ، وقد كان يخرج أحدهم من منزله ، ثم يعود إليه وهو مغمض العينين وقد يفتحهما ولا يرى بهما إلا ما توجهت ارادته إليه كبعض الصيدلة الذي راقبه طبيب عرف حاله فراه يقرأ وصفات الأطباء ويركب ماجاء فيها فألقى إليه فيها وصفة دواء سام يقتل شاربه في الحال ، فقرأها وأعاد التأمل فيها ، وقال : لا شك أن هذا

== الجاهلية العمية فالى أى حد كان يتهوك ويتقحم في جرأته على تحريف كتاب الله تعالى واستحلال دماء المسلمين به ؟ وإنما نزلت الآية تهديداً للبغاة الخارجين على إمام المسلمين وجماعتهم — بقطع الطرق وتهديد الأمن العام ونهب الأموال وقتل الأنفس ، لا على أفراد العصاة وإن اقترفوا أكبر الكبائر كالقتل والسرقة وقد منع الله عقاب البغاة بذلك إذا تابوا قيل القدرة عليهم ، وخير الإمام فيهم إذا ظهر عليهم بالقوة فقال : إنما جزاؤهم كذا ، أى إذا كانت المصلحة فيه ولم يقل فيهم كما قال في السارق والسارقة (فاقطعوا أيديهما) وفي الزانى والزانية (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

(١) طرقه الإمام الشاطبي في (الباب الثامن) من كتاب الاعتصام (في الفرق بين البدع والمصالح المرسله والاستحسان) ومما ذكره من الوقائع في بعض فروعه : أن بعض كبار العلماء افتوا بعض الملوك بوجوب صيام شهرين متتابعين في كفارة الوقائع في نهار رمضان دون العتق ، لأن الصيام يزجرهم عن إفساد صيامهم دون العتق ، وإن مالكا أفق الرشد بصيام ثلاثة أيام في كفارة العين ويراجع تفصيله في (ص ٥٤٨ ج ٣ منه)

غلط أو سبق قلم من الطبيب فأن لا أركبه وألقاها. وراقب بعضهم رجلا آخر كان يخبر أن نقوده تسرق من صندوقه الحديدى فى كل ليلة فبات عنده فراشه قد قام من فراشه بعد استغراقه فى النوم وفتح صندوقه وأخذ منه بعض النقود وخرج بها فتبعة حتى جاء مكانا خربا فتسلق جدارا من جدره المتداعية ومشى عليه بسرعة ثم نزل فى داخله وحفر فى الأرض حفرة ووضع فيها ما حمله من النقود وعاد فتسلق الجدار ومر عليه مسرعا والمراقب ينظر إليه ولا يستطيع أن يفعل فعلة وعاد إلى منزله وأوى إلى فراشه فلما استيقظ فى النهار عد الدراهم وأخبر الرجل الذى بات عنده ليكشف له حال من يسرق صندوقه بما نقص منها فحدثه هذا بما رآه فعجب وأنكره فذهب إلى المكان فلم يستطع الرجل أن يتسلق الجدار ويعشى عليه مسرعا كما فعل وهو نائم ولكنهما تكلفا ذلك وتريثا فيه حتى وصلا إلى مكان طمر النقود وبحثا عنها فوجداها فى عدة مواضع. ورؤى بعض غلمان أسرتنا مرارا يقوم من النوم ويخرج لحاجته ثم يعود وهو نائم ودخل المطبخ مرة فنظف بعض الآنية فيه وعاد إلى فراشه وهو نائم وربما كانت هذه الحالة مؤيدة لمذهب من قال إن للانسان نفسين أو روحين تفارقه إحداها فى حال النوم فقط وتفارقه الثنتان معاً بالموت ، ويقرب هذا من قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)

(٣) الرؤيا والأحلام

الرؤيا النومية والأحلام منها خواطر تتمثل واقعة فى حال النوم وسببها اشتغال الفكر بها أو أسباب تمرض للنائم فيتخيلها بنفسها أو ما يشبهها واقعا وهى أضغاث الأحلام ومنها الرؤيا الصادقة كرؤيا ملك مصر التى أولها له يوسف عليه السلام وأمثالها كثير وقع معناه مع غيرنا وثبت بالتواتر ثبوتها لا يحتمل التأويل بالرغم من أنوف المكابرين وقد بيناهم من قبل بالنجارب القطعية. وأعلاه وأكمله رؤيا الأنبياء التى هى من مبادئ الوحي وقد وقع للنبي ﷺ رؤية الرب تعالى فى المنام كما روى ابن عباس وأنس وظن بعضهم أنه أراد بها اليقظة ، وقد تقدم ذكر ذلك فى هذه المباحث ، ووقع ذلك لغيره أيضا

(٤) الرؤية فى النوم المغناطيسى

النوم المغناطيسى قد اشتهر وكثير وهو يحصل بتبصير صناعى يستعان عليه (تفسير القرآن الحكيم) (١١) (الجزء التاسع)

بقوة إرادة بعض الناس وتأثيرهم في أنفس من ينومونه أو ببعض الأعمال التي لا عمل لبسطها هنا. والنائم به يغيب إدراكه وشعوره عن كل شيء ماعدا منومه فان نفسه تكون رهن تصرفه فاذا أمره بشيء خضع لإرادته بقدر ما في نفسه من الاستعداد لذلك وقد ثبت بالتجارب الكثيرة أن المنوم يسأل النائم عن أشياء غائبة أو مستورة ما هي وأين هي؟ فعند سؤاله إياه عنها توجه نفسه اليها فيراها ويخبره عنها فيصدق .

فهذه ثلاثة أضرب أو أنواع من الرؤية للشئ . لا عمل للأعين فيها إلا أن العرب خصت ما يرى في النوم باسم الرؤيا . بالالف وما يقع في اليقظة باسم الرؤية ، ولم تفرق بينهما في الأفعال ، ولعلها لو عرفت النوع الأول والثالث عما ذكرنا هنا لسمته رؤيا أيضا . روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس (رض) في قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس وليست رؤيا منام تقول ولكن الله تعالى سماها « رؤيا » لا رؤية . والتحقيق المختار أن الإسمراء والمعراج كانا في حالة روحية قوى فيها سلطان الروح على سنن الله في الجسد فصار خفيفا لطيفا كالأجسام التي تتمثل فيها الملائكة للأنبياء (ع . م) وتمثل فيها الروح للسيدة مريم (ع . م) لا بالروح فقط كما قيل ولا في المنام كما في رواية شريك في كتاب التوحيد من صحيح البخاري وهو يتفق مع قول من قالوا إنهما بالروح والجسد ، إذ إطلاقهم لا ينافي هذا القيد . وإن قيل أن الجسد الذي حلته روحه الشريفة ليلتشد غير جسده المعتاد ليناسب العالم الذي دخل فيه . فكيف ولا مانع من كونه هو بعينه أثرت فيه الروح فلفظته وجعلته كالأثير في لطفه وقوته في هذا العالم الدنيوي ، وبقي السلطان للروح فجبريل الذي تمثل للنبي ﷺ بصورة دحية ولمريم بصورة شاب جميل الصورة هو جبريل الذي رآه النبي ﷺ بصورة سادا الأفق الأعلى ، وقال تعالى فيهما (فأوحى إلى عبده ما أوحى) يوضح هذا ما يأتي .

(٥) تشكل الملائكة والجن ورؤيتهم في هذه الحالة

قد ثبت عن أفضل البشر وأصدقهم من أنبياء الله وبعض أوليائه أنهم كانوا يرون الملائكة والجن في صور لطيفة أو كثيفة وثبت تمثلهم لهم بنص

القرآن وغيره من كتب الوحي .

وقد صح أن النبي ﷺ لم ير جبريل ملك الوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها إلا مرتين ، وقد علم بالقطع أنه رآه في الصور التي كان يتشكل فيها مراراً تعد بالمئين أو أكثر ، وليست محصورة في عدد نزوله بآيات القرآن وسوره ، وقد كان من تلك الصور صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ، ومنها صورة الرجل الغريب الذي سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان الخ ، وهذا النوع من الصور الكثيفة رآه فيه من حضر مجيئه من الصحابة (رض) ومنها صور لطيفة لم يكن يراه فيها غير النبي ﷺ وقوله في حديث الوحي الذي رواه الشيخان : « وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول » يشمل النوعين ، وورد أنه ﷺ مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط فرآها ولم يرهما غيره ، ومعنى هذا أن الله تعالى أراه مثالا لها ، وهذا غير تمثل الملك له بإرادته وعمله .

وقد رأى ﷺ غير جبريل من الملائكة ورأى بعض الشياطين أيضاً متمثلة في صور ، وكان يعبر عن ذلك بالرؤية . فثبت بهذا أن الرؤية للشيء لا تقتضي رؤية حقيقته في الواقع ونفس الأمر ، وإن كان مخلوقاً ، له جنس ينقسم إلى أنواع تحتملها أصناف ، وشخص لها أمثال

فإذا كان المخلوق يرى مخلوقاً مثله رؤية لا يدرك بها كنهه ولا يحيط بحقيقته ولا يشاركه فيها كل من له عينان مثله . وهذا مما يؤمن به المعتزلة والشيعة والاباضية كغيرهم . فهل يستنكر أن تكون رؤية الرب الذي ليس كمثل شيء بلا كيف ولا مثال وعلى غير المعبود في رؤية بعضنا لبعض كما استنكر هؤلاء الذين قال شاعرهم :
قد شبهوه بمخلقه وتخوفوا شنع الوردى فقتلوا بالبلوكفة

أم يصح مع هذا أن يصر بعض أهل السنة على تقييد رؤيته تعالى بالأبصار وأعين الرعوس واستنكار تسميتها رؤية روحية مع الاتفاق بينهم على أن الإدراك بجميع أنواعه للنفس لا للجسد ، كما ترى توضيحه في المسألة التالية

(٦) الكشف وكون الإدراك للنفس

إن العلم والإدراك في الحقيقة للروح وإن الحواس والدماغ آلات حسية للعلم ببعض الحسيات بحسب سنن هذه الحياة الدنيا وقد ثبت بما تقدم من الشواهد

أن النبي ﷺ كان يرى من وراءه كما يرى من أمامه وهي رؤية روحية غير مقيدة
ببصر العينين ولا بالمقابلة وثبت نحو من هذا لبعض المكاشفين بالروايات التي وصلت
إلى درجة التواتر، ومن هذه المكاشفة ما يقع في حال الصحة بقوة توجيه الإرادة
إلى الشيء أو فجائياً بغير قصد، كما وقع لمؤلف هذا التفسير في صغره فقد رأى
جدته لأمه وهو مضطجع مسجى في بستان لها تمشى في الطريق جائية إليه حتى إذا
مارأها قد وصلت إلى مدخل البستان من الطريق العام ناداها فأجابته، وبعدها
يكون هذا تخيلاً صادف الواقع، وله أمثال ونظائر لولاها لتعين القول بذلك وقد
وقع لنا منه مع بعض الناس ما كنا نحمله على المصادفة اثلاً يقيسوا عليه دجل المحتالين
ولثلاث تقع في الغرور، ولكن مجموع ما نقله الثقات منه لا يحتمل التأويل ومنه ما يقع
في النفس بغير رؤية ولا تخيل وإن كان قبيحاً من شأنه أن يرى، وليس مما نحن فيه
وقد يقع في أحوال مرضية كالمرضى الذي كان يعالجه الطبيب شبلي شميل
بمصر وكان يخبر بأشياء غائبة وبأمور قبل وقوعها فيصدق بالضبط الدقيق، ومن
الأول أنه أخبر بأن قريباً له قد خرج من داره بالاسكندرية يريد السفر إلى مصر
لزيارته ثم أخبر أنه رآه قد وصل إلى محطة الاسكندرية ودخل القطار وبعد مضي
ثلاث ساعات وكسور أخبر أنه نزل من القطار في محطة القاهرة وخرج منها وركب
مركبة لتعمله إلى الدار التي هو فيها، ثم أخبر أنه وصل إلى الدار - وإذا به قد
دخل. وكان الطبيب شبلي ينكر مثل هذا وينكر وجود أرواح مستقلة بالوجود
تلبس الأجساد وتفارقه مدركة بالذات، أي غير مقيدة في إدراكها بوجودها في
الجسد واكتسابها العلم من حواسه وعصب دماغه، وقد صار بعد هذه الواقعة التي
كشها بقلبه، وسمعتها من فمه، يشبه دماغ الإنسان بالآلة الكهر بائية للتلفراف
اللاسكي التي تتلقف من كهرباء الجو ما يرسله هذا التلفراف من أخبار السفن أو البلاد
البعيدة، ولكن كان من أخبار مرضه به أنه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار
غد ويخرج من دمه ما يبلغ وزنه كذا. فكان كما قال، وهذا إخبار عن الشيء قبل
وقوعه لا يتناوله التشبيه الذي ذكره، وهو من الغيب الإضافي الذي خلق الله
الأرواح كلها مستعدة لادراكه قبل وقوعه لولا ما يشغلها عنه من مدارك الحواس والمقول
وهو الم الحياة - لا من الغيب الحقيقي الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وقد فصلنا

القول في الفرق بينهما في تفسير سورة الانعام^(١)

(٧) أنواع المدركات وعناصر الكون وأحوالها

إن مدركات البشر الحسية والعقلية لا تتعلق في حال هذه الحياة الدنيا بكل ما في هذا الكون من أنواع الموجودات بل هناك حجج من الوحي والعقل والعلم تدل على ضد ذلك - أما الوحي فقد ثبت فيه أن العالم قسمان ، أو أن الكون قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة -

وأما العقل فمن أحكامه أن عدم العلم بالشئ لا يقتضى عدم وجوده وأن من الجائز أن يكون في الكون موجودات كثيرة لا ندركها ولا نشعر بها حواسنا ومشاعرنا لعدم استعدادها لإدراكها البتة كأن بعضها لا يدرك ما يدركه الآخر من الهيئات والألوان والطعوم والروائح مثلاً - وإما الضعف الحاسة فينا عن إدراك ما هو من متعلقها لفقد بعض شروط ادراكه ، وقد دل العقل على أن الوجود الممكن الذى نعرفه في الجملة يدل على الوجود الواجب الذى لم ندركه بحواسنا ولم ندرك كنهه عقولنا ، بل دل على وجود آخر من الممكنات وهو ما يسميه علماء الكون بالانير

وأما العلم - علم التجربة والبحث العملى في الوجود - فقد أثبت وجود أحياء كثيرة الأنواع ذات تأثير عظيم في حياة الأحياء من نفع وضرر نرى بالمرأى المكبرة دون البصر المجرد وأن فيه مواد أخرى لطيفة هي من أصول عناصره التى لم يتم تكوينه إلا بها ، وهى لا تدرك بالحواس ولا بالعقل بآدى ، بدءوا بما عرفت بأعمال التحليل والتركيب والآلات واستخدمت لكثير من المنافع والمضار ، وهى كالعناصر التى يتركب منها الماء والهواء وقد ثبت بالتجارب العملية مآصار العلم به قطعياً يدخل في باب الحسيات من أن الجسم الجامد يتحول بالحرارة إلى مائع كما يكون الجليد والثلج ماء ، وأن المائع يتحول بها إلى بخار وهو ما نشاهده كال دخان اللطيف يخرج من الماء عند تسخينه ومن كل مائع فيه ماء . وأن هذا البخار المائى وغيره يتحول بشدة الحرارة إلى مادة لا ترى كالهواء ويسمونها غازاً ، وأن الأجسام الجامدة كالذهب والقصدير والمائة كالماء والغازية كالهواء منها البسيط ومنها المركب ، وأن

البسائط التي تتألف منها المركبات محدودة تعد بالمعشرات وصار في قدرة البشر أن يحلوا المركب ويفرقوا بسائطه بعضها من بعض بصناعة الكيمياء والآنهاء وأن يحولوا الجوامد من صفتها فيجعلوها غازات ، وأن يجعلوا من الغازات ومن السائلات جوامد ، وهم يتخذون منها أغذية وأدوية وسموما قاتلة بل استخرجوا من ماء البحر الملح ذهباً إيريزاً هذه الاعمال التي صارت من صنائع البشر تقرب من العقل والعلم ما صبح عن الرسل المعصومين من أن الملائكة وغيرهم من الجن يتشكلون في صور كثيفة ترى بالابصار وبصور لا ترى بالابصار. أي أن الله تعالى أعطى أرواحهم قوة يتصرفون بها في مادة الكون وفي أنفسهم بأعظم من تصرف علماء الكيمياء في نفسه، ولكنه من جلسته، فقد أعطى الله تعالى الواحد منهم قدرة على تأليف جسم لروحه من هذه المادة إذا شاء، وحله وتفريقه متى شاء ، وقد وضحناء هذا التقريب من قبل وغرضنا من التذكير به هنا إيضاح مسألة تجلّي الرب سبحانه تعالى في الصور أو من وراء الحجب وكون رؤيته لا تقتضي تشبيهه بخلقه كازعم من لم يعملوا من أنواع الإدراك والمدرجات المخلوقة ما يقتضي تشبيه بعضها ببعض وقد قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

(٨) مذاهب الصوفية في الرؤية

الصوفية فرقة من فرق المسلمين المتخلفين في الأصول وهم لا يقلدون اماماً واحداً في الفروع بل منهم المجتهدون فيها ومنهم المقلدون لأهل المذاهب المشهورة ويكثر فيهم الشافعية كأن أكثر المعتزلة والمرجئة من الخنفية. وقد غفل من لم يعد منهم من الفرق الثلاث والشيعة . وإنما الكلام فيمن يسمون صوفية الحقائق ، وهم أقرب إلى الفلاسفة الروحانيين الاشرقيين وإلى قدماء الشيعة منهم إلى أهل السنة والأثر وجمهورهم يجولون الصحابة ولا سيما الخلفاء الراشدين وعلماء السلف ولا سيما العباد منهم. ومنهم المعتدلون وأهل الحديث كشيخ الاسلام أبي اسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين ومنهم الغلاة الذين مرق بعضهم من الإسلام بنزغات الباطنية وزينهم وهم غلاة الرافضة من الاسماعلية إلى البهائية وزعماءهم من الفرس ومنهم البكتاشية وقد راجت دعوتهم في بلاد الترك والالبان. ويقابلهم صوفية الأخلاق وأهل السنة منهم يقولون في الرؤية ما يقول سائر

أهل السنة وكذا المعتدلون من أهل الحقائق فترى أباحمدا الغزالي من علمائهم قد فسر الرؤية بما ينطبق على مذهب الأشعرى . وشأن سائر مقلداتهم كشأن سائر المقلدين للمذاهب الأخرى

وأما صوفية الحقائق المستقلون فجمهور أهل الوحدة منهم يدخلونها في مسائل الوحدة ، فغلاة وحدة الوجود ليس عندهم إلا وجود واحد له مظاهر ومجالي فهم يثبتون الرؤية بهذا الاعتبار والإقرار بالمرئى واحد عندهم ، يعنون أن الرب عين العبد والعبد عين الرب فالله تعالى يرى نفسه بما يتجلى فيه من صور عبده أو ماشاء من خلقه ، هذا تناقض وهذيان يدهي البطلان ، وحسبنا ما نشهره في المنار من إبطاله وتناقضه الشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . وأما أصحاب وحدة الشهود منهم فذهبهم أن الرب تعالى يتجلى لعبده المؤمن في الدنيا تجليا غير كامل وفي الآخرة تجليا كاملا ، فيعنى العبد بهذا التجلى عن نفسه وعن كل ماسوى ربه فلا يرى غيره وهو يراه بكل روحه المدركة لا بعينه فقط ، ومن كلام ابن الفارض فيه * إذا ما بدت ليلي فكلى أعين * فان الرؤية بآلة الباصرة إنما تكون للأرواح المحبوسة في هياكل الأجساد المقيدة بسنن الله فيها كأنهم آفوا ، فهي كالمحبوس في سجن له نوافذ وكوى قليلة يرى منها بعض ما يحاذيها دون غيره مما وراء السجن وهم يثبتون تجليه تعالى في الصور المختلفة ولا يرون ذلك محالا يجب تأويله بل يقولون الأحاديث في ذلك على ظاهرها كجمهور السلف ولكل من هؤلاء . وأولئك أقوال وشواهد مشتركة يشتبها معها بعضهم ببعض فيعسر التزليل بينهم ، ومنها استشهادهم بالحديث القدسي الذي أخرجه البخاري في صحيحه فانتقد عليه لعله في سننه وذكره ^(١) النووي في الأربعين ومحل الشاهد منه « ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها » ومعناه الذي يتفق مع أسلوب اللغة وقواعد الشرع : كنت متعلق سمعه وبصره وسائر جوارحه ، أى فلا توجه إرادته هذه الجوارح إلا إلى ما يعلم أنه يرضى ربه ولا ينسى مراقبته في أعمالها ، وكل من القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود يستدل به على مذهبه . ومن شعرهم في ذلك :

(١) رواد عن خالد بن مخلد الكوفي وهو من شيوخه وقد وثقه بعضهم وقال أحمد : له منا كبير وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به .

أعارته طرفاً رآها به فكان البصير بها طرفها

والشيخ محي الدين بن عربي في كلام في كل ما سبق ذكره من الآيات والأحاديث على طريقتهم في الوحدة في الباب الحادي والأربعمئة من الفتوحات المسكية وهو :

كلمة لابن عربي في الرؤية

« قال الله عز وجل (لا تدركه الأبصار) وقال عز وجل لموسى عليه السلام (لن تراني) وكل مرئي لا يرى الرائي إذا رآه منه الا قدر منزلته وربته فما رآه وما رأى إلا نفسه ولولا ذلك ما تناضلت الرؤية في الرائيين إذ لو كان هو المرئي ما اختلفوا لكن لما كان هو مجلي رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه أنه يتجلى وأنه يرى ولكن شغل الرائي برؤيته نفسه في مجلي الحق حجبه عن رؤية الحق فلذلك لو لم تبدل الرائي صورته أو صورة كون من الأكوان ربما كان يراه فما حجبتنا عنه إلا أنفسنا فلورأينا عنا مارأيناه لأنه ما كان يبق ثم بزوالنا من يراه ؟ وإن نحن لم نزل فما نرى إلا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا ومنزلتنا فعلى كل حال مارأيناه ، وقد تتوسع فنقول قد رأيناه ونصدق كما أنه لو قلنا رأينا الانسان صدقنا في أن نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقى ومن في زماننا من كونهم إنسانا لا من حيث شخصية كل إنسان ، ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا ، وإن نظرنا إلى عين التمييز في عين عین لم نصدق ، وأما قوله ﷺ في حديث الدجال ودعواه انه إله فمهد إلينا رسول الله ﷺ أن أحدنا لا يرى به حتى يموت لأن الغطاء لا ينكشف عن البصر إلا بالموت والبصر من العبد هوية الحق فعينك غطاء على بصر الحق فبصر الحق أدرك الحق ورآه لأنك فان الله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ولا ألطف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لا يدرك الله ، وليس في القوة أن يفصل بين البصرين والخبير علم الذوق فهو العليم خبرة أنه بصر العبد في بصر العبد وكذا هو الأمر في نفسه وإن كان حيا فقد استوى الميت والحي في كون الحق تعالى بصرهما وما عندهما شيء فان الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء إذ (ليس كمثل شيء) وهو السميع البصير) اه وقد تكلم على الآية في مواضع أخرى وعلى جميع الأحاديث الواردة في المسألة وكلامه متعارض بعضه يتأول بتكلف أو بدون تكلف

* ٨ كلمة في النور والحجب والتجلى في الصور *

قال المحقق ابن القيم في (مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين) للهوى في الكلام على الدرجة الثانية من منزلة (اللحظ) مانصه .

« ونور الكشف عندهم هو مبدأ الشهود وهو نور تجلى معاني الأسماء الحسنى على القلب فتضىء به ظلمة القلب ، ويرتفع به حجاب الكشف ، ولا تلتفت إلى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها ، فانك تجد في كلام بعضهم « تجلى الذات يقتضى كذا وكذا ، وتجلي الصفات يقتضى كذا وكذا ، وتجلي الأفعال يقتضى كذا وكذا » والقوم عنايتهم بالألفاظ فيتوهم المتوهم أنهم يريدون تجلى حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان ، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات ، والصادقون العارفون براء من ذلك ، وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والاعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بحو شهود السوى بالكلية ، فلا يشهد القلب سوى معروفة ، وينظرون هذا بطلوع الشمس فانها إذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعد الكواكب ، وإنما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود وهي موجودة في أماكنها ، هكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب وقوى سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب . ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله ، ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور ، وكما يتجلى يوم القيامة للناس الاغلاط فاقد للعلم ، وكثيراً ما يقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نورة الذات والصفات ، فان العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواظى عليه القلب واللسان يجب نوراً على قدر قوته وضعفه ، وربما قوى ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات ، وهيئات ! ثم هيئات ! نور الذات لا يقوم له شيء . ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كاه كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلى .

« وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « ان الله سبحانه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . فالإيمان له نور ، والإيمان له نور أقوى منه ، والإحسان له نور

أقوى منها،^(١) فإذا اجتمع الاسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله امتلاً القلب والجوارح بذلك النور، لا بالتور الذي هو صفة الرب تعالى فان صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته . كما أن مخلوقاته لا تحل فيه ، فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته ، فلا اتحاد ولا حلول ولا تمازج . تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً » اهـ

أقول : هذا التصوف الموافق للكتاب والسنة لا تصوف ابن عربي والفرق بين نقي كل منهما للحلول أن هذا يقول أن الخلق والخالق شيء واحد والشيء لا يحل في نفسه والآخر يقول أن النسبة بينهما المباشرة التامة . وهذا التوحيد هو الحق الذي كان عليه السلف الصالح (رض)

وقال المحقق ابن القيم (رح) في فوائده الذكرك من الكلم الطيب وهو :
« إن الذكرك نور للذكرك في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده يسمى بين يديه على الصراط^(٢) في استنارة القلوب والقبور يمثل ذكر الله تعالى قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟) فالأول هو المؤمن الذي استنار بالإيمان بالله ومحبه ومعرفة وذكره . والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبه . والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور . والشقاء كل الشقاء في فواته . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبالي في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لجة وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول « واجعلني نوراً » فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة ، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً ، فدين الله تعالى عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلأأ ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه ، وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات »
(١) إنما كان نور الإحسان أقوى لانه عبارة عن الإحسان في الاسلام والإيمان فهو السكال فيهما عملاً واعتقاداً
(٢) كذا والظاهر أن ههنا حذفاً قبل قوله : في استنارة

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات من وجهه » وفي بعض ألفاظ هذا الأثر : نور السموات من نور وجهه ، ذكره عثمان الدرامي ، وقد قال تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض وليس اشراقها لشمس ولا قر فان الشمس تسكور ، والقمر يخسف ويذهب نورهما ، وحجابه تبارك وتعالى النور . قال أبو موسى « قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ثم قرأ (أن بورك من في النار ومن حولها) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئاً سيرا سائح الجبل في الأرض وتدكدك ولم يقر به تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى (لا تدركه الابصار) قال ذلك الله عز وجل إذا تجلى بنوره لم يرق له شيء . وهذا من بديع فهمه رضى الله عنه ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل ، فارب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالابصار عياناً ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له . وإن رآته فلا إدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس والله المثل الأعلى نراها ولا ندركها كما هي عليه ولا قريباً من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه (لا تدركه الابصار) فقال ألسنت ترى السماء ؟ قال بلى قال أفتردركها ؟ قال لا . قال فالله تعالى أعظم وأجل « اه^(١)

(١) كان أهل النظر المشتغلون بالفلسفة اليونانية يتأولون جميع الآيات والأحاديث الواردة في صفات الرب تعالى ويشكرون على علماء الأثر الأخذ بظواهرها مع التزیه والتفويض حتى أن الأشعرية الذين أرادوا أن يكونوا وسطاً بين غلاة النظر من الجهمية وغيرهم وبين أهل الحديث كالحنابلة قد بالغ بعضهم في التأويل

قد أشار هذا العالم المحقق بهذه الجملة الوجيزة من كلامه الطويل في موضوعها إلى جملة ماورد « في النور » من نصوص الكتاب والسنة فقد سمي الله تعالى نفسه نورا وورد النور في أسمائه الحسنی الماثورة وأُسند النور إلى اسم الذات في قوله (الله نور السموات والأرض) وأسند رسوله إلى وجهه تعالى بقوله « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » ومثله في آثار أخرى والجمهور يفسرون الوجه بالذات . وهذا نوع من استعمال النور غير إضافته إليه تعالى في قوله (وأشرقت الأرض بنور ربها) وقوله (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) على أن نوره في الأخيرة كتابه ووجهه وكلامه الذي هو من صفاته ، والمراد به في الاظهر ما فيه آيات الهداية ، فهو كقوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ومثله إطلاق اسم النور على النبي (ص) في قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) على وجه . وورد مثل هذا في كتب العهد الجديد عند النصارى مرويا عن المسيح عليه السلام كقول يوحنا في رسالته الأولى « ١: ٥ وهذه هي البشري التي سمعناها منه ونبشركم بها : أن الله نور وليس فيه ظلمة ألبتة » وأطلق النور على المسيح نفسه في موضع من انجيلي لوقا ويوحنا ومن المعلوم أن النور حسي ومعنوي ، فالأول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات ، والثاني يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير

حتى صار الخلاف بينهم وبين غلاة النظر لفظيا . والباعث لهم على ذلك محاولة تطبيق النصوص على نظريات الفكر التي عدوا الكثير منها قطعيا وليس بقطعي ونحمد الله تعالى أن العلوم الكونية قد تقصت في هذا العصر أكثر تلك النظريات الفلسفية اليونانية وقربت نصوص الكتاب والسنة من الافهام ، ومما ثبت بها أخيراً أن هذه الكهربائية التي رأى البشر كثيراً من عجائبيها هي الأصل في تكوين مادة العلم كله وأطوارها ، وهي نور أو مصدر النور والحركة التي يحدتها النور أو تحدته ، وإذا كان الخالق الباري المنزه عن نقص المخلوقات التي لا يكمل شيء منها إلا به قد حجب عنها بالنور ، فلك أن تفهم أن الكهرباء وما جعلها الله أصلاً له من تكوين العالم المادي هي الحجاب المانع من رؤية الرب تعالى فيه وإن انكشف هذا الحجاب لا يكون إلا في الجنة ، وإن انكشفه هو الذي يوصل أهلها إلى أعلى وأكمل درجات المعرفة به تعالى وهي الرؤية بغير كيف ولا أدرك ، وقد نصر العلم مذهب السلف ، على تأويلات المخالف ، والله الحمد

والصلاح. وكذلك نور الآخرة قسمان حسي ومعنوي ، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته قد أضيف الى وجهه وأسند إلى ذاته فهو فوق هذا وذاك لا يعرف كنهه سواء عز وجل ، وهو غير النور الذي هو حجاب المانع من رؤية ذاته وإدراك كنهه ، ولا يكبرن عليك أيها الانسان المعجب بنفسك هذا العجز عن إدراك نور الله عز وجل ، فان هذا النور الحسي الذي تراه بعينك لا تدرك حقيقته ولم يدركها أحد من أبناء جنسك الى الآن ، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفاً يحدد هذه الحقيقة. ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما يرونه من نار الأرض ونيران السماء ، ثم عرف المتأخرون هذه الكهرباء والراد يوم فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد إذا قيل إنه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهت اليها البشر قبله لم يكن هذا القول مبالغة ، وقد كانت الصوفية تقول إن وراء مدارك عقول البشر علوماً صحيحة منطقاً على حقائق خارجية لا محض نظريات فكرية. فيقول مدعو الفلسفة والمنطق إن هذه خرافات خيالية. قال ابن الفارض

قيم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العلوم الصحيحة

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد مالا يحصى من المصابيح في دار ومدينة كبيرة في طرفة عين وأن يطفئها في طرفة عين ؟ وأن هذه المصابيح توقد بلا زيت ولا نار ، وإنما تشعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها ولكنها متصلة بها بسلك دقيق ، وأي عقل كان يتصور أن البشر يتخاطبون ويسمع بعضهم كلام بعض على بعد أوف من الأميال ؟ وهذا بعض خواص هذه الكهرباء

نعم إن علماء المسلمين قرروا أن أمثال هذه الأمور من الممكنات لا المستحيلات فوردوا نظائرهما في أخبار الآخرة لا يقتضي أن في الدين شيئاً يرده العقل الصحيح بالبرهان ، ولكن جماهير الكفار بالرسول لم تستطع عقولهم تصورها ولا التصديق بها - بل نرى ضعف العقل والعلم من المسلمين أنفسهم يظنون فيما نقلناه آنفاً من كتاب الوابل الصيب أنه من المشكلات التي لا تنفق معها إلا بضرب من التأويل - لأجل هذا علقنا عليه الحاشية الوجيزة المثبتة معه هنا عند طبع الكتاب في (مجموعة الحديث النجدية) ليعلموا أن منتهى ما وصل اليه علماء الكون يؤيد مذهب السلف فيها وفي أمثالها ، ويبتطل قاعدة المتأولة في جعل نظريات أفكارهم وألوفات عقولهم وقضايا معلوماتهم

الكلامية القليلة أصلاً ترجع إليه نصوص الكتاب والسنة ولو بالتأويل، وقد علمنا أن بعض الذين اطلعوا على هذه الحاشية في مجموعة الحديث لم يفهموها فاضطربوا فيها ولم العذر فانها على غرابة موضوعها وجيزة لم توضح المقام لأمثالهم كما كان يجب. ولكن لها فيما سبق من المسائل والمباحث في رؤية الرب تعالى نظائر تغني من استحضرها عن الايضاح، ولا بأس مع ذلك من زيادة فيه وإن لم تخل من تكرار لبعض القضايا. تقدم أن البشر لم يصلوا إلى الإحاطة بكنهه شيء من حقائق هذه المخلوقات وإنما يعرفون منها ظواهرها وبعض خواصها وسنن الخالق فيها، فهم أولى بالمعجز عن إدراك حقيقة الخالق وصفاته وأفعاله، وإنما عرفوه سبحانه وعرفوا صفاته وأفعاله بآياته الكونية في خلقه، وآياته الكلامية المنزلة على رسله، ففي كل شيء له آيات تدل على وحدانيته وعلمه ومشيتته وقدرته وحكمته ورحمته، فهو تعالى ظاهر في كل شيء بدلالته عليه وباطن في كل شيء بحجبه عليه به عنه.

إن اشتغال العبد بشؤون الخلق يحجبه عن معرفة ربه وعن مراقبته وعن عبادته وعن شكره إذا هو اشتغل بها لذاتها وماله من اللذة والمنفعة العاجلة فيها، كما أنها تكون آيات ودلائل لمعرفة ووسائل لمراقبته وبواعث لعبادته وذكره وشكره إذا هو نظر بهذه النية، وإن تجلبه سبحانه للأبرار في الآخرة يكون بقدر هذا. كما أن حجب الفجار عنه يكون بقدر مقابله الذي ذكر قبله (جزاء وفاقا) فسعة العلم بالكون وسننه ونظامه ومنافعه قد تكون من أسباب سعة المعرفة بالله والكمال الذي يقرب منه. وقد تكون من أسباب الجهل بالله والبعده عنه، ولو كان هؤلاء العلماء الذين عرفوا في هذا العصر أضعاف ما نقل عن الأولين من أسرار هذا العالم قد انظروا فيه بنور الله واهتموا في مباحثهم بهداية وجهه لوصلوا إلى درجة عالية من الكمال. على أن ارتقلهم في الأسباب وتجاهلهم المتصل في كشف أسرار العالم لا بد أن يفتقروا إلى المعرفة الصحيحة والعبودية الكاملة التي بينها الرب سبحانه في آخر كتبه للبشر على لسان خاتم رسله لم كأرشد إليه في قوله (منهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)، ولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في ضلالة من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط). ذلك بأنهم سيجدون في حقائق العلوم التي يمتدنون إليها بالتحصيل أبحاثهم

وتتابعها مصداقاً لهذا الكتاب فيما أخبر عنه من عالم الغيب ولقاء الله تعالى وكل ما كفر به المقيدون بنظريات عقولهم القاصرة وعلومهم الناقصة ، كالأرواح والملائكة والجن وتمثلهما في الصور المختلفة ، وتبجل الرب سبحانه لعباده بقدر استعداد أنفسهم وارتقاء أرواحهم من وراء الحجب التي كانت تحجبهم عنه وأن فيما وصلوا إليه من العلم اليوم ما يقرب ذلك من المديان وقد بينا بعض الأمثلة في هذه المباحث وغيرها . وإن من أعظم ما يشغل هؤلاء الباحثين في هذا العلم مسألة بدء الخلق كيف كان ، ومن أي شيء كان ؟ وقد سبق لهم أن جزموا بأن هذه الأجرام السابجة في ملكوت الله من السموات والأرض قد كانت مادة واحدة سديمية تشبه الدخان فافتتقت وانفصل بعضها من بعض فكانت أجراماً متعددة — وقد جاءهم محمد النبي الأمي ﷺ بما هو صريح في ذلك قبل علمهم به بقرون وأجيال كثيرة كما بيناه في موضعه

ثم اهتموا في هذا الجليل إلى أن أصل تلك المادة التي انفتق رتقها بما ذكر المؤلف من عشرات العناصر قد كان مصدرها هذه الكهرباء التي دخلت بها علوم البشر وأعمالهم في طور غريب عجيب ولا تزال عجائبها كل يوم في ازدياد والمسألة التي أشرنا إليها في الحاشية التي علقناها على عبارة ابن القيم في النور هي ما ذكره أخيراً من أن للكهربائية دقائق — أو ذرات أو ذريرات أو جواهر فردة — مستقلة بنفسها سموها (الالكترونات) ورجحوا أنها هي قوام كل جواهر المادة التي يتألف منها بناء العالم العلوي والسفلي ، وأن اهتزاز هذه الذرات أو الجواهر الفردة هو سبب طيف النور ، وأن له اهتزازات مختلفة وأنها هي منشأ تغير العناصر الطبيعية والكيميائية . وقد بينا من قبل أن هؤلاء العلماء قرروا القول من قبل بأن حركة المادة هي سبب جميع التغيرات والتطورات في هذا العالم إذ هي منشأ النور والحرارة التي قلنا إنها تحول الجوامد إلى مائعات والمائعات إلى غازات ، فالظاهر من كل ما تقدم أن الكهرباء هي الأصل لكل الكائنات التي تقدر مساحتها بحسب بعض النظريات العلمية بمئة وخمسين مليون سنة من سنى النور ، وهو يقطع في الثانية ١٨٦٢٣٠ ميلاً في أقرب تقدير وأحدثه في الدقيقة ٨٠٠٠٠٠ ١٧٩٠ ٧ وفي الساعة ٤٣٠٠٠ ٧٨٨٠٠٠ أي أربع مائة وثلاثين مليون ميل

وسبعمائة وثمانية وثمانين ألف ميل ، فكم يقطع في اليوم ، ثم كم يكون في السنة ٢٢
(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

إن مظهر من أسرار القوة الكهر بائية إلى الآن يقرب من العقل أن تكون إرادة الله تعالى وحكمته كما قالوا منشأ التكوين والتطور في عالم الامكان بسرعة حركتها وكونها مصدر النور ، فارتباط أجزاء العالم بها وانتظامه بسنن الله تعالى فيها معقول ، وأما تولد العناصر منها وتجمعها وصيرورتها سديما كالدخان أو الغمام أو بخار الماء فهو طور ثان متأخر عن تولد بعض عناصر المادة من بعض وارتقاء ذلك في سلسلة الأسباب المتقدمة إلى جواهر الكهر بائية الفردية ، فإذا فرضنا أن الكهر باء أول ما خلق الله تعالى من المادة فانها تكون آخر حجاب مادي بمحال بين الماديين وبين معرفته تعالى في الدنيا بمحول بينهم وبين رؤيته في الآخرة ، فإذا انكشف هذا الحجاب وانتهى بالإيمان في الدنيا فانه ينتهي بالرؤية في الآخرة التي هي أكل المعرفة

ولكن الحجب كثيرة كما تقدم وكون الكهر باء أول ما خلق الله تعالى من المادة لم يبلغ درجة العلم القطعي الآن ، فهي باعتبار فهم مركبة ، ومنقسمة إلى موجبة وسالبة ، وآثارها من إثارة الحركة وتوليد النور وغير ذلك إنما تكون بإقتران الزوجين الموجب والسالب ، فيجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى ابتداء كما يجوز أن يكون بسبب مادي آخر ، أو بسبب روعي سابق عليها في الخلق فيكون هو الحجاب الأخير الذي لا يبقى بعد انكشافه إن هو انكشف إلا معرفة الخالق ورؤيته كفاحابدون حجاب البتة - فهذا ما أشرت إليه في تلك الحاشية من التقريب بين ما ورد من التجلي الإلهي في الحجب ومن وراء الحجب ، ولكن كان من السهو جعلنا إياها على إجمالها وإيهامها في مجموعة الحديث النجدية وأكثر قرأها الإمام لهم بشيء من هذه العلوم والاصطلاحات التي يستغنون عنها في هذا المقام بقوة إيمانهم واعتصامهم فيه بهدى السلف وتكرر التنبيه فيهما على أننا إنما ذكرنا هذه المسائل في المناظر في تفسيره التقريب معاني النصوص من عقول المطلعين على هذه العلوم من أبناء هذا العصر المعتونين بها ، فإذا رأى هؤلاء أن أبعد ما ورد في الكتاب والسنة عن مأثوف البشر من أخبار عالم الغيب يتفق مع أحدث ما قرره العلم المبني على التجارب والبحث العملي فالمرجو

أن يكون أجذب لهم إلى الإيمان، وهذا يكثر يوماً بعد يوم، ومنه ما صار حقائق واقعة ومنه ما قرب منها حتى وردت الأنبياء في هذه الأيام بالاهتداء إلى ضرب من العلاج بالكهر بائية يعمد إلى الشيوخ قوة الشباب ونضارته وذلك يقرب كون أهل الجنة شباباً لا يهرمون، وسنقرب مسألة الرؤية بأوضح مثال في بحث الكلام الإلهي، وقد صرحنا مراراً بأن كل ما تورد من تقرير وتأليف بين العلم والدين، ومن تفسير أو تأويل لردشبهات الزائعين، فإننا لا نخرج به عن قاعدتنا في المعتقد المعتمد عندنا في جميع أمور الدين من العقائد والعبادات والفضائل، وهو ما كان عليه أهل الصدر الأول من سلفنا الصالح.

وقد سبق لنا بحث مثل بحثنا هذا على قاعدتنا هذه في تفسير قوله تعالى (٣ : ٢٩٠) هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) من جزء التفسير الثاني، بعضه لنا وبعضه للأستاذ الامام فيراجع في ص ٢٦٠-٢٦٧

(تقليبه) ان ادخال مباحث علوم الـكون في التفسير هو من أهم أركانه والعمل بهدى القرآن فيه، فهو مملوء بذكر آيات الله في خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وكان سلفنا من مفسري السلف واختلف يذكرون ما يعلمون من أسرار الخلق وكذا ما يتلقونه عن أهل الكتاب حتى الذين لا يوثق بعلمهم ولا روايتهم وهو مما يفتقد عليهم.

« الكلمة الجامعة الجامعة في مسألة الرؤية »

خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل التعميم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى في كتابه المجيد (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسوله ﷺ « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأنت هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذي عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم وهي « أنها رؤية بلا كيف » ويؤيد ذلك اضطراب جميع أوصاف العلماء في النصوص الواردة في نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة وأساطين البيان، ونظار الفلسفة وعلم الكلام، ورواة الأحاديث والآثار.

ومرئاضو الصوفية وأولو الكشف والإلهام ، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعي تنفع به بقية الطوائف بدليلها اللغوي أو الأصولي أو العقلي أو فهم النص التقلي أو تسليم إلهامها للكشفي ، ولكن من نظر في جميع ما قالوه نظر استقلال وانصاف يحزم بأن ما كان عليه عامة السلف من إثبات كل ما يصح به النقل وتفويض تأويله الذي يكون عليه في الآخرة إلى الله عز وجل هو الحق الذي يطمئن به القلب ويؤيده العلم والعقل فهو الأسلم والأحكم والأعلم والله يعلم وأنتم لاتعلمون

﴿ خلاصة القول في مسألة الكلام الإلهي ﴾

اضطرب المتكلمون في الكلام الإلهي كما اضطربوا في مسألة رؤيته تعالى واستوائه على عرشه وغيرها من صفاته وشئونه فذهب الذين بنوا قواعد عقائدهم على اقتضاء التنزيه للتأويل إلى أن الكلام من صفات الأفعال كالخلق والرزق (بالمعنى المصدري) ولهذا قالوا إن القرآن مخلوق ، والحق الذي كان عليه السلف الصالح أن كلام الله تعالى صفة من صفاته الذاتية كالعلم وهو مثله لا يقتضي التشبيه إذ من المعلوم بدليل النقل والعقل أن الخالق لا يشبه المخلوق كما تقدم شرحه في مسألة الرؤية فلا نعيده والعهد به قريب ، وإنما نكتب شيئاً تقرب به المسألة من الإلهام ، بعد تفنيد تعاليد علم الكلام ، فإن أكثر متكلمي الأشعرية قد عقدها تعقيداً شديداً بما حاولوا به التوفيق بين نصوص أئمة السنة ونظريات العقل بقولهم : إن الكلام نفسى ولغزى ، فالأول صفة قديمة بذاته تعالى ، والثاني عبارة عن ذلك المعنى القائم بالذات تؤدي باللفظ الذي يحصل بالصوت والحروف التي تكتب بالقلم ، وكل من الحروف والأصوات والألفاظ التي تكيفها الأصوات حادثة مخلوقة . قالوا : وإنما منع السلف من التصريح بذلك وأنكروا على من قال إن القرآن مخلوق ، لأن القرآن يسمى كلام الله بمعنى دلالة على صفة الله القديمة فلهذا الاشتراك يخشى أن يفضى القول بخلق كلمات القرآن المملوطة والمكتوبة إلى القول بأن كلام الله تعالى الذي هو صفته القديمة مخلوق .

وهذه فلسفة مردودة مخالفة لمذهب السلف كأمثالها من تأويل سائر الصفات ، وهي غير معقولة المعنى أيضاً ، فإن القرآن لا مدلول له إلا معاني مفرداته . وجملة هذه المعاني منها القديم وهي معاني أسماء الله تعالى وصفاته ، وسائرها حادثة

وقد ورد فيه ذكر « كلام الله » في مواضع لا مدلول لها إلا ما يسمونه هم الكلام اللفظي - كقوله تعالى (وأن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالمراد بكلام الله القرآن قطعاً ، إذ لا يمكن أن يقال إنهم يسمون صفة الله تعالى القائمة بذاته ، وقوله في اليهود (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه) يعني التوراة وقوله في المخلفين من الأعراب (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يعني وعده في القرآن فيما سبق في السورة ، إذ لا يمكن أن يقال إن هؤلاء يبدلون وأولئك يحرفون صفة الله تعالى

وقد اغتر بهذه الفلسفة الكلامية الجماهير الكثيرون لصدورها عن بعض كبار النظائر ، الذين ملأت شهوتهم الإقطار ، فاعجب الباحثون منهم بها ، وقلدهم إلا كثيرون فيها ، ورجع عنها أساطين المذهب بمد تمحيصها ومقابلتها بأقوال السلف المؤيدة بالنصوص . فأكثر المتكلمين المستقلين الخالصين رجعوا إلى مذهب السلف في أواخر أعمالهم . ولكن بقي عامة الأشعرية متبعين لما قرروه لهم من قبل ذلك في كتبهم ، كدأب الجماعات في كل ما يتخذونه مذهبا لهم ، على أن الرجوع كان في الأغلب بالتدرج والمزج بين التفويض والتأويل ، فلم يشعر به إلا الأفراد من أهل الدليل . وقد أعجبنى من كلام هؤلاء النظائر المنيبين قول الإمام أبي محمد عبد الله الجويني والد إمام الحرمين في رسالة له في نصيحة المسلمين عند رجوعه إلى مذهب السلف في هذه المسألة وإخواتها التي يتأولها أصحابه الأشاعرة لتصريحه ورده على شيوخه قال : (١)

« انني كنت برهة من الدهر متحيراً في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ومسألة الفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ، وكنت متحيراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها أو إمرارها والوقوف فيها ، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل فأجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ناطقة بمنتهى بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في إثبات الملو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت . نعم

(١) طبعت هذه الرسالة في مجموعة الرسائل (التي بهذه الأيام فرأينا اعتبارها حالية مؤيدة لما أجمعناه في بحث الرؤية فأحببنا نقلها لحسن بيانها واحترام الجمهور لصاحبها

أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويؤول النزول بنزول الأمر، ويؤول اليمين بالقدرتين أو النعمتين، ويؤول القدم بقدم صدق عند ربهم، وأمثال ذلك. ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلا حرف ولا صوت، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم «ومن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم في صدرى منزلة مثل طائفة

من فقهاء الأشعرية الشافعيين لأنى على مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الاجلة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال وهم شيوخي، ولى فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم، ثم اننى مع ذلك أجد فى قلبى من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبى إليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناً بها، فكنت كلنحير المضطرب فى تحيره. المتامل من قلبه فى قلبه وتغيره

«وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه، ومع ذلك فإذا طالعت النصوص الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أجد أنها نصوفاً تشير إلى حقائق هذه المعاني وأجد الرسول ﷺ قد صرح بها خبراً عن ربه واصفاله بها، وأعلم بالاضطرار أنه ﷺ كان يحضر فى مجلسه الشريف العالم والجاهل والذكي والبليد والاعراى الجاني ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص التى كان يصف ربه بها لانصاف ولا ظاهراً مما يصرفها عن حقائقها ويؤولها كما تأولها هؤلاء مشايخى الفقهاء المتكلمين، مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء، ونزول الأمر للنزول وغير ذلك، ولم أجد عنه ﷺ أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه فى صفته لربه من العوقية واليمين وغيرها، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معانى أخرى باطنة غير ما يظهر من مدلولها بعد هذا شرع الإمام الجويني فى إيراد النصوص من الكتاب العزيز والأحاديث النبوية فى مسألة علو الرب تعالى وهى معروفة لبعض حفاظ السنة فيها مصنفات خاصة كابن قدامة والذهبي، وكتابهما مطبوعان عندنا. ثم قال فى المسألة من وجهة النظر العلمية «ومن عرف هيئة العالم ومركزه من علم الهيئة وأنه ليس له إلا جهتا العلو والسفل ثم اعتقد بينونة خالقه عن العالم فى لوازم بينونة

أن يكون فوقه لأن جميع جهات العالم فوق وليس السفلى إلا المركز وهو الوسط ،
ثم إنه وضع هذه المسألة في آخر الرسالة وقال قبل ذلك وبعد بيان مسألة
صفة العلو :

﴿ فصل ﴾ إذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعمارة التعميل ،
وحاقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علو ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما
يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك والصدور تشرح له ، فإن التحريف
تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك
جهل وعي مع كون الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقونا
عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياها ، فما وصف لنا نفسه بها
إلا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك ^(١) وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة
وجهالة . فمن وقته الله تعالى للاثبات بلا تحريف ولا تكليف ولا وقوف فقد وقع
على الأمر المطلوب منه إن شاء الله تعالى .

﴿ فصل ﴾ والذي شرح الله صدرى في حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا الاستواء
بالاستيلاء والنزول بنزول الأمر واليدين بالنعمتين والقدرتين هو علمى بأنهم ما فهموا
في صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالخلقين ، فما فهموا عن الله استواء يليق به ولا
نزولا يليق به ولا يدين تليق بعظمته بلا تكليف ولا تشبيه فلذلك حرقوا الكلام
عن مواضعه وعطلوا ما وصف الله تعالى نفسه به ، ونذكر بيان ذلك إن شاء الله تعالى .
« لا ريب أننا نحن وإياهم متفقون على إثبات صفات الحياة والسمع والبصر
والعلم والقعدة والارادة والكلام لله ونحن قطعاً لا نعقل من الحياة إلا هذا
العرض الذي يقوم بأجسامنا وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعرافاً
تقوم بجوارحنا فكما أنهم يقولون حياته ليست بمرض وعلمه كذلك وبصره

(١) في كلام الجويني هذا أوضح تفهيد لمنع بعض المتكلمين من تلقين العامة
الآيات والأحاديث الواردة في صفاته تعالى كما اقترحوه على شيخ الإسلام ابن تيمية
بما كان لهم من المكانة عند الحكومة المصرية في زمنه بعد الجويني الذي يمدونه هو
وولده أمام الحرمين من شيوخهم وأئمتهم .

كذلك هي صفات كما تليق به لا كما تليق بنا فكذلك نقول نحن: حياته معلومة وليس
مكيفة وعلمه معلوم وليس مكيفاً وكذلك سمعه وبصره معلومان وليس جميع ذلك
اعراضاً بل هو كما يليق به .

« ومثل ذلك بعينه فوقيته واستواؤه ونزوله ، ففوقيته معلومة أعني ثابتة كثبوت
حقيقة السمع وحقيقة البصر ، فانهما معلومان ولا يكيفان ، كذلك فوقيته معلومة ثابتة
غير مكيفة كما يليق به . واستواؤه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال
يليق بالخلق ، بل كما يليق بمقامه وجلاله - صفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت ،
غير معقولة من حيث التكيف والتحديد ، فيكون المؤمن بها مبصراً من وجه أعني
من وجه ، مبصراً من حيث الإثبات والوجود ، أعني من حيث التكيف والتحديد ،
وبهذا يحصل الجمع بين الإثبات لما وصف الله تعالى نفسه به وبين نفي التحريف
والتشبيه والوقوف ، وذلك هو سراد الرب تعالى منا في إبراز صفاته لنا لتعرفه بها
ونؤمن بحقائقها ، وننفي عنها التشبيه ، ولا نعظمها بالتحريف والتأويل ، ولا فرق بين
الاستواء والسمع ، ولا بين النزول والبصر ، السكل ورد في النص .

« فان قالوا لنا في الاستواء شبهتهم ، نقول لهم في السمع شبهتهم ، ووصفتم ربكم
بالعرض ، فان قالوا لا عرض بل كما يليق به ، قلنا في الاستواء والفوقية لا حصر بل
كما يليق به . فجميع ما يلزموننا به في الاستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك
والتعجب من التشبيه تلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم ، فكما لا يجعلونها
هم اعراضاً كذلك نحن لا نجعلها جوارح ، ولا ما يوصف به المخلوق ، وليس من
الانصاف أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجوا
إلى التأويل والتحريف .

« فان فهموا في هذه الصفات ذلك فيلزمهم أن يفهموا في الصفات السمع^(١) صفات
المخلوقين من الأعراض فما يلزموننا به في تلك الصفات من التشبيه والجسمية فلزمهم
به في هذه الصفات من العرضية ، وما يترهون ربهم به في الصفات السبع يتفوق عنه

(١) يعني الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وهي التي
يسمونها صفات المعاني ويعملون مدار معرفة الله عليها .

عوارض الجسم فيها، فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات التي ينسبوننا فيها إلى التشبيه سواء بسواء، ومن أنصف عرف ماقلنا واعتقده وقيل نصيحتنا ودان الله بآثبات جميع صفاته هذه وتلك، ونفى عن جميعها التشبيه والتعطيل والتأويل والوقوف، وهذا مراد الله تعالى لنا في ذلك لأن هذه الصفات وتلك جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة، فاذا أثبتنا تلك بلا تأويل وحرفنا هذه وأولناها كنا كن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وفي هذا بلاغ وكفاية أن شاء الله تعالى.

﴿فصل﴾ وإذا ظهر هذا وبأن انحلت الثلاث المسائل بأسرها وهي مسألة الصفات من النزول واليد والوجه وأمثالها ومسألة العلو والاستواء ومسألة الحرف والصوت. أما مسألة العلو فقد قيل فيها مافتح الله تعالى وأما مسألة الصفات فتساق مساق مسألة العلو ولا نفهم منها ما نفهم من صفات الخلق بل يوصف الرب تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته: فينزل كما يليق بجلاله وعظمته، ويدها كما يليق بجلاله وعظمته، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته. فكيف ننكر الوجه الكريم ونحرف، وقد قال ﷺ في دعائه «أسألك لذة النظر إلى وجهك» وإذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث وبغيره من الآيات والنصوص فكذلك صفة اليدين والضحك والتمعجب، ولا يفهم من جميع ذلك إلا ما يليق بالله عز وجل وبعظمته لا ما يليق بالخلوقات من الأعضاء والجوارح تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

(ثم قال) وأما مسألة الحرف والصوت فتساق هذا المساق فإن الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى (الم) وقال (المص) وقال (ق) والقرآن المجيد) وكذلك جاء في الحديث فينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب «وفي الحديث «لا أقول الم حرف، ولكن الف حرف، لام حرف ميم حرف» فهو لا ما فهموا من كلام الله تعالى إلا ما فهموه من كلام الخلق فقالوا إن قلنا بالحروف فإن ذلك يؤدي إلى القول بالجوارح واللاهوت^(١) وكذلك إذا

(١) اللاهوت جمع لاهة، وهي اللحمة المشرفة على الخلق في أقصى الفم، وجميع أيضا على لحي ولهاة.

قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الخلق والحنجرة ، علواً في هذا من التخطيط كما عملوا فيها
تقدم من الصفات

« والتحقق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحرف كما يليق بجلاله وعظمته فإنه
قادر والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات ، وكذلك له صوت كما يليق به
يسمع ولا يفتر ذلك الصوت المقدس إلى الخلق والحنجرة : كلام الله تعالى كما
يليق به وصوته كما يليق به ، ولا تنفى الحرف والصوت عن كلامه سبحانه
لافتقارهما منا إلى الجوارح واللاهوات ، فانهما من جناب الحق تعالى لا يفترقان
إلى ذلك . وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف
بقوله : هذا عبارة عن ذلك

« فان قيل هذا الذي يقرؤه القارئ هو عين قراءة الله تعالى وعين تكلمه
هو ؟ قلنا لا بل القارئ يؤدي كلام الله تعالى والكلام إنما ينسب إلى من قاله
مبتدئاً لا إلى من قاله مؤدياً مبلغاً ، ولفظ القارئ في غير القرآن مخلوق وفي القرآن
لا يتميز اللفظ المؤدى عن الكلام المؤدى عنه ، ولهذا منع السلف عن قول « لفظي
بالقرآن مخلوق » لأنه لا يتميز كما منعوا عن قول « لفظي بالقرآن غير مخلوق » فان لفظ
العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه كيلا يؤدي الكلام في ذلك إلى
القول بخلق القرآن وما أمر السلف بالسكوت عنه يجب السكوت عنه والله الموفق اهـ
(يقول مؤلف هذا التفسير) ان لدينا في تقريب صفة الكلام من الافهام
قولاً آخر ، وهو ان جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله تعالى وشؤون
فالتعبير عنه مستعار مما وضعه الناس في اللغة لأنفسهم فنفهم بهذه المراد من تلك
يقدر الطاقة البشرية ونعرف بدليل العقل والنقل الفرق بينهما وأن النسبة
بينهما المبينة في الحقيقة . وقد عبر أبو حامد الغزالي عن ذلك تعبيراً بليغاً في
قوله من كتاب الشكر من الإحياء :

« إن لله عز وجل في جلاله وكبرائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع ،
وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة
تبدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها ، فلم تكن لها في العالم عبارة لعل شأنها
والخطا رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها ،

فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لانهموض في نور الشمس ولكن لضاف في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالاتها إلى أن يستمروا من عالم المناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق ققلنا : لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع « ثم ذكر المشيئة والمحبة والكره والرضا والغضب ، فلم يفرق بين ما يسمونه صفات المعاني وما يسمونه صفات الأفعال التي يتأولها أصحابه الأشعرية بحكمها منهم .

ونحن نعلم من أنفسنا أن لنا كلاما هو صفة من صفاتنا وشأن من شؤوننا تتعلق بما يتعلق به علمنا ولكن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للنفس وتعلق الكلام عبارة عن كشفها وتصويرها بما يدل عليها في النفس أو لمن تريد كشفها له ، تقول : حدثني نفسي بكذا ، وقلت في نفسي كذا ، وفي حديث عمر يوم السقيفة « وكنت زورت في نفسي مقالة » يعنى هيأت في نفسي كلاما لأقوله . وقال الشاعر :

عندى حديث أريد اليوم أذكره وأنت تعلم دون الناس فخواه
وأما أداء الكلام لمن تريد اعلامه ببعض ما نعلم فله طرق أعما تعبیر
اللسان وبليته تعبیر القلم ، والأول غريزة في النطق خاصة بالبشر بمقتضاها تواضعوا
على الألفاظ الدالة على معاني المعلومات ، فاستعنت بقدر اتساع دائرة علومهم ، والثاني
صناعة هدام الله تعالى إليها بشعورهم بالحاجة إلى إيصال معلوماتهم إلى البعيد
عنهم الذي لا يسمع كلامهم اللساني وإلى حفظها لمن يحجب بهدمهم . وقد استحدثوا
في هذا العصر آلة لخطاب البعيد باللسان سموها (التليفون) وسميناها (المسرة)
يكسر الميم وتشديد الراء ^(١) توصل الكلام من دار إلى دار ومن بلد أو قطر
إلى آخر بأسلاك كهربائية تصل بين آلات المتخاطبين وقد استغنوا أخيرا عن
هذه الاسلاك في بعض المواضع . واستحدثوا آلة لحفظ الأصوات الكلامية
وغيرها واعادتها عند الحاجة ولو بعد موت صاحبها سموها (الفونوغراف) وكانوا
استحدثوا قبل ذلك آلة لنقل الكلام من مكان إلى مكان في البلد الواحد وفي البلاد
(١) أخذناها من قول القاموس : المسرة بكسر الميم الآلة يسار بها كالطومار

والأقطار المختلفة بأسلاك كثر بائية موصلة بين الآلات المؤدية للكلام والقابلة له بما هو من قبيل الخط لا الصوت ، وهى الآلة المعروفة بالتعريف .

فكل من هذا وذاك أداء للكلام الذى يقوم فى نفس صاحبه ويريد ايصاله إلى غيره وكل منها يسمى كلامه حقيقة كما يعلم من استعمال العرب الخالص والمختصر من والمولدين الذين تلقوا عنهما ومن بعدهم ، ولالأخط الشاعر المشهور فى دولة بنى أمية بيت من الشعر تداوله المتكلمون واستشهدوا به على الكلام النفسى والكلام اللفظى ، يفهم منه أن الأول عنده هو حقيقة مدلول الكلمة وأن الثانى مجاز مرسل وهو :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وليس هذا بحجة لغوية على ما ذكر ، وقصارى الاحتجاج بشعر الشاعر أن استعماله الذى يستعمله صحيح فى اللغة فى مفرداته وتركيبه ، وذلك لا يقتضى أن يكون رأيه فيه صحيحا ، ولا أن يكون كل ما يقوله حقا فى الواقع ولا فى اعتقاده ولا سيما إذا كان شعرا ، فاستعمال العرب لمادة الكلام تدل على أن اللفظ المركب الدال بالوضع على المعانى كلام حقيقة ، وقد قال الزمخشري فى حقيقة الأساس من هذه المادة : سمعته يتكلم بكذا ، وكلمته وكلمته ، وكأنا متصارمين فصاوا يتكلمان ، وموسى كلم الله . ونطق بكلمة فصيحة وبكلمات فصاح وبكلم اه

فلكلام الإنسان صفة أو ملكة فى نفسه يتاجبها بها ويصور فيها ما ينظمه أو يقدره ويؤثره ليخاطب به غيره ، وصفة أو ملكة فى لسانه ، وصفة أو صورة فيما يرسمه بقلمه على الورق ، وصورة أخرى فيما يحرك به آلة التعريف السلكى أو غير السلكى مخاطبا لبعض الناس فى بعض البلاد ، وصورة أخرى فى الهواء تحدث عند النطق به زمانا قصيرا ، وقيل انه أطول مما يظن ، وصورة أخرى فيما ينقشه المكرون فى لوح آلة الفونوغراف تكون محفوظة فيه إلى أن تعيده الآلة كما ألقى فيها صوتا مؤلفا من الألفاظ الدالة على المعاني .

وكلام كل أحد ما ينشئه فى نفسه ويؤديه إلى غيره بطريقة من الطرق التى ذكرناها ، وينقل عن قليل من البشر أنهم قد يؤدون بعض كلامهم الذى فى أنفسهم إلى بعض المستعدين بقوة توجيه الإرادة وأنهم قد يظلمون على بعض

ما يجوز في أنفس غيرهم من الكلام ، فمن لم يصدق هذا عنهم فليعد الاعتبار به من ضرب المثل ، ومهما تكن الوسيلة التي وصل بها علم المنشيء للكلام إلى غيره فإن غيره يصير مثله في تصوره في نفسه وفي تصويره لغيره بالوسائل المشار إليها آنفاً ، مثال ذلك قول لبيد (رض)

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

تألف نظم هذا البيت في نفس لبيد بمقتضى الصنعة والغريزة التي بها يصور الإنسان ما في علمه لنفسه ولغيره ، وسمعه الناس من لسانه فنقلوه عنه بالسند ثم بأقلامهم ، ولا يزال بعضهم يرويه عن بعض ، ويعتبر في هذا العصر أن يتناقلوه بالتلفون والتلغراف ، ولكنه في أي صورة ظهر وبأيّة وسيلة نقل هو من كلام لبيد قاله منذ أربعة عشر قرناً ، وليس كلام أحد ممن ينشده اليوم بلسانه أو يرقه بقلبه أو يؤديه إلى غيره بالتلغراف أو غيره

إذا تذكرت هذا كله في كلام الإنسان المخلوق على ضعفه ونقصه. وأن الكلام من صفات الكمال التي أتمها الله تعالى لنفسه - وتذكرت مع هذا كمال الخالق وقترهه عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله - وأنه كافك الإيمان بوجوده وباتصافه بجميع ما وصف به نفسه من خير تعظيم ولا تشبيه - فأى عثرة يعثر بها عقلك إذا آمنت بأن الله تعالى كلاماً هو صفة من صفاته الثابتة له أزلاً وأبداً لأنها مرآة علمه الأزلي الأبدى ، وأنه بلغ بعض رسله من الملائكة ما شاء من كلامه ليوحوه إلى رسله من البشر ليلغوه لأممهم كما خاطب موسى بما شاء منه ، وأن هذا الكلام واحد على اختلاف تبليغه وحفظه ، قيامه بذات الله تعالى غير تمثله في نفس جبريل ، وفي نفس موسى ، حين سمعه من وراء حجاب ، وأداء جبريل إياه ونزوله به على قلب محمد ﷺ وعلى من قبله من الرسل (ع.م) غير أداء الله تعالى إياه إلى جبريل ، وقيامه في نفس الملك غير قيامه في البشر ، كما أن قيامه في الهواء عند التلفظ به غير قيامه في لوح التلغراف ، وكلاهما غير قيامه في الصحف وكونه على اختلاف صورته وطرق أدائه واحداً في كونه كلام الله القديم الأزلي كما قلنا في بيت لبيد من كون انشادنا له وكتابنا إياه اليوم لا ينافي كونه كلام لبيد القديم

النسبي غير الأزلي — وكلام الله القديم الأزلي حقيقة أولى (والله المثل الأعلى) فلا حاجة تدعو العقل الى وصفه بأنه مخلوق أو حادث . لأن الخلقين المحدثين يتناقضونه بأنسنتهم وأفلامهم ، وسائر آلائهم المحدثه ، ولا إلى النقصي من القول بأنه ذو حروف مرتبة ، ولا بأن تلقيه يسمى سماعا . كقوله تعالى (حتى يسمع كلام الله)

إذا جمعت هذا البيان وسيلة لفهم ما ورد في الكتاب والسنة من إثبات الكلام لله تعالى وكون ما أوحاه الى رسله عليهم الصلاة والسلام من كلامه تعالى مع اجتناب التعطيل والتشبيه جميعا وفقا للسلف الصالح ، ومع التقريب بالمشال المناسب لحال هذا العصر في علومه وفنونه ، فلك بعد هذا أن تجعله مثلا يقرب من عقلك معنى تجلي الرب سبحانه في الصور المختلفة والحجب على تنزهه عن مشابهة تلك الصور والحجب

قد علمت أن للكلام حقيقة ، ولك — مع أمن اللبس — أن تقول صورة هي مظهر العلم في النفس ومبدأ إظهار ما شاء العالم المتكلم أن يظهره من علمه لغيره ، وأن له صوراً أخرى في أنفس من ألقى اليهم شيء منه على اختلاف أحوال أنفسهم من ملكية وبشرية ، وصوراً أخرى في الهواء وفي الخط على الكاغذ وفي النقش على ألواح الفونوغراف . وهذه الصور على ما بينها من التباين التام مظاهر لحقيقة واحدة هي ما أراد العالم المتكلم إظهاره من علمه بكلامه كبيت لبيد الشاعر — وكقوله تعالى (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد)

فمن تلقى هذه الصورة من لسان القاريء ، أو من الصورة التي كتبت بها السورة بحروف من الخط الكوفي ، أو النسخي أو الفارسي أو غيرها علم بها من كلام الله عين ما علمه جبريل وموسى وعهد وغيرهم من الرسل في التلقي عن الله تعالى بلا واسطة ، أو التلقي عن جبريل عليه السلام . وهو عين كلام الله تعالى القائم بنفسه من حيث إنه هو المظهر لما في هذه السور من علمه ومن حيث إنه لا عمل

ولا كسب لأحد من المبلغين لها في تأليف عبارتها لا جبريل ولا محمد عليهما السلام ولا الصحابة الذين بلغوها للتابعين قولاً وكتابة ، ولا يقتضى هذا تأويل الكلام الإلهي ولا تعطيله ولا حدوثه ، ولا تشبيهه بكلام خلقه . كمال أن علمه تعالى لا يشبه علم خلقه ، ولا يقتضى أيضاً أن نكون قد أدركنا كنه هذه الصفة بفهمنا لما بلغنا تعالى إياه من علمه بها ، كما أن اطلاع إيانا على ما عمله في الأزل وفيها لا يزال من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد - لا يقتضى إدراك كنهه علمه بذلك ، بل نحن لم ندرك كنه كلامنا في أنفسنا ولا في الهواء ولا في غيره مما ذكر آنفاً

وكذلك نقول : إن ما ثبت في الصحاح من تجلي الرب تعالى في الصور المختلفة وتعرفه لمن شاء ببعضها دون بعض لا يقتضى حدوثه ولا مشابهته للصور والحجاب النور ولا لغيره من خلقه ولا إدراك كنهه عز وجل : ومعرفة المؤمنين له ببعضها دون بعض المعرفة بعضهم لكلامه بتبليغ اللسان دون الكتابة أو بالكتابة دون اللسان ، وكل ذلك كمال له وإتمام النقص بتحليله فغاة الرؤية والصفات من جمل الخالق تعالى معنى سلبياً

﴿ تمة السياق في الرؤية والكلام ﴾

أخبرنا الله تعالى في الآيات السابقة بأنه منعم موسى رؤيته يعني في الدنيا وبشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه ، ثم أخبرنا فيها بما آتاه يومئذ بالإجمال فقال ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ أى أننا أعطينا ألواحاً كتبنا فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيباً وترهيباً . وتفصيلاً لكل نوع من أصول التشريع وهي أصول العقائد والآداب ، وأحكام الحلال والحرام . وتفصيلها ذكرها معدودة مفصلاً بعضها من بعض . وإستناد الكتابة إليه تعالى إما على معنى أن ذلك كان بقدرته تعالى وصنعه لا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبت بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو الملك (عليهما السلام) قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة

والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الاجمالي وكانت سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل عليه ويخاطبه الرب تعالى بهافي أوقات الحاجة إليها كالقرآن ، واختلفوا في عدد الألواح فقيل كانت عشرة وقيل سبعة وقيل اثنين ، قال الزجاج يجوز أن يقال في اللغة اللوحين ألواح . وهذا كل ما يصح أن يذكر من خلافهم فيها . . . وأما تلك الروايات الكثيرة في جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وما كتب فيها كلها من الاسرائيليات الباطلة التي منها في المسلمين أمثال كعب الأخبار ووهب بن منبه فاعتبر بها بعض الصحابة والتابعين ان صحة الروايات عنهم وقد تلخص السيوطي منها في المدر المنثور ثلاث وركات - أي ست صفحات - واسعات من القطع الكبير ، وليس منها شيء يصح أن يسمى درة وإن كان منها أن الألواح من الياقوت أو من الزمرد أو من الزبرجد كما أن منها أنها من الحجر ومن الخشب ، وقد أعجبنى من الحفاظ ابن كثير أنه لم يذكر من تلك الروايات شيئاً على سعة اطلاعه ، وقد تبع في هذا محمد بن جرير رحمه الله تعالى ، ولكن ذكر بعضها الألويسي من المتأخرين تبعاً لغيره كرواية الطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد النخعي قال : اصطحب قيس بن خرشة وكعب الأخبار حتى إذا بلغا صفيين وقف كعب ثم نظر ساعة ثم قال : ليهرقن بهذه البقرة من دماء المسلمين شيء لا يهرق ببقرة من الأرض مثله . فقال قيس : ما يدريك ؟ فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله به ، فقال كعب ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة واستدل به الألويسي على أن قوله تعالى (من كل شيء) على أوسع ما يحمله اللفظ من العموم وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب وإن كنت أخالف الجمهور في مسألة تعديله ، وتأول الألويسي له هذا القول الظاهر بطلانه بالبداية بقوله : ولعل ذلك من باب الرمز كما ندعيه في القرآن اه . وما ذكرت هذا إلا للتعجب من فتنه هذه الروايات الباطلة إلى أي حد وأي زمن وصل تأثيرها السيء حتى أن هذا النقاد قد اعترى بمثل هذا منها وتأول به عما هو باطل مثله ، فانه لم يصح عن أحد من أئمة المسلمين الذين يعتمد عليهم بكتاب الله تعالى أنه ليس في العالم أوفى الأرض شبر إلا وقد كتب فيه (أي القرآن) ما يقع فيه وما يخرج منه : وإنما قال مثل هذا بعض المجازفين

والخيليين من الصوفية على أنه من الكشف الذي يدعونه . راجع تفسير
 (ما فرطنا في الكتاب من شيء) في ص ٣٩٤ - ج ٧ تفسير
 هذا ، وأما ما ورد في التوراة الحاضرة في شأن الألواح فنه ما جاء في سفر الخروج من
 (٢٣ : ١٢) وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوجي الحجارة
 والشريعة والوصية التي كتبتها لتعلمهم الكلمات العشر) وجاء في وصف اللوحين منه
 (٣٢ : ١٥) ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده : لوحان مكتوبان
 على جانيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ١٦ واللوحان هما صنعة الله والكتابة
 هي كتابة الله منقوشة على اللوحين) وفيه أن موسى رمى باللوحين من يديه عندما رأى
 العجل الذي عبده قومه في أيام مناجاته لله تعالى ، وفي أول الفصل (٣٤ : ١) ثم قال الرب
 لموسى انحت لك لوجي حجر كالأواين فاكتب عليها الكلام الذي كان على الحجرين
 الأولين اللذين كسرتهما ٤ فنحت لوجي حجر كالأواين وبكر موسى في الغداة
 وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ في يده لوجي الحجر) ويليه أن الرب هبط
 في الغمام ووقف عنده هناك ومر قدامه ووعدته ووصاه وأمره بأوامر ونهاه عن أمور
 وبلى ذلك (٢٧) وقال الرب لموسى اكتب لك هذا الكلام لأنني بحسبه عقدت
 عهداً معك ومع بني إسرائيل ٢٨ وأقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة
 لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر)
 وههنا يحتمل أن يرجع ضمير « فكتب » إلى الرب تعالى وأن يرجع إلى موسى ،
 ولولم يرد ما تقدم عن (٣٢ : ١٦) لكان هذا متعينا بقرينة قول الرب له قبله أكتب
 لك هذا الكلام ، وله نظائر . وأما الوصايا العشر فقد نقلنا نصها في تفسير
 (٦ : ١٥٤) ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن) من صورة الانعام
 عقب وصايا القرآن التي هي أجمع وأكمل منها (ص ٢٠٢ ج ٨ تفسير)
 ومن هذا الذي نقلناه هنا يعلم ما في تلك الاسرائيليات التي أوردتها السيوطي
 في التفسير المأثور من المخالفة للتوراة ، إذ من المعلوم أن ما كان من التحريف
 اللفظي في التوراة من نقص وزيادة وغلط قد كان قبل الإسلام ، ولم يكن بعده
 إلا التحريف المعنوي - فما في تلك الروايات من تعيين جوهر الألواح وساحتها
 وكتابتها وما كتب فيها من وصف أمة محمد (ص) وغيره مما يخالف هذه التوراة

فهو باطل أراد به واضعوه أن يذكر المسلمون في تفسير القرآن وغيره من كتبهم ما يصد اليهود وغيرهم عن الإسلام ، بأن دعوته مبنية على الكذب والبهتان ، ولم يدر أولئك الذين كانوا يكتبون كل ما يسمعون شيئاً من هذا الكيد والمكر اليهودي ، ونحمد الله أنه لم يرج منه على جهابذة نقد الحديث إلا القليل .

وأما قوله تعالى ﴿ فخذها بقوة ﴾ فهو مقول قول مقدر لأنه أمر لموسى والخطاب قبله للنبي الخاتم عليهما الصلاة والسلام - والمعنى كتبنا له في الألواح ما ذكر ، وقلنا له خذها بقوة - أو وقلنا له هذه رسالتنا أو وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها فخذها بقوة ، أي حال كونك ملتبساً بمجد وعزيمة وحزم ، أو أخذاً بقوة وعزم ، وذلك أن المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة شديدة مخالفة كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون وقومه والأنس بما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومفاسدها ، فإذا لم يكن المتولى تربية هؤلاء القوم والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد وعزم ثابت فإنه يعجز عن سياستهم وتربيتهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم .

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قيل إن (أحسن) هنا بمعنى ذي الحسن التام الكامل وليس فيه معنى تفضيل شيء آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غير باب - أي وأمر قومك بالاستمسك بالاعتصام بهذه المواظ والاحكام المفصلة في الألواح التي هي كاملة الحسن - وقيل إنه على الأصل فيه من تفضيل بعض المضاف إليه على بعض ومنه الحقيقي والاعتباري والاضافي ، فأصول العقائد من الايمان بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه أفضل وأشرف من الاحكام العملية ، ولكن لا يصح أن يراد هنا ، قيل إلا إذا أريد بالأخذ الشروع والابتداء - والأوامر أفضل من النواهي ويصح أن تراد في مثل الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ، وكلاهما من الوصايا التي كتبت في الألواح وذلك أن الإخلاص لله تعالى في العبادة أمر وجودي يتحلى به العقل وتتركى به النفس ، وترك اتخاذ الصور والتماثيل أمر سلبي محض إذا لم يكن أثراً للإخلاص في العبادة وسداً للذريعة فلا قيمة له فإنه لم ينه عنه إلا لأنه من ذرائع الشرك ، وإلا فقد يتركه المرء لعدم الداعية وإن كان مشركاً - والغرض أفضل من النقل ، ولكن ليس في الوصايا العشر نوافل ويقال مثله في قولهم

والعزيمة أفضل من الرخصة ، ومثل هذا التعبير قوله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) والمجال فيه أوسع ، فإن القرآن أحسن ما أنزله الله تعالى إلى خلقه على السنة رسله بأكمله تعالى الدين به وبغير ذلك من مزاياه ، والخطاب فيه لأمة الدعوة أي للناس كافة لأنه معطوف على قوله (وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له) ثم إن فيما أنزله فيه العزيمة والرخصة وفيه من النذب ما هو أفضل من مقابله كالصدقة بالدين بدل انظار المعسر به وهو واجب ، وكالعفو في مقابلة القصاص .

وقوله تعالى ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ من حكاية خطابه لقوم موسى بالسمع له ، إذ وجه الأمر فيما قبله إليه وإليهم ، فهو داخل في مقول القول الذي خاطب به نبينا ﷺ من قصتهم ، والجملة استئناف لبيان عاقبة الذين فسقوا عن أمر الله وجحدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها ، كأنه يقول : إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة واتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم ، فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجى الله منهم ونصرهم عليهم ، وسير بكم ما حل بهم بعدكم من الفرق . أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التي وعدكم إياها وسينصركم عليهم بطاعتكم له وأخذكم بشاقه بقوة قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها : أي سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتهاب . وقال ابن جرير : وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً ما يصير إليه حال من خالفني - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري - وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أي من أهل الشام وأعطىكم إياها ، وقيل منازل قوم فرعون . والاول أولى والله أعلم ، لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم اهـ ومن مباحث رسم المصحف الإمام أن كلمة (سأريكم) زيد فيها واو قبل الراء لثلاث تشبيه بسأراكم ، إذ كانوا يرسمونها بالياء غير منقوطة فالمراد بها ضبط الكلمة كالضمة والله أعلم . والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ لهذه الآية من وجوه (أحدها) أن الكتاب الإلهي يجب أخذه بقوة وإرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً ، ويتأكد ذلك في الرسول (تفسير القرآن الحكيم) (١٣) (الجزء التاسع)

المبلغ له والداعى إليه والمنفذ له بقوله وعمله ، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة . وتلك سنة الله تعالى فى سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أحوج إلى القوة والعزيمة لانه اصلاح للظاهر والباطن جميعاً ، وقد أمر الله تعالى بنى اسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب ، أو ميثاق الكتاب ، بقوة أمراً مقروناً بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ، كما تقدم فى سورة البقرة (٢ : ١٣ و ٩٣) وسيأتى مثله فى هذه السورة (الاعراف) وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم التى كان لها من القوى العديدة والحربية والتنظيمية والمالية والصناعية مالىس لهم ، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى - لا بالتغنى بقرآته فى المحافل ، ولا بالتبرك الخض بالمصحف ، كما يفعل مقلدة الخلف الطالح ، إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسمع به فى الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالاعراض عنه وهر هدايته فى الدنيا والآخرة (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينتفضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) .

(ثانياً) أن سبب تخويف بنى اسرائيل عند تبليغهم الميثاق الإلهى بوقوع الجبل بهم وأمرهم فى تلك الحال أن يأخذوه بقوة هى أن أحكام التوراة التى أخذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجية ، وحكمة ما فيها من الشدة والخرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة وكان القوم أو الأقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين أولى قوة وأولى بأس شديد ، وكان من سنة الله تعالى فى البشر أن تترى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر ، والجهاد بالمال والنفس ، ولهذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببنى اسرائيل فى طريق التيه وهو الجنوى من برية سيناء دون الطريق الشمالى القريب من مدن فلسطين إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جبارى الكنعانيين وقتئذ ، فكتب الله تعالى عليهم التيه أربعين سنة ملك فى أنفاسها الذين استذلهم المصريون ولشأ من صغارهم ومواليدهم جبل جديد تربى فى حجر الشرع الجديد ، والتيه الشديد ، كما بيناه فى تفسير سورة

المائدة (ص ٣٣٢ - ٣٣٨ ج ٦ تفسير)

(فائها) أن الاسرائيليين قد عظم ملكهم باقامة شريعتهم بقوة حتى إذا غلب الغرور على العمل وظنوا أن الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو « شعب الله » فسقوا وظلموا ، فأُنزل الله بهم البلاء ، ووساط عليهم البابليين الأنواء : فنلوا عرشهم وتبروا ملكهم ، ثم تابوا إلى رشدهم ، فرحمهم الله واعاد لهم بعض ملكهم وعزمهم ، ثم ظلموا وأفسدوا فسلط عليهم النصارى فمزقوهم كل ممزق ، فظلوا عدة قرون متكئين على المسيح الموعود ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات ، ثم تربتهم الشدائد ونورهم العلم العصري فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما في الامكان من الأسباب وفي مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء مع المحافظة على التقاليد الدينية في ذلك حتى انتهى بهم السعي إلى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه في بيان العبرة في قوله تعالى (١٣٦) وأورثنا القوم الذين كانوا يسضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) من هذه السورة (ص ٩٧ ج ٩)

(رابعها) ان المسلمين الذين اتبعوا سنتهم وسنن النصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع في الضر دون النفع كما فصلناه في غير هذا الموضع قداما غتروا بدينهم كما غتروا واتكلوا على لقب « الاسلام » ولقب « أمة خاتم الرسل » ﷺ ، ولكنهم لما شؤوا إلى رشدهم ، لأن الذين سلبوا ملكهم وعزمهم لم يسوسوهم بشدة مربية كافية ، بل اجتهدوا في إفساد عقائدهم وأخلاقهم ، وإيقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم ، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم ، بتوليهم التزمية والتعليم لكثيرين منهم ، كانوا عوناً لهم على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج كالألمانين والمصريين كما فصلناه في مواضع أخرى ^(١) ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المحزونون يجدون في قتل هذه الأمة وهم يظنون أنهم يجددون ، ويفسدون عليها أمرها ويحسبون أنهم يصلحون (ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون)

(١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

(١) أقر بها مقالة « ماضى الأزهر وحاضره ومستقبله » في ج ٩ من المنار م ٢٥

بَغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟

انتهى بالآية التي قبل هاتين الآيتين فصل من فصول قصة مرسى عليه السلام
وهاتان الآيتان استئناف مرتب على جملة ماتقدمه منها بين الله فيه لخاتم رسله في
الأولى منهما سنته في ضلال البشر بعد مجيء البينات في كل زمان، ويدخل فيه
قوم فرعون من الغابرين دخولاً أولياً، وينطبق على رؤساء كفار قریش المعاندين
له ﷺ من الحاضرين وبين في الثانية جزاءهم على تكذيبهم وكفرهم، قال :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ هذا بيان
لسنته تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من الرسل وورثتهم وسببه الأول
التكبر فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى
لأجل اتباعه، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه الغافلين عنها وتلك
حال الملوكة والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملته. وإنما ذكرت هذه السنة العامة
من أخلاق البشر بصيغة المستقبل لإعلام النبي ﷺ بأن الطاغين المستكبرين من
مشيخة قومه لن ينظروا في آيات القرآن الدالة على صدقه ﷺ في دعوى الرسالة
من وجوه كثيرة بينها مراراً، والدالة على وحدانية الله تعالى بما أقامته عليها
من البراهين الكثيرة ولا في غيرها مما أيده ويؤيده به من آياته الكونية لتكبرهم في
الأرض بالباطل، فوجه نظرهم تنحصر في تفضيل أنفسهم عليه ﷺ بأنهم سادة
قریش وكبرائها وأغنيائها وأقويائها فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سداً وقوة
ونزوة وعصبية، والمعنى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق من
قومك أيها الرسول ومن غيرهم في كل زمان ومكان كما صرفت فرعون وملائه عن آياتي

التي آتيتها رسولى موسى - والتكبر صيغة تكلف أو تكثر من التكبر الذى هو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس ، فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أو يسارى نفسه بشخص ، والأصل الغالب فى التكبر أن يكون بغير الحق ، وقد يتصور أن يتكلف الانسان اعلاء نفسه على غيره أو اكشاده من الاستعلاء عليه بحق كالترفع عن المبطلين ، واهانة الجبارين ، واحتقار المحاربين . فقولته تعالى (بغير الحق) يكون على هذا صالة للتكبر وهو قيد له ، وإلا كان بيانا للواقع . أو المعنى أنهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق أى منفسين فى الباطل فأمثال هؤلاء لا قيمة للحق فى نفسه عندهم ، فهم لا يطلبونه ولا يسمعون عنه وقد تظهر لهم آياته ويحججونها وهم بها موقنون ، كما قال تعالى فى آل فرعون (٢٧ : ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال فى طه قريش (٦ : ٣٣) فأنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ هذا إما عطف على الجملة (سأصرف ..) أى سأصرفهم عن آياتى المتزلة والكونية فينصرفون . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها — وإما عطف على (يتكبرون) فيكون هو وما بعده بيانا لصفات المتكبرين وأحوالهم ، وأولها أنهم إن يروا كل آية من الآيات التى تدل على الحق وتثبت وجوده لا يؤمنوا بها فإن كثرة الآيات بتمدد أنواعها وأفرادها إنما تفيد من كان طالبا للحق ولكنه جاهل أو شاك أو سىء الفهم ، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره ، وفى هذا إعلام للنبي ﷺ بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه إنما يقصدون التعجيز ، لا استبانة الحق بالدليل ، فهم ان أجيبوا إلى طلبهم لا يؤمنون ، ولهذا نفاظر تقدم بعضها فى سورة الأنعام مفصلا تفصيلا .

﴿ وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ﴾ الرشدا الصلاح والاستقامة وضده الغى وهو الفساد ، وفيه ثلاث لغات : ضم أوله وسكون ثانيه وبه قرأ الجمهور هنا — وفتحهما وبها قرأ حمزة والكسائى — والرشاد وقد وردت فى سورة المؤمن حكاية عن فرعون (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) ومثلها السقم والسقم والسقم — والمعنى أن من صفة هؤلاء الذين مرنوا على الضلال

واستمروا مرعى الغى والفساد ، أن ينفروا من الهدى والرشاد ، فإن رأى أحدهم سبيله واضحة جليلة لا يختار لنفسه جعلها سبيلا له بإشارتها وتفضيلها على ما هو عليه ، وما كل أحد يصل إلى هذه الدرجة من الغى لأن من الناس من يسلك سبيل الغى على جهل فاذا علم بما تنتهى به إليه من الفساد ، ورأى لنفسه مخرجا منها ، تركها واختار سبيل الرشاد عليها .

﴿وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا﴾ وهذه الحالة شر مما قبلها . فإن هذه إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال أخرى وهى حال من ليس فيه من نور البصيرة وزكاء النفس ما يحمله على سلوك سبيل الرشاد إذا رآه لضعف همته ، ولكنه يكره الغى والفساد إذا لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة إلى تفضيله على الرشاد وإشار سبيله واختيارها لنفسه إذا رآها بحيث لا يصرفه عن الفساد إلا جهل سبيله أو العجز عن سلوكها .

فمن اجتمعت له هذه الأحوال أو الصفات فهو الذى أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم تبق له سبيل من أسباب الحق والرشاد يسلكها ، وقد علم ذلك سبحانه بقوله :

﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ يعنى أن الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على شيء مما ذكر طبعاً ، ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراها . بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق ، والصدود عن سبيله الموصلة إلى الرشاد ، وكانوا غافلين عنها دون أهوائهم لا يعطونها حقها من النظر والتأمل والتفكير والتدبر ، لاشتغالهم عن ذلك بأهوائهم ، وعصبيتهم لأنفسهم ولآبائهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى . فالغفلة هنا هى الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والفطنة ، لا أى نوع من أنواع الغفلة ، هى المبينة فى قوله تعالى من أواخر هذه السورة (ولقد ذرأنا لهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الضالون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله تعالى وما تهدى إليه من معرفته والاستعداد للحياة الأخرى الباقية هم الذين يقول الله تعالى فى وصفهم (أولئك فى ضلال بعيد) ويقول (قد ضلوا ضلالا بعيدا) إذ كان لهم من الانهماك فيما هم فيه والفرور به واحتقار ما سواه ما يصد عن توجيه عقولهم إلى غيره

ومنه منفرجة المسلمين الجغرافيين في هذا العصر يحقرون هداية الدين الروحية وما لها من التأثير العظيم في تهذيب النفس وحملها على الخير وصددها عن الشرور من الفواحش والمنكرات ، وإنما غرهم وأضلهم أنهم في عصر وصل فيه الغربيون إلى غاية بعيدة من الفنون والصناعات ، كأنهم يرون أن من عاش في هذا العصر يجب أن يكون مثلهم عبداً لشهواته ، ومقتضى ذلك أنه كان الأفضل لبنى إسرائيل أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا وقوتها وصناعاتها وفنونها ما كان عند فرعون وقومه (فاعتبروا يا أولى الأبصار)

ثم قال تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة هل يحجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ الآيات في الآية التي قبل هذه بمعنى الدلائل والبيّنات من براهين عقلية ، نظرية كانت أو علمية أو كونية ، كآياته تعالى في الأنفس والآفاق ، ومنها معجزات الأنبياء عليهم السلام ، وأظهرها وأقواها القرآن العظيم ، من حيث هو دال على صدق النبي الأمي في دعوى الرسالة من وجوه كثيرة تقدم بيانها - وأما الآيات المذكورة في هذه الآية فالظاهر المتبادر أنها الآيات المنزلة من حيث اشتغالها على الهداية والإصلاح بتزكية الأنفس من خرافات الشرك وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال . واللقاء مصدر لقي الشيء أو الشخص ولا فاء كالملاقاة إذا صادفه أو قابله أو انتهى إليه ، يقال لقي زيداً ولا فاء ولقي خيراً أو شراً (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) * ومن يلقي خيراً يحمد الناس أمره * ولقي جزاءه . قال الراغب وملاقاة الله عز وجل عبادة عن القيامة وعن المصير إليه قال (واعلموا أنكم ملاقوه) (وقال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله)

والمعنى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا فلم يؤمنوا لهم ولا اهتدوا بها ، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال — على الخير بالتواب وعلى الشر بالعقاب فاتبعوا أهواءهم — لا يحجزون هنالك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية معا أو النفسية فقط (كترك الواجبات) في أرواحهم وأنفسهم من حق وخير زكاها وأصلحها ، أو من باطل وشر دساها وأفسدها - إن الله لا يظلم الناس في الجزاء مثقال ذرة ، وإنما مضت سنته بحمل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل مرتباً عليه ترتب المسبب على السبب ، كأنه هو نفسه وقد شرحنا هذا المعنى مراراً « تراجع كلمة جزاء في فهارس التفسير »

(١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَنْهِيهِمْ سَبِيلاً ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْجُحْنَا رَبُّنَا وَيَنْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿ قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل ﴾

في أثناء مناجاة موسى عليه السلام لربه عز وجل في جبل الطور اتخذ قومه من بني إسرائيل عجلاً مصوغاً من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كان رسخ في قلوبهم من تخامة مظاهر الوثنية الفرعونية في مصر، ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ما قبلها من خبر المناجاة وألواح الشريعة لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن . قال تعالى

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ الخلى بالضم والتشديد جمع حلى بالفتح والتخفيف فهو كئدى جمعاً لكئدى . وهذا الخلى استعاره نساء بني إسرائيل من نساء المصريين قبل خروجهم من مصر فليكنه باذن الله تعالى ، والعجل ولد البقرة سواء كانت من العراب أو الجواميس فهو كالخوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس والحل لولد الشاة والجدى لولد العنز الخ . والجسد الجثة و بدن الإنسان حقيقة ، ويطلق على غيره مجازاً والآخر كالذهب والزعفران والدم الجاف ، وقال في لسان العرب : الجسم جسم الانسان ولا يقال لغيره من الاجسام المقتضية ، ولا يقال لغير الانسان جسد من خلق الارض والجسد البدن تقول منه تجسد كما تقول من الجسم تجسم ، ابن سيده : وقد يقال للملائكة والجن جسد . غيره : وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعتل فهو جسد . وكان عجل بني إسرائيل جسداً يصيح لا يأكل ولا يشرب ، وكذا طبيعة الجن ، قال عز وجل (فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار) « جسداً » بدل من عجل لأن العجل هنسا هو الجسد ، وإن شئت حملته على الحذف أى ذا جسد ، وقوله (له خوار) يجوز أن تكون الهاء راجعة إلى العجل وأن

تكون راجعة إلى الجسد ، وجمعه أجساد . وقال بعضهم في قوله (عجلا جسداً) قال أحمر من ذهب . وقال أبو إسحق في تفسير الآية : الجسد هو الذي لا يعقل ولا يتميز إنما معنى الجسد معنى البنية فقط ، وقال في قوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) قال جسد واحد يعني على جماعة ، قال ومعناه وما جعلناهم ذوى أجساد إلا لئلا يأكلوا الطعام وذلك أنهم قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام) فاسألوا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام وأنهم يعوتون . المبرد . وتعلمب : العرب إذا جاءت بين كلامين بمجحدين كان الكلام إخباراً (قالوا) ومعنى الآية إنما جعلناهم جسداً لئلا يأكلوا (قالوا) ومثله في الكلام : ما سمعت منك وما أقبل منك معناه إنما سمعت منك لا أقبل منك (قالوا) وإن كان الجسد في أول الكلام كان الكلام مجحوداً جسداً حقيقياً (قالوا) وهو كقولك : ما رأيت يخرج قال الأزهرى جعل الديث قول الله عز وجل (وما جعلناهم جسداً لئلا يأكلون الطعام) كالملائكة (قال) وهو غلط ومعناه الإخبار كما قال النحويون ، أى جعلناهم جسداً لئلا يأكلوا الطعام (قال) وهذا يدل على أن ذوى الأجساد يأكلون الطعام وأن الملائكة روحانيون لا يأكلون الطعام وليسوا جسداً فإن ذوى الأجساد يأكلون الطعام . اهـ وقولهم معناه الإخبار أى الإثبات

والخوار صوت البقر وهو بضم أوله كأمثاله من أسماء الأصوات : رغاء الابل ونفث الغنم ، ويمار المعز ، ومواء الهر ونباح الكلب الخ

وعلم من القصة في سورة طه أن السامري هو الذى أخذ منهم ما حلوه من أوزار زينة قوم فرعون فألقاها فى النار فصاغ لهم منها عجلا أى تمثالاً له صورة العجل وبدنه وصوته ، وإنما نسب ذلك هنا إليهم لأنه عمل رأى جمهورهم الذين طلبوا أن يكون لهم آلهة ، قال الخافض ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين . والله أعلم اهـ روى القول الأول عن قتادة وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحى أن خاز خورة واحدة ولم يكن . فمن قال إنه حلت فيه الحياة علوه بأن السامري رأى جبريل حين جاوز بينى إسرائيل البحر ، وفى رواية عند نزوله على موسى (عليهم السلام) راكباً فرساً ماوطىء بها أرضاً إلا حلت فيها الحياة وانضمت النبات فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف

تمثال العجل فصار حيا له خوار وفسروا بهذا ما حكاه الله تعالى عنه في سورة طه وسيأتي بيانه في تفسيرها، ولكن قال بعض هؤلاء إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه، كقول الآخرين الذين قالوا إنه لم يكن حيا، والروايات في حياته لا يصح منها شيء، ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر، وفي تفسير القصص من سورة طه روايات كثيرة من خرافات الاسرائيليات، فيها ضروب من الكذب والضلالات، وسنعود إليها في تفسير سورة طه إن شاء الله وقدر لنا الحياة.

قال تعالى في بيان ضلالتهم، وتقرعهم على جهالتهم، ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا﴾ أي ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق، وخاصة ماله من حق العبادة على الخلق، بما يكلم به من يختاره منهم لرسالاته، ويعلمه ما يجب أن يعرفوه من صفاته وسبيل عبادته، كما يكلم رب العالمين رسوله موسى عليه السلام ويهديه سبيل الشريعة التي تنزلي بها أنفسهم، وتقوم بها مصالحهم، فعلم بهذا أن من شأن الرب الإله الحق أن يكون متكلماً، وأن يكلم عباده ويهديهم سبيل الرشاد باختصاصه من شاء منهم واعداده لسماع كلامه، وتلقى وحيه وتبلغ أحكامه وفي سورة طه (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) فلما راد بالقول هداية الوحي، والمعنى أنه ليس لهم من صفات الرب الإله هداية الإرشاد التي مرجعها صفة الكلام، ولا الضر والنفع للذين هما متعلقان بصفتي القدرة والإرادة. ثم قال تعالى :

﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي اتخذوه وهم يرون أنه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم، ولا يهديهم لما فيه رشادهم، ولا يملك دفع الضر عنهم، ولا إسداء النفع اليهم، أي إنهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل «أييس» من قبل، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد، وكانوا ظالمين لأنفسهم بهذا الاتخاذ الجهلي الذي يضرهم ولا ينفعهم بشيء.

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ يقال : سقط في يده وأسقط في يده - يضم أولهما على البناء المفعول - وكذا بفتح أول الثلاثي على قلة في اللغة

وشذوذ في القراءة — أي ندم ، ويقولون فلان مسقوط في يده وساقط في يده أي نادم كما في الأساس ولكنه فسر في الكشف بشدة الندم والحسرة وجعله من باب الكناية ، وفي اللسان : وسقط في يد الرجل — زل وأخطأ وقيل ندم ، قال الزجاج يقال للرجل النادم على ما فعل الحسرة على ما فرط منه : قد سقط في يده وأسقط .. وفي التنزيل العزيز (ولما سقط في أيديهم) قال الفارسي : ضربوا بكفهم على أكفهم من الندم ، فإن صح ذلك فهو إذاً من السقوط ، وقد قرئ « سقط في أيديهم » كأنه أضمر الندم أي سقط الندم في أيديهم ، كما تقول لمن يحصل على شيء وإن كان مما لا يكون في اليد : قد حصل في يده من هذا مكروه ، فشبّه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين اه زاد الواحدى في تفسيره : وخصت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) أو لأن الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد بعضها والضرب بها على أختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه في النادم (فأصبح يقلب كفيه) (ويوم بعض الظالم على يديه) وفي تاج العروس : وفي العباب هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب والأصل فيه نزل الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ثم اتسع فيه فقبل للخطأ من الكلام سقط ، لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه فيسقط ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب وأثره يظهر في اليد كقوله تعالى (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) ولأن اليد هي الجراحة العظمى ، فرمى بسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) اه

والمعنى أنهم لما اشتد ندمهم وحسرتهم على ما فعلوه ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي وعلموا أنهم قد ضلوا بمادة العجل أو تبين لهم ضلالتهم به وتحقق بما قاله وفعله موسى حتى كأنهم رأوه رأى العين ﴿قالوا لن لم يرجعنا ربنا ويفقر لنا﴾ أي أقسموا أنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التي وسعت كل شيء ، قائلين لن لم يرجعنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جرمتنا ﴿لنسكن من الخاسرين﴾ إسماعلة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد وإسماعلة الآخرة وهي دار السكامة والرضوان وقد بحث بعض الفواصين على نكتة البلاغة في تقديم الندم في الذكر على تبين الضلالة مع أن المعروف في العادة أن يندم الإنسان على ما علم من ذنبه فقال القطب الشيرازي ما معناه موضحاً - ان الانتقال من الجزم بأن هذا الشيء أو الأمر

حق إلى استبانة الجرم بضده أو نقيضه لا يكون دفعة واحدة في الأغلب بل الأغلب أنه ينتقل من الجرم بصحته أو حقيقته إلى الشك فيها ثم إلى الظن بالضد أو النقيض ثم إلى الجرم به ، ثم إلى تبينه واليقين فيه الذي يبرهنه بالروية ، والقوم كانوا جازمين بأن ما فعلوه صواب ، والندم عليه ربما وقع لهم في حال الشك فيه فيكون تبين الضلال متأخراً عن الندم اهـ

وأقول : جاء في سياق القصة المفصل من سورة طه أنه لما أنكر عليهم هارون عليه السلام عبادة العجل وذكرهم بتوحيد الربوبية الدال على وجوب توحيد العبادة للرب وحده (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) فلما رجع موسى وأنب هارون (قال) فيما قاله له (ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفصيت أمري ؟) لك (اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فعند تصريح موسى بأنهم ضلوا ، ورؤيتهم ما كان من غضبه والقائه بالألواح حتى تكسرت وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته وجره إليه ندموا على ما فعلوا ، فان كان هذا الندم عن تقليد وطاعة لموسى لا عن علم يقيني بأن عملهم ضلال فالراجح أن يكون العلم القطعي المعبر عنه بقوله (ورأوا أنهم قد ضلوا) قد حصل بعد تحريق موسى للعجل ونسفه في البهم .

فإن كان من قواعد النحو أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب ، فمن قواعد علم المعاني أن المالا يجب الترتيب فيه بزمان ولا رتبة أن يقدم في سرده وفي نسقه الأهم ، فان لم يكن تقديم الندم هنا لسبقه في الزمن فالأظهر أنه للبالغة في استشعارهم استحقاق العقاب كأنه يقول أنهم على ندمهم وتوبتهم التي من شأنها محو الذنب وترك العقاب وعلى كونهم صاروا على علم يقيني ببطالان عبادة العجل ووجوب تخصيص الرب بالعبادة . قالوا ذلك القول الدال على أن مجموع الأمرين لا يكفي لاستحقاق المغفرة إلا برحمة الله تعالى ، ومن المعلوم أن العلم بالضلال وحده لا يقتضي العفو والمغفرة إلا إذا ترتب عليه العمل بمقتضاه وهو التوبة والرجوع إلى الله تعالى بالعمل فان الذين ضلوا على علم ولم يتوبوا أشد الناس عقاباً . فلم بذلك أن تقديم الندم أهم من تقديم العلم بالضلال ، وهذا من فضل الله الذي لم نره لأحد ، وقد علم منه وجه تقديم فكر الرحمة على ذكر المغفرة وهو أنها سببها ، فان التوبة ومعرفة الحق لا يكفيان للمغفرة بدونها ، ولا فروع فقد ورد في الصحيحين عن أبي

هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يدخل أحداً عمله الجنة . قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسدوا وقاربوا » الخ الحديث ، وفي مسلم من حديث جابر « لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيرهم من النار . ولا أنا إلا برحمة من الله » وأمثل الاجوبة في الجمع بين الحديث وبين الآيات الكثيرة الصريحة في دخول الجنة بالعمل أن ذلك بفضل الله ورحمته فان عمل أى مامل لا يستحق عليه لذاته ذلك النعيم الكامل الدائم ، بل لا يفي عمل أحد ببعض نعم الله تعالى عليه في الدنيا . وأما قولهم إن دخول الجنة بالرحمة واقتسامها بالأعمال فهو لا يدفع التعارض بين الآيات والحديث فان منها (١٦: ٣٣ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)^(١)

(١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ قَالَ رِشْمًا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنُ أُمٍّ ، إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْمَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقوله ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) فان المنفى نفى بقاء المقابلة والمعاوضة كما يقال : بعث هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بقاء السبب فالعمل لا يقابل الجزاء وان كان سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن انه قام بما يجب عليه وانه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « لن يدخل أحد الجنة بعمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » وروى « بعفوقه » ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال « ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ ذكر في أول مادة أس ف من لسان العرب أن الأسف شدة الحزن والغضب . والأكثرون لا يشترطون شدتهما قال في المصباح : أسف أسفاً من باب تعب حزن وتلهف فهو أسف مثل تعب ، وأسف مثل غضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال أسفته . وقال الراغب : الأسف الحزن والغضب معاً ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وحقيقته دوران دم القلب بشهوة الانتقام فتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً ، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب؟ فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهر غيظاً وغضباً، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره ^(١) حزناً وجزناً . وبهذا النظر قال الشاعر :

* فحزن كل أخى حزن أخو الغضب *

نم ذكر أن الأسف في الآية التي نفسرها هو الغضبان فهو إذا مترادف ، وقد فاته هنا ما نعهد من تحقيقه لمندلولات الالفاظ ، وما أظن أن مانقله عن ابن عباس يصح ، فإن ما ذكر من المقابلة بين الغضب والحزن إنما يظهر بين الغضب والحقد ، وإنما الحزن ألم النفس بفقد ما تحب من مال أو أهل أو ولد . وليس من شهوة الانتقام في شيء . ومن شواهد استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام (وقال يا أسفى على يوسف) ومن شواهد استعماله بمعنى الغضب قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ولا يوصف ربنا تعالى بالحزن ولا يسند إليه . وغضبه سبحانه ليس كغضب البشر ألمافى النفس ، ولا أثر غليان دم القلب ، تعالى ربنا عن هذه الانفعالات والآلام البشرية ، وإنما هو صفة تليق به هي سبب العقاب . والجمع بين الغضبان والأسف في صفة موسى عليه السلام يدل على أن الأسف بمعنى الحزن .

والمعنى أنه لما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هارون إذ رأى أنه ضعف في سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم ، حزناً على ما وقع

منهم من كفر الشرك ، وإغضاب الله عز وجل ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ أى بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى من بعد ما كان من شأني معكم ان لقتكم التوحيد وكففتكم عن الشرك وبينت لكم فسادهم وبطلانه وسوء عاقبة أمره حين رأيتم القوم الذين يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر - فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي ولكنكم خلفتموني بضعها إذ صنعتم لكم صنما كأصنام أولئك القوم أو كأحد أصنام المصريين فعبده بعضكم . ولم يردعكم عن ذلك سائركم - فالتوبيخ عام ، وفيه تعريض خاص بهارون عليه السلام لأنه جعله خليفته فيهم كما تقدم

﴿ أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ قال في لسان العرب : وعجله سبقه ، وعجله استعجله وفى التنزيل العزيز (أعجلتم أمر ربكم) أى استبقتم ، قال الفراء : تقول عجلت الشيء أى سبقته وأعجلته استحثثته اه وقال فى الكشف : يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ، ونقضه تم عليه ، وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدي تعديته ، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لهده وما وصاكم به ، فبذبتكم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع اليكم فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم ، وروى أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال (هذا إلهكم وإله موسى) إن موسى لن يرجع وإنه قد مات اه وقال ابن كثير وقوله (أعجلتم أمر ربكم) أى استعجلتم مجيئ اليكم وهو مقدر من الله تعالى اه وقد نقل الآلوسى كلام الكشف من غير عزو كعادة أكثر المؤلفين بمدسلف الأمة ثم قال : وذهب يعقوب إلى أن السبق معنى حقيقى : له من غير تضمين . والأمر واحد الأوامر ، وعن الحسن أنه المعنى أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الأربعين ؟ فالأمر عليه : واحد الأمور اه والمراد بالأربعين ما بينه من أنها الليالى التى واعد موسى ربه كما تقدم

ثم قال ﴿ والتقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ أى وطرح الألواح من يديه ليأخذ برأس أخيه مما كان من شدة غضبه لله تعالى وأسفه لما فعل قومه

من الشرك به ولما ظن من تقصير أخيه وأخذ بشعر رأس أخيه يحجره اليه بذوابته. إذ كان الواجب عليه في اجتهاد موسى أن يردعهم ويكفهم عن عبادة العجل إن قدر كإفعل هو يتحرق به وإلقائه في اليم وأن يقبعه إلى جبل الطور إن لم يقدر كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه (قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تقبعر ؟ أفعصيت أمرى ؟) والاجتهاد يختلف باختلاف أحوال المجتهدين ، فالقوى الشديد الغضب للحق بالحق كموسى عليه السلام . يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ، ولين العريكة كهارون عليه السلام وقد بحث بعض المنسرين في إلقاء الألواح وما روى من تكسر بعضها هل يتضمن تقصيرا في تعظيم كلام الله ؟ وكيف يمكن أن يقع مثل ذلك من الرسول المعصوم ولو في حال الغضب الشديد ؟ بل توهم بعضهم أنه يتضمن في نفسه إهانة للألواح فوجب بيان الخرج منه . والخيار عندنا في الجواب عن هذه الأوهام : أن إلقاء الألواح لا يقتضي إهانة لها ، كما أن إلقاء العصا لإقامة الحججة على السحرة لا يتضمن مثل ذلك ، فالإلقاء في نفسه لا يقتضى ذلك لغة ولا عادة ، وإنما يقع ما يقع من مثل ذلك بقصد وهو ممنوع هنا قطعاً — وإن كان الغضب مظنة له . فعلم بهذا أن ما أطلال به بعضهم لأطائل تحته ولا حاجة إليه

وماذا كان جواب هارون عليه السلام ؟ قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى ﴿ قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي سورة طه (ابن أم) بكسر الميم على حذف ياء المتكلم للتخفيف وهى تطرح فى المنادى المضاف ، وقرأها الباقر بالفتح وعللوا بزيادة التخفيف وبالتشبيه بخمسة عشر ، وقرئ فى الشواذ « ابن أمى » بإثبات الياء على الأصل . قال فى الكشف : قيل كان أخاه لأبيه وأمه ، فان صح فأنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى إلى العطف والرفقة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتمد بنسبها ، ولأنها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقهام وهو حسن إلا قوله فاعتمد بنسبها فإن النسب لا يشوق على الإيمان . واسم أمهما (يوكابد) بنت لاوى كما فى التوراة عندهم

والمعنى يا ابن آدمي لا تمجل بمؤاخذتي وتعنيفي فاني لم آل جهدا في الانكار على القوم والنصح لهم ولكنهم استضعفوني فلم يرفعوا النصحي ولم يمثلوا أمرى ، بل قاربوا أن يقتلوني ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أى فلا تفعل بى من المعاتبة والاهانة ما يشمت بى الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل بأن تلزى بهم في قرن من الغضب والمؤاخذة فلست منهم في شيء . والظاهر أنه يعنى بالأعداء والظالمين فريقا واحدا وهم الذين عبدوا العجل فأنكر عليهم فوجدوا عليه وكادوا يقتلونه ، وهذا دليل على أنه كان دون موسى في قوة الارادة وشدة العزيمة ، وهو ما اتفق عليه علماءنا وعلماء أهل الكتاب

وماذا كان من أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام ﴿ قال: رب اغفرلى ولأخى ﴾ أى اغفرلى ما اغلظت عليه به من قول وفعل ، واغفرله ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم ، لما توقعه من الايذاء حتى القتل ، ﴿ وأدخلنا في رحمتك ﴾ التى وسعت كل شيء يجعلها شاملة لنا وأجلنا مغمورين فيها . وهو أبلغ من « وارحمنا » ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وهذا ثناء ، يدل على مزيد الثقة في الرجاء ، والدعاء في جملته أقوى في استعجاب هارون من الاعتذار له ، وأدل على تخيير أمل الأعداء في شيء مما يشير حفيظة الشامة ، قال الزمخشري في تكميله : ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشامة رضاه عنه فلا تتم لهم شتماتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة اهـ

برأ القرآن المجيد هارون عليه السلام من جريمة اتخاذ العجل ومن التفسير في الانكار على متخذي وعابديه من قومه ، وهذا من أهم المواضع التى هيمن بها على كتب الأنبياء التى فى أيدي أهل الكتاب فصيح أغلاط محرفيها ، وهو يحثوا القرب في أفواه الطاعنين فيه وفيمن جاء به (برأهما الله تعالى) بزعمهم أنه أخذ عن التوراة ما فيه من أخبار موسى وغيره من أنبياء بني اسرائيل ، فانه

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان أميا لم يقرأ ولم يطلع على شئ من تلك الكتب ولم يكن في بلده من يعرف من تلك الكتب شيئا وقد كان يقرأ على أعدى المعاندين له من قومه مثل قوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون) وقوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) ولو كان يعلم أو كانوا يعلمون شيئا من تلك الكتب لكذبته في هذا أولئك الجاحدون والمعادنون وقد تقدم الاحتجاج بهذا ، والغرض هنا إقامة حجة أخرى وهي أنه لو كان ﷺ نقل عن التوراة لوافقها في كل ما نقله وهو قد خالفها في مواضع بما جعله منزله جل جلاله مهيمنا ورقيبا عليها ، ومصححا لأهم ما وقع من التحريف فيها ، ومنه تبرئة هارون وغيره من الرسل عليهم السلام من الذنوب والجرائم التي عزيت إليهم فيها فجعلتهم قدوة سيئة لجعل هارون عليه السلام هو الصانع للعجل كما هو مفصل في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج قال : « (١) ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه (٢) فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها (٣) فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي كانت في آذانهم واتوا بها إلى هارون (٤) فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتنا يا إسرائيل التي اصعدتك من أرض مصر (٥) فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال غدا عيد للرب (٦) فبكروا في الغدا واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب (٧) فقال الرب لموسى : اذهب أنزل لأنه قد فسد شعبك الذي اصعدته من أرض مصر (٨) زاغوا سريعا عن الطريق الذي أوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتنا يا إسرائيل التي اصعدتك من أرض مصر » وبعد هذا ذكر أن الرب قال لموسى إن هذا الشعب صلب الرقية وإن غضبه

اشتد عليهم ليفنيهم ، وإن موسى استرحه أن لا يفعل ولا يشمت بهم المصريين وذكره وعده سبحانه لإبراهيم واسحق ويعقوب بتكثير نسلهم ، ثم ذكر مسألة عودة موسى إلى قومه وما فعل ثم قال

« ١٩ وكان عند ما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فغى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل ٢٠ ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل ٢١ وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة ٢٢ فقال هارون لا يحم غضب سيدى على ، أنت تعرف الشعب أنه فى شر ٢٣ فقالوا لى اصنع لنا آلهة تسير أمامنا » الخ

ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه وأمر الرب إياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه - وإن بنى لاوى فعلوا ذلك فقتل منهم فى ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف رجل . وقد تقدم ذكر هذه المسألة فى سورة البقرة

(١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ
وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ
عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَعَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ﴾
فى هذه الآية وجهان أحدهما أنها كلام مستأنف لبيان ما استحققه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل ففى به على ما كان من شأن موسى مع هارون عليهما السلام فى أمرهم ، لأن من سمع ذاك أو قرأه تستشرف نفسه لمعرفة هذا - فهو إذا بما أوحاه الله تعالى يومئذ إلى موسى (ع م) والمراد بالغضب الإلهى فيه ما اشترطه تعالى فى قبول توبتهم من قتل أنفسهم وكان ذلك بعد عودة موسى إلى مناجاته فى الجبل ، والذلة ما يشعرون به من هوانهم على الناس وظنهم عند لقاء كل أحد أنه يتذكر برؤيتهم ما كان منهم فيحتقرهم ، وقال بعضهم إن هذه الذلة خاصة بالسامري وهى

ماحكم به عليه من القطيعة واجتتاب الناس بقول موسى له (اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس) أى : لا أمس أحداً ولا يعنى أحد .

وكذلك نجزي المقتريين ﴿ أى ومثل هذا الجزء في الدنيا نجزي المقتريين على الله تعالى في أزمنة الأنبياء أو في كل زمان إذا فضحوا بظهور افتراءهم كما فضح هؤلاء ، وجعله بعض مفسري السلف خاصا بافتراء البدع ، قال الحسن البصري ان ذل البدعة على اكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين ، وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية (وكذلك نجزي المقتريين) وقال هي والله لكل مقتري إلى يوم القيامة ، وقال سفيان ابن عيينة كل صاحب بدعة ذليل . نقل ذلك ابن كثير في تفسيره ، وهو مشروط بكون افتراء الابتداع في أزمنة الرسل عليهم السلام على ما قيدناه به لان الله تعالى كفّل لهم النصر ، أو في دار الإسلام والعدل التي تقام فيها السنة ، وأما البدعة في دار الكفر أو دار الظلم والبدع والفسق والظلم فهي كظلمة من الدخان أو قرعة من السحاب تحدث في حندس لئلا مطبقة السحاب ، حالكة الإهاب ، لانتكاد تظهر ، فيكون لأصحابها احتقار يذكر .

والوجه الثاني ان هذا كلام معترض في القصة خاطب الله به خاتم رسله لانه انذار المجاورين له في المدينة ماسيكون من سوء عاقبتهم في افتراءهم على الله وعداوتهم لرسوله ، وانكارهم ما في كتبهم من البشارة به ، ووصفهم باتخاذ المعجل لشبههم بهم وكونهم خلفاً لهم في افتراء كل منهما على الله في عهد ظهور حجته على لسان رسوله . كما غيرهم في آيات أخرى يقتل النبيين بغير الحق وغير ذلك من جرائم سلفهم . وروى هذا الوجه عن عطية العوفي قال المراد سينال أولاد الذين عبدوا المعجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأريد بالفضب والدلة ما أصاب بنى النضير وقرينة من القتل والجلاء أو ما أصابهم من ذلك ومن ضرب الجزية عليهم اه وتوجيهنا أظهر . قال الزمخشري ويجوز ان يتعلق « في الحياة الدنيا » بالدلة وحدها ويراد سينالهم غضب في الآخرة ودلة في الحياة الدنيا (وضربت عليهم الدلة والمسكنة) وبأوا بغضب من الله اه وأقول إن لم يكن هذا هو المراد فعذاب الآخرة مقدر في الكلام دل عليه ذكر الدنيا ، على ما علم من اطراذه بنصوص أخرى .

﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ هذه الآية في حكم من تاب وقبلت توبته فدل على أن ما سبقها هو حكم

من لم يقب أو من لم تقبل توبته والمعنى أن الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله تعالى بأن رجع الكافر عن كفره وتركه وآمن بالله ورسوله ، ورجع العاصي عن عصيانه وأخلص الإيمان وزكاه بالعمل بوجبه أن يركب أيها الرسول من بعد تلك الجرائم ، - أو من بعد ما ذكر من التوبة والإيمان الصحيح الباعث على العمل الصالح ، لغفور لهم أي لتصور عليهم ، محام لما كان منهم رحيم بهم أي منعم عليهم بالجنة ، هكذا صور المعنى في الكشف ثم قال وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو المعجل ومن عداهم ، عظم جنايتهم أولاً ثم أردفها تعظيم رحمة ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بد من حفظ الشريعة وهي وجوب التوبة والالتوبة ، وما وراءه طمع فارغ ، وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم اهـ .

وأقول إن طمع أكثر الفساق بالمغفرة قد ذهبت بحمرة الأمر والنهي من قلوبهم حتى استحلت كثير منهم المحرمات ، وكانوا شراً ممن قالوا (لن نمسنا النار إلا أياما معدودات) وما طمعتهم بشجرة إيمان ، بل أمانى حتى وجدل على أطراف اللسان . قال عليه السلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد ابن أوس بسند صحيح .

(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ

ثم قص تعالى علينا ما كان من أمر موسى بعد غضبه فقال :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسخها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ السكوت في أصل اللغة ترك الكلام فهو هنا مجاز تشبيه أو تمثيل مبني على تصوير الغضب بشخص ذي قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع قال الزمخشري : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرب رأس أخيك إليك — فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ، (قال) ولم يستحسن هذه الكلمة كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فلما لقراءة معاوية بن قرة

« ولما سكن عن موسى الغضب » (وهي من الشواذ) لا يجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة ، وطرفا من تلك الروعة ؟ هـ .

والمعنى أنه لما سكن غضب موسى باعتذار أخيه ولجأ إلى رحمة الله وفضله يدعو ربه بأن يغفر لها عاد إلى الألواح التي ألقاها فأخذها ، وفي نسختها — أي ما نسخ وكتب منها فهي من النسخ كالخطبة من الخطاب — هدى وإرشاد من الخالق سبحانه للذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه بالفعل أو بالاستعداد — أو يرهبون ما يغضب ربهم من الشرك والمعاصي .

(١٥٤) وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّيَّ أَهْلَكْنَا بَعْدَ فَعَلِ السُّفَهَاءِ مِنَّا ؟ إِنَّ هِيَ إِلَّا فَتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ . قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ الاختيار صيغة تكلف من مادة الخير كالانتقاء من النقي (بالكسر وحقيقته دهن العظام وبجازه لباب كل شيء والاصطفاء من الصفو - والانتخاب من النخب وأصله انتزع الصقر وغيره من الجوارح قلب الطائر ثم صار يقال لكل من انتزع لب الشيء وخياره : نخبه وانتخبه وتطلق النخبة (بالضم مع سكون الخاء وفتحها) على الجيد المختار من كل شيء كما أطلقوا النخب والنخب والمنخب على الجبان الذي لا فؤاد له والافين الذي لا رأى له ، كأنه انتزع فؤاده وعقله بالفعل . والكلام معطوف على ما قبله ، والمعنى : وانتخب موسى سبعين رجلا من خيار قومه للميقات الذي وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه إلى حيث يناجي ربه من جبل الطور ، فلاختيار يكون من فاعل مختاروشى . مختار منه فيتعدى للثاني بمن وكأن نكتة حذف « من » الإشارة إلى كون أولئك السبعين خيار قومه كلهم لا طائفة منهم ^(١)

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلستهم من قبل وإياي ﴾ أى فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعدوا قال موسى يارب انى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان فأهلكهم وأهلستنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى اسرائيل فيقول قد ذهبت بخيارنا لاهلاكهم - أى وأذا لم تفعل من قبل فأسألك برحمتك أن لا تفعل الآن - وهذا مفهوم التمنى فقد أراده موسى ولا يبعد أن يكون قد نطق به إذا كانت لغته لا تدل عليه كقمتنا وكان من إيجاز القرآن الاكتفاء بذكر التمنى الدال عليه . واختلف المفسرون هل كان هذا بعد أن أفاق موسى من صعدة فجلى ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية إذ كان من معه من شيوخ بنى اسرائيل ينظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة كما تقدم ؟ أو كان بعد عبادة العجل ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة وطلب الرحمة

(١) والسحويون يعدون مثل هذا الحذف لحرف الجر وإيصال الفعل بالفعل ونصبه مباشرة سماعيا لاقباسيا على كثرتة ومنه قول الفرزدق :

منا الذى اختير الرجال سباحة وجود اذا هب الرياح الزعازع
وقول الآخر

فقلت له اخترها قلو صا سمينه ونابا علابا مثل نابك فى الحيا
أى اختر من الابل ناقة قلو صا أى طويلة القوائم وهى أول ما يركب ، ونابا وهى المسنة

وكما اختلفوا في هذا اختلفوا في سبب أخذ الرجفة إياهم هل كان طلبهم رؤية الله تعالى جهرة كما تقدم في سورة البقرة أو سبباً آخر؟ قال الحافظ ابن كثير:

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية إن الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فأختار سبعين رجلاً فوفد بهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا.

فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسى رب لو شئت أهلكتهم - الآية . وقال السدي إن الله تعالى أمر موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فأرناهم الصاعقة فأتوا فقام موسى يبكي ويقول يارب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) وقال محمد بن إسحق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخليل فالتقى وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وأسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا واطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى أطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغطى الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه أفعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فأتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) قدسفهوا أنهم لك من ورأي من بني إسرائيل اه

أقول كل ما نقل عن مفسري المأثور في هذه المسألة وأما هل أمأخذ عن الأسرائيليات غير الموثوق بها إذ ليس فيه شيء مرفوع إلى النبي ﷺ وإنما يرجح من بعدهم

بعض أقوالهم على بعض بكونه أقرب إلى ظاهر نظم الآيات وأسايلهما وتناسبهما من غيره : وأما التوراة التي في أيدي أهل الكتاب فقد ذكرت خبر السبعين من شيوخ بنى إسرائيل في سياق مناجاة موسى عليه السلام له كما تقدم وقد نقلنا المهم منها في ذلك ومجموع عباراتها مضطربة ففيها أن السبعين مع موسى وهارون وناداب وابيهو « رأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صفة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا » (خروج ٢٤ : ١٠ و ١١) وفيها أن الرب قال لموسى إذ طلب منه رؤية مجده « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراى ويعيش » ثم ذكر له أنه أى الرب يضعه في نقرة صخرة ويستره بيده حتى يجتاز — أى الرب — قال « ثم ارفع يدي فتتظر ورأى وأما وجهى فلا يرى » (خروج ٢٣ : ١٨ — ٢٣)

وفي سفر العدد وقائع ذكر فيها غضب الرب على بنى إسرائيل لتمردهم وعنادهم واتهام اللاويين منهم لموسى وهارون بحب الرياسة والترفع عليهم وزعمهم أنهم كلهم مقدسون والرب في وسطهم وفيه أن الرب أهلك منهم خلقا كثيرا وكان موسى يستغيثه ليرفع الهلاك عنهم ويرحمهم ولا أذكر أن في شيء منها ذكر عدد السبعين ولكن في بعضها ذكر شيوخ إسرائيل وفي بعضها ذكر عدد ٢٥٠ رجلا وذلك في الفصل ١٦ من سفر العدد وهناك بعضه

(٢٠) وكلم الرب موسى وهارون قائلا (٢١) افترا من بين هذه الجماعة قاتلي اقبنيهم في لحظة (٢٢) فخرا على وجهيهما وقالا اللهم اله أرواح جميع البشر هل يخطيء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة (٢٣) فكلم الرب موسى قائلا (٢٤) اطلعوا من حوالى مسكن قورح ودathan وابيرام (٢٥) فقام موسى وذهب إلى دathan وابيرام وذهب وراءه شيوخ إسرائيل (٢٦) فكلم الجماعة قائلا اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم اليقاة ولا تمسوا شيئا مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم (٢٧) فطلعوا من حوالى مسكن قورح ودathan وابيرام وخرج دathan وابيرام ووقفوا في باب خيمتيهما مع نساتهما وبنيهما وأطفالهما (٢٨) فقال موسى بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلنى لأعمل كل هذه الأعمال وإنما ليست من نفسى (٢٩) إن مات هؤلاء كموت كل إنسان وأصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد أرسلنى (٣٠) ولكن ان ابتدع الرب بدعة وفتحت

الأرض فاها وابتلعهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب (٣١) فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم (٣٢) وفتحت الأرض فاها وابتلعهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال (٣٣) فنزلوا هم وكل من كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة (٣٤) وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا (٣٥) وخرجت نار من عند الرب وأكلت الميتين والحسين رجال الذين قربوا البخور «اه المراد منه ومبدأ هذه القصة في أول الفصل ١٦ وفي آخره أنه أخذهم الوباء إذ لم يتوبوا

وما في سورة البقرة من ذكر مسألة عبادة العجل وذكر مسألة طلب بني إسرائيل لرؤية الله جبهة وأخذ الصاعقة إياهم يدل على أن هذه الواقعة غير الأولى ونقلنا هنالك عن الأستاذ الإمام اختيار استقلال كل منهما دون الأخرى وقوله أنها مذكورة في كتبهم فإن كان يعني ما نقلناه أعفا عن سفر العدد أو مافي معناه وهو ما لم يذكر فيه عدد السبعين فلعلمه يريد أن ما ذكر في القرآن مختصر بقدر العبارة كسفته وإن السبعين هم الذين أهلكوا أولا وإن لم يذكر الكاتب عددهم ثم هلك غيرهم فكان الجميع ٢٥٠

فإن كانت الآية تشير إلى هذه القصة فقول موسى ﴿أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ إشارة إلى قورح وجماعته من اللاويين المتمردين ، وهل هم الذين طلبوا من موسى رؤية الله تعالى جبهة لغرورهم بأنفسهم أم غيرهم ؟ وإن كانت في عابدي العجل فهي دليل على أن عقلاء بني إسرائيل وأصحاب الروية منهم لم يعبدوه وإلما عبده السفهاء وهم إلا كثرون.

﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ «أب» نافية والفتنة الاختيار والامتحان مطلقا أو بالأمور الشاقة والباء في «بها» لاسيحية ، أي ما تلك الفعل التي كانت سببا لأخذ الرجعة إياهم لإحمنتك وابتلاكك الذي جعلته سببا لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية ، وما يستحقون عليه من عقوبة ومشوبة ، وسفتك في جريان مشيئتكم في خلقك بالعدل والحق ، والنظام الحكيم في الخلق ، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بظالم لهم في تقديرك ، وتهدى من تشاء ولست بمحاب لهم في

توفيقك ، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل ، ولك الخلق والأمر أنت ولينا
 فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿١﴾ أي أنت المتولى لأمرنا ، والقائم علينا بما
 تكتسب نفوسنا فاغفر لنا ما تترتب عليه المواخذة والعقاب من مخالفة سنتك ، أو
 التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، بأن تستر ذلك علينا ، وتجعله بعفوك
 كأنه لم يصدر عنا وارحمنا برحمتك الخاصة ، فوق ما شملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة
 وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاطفك ذنب ، ولا يمارض غفرانك
 ما يمارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس . وما ذكر في المغفرة يدل على
 اعتبار مثله في الرحمة لدلالته عليه . أي وأنت خير الراحمين رحمة وأوسعهم فيها فضلا
 واحسانا ، فإن رحمة جميع الراحمين من خلقك ، نعمة مفاضة على قلوبهم من
 رحمتك ، حذف ذكر الرحمة استغناء عنه بذكر المغفرة فإن ترتيب التذييل في الشناء
 عليه تعالى على طلب مغفرتك ورحمته معا ، يقتضى أن يكون هذا الشناء بهما معا فاكتمى
 بذكر الأولى لدالاتها على الثانية قطعاً ، فهو من الإيجاز المسمى في علم البديع
 بالاكتماء ، وقد غفل عن هذا من قال من المفسرين إنه اكتفى بذكر المغفرة لأنها
 الأهم ولم لم يكتف بذكر الرحمة لأنها أعم ، ولأنها قد تستلزم المغفرة دون
 العكس ، فإن معنى المغفرة سلبى وهو عدم المواخذة على الذنب ، والرحمة فوق
 ذلك فهي احسان إلى المذنب لا يستحقه إلا بعد المغفرة ولذلك يقدم ذكر المغفرة
 على ذكر الرحمة ، لأن التخليص كما يقولون مقدمة على التحلية . فلا يليق خلص
 الحلال النفيسة ، إلا على الأبدان النظيفة ، وقد قال موسى عليه السلام في دعائه
 لنفسه ولأخيه (رب اغفر لى ولأخى وادخلنا في رحمتك) الآية . وقال نوح عند توبته
 من سؤاله النجاة لولده الكافر (وإلا تغفر لى وترحمى أكن من الخاسرين) وعلمنا
 تعالى من دعائه في خاتمة سورة البقرة (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) وقلما
 ذكر اسم الله (الغفور) في كتابه العزيز إلا مقرونا باسمه (الرحيم) ومن غير
 الأكثر قرنه بالشكور وبالجليل وبالودود ويقرب معناه من معنى الرحيم ،
 ومرد قرنه بالغفور والعزير لاقتضاء المقام ذلك .

ودعاء موسى عليه السلام هنا لنفسه مع قومه بضمير الجمع قد اقتضاه مقام
 المناجاة والمعرفة الكاملة ، ومن كان أعرف بالله وأكمل استحضارا لعظمته ، كان

أشد شعوراً بالحاجة إلى مغفرته ورحمته، وإن كان ما يستغفر منه تقصيراً صغيراً بالنسبة إلى ذنوب الغافلين والجاهلين، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقرين، فإن كان هذا الدعاء عقب طلب الرؤية، فوجه طلبه للمغفرة والرحمة لنفسه أظهر، لأن طلبه ذاك كان ذنباً له، صرح بالتوبة منه، وإن كان عقب طلب السبعين رؤية الله جرة فالأمر أظهر، لأن الذنب مشترك، وإن كان على أثر حادثة عبادة العجل، فقد علم ما كان من شدته فيها على أخيه هارون عليهما السلام، وأنه طلب لكل من نفسه وأخيه المغفرة على الانفراد والرحمة بالاشتراك، وإن كان عقب تمردي بني إسرائيل الذي عاقبهم الله تعالى عليه بأهلاك بعضهم وتهديمهم بالاستئصال، فأدخال نفسه معهم من باب الاستعطاف، إذ لم ينقل عنه فيه شيء مما يعد من ذنوب الأنبياء عليهم السلام.

﴿تخطئة من اتهم السكيم عليه السلام بالجراة على ربه في هذا المقام﴾

كنت في أول العهد بطمحي للعلم في طرابلس الشام اسمع بعض العلماء والأدباء ينقلون عن بعض الصوفية أن موسى عليه السلام لم يقل لربه عز وجل (إن هي إلا فتنتك) إلا وقد كان في مقام الانس والادلالات الذي يطلق اللسان بمثل هذا المقال، وأن هذا خير جواب عما قيل من أن هذا القول جراءة عظيمة تاب منها عليه السلام. وقال الآلوسي في تفسير الآية: والقول بأن اقترانه عليه السلام على أن يقول (إن هي إلا فتنتك جراءة عظيمة فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها مما يباه السوق، عند أرباب الذوق، ولا أظن أن الله تعالى عد ذلك ذنباً منه، ليستغفره عنه، وفي ندائه السابق ما يؤيد ذلك اهـ

وأقول لا مجال للقول بالجراة ولا بالادلالات. وما كان هذا بالذي يخطر للعزبي القبح ببال، ولا للعالم الدقيق بمعاني المفردات وأساليب المقال، وسببه كلمة «الفتنة» فقد اشتهر من عهد بعيد فيما أظن أن معناها اغراء الشر بين الناس وأراهم يتناقلون استعمال قوله تعالى (والفتنة أشد من القتل) بهذا المعنى، وله أصل في استعمال العرب فإنها تطلق على الحرب ويوصف الشيطان بالفتان. ولكن هذا وذلك من المعاني الفرعية لهذه المسادة وإنما معناها الأصلي الذي تفرعها وأمثالها وأضدادها منه الامتحان والاختبار ولا سيما الشاق الذي يظهر به جيد الشيء أو الشخص من رديئة، كعرض الذهب على النار: لتصفية الغش.

من النصارى ، ومثله الفضة بل كل ما أدخل النار يسمى مفتونا كما يقال دينار أو درهم مفتون ، و يسمى حجر الصائغ الفئانة ، وقد ورد تسمية المملكين اللذين يتمتعان الناس عقب الموت بفتناني القبر ، وفسروا فتنة الممات وفتنة القبر بسؤال المملكين ، وقال تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى اختبار لكم يتبين بهما قدر وقوفكم عند الحق والتزامكم الكسب الحلال ، وقال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)

وجملة القول أن الفتن والفتون مصدرى فتن معناهما الابتلاء للاختبار وظهور حقيقة حال المفتونين أو لتصفيتهم وتمحيصهم ، ومن الأول قوله تعالى لموسى فى هذه الواقعة التى نحن بصدد تفسيرها على قول بعضهم (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) فقوله عليه السلام لربه (إن هى إلا فتنتك) مأخوذ من قول ربه له (إنا قد فتنا قومك) فلا جرأة فيها ولا إدلال ، دع ما يرد هذه الدعوى من مناقبتها لموقف التوبة والاستغفار — ومن الثانى قوله تعالى له فى قصته من سورة طه (وفتنا فتونا) أى اصطفتيناك من الشوائب حتى صرت أهلا لاصطفتنا ورسالتنا .

وتقدم تحقيق هذا اللفظ من قبل * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة * أى وأثبت وأوجب لنا برحمتك وفضلك حياة حسنة فى هذه الدنيا من العافية وبسط الرزق ، وعز الاستقلال والملك ، والتوفيق للطاعة ، ومثوبة حسنة فى الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك ، فهو كقوله تعالى فيما علمنا من دعائه (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) فإن نعمة دين الله على ألسنة جميع رسله سعادة الدارين : الدنيا والآخرة * إنا هدنا إليك * فى لسان العرب : هاد يهود هودا (أى من باب قال) وهود تاب ورجع إلى الحق فهو هائد ، وقوم هود — مثل حائل وحوك وبازل وبزل — قال إعرابى * إنى امرؤ من مدحه هائد * وفى التنزيل (إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك وهو قول مجاهد وسعيد بن جبيرة إبراهيم . قال ابن سيده : عاده بالى لأن فيه معنى رجعتنا : ابن الأعرابى : هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير ، وداه إذا عقل ، ويهود اسم القبيلة قال :

أولئك أولى من يهود بمدحه إذا أنت يوما قاتلها لم تؤنب

وقيل إنما هذه القبيلة يهود فمررت بقلب الذال دالا اه ملخصا والمعنى إنا تبنا

إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة العجل ، وتقصير خيارنا في الإنكار عليهم - أو من طلب رؤيتك أو من مرد المغرورين على شريعتك ، وكفر نعمتك - تبنا ورجعنا إليك في جملتنا مستغفرين مسترحمين كما فعل أبونا آدم إذ تاب إليك من معصيته فتبت عليه وهديته واجتبيته ، فكانت تلك سنتك في ولده - يدل على هذا المعنى فضل قوله « إنا هدنا إليك » فانه في مقام التعليل والاستدلال على استحقاق التائب المنيب بالقول والفعل والاعتقاد للمغفرة وقد كان مما حكاه الله تعالى من وحيه إلى موسى في سورة طه (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وبماذا أجابه الله تعالى ؟

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ أي قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجل عذابي خاصاً أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين ، فهي من صفاتي القدسية الأزلية التي قام بها أمر العالم منذ خلقته ، والعذاب ليس من صفاتي بل من أفعالي المرتبة على صفة العدل ، ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضي . وهذه الرحمة هي العامة المبدولة لكل مخلوق ولولاها هلاك كل كافر وعاص عقب كفره وجوره (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهورها من دابة) وهنالك رحمة خاصة بوجهها ويكتبها تعالى لبعض المؤمنين المحسنين ويبدل ماشاء منهم لمن شاء بغير كتابة منه ، وما كتابته إلا فضل منه ورحمة ، وأما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خبر المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعد به فكان لا بد من وقوعه ، ولأنه من متعلقات صفتي العدل والحكمة ، وقد أفرط قوم في النظر إلى عموم الرحمة وغفلوا عن النظر في مقتضى العدل والحكمة ، والوعيد على الكفر والمعصية ، فذهب بعضهم إلى عدم تعذيب أحد من المؤمنين ، وآخرون إلى عدم تعذيب أحد من العالمين ، ومن هؤلاء بعض غلاة التصوف الذين زعموا أن العذاب صوري لا حقيقي وأنه مشتق من العذوبة وإن في جهنم من هم أحب إلى الله تعالى من كثير من أهل الجنة - جعلهم الله منهم - وأفرط آخرون في النظر إلى مقتضى الحكمة فأوجبوا عليه تعالى تعذيب العصاة بارتكاب الكبائر لا الكفار قطع ، ولولا أن صار هذا وذاك مذهباً سهول جمع كلمة الفريقين على الأخذ

بظواهر نصوص القرآن ، في كل صفة من صفات الرحمن ، ولما قال مثل الزمخشري من جهابذة البيان ، في تفسير قوله تعالى (عذابي أصيب به من أشاء) أى من وجب على في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العقوبة عنه مسأغ لأنه مفسدة انتهى فقد فسر من يشاء تعالى تعذيبه بمن وجب عليه تعذيبه ، وجماعته يقولون إن هذا وجوب عقلي لا يدخل الامكان سواء ولا تتعلق القدرة بخلافه ، وهذا المعنى يناقض المشيئة مناقضة قطعية فكيف تفسر به ؟ ياليت الزمخشري لم ينتحل مذهبا ولم ينظر في خلاف المذاهب ، وإذا لكان كشفه حجة على أصحابها ومرجأ لهم في تحرير معاني نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف إذ كان من أدق علماء هذه اللغة فهما واحسنهم بيانا لما فهم ، ومسألة الوجوب على الله تعالى نظرية فكرية لا لغوية ، والجمع بين الحكمة والرحمة لا يقتضى أن يجب على الله تعالى شيء لذاته ، وليس في النصوص ما يدل على هذا الوجوب إلا أن يوجب تعالى بمشيئته ، بمعنى كتابته وجعله أمراً مقضيا ، وليس في إيجابه على نفسه بمشيئته ما في إيجاب عقول خلقه عليه من معنى استعلاء غيره عليه تعالى - أو من إيهام كونه عز وجل محكوماً بما يناقض سلطانه الاختيارى الذى هو فوق كل سلطان ، بل لا سلطان سواء ، وإنما سلطان غيره به ومنه ، فلو لم يكن في اختلاف التعبير إلا مراعاة الأدب لكنى

﴿ فساء كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الخ أى وإذا كان الأمر كذلك فساء كتب رحمتى كنية خاصة وأثبتها بمشيئتي إثباتا لا يحول دونه شيء للذين يتقون الكفر والمعاصي والقرء على رسولهم ، ويؤتون الصدقة المفروضة التى تنزكى بها أنفسهم ، وغيرها من أركان الدين ، وخص الزكاة بالذكور دون الصلاة وما دونها من الطاعات لأن فتنه حب المال تقتضى بنظر العقل والاختبار بالفعل أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض . وفيه إشارة إلى شدة حب اليهود للدينيا واقتنائهم بجمع المال ومنع بذله في سبيل الله ، وقوله تعالى (والذين هم بآياتنا يؤمنون) معناه وسأكتبها كنية خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التى تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديقاً إذعان ، مبني على العلم والايقان ، دون التقليد للآباء وعصبية الاقوام ، ونكتة إعادة الموصول (الذين) مع الضمير (هم) إما جعل الموصول الأول عاماً لقومه

الذين دعا لهم ، من استمروا على التزام التقوى وإداء الزكاة منهم وجعل الثأنى
 خاصا بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام ويتبعونه كما يعلم بما بعده - وإما
 لبيان الفصل بين مفهوم الإسلام ومفهوم الإيمان والتعريض بأن الذين طلبوا من
 موسى أن يجعل لهم آلهة والذين عبدوا العجل والذين قالوا (لن نؤمن لك حتى
 نرى الله جهرة) لم يكونوا مؤمنين بآيات الله العامة ولا الخاصة التى جاء بها نبيهم
 إذ لم يكونوا يعقلونها بل كانوا متبعين له لانقاذهم من ظلم المصريين - وبيان أن
 كتابة الرحمة الخاصة إنما تكون لمن جمعوا بين الإسلام وهو إتباع الرسل بالفعل ،
 والإيمان الصحيح بالآيات الإلهية المفيدة لليقين المانع من العودة إلى الشرك بمثل
 عبادة العجل والمقتضى لاتباع من يأتى من الرسل بمثل هذه الآيات ، وفى هذا
 توطئة لما بعده ، فهو بيان لصفة من يكتب تعالى لهم الرحمة على الإطلاق ، ويدخل
 فيهم موسى عليه السلام ومن يصدق عليهم ما ذكر من قومه وذلك يفيد استجابة
 دعائه بشرطه ، ويليه بيان أحق الأمم بهذه الرحمة ذكر على سبيل الاستطراد
 المقصود بالذات على سنة القرآن ، فى الانتقال من قصص الرسل إلى أمة خاتم
 الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو قوله عز وجل

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ فصل الاسم الموصول هنا لأنه بيان
 مستأنف الموصول الأخير أو الموصولين الذين قبله معا ، وهم الذين يتقون
 ويؤتون الزكاة ، والذين يؤمنون بالآيات ، ولو وصله فقال (والذين يتبعون
 الرسول النبي الأمي) الخ لكان مغايرا لما فى المصدق فى المفهوم بأن يراد بالأخير
 من يدركون بعثة الرسول النبي الأمي ويتبعونه بالفعل فى زمنه و بعد زمنه ، ويراد
 بمن قبلهم من يصدق عليهم معنى صلة الموصولين فى زمن موسى وما بعده إلى زمن
 محمد عليهما السلام . ومعنى الفصل على الوجه الأخير اتحاد الموصولات الثلاثة فى
 المفهوم والمصدق جميعا . والمعنى: أن كتابة الرحمة كتبة خاصة هى للتصفيين
 بما دلت عليه صلات الموصلات الثلاثة وإتمام الذين يتبعون الرسول الموصوف بأنه
 النبي الأمي نسبة إلى الأم ، والمراد به الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أهل الكتاب
 يسمون العرب بالأميين ، ولعله كان لقباً لأهل الحجاز ومن جاورهم دون أهل اليمن .
 لكن ظاهر قوله تعالى فى الخوة من اليهود (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين

سبيل (العموم وليس بنص فيه ، وقال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا ﷺ فهو وصف خاص لا يشارك محمدا ﷺ فيه أحد من النبيين . والامية آية من أكبر آيات نبوته ، فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة وهي ما يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم وعمل بها فكان لها من التأثير في العالم مالم يكن ولن يكون لغيره من خلق الله . وتعريف الرسول والنبي الموصوف بالامية كلاهما للعهد كما يعلم مما سبقته من إشارات الأنبياء بنبينا ﷺ . والرسول في اصطلاح الشرع أخص من النبي فكل رسول نبي وما كل نبي رسول ، ولذلك جعل بعض المفسرين نكتة تقديم الرسول على النبي هنا كونه أهم وأشرف أو أنهما ذكرا هنا بمعنىهما اللغوي كقوله (وكان رسولا نبيا) وما أشرنا إليه من نكتة التقديم أظهر ، وهو النبي الأسمى وصف مميز للرسول الذي يجب كل أحد اتباعه متى بعث ، وأن الرسول هو المعروف الذي نزل فيه (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) - الخ آيته المعروفة في سورة آل عمران ^(١) والنبي في اللغة (فاعيل) من مادة النبا بمعنى الخبر المهم العظيم الشأن أو بمعنى الارتفاع وعلو الشأن والأول أظهر وأكثر العرب لانهمزة بل نقل أنه لم يهزه إلا أهل مكة ولكن النبي ﷺ أنكر على رجل قال له : يا نبي الله . وأما في الاصطلاح فالنبي من أوحى الله إليه وأنباه بما لم يكن يعلم بكسبه من خير أو حكم يعلم به علما ضروريا أنه من الله عز وجل ، والرسول نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين وإقامته بالعمل ، ولا يشترط في الوحي إليه أن يكون كتابا يقرأ وينشر ، ولا شرعا جديدا يعمل به ، ويحكم بين الناس . بل قد يكون تابعا لشرع غيره كالرسل من بني إسرائيل كانوا متبعين لشرعية التوراة عملا وحكما بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم به النبيون الذين أسلموا الذين هادوا) الآية

(١) تراجع ص ٣٥١ ج ٣ من التفسير

وقد يكون ناسخا لبعضه كما نسخ عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة وأقر أكثرها. كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى حكاية لما خاطب به بنى إسرائيل (ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) وسيرته الماثورة عن الانجيليين الأربعة وغيرهم تدل على ذلك ففيها أنه ما جاء لينقض التاموس (أى التوراة) وإنما جاء ليتمم، وأنه أحل لهم بعض ما حرم عليهم حتى ما دل عليه عموم ترك العمل يوم السبت فخصه بغير العمل الصالح من أمور الدنيا بل نرى فرق النصارى الرسميين بعد تكوين نظام الكنيسة قد تركوا ماعدا الوصايا العشر من شريعة التوراة واستبدلوا يوم الأحد بيوم السبت فيما حرمت الوصايا من العمل فيه وخالف الأكثرون وصية النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على هذا من قول المسيح ولا من فعله.

وجملة القول أن الرسول أخص في عرف شرعنا من النبي، فكل رسول نبي ولا عكس وإذا أطلق الرسول بالمعنى الذى يعم رسل الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبي لأن الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس، ولم يجعل فيهم أنبياء فنبينا عليه السلام نبي رسول، وجبريل عليه السلام رسول غير نبي، وآدم عليه السلام نبي غير رسول كأكثر أنبياء بنى إسرائيل، وهذا على قول المحققين فى نص حديث الشفاعة فى الصحيحين وغيرهما الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وقد تقدم فى الكلام على عدد الرسل من تفسير سورة الأنعام جواز تسميته رسولا فى عرف بعض أهل الكلام، وأنهم لهذا العرف عدوه من الرسل الذين تجب معرفة رسالتهم وأول هؤلاء حديث الشفاعة تأويلات تجددها هنالك^(١) وصف الله الرسول الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من بنى إسرائيل وغيرهم بصفات ونعوت (أولها) (أنه هو النبي الأمى الكامل)

(ثانيها) - قوله تعالى - الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل - ومعناه الذى يجد الذين يقبعونه من بنى إسرائيل صفته ونعته مكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل، وإنما ذكر الإنجيل والسباق فى قوم موسى لأن المخاطب به

بالذات بنو اسرائيل ، ومما هو مأثور عن المسيح عليه السلام في هذه الاناجيل :
 لم أبعث إلا إلى خراف اسرائيل الضالة . ولا يعارضه مارووا عنه من أمره تلاميذه
 أن يكرزوا بالانجيل في الخليقة كلها إذ يجمع بينهما ان يراد بالخليقة ما كانوا يسمونه
 (اليهودية) والعبارة الاولى نص بصيغة الحضر لا المحتمل التأويل . وقال أبو السعود
 (الذي يجدونه مكتوبا) باسمه ونعمته الشريعة بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل
 عن أن يقال يجدون نعمته أو وصفه مكتوبا عندهم ، وبالطرف (عندهم) لزيادة التقرير
 وأن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم اه وسيأتي بيان ذلك في فصل خاص
 ثالثها ورابعها — قوله — ﴿ يا أمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ يحتمل

أنه استئناف لبيان أهم ما يحتاجون إليه عند بعثته — ويحتمل أنه تفسير لما كتب
 والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه وترتاح القلوب الطاهرة له لنفقه وموافقته
 للفطرة والمصلحة بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يردده أو يعترض
 عليه إذا ورد الشرع به . والمنكر ما تنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه
 على الوجه المذكور أيضا . وأما تفسير المعروف بما أمرت به الشريعة والمنكر بما
 نهت عنه فهو من قبيل تفسير الماء بالماء . وكون ما قلناه يثبت مسألة التحسين والتفبيح
 العقلين وفاقا للمعتزلة وخلافا للاشعرية مردود اطلاقه بأننا انما نوافق كلا منهما
 من وجه ونخالفه من وجه اتباعا لظواهر الكتاب والسنة وفهم السلف لها فلا ننكر
 إدراك العقول الحسن الأشياء مطلقا ولا قيد التشريع بقولنا ولا نوجب على الله
 شيئا من عند أنفسنا بل نقول إنه لا سلطان لشيء عليه فهو الذي يوجب على نفسه
 ما شاء ان شاء كما كتب على نفسه الرحمة لمن شاء وأن من الشرع ما لم تعرف العقول
 حسنة قبل شرعه ، وان كل ما شرعه تعالى يطاع بلا شرط ولا قيد .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذا الأمر والنهي مانصه . هذه صفة الرسول
 ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه السلام لا يأمر إلا بخير ولا
 ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين
 آمنوا) فارعها سمعك فانه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه : ومن أهم ذلك وأعظمه

ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الإمام أحمد - وذكر سننه إلى أبي حميد وأبي أسيد (رض) أن رسول الله ﷺ قال «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وتزرون أنه منكم قريب فأنأ أولأكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وتزرون أنه منكم بعيد، فأنأ أبعدكم منه» رواه أحمد (رض) بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب

خامسها وسادسها - قوله تعالى ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾
الطيب ما تستطيعه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة، ومن الأموال ما أخذ بحق وتراض فى المعاملة. والخبيث من الأطعمة ما تنجس به الطباع السليمة وتستفد منه ذوقا كالميتة والدم المسفوح، أو تصد عنه العقول الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذى يتولد من أكله الدودة الوحيدة - أو لضرره فى الدين كالذى يذبح للتقرب به إلى غير الله تعالى على سبيل العبادة، أى لاما يذبح لتكريم الضيفان، من صغير وكبير أو أمير أو سلطان. والذى يحرم ذبحه أو أكله لتشريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى والطبيخ من الأموال ما يؤخذ بغير الحق كالربا والرشوة والغلو والسرقة والخيانة والغصب والسحت. وقد كان الله تعالى حرم على نبي إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية. وتقدم تفسيرها فى سورة النساء. وحرموا هم على أنفسهم طيبات أخرى لم يحرمها الله تعالى عليهم، وأحلوا لأنفسهم أكل أموال غير الإسرائيليين بالباطل كما حكى الله تعالى عنهم بعد ذكر استحلال بعضهم أكل ما يأنتمهم عليه العرب (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله السكتب وهم يعلمون) وتقدم تفسيرها فى سورة آل عمران

(سابعها) - قوله تعالى ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾
الإصر الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبس من الحراك لنقله، وهو مثل الثقل

تكميلهم وصعوبته نحو اشتراط قتل النفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، قالها الزحشرى. وذكر للثاني عدة أمثلة من شدة أحكام التوراة. وقال ابن كثير: أى أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من ضرق عن رسول الله ﷺ أنه قال «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ لا مير، معاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا، وتطاولا ولا تختلفا» والحديث رواه الشيخان وغيرهما حاصل ما تقدم أن بنى إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذى يحمل أنفالا يثبط منها وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه. وقد بينا في مواضع أخرى حكمة أخذ بنى إسرائيل بالشدة في الأحكام وأن المسيح عليه السلام خفف عنهم بعض التخفيف في الآداب والمادية وشدد عليهم في الأحكام الروحية لما كان من إفراطهم في الأولى وتفریطهم في الأخرى، وكل هذا وذاك قد جمعه الله تعالى تربية موقوتة لبعض عباده ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة التى يبعث بها خاتم الرسل الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم.

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ يطلق التعزير في اللغة على الرد والضرب والمنع والتأديب والتعظيم. وقال الراغب: التعزير النصرة مع التعظيم. وروى عن ابن عباس: عزروه عظموه ووقروه. وليسكن ورد في سورة الفتح (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا، والأقرب إلى فقه اللغة ما حققه الزحشرى في الكشف هنا قال (وعزروه) ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو، وأصل العزr المنع، ومنه التعزير بالضرب دون الحد، لأنه منعه عن معاودة الفسح، ألا ترى إلى تسميته الحد، والحد هو المنع اهـ. جاء في لسان العرب بمدنقل الأقوال، وجعله من قبيل الاضداد: والعزr النصر بالسيف. وعززه عزرا، وعززه (تعزيرا) أعانه وقواه ونصره، قال الله تعالى (لتعزروه وتوقروه) وقال تعالى (وعزهم) جاء في التفسير:

لنصروه بالسيف ومن نصر النبي ﷺ بالسيف فقد نصر الله عز وجل، وعزرتهم
عظمتهم، وقيل: نصرتهم. قال إبراهيم بن السري: وهذا هو الحق والله تعالى أعلم —
وذلك أن العز في اللغة الرد والمنع، وتأويل عزرت فلانا أى أدبته إيماناً وبله فعلت به
ما برده عن القبيح، كما إذا نكلت به تأويله فعلت به ما يجب أن ينكل معه عن المعادة.
فتأويل عزرتهم نصرتهم بأن تردوا عنهم أعداءهم، ولو كان التعزير هو التوقيف لكان
الاجود في اللغة الاستغناء به والنصرة إذا وجبت فالعظيم داخل فيها، لأن نصرة
الأنبياء هي المدافعة عنهم أو الذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيفهم اه المراد منه .

والمنفى إن الذين آمنوا — أى يؤمنون — بالرسول النبي الأمي عند مبعثه أى
من قوم موسى ومن كل قوم — فإنه لم يقل فالذين آمنوا به منهم بل أطلق —
ويعزرونه بأن يمنعه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والاحلال ، لا كما
يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشتمال ، ونصروه باللسان والسنان، واتبعوا
النور الأعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون ، أى
الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان ، دون سواهم من أهل كل زمان ومكان .
فمنهم الفائزون بدون ما يفوز به هؤلاء ، كاتباع سائر الأنبياء ، ومنهم الخائبون
المخذولون ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

﴿ فصل في بيان بشارات النوراة والإنجيل وغيرهما ﴾

بنبيينا ﷺ

اعلم أنه قد سبق لنا ذكر بشارات كتب أنبياء بني إسرائيل بنبيينا ﷺ
في مواضع من هذا التفسير بعضها بالاجمال وبعضها بشيء من التفصيل وفي مواضع
من المنار كما يعلم من فهرسهما ، وتريد هنا أن تفصل القول في ذلك تفصيلاً كافياً
لأنه هو المكان المناسب له أتم المناسبة ، فنقول :

كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقلون خبر بعثته (ص) فيما بينهم
ويزكرون البشارات به من كتبهم حتى إذا ما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن
به كثيرون وكان علماءهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء

اليهود وتيم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورضى عنهم، والروايات في هذه كثيرة، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسي (رض) وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ويقولون ما بقي منها لمن اطلع عليه و يكتمونه عن من لم يطلع عليه، وقد أبى المتأخرون ولاسيما الافرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل لذلك وصح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندي هذه المسألة في كتابه (أظهار الحق) بأمور جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به ﷺ فرأينا أن نقبسها بنصها، قال رحمه الله تعالى في سياق مسالك الاستدلال على نبوته ﷺ مانصه:

﴿ المسالك السادس ﴾

أخبار الانبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام، ولما كان القيسيون يقلطون العوام في هذا الباب تغليظاً عظيماً استحسنت أن أقدم على نقل تلك الاخبار أموراً ثمانية تفيد الناظر بصيرة

﴿ الأمر الاول ﴾

إن الانبياء الاسرائيلية مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية، كحادثة بخت نصر، وقورش والاسكندر وخلفائه، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد ﷺ الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تنأوى ظيور السماء في أغصانها، فكسر الجبابرة والاكاسرة، وبلغ دينه شرقاً وغرباً وغلب الاديان، وامتد دهره بحيث مضى على ظهوره مدة ألف ومائتين وثمانين الى هذا الحين، ويمتد إن شاء الله الى آخر بقاء الدنيا. وظهر في أمته أئوف من العلماء الربانيين، والحكماء المتقين، والاولياء ذوي الكرامات والمجاهدات، والسلاطين العظام. وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرها، فكيف يجوز العقل السليم انهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن هذه الحادثة العظيمة

﴿ الامر الثاني ﴾

أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في اخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الغلانية ، في السنة الغلانية ، في البلد الغلاني ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار في غالب الاوقات مجعلا عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون مصداقه الا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عن ظهور مصدق ادعائه بالمعجرات ، وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء ، وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلاريب ، ولذلك يعاتبون كاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله (٥٢) ويل لكم أيها الناموسييون لانكم أخذتم مفتاح المعرفة ، وأدخلتم أتمم (والداخلون منعموم) كما هو مصرح به في الباب الحادى عشر من انجيل لوقا وعلى مذاق المسيحيين قد يبقى خفيا على الانبياء فضلا عن العلماء ، بل قد يبقى خفيا على النبي المخبر عنه على زعمهم في الباب الاول من انجيل يوحنا هكذا (١٩) وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟ (٢٠) (فأعترف ولم ينكر ، وأقر إني لست أنا المسيح) (٢١) (فسألوه اذا ماذا ؟ أنت ايليا ، فقال : أنا لست ايليا ، فسألوه أنت النبي ؟ فأجاب : لا) (٢٢) (فقالوا له : من أنت لتعطي جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟) (٢٣) (قال : أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي) (٢٤) (وكان المرسلون من الفريسيين) (٢٥) (فسألوه وقالوا له : فما بالك تعتمد أن كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟)

والالف واللام في لفظ النبي الواقع في الآية ٢١ و ٢٥ لفهده ، والمراد النبي المعبود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء (١) على ما صرح به العلماء المسيحية ، فالكهنة واللاويون كانوا من علماء اليهود وواقفين على كتبهم ، وعرفوا أيضا أن يحيى عليه السلام نبي ، لكنهم شكوا في أنه المسيح

(١) هو سفر تثنية الاشتراع وهو الخامس والاخير من اسفار التوراة ويعبر عنه صاحب الحق بسفر الاستثناء اخذاً من بعض التراجم

عليه السلام أو ايليا عليه السلام أو النبي المعبود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام، فظهر منه أن علامات هؤلاء الأنبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم بحيث لا يبقى الاشتباه للخواص^(١) فضلا عن العوام، فلذلك سألوا أولا: أنت المسيح؟ فبعدما أنكروا يحيى عليه السلام عن^(٢) كونه مسيحاً، سألوه: أنت ايليا؟ فبعدما أنكروا عن^(٣) كونه ايليا أيضاً سألوه أنت النبي أى (المعبود)؟ ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل، بل ظهر منه أن يحيى عليه السلام لم يعرف نفسه أنه ايليا حتى أنكروا فقال: لست أنا، وقد شهد عيسى أنه ايليا في الباب الحادى عشر من انجيل متى قول (٤) عيسى عليه السلام في حق يحيى عليه السلام هكذا ١٤ (وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو ايليا المزمع أن يأتى) وفي الباب السابع عشر من انجيل متى هكذا ١٠ (وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة: إن ايليا ينبغي أن يأتى أولاً) ١١ (فأجاب يسوع وقال لهم: إن ايليا يأتى أولاً ويرد كل شيء) ١٢ (ولكنى أقول لكم: إن ايليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الانسان أيضاً سوف يتألم منهم) ١٣ (حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان) وظهر من العبارة الأخيرة أن علماء اليهود لم يعرفوه بأنه ايليا وفعّلوا به ما فعلوا، وإن الحوارين أيضاً لم يعرفوه بأنه ايليا، مع أنهم كانوا أنبياء في زعم المسيحيين وأعظم رتبة من موسى عليه السلام، وكانوا اعتمدوا من يحيى عليه السلام ورأوه مراراً، وكان بحبيته ضرورياً قبل إلههم ومسيحهم - وفي الآية ٣٣ من الباب الأول من انجيل يوحنا قول يحيى هكذا (وأنا لم أكن أعرفه لسكن الذى أرسلنى لأعبد بالماء ذاك قال لى: الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذى يعبد بالروح القدس) ومعنى قوله (وأنا لم أكن أعرفه) على زعم القسيسين أنا لم أكن أعرفه معرفة جيدة بأنه المسيح الموعود به، فعلم أن يحيى عليه السلام ما كان يعرف عيسى عليه السلام معرفة يقينية بأنه المسيح الموعود به إلى ثلاثين سنة مالم ينزل الروح القدس، لعل كون ولادة المسيح من العذراء لم يكن من العلامات المختصة بالمسيح، وإلا فكيف

(١) كذا والمراد بحيث لا تبقى فيها اشتباه على الخواص بل كانت مجملة لا تخلوا من الخفاء والاشتباه (٢) كلمة عن زائدة إذ يقال أنكروا الشيء لا أنكروا عنه

يصح هذا ؟ لكنني أقطع النظر عن هذا وأقول : إن يحيى أشرف الأنبياء الاسرائيلية بشهادة عيسى عليه والسلام ، كما هو مصرح به في الباب الحادى عشر من إنجيل متى ، وإن عيسى عليه السلام إلهه وربّه على زعم المسيحيين ، وكان بحجته ضروريا قبل المسيح ، وكان كونه إيليا يقينيا ، فإذا لم يعرف هذا النبي الأشرف نفسه إلى آخر العمر ، ولم يعرف إلهه وربّه إلى المدة المذكورة ، وكذا لم يعرف الحواريون الذين هم أفضل من موسى وسائر الأنبياء الاسرائيلية مدة حياة يحيى أنه إيليا فإذا رتبته العلماء والعوام عندهم في معرفة النبي اللاحق بخبر النبي المتقدم عنه وترددهم فيه ؟ وقيافا رئيس الكنة كان نبيا على شهادة يوحنا ، كما هو مصرح به في الآية الحادية والخمسين من الباب الحادى عشر من إنجيله ، وهو ألقى بقتل عيسى عليه السلام وكفره وأهانته ، كما هو مصرح به في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى . ولو كانت علامات المسيح في كتبهم مصرحة بحيث لا يبقى الاشتباه (فيها) على أحدا ما كان مجال لهذا النبي المفتى بقتل إلهه وبكفره أن يفتى بقتله وكفره .

ونقل متى ولو قال في الباب الثالث ومرقس ويوحنا في الباب الأول من أناجيلهم خبرا شعيا في حق يحيى عليهما السلام ، وأقر يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه على ما صرح به يوحنا ، وهذا الخبر في الآية الثالثة من الباب الأربعين من كتاب أشعيا هكذا (صوت المنادى في البرية سهلوا طريق الرب أصلحوا في البوادي سبيلا لاهنا) ولم يذكر فيه شيء من الحالات المختصة بيحيى عليه السلام لا من صفاته ، ولا من زمان خروجه ، ولا مكان خروجه ، بحيث لا يبقى الاشتباه ، ولولم يكن ادعاء يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه وكذا ادعاء مؤلفي العهد الجديد لما ظهر هذا للعلماء المسيحية وخواصهم فضلا عن العوام لأن وصف النداء في البرية يعم أكثر الأنبياء الاسرائيلية الذين جاؤا من بعد اشعيا عليه السلام ، بل يصدق على عيسى عليه السلام أيضا ، لأنه كان ينادى مثل نداء يحيى عليه السلام : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء وسيظهر لك في (الأمر السادس) حال الاخبارات التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام

عن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام . ولا ندعى ان الأنبياء الذين اخبروا عن
 محمد ﷺ كان إخبار كل منهم بصفة مفصلا بحيث لا يكون فيه مجال التأويل المعاند
 قال الإمام الفخر الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل
 وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) : واعلم أن الأظهر في الباء في قوله (بالباطل) انها
 باء الاستعانة كالقبي في قولك كتبت بالقلم . والمعنى (لا تلبسوا الحق) بسبب
 الشبهات التي توردها على السامعين . وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة
 والانجيل في أمر محمد عليه السلام كانت نصوصا خفية تحتاج في معرفتها إلى
 الاستدلال ، ثم انهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها
 بسبب القاء الشبهات ، انتهى كلامه بلفظه

وقال المحقق عبد الحكيم السيالكوتي في حاشيته على البيضاوى : هذا فصل
 يحتاج إلى مزيد شرح ، وضو انه يجب أن يتصور أن كل نبي أتى بلفظة معرضة
 وإشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، وذلك لحكمة إلهية . وقد قال
 العلماء : ما أنفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي ﷺ لكن
 بإشارات ، ولو كان منجليا للعوام لما عوتب علماءهم في كتابته . ثم ازداد ذلك
 غموضا بنقله من لسان إلى لسان من العبراني إلى السرياني ، ومن السرياني إلى
 العربي . وقد ذكرت محصلة ألفاظ من التوراة والانجيل إذا اعتبرتها وجدتها
 دالة على صحة نبوته عليه السلام ، بتمر يض هو عند الراسخين في العلم جلي ،
 وعند العامة خفي . انتهى كلامه بلفظه

✽ الأمر الثالث ✽

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وإيليا ادعاء
 باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضاً لما علمت في الأمر الثاني أن
 علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولا أنت
 المسيح : ولما أنكر سألوه : أنت إيليا ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي
 الموعود الذي أخبر به موسى ، فعمل أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيليا ،
 وكان مشهورا بحيث ما كان محتاجا إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت

كافية . وفي الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا
٤٠ (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي)
٤١ (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من الكلام أيضاً أن النبي الموعود
عندهم كان غير المسيح ، ولذلك قابله بالمسيح

✽ الأمر الرابع ✽

ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الأمر الثالث
أنهم كانوا منتظرين للنبي الموعود الآخر الذي يكون غير المسيح وإليسا عليهم
السلام ، ولما لم يثبت بالبهران بحجته قبل المسيح فهو بعده ولأنهم يعترفون بنبوة
الحواريين وبولس ، بل بنبوة غيرهم أيضاً . وفي الباب الحادى عشر من كتاب
الأعمال هكذا ٢٧ (وفي تلك الأيام انحدر الأنبياء من أورشليم إلى انطاكية)
٢٨ (وقام واحد منهم اسمه اغابوس وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن
يصير على جميع المسكونة الذى صار فى أيام كلوديوس قيصر) فهؤلاء كلهم كانوا
أنبياء على تصریح انجيلهم . وأخبر واحد منهم اسمه اغابوس من وقوع الجذب
العظيم . وفي الباب الحادى العشرين من الكتاب المذكور هكذا ١٠ (وبينما
نحن مقيمون أياماً كثيرة انحدر من اليهودية فى اسمه اغابوس) ١١ (فجاء إلينا وأخذ
منطقة بولس وربط يدى نفسه ورجليه وقال : هذا يقوله الروح القدس الرجل الذى
له هذه المنطقة ، هكذا سهر بطة اليهود فى أورشليم ويسلمونه إلى أيدي الأمم)
وفي هذه العبارة أيضاً تصریح بكون اغابوس نبياً ، وقد يتمسكون لإثبات هذا
الادعاء بقول المسيح المنقول فى الآية الخامسة عشرة من الباب السابع من
انجيل متى هكذا (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بشباب الحلال
ولسكنهم من داخل ذئاب خاطفة) والفكك به عجيب لأن المسيح عليه السلام
أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصدقة أيضاً ، ولذلك قيد بالكذبة
نعم لو قال : احترزوا من كل نبي مجنى . بعدى ، لكان بحسب الظاهر وجهاً لئلا تمسك
وإن كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الأشخاص المذكورين . وقد ظهر
الأنبياء الكذبة الكثيرون فى الطبقة الأولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل

الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادى عشر من الرسالة الثانية إلى أهل
 قورنثيوس هكذا ١٢ (ولكن ما فعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة
 كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يقتضون به) ١٣ (لأن مثل هؤلاء رسل كذبة
 فعلة ما كرون ، مغترون شكلكم إلى شبه رسل المسيح) فقدسهم ينادى بأعلى
 نداء أن الرسل الكذبة الغدارين ظهوروا في عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .
 وقال آدم كلارك المفسر في شرح هذا المقام : هؤلاء الأشخاص كانوا
 يدعون كذبا أنهم رسل المسيح ، وما كانوا رسل المسيح في نفس الأمر ، وكانوا
 يعطون ويحتمدون ، لكن مقصودهم ما كان إلا جلب المنفعة) وفي الباب الرابع
 من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا (أيها الأحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا
 الأرواح هل هي من الله ؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم)
 فظهر من العبارتين أن الأنبياء الكذبة قد ظهوروا في عهد الحواريين . وفي الباب
 الثامن من كتاب الأعمال هكذا ٩ (وكان قبلا في المدينة رجل اسمه سيمون
 يستعمل السحر ويدعش شعب السامرة قائلا أنه شيء عظيم) ١٠ (وكان الجميع
 يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة) وفي الباب الثالث
 عشر من الكتاب المذكور هكذا (ولما اجتازا الجزيرة إلى باقوس وجدا رجلا
 ساحراً نبياً كذاباً يهودياً اسمه باريشوع) وكذا سيظهر الدجالون الكذابون يدعى
 كل منهم أنه المسيح ، كما أخبر عيسى عليه السلام (وقال : لا يضلكن أحد فان
 كثيرين سيأتون باسمي قائلين : أنا هو المسيح ويضلون كثيرين) كما هو مصرح
 في الباب الرابع والعشرين من إنجيل متى . فقصد المسيح عليه السلام التحذير
 من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ، لامن الأنبياء الصادقين أيضاً ،
 ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يحتمنون
 من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً) ومجد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء الصادقين
 كاندل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة ، ولا اعتبار لمطاعن المنكرين
 كما ستعرف في الفصل الثاني ، ولأن كل شخص يعلم أن اليهود يشكرون عيسى
 ابن مريم عليهما السلام ويكذبونه ، وليس عندهم رجل أشرف منه من ابتداء العالم إلى

زمان خروجه ، وكذا ألوف من الحكماء والعلماء الذين هم من أبناء صنف
 القسيسين وكانوا مسيحيين ثم خرجوا عن هذه الملة لاستقبالهم إياها ينكرونه
 ويستهزؤون به و بملته وألقوا رسائل كثيرة لاثبات آرائهم واشتهرت هذه الرسائل
 في أكناف العالم ويزيد متبعوهم كل يوم في ديار أوروبا ، فكأن إنكار اليهود
 وهؤلاء الحكماء والعلماء في حق عيسى عليه السلام غير مقبول عندنا ، فكأن
 إنكار أهل التثليث في حق محمد صلى الله عليه وسلم غير مقبول عندنا
 ﴿ الأمر الخامس ﴾

الاجابات ^(١) التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لاتصدق
 عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الانكار ، والعلماء
 المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، وينسرونها ويؤولونها
 بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام (ونقل هنا عبارة عن ميزان الحق
 بهذا المعنى ثم قال) كأن تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة ،
 وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الاخبار التي هي
 في حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا وسنرى أن الاخبار
 التي نقلها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقا من الاخبار التي نقلها
 الانجيليون في حق عيسى عليه السلام فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم
 الفاسدة وكأن اليهود ادعوا في حق بعض الاخبار التي هي في حق عيسى عليه
 السلام على زعم المسيحيين أنها في حق مسيحيهم المنتظر ، أو في حق غيره ، أو ليست
 في حق أحد . والمسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يباثون
 بمخالفتهم ، فكأننا نحن الانبياء بمخالفة المسيحيين في حق بعض الاخبار التي
 هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم لو قالوا إنها في حق عيسى عليه السلام .
 وسنرى أيضاً أن صدقها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها في حق
 عيسى عليه السلام فادعوا لنا أحق من ادعائهم

﴿ الأمر السادس ﴾

مؤلفو العهد الجديد باعتماد المسيحيين دور الإلهام . وقد نقلوا الاخبارات في حق عيسى عليه السلام ، فيكون هذا النقل على زعمهم بالإلهام ، فأذكر نبذا منها بطريق الأمودج ليقس الخطاب حال هذه الاخبارات بالاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك في حق محمد ﷺ وإن سلك أحد من القسيسين مسلك الاعتساف وتصدى لتأويل الاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك يجب عليه أن يوجه أولا الاخبارات التي نقلها مؤلفو العهد الجديد في حق عيسى عليه السلام ليظهر المنصف اللبيب حال الاخبارات التي نقلها الجانبان ، ويقابلهما باعتبار القوة والضعف . وإن غمض النظر عن توجيه الاخبارات العيسوية التي نقلها المؤلفون المذكورون وأول الاخبارات المحمدية التي أنقلها في هذا المسلك يكون محمولا على عجزه وتقصيره لأنك قد علمت في الأمر الثاني والخامس أن المعاند له مجال واسع للتأويل في أمثال هذه الاخبارات ، وإنما اكتفيت على نبذ ^(١) مما نقله مؤلفو العهد الجديد لأنه إذا ظهر أن البعض منها غلط يقينا ، والبعض منها محرف ، والبعض منها لا يصدق على عيسى عليه السلام إلا بالادعاء البحت والتحكم الصرف ، ظهر أن حال الاخبارات الأخر التي نقلها المسيحيون الذين ليسوا ذوي إلهام ووحى يكون أسوأ فلا حاجة إلى نقلها .

﴿ الخبر الأول ﴾ ماهو المنقول في الباب الاول من إنجيل متى ؟ وقد عرفت في بيان الغلط الحسين في الفصل الثالث من الباب الأول أنه غلط ^(٢) على أن كون

- ١ - يقال اكتفى بالشئ ولكنه ضمنه معنى اقتصر فعداه بعلی ، والتضمين سماعي عندهم
- ٢ - هذا نص الغلط الحسين الذي أشار اليه : في الباب الاول من انجيل متى (وهذا كله لسكى يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل وهوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا) والمراد بالنبي عند علمائهم اشعيا عليه السلام حيث قال في الآية الرابعة عشرة من الباب السابع من كتابه هكذا (لأجل هذا يعطيك الرب غنمه علامه ها العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانوئيل) وأقول هو غلط نو جو . الاول : أن اللفظ الذي ترجمه الانجيلي ومترجم كتاب اشعيا (العذراء)

مريم عذراء وقت الحبل غير مسلم عند اليهود والمنكرين ، ولا يتم عليهم حجة لأنها قبل ولادة عيسى عليه السلام كانت في تكاح يوسف النجار على تصریح الإنجيل واليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام يقولون : إنه ولد يوسف النجار كما هو مصرح به في الآية ٥٥ من الباب ١٣ من إنجيل متى ، والآية ٤٥ من الباب الاول والآية ٤٢ من الباب السادس من إنجيل يوحنا ، وإلى الآن يقولون هكذا ، بل أشنع منه . والعلامة الاخرى المختصة بعيسى عليه السلام غير مذكورة في هذا الخبر

هو غلة مؤنث علم والماء فيه للتأنيث ومعناه عند علماء اليهود المرأة الشابة سواء كانت عذراء أو غير عذراء ويقولون إن هذا اللفظ وقع في الباب الثلاثين من سفر الأمثال ومعناه هنا المرأة الشابة التي زوجت وفسر هذا اللفظ في كلام اشعيا بالمرأة الشابة في التراجم اليونانية الثلاثة أعنى ترجمة يسكوثلا ، وترجمة تهودوشن . وترجمة سميكس . وهذه التراجم الثلاثة عندهم قديمة يقولون إن الأولى ترجمت سنة ١٣٩ والثانية سنة ١٧٥ والثالثة سنة ٢٠٠ وكانت معتبرة عند القدماء من المسيحيين سيما ترجمة تهودوشن فعلى تفسير علماء اليهود والترجم الثلاثة فساد كلام متى ظاهر الخ

الثاني - ما سمي أحد عيسى عليه السلام بعمانوئيل لأبوه ولأمه بل سمياد يسوع وكان الملك قال لأبيه في الرؤيا وتدعو اسمه يسوع كما هو مصرح في إنجيل متى وكان جبريل قال لأمه : ستحبلين وتلدين ابنا وتدعوه يسوع كما هو مصرح في إنجيل لوقا . ولم يدع عيسى عيسى عليه السلام في حين من الأحيان أن اسمي عمونائيل

الثالث - أن القصة التي وقع فيها هذا القول تأتي أن يكون مصداق هذا القول عيسى عليه السلام لأنها هكذا : أن راصين ملك آرام وفاقاح ملك اسرائيل جاء إلى اورشليم لمحاربة اخاز بن يونان ملك يهوذا فخاف خوفا شديدا من اتفاقهما فأوحى الله إلى اشعيا أن يقول لتسليية اخاز : لا تخف فانهما لا يقدران عليك وستزول سلطنتهما . وبين علامة خراب ملكهما أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنا وتصير أرض هذين الملكين خربة قبل أن يميز هذا الابن الخبز عن الشر . وقد ثبت أن أرض فاقاح قد خربت في مدة إحدى وعشرين سنة من هذا الخبر فلا بد أن يتولد (*) هذا الابن قبل هذه المدة وتحرب قبل تميزه وعيسى عليه السلام تولد بعد سنة ٧٢١ من خرابها . الخ اهـ ص ١٠٧ من انظار الحق فكيف تكون بشارة اشعيا منطبقة على المسيح وقصتها ما سمعت

(*) يستعمل المؤلف تولدو يتولد بمعنى ولد ويولد ، والوجه هنا أن يقال : فلا أن يكون هذا الابن قد ولد قبل هذه المدة .

﴿الخبر الثاني﴾ ما هو المنقول في الآية السادسة من الباب الثاني من أنجيل متى ، وهو اشارة إلى الآية الثانية من الباب الخامس من كتاب ميخا . ولا تطابق عبارة متى عبارة ميخا ، فاحدهما محرفة ^(١) وقد عرفت في الشاهد الثالث والعشرين من المقصد الأول من الباب الثاني أن محققهم اختاروا تحريف عبارة ميخا ، لكن ادعوا أن هذا لأجل المحافظة على الانجيل فقط و (هو) عند المخالف باطل

﴿الخبر الثالث﴾ ما هو المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب المذكور من إنجيل متى ^(٢)

﴿الخبر الرابع﴾ ما هو المنقول في الآية ١٧ و ١٨ من الباب المذكور ؟ (٥٤)

١ - هذا نص عبارة متى (٦ : ٢) وأنت يا بيت لحم يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مخرج مدير يرعى شعبى اسرائيل . وهذا نص نبوة ميخا « ٥ : ٢ » أما أنت يا بيت لحم افراته وأنت صغيرة انى تسكونى بين الوف يهوذا فمك يخرج الذى يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم ، منذ أيام الأزل .

٢ - نص متى هكذا ٢ : ١٥ « وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكى يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابنى » والمراد بالنبي القائل هو يوشع عليه السلام وأشار الانجيلي إلى ١١ : ١ من كتابه وهو « لما كان اسرائيل غلاما احبته ومن مصر دعوت ابنى » هكذا فى ترجمة الاميركان الاخيرة المطبوعة سنة ١٨٧٠ وكان نص الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا كما قال الشيخ رحمة الله : أن اسرائيل منذ كان طفلا أنا أحبته ومن مصر دعوت اولاده . قال الشيخ رحمة الله فى الشاهد ١٥ من شواهد اغلاط هذه الكتب : فهذه الآية فى بيان الاحسان الذى فعله الله فى عهد موسى عليه السلام ببني اسرائيل ، وحرف الانجيلي صينة الجمع « اولاده » بالمفرد « ابنى » وضمير الغائب بالمتكلم فقال « ما قال » وحرف لاتباعه مترجم العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ أيضا لكن لا تخفى خيائته على من طالع هذا الباب لانه وقع فى حق المدعويين بعد هذه الآية كلما دعوا ولوا وجوهم وذبحوا البعالم وقربوا للاصنام . ولا تصدق هذه الأمور على عيسى عليه السلام بل لا تصدق على اليهود الذين كانوا معاصريه ولا على الذين كانوا قبل ميلاده إلى خمسمائة سنة لأن اليهود كانوا تابوا من عبادة الاوثان توبة جيدة قبل ميلاده بخمسمائة وستة وثلاثين سنة بعد ما اطلقوا من اسر بابل ثم لم يحوموا حولها بعد تلك التوبة ، كما هو مصرح فى التوراة اه ص ١٠٨ ج ١ اظهر الحق

٥٤ - فى الباب الثاني من انجيل متى هكذا ١٧ حيث ذم ما قيل بأرميا النبي القائل ١٨ صوت سمع فى الرامة : نوح وبكاء وعويل كثير راحيل تبكى على أولادها ولا تريد « تفسير القرآن الحكيم » « ١٦ » « الجزء التاسع »

﴿الخبر الخامس﴾ ماهو المقول في الآية الثالثة والعشرين من الباب المذكور؟
وهذه الأخبار الثلاثة غلط (٦) كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الأول
﴿الخبر السادس﴾ الآية التاسعة من الباب السابع والعشرين من انجيل
متى (٧) وقد عرفت في الشاهد التاسع والعشرين من المقصد الذي في الباب الذي
أنه غلط، على أن هذا الحال يوجد في الباب الحادي عشر من كتاب زكريا ولا
مناسبة له بالقصة التي نقلها متى لأن زكريا عليه السلام بعدما ذكر اسمي صهيون ورعى
قطيع (فانه) يقول هكذا - ترجمة عربية سنة ١٨٤٤ - (١٢) وقلت لم أن حسن
في أعينكم فهايتوا أجرى والافكفوا . فوزنوا أجرى ثلاثين من الفضة (١٣) (وقل
لي الرب ألقها إلى صنّاع التماثيل فمنا كرمنا نمنوني به ، فأخذت الثلاثين من الفضة

ان تنزى لأنهم ليسوا بموجودين . وهذا أيضا غلط وتحريف من الانجيل لأن
هذا المضمون وقع في الآية الخامسة عشر من الباب الحادي والثلاثين من كتاب
ارميا ، ومن طالع الآيات التي قبلها وبعدها علم أن هذا المضمون ليس في حادثة هيرودس
بل في حادثة يختصّر التي وقعت في عهد ارميا فقتل فيها الوف من بني اسرائيل
واسر الوف منهم واجلوا إلى بابل ولما كان فيهم كثير من آل راحيل أيضا تألم
روحها في عالم البرزخ فوعده الله أنه يرجع اولادها من أرض العدو إلى
تخومهم اه ص ١٠٩ ج ١ منه

٦ - الآية ٢٣ من الباب الثاني من انجيل متى هكذا «وأتى وسكن في مدينة
يقال لها ناصرة لكي يتم ما قيل بالانبياء أنه سيدعى الناصريا » وهذا أيضا غلط
ولا يوجد في كتاب من كتب الانبياء ، وينكر اليهود هذا الخبر أشد الانكار
وعندهم هذا زور وبهتان بل يعتقدون أنه لم يتم نبى من الجليل فضلا عن ناصرة
كما هو مصرح في الآية ٥٣ من الباب السابع من انجيل يوحنا ولعلماء المسيحية
«هنا» اعتذارات ضيقة غير قابلة للالتفات اه ص ١٠٩ و ١١٠ منه

٧ - الآية ٩ من الباب ٢٧ من انجيل متى هكذا : «حينئذ كمل قول النبي
ارميا حيث قال «قمضوا الدراهم الثلاثين ثمنى والتمن الذي ثمنه بنو اسرائيل»
ولفظ ارميا غلط من الاغلاط المشهورة في انجيل متى لأن هذا لا يوجد في كتاب
ارميا ولا يوجد هذا المضمون في كتاب آخر من كتب العهد العتيق أيضا بهذه
الألفاظ ، نعم توجد في الآية ١٣ من الباب ١١ من كتاب زكريا عبارة تناسب
هذه العبارة التي نقلها متى ، لكن بين العبارتين فرق كبير يمنع أن يحكم أن متى
نقل عن هذا الكتاب ومع قطع النظر عن هذا الفرق لاعتلاقة لعبارة كتاب زكريا
عليه السلام بهذه الحادثة التي نقلها متى منها . وفي هذا الموضع اقوال مضطربة
لعلماء المسيحيين سلفا وخلفا الح اه ص ١٨٥ منه

وألقيتها في بيت الرب إلى صنائع الثمائل) فظاهر كلام زكريا انه يبارح حال لا اخبار عن الحادثة الآتية ، وأن يكون أخذ الدرهم من الصالحين مثل زكريا عليه السلام لا من الكافرين مثل يهوذا .

✽ والخبر السابع ✽ ما نقله مقدسهم بولس في الآية السادسة من الباب الأول من الرسالة المبرانية (٨) وقد عرفت حاله في الفصل الثالث أنه غلط لا يصدق على عيسى عليه السلام .

✽ والخبر الثامن ✽ الآية الخامسة والثلاثون من الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال في وأنطق بمكتوبات منذ تأسيس العالم) وهو إشارة إلى الآية الثانية من الزبور الثامن والسبعين ، لكنه ادعاء محض وتحكم بحت ، لأن عبارة هذا الزبور هكذا (٢) أفتح بالأمثال في وأنطق بالذي كان قديما ٣ كل ما سمعناه وعرفناه وآباؤنا أخبرونا ٤ ولم يخفوه عن أولادهم إلى الجيل الآخر إذ يخبرون بتسابيح الرب وقواته ومجائبه التي صنع • إذ أقام الشهادة في يعقوب ووضع الساموس في إسرائيل كل الذي أوصى آباؤنا ليعرفوا به أبناءهم ٦ لكي ما يعلم الجيل الآخر بينهم المولودين ٧ فيقومون أيضا ويخبرون به أبناءهم ٨ لكي يجمعوا اتكالمهم على الله ، ولا ينسوا أعمال الله ويلتمسوا وصاياه ٩ لتلا يكونوا مثل آباؤهم الجيل الأعرج المتمرد الذي لم يستقم قلبه ولا آمنت بالله روحه) .

وهذه الآيات صريحة في أن داود عليه السلام يريد نفسه ، ولذا عبر عن نفسه بصيغة المتكلم ، ويروي الحالات التي سمعها من الآباء ليبلغها إلى الأبناء على حسب عهد الله ، لتبقى الرواية محفوظة . وبين من الآية العاشرة إلى الخامسة والستين حال انعامات الله والمعجزات الموسوية ، وشرارة بني إسرائيل وما لحقهم بسببها ثم قال (٦٦) واستيقظ الرب كالنائم مثل الجبار المفيق من الخمر ٦٧ ف ضرب أعداءه في الوراء وجعلهم عاراً إلى الدهر ٦٨ وأبعد محلة يوسف

(٨) الآية ٦ من الباب الأول من الرسالة المبرانية هكذا : وأيضاً في ادخل البكر إلى العالم يقول وتسجد له كل ملائكة الله . ولم نثر على عبارة المؤلف في تعليلها

ولم يختبر سبط أفرام ٦٩ بل اختار سبط يهوذا لجل صهيون الذي أحب ٧٠ وبني مثل وحيد القرن قدسه وأسس في الأرض إلى الأبد ٧١ واختار داود عبده وأخذه من مراعي الغنم ٧٢ ومن خلف المروضات أخذه ليرعى يعقوب عبده وإسرائيل ميراثه ٧٣ فرعاه بدعة قلبه وبفهم يديه أهداهم .

وهذه الآيات الأخيرة أيضاً دالة صراحة على أن هذا الزبور في حق داود عليه السلام فلا علاقة لهذا بعيسى عليه السلام .

﴿ الخبر التاسع ﴾ في الباب الرابع من انجيل متى هكذا (١٤) لى يتم ما قيل بأشعيا النبي القائل ١٥ أرض زبلون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم ١٦ الشعب الجالس في ظلمة أبصرواً عظيماً . وإلينا السون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور) وهو إشارة إلى الآية الأولى والثانية من الباب التاسع من كتاب أشعيا وعبارته هكذا (١) في الزمان الأول استخفت أرض زبلون وأرض نفتاليم ، وفي الآخر تثقلت طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم ٢ الشعب السالك في الظلمة رأى نوراً عظيماً . الساكنون في بلاد ظلال الموت أشرق عليهم نور) وفرق ما بين العبارتين فأحدهما محرفة ، ومع قطع النظر عن هذا لادلالة لكلام أشعيا على ظهور شخص بل الظاهر أن أشعيا عليه السلام يخبر أن حال سكان أرض زبلون ونفتاليم كان سقيماً في سالف الزمان ثم صار حسناً كما تدل عليه صيغة الماضي . أعني : استخفت ، وثقلت ، ورأى وأشرق ، وإن عدلنا عن الظاهر وحملناها على المجاز بمعنى المستقبل وقلنا إن رؤية النور وإشراقه عليهم عبارة عن مرور الصلحاء بأرضهم ، فادعاء أن مصداق هذا الخبر عيسى عليه السلام فقط تحكم صرف ، لأن كثيراً من الأولياء والصلحاء مر بتلك الأرض ولا سيما أصحاب محمد ﷺ وأولياء أئمة أيضاً الذين زالت ظلمة الكفر والتلث من هذه الديار بسببهم ، وظهر نور التوحيد وتصديق المسيح كما ينبغي . واكتفى خوفاً من التطويل على (؟) هذا القدر . ونقلنا الأخبار الأخر أيضاً في (إزالة الأوهام) وغيره من مؤلفاتي وبينت وجوه ضعفها .

(الامر السابع)

إن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الاسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ؛ وهذا خبط عظيم ومضأ للفساد ، وأنهم يزيدون نارة شيئا بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بالسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة : وأنا أورد أيضا بطريق الأمثلة بعض منها .

١ - في الآية الرابعة عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لذلك دعت اسمك البير بير الحى الناظرنى) فترجموا اسم البئر الذى كان في العبرانى بالعربى .
٢ - وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الثانى والعشرين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (هكذا سمى ابراهيم اسم الموضع مكان يرحم الله زائر) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (دعا ابراهيم اسم ذلك الموضع الرب يرى) فترجم المترجم الأول الاسم العبرانى بمكان يرحم الله زائر ، والمترجم الثانى بالرب يرى (*)

٣ - وفي الآية العشرين من الباب الحادى والثلاثين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وفي سنة ١٨٤٤ هكذا (فكتم بعة وب أمره عن حميه) وفي ترجمة أردو (الترجمة الأوردية) المطبوعة سنة ١٨٢٥ لفظ لابان موضع حميه فوضع مترجمو العربية لفظ الحى موضع الاسم .

٤ - وفي الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فلا يزول القضيب من يهوذا والمدير

(*) وفي ترجمة الاميركانيين الأخيرة رجعوا إلى الأصل العبرانى «يهوه يرأه» يسكون الهاء فيهما وإثبات الهمزة في يرأه . ولكن قالوا في تمة الآية «حتى إنه يقلل اليوم : في جبل الرب يرى » وترجمة الجزويت بالعربية في الموضعين .

من فخذة حتى يحىء الذى له الكل وإياه تنتظر الأمم (فقوله (الذى له الكل) ترجمة لفظ « شيلوه » وهذه الترجمة موافقة للترجمة اليونانية ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضييب من يهوذا والرسم من نحف أمره إلى أن يحىء الذى هو له وإليه يجتمع الشعوب) وهذا المترجم ترجم لفظ شيلوه (بالذى هو له) وهذه الترجمة موافقة للترجمة السريانية . وترجم هذا اللفظ محققهم المشهور ليكلرك بإعاقبته . وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٢٥ وقع لفظ شيلا ، وفي الترجمة اللاتينية ولتكيت (الذى سيرسل) فلمترجون ترجموا لفظ شيلوه بما ظهر وترجح عندهم ، وهذا اللفظ كان بمنزلة الاسم للشخص المبشر به .

٥ - وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الثالث من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فقال الله لموسى : أهيه أشراهيه) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (قال له الأزلئ الذى لايزال) فلفظ أهيه أشراهيه كان بمنزلة اسم الذات ، فترجمه المترجم الثانى بالأزلئ الذى لايزال .

٦ - وفي الآية الحادية عشرة من الباب الثامن من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (تبقى فى النهر فقط) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (تبقى فى النيل فقط)

٧ - وفي الآية الخامسة عشرة من الباب السابع عشر من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فابتنى موسى مذبحا ودعا اسمه الرب عظمى) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (وبني مذبحا وسماه الله على) وترجمة اردو موافقة لهذه الاخيرة فأقول مع قطع النظر عن الاختلاف إن المترجمين ترجموا الاسم العبرانى ^(١)

٨ - وفي الآية الثالثة والعشرين من الباب الثلاثين من سفر الخروج في الترجمتين المذكورتين هكذا (من ميةة فائقة) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (من المسك الخالص) وبين الميةة والمسك فرق فانسروا الاسم العبرانى

(١) الأصل العبرانى «يهوه نسى» وهو الذى اعتمد فى الترجمة الاميركانية الاخيرة ونص ترجمة الجزويت «و بنى موسى مذبحا وسماه الرب رايتى» ورايتى بمعنى على

بما ترجع عندهم^(١)

٩ - وفي الآية الخامسة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (أى
التثنية) في الترجمتين المذكورتين هناك (فأت هناك موسى عبد الرب) وفي الترجمة
العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (فأت هناك موسى رسول الله) فهؤلاء المترجمون
لو بدلوا في البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلنظ آخر فلا استبعاد منهم

﴿ تركنا الشاهدين ١٠ و ١١ للاختصار ﴾

١٢ - وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الحادى عشر من انجيل متى في الترجمة
العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فان أردتم أن تقبلوه فهو ايليا
المزمع أن يأتي) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (فان أردتم ان تقبلوه
فهذا هو المزمع بالاتيان) فالترجم الأخير بدل لفظ ايليا بهذا ، فأشال هؤلاء لو
بدلوا اسما من أسماء النبي ﷺ في البشارة فلا عجب .

١٣ - وفي الآية الأولى من الباب الرابع من انجيل يوحنا في الترجمة العربية المطبوعة
سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لما علم يسوع) وفي الترجمة العربية
المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ (لما علم الرب) فبدل المترجمان الأخيران لفظ
يسوع الذى كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذى هو من الألفاظ التعظيمية ،
فلو بدلوا اسما من أسماء النبي ﷺ بالألفاظ التحقيرية لأجل عاداتهم وعنادهم
فلا عجب^(٢)

وهذه الشواهد تدل على ترجمة الأسماء وإيراد لفظ آخر بدلها

١ - في الباب السابع والعشرين من انجيل متى هكذا (ونحو الساعة التاسعة
صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: ايلى ايلى ، لماذا شبتقتنى ؟ أى إلهى إلهى لماذا تركتنى)
وفي الباب الخامس عشر من انجيل مرقس هكذا (وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع
بصوت عظيم قائلا: الوى الوى لماذا شبتقتنى ، الذى تفسيره إلهى إلهى لماذا تركتنى)

(١) وفي ترجمة الجزويت « من أخرج الأطباء من المرق القاطر » الخ .

(٢) بمثل هذا بينا انه لا غرابة في ورود اسم نبينا ﷺ في انجيل برنابا بلفظ

حمد ، فانه ترجمة لاسم الفارقليط كما سيبحى .

فلفظ : أى الهى الهى لماذا تركتنى ، فى انجيل متى ، وكذا لفظ: الذى تفسيره الهى الهى لماذا تركتنى فى انجيل مرقس ، ليسا من كلام الشخص المصلوب يقيناء بل الحقا بكلامه

٢ — فى الآية السابعة عشرة من الباب الثالث من انجيل مرقس هكذا (لقبها بيوان رجس أى ابنى الرعد) فلفظ «أى ابنى الرعد» ليس من كلام عيسى عليه السلام ، بل هو الحاقى

٣ — فى الآية الحادية والأربعين من الباب الخامس من انجيل مرقس هكذا (وقال لها طليثا قومي ، الذى تفسيره يا صبية لك أقول قومي) فهذا التفسير الحاقى ليس من كلام عيسى عليه السلام

٤ — فى الآية الرابعة والثلاثين من الباب السابع من انجيل مرقس فى الترجمة المطبوعة سنة ١٨١٦ (ونظر إلى السماء وتأوه وقال : افتاعنى افتتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (ونظر إلى السماء وتهمد وقال : افتاعنى هو افتتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (ونظر إلى السماء وتهمد وقال له : افتتح الذى هو افتتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (ورفع نظره نحو السماء وقال له : افتاعنى افتتح) ومن هذه العبارة وان لم يعلم صحة اللفظ العبرانى أهو افتاع أو افتاعا أو افتتح لأجل اختلاف التراجم التى منشأ اختلافها عدم صحة ألفاظ أصولها لكنه يعلم يقيناً أن لفظ أى افتتح أو الذى هو افتتح الحاقى ليس من كلام عيسى عليه السلام وهذه الأقوال المسيحية الأربعة التى نقلتها من الشاهد الأول إلى ههنا تدل على أن المسيح عليه السلام كان يتكلم باللسان العبرانى الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانى ، وهو قريب القياس أيضاً لأنه كان عبرانياً ابن عبرانية نشأ فى قومه العبرانيين فنقل أقواله فى هذه الاناجيل فى اليونانى نقل بالمعنى ، وهذا أمر آخر زائد على كون أقواله مروية برواية الأحاد

٥ — فى الآية الثامنة والثلاثين من الباب الأول من انجيل يوحنا هكذا (فقال له : ربى ، الذى تفسيره يا معلم) فقلوه : الذى تفسيره يا معلم — الحاقى ليس من كلامها

٦ — فى الآية الحادية والأربعين من الباب المذكور فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ (قد وجدنا مسيا الذى تأويله المسيح) وفى الترجمة الفارسية

المطبوعة سنة ١٨١٦ (مامسيح را كه ترجمة آن كرسطوس ميباشمدياقيم) وترجمة اوردو المطبوعة سنة ١٨١٤ توفق الفارسية، فيعلم من المترجمين العربيين ان اللفظ الذي قاله اندراوس هو مسيا وان المسيح ترجمته، ومن الترجمة الفارسية وارديو (أى الترجمة الاوردية) ان لفظ الأصل هو المسيح وكرسطوس ترجمته، ويعلم من ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ ان لفظ الأصل خرسه، وان المسيح ترجمته. فلا يعلم من كلامهم أى لفظ كان الأصل؟ أمسيا أم المسيح أم خرسه؟ وهذه الألفاظ وإن كان معناها واحدا لكن لا شك أن الذى قاله اندراوس هو واحد من هذه الثلاثة يمينًا، وإذا ذكر اللفظ والتفسير فلا بد من ذكر لفظ الأصل أولاً، ثم من ذكر تفسيره، لكننى أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير المشكوك فيه أيا ما كان إلحاقى ليس من كلام اندراوس

٧ — فى الآية الثانية والآربعين من الباب الأول من انجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام فى حق بطرس الحوارى فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أنت تدعى ببطرس الذى تأويله الصخرة) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ستسمى أنت بالصفة المفسر ببطرس) وفى الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ترا بكيغاس كه ترجمة آن سنك است تداخو اهند كرد) أمطر الله حجارة على تحقيقهم وتصحيحهم لا يتميز المفسر من كلامهم عن المفسر، لكننى أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير ليس من كلام المسيح عليه السلام، بل هو إلحاقى، وإذا كان حال تراجمهم وحال تحقيقهم فى لقب إلههم ولقب خليفته كما علمت فكيف نرجو منهم صحة بقاء لفظ محمد أو أحمد أو لقب من ألقابه صلى الله عليه وسلم.

(ثم قال بعد ايراد شواهد أخرى ما نصه):

فاذا كانت خصلة أهل الدين والديانة ما عرفت فما ظنك بغير أهل الديانة؟ بل الحق ان التعريف القصدى بالتبديل بالزيادة والنقصان من خصالهم كلهم أجمعين فبعض الأخبار التى نقلها العلماء الأسلاف من أهل الاسلام: مثل الإمام القرطبى وغيره إذا لم تجدوها موافقة فى بعض الألفاظ للتراجم المشهورة الآن فسيبه غالباً هذا التغيير، لأن هؤلاء العلماء من أهل الاسلام نقلوا عن الترجمة العربية التى كانت رائجة فى عهدهم، وبعد زمانهم وقع الاصلاح فى تلك الترجمة ويحتمل أن

أن يكون ذلك السبب اختلاف التراجم لكن الأول هو المعتمد ، لانا نرى أن هذه العادة جارية إلى الآن فى تراجمهم ورسائلهم ، ألا ترى إلى ميزان الحق الخ

﴿ الأمر الثامن ﴾

إن بولس وإن كان عند أهل التثليث فى رتبة الحوارين لكنه غير مقبول عندنا ولا نعدّه من المؤمنين الصادقين ، بل من المنافقين الكذابين ومعلمى الزور والرسل الخداعين الذين ظهروا بالكثرة بعد عروج المسيح كما عرفت فى الأمر الرابع . وهو خرب الدين المسيحى ، وأباح كل محرم لمعتقديه . وكان فى ابتداء الأمر مؤذيا للطبقة الأولى من المسيحيين جهرا ، لكنه لما رأى هذا الإيذاء الجهرى لا ينفع نفعا معتدّا به دخل على سبيل النفاق فى هذه الملة وادعى رسالة المسيح وأظهر الزهد الظاهرى ، ففعل فى هذا الحجاب ما فعل ، وقبله أهل التثليث لأجل زهده الظاهرى ولأجل افراغ ذمتهم من جميع التكاليف الشرعية ، كما قبل أناس كثيرون من المسيحيين فى القرن الثانى منتش الذى كان زاهدا مرتاضا وادعى أنه هو الفار قليط الموعود به فقبلوه لأجل زهده ورياضته كما سيجى ذكره فى البشارة الثامنة عشرة وردّه المحققون من علماء الإسلام سلفا وخلفا .

قال الإمام القرطبى رحمه الله فى كتابه فى حق بولس هذا مجيبا لبعض القسيسين فى بحث مسألة الصوم هكذا : « قلنا ذلك — أى بولس — هو الذى أفسد عليكم أديانكم ، وأعمى بصائركم وأذهانكم ، ذلك هو الذى غير دين المسيح الصحيح ، الذى لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر ، هو الذى صرفكم عن القبلة ، وحلل لكم كل محرم كان فى الملة ، ولذلك كثرت أحكامكم عندهم وتداولتموها بينكم » انتهى كلامه بلفظه .

وقال صاحب (تنجيل من حرف الإنجيل) فى الباب التاسع من كتابه فى بيان فضائح النصارى فى حق بولس هذا هكذا « وقد سلمهم بولس هذا من الدين بلطيف خداعه ، إذ رأى عقولهم قابلة لكل مايلقى إليها وقد طمس هذا الخبيث رسوم النوراة » انتهى كلامه بلفظه ، وهكذا أقوال علمائنا الآخرين . فكلامه عندنا مردود ورسائله المنضمة بالمعهد العتيق كلها واجبه الرد ولا نشترى

قوله بحجة خردل فلا انقل عن أقواله في هذا المسالك شيئا ولا يكون قوله حجة علينا وإذ قد عرفت هذه الأمور الثمانية أقول ان الأخبار الواقعة في حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضا مع وقوع التعريفات في هذه الكتب ومن عرف أولا طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ما عرفت في الأمر الثاني ثم نظر ثانيا بنظر الانصاف إلى هذه الأخبار وقابلها بالأخبار التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام — وقد عرفت نبدا منها في الأمر السادس — جزم بأن الأخبار المحمدية في غاية القوة . وأنقل في هذا المسالك عن الكتب المعتمدة عند علماء بروتستنت ثمان عشرة بشارة

(البشارة الأولى)

في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (١٧) فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم واجعل كلامي في فمهم ويكلمهم بكل شيء أمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فانا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ فأما النبي الذي يجترى بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم أمره بأنه يقول أم باسم آلهة غیری فليقتل ٢١ فان اجبت وقلت في قلبك كيف استطيع أن اميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون لك آية ان ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث فارب لم يكن تكلم به بل ذلك النبي صوره في معظم نفسه ولذلك لا تخشاه

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع عليه السلام كما يزعم الآن احبار اليهود ولا بشارة بعيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هي بشارة بمحمد ﷺ لعشرة أوجه .

(الوجه الأول) قد عرفت في الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به في هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام (والوجه الثاني) أنه وقع في هذه البشارة لفظ «ثلك» ويوشع وعيسى عليهما

السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام ، أما أولافلانها من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (التثنية) وهى هكذا (١٠) ولم يقم بعد ذلك نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجهه الوجه الخ وأما ثانيا فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهي ويوشع ليس كذلك بل هو متبع لشريعته ، وكذا لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام لأن عيسى عليه السلام كان إلهاً ورباً على زعم النصارى وموسى عليه السلام كان عبداً لله وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعوناً لشفاعة الخلق كما صرح به بولس فى الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية وموسى عليه السلام ماضى ملعوناً لشفاعتهم وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به فى عقائد أهل التثليث وموسى عليه السلام ما دخل الجحيم وإن عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارة لأثمه وموسى عليه السلام ماضى كفارة لأثمه بالصلب وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والعزيرات وأحكام الفسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فأنها طارعة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم وإن موسى عليه السلام كان رئيساً مطاعاً فى قومه نفاذاً لأوامره ونواهي وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك (الوجه الثالث) أنه وقع فى هذه البشارة « لفظ من بين اخوتهم » ولا شك أن الاسباط الاثني عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبي المبشر به « منهم » لقال منهم لا « من بين اخوتهم » لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى إسرائيل كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله لهاجر فى حق اسمعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ هكذا (وقبله جميع اخوته ينصب المضارب) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هـ هكذا

(بمحاضرة جميع اخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال ايضا فى الآية الثامنة عشرة من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق اسمعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (منتهى اخوته جميعهم سكن) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (اقام بمحاضرة جميع اخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو واسحق وغيرهم من ابناء ابراهيم عليه السلام. وفى الآية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هكذا (ثم أرسل موسى رسلا من قادم الى ملك الروم قائلاً: هكذا يقول أخوك اسرائيل انك قد علمت كل البلاء الذى أصابنا) وفى الباب الثانى من سفر (التثنية) هكذا (٣ وقال لى الرب ٤ ثم أوص الشعب انكم ستجوزون فى نخوم اخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم) فلما جزنا اخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بنى اسرائيل بنو عيسو، ولاشك ان استعمال لفظ اخوة بنى اسرائيل فى بعض منهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى ولا تترك الحقيقة ولا يصار الى المجاز ما يمنع من الحل على المعنى الحقيقى مانع قوى، ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما

(الوجه الرابع) أنه قد وقع فى هذه البشارة لفظ «سوف أقيم» ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخلاً فى بنى اسرائيل نبياً فى ذلك الوقت، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ

(الوجه الخامس) أنه وقع فى هذه البشارة لفظ: اجعل كلامى فى فم، وهو اشارة الى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب، والى أنه يكون أمياً حافظاً للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لا تنفاء كلا الامرين فيه

(الوجه السادس) أنه وقع فى هذه البشارة: ومن لم يطعم كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه. فهذا الامر لما ذكر لتعظيم هذا النبى المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الامر عن غيره من الانبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الاخرى الكائن فى جهنم أو الحن والعقوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب، لان هذا الانتقام لا يختص بانكار

نبي دون نبي ، بل يعم الجميع ، فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي . فظاهر منه أن هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره فلا يصدق على عيسى عليه السلام ، لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد (الوجه السابع) في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا (١٩) فتوبوا وارجعوا كي تمحي خطاياكم ٢٠ حتى إذا تأتي أزمته الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادي به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله الى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه الفديسين منذ الدهر ٢٢ إن موسى قال : إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من إخوانكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به ٢٣ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) وفي الترجمة الفارسية

✽ حذفنا النص الفارسي استغناء عنه بما يذكره من مضمونه وهو قوله : ✽

فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وأن المسيح لا بد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين — وتأمل في عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفي لإبطال ادعاء علماء بروتستانت أن هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام

وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم
أكل صدق ، لأنه غير المسيح عليه السلام ، ويمثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة (١) كونه عبد الله ورسوله (٢) كونه ذا الدين (٣) كونه ذا نكاح وأولاد (٤) كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية (٥) كونه مأموراً بالجهاد (٦) اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته (٧) وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته (٨) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها (٩) حرمة غير المذبح وقرايين الأوثان فيها (١٠) كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية (١١) أمره بمجد الزنا (١٢) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص (١٣) كونه قادراً على تنفيذها (١٤) تحريم الربا (١٥) أمره بإنكار من

يدعو إلى غير الله (١٦) أمره بالتوحيد الخالص (١٧) أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله: لا إله إلا الله ، والعباد بالله (١٨) موته على الفراش (١٩) كونه مدفوناً كموسى (٢٠) عدم كونه ملعوناً لأجل أمته .

وهكذا أمور آخر تظهر إذا تؤمل في شريعتهما ، ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد (١٥: ٧٣) إنا أرسلنا إليكم رسولاً هدياً عنكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً (وكان من أخوة بني إسرائيل لانه من بنى اسماعيل وأنزل عليه الكتاب ، وكان أمياً جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحى كما قال الله تعالى) وما ينطق عن الهوى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى (وكان مأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والاكامرة والقيصرة وغيرهم ، وظهر قبل نزول المسيح من السماء ، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام إلى ظهوره ليرد كل شيء إلى أصله ، ويمحق الشرك والتثليث وعبادة الاوثان ، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث في هذا الزمان الأخير ، لان هذا الصادق المصدوق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه بحيث لا يبقى ريب ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدي رضى الله عنه ، وهذا الوقت قريب إن شاء الله ، وسيظهر الإمام ويعظم الحق عن قريب ويكون الدين كله لله ، جعلنا الله من أنصاره وخدامه آمين .

(الوجه الثامن) أنه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله مالم يأمره يقتل فلو لم يكن محمد ﷺ نبياً حقاً لكان قتل ، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً (٦٩: ٤٤، ٥٥) ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين (وما قتل ، بل قال الله في حقه (٦٧: ٥) والله يعصمك من الناس) وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى لقي الرفيق الأعلى ﷺ ، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب . فلو كانت هذه البشارة في حقه لزم أن يكون نبياً كاذباً كما يزعمه اليهود ، والعباد بالله .

(الوجه التاسع) ان الله بين علامة النبي الكاذب (وهي) ان اخباره عن الغيب المستقبل لا تخرج صادقة ، ومحمد ﷺ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلية كما علمت

في المسلك الأول وظهر صدقه فيها ^(١) فيكون نبيا صادقا لا كاذبا .

(الوجه العاشر) ان علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به في التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقى في الكفر - كما أن قيافا وكان رئيس الكهنة ونبيا على زعم يوحنا عرف أن عيسى هو المسيح الموعود به ولم يؤمن بل أفتى بكفره وقتله كما صرح به يوحنا في الباب الحادي عشر والثامن عشر من انجيله - كما روى من حديث مخبريق أنه كان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وغلبت عليه إلفة دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم (غزوة) أحد ، وكان يوم السبت فقال : يا معشر اليهود والله انكم تعملون ان نصر محمد عليكم لحق . قالوا : فان اليوم يوم السبت ؟ قال : لا سبت . ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبي ﷺ بأحد ، وكان يوم السبت ، وهدى إلى من ورائه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فإلى محمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى ، فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله ﷺ يقول « مخبريق خير يهود » وقبض النبي ﷺ أمواله ، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس ^(٢) فقال : أخرجوا إلى أئمتكم ، فقالوا : عبد الله بن صوريا فخلا به رسول الله ﷺ فنأشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسوى وظللهم من الغمام : أتعلم أنى رسول الله ؟ قال : اللهم نعم ، وان اليهود يعرفون ما أعرف ، وان صفيتك ونعمتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك قال « فما بمنعك أنت » ؟ قال : أكره خلاف قومي ، عسى أن

(١) ظهر صدق بعضها في زمنه كانه تصارعه على المشركين ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين ، آمنين محققين رءوسهم ومقصرين ، وغلب الروم للفرس ، وبعضها لأصحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقبضه ، وقتل الفتنة الباغية لعمار ، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر ومن أغربها قوله ﷺ « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » الحديث رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا . والسيات المذكورة هي الكرايبج ، والرؤوس التي كأسنمة البخت هي التي يوضع عليها البرانيط وأشباهاها . (٢) المدراس المدرس أي المعلم .

يتبعوك ويسلموا فأسلم - وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمر أبو ياسر بن أخطب مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين عيشان الهوبنا ، فهششت إليهما فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم فسمعت عمر أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ (أي المبشر به في التوراة) قال : نعم والله ، قال : أتنبته وتعرفه ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً - فقلت عشرة كلمة

(فان قيل) إن إخوة بني إسرائيل لا تنحصر في بني إسماعيل لأن بني عيسو وبني أبناء قطورا زوجة إبراهيم عليهما السلام من اخوتهم أيضا (قلت) نعم هؤلاء أيضا من إخوة بني إسرائيل لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالأمور المذكورة ، ولم يكن وعد الله في حقهم أيضا بخلاف بني إسماعيل فانهم كان وعد الله في حقهم لإبراهيم ولهاجر عليهما السلام مع أنه لا يصح أن يكون مصداق هذا الخبر بني عيسو على ما هو مقتضى دعاء اسحق عليه السلام المصريح به في الباب السابع والعشرين من سفر التكوين . ولعلماء يروى تسنت اعتراضان نقلهما صاحب الميزان في كتابه المسمى بحل الاشكال في جواب الاستفسار (الاول) أنه وقع في الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء (الثانية) هكذا (فان الرب إلهك يقيم من بينك من بين اخوتك) الخ ، فلفظ « من بينك » يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبي يكون من بني إسرائيل لامن بني إسماعيل (والثاني) أن عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة إلى نفسه فقال في الآية ٤٦ من الباب الخامس من انجيل يوحنا (أن موسى كتب في حقى)

(أقول) آية التثنية على وفق التراجم الفارسية وتراجم اردو هكذا (فان الرب إلهك يقيم من بينك من بين اخوتك نبياً مثلى فاصم منه) والقيس أيضا نقلها هكذا . والجواب أن اللفظ المذكور لا ينافي مقصودنا لأن محمداً عليه السلام هاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره قد كان حوله بلاد اليهود كخير وبني قينقاع والضير وغيرهم فقد قام من بينهم ، ولأنه إذا كان من إخوتهم فقد قام من بينهم ، ولأن قوله (تفسير القرآن الحكيم) (١٧) (الجزء التاسع)

من بين اخوتك بدل من قوله « من بنيك » يدل على اشتغال على رأى ابن الحاجب ومتبعيه القائلين بكفاية علاقة الملابس غير السكينة والجزئية في تحقق هذا البدل نحو جاء في زيد أخوه ، وجاء في زيد غلامه ، و بدل اضراب على رأى ابن مالك ، والمبدل منه على كلاً التقديرين غير مقصود ، و يدل على كونه غير مقصود أن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله في الآية الثامنة عشرة لم يوجد فيه لفظ من بينك ، ونقل بطرس الحواري أيضاً هذا القول ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت في الوجه السابع ، وكذا نقله استفانوس أيضاً ولم يوجد في نقله أيضاً هذا اللفظ كما صرح به في الباب السابع من كتاب الأعمال وعبارته هكذا (هذا هو موسى الذي قال لى اسرائيل نبياً مثلى سيقم لكم الرب إلهكم من اخوتكم له اسمعون) فسقطه في هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود فاحتمال البدل قوى جداً .

وقال صاحب الاستفسار : إن لفظ من بنيك إلحاق زيد بتحريراً يدل عليه ثلاثة أمور (الأول) أن المخاطبين في هذا الموضوع كانوا بنى اسرائيل كلهم لا البعض بقوله : من بنيك خطاب لجميع القوم فصار لفظ من اخوتك لغواً محضاً لا معنى له ، لكن لفظ من اخوتك جاء في الموضع الآخر أيضاً فيكون صحيحاً ، ولفظ من بنيك إلحاقاً زيد بتحريراً (الثانى) أن موسى عليه السلام لما نقل كلام الله لاثبات قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ ولا يجوز أن يكون ما قال موسى مخالفاً لما قاله الله (والثالث) أن الحواريين كلما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك ، وإن قلتم ان الحرف إذا حرف فلم يحرف الكلام كله ؟ (قلت) نحن نرى في محاكم العدالة دائماً ان القبالجات المحرفة يشهد تحريف الألفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالباً ^(١) وان شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم . فالوجه الوجه على ان عادة الله جارية بأنه لا يهدى كيد الخائنين وبأنه يظهر خيائنة خائن الدين بمقتضى رحمته ، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شيء ما تظهر به خيائته ، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين . فالخائنون الذين حرفوا كتب العهدين كان لهم لحاظ ما ^(٢) من جانب بعض المتدينين فلذلك ما بدلوا الكل انتهى

(١) لعل معنى القبالجات الوثائق والمستندات ومعنى الجملة أنها على وجود التحريف فيها يحتاج ببعض عباراتها على إثبات التحريف فيها « وكذا على غيره »
(٢) لعله أراد أن يقول : كان عليهم عيون وورقاء

أقول : هذا الجواب بالنسبة إلى عادة أهل الكتاب كما عرفت في الأمر السابع وأقول في الجواب عن الاعتراض الثاني إن آية الانجيل هكذا (لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني) وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كتب في حقه في الموضع الغلاني بل المفهوم منه أن موسى كتب في حقه (مطلقا) وهذا يصدق إذا وجد في موضع من التوراة إشارة إليه ، ونحن نسلم هذا الأمر كما ستعرف في ذيل بيان البشارة الثالثة ، لكننا نشكر أن يكون قوله إشارة إلى هذه البشارة للوجه التي عرقها ، وقد ادعى هذا المعارض في الفصل الثالث من الباب الثاني من الميزان أن الآية الخامسة عشرة من الباب الثالث من سفر التكوين إشارة إليه ، فهذا القدر يكفي لتصحيح قول عيسى عليه السلام ، نعم لو قال عيسى عليه السلام إن موسى عليه السلام ما أشار في أسفاره الخمسة إلى نبي من الأنبياء الا إلى لسان لهذا التوم مجال في هذه الحال .

﴿ البشارة الثانية ﴾

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء (الثنية) هكذا (هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم) والمراد بشعب جاهل العرب لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من هاجر الجارية : فقصود الآية أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون . فأوفي بما وعد ، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهدهم إلى الصراط المستقيم ، كما قال الله تعالى في سورة الجمعة (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل في ضلال مبين) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون ، وكان منهم جميع

الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقراط وفيثاغورس وافلاطون وارسطاطاليس وارثميدس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الألهيات والرياضيات والطبيعات وفروعها قبل عيسى عليه السلام، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم، وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها، وعلى سائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللغة اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة، لكنهم ما كانوا معتقدين للغة الموسوية، وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة كما قال مقدسهم هذا في الباب الأول من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثيوس هكذا (٢٢) لأن اليهود يسألون آية واليونانيون يطلبون حكمة ٢٣ ولستكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبا لليهود وعثرة لليونانيين جهالة فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، فكلام مقدسهم في الرسالة الرومية إمام مؤول أو مردود — وقد عرفت في الأمر الثامن أن قوله ساقط عن الاعتبار عندنا .

﴿البشارة الثالثة﴾

في الباب الثالث والثلاثين ^(١) من سفر التثنية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (٢) وقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير ^(٣) واستعان من جبل فاران ومعه ألوف الاطهار في يمينه ستة من نار ^(٤) فجيئته من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام وإشرافه من ساعير اعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام واستعملته من جبل فاران إنزاله القرآن، لأن فاران جبل من جبال مكة، فقد جاء في بيان حال اسماعيل عليه السلام من سفر التكوين (٢١ : ٢٠) وكان الله معه ونعا وسكن في البرية وصار شابا يرمى بالسهم ٢١ وسكن بريبة فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر (ولا شك أن اسماعيل عليه السلام

(١) هذا الباب هو الأخير من سفر التثنية . وفي الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا كها بنو اسرائيل (٢) في التراجم الأخيرة سمير بالكسر والمراد بها واحد وفيها زيادة وأتى من «٣» المراد بالسنة الشريعة . وترجمة الجزويت «عن يمينه قبس شريعة لهم» ربوات القدس وليس فيها ألوف الاطهار .

كانت سكناء بمكة ، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا ، فانتشرت في هذه المواضع ، لأن الله لو خلق نارا في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحى نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك ، وقد اعترفوا بأن الوحي اتبع تلك (النار التي رآها موسى) في طور سيناء . فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران .

﴿ البشارة الرابعة ﴾

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق اسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا (وعلى اسماعيل استجيب لك ، هوذا أباركه وأكبره جدا فسيد اثني عشر رئيسا واجعله لشعب كبير) قوله «أجعله لشعب كبير» يشير إلى محمد ﷺ لأنه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره وقد قال الله تعالى حاكيا دعاء إبراهيم واسماعيل في حقهم عليهم السلام في كلامه المجيد أيضا (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .

وقال الامام القرطبي في الفصل الأول من القسم الثاني من كتابه : وقد تظن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة في موضعين اسم محمد ﷺ بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم (الأول) قوله جدا جدا بذلك اللغة «بامداد» وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون لأن الباء اثنان والميم أربعون والألف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والألف واحد والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة (١)

(والثاني) قوله «لشعب كبير» بذلك اللغة «لقوي غدول» فاللام عندهم ثلاثون والقين ثلاثة - لأنه عندهم في مقام الجسيم ، إذ ليس في لغتهم جيم ولا صاب والواو

(١) يؤيد هذا ما روى عن احياء اليهود والحجاريين المدينة في زمن البعثة من ظنهم أن الحروف المقطعة في أوائل بعض السور لبيان أجل الأمة الإسلامية .

سنة والباء عشرة والغين أيضا ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون فمجموع هذه أيضا اثنان وتسعون ، انتهى كلامه بملخص ما .

وعبد السلام كان من أحبار اليهود ثم أسلم في عهد السلطان المرحوم بايزيد خان ، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها « إن أكثر أدلة أحبار اليهود بحرف الجمل الكبير ، وهو حرف أيجد ، فإن أحبار اليهود حين بنى سليمان النبي عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا : يبقى هذا البناء أربعمائة وعشرة سنين ، ثم يعرض له الخراب ، لأنهم حسبوا لفظة « برأت » ثم قال : واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء في عماد ما ليست نفس الكلمة بل هي أداة وحرف جي . بدلالة ، فلما أخرج منه لاحتاج اسم محمد إلى باء ثانية ويقال : بما عماد (قلنا) من المشهور عندهم إذا اجتمع الباءان (إحداهما) أداة (والآخر) من نفس الكلمة تحذف الأداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم في مواضع غير معدودة فلا حاجة إلى إيرادها » انتهى كلامه بلفظه .

أقول : وقد صرح العلماء بأن من أسمائه عليه السلام مادام كما في شفاء القاضي عياض

(البشارة الخامسة)

جاء في ترجحات سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ العربية من سفر التكوين (٤٩ : ١٠) فلا يزول القضيبي من يهوذا والمدير من فخذته حتى يجيء الذي له الكل وإياه تنتظر الأمم) وفي ترجمة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيبي من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هوله إليه تجتمع الشعوب) ولفظ الذي له الكل أو الذي هوله ترجمة لفظ « شيلوه » وفي ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت في الأمر السابع أيضا . وقال عبد السلام في الرسالة الهادية هكذا (لا يزول الحاكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجيء الذي له واليه تجتمع الشعوب) وفي هذه الآية دلالة على مجيء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد تمام حكم موسى وعيسى ، لأن المراد من الحاكم هو موسى ، لأنه بعد ية توب ماجاء صاحب شريعة إلى زمان عيسى ماجاء صاحب شريعة إلا موسى ، والمراد من الراسم هو عيسى لأنه بعد موسى إلى زمان عيسى ماجاء صاحب شريعة إلا عيسى ، وبعدهما ماجاء صاحب شريعة

الإمام . فلم أن المراد من قول يعقوب في آخر الأيام ، هو نبينا محمد ﷺ لأنه في آخر الزمان بعد مضي حكم الحاكم والرأس ما جاء إلا سيدنا محمد ﷺ ويدل عليه أيضا قوله : حتى يحجب الذي له أي الحكم بدلالة مساق الآية وسياقها وأما قوله (واليه تجتمع الشعوب) فهي علامة صريحة ودلالة واضحة على أن المراد منها هو سيدنا محمد ﷺ لأنه ما تجتمع الشعوب إلا إليه ، وإنما لم يذكر الزبور لأنه لأحكام فيه ، وداد النبي تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب الأحكام انتهى كلامه بلفظه أقول : إنما أراد من الحاكم موسى عليه السلام لأن شريعته جبرية انتقامية ، ومن الرأس عيسى عليه السلام لأن شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية . وإن أريد من القضيبة السلطنة الدنيوية ، ومن المدير الحاكم الدنيوى — كما يفهم من رسائل القسيسين من فرقة بروتستنت ومن بعض تراجمهم — فلا يصح أن يراد بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعمهم ، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعم النصارى (أما الأول) فظاهر لأن السلطنة الدنيوية والحاكم الدنيوى زالا من آل يهوذا من عدة هي أزيد من ألفي سنة من عهد بخت نصر ، ولم يسمع إلى الآن حسيس مسيح اليهود (وأما الثانى) فلأنهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ستمائة سنة من عهد بخت نصر ، وهو أجلي بنى يهوذا إلى بابل ، وكانوا في الجلاء ثلاثا وستين سنة لاسبعين كما يقول بعض علماء بروتستنت تغلطا للعوام — كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الأول — ثم وقع عليهم في عهد انتيوكس ما وقع فانه عزل أنياس حبر اليهود وباع منصبه لأخيه ياسون بثلاثمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة ، ثم عزله وباع ذلك لأخيه مينالاوس بثلاثمائة وستين وزنة ، ثم شاخ خبر موته فطلب ياسون أن يسترد لنفسه الكهنوت ، ودخل أورشليم بألوف من الجنود قتل كل من كان يظنه عدوا له — وهذا الخبر كان كاذبا — فهجم أنتيوكس على أورشليم وأمتلكها ثانية في سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا ، وباع مثل ذلك عبيدا . وفي الفصل العشرين من الجزء الثانى من مرشد الطالبين في بيان الجرسول التاريخي في الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد

(انه نهب اورشليم وقتل ثمانين ألفاً) اهـ . وسلب ماكان في الهيكل من الأمتعة النفيسة التي كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب ، وقرب خنزيرة وقودا على المذبح للاهانة ثم رجع إلى إنطاكية وأقام فيلبس أحد الأراذل حاكما على اليهودية — وفي رحلته الرابعة إلى مصر أرسل أبولو يفس بعشرين ألفاً من جنوده وأمرهم أن يخرّبوا اورشليم ويقتلوا كل من فيها من الرجال ويسبوا النساء والصبيان فانطلقوا إلى هناك ، وبينا كان الناس في المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة ، قتلوا الكل إلا من أفلت إلى الجبال أو اختفى في المغاور ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها . وهدموا أسوارها وخرّبوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك الهدم قلعة حصينة على جبل اكرا ، وكانت العساكر تشرف منها على جميع نواحي الهيكل ، ومن دنا منهم يقتلونه ، ثم أرسل أنتيوكس أنانيوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الاصنام اليونانية . ويقتل كل من لا يمثل ذلك الأمر ، فجاء أنانيوس إلى اورشليم ، وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين ، وأبطل الذبيحة اليومية ، ونسخ كل طاعة للدين اليهودي عموماً وخصوصاً ، وأحرق كل ماوجده من نسخ كتب العهد العتيق بالفحص التام وكرس الهيكل للمشتري ، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود ، وأهلك كل من وجده مخالفاً أمر أنتيوكس ، ونجا متائباس الكاهن مع أبنائه الخمسة في هذه الداهية وفروا إلى وطنهم مودين في سبط دان ، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاماً ماقدروا عليه على استطاعته كما هو مصرح به في التواريخ ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟

وان قالوا ان المراد ببقاء السلطنة والحكومة امتياز القوم كما يقول بعضهم الآن (قلنا) هذا الأمر كان باقياً إلى ظهور محمد ﷺ ، وكانوا في أقطار العرب ذوي حصون وأمالك غير مطمّعين لأحد : مثل يهود خيبر وغيرهم كما تشهد به التواريخ وبعد ظهور محمد ﷺ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا في كل إقليم مطمّعين لقبير — فالإيق أن يكون المراد بشيلوه النبي ﷺ لا مسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام

﴿ البشارة السادسة ﴾

الزبور الخامس والأربعون هكذا (١) — فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول
أعالي للملك ٢ لسأني قلم كاتب سريع الكتابة ٣ بهي في الحسن أفضل من بني
البشر ٤ انسكبت النعمة على شفيعك لذلك باركك الله إلى الدهر ٥ تلد سيفك
على فخذك أيها القوى بحسنك وجمالك ٥ استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة
والصدق وتهديك بالعجب يمينك ٦ نبلك مسنونة أيها القوى في قلب أعداء
الملك ، الشعوب تحمك يسقطون ٧ كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين ، عصا
الاستقامة عصا ملكك ٨ أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك
بدهن الفرح أفضل من أصحابك ٩ المر والميعة والسليخة من ثيابك ، من منازلك
الشريفة العاج التي أبهجتك ١٠ بنات الملوك في كرامتك ، قامت الملكة من عن
يمينك مشتملة بثوب مذهب موثى ١١ اسمي يا بنت وانظري وأنصتي بأذنك
وانسى شعبك وبنت أبيك ١٢ فيشتهي الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك
وله تسجدين ١٣ بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصل كل أغنياء الشعب ١٤
كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموثى ١٥ يبلغن إلى الملك
عذارى في أثرها قريباتها إليك يقدمن ١٦ يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى
هيكل الملك ١٧ ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر
الأرض ١٨ سأذكر اسمك في كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب
إلى الدهر وإلى دهر الداهرين)

من المسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر في هذا الزبور
بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبي يكون
موصوفاً بالصفات المذكورة في هذا الزبور ، ويدعى علماء يروتستنت أن هذا النبي
عيسى عليه السلام ، ويدعى أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي محمد
صلى الله عليه وسلم .

فأقول : انه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات :

١ — كونه حسناً ٢ كونه أفضل البشر ٣ كون النعمة مذكوبة على شفثيه ٤ كونه مباركا إلى (آخر) الدهر ٥ كونه متقلداً بالسيف ٦ كونه قويا ٧ كونه ذا حق ودعة وصدق ٨ كون هداية يمينه بالعجب ٩ كون نبهة مسنونة ١٠ سقوط الشعب تحته ١١ كونه محباً للبر ومبغضاً للآثم ١٢ خدمة بنات الملوك إياه ١٣ إتيان الهدايا إليه ١٤ انقياد كل أغنياء الشعب له ١٥ كون أبشائه رؤساء الأرض بدل آبائهم ١٦ كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل ١٧ مدح الشعوب إياه إلى دهر الدهارين وهذه الأوصاف كلها توجد في محمد صلى الله عليه وسلم على أكل وجهه

أما الأول فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال « مارأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كأن الشمس تجري في وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ في الجدار » وعن أم معبد رضى الله عنها قالت : في بعض ما وصفته به « أجمل الناس من بعيد ، وأحلام وأحسنهم من قريب »

وأما الثاني فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية . وقال أهل التفسير : أراد بقوله (ورفع بعضهم درجات) محمداً صلى الله عليه وسلم أى رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة ، وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازى في تفسيره الكبير ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا خسر » أى لا أقول ذلك لخراً لنفسى بل تحديداً بنعمة ربي .

وأما الثالث فغير محتاج إلى البيان حتى أقف بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة في وصف كلامه : انه كان أصدق الناس لهجة ، فيكان من الفصاحة بالحل الأفضل والموضع الأكمل .

وأما الرابع : فلأن الله قال (إن الله وملائكته يصلون على النبي) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس (وغيرها)

وأما الخامس : فظاهر ، وقد قال هو بنفسه « أنا رسول الله بالسيف »
وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على الكمال كما ثبت ان ركاة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة قبل أن يسلم فقال « يا ركاة

ألا تنتهي الله وتقبل ما أدعوك اليه ؟ فقال : لو أعلم والله ما تقول حقًا لا تبعثك فقال : أرايت إن صرعتك أعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم ، فلما بطش به صلى الله عليه تعالى عليه وآله وسلم أضجعه لا يملك من أمره شيئًا ، ثم قال : يا محمد فصرعه أيضًا فقال : يا محمد إن ذا لعجب ! فقال ﷺ « وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله وتبعت أمرى ، قال : ما هو ؟ قال : أدعوك هذه الشجرة » فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال لها : ارجعي مكانك . فرجع مكانة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ما رأيت أسحر منه ثم أخبرهم بما رأى « وركانة هذا كان من الأقوياء والمصارعين المشهورين ^(١) وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : ما رأيت أشجع ولا أنجده ولا أجود من رسول الله ﷺ . وقال علي رضي الله عنه « وأنا كنا إذا حى الناس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا »

وأما السابع : فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجميلة له ﷺ كما قال النضر بن الحارث القرشي « قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم إنه ساحر ، لا والله ما هو بساحر » وسأل هرقل عن حال النبي ﷺ أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمون بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا « وأما الثامن : فلأنه رعى يوم بدر ، وكنا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ، قال ابن حبان في اسناد خبره وفي المصارعة نظر : يشير إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من رواية أبي الحسن العسكري عن جعفر بن محمد بن ركانة عن أبيه . . . الحديث قال الترمذي : غريب وليس اسناده بقاتم اه أقول : ورواه البيهقي من طريق ابن اسحق عن أبيه وعن ركانة وأخرجه هو وأبو نعيم عن أبي امامة مطولاً وفيه زيادة بحىء الشجرة ، وإن ركانة لم يكن يصصره أحد

تراب فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه ، فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلاً وأصراً .
فأمثال هذه من عجيب هداية بعينه

وأما التاسع : فلأن كون أولاد اسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان ، غير محتاج إلى البيان ، وكان هذا الأمر مرغوباً له ، وكان يقول « ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يملوه بأسهمه » . ويقول « ارموا بني اسماعيل فان أباًكم كان رامياً » . ويقول عليه السلام « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » .
وأما العاشر : فلأن الناس دخلوا أفواجا أفواجا في دين الله في مدة حياته .
وأما الحادي عشر : فمشهور يعرف به المعاندون أيضاً كما عرفت في المسلك الثاني .
وأما الثاني عشر : فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين في الطبقة الأولى ، ومنها شهریار بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضي الله عنه .

وأما الثالث عشر والرابع عشر : فلأن النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بديعة .
والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوار وغلاماً أسود وبغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثياباً وغيرها .

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضي الله عنه إلى الخلافة وألوف في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ، وفازوا بالسلطنة والامارة العالية ، وإلى الآن أيضاً في ديار الحجاز واليمن وفي غيرها توجد الأمراء والحكام من نسله صلى الله عليه وسلم ، وسيظهر إن شاء الله المهدي رضي الله عنه من نسله ، ويكون خليفة الله في الأرض ويكون الدين كله لله في عهده الشريف .

وأما السادس عشر والسابع عشر : فلأنه ينأى ألوف ألوف جيلاً بعد جيل في الأوقات الحسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، ويصلى عليه في الأوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين ، والقراء يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معاني فرقائه ، والوعاظ

يلفون وعظه ، والعلماء والساطين يصلون إلى خدمته ، ويسلمون عليه من وراء الباب ويمسحون وجوههم بتراب روضته ويرجون شفاعته .^(١)

ولا يصدق هذا الخبر في حق عيسى عليه السلام كما يدعيه علماء يروستنت ادعاء باطلا ، لانهم يشيرون إلى الخبر المدرج في الباب الثالث والخسين من كتاب أشعيا في حق عيسى عليه السلام ، وهذا نصه : ليس له منظر وجمال ، ورأيناه ولم يكن له منظر واشتهيناه مهاناً ، وآخر الرجال رجل الأوجاع مختبراً بالأمراض ، وكان مكتوماً وجهه ، ومزدولاً ولم نحسبه ونحن حسبناه كأبرص ومضروباً من الله ومخضوعاً ، والرب شاء أن يسحقه^(٢)

وهذه الأوصاف ضد الأوصاف التي في الزبور المذكور فلا يصدق عليه كونه حسناً ولا كونه قويا ، وكذا لا يصدق عليه كونه متقلداً بالسيف ، ولا كونه نبلاً مسنونة ، ولا انقياداً الأغنياء له ، ولا إرسالهم إليه الهدايا ، بل هم على زعم النصارى أخذوه وأهانوه واستهزؤا به وضرروه بالسياط ثم صلبوه ، وما كان له زوجة ولا ابن ، فلا يصدق دخول بنات الملوك في بيته ، ولا كونه أبناً بدل آباءه رؤساء الأرض

﴿ فائدة ﴾ ترجمة الآية الثامنة التي نقلتها مطابقة للترجمة الفارسية للزبور التي كانت عندي ، ولتراجم اردو للزبور وموافقة لنقل مقدمهم بولس لانه نقل هذه الآية في الباب الأول من رسالته المبرانية هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (أحببت البر وأبغضت الانم ، لذلك مسجك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وتراجم اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ مطابقة للتراجم العربية ، فالترجمة التي تكون مخالفة لما نقلت تكون غير صحيحة ، ويكفي ردها إلزاماً كلام مقدمهم ، وقد عرفت في مقدمة الباب الرابع أن إطلاق لفظ الإله والرب وأمثالها جاء على العوام فضلاً عن الخواص . والآية السادسة من الزبور الثاني والثمانين هكذا (أنا قلت انكم آلهة وبنو العلى كلكم) فلا يرد

(١) هذا مما حاربه رسول الله ﷺ وكتبه مصححه .

(٢) ان ترجمة الامير كان الأخيرة وترجمة الجزويت تخالف هذه الترجمة في بعض

العبارات كما هو شأنهم في جميع الترجمات ولذلك وضع صاحب إظهار الحق التنبيه الآتي

ما قال صاحب مفتاح الأسرار انه وقع في الآية المذكورة هكذا (أحببت البر وأبغضت الشر من أجل ذلك يا الله مسيح إهلك بدهن البهجة أفضل من رفقائك) ولا يقال لشخص غير المسيح يا الله مسيح إهلك الخ ، لانا لانسلم أولاً صحة ترجمته لكونها مخالفة لكلام مقدسهم (وثانياً) لو قطعنا النظر عن عدم صحتها أقول ادعاؤه صريح البطلان لان لفظ الله ههنا بالمعنى المجازى لا الحقيقي ، ويدل عليه قوله إهلك ، لان الإله الحقيقي لا إله له ، فاذا كان بالمعنى المجازى يصدق في حق محمد ﷺ كما يصدق في حق عيسى عليه السلام ^(١)

(قد حذفنا هنا ٦ إشارات من ٧ — ١٢ الاختصار)

﴿ البشارة الثالثة عشرة ﴾

في الباب الثالث من انجيل متى هكذا (١) وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات (وفي الباب الرابع من انجيل متى هكذا (١٢) ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل ... ١٧ من ذلك الزمن ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات ... ٢٣ وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت) الخ وفي الباب السادس من انجيل متى في بيان الصلاة التي دعاها عيسى عليه السلام تلاميذه هكذا (١٠ - ليأت ملكوتك) ولما أرسل الخواريين إلى البلاد الاسرائيلية للدعوة والوعظ وصام بوصايا منها هذه الوصية أيضاً (وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات) كما هو مصرح به في الباب العاشر من انجيل متى ، ووقع في الباب التاسع من انجيل لوقا هكذا (١) ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراض ٢ وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله وشفوا المرضى) وفي الباب العاشر من انجيل لوقا هكذا (١) وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضاً وأرسلهم) الخ (فقال لهم) الخ (٨) وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم فكلوا مما يقدم

لكم (٩) واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوت الله (١٠) وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا (١١) حتى الغبار الذي لصق بنامن مدينتكم تنفضه لكم، ولكن اعلوا هذا أنه قد اقترب منكم ملكوت الله) — فظاهر أن كلا من يوحنا وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشر بملكوت السموات، وبشر عيسى عليه السلام بالألفاظ التي بشر بها يوحنا عليه السلام، فعلم أن هذا الملكوت كما يظهر في عهد يوحنا عليه السلام، فكذلك لم يظهر في عهد عيسى عليه السلام، ولا في عهد الحواريين والسبعين، بل كل منهم مبشر به ونخبه عن فضله ومترج لحيته، فلا يكون المراد بملكوت السموات طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام، وإلا لما قال عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون: إن ملكوت السموات قد اقترب، ولما علم التلاميذ أن يقولوا في الصلاة وليأت ملكوتك، لأن هذه الطريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته، فهو عبارة عن طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد ﷺ فهو لا كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة، ولفظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على أن هذا الملكوت يكون في صورة السلطنة لا في صورة المسكنة، وأن المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لأجله، وأن مبنى قوانينه لا بد أن يكون كتابا سماويا، وكل من هذه الأمور يصدق على الشريعة الحمديّة.

وقول علماء المسيحية: إن المراد بهذا الملكوت شيوع الملة المسيحية في جميع العالم وإحاطتها بكل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام. فتأويل ضعيف خلاف الظاهر، ويرده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام في الباب الثالث عشر من الإنجيل متى مثلا قال (٢٤) يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله... ثم قال: (٣١) يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله... ثم قال (٣٣) يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع) فشبه ملكوت السموات بإنسان زارع لا ينمو الزراعة وحصادها، وكذلك شبه بحبة خردل لا بصيرورتها شجرة

عظيمة وشبهه بخميرة لا باختيار جميع الدقيق . وكذا يرد هذا التأويل قول عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول في البيان الحادى والعشرين من إنجيل متى هكذا (٤٣) لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أعماله) فان هذا القول يدل على أن المراد بملكوت السموات طريقة النجاة نفسها لاشيوعها في جميع العالم وإحاطتها بكل العالم وإلا لامعنى لنزع الشيع والإحاطة من قوم وإعطائها لقوم آخرين . فالحق أن المراد بهذا الملكوت هى المملكة التى أخبر عنها دانيال عليه السلام في الباب الثانى من كتابه ^(١) فصداق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة محمد ﷺ والله أعلم وعلمه أتم

﴿ البشارة الرابعة عشرة ﴾

في الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (٣١) قدم لهم مثلاً آخر قائلاً يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله (٣٢) وهى أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول، وتصبح شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها) فملكوت السماء طريقة النجاة ، التى ظهرت بشريعة محمد ﷺ لأنه نشأ فى قوم كانوا حقراء عند العالم لكونهم من أهل البوادر غالباً وغير واقفين على العلوم والصناعات ، محرومين من اللذات الجسدية ، والتكلمات الدنيوية ، ولا سيما عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر فبعث الله منهم محمداً ﷺ فكانت شريعته فى ابتداء الأمر بمنزلة حبة خردل ، أصغر الشرائع بحسب الظاهر ، لكونها لعمومها نمت فى مدة قليلة ، وصارت أكبرها ، وأحاطت شرفاً وغرباً ، حتى إن الذين لم يكونوا مطيعين لشريعة من الشرائع تشبهوا بذيول شريعته

﴿ البشارة الخامسة عشرة ﴾

في الباب العشرين من إنجيل متى هكذا (١) فان ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لسكرمه ٢ فاتفق مع العملة

(١) قد بينها المؤلف فى البشارة الرابعة عشرة وهى مما حذفناه للاختصار

على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه ٣ ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما في السوق بطالين ٤ فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيك ما يحق لكم فوضوا ٥ وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ٦ ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم : لماذا وقفتم ههنا بكل النهار بطالين ٧ قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد . قال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم ٨ فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة واعطهم الأجرة مبتدئا من الآخرين إلى الأولين ٩ فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا دينارا دينارا ١٠ فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا دينارا ١١ وفيما هم يأخذون تذكروا على رب البيت ١٢ قائمين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة وقد ساءلوتهم بنا نحن الذين احتملنا مثل النهار والحر ١٣ فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما اتفقت معي على دينار ؟ ١٤ فخذ الذي لك واذهب فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ١٥ أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بحالي أم عينك شريرة لأنني أنا صالح ١٦ هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخريين ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون (اهـ فالآخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يقدمون في الأجروم الآخرون الأولون كما قال النبي ﷺ « نحن الآخرون السابقون » ^(١) وقال « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي »

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما وفي رواية زيادة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » الخ وقال ﷺ « مثلكم ومثل أهل السكتاين كمثل رجل استأجر أجرا فقال من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فأنتم هم ، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا ما لنا أكثر حملا وأقل عطاء ؟ قال هل نقصتكم من حقتكم (وفي رواية هل ظلمتكم من حقتكم « تفسير القرآن الحكيم » « ١٨ » « الجزء التاسع »

شيثا) قلوا لا . « فذلك فضلى أوتيه من أشياء » رواه البخارى من حديث ابن عمر .

﴿ البشارة السادسة عشر ﴾

في الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا (٣٣) سمعوا مثلاً آخر كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبني برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ٣٤ ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره ٣٥ فأخذ الكرامون عبده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجعوا بعضاً ٣٦ ثم أرسل أيضاً عبداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك (٣٧) فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً : يهابون ابنى ٣٨ وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث هلموا نقتله وتأخذ ميراثه ٣٩ فأخذوه وأخرجوه خارج الكرّم وقتلوه ٤٠ فمضى صاحب الكرّم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ ٤١ قلوا له أولئك الأعداء يهلككم هلاكاً دياراً يسلم الكرّم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ؟ كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ٤٣ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يزرع منكم ويعطى لامة تعمل أثماره ٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه ٤٥ ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم)

أقول إن رب بيت كناية عن الله ، والكرّم كناية عن الشريعة ، وإحاطته بسياج ، وحفر المعصرة فيه ، وبناء البرج كنايةات عن المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي ، وإن الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ، كما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم ، والعميد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام والابن كناية عن عيسى عليه السلام — وقد عرفت فى الباب الرابع أنه لا بأس بإطلاق هذا اللفظ عليه ، وقد قتله اليهود أيضاً فى زعمهم ، والحجر الذى رفضه البنائون كناية عن محمد ﷺ ، والامة التى تعمل أثماره كناية عن أمته ﷺ وهذا هو الحجر الذى كل من سقط عليه ترضض ، وكل من سقط هو عليه سحقه .

وما ادعاه علماء المسيحية بزعمهم : ان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام
فغير صحيح نوجوه

(الأول) أن داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا ٢٢ (الحجر
الذي رذله البنائون هو صار للزاوية ٢٣ من قبل الرب كانت هذه وهي عجيبة في أعيننا)
فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى السلام ، وهو من اليهود من آل يهوذا من آل
داود عليه السلام . فأى عجب في أعين اليهود عموماً لكون عيسى عليه السلام
رأس الزاوية ولا سيما في عين داود عليه السلام ، خصوصاً لأن مزعوم المسيحيين
أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيماً بليغاً ويعتقد
الآلوهية في حقه : بخلاف آل اسماعيل ، فان اليهود كانوا يحرقون أولاد إسماعيل
غاية التحقير فكان كون أحد منهم رأساً للزاوية عجيبة في أعينهم

(والثاني) أنه وقع في وصف هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض
وكل من سقط هو عليه سحقه . ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام
لأنه قال : (وان سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا ادينه ، لأنى لم آت لادين العالم
بل لاخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من إنجيل يوحنا . وصدقه على محمد
ﷺ غير محتاج إلى البيان ، لأنه كان مأموراً بتنبية ^(١) الفجار الاشرار فان
سقطوا عليه ترضضوا ، وإن سقط هو عليهم سحقتهم

(الثالث) قال النبي ﷺ « منى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن
بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف بها النظاريته يجوبون من حسن بنيانه إلا
موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل » ^(٢) ولما ثبتت نبوته بالأدلة
الآخري ، كما ذكرت نبأاً منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن استدل في هذه
البشارة بقوله أيضاً

(والرابع) أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن

(١) لو قال بتأديب أو كبح أو زجر الفجار لسكان أظهر (٢) الحديث رواه
الشيخان عن جابر وأبي هريرة قال الثاني « إن منى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل
بنى بيتاً (وفي رواية بنياناً) فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون
به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »

﴿البشارة السابعة عشر﴾

في الباب الثاني من المشاهدات هكذا (٢٦ ومن يغلب ويحفظ أعمالاً إلى
النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم ٢٧ فبرعام بقضيب من حديد كما تسكير
آنية من خزف كما أخذت أيضاً من عند آي ٢٨ وأعطيه كوكب الصبح
٢٩ من له أذن فليسمع مايقول الروح بالكنائس) فهذا الغالب الذي أعطى
سلطاناً على الأمم وبرعام بقضيب من حديد هو عهد صلى الله عليه وسلم ، كما قال الله في حق
(وينصرك الله نصراً عزيزاً) وقد سماه سطيع الكاهن صاحب الهراوة — روى
أنه ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم انشق إيوان كسرى أنوشروان ، وسقط منه أربع عشرة شرفة
وجندت نار فارس ولم تحمد قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة ساوة بحيث صارت
يابسة : ورأى الموبدان في نومه أن إبلا صعباً تقود حملاً عرباً فقطعت دجاجة
وأنتشرت في البرية ، فالتفت كسرى من حدوث هذه الأمور ، وأرسل عبد المسيح
إلى سطيع الكاهن الذي كان في الشام ، وأمره أن يبعث إليه وجده في سكرات
الموت فذكر له ما كان عليه من هذه الشرفات ، فبعث إليه كوكب الصبح ، وأمره أن يبعث
الهراوة وذاخت بحيرة ساوة ، وجندت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاماً ، ولا
الشام لسطيع من قبلهم ملكاً وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل
بها هو آية الله ، فقام من سطيع من ساعته ، ورجع عبد المسيح فأخبر أنوشروان
بما قال له سطيع ، قال كسرى : إلى أن يملك أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمره ،
فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه
فهلك آخرهم يوم هود في خلافة ، والهراوة بكسر الهاء العصا الضخمة : وكوكب
الصبح خاتمة من القرآن ، قال الله في سورة النساء (وأنزلنا اليكم تورا مبيناً)
وقال في سورة النجم (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا)
قال صاحب صولة الضميمة بعد نقل هذه البشارة : قلت للقسيسين وبيت
بوليم عند المناظرة : إن صاحب هذا القضيب من حديد عهد صلى الله عليه وسلم

فاضطربا بسمع هذا الأمر وقالوا : إن عيسى عليه السلام حكم بهذا الكنيسة ثباتاً ، فلا بد أن يكون ظهور مثل هذا الشخص هناك ، ومحمد ﷺ مراح هناك . قلت : هذه الكنيسة في أية ناحية كانت ؟ فرجعا إلى كتب اللغة وقالوا : كانت في أرض الروم قريبة من استانبول ، قلت : راح أصحاب مجد ﷺ في خلافة الفاروق الأعظم عمر رضى الله عنه إلى هذه البلاد وفتحوها وبعد الصحابة رضى الله عنهم كان المسلمون أيضاً متسلطين عليها في أكثر الأوقات ثم تسلط عليها سلاطين آل عثمان أدام الله سلطانهم من مدة مديدة ، وهم متسلطون إلى هذا الحين . فهذا الخبر صريح في حق مجد ﷺ انتهى كلامه .

قلت : إن الفاضل عباس على الجاجوى الهندي صنف أولاً كتاباً كبيراً في الرد على أهل التشليث سماه (صولة الضيفم على أعداء ابن مريم) ثم ناظره رحمه الله ويت ووليم القسيسين في بلد كافور من بلاد الهند وأزمعها ثم اختصر كتابه وسمى المختصر (خلاصة صولة الضيفم) ومناظرته كانت قبل أن ناظر صاحب ميزان الحق في أكبر آباد بمقدار اثنتين وعشرين سنة .

﴿ البشارة الثامنة عشرة ﴾

هذه البشارة واقعة في آخر أبواب انجيل يوحنا وأنا انقلها عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ في بلدة لندن فأقول : في الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا (١٥) ان كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ١٦ وأنا أطلب من الأب فيعطيك فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ١٧ روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندهم وهو ثابت فيكم ٢٦ والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم ٣٠ والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون (وفي الباب الخامس عشر من انجيل يوحنا هكذا (٢٦) فاما إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا اليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق فهو يشهد لأجلى ٢٧ وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء (وفي الباب السادس عشر من انجيل يوحنا هكذا (٧) لكنى أقول لكم الحق أنه خير لكم أن

أطلق لأنى ان لم انطلق لم يأتكم الفار قليط فاما ان انطلقت أرسلته اليكم
 ٨ فإذا جاء ذاك يوضح العالم على خطيئة وروى على حكم (* ٩ أما على الخطيئة فلا تهم
 لم يؤمنوا بي ١٠ وأما على البر ، فلا تى منطلق إلى الأب ، ولستم ترونى بعد ١١
 وأما على الحكم فان أكون (رئيس) هذا العالم قد دين ١٢ وان لى كلاما كثيرا
 أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن ١٣ وإذا جاء روح الحق ذاك فهو
 يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يشكم بكل ما يسمع ويخبركم
 بما سياتى ١٤ وهو عجبى لأنه يأخذ مما هو لى ويخبركم ١٥ جميع ما هو الأب
 فولى فن أجل هذا قلت ان مما هو لى يأخذ ويخبركم)

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين (الأمر الأول)
 أنك قد عرفت فى الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عاداتهم أن يترجوا
 غالبا الأسماء (أى الأعلام) وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبرانى
 لا باليونانى فإذا لا يبقى شك فى أن الانجيلى الرابع ترجم اسم المبعث به باليونانى
 بحسب عاداتهم ثم مترجوا العربية عربوا اللفظ اليونانى بفار قليط وقد وصلت
 إلى رسالة صغيرة بلسان أردو من رسائل القسيسين فى سنة ألف ومائتين وثمانية
 وستين من الهجرة وكانت هذه الرسائل طبعت فى كلكتة وكانت فى تحقيق لفظ
 (فار قليط) وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم فى
 الغلط من لفظ فار قليط وكان ملخص كلامه أن هذا اللفظ معرب من اللفظ
 اليونانى « فان قلنا ان هذا اللفظ اليونانى الأصل باراكلى طوس فيكون معنى
 المعزى والمعين والوكيل وان قلنا أن اللفظ الأصل بير كلو طوس يكون قريبا من
 معنى محمد وأحمد ، فن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل
 بير كلو طوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام
 أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلى طوس » انتهى ملخصا من كلامه
 (يقول مجد رشيد مؤلف هذا التفسير) اننى اوضح هنا ما كتبه الشيخ

رحمة الله بكلمة للدكتور عبد توفيق صدق أوردتها في هذا المقام في كتابه (دين الله في كتب أنبيائه) قال رحمه الله :

هذا اللفظ (الفارقليط) يوناني ويكتب بالانكليزية هكذا (Paraclete) بارقليط أي (المعزي) ويتضمن أيضاً معنى الحاج كما قال بوس في قاموسه، وهاك لفظ آخر يكتب هكذا (Periclite) ومعناه رفيع المقام سام . جليل . مجيد . شهير . وهي كلها معان تقرب من معنى محمد واحمد ومحمود .

ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية فلا ندري ماذا كان اللفظ الذي نطق به عليه السلام ؟ ولا ندري إن كانت ترجمة، أو لف هذا الانجيل له بلفظ (Paraclete) صحيحة أو خطأ ؟ ولا ندري إن كان هذا اللفظ (Paraclete) هو الذي ترجم به من قبل أم لا ؟ لأننا نعلم أن كثيراً من الألفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصداً ، كما اعترفوا به في جميع كتب العهدين (راجع الفصل الثالث) فإذا كان اللفظ الأصلي (Periclite) بيرقليط فلا يبعد أنه تحريف عمدًا أو سهواً إلى (Paraclete) بارقليط حتى يبعدوه عن معنى اسم النبي ﷺ ، وما يسهل عليهم ذلك تشابه أحرف هذه الكلمة في اللغة اليونانية .

وعلى كل حال فسواء كان هو (Paraclete) بارقليط أو (Periclite) بيرقليط ، فمعنى كل منهما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم فهو معز المؤمنين على عدم إيمان الكافرين ، وعلى عدم وجود الشرف في هذا العالم بإيضاح أن هذه هي إرادة الله لحكمة يعلمها هو ، ومعز أيضاً للعصاة والمريض والفقراء وغيرهم بمقيدة البعث والقيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم كان يحتاج الكفار والمشركين وغيرهم (إذا كان معناها الحاج المجادل^(١) كما قال بوس) وهو شهير سام جليل مجيد إذا كان اللفظ الأصلي (بيرقليط) والعبارات الواردة في انجيل يوحنا في هذه المسألة لا تنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم كما بين ذلك صاحب كتاب إظهار الحق ومؤلف كتاب (فتح الملك العلام في بشار دين الإسلام) وكما أشرنا إلى ذلك في

صفحة ٨٢ من هذا الكتاب اه ونعود إلى سياق صاحب اظهار الحق الشيخ رحمه الله ، قال رحمه الله :

وأقول : ان التفاوت بين اللغتين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة ، فتبدل بركلوطوس بباراكليطوس في بعض النسخ من الكتاب قريب القياس . ثم رجح أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الآخر ، ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس بعيد بل لا يبعد أن يكون من المحسنات .

(والأمر الثاني) أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ﷺ أنهم مصاديق لفظ فارقليط مثلا منتسب للمسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد وكان مرتاضا شديدا لارتياض وأتقى أهل عهده : ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال : إني الفارقليط الذي وعد بعجته عيسى عليه السلام ، وتبعه اناس كثيرون في ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان اردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا : ان البعض قالوا انه ادعى أنه الفارقليط يعني المعزى روح القدس ، وهو كان اتقى (؟) ومرتاضا شديدا (؟) ولأجل ذلك قبله الناس قبولاً رائداً ، انتهى كلامه .

فعلم أن انتظار الفارقليط كان في القرون الأولى المسيحية أيضاً ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه ، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم — وقال صاحب لب التواريخ : إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبي ، فحصل لحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى أنه هو ذلك المنتظر ، انتهى ملخص كلامه — فيعلم من كلامه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحق ، لان التجاشي ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال : أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وكتب الجواب وكتب في الجواب : أشهد أنك

رسول الله صادقاً ومصداقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك — أي جعفر بن أبي طالب — وأسست على يديده رب العالمين اه وهذا النجاشي كان قبل الاسلام نصرانياً وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا : إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك اه والمقوقس هذا وإن لم يسلم لكنه أقر في كتابه : اني قد علمت أن نبياً قد بقي . وكان نصرانياً فهذان الملكان ما كانا يخافان في ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لأجل شوكته الدنياوية .

وجاء الجارود بن الملاء في قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : والله لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذي بعثك بالحق نبياً لقد وجدت وصفك في الانجيل ، وبشرك ابن البتول ، فطول النجوة لك ، والشكر لمن أكرمك ، لا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله . ثم آمن قومه وهذا الجارود كان من علماء النصراري وقد أقر بأنه قد بشر به ابن البتول أي عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج نبي بشر به عيسى عليه السلام .

فإذا علمت ذلك فأقول : إن اللفظ العبراني الذي قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليوناني الموجود ترجمة ، لكنني أترك البحث عن الأصل واتكلم على هذا اللفظ اليوناني فأقول : إن كان اللفظ اليوناني الأصل بيركاوطوس ، فالأمر ظاهر وتكون إشارة المسيح في حق محمد صلى الله عليه وسلم بلفظ هو قريب من محمد واحد وهذا وإن كان قريب القياس بالنظر إلى عاداتهم لكنني أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم الزاماً وأقول إن كان اللفظ اليوناني الأصل بارا كلي طوس كما يدعون فهذا لا ينافي الاستدلال أيضاً لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافعي كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعاني كلها تصدق على محمد ﷺ

وأنا أبين الآن أولاً أن المراد بالفارقليط النبي المبشر به أعني محمداً صلى الله

عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الأعمال ، واذكر ثانياً شبهات علماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليه أمور .

(١) إن عيسى عليه السلام قال أولاً (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي) ثم أخبر عن الفارقليط فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقي عليهم بعد ضروري واجب الرعاية فلو كان الفارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأنه ما كان مظنوناً أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستعفيين منه من قبل أيضاً بل لا مجال للاستبعاد أيضاً لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهورياً بينما فلا يتصور انكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد^(١) فهو عبارة عن النبي المبشر به حقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته يشكرون النبي المبشر به عنيد ظهوره أ كده أولاً بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

(٢) إن هذا الروح متحد بالأب مطلقاً وبالابن نظراً إلى لاهوته اتحاداً حقيقياً فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فإنه يصدق هذا القول في حقه بلا تكاف .

(٣) أن الوكالة والشفاعاة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحد بالله فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبي المبشر به بلا تكاف .

(٤) أن عيسى عليه السلام قال (هو يذكركم كل ما قلته لكم) ولم يثبت في رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه .

(٥) أن عيسى عليه السلام قال (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون) أن يوجد (حتى إذا كان — أي وجد وبعث — تؤمنون) وهذا يدل على أن المراد

(١) هذه العبارة لا تفهم لركاكتها وفسادها وأقرب ما يفهم منها بالقرينة انه ليس ظهوره عندهم في صورة المظنة يقتضي الاستبعاد

به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً منهم وقت نزوله بل لأجل الاستبعاد أيضاً، فلا حاجة إلى هذا القول، وليس من شأن الحكيم العاقل أن يتكلم بكلام فضول، فضلاً عن شأن النبي العظيم الشأن، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله، وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

(٦) إن عيسى عليه السلام قال (هو يشهد لأجلي) وهذا الروح ماشهد لأجله بين أيدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمذكورون هم الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ماشهد بين أيديهم بخلاف محمد ﷺ فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبراه عن إدعائه الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال . وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر برأيهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

(٧) إن عيسى عليه السلام قال وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء (وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا) وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء) فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ أيضاً وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضاً فلفظ أيضاً سقط من التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سبوا أو قصدا فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة الفار قليط، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار لم توجد مغايرة بين الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها لأن هذا الروح مع كونه إلهام متحداً بالله اتحاداً حقيقياً برياً من النزول والحلول والاستقرار والشكل التي هي من عوارض الجسم والجسمانيات نزل مثل ريح عاصفة وظهر في أشكال السنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم يوم الدار فكان حالهم كحال من عليه أثر الجن، فكما أن قول الجن يكون قوله في تلك

الحالة فكذلك كانت شهادة الروح هي شهادة الحواريين فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين .

(٨) إن عيسى عليه السلام قال: إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فأما ان انطلقت أرسلته اليكم) فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلهم إلى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس بشروط بذهابه فلا يكون مردا بالفارقليط ، بل المراد به شخص لم يستفص منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

(٩) إن عيسى عليه السلام قال (يوج العالم) فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد ﷺ لأنه ووج العالم سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا يشك فيه إلا معانيد يحث ، وسيكون ابنه الرشيد محمد المهدي رفيقا لعيسى عليه السلام في زمان قتل الدجال الأعور ومتابعيه ، بخلاف الروح النازل يوم الدار فإن توبيخه لا يصح على أصول أحد وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لأنهم كانوا يدعون إلى الملة بالترغيب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان اردو في زده على خلاصة (صولة الضيغم) إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا في ترجمة من تراجم الإنجيل وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على عهد صداق بيننا لأجل أن محمدا ﷺ ووج وهذا كثيرا إلا أن مثل هذا التغليب ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله انتهى كلامه فردود وهذا القسيس إما جاهل غلط أو مغالط ليس له إيمان ولا خوف من الله ، لأن هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ في رومية العظمى وعبارة الترجمة العربية

المطبوعة في بيروت سنة ١٨٦٠ هكذا (ومضى جاء ذلك ببكت العالم على خطية الخ وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ يوجد لفظ الالزام . ولفظ التبيكت والالزام أيضا قريبان من التوبيخ لكن لا شكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروستنت ولذا ترى أن مترجمي الفارسية وأردو تركوا لفظ فار قليط لشهرته عند المسلمين في حق محمد ﷺ ومترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ قال أسلافه هؤلاء أيضاً حيث أرجع إلى الروح ضائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ (أي مدلوله) مؤنث وليس مذكر

(١٠) قال عيسى عليه السلام (أما على الخطية فلا أنهم لم يؤمنوا بي) وهذا يدل على أن الفار قليط يكون ظاهراً على منكرى عيسى عليه السلام موبخاً لهم على عدم الإيمان به والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس موبخاً لهم

(١١) قال عيسى عليه السلام (إن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطبقون حمله الآن) وهذا يناق إرادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكماً على أحكام عيسى عليه السلام فانه على زعم أهل التثليث كان أمر الحوار بين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كله فأتى أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قالها إلى زمان صموده . نعم إنهم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ماعداً بعض الأحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج وحلوا جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز في شأنه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة وكان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحاً موعوداً به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل ضعف الإيمان وضعف القوة إلى زمان صموده كما يعترف به علماء بروستنت كان خارجاً عن استطاعتهم فظهر أن المراد بالفار قليط نبي تزداد في شريعته أحكاماً ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد صلى الله عليه وسلم

بالنسبة إلى الشريعة العيسوية (*)

(١٢) إن عيسى عليه السلام قال : ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا يدل على أن الفارقليط يكون بحيث يكذب بنو إسرائيل ، فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار ، على أن هذا الروح عندهم عين الله ، فلا معنى لقوله : بل يتكلم بما يسمع ، فصدقه محمد ﷺ فإنه كان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله ، وكان يتكلم بما يوحى إليه كما قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) وقال (إن أتبع إلا ما يوحى إلى)

(١٣) إن عيسى عليه السلام قال : أنه يأخذ مما هو لي ، وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التشليث قديم وغير مخلوق ، وقادر مطلق ، ليس له كمال منتظر ، بل كل كمال من كالاته حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منتظر . ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد (جميع ما للاب فهو لي فلاجل هذا قلت مما هو لي يأخذ) يعني أن كل شيء يحصل للفارقليط من الله فكأنه يحصل مني كما اشتهر : من كان الله كان الله له -- فلاجل هذا قلت : أن مما هو لي يأخذ

وأما الثاني أعني شبهات التي توردها علماء بروتستانت الخمسة

(الشبهة الأولى) جاء في هذه العبارة تفسير الفارقليط بروح القدس ، وروح الحق ، وهما عبارتان عن الاقنوم الثالث ، فكيف يصح أن يراد بالفارقليط محمد ﷺ ؟

أقول في الجواب : أن صاحب ميزان الحق يدعى في تأليفاته كون ألقاظ روح الله ، وروح القدس ، وروح الحق ، وروح الصديق ، وروح فم الله ، بمعنى واحد . قال في الفصل الأول من الباب الثاني من مفتاح الأسرار في الصفحة ٥٣

(*) الأظهر المختار عندنا أن أهل عصر عيسى عليه السلام لم يكونوا يستطيعون حمل شريعة خاتم النبيين ﷺ لفقد الاستعداد لها وهو استئلال الفكر والحكم والإرادة التي حباها الله تعالى للأمة العربية في زمن البعثة المحمدية

من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : ان لفظ روح الله ، ولفظ روح القدس في التوراة والانجيل بمعنى واحد انتهى . فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد في العهدين — وقال في حل الاشكال ، في جواب كشف الاستار : من له العلم ما بالتوراة والانجيل فهو يعرف ان ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح قم الله وغيرها بمعنى روح الله ، ولذلك ما رأيت اثباته ضروريا انتهى

فاذا عرفت هذا القول فنحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه ، لكننا ننكر أن استعمالها في كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الأقسام الثالث ، ونقول قولاً مطابقاً لقوله من له شعور ما يكتب العهدين يعرف ان هذه الألفاظ تستعمل في غير الأقسام الثالث كثيرا ففي الآية الرابعة عشرة من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى في خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : (فأجعل فيكم روحى) ففي هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الأقسام الثالث الذى هو عين الله على زعمهم — وفي الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ (١ أيها الأحياء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم بهذا تعرفون روح الله : كل روح يتعرف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله ٦٠٠ نحن من الله فن يعرف الله يسمع لنا ، ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا تعرف روح الحق وروح الضلال) وهذه الجملة الواقعة في الآية الثانية (بهذا تعرفون روح الله) وفي التراجم العربية الآخر سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (بهذا يعرف روح الله) وفي ترجمة سنة ١٨٢٤ (فانكم تميزون روح الله) ولفظ روح الله في الآية الثانية ، ولفظ روح في الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الأقسام الثالث : ولذلك ترجم مترجم ترجمة أرود المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ، ولفظ الأرواح بالواعظين في الآية الأولى ، ولفظ روح في الآية الثانية بالواعظ من جانب الله . ولفظ روح الحق في الآية السادسة بالواعظ الصادق . وترجم لفظ روح الضلال

بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الاقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم ، وهو ظاهر . فتفسير الفارقليط بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لانهما بمعنى الواعظ الحق ، كما ان لفظ روح الحق روح الله بهذا المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا ، فيصح إطلاقهما على محمد ﷺ بلا ريب

(الشبهة الثانية) ان المخاطبين بضمير « كم » الحواريون ، فلا بد أن يظهر الفارقليط فى عهدهم ، ومحمد ﷺ لم يظهر فى عهدهم .

(أقول) هذا أيضا ليس بشئ ، لأن منشأ ان الحاضرين وقت الخطاب لا بد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضرورى فى كل موضع . ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام فى الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى فى خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا . (وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالساً على يمين القوة وآتياً على سحاب السماء) وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا : ومضت على موتهم مدة هى أزيد من ألف وثمانمائة سنة ، ومارأوه آتياً على سحاب السماء ، فكما ان المراد بالمخاطبين ههنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء ، فكذلك فيما نحن فيه المراد الذين يوجدون وقت ظهور الفارقليط .

(الشبهة الثالثة) أنه وقع فى حق الفارقليط ان العالم لا يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه ، وهو لا يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الناس رأوه وعرفوه أقول : هذا أيضا ليس بشئ ، وهم أحوج الناس تأويلافى هذا القول بالنسبة إلينا ، لأن روح القدس عيت الله عندهم ، والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نقول : ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة . ففى صورة التأويل الاشتباه فى صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون المقصود ان العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة ، وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة . والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال : وأنتم تعرفونه ، ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية . يكون نفى الرؤية محمولاً على ما هو المراد فى قول الانجيل الأول فى الباب

الثالث عشر من إنجيله . وأقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (١٣) فلذلك أضرب لكم الأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون (١٤) وقد كل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال : إنكم تستمعون سمعوا ولا تفهمون ، وتنظرون نظرا ولا تبصرون) فلا اشكال أيضا

وأمثال هذين الأمرين وإن كانت معاني مجازية لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت في كلام عيسى عليه السلام كثيرا ، ففي الآية السابعة والعشرين من الباب الحادى عشر من إنجيل متى هكذا (وليس أحد يعرف الابن إلا الأب ولا أحد يعرف الأب إلا الابن ، ومن أراد الابن أن يعلن له) وفي الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من إنجيل يوحنا هكذا (الذى أرسلنى حق الذى أنتم لستم تعرفونه) وفي الباب الثامن من إنجيل يوحنا هكذا (٩) لستم تعرفوننى أنا ولا أبى لو عرفتموه لعرفتم أبى أيضا ٥٥ ولستم تعرفونه أى الله الخ) وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا (أيها الأب إن العالم لم يعرفك ، أما أنا فعرفتك) في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا (٧) لو كنتم قد عرفتموه لعرفتم أبى أيضا ، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتكم ٨ قال له : فيلبس بأسيد أربنا الأب وكفانا ٩ قال له يسوع : أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفنى يا فيلبس الذى رأتى فقد رأى الأب ، فكيف تقول أنت أربنا الأب ؟ فالمراد بالمعرفة فى هذه الأقوال المعرفة الكاملة ، وبالرؤية المعرفة : وإلا لانصح هذه الأقوال يقينا ، لأن العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلا عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايج والحواريين ورؤية الله بالبصر فى هذا العالم ممنوعة عن أهل التثليث أيضا

(الشبهة الرابعة) أنه وقع فى حق الفارقليط (أنه مقيم عندهم وثابت فيكم) ويظهر من هذا القول أن الفارقليط كان فى وقت الخطاب مقما عند الحواريين وثانيا فيهم ، فكيف يصدق على محمد ﷺ

أقول : إن هذا القول فى التراجم الأخرى هكذا فى الترجمة العربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (لانه مستقر معكم وسيكون فيكم) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة

١٨١٦. سنة ١٨٢٨ سنة ١٨٤١ وترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة لهاتين الترجمتين ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا : (ماكن معكم ويكون فيكم) فظهر أن المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالي يقينا فلا اعتراض به بوجه من الوجوه ، وبقي قوله مقيم عنكم

فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عنكم الآن لانه لا ينافي قوله (أنا أطلب من الأب فيعطيك فارقليط آخر) وقوله (قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون . وقوله . إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط) وإذا أول تقول انه بمعنى الاستقبال كما أن القول الذي بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيما عنكم في الاستقبال ، فلا خدشة في صدقه على محمد ﷺ والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضي في الأمور الثبوتية كثير في العهدين — ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمان المستقبل وإدراكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل . ثم قال في الآية الثامنة من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا (ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت عنه) فانظروا الى قوله ها هو جاء وصار — وهذا القول في الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٩ هكذا (اينك رسيد وبوقوع بيوست) فغير عن الحال المستقبل بالماضي لكونه يقينا لاشك فيه ، وقد مضت مدة أزيد من ألفين وأربعمائة وخمسين سنة ، ولم يظهر خروجهم — وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من إنجيل يوحنا هكذا (الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة ، وهي الآن حين يسمع الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) فانظروا الى قوله وهي الآن ، وقد مضت مدة أزيد من ألف وثلاثمائة ولم تجيء هذه الساعة ، وهي الى الآن مجهولة لا يعرف أحد متى تجيء

(الشبهة الخامسة) في الباب الاول من كتاب الأعمال هكذا (٤ وفيها هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من اورشليم ، بل ينتظروا موعد الأب الذي سمعتموه مني . لان يوحنا عمد بالماء ، وأما أنتم فستعتمدون بالروح القدس ليس هذه الايام بكثير) وهذا يدل على أن الفارقليط هو الروح النازل يوم الدار . لان المراد بوعد الاب هو الفارقليط .

أقول : الادعاء بأن المراد بموعده الأب هو الفارقليط ادعاء محض ، بل هو غلط لثلاثة عشر وجهاً ، وقد عرفتها ، بل الحق أن الأخبار عن الفارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليهم مرة أخرى شيء آخر . وقد وفي الله بالوعدين ، وقد عبر عن الوعد الأول بمجيء الفارقليط ، وههنا بموعده الأب ، غاية الأمر أن يوحنا نقل بشارة الفارقليط ، ولم ينقلها الإنجيليون الباقون — ولوقا نقل موعده نزول الروح الذي نزل يوم الدار ، ولم ينقله يوحنا . ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون في نقل الأقوال الخسيسة ، كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب إلى أورشليم ، اتفق على نقله الأربعة ، وقد يتخالفون في نقل الأحوال العظيمة ، ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر إحياء ابن الأرملة من الأموات في نايين ، وبذكر إرسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذاً ، وبذكر إبراء عشرة برص ، ولم يذكر هذه الحالات أحد من الإنجيليين ، مع أنها من الحالات العظيمة ، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس في قانا الجليل ، وظهور من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرًا وهذه المعجزة أول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وإيمان التلاميذ به وبذكر إبراء السقيم في بيت صيدا في اورشليم ، وهذه أيضا معجزة عظيمة ، والمرىض كان مريضاً من ثمان وثلاثين سنة ، وبذكر قصة امرأة أخذت في زنا ، وبذكر إبراء الآكه ، وهذا أيضا من أعظم معجزاته ، وهي مصرحة بهما في الباب التاسع وبذكر إحياء العازر من بين الأموات ، ولم يذكرها أحد من الإنجيليين ، مع أنها حالات عظيمة ، وهكذا حال متى ومرقس ، فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التي لم يذكرها غيرهما . وإذا طال البحث في هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التي نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم في زماننا . اهـ

﴿ بشارة إنجيل برنابا ﴾

ذكر الشيخ رحمة الله بعد هذا أنه لم يعن بإيراد البشارات من الكتب التي يعدها أهل الكتاب غير قانونية لإبشارة إنجيل برنابا : وقد نقلها عن مقدمة ترجمة القسيس ساييل الانكليزي للقرآن المجيد ، وهذه ترجمتها :

(اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزى الله عليه لأن الله غير راض

عن الذنب ، ولما اكتسبوا وتلاميذى لأجل الدنيا سخط الله لأجل هذا الأمر وأراد باقتضاء عدله أن يحجزهم على هذا العالم على هذه العقيدة غير الثلاثة ليحصل لهم النجاة من هذاب جهنم ولا يكون لهم اذية هناك وإنى وإن كنت بريالكن بعض الناس لما قالوا فى حق إنه الله وابن الله كره الله هذا القول ، واقتضت مشيئته أن لا تضحك الشياطين يوم القيامة منى ولا يستهزؤن بى ، فأراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص أنى صلبت لكن هذه الاهانة والاستهزاء تبقىان إلى أن يحىء مجد رسول الله فاذا جاء فى الدنيا ينهب كل مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس) ترجمة كلامه

أقول هذه البشارة عظيمة وان اعترضوا بأن هذا الإنجيل رده مجلس علمائنا السلف ^(١) أقول لا اعتبار لردهم وقبولهم كاعلمت بما لا مزيد عليه فى الباب الأول وهذا الإنجيل من الأناجيل القديمة ويوجد ذكره فى كتب القرن الثانى والثالث فعلى هذا كتب هذا الإنجيل قبل ظهور محمد ﷺ بمئتي ^(٢) سنة ولا يقدر أحد أن يخبر بغير الإلهام بمثل هذا الأمر قبل وقوعه بمئتي سنة فلا بد أن يكون هذا قول عيسى عليه السلام وإن قالوا إن أحداً من المسلمين حرف هذا الإنجيل بعد ظهور محمد ﷺ قلت هذا الاحتمال بعيد جداً لأن المسلمين ما التفتوا إلى هذه الأناجيل الأربعة أيضاً فكيف إلى إنجيل برنابا ويبعد أن يؤثر تحريف أحد من المسلمين فى إنجيل برنابا تأثيراً تغير به النسخ الموجودة عند المسيحيين أيضاً وهم يزعمون أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أسلموا نزلوا عن كتب العهدين البشارات المحمدية وحرفوها فعلى زعمهم أقول إن

«١» يعنى مجامع الأساقفة «٢» وهنا غلط ظاهر لا ندرى سببه فقد كان ظهور النبى ﷺ ، أوائل القرن السابع للمسيح فاذا كان قد ذكر إنجيل برنابا فى القرن الثانى يكون قبل ظهور النبى ﷺ بخمسة قرون على أن برنابا كتبه فى القرن الاول كما أمره المسيح عليه السلام وإن لم رد له ذكر قبل ذلك التاريخ ، وأما النسخ التى وقعت فى أيدي علماء أوربة فاقدمها عهدا يتراوح تاريخه بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر ، ولكنه لم يشتهر إلا فى أوائل القرن الثامن عشر

هؤلاء العلماء الكبار حرفوا على زعمهم ولم يؤثر تحريفهم في كتبهم التي كانت موجودة عندهم في مواضع هذه البشارات فكيف أثر تحريف بعض المسلمين في الإنجيل برنابا في النسخ التي كانت عندهم؟ فهذا الاحتمال وادضعف جداً، واجب الرداء . وقد ختم الشيخ (رحمة الله) رحمه الله تعالى هذه البشارات بتبنييه ذكر فيه القارىء بما بينه مفصلاً من اختلاف النصارى في ترجمة كتبهم والتغيير فيها زمناً بعد زمن لئلا يظن من أطلع على ما أورده ورآه مخلفاً لغير الترجمات التي نقل عنها أنه هو المحلّى، فيما نقله، وهذا مشهور لا يستطيعون إنكاره

بعد هذا أقول ان الشيخ رحمه الله لم ير الإنجيل برنابا وإنما نقل هذه البشارة من مقدمة سابل المستشرق الانجليزى لترجمته للقرآن المجيد، وسابل هذا قد اطلع على احدى النسختين اللتين وجدتا من هذا الإنجيل في في أول القرن الثامن عشر، وهى النسخة الاسبانية وقد فقدت، إذ كان المتعصبون من النصارى يملفون كل ما عثروا عليه من هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل التي تعدها الكنيسة غير قانونية . وأما النسخة الأخرى فهى باللغة الايطالية القديمة وكانت في خزانة كتب (الفاتيكان) فسرّها منها راهب اسمه (مرينو) في أواخر القرن السادس عشر، ويظن أنها هى النسخة الموجودة الآن في خزانة كتب بلاط (فيينا) . وقد ترجمت هذه النسخة بالانكليزية في هذا المصنف فسينا إلى ترجمتها بالعربية سنة ١٣٢٥ وطبعناها طبعةً دقيقةً في مطبعة المنار، وإتينا ننقل عنها هنا نص بعض بشاراته بنبينا ﷺ غير البشارة التي نقلها الشيخ رحمه الله إذ هى ممتدة

جاء في الفصل الثامن والسبعين من هذا الإنجيل أن المسيح عليه السلام أخبر الحواريين أنه سينصرف عن هذا العالم ثم قال :

(٧ فبكى حينئذ الرسل قائمين : يا معلم لماذا تتركنا ، لأن الأخرى بنا أن نموت من أن تتركنا ٨ أجاب يسوع : لا تضرب قلوبكم ولا تحزنوا ^(١) ٩ لاني لست أنا الذى خلقكم ، بل الله الذى خلقكم بجميعكم ١٠ أما من خصوصى فاني قد أنيت لأهـ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص العالم ١١

ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتى أنبياء كذبة^(١) كثيرون يأخذون كلامي وينجسون الإنجيل

١٢ حينئذ قال اندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لمعرفة

(١٣) أجاب يسوع : أنه لا يأتى فى زمانكم بل يأتى بعدكم بعدة سنين حينما يبطل الإنجيلى ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ١٤ فى ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذى تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختارى الله وهو سيظهره للعالم ١٥ وسيأتى بقوة عظيمة على الفجار ويبعد عبادة الأصنام من العالم ١٦ وانى أسر بذلك ، لأنه بواسطته سيعلمن ويعبد الله ويظهر صدق ١٧ وسينتقم من الذين سيقولون انى أكبر من انسان ١٨ الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رقاداً فى صباه ومتى كبر هو أخذه كفيه ١٩ فليحذر العالم أن يلبذه لأنه سيفتك بعبد الأصنام ٢٠ فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً ، ولم يبق يشوع على المدن التى أخرجوها وقتلوا الأطفل ٢١ لأن القرحة المزمعة يستعمل لها النكى (٢٢) وسيجىء بحق أجلى من سائر الأنبياء وسينجى من لا يحسن السلوك فى العالم ٢٣ وسيجىء طرباً أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضاً ٢٤ حتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض ، واعترف بانى بشر كسائر البشر . فالحق أقول لكم : أن نبى الله حينئذ يأتى)

وجاء فى الفصل السادس والتسعين من محاوراة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود : أن الكاهن سألته عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه ، وبأنه بشر ميت ثم قال الإنجيل ما نصه :

(٣) أجاب الكاهن : أنه مكتوب فى كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسيحاً الذى سيأتى ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتى للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيحاً الله الذى ننتظره ؟)

(٥) أجاب يسوع : حقاً إن الله وعد هكذا ولكنى لست هو ، لأنه خلق

قبل وسيأتي بعدى (١)

(٦) أجاب الكاهن : اننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقديوس الله ٧ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تغيدنا حيا في الله بأية كيفية سيأتي مسيا ؟

(٨) أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضورته نفسى (٢) في لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم (٣) قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل العرب ٩ ولكن عند ما يأتى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى لهذه الفتنه الملعونه بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأن الله وابن الله ١٠ فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ١١ حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله ١٢ الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبداء الأصنام ١٣ وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ١٤ وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ١٥ وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا)

ثم قال فى الفصل ٩٧ مانصه :

(١) ومع أنى لست مستحقا أن أحل سير حداثته قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه (٢) فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالى والملك قائلين لا تزعج نفسك يا يسوع قدوس الله لأن هذه الفتنه لا تحدث فى زمننا مرة أخرى لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى المقدس بإصدار أمر ملكى أن لأحد يدهوك فيما بعد الله أو ابن الله) (٤) فقال حينئذ يسوع : إن كلامكم لا يعزىنى لأنه يأتى ظلام حيث ترجون النوره ولكن تعزىنى عى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فى وسيمند دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم ٦ وأن ما يعزىنى دعوا وان لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه بحيا .

(١) أنجيل يوحنا ١ : ١٥ (٢) تكرر هذا القسم فى هذا الانجيل وهو يعزى

قول نبينا عليه السلام « والذى نفس محمد بيده » (٣) تلك ٢٢ : ١٨

(٧) أجاب الكاهن : آياتى رسل آخرون بعد مجىء رسول الله ؟
 (٨) فأجاب يسوع : لاياتى بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ٩ ولكن
 يأتى عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزننى ١٠ لأن الشيطان سيثيرهم
 بحكم الله العادل فيسترون بدعوى أنجيلى

(١١) أجاب هيدروس : كيف أن مجىء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل ؟
 (١٢) أجاب يسوع : من العدل أن من لا يؤمن بالحق خلاصه يؤمن بالكذب
 للعتة ١٣ لذلك أقول لكم : إن العالم كان يمتحن الأنبياء الصادقين دائماً وأحب
 الكاذبين كما يشاهد فى أيام ميشع وأرميا ^(١) لأن التشبيه يحجب شبيهه

(١٣) فقال الكاهن حينئذ : ماذا يسمى مسيا ؟ وما هى العلامة التى تعلن
 مجيئه ١٤ أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق
 نفسه ووضعها فى بهاء سماوى ١٥ قال الله : اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق
 الجنة والعالم وجهاً غنياً من الخلاق التى أهبها لك ، حتى أن من يباركك يكون
 مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ١٦ وحقى أرسلتك إلى العالم أجمعك رسولاً
 للخلاص وتكون كلمتك صادقة ، حتى إن السماء والأرض تهنان ، ولكن إيمانك
 لا يهن أبداً ١٧ إن اسمه المبارك مجد .

١٨ حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائمين : يا الله أرسل لنا رسولاك ، يا محمد
 تعال سريراً لخلاص العالم ! اهـ

وأما البشارة التى نقلها الشيخ رحمة الله فى إظهار الحق فهى من الفصل
 العشرين بعد المثبتين ، وليس بعده غير فصلين من هذا الانجيل ، وترجمتها
 قريبة من الترجمة الأخيرة للانجيل كله .

✽ تنبيه ✽

لقد كان من مواضع ارتياب الباحثين من علماء أوربة فى هذا الانجيل ذكره
 لخاتم النبیین ﷺ باسمه العلم عند المسلمين (محمد) وقد ذهب بعضهم إلى أن بعض

المسلمين قد دسوا فيه ذلك ، وقوى شبهتهم ما وجد من التعليقات العربية على حواشي النسخة الطليمانية الموجودة منه إلى هذا العهد .

وقد فندنا هذه الشبهة في مقدمتنا لطبعة هذا الإنجيل العربية بما بيناه من استحالة صدور هذه الحواشي عن مسلم ، فانها على فساد لغتها ومجمتها مخالفة لما يعرفه كل مسلم عربياً كان أو مجمياً لأنه من أذكار الدين ككلمة سبحان الله في تذكر في هذه الحواشي بتقديم المضاف إليه على المضاف هكذا « الله سبحان » وبعد أن أوردنا في المقدمة أمثلة أخرى كهنه قلنا :

« ولذلك أمثلة أخرى : أضف إليها عدم اطلاع المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الإنجيل كما حققه الدكتور مرجليوث المستشرق الانكليزي . وبيد التحقيق بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسي وابن تيمية المشرق فقد كانوا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكر في ردهما على النصارى هذا الإنجيل .

« بقى أمر يستنكره الباحثون في هذا الإنجيل بمخالفته علمياً لادنياً أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبي محمد » عليه الصلاة والسلام قائلين . لا يمكن أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الإسلام ، إذ المهود في البشارات أن تكون بالكسنيات والاشارات ، والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خير الوحي . وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحبري قبل بعثة النبي ﷺ وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتي من إمدى اسمه أحمد) وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ، ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الأنجيل التي فيها هذه البشارات الصريحة ، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأنجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى ما لو ظهر لأزال كل شبهة عن الإنجيل برنابا وغيره .

« على أنه لا يبعد أن يكون مترجم برنابا باللغة الإيطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة ، وأن يكون قد ذكر في الأصل الذي ترجم هو عنه بلفظ يفيد معناه كلفظ

الفارقليط ، ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم في الأمر السابع من المسالك السادس من الباب السادس من كتابه إظهار الحق ، وزاده بعد ذلك بياناً في البشارة الثامنة عشرة « اهـ . وإنني أزيد مثلاً على ما سبق من اختلاف ترجمة الاعلام والالقب والصفات في كتب أهل الكتاب يقرب لفهم القارىء هذه المسألة وهو ما جاء في نبوة النبي حجي من البشارة بنبينا ﷺ قال :

بشارة النبي حجي بمحمد ﷺ :

« ٢ : ٦ هكذا قال رب الجنود : هي مرة بعد قليل فأززل السموات والأرض والبحر واليابسة ٧ وأززل كل الأمم ، ويأتى مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً ، قال رب الجنود ٨ لى الفضة ولى الذهب يقول رب الجنود ٩ مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، قال رب الجنود ١٠ وفى هذا المكان أعطى السلام ، يقول رب الجنود »

أقول قبل كل شئ : إن اسم أو لقب « مشتهى الأمم » هو فى الأصل العبرانى عند اليهود « حمدوت » ومعناه الذى يحمده فهو صيغة مبالغة من الحمد كدكوت من الملك . فحمدوت الأمم هو الذى تحمده الأمم ، وهو معنى محمد ومحمود ، فالأول اسم فاعل من حمده بالتشديد إذا حمده كثيراً ، ومن نحمده الأمم يكون محموداً حمداً كثيراً أى محمداً . والثانى اسم مفعول من حمد الثلاثى ، ومحمود من أسماء صلى الله عليه وآله وسلم فهل بعد هذا يبعد أن يكون لفظ الفارقليط اليونانى مترجماً من لفظ حمدوت

العبرانى ، ونسخ الإنجيل العبرانية التى نقلت ألفاظ المسيح عليه السلام بحروفها قد فقدت ولا ندرى سبب فقدتها ؟ بل نحن معاشير المسلمين نهم بجماع الاساقفة التى تحمكت فى الأناجيل القديمة ، فعدت بعضها قانونياً وبعضها غير قانونى ، وصاروا يتلفون ما هو غير قانونى ، بل نحن لا نعتد بتنصر القيصر قسطنطين الأول ولا نعتد إخلاصه فيه ، بل نعتد أن ذلك كان عملاً سياسياً منه ، وأنه استعان بالمجامع على تحويل النصرانية عن صراط التوحيد إلى وثنية القدماء من اليونانيين

وأستاذتهم من قدماء المصريين، الذين دانوا بعقيدة التشليث قبل المسيح بألف من السنين . ولو بقيت نسخ لك الانجيل لكان لأهل العلم الاستقلال في الغرب والشرق من التحقيق فيها ما لم يكن لأولئك الأساقفة الذين قبلوا منها ماوافق اعتقادهم وردوا ما لم يوافقهم ، كأن عقائدهم التقليدية المتأثرة بنصرانية قسطنطين السياسية بعد ثلاث قرون خلت للمسيح هي الأصل ، والانجيل الماثورة هي الفرع ، تعرض على تلك التقاليد فيقبل منها ما وافقها ويرد ماخالفها! وما نحن أولاء نرى إنجيل برنابا أرقى من هذه الانجيل الأربعة في العلم الإلهي والثناء على الخالق عز وجل ، وفي علوم الأخلاق والآداب والفضائل ، فان كان بعض الباحثين كالدكتور خليل سعادة الذي ترجم لنا هذا الانجيل يعمل هذا بموافقته لفلسفة أرسطو التي كانت رائجة في قرون المسيحية الأولى — فان بعض علماء أوربة الباحثين المستقلين قد طعن بمثل هذه الشبهة في شريعة موسى وفي آداب الانجيل الأربعة فقالوا : إن التوراة مستمدة من شرائع المصريين الذين نشأ موسى في حجر فرعونهم — ثم قال بعضهم : إنها مستمدة من شريعة حمورابي التي هي أصل شرائع البابليين وكانت كتابة التوراة الحاضرة بعد السبي البابلي ، وفيها ألف من الكلمات البابلية — وقالوا : إن الآداب المسيحية مستمدة من كتب اليونان والرومان في الفلسفة العملية الاخلاق . . . ونحن مع أهل الكتاب لانعتقد بهذه الشبهات ، ولكننا نقيم الحجج عليهم بها في مثل المقام الذي نحن فيه وأمثاله مما لا محل لبسطه هنا .

ثم ان بقية بشارة حجى لانصدق على غير نبينا ﷺ محمد الأهم فهو الذي زلزل رب الجنود ببعثته العالم ، ونصره بالجنود وبالحجة جميعا ، وكان مجدد دين الله به أعظم من مجده بموسى وسائر أنبياء قومه ، وفرضت شريعة الزكاة وخمس الغنائم تنفق في سبيل الله فكانت الفضة والذهب لله — وفي النسخة السبعينية للعهد القديم : إن الآية التاسعة من هذه البشارة ، « إن المجد القديم لهذا البيت أعظم من المجد الذي كان للهيكلكم الأول » وهذه العبارة أظهر في المراد من ترجمة النصارى التي نقلنا عنها ، وحسبنا هذا من البشارات الكثيرة ، ومن

يهدي الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلا هادي له ومحمد تعالى أن جعلنا من أمة خاتم رسله والدعاة إلى ملته وصلى الله عليه وآله وسلم تسليماً

(١٥٧) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

ذكرت رسالة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في الآية التي قبل هذه من قصة موسى عليه السلام استطراداً بحسب نظم الكلام ، ولكنها هي المقصودة بالذات من القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام ، ولما كان ذكرها في سياق القصة لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وإقامة الحجّة عليهم بذكره ﷺ في كتبهم والبشارة برسالته على السنة أنبيائهم ، وبيان ما يكون لهم من الفلاح والفوز بالإيمان به ﷺ . انبعاثه بأسب أن يفى على ذلك ببيان عموم بعثته ﷺ ودعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله تعالى وبه فقال عز وجل مخاطباً له صلواته وسلامه عليه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى يفتيهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت العيسوية من اليهود فهو كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وقوله (واوحى إلى هذا القرآن لا نذركم به ومن بلغ) أي وأنذر به كل من بلغه من الثقليين ، فمن قال إنه يؤمن برسالته إلى العرب خاصة لا يعتد بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به ، وما في معناها كقوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهو يشمل عقلاء الجن . وفي هذا المعنى أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة كحديث جابر في الصحيحين وغيرها قال رسول الله ﷺ أعطيت خمساً لم يعطين أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمي أدركته الصلاة

فليصل ، وأحلت لى الذنائب ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . وفي رواية كافة . ورواه آخرون عن غيره باللفاظ أخرى . ولما كانت الشفاعة على إطلاقها غير خاصة ، ﷺ ذهب الجمهور إلى أن الخاص به الشفاعة العظمى لجميع الخلق بفصل القضاء فيهم ومحاسبتهم ليعلم مستقر كل منهم وفي أحاديث الصحيحين وغيرها أن أهل الموقف يرسلون الوفود إلى آدم فنوح فأبراهيم فموسى فيسى عليهم السلام يطلبون منهم الشفاعة عند الله تعالى بفصل القضاء ، فيعترف كل منهم بأن هذا ليس من شأنه ويقول «لست هناكم» . ويطلب النجاة لنفسه ويحيلهم على من بعده ، حتى إذا أحاطهم عيسى على محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين أجابهم إلى طلبهم وقال «أنا هنا» وفي رواية «أنا صاحبكم» فيشفع في فصل القضاء بين الخلق فتقبل شفاعته . وقيل إن المراد غير هذه الشفاعة وقيل ما يعينها وغيرها ، والروايات في الشفاعة متداخلة مضطربة ، ولسنا بصدد تحقيق القول فيها

ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وبالاحياء والإماتة فقال ﷻ الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ﷻ والمراد بملك السموات والأرض التصرف والتدبير فى العالم كله لما جرى عليه عرف البشر من أن السموات هى العوالم التى تملأ هذه الأرض التى يعيشون فيها وصاحب الملك والتصرف والتدبير فيهما هو ربهما رب العالمين ، وهو واحد ، ولو كان غيره تصرف لتعارض مع تصرفه وفسد النظام العام ، فان وحدة النظام فى جملة المخلوقات وعدم التفاوت والتعارض فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها ، وإذا كان رب الخلق واحداً وجب أن يكون هو المعبود وحده ، لا إله إلا هو ، والتوحيد بقسميه ، توحيد الربوبية بالإيمان وتوحيد الإلهية بالإيمان والعمل أى عبادة الله وحده — هما أصل الدين وأساسه ، والركن الأول لعقائده ، وقد اقترن برسالة الرسول ﷺ وهى الركن الثانى ، وأما وصفه تعالى بالإحياء والإماتة وهو بعض تصرف الرب فى خلقه فيتضمن عقيدة البعث بعد الموت التى هى الركن الثالث من أركان الإيمان ، فقد أدبجت فى دعوى الرسالة أركان الدين الثلاثة — وهو من إيجاز القرآن الغريب — وبني على ذلك الدعوة

إلى الإيمان على طريقة التفريع على هذا الأصل بل الأصول، وذلك قوله عز من قائل ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أى فآمَنُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ فِي رَبِّهِ بَيْتِهِ وَأَلُوهُيْتَهُ الَّذِي يَحْيِي كُلَّ مَاتَحْلِهِ الْحَيَاةَ فِي الْعَالَمِ ، وَيَمِيتُ كُلَّ مَا يَمْرُضُ لَهُ الْمَوْتُ بَعْدَ الْحَيَاةِ ، وَهَذَا أَمْرٌ يَتَجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ فَتُشَاهَدُونَهُ وَمِثْلُهُ الْبَعْثُ الْعَامُ بَعْدَ الْمَوْتِ الْعَامِ وَخَرَابُ هَذَا الْعَالَمِ ، وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ الْمَطْلُوقِ الْمُمْتَازِ بِأَنَّهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي بَعَثَهُ فِي الْأُمِّيِّينَ (الْعَرَبِ) رَسُولًا إِلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِسَابُ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ خَرَافَاتِ الشِّرْكِ وَالرَّذَائِلِ وَالْجَهْلِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّعَادِي بِعَصَبِيَّاتِ الْأَجْنَاسِ وَاللُّغَاتِ وَالْأَوْطَانِ لِيَكُونُوا بِهَدْيَاتِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً يَتَحَقَّقُ فِيهَا الْأَخَاءُ الْبَشَرِيُّ الْعَامُ ، وَقَدْ بَشَّرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِأَنَّهُ التَّمَامُ الْمَكْمُلُ لِمَا بَعَثُوا بِهِ مِنْ هَدَايَةِ الْأَقْوَامِ وَأَمِينُهُ ﷺ مِنْ أَكْثَرِ مَعْجَزَاتِهِ ، وَأَيَّةُ آيَةٍ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ أَقْوَى وَأَظْهَرُ مِنْ تَعْلِيمِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا لِجَمِيعِ الْأُمَمِ ، مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ ؟

﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى يُؤْمِنُ بِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَلِمَاتِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا لِهَدَايَةِ خَلْقِهِ ، وَهِيَ مَظْهَرُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَكَلِمَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ إِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ . وَبَعْدَ أَمْرِهِمْ بِالْإِيمَانِ أَمْرَهُمْ بِالْإِسْلَامِ فَقَالَ ﴿وَاتَّبِعُوا لِمَا كُنتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى وَاتَّبِعُوا بِالْإِذْنِ الْعَمَلِيَّ لِكُلِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَعَلًا وَتَرْكًا ، رِجَاءَ اهْتِدَائِكُمْ بِالْإِيمَانِ وَبِاتِّبَاعِهِ لِمَا فِيهِ سَعَادَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَثَمَرَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ اهْتِدَاءُ صَاحِبَيْهَا وَوَصُولُهُ بِالْفِعْلِ لِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَدَلِيلُهُ الْفِعْلِيُّ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ مَا آمَنَ قَوْمٌ بَنِي إِلَّا وَكَانُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ خَيْرًا مِمَّا كَانُوا قَبْلَهُ مِنْ هِنَاءِ الْمَعِيشَةِ وَالْعِزَّةِ وَالسُّكْرَامَةِ فِي دُنْيَاهُمْ ، وَأَظْهَرُ التَّوَارِيخِ وَأَقْرَبُهَا عَهْدُ تَارِيخِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ يَصِلَ بِهِمُ الْجَهْلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ هَذِهِ الْهَدَايَةِ الَّتِي نَالُوا بِهَا الْمُلْكَ الْعَظِيمَ وَالْعِزَّ وَالسُّؤْدُدَ وَالْفَنَى وَالْحَضَارَةَ ، وَأَعْجَبَ مِنْهُ أَنَّ يَزُولَ الْمَعْلُولُ بِزَوَالِ عِلَّتِهِ وَعَمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِهِ فَيَعُودُوا إِلَيْهِ ، وَأَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَنْ يَصِلَ بِهِمُ الْجَهْلُ إِلَى أَنْ يَمْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ هَدَايَةَ الْإِسْلَامِ الَّتِي سَعَدُوا بِهَا ثُمَّ شَقُّوا بِتَرْكِهَا هِيَ سَبَبُ هَذَا الشَّقَاءِ الْأَخِيرِ لَا تَرْكُهَا

﴿ فصل في معنى اتباع الرسول وموضوعه ولوازمه ﴾

قوله تعالى هنا (واتبعوه) أعم من قوله في الآية التي قبلها (واتبعوا النور الذي أنزل معه) فتلك في اتباع القرآن خاصة وهذه تشمل اتباعه ﷺ فيما شرعه من الأحكام من تلقاء نفسه ، على القول بأن الله تعالى أعطاه ذلك وأذن له به ، واتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن إذا كان تشريعاً - كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كالجمع بين الأخنتين المنصوص في القرآن - ولا يدخل فيه اتباعه فيما كان من أمور العادات كحديث « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك » رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم وصححه ورواه غيرهما بألفاظ أخرى وأسانيده ضعيفة ، وحديث « كلوا البلعج بالتمر » الخ رواه النسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة وصححه ، فإن هذا من أمور العادات التي لأقربة فيها ولا حقوق تقتضي التشريع ، بخلاف حديث « كلوا لحوم الاضاحي وادخروا » رواه أحمد والحاكم عن أبي سعيد وقنادة بن النعمان وسنده صحيح . قال الاضاحي من النسك ، والاكل منها سنة فأمر المضحي به للندب ، وادخارها جائز له ، ولولا الأمر به لظن تحريمه أو كراهته لعلاقة الاضاحي بالعيد فهي ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد . فالتشريع بإمعاودة أمرنا بالتقرب إلى الله تعالى بها وجوباً أو ندباً ، وإمام فسدته نهينا عنها اتقاء لضررها في الدين كدعاء غير الله فيما ليس من الأسباب التي يعارض عليها الناس وكأكل المذبح لغير الله وتعميم غير الله بما شرع تعظيم الله به من الذبح له والحلف باسمه - أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة - وإما حقوق مادية أو معنوية أمرنا بأدائها إلى أهلها كالموارث والنفقات ومعاشرة الأزواج بالمعروف ، أو أمرنا بالترامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود ، وبإدخال حكم الاستحباب وحكم كراهة التنزيه في التشريع تتسع أحكامه في أمور العادات كما يعلم مما يأتي :

ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق الله تعالى ولا خلقه لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء ارشاداً لا تشريعاً إلا ما ترتب على النهي عنه وعيد كلبس الحرير ،

وقد ظن بعض الصحابة (رض) أن انكار النبي ﷺ لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتنقيح النخل فامتنعوا عنه فاشاص (خرج ثمره شيصاً أى رديئاً أو يابساً) فراجعوه في ذلك فأخبرهم أنه قال ما قال عن ظن ورأى لأعن تشريع وقال لهم «أنتم أعلم بأمر دنياكم» والحديث معروف في صحيح مسلم وحكته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية كالزراعة والصناعة لا يمتاق بها لذاتها تشريع خاص بل هي متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم .

وكانوا يراجعونه أيضاً فيما يشبهه عليهم أهو من رأيه ﷺ واجتهاده الدنيوى أو بأمر من الله تعالى وإن لم يكن تشريعاً كقوله عن الموضع الذى اختاره للنزول فيه يوم بدر، قال له الحباب بن المنذر (رض) : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأى لاوحى وأن المول فيه على المصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافقهم ﷺ .

وإذا اشتبه على بعض الصحابة بعض هذه المسائل فغيرهم أولى بأن يعرض لهم الاشتباه فى كثير منها ، وكان النبي ﷺ يبين لأولئك الحق فيما اشتبهوا فيه ، ومن ذا يبين ذلك من بعده ؟ ولو لم يتخذ الناس اجتهاد العلماء من بعده ديناً يوجبون اتباعه لكان الأمر ، ولكن اتخذه ديناً قد كثرت به التكاليف ، ووقع المسلمون به فى حرج عظيم فى الازمنة التى ضعف فيها الانباع ، فثقلت على الطباع ، فصاروا يتركون ما نقل عليهم منها ، وجرائم ذلك على ترك المشروع القطعى الذى لا حرج ولا عسر فيه ، ثم جرم ذلك إلى ترك بعضهم للدين كله ودعوة غيرهم إلى ذلك ، والجاهلون من مقلدة الفقه المتشددين فى إلزام الأمة الندين باجتهاد الفقهاء لا يشعرون بهذه العاقبة السوءى ولا يبالون إذ أشعرهم المصلحون .

مثال ما شدد به بعضهم من ذلك صبغ الشيب بالسواد هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة إذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس ، إلام قد يعرض فيه وفى مثله كالزى من كون فعله أو تركه صار خاصاً بالكفار وفعله بعض المسلمين تشبها بهم أو صار بفعله له مشابها لهم بحيث يعد منهم ، وفى ذلك ضرر معنوى وسياسى معروف عند الباحثين فى سنن الاجتماع من كون المتشبه يقوم تقوى عظمتهم فى نفسه من حيث تضمف فيها رابطة بقومه وأهل ملته ، وقد ورد فى صبغ الشيب أخبار وآثار يدل بعضها على استحبابه عادة لا عبادة ولو بالسواد ، وفهم بعض

العلماء منهما استحبابه شرعا ، وفهم آخرون من بعض آخر كراهته بالسواد ، بل قال المشددون منهم بتحرمة ، فصار المقلدون لهم ينكرون على فاعله و يعدونه عاصيا لله تعالى ، فخالفوا هدى السلف في المسألة وفي القاعدة العامة وهي عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف .

فمن الاخبار في المسألة ماورد في الصحيح «أن أبا قحافة والد أبي بكر الصديق (رض) جاء أو أتى به يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالنغامة»^(١) بياضا فقال رسول الله ﷺ «غيروا هذا بشئ واجتنبوا السواد» فاستدل الشافعية بهذا الحديث على تحريم الصبغ بالسواد مع أن الحديث في واقعة عين تتعلق بأمر عادي فلا هي من مسائل الحرام والحلال ولان المسائل التي يعتبر فيها العموم كما هو مقرر في الأصول ، وهي مع ذلك معارضة باطلاق الأمر بصبغ الشيب الموجه للأمة وهو قوله ﷺ «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوه» رواه الشيخان وأصحاب السنن الأربعة - وبقوله ﷺ «إن أحسن ما غيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم» وظاهره تغييره بها معا ، وإلّا لقال أو الكتم ، ويؤيده ماصح عن أبي بكر الصديق (رض) أنه كان يخضب بالحناء والكتم معا ، وقد حقق العلامة ابن الأثير أن الخضاب بهما معا يكون أسود . وقال بعضهم إنه أسود يضرب إلى الحمرة أى ليس خالكا ، والجمع بين القولين أنه يكون شديد السواد إذا كان قويا مشبعا و يضرب إلى الحمرة إذا كان خفيفا وهو أسود على كل حال وذكر بعض العلماء أن سبب أمر النبي ﷺ باجتنب السواد في تغيير شيب أبي قحافة أنه لم يستحسنه لشيخ بلغ من الكبر عتيا ، وكان شعر رأسه ولحيته كالنغامة في شدة بياضه كله ، ومن رجم إلى ذوق البشر العام أدرك أن السواد لا يليق بمثله ويؤيده ما ذكره الحافظ في الفتح عن ابن شهاب الزهري أنه قال : كنا نخضب بالسواد إذا كان الوجه جديدا فلما نفص الوجه والاسنان تركناه اه ، ومثل هذه الخصوصيات قال الأصوليون إن وقائع الأعيان لا عموم لها . وذكر الحافظ في الفتح أيضا أن الذين أجازوا الصبغ بالسواد تمسكوا بالأمر المطلق بتغييره مخالفة للأعاجم (وقال) وقد رخص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر والحسن والحسين وجريرو وغير واحد (أى من الصحابة) أقول وقد نقل النووي في شرح الحديثين من صحيح مسلم عن

(١) النغامة بالفتح نبت له نور أبيض شديد البياض واحده نغامة

القاضي عياض بعد مجزئه هو بأن الأصح المختار عند الشافعية تحريم السواد مائة: «وقال القاضي: اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه فقال بعضهم ترك الخضاب أفضل. ورووا حديثاً عن النبي ﷺ في النهي عن تغيير الشيب ولأنه ﷺ لم يغير شيبه، روى هذا عن عمر وعلي وأبي وأخرين رضي الله عنهم. وقال آخرون الخضاب أفضل وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم للأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره، ثم اختلف هؤلاء فكان أكثرهم يخضب بالصفرة منهم ابن عمر وأبو هريرة وآخرون، وروى ذلك عن علي. وخضب جماعة منهم بالخناء والكتم وبعضهم بالزعفران، وخضب جماعة بالسواد. روى ذلك عن عثمان والحسن والحسين ابني علي، وعقبة بن عامر وابن سيرين وأبي بردة وآخرين (قال القاضي) قال الطبراني (١) الصواب أن الآثار المروية عن النبي ﷺ بتغيير الشيب والنهي عنه كلها صحيحة وليس فيها تناقض بل الأمر بالتغيير لمن شابه كشيء أبي قحافة والنهي لمن له شمت فقط (قال) واختلاف السلف في فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس للوجوب بالاجماع، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك (قال) ولا يجوز أن يقال فيهما ناسخ ومنسوخ (قال القاضي) وقال غيره هو على حالين فمن كان في موضع عادة أهله الصبغ أو تركه فخروجه عن العادة شهرة ومكره والثاني أنه يختلف باختلاف نظافة الشيب فمن كانت شيبته تكون نقية أحسن منها مضبوغة فالترك أولى ومن كانت شيبته تستبشع فالصبغ أولى (قال النووي) هذا ما نقله القاضي والأصح الأوفق للسنة ما قدمناه عن مذهبنا والله أعلم اهـ

أقول إن هذا الإصرار من النووي رحمه الله تعالى على تصحيح مذهب أصحابه وجعله أوفق للسنة من غريب تعصبه لهم بعد العلم بعمل بعض عظماء الصحابة والتابعين بخلافه وسائر ما نقله عن القاضي وغيره في المسألة، ومنه قول الإمام الطبري من أن الأمر في هذه المسألة - وكذا أمثالها - ليس للوجوب والنهي ليس للتحريم لأنها من أمور العادات والزينة والتجمل بين الناس، وما نقله عنه وعن غيره من كونها تختلف باختلاف السن وباختلاف العادة والأحوال بين الناس، ويعتبر فيها الذوق في الزينة هو الصواب كما قال الطبري، وأي مدخل للتحريم في مثل هذا ولا محرم في الشريعة السمحة إلا ما كان ضاراً ؟

(١) كذا في الأصل والذي أذكره أن قائل هذا هو الإمام الطبري لا الحافظ الطبراني

وقد سبق لنا تفصيل لهذه المسألة وأماها كسفن الفطرة في فتاوى المنار، ومنه أن حديث ابن عباس عند أبي داود « يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يرمحون رائحة الجنة » ضعيف متنا وسنداً بل قال ابن الجزري أنه موضوع ويؤيده أن من آيات الوضع في متنه الوعيد بالحرمان من رائحة الجنة على أمر من العادات ولا يحرم من الجنة إلا الكافر بالمعنى الأخص دع مخالفته لحديث الصحيحين ، وفي سنده عبد الكريم غير منسوب والظاهر أنه ابن أبي الخارق وهو ضعيف ، فإن قيل يحتمل أنه الجزري الذي روى عنه الشيخان قلنا التصحيح لا يثبت بالاحتمال ولا سيما في أمر مخالف لأصول الشرع كهذا الوعيد وإن ابن حبان منع من الاحتجاج بما ينفرد به عبد الكريم الجزري كهذا الحديث

وما نقله القاضي عن الذين اختاروا عدم تغيير الشيب من أن النبي ﷺ لم يغير شيبته غير صحيح بل ثبت في الصحيح أنه خضب رواء البخاري وغيره عن ابن عمر وأم سلمة وله باب في شمائل الترمذي فيراجع مع شروحه . وفي الأصول أن أفعاله ﷺ لا تدل من حيث هي على وجوب ولا ندب شرعي وإنما تدل على الإباحة لأنه لا يفعل الحرام ، وعدم فعله لمادة من عادات الناس أولى بأن لا يدل على حرمتها ولا كراهتها ديناً . وقد صح أنه نبه الأمة إلى أن بعض أعماله في بعض العبادات لم يقصد بها التشريع كوقفه في عرفات والمزدلفة لئلا يلتزموها تديناً فيكونوا قد شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله . على أن من توخى اتباعه عليه صلوات الله وسلامه في العادات حبا فيه وتذكراً لحياته الشريفة بدون أن يمتد أن ذلك من الدين أو يوم الناس ذلك أو يتحمل ضرراً لا يباح التعرض له شرعاً ومن غير أن يكون سبب شهرة مذمومة شرعاً - فجدير بأن يكون اتباعه هذ مزيد كل في إيمانه من حيث أنه يتجرى ذلك يزيد تذكره للنبي ﷺ وحببه له ، وقد انفرد من الصحابة ابن عمر (رضي الله عنهما) بتقمع أعماله وعاداته وتقلبه في سفره ولا سيما سفر حجة الوداع وتجرى اتباعه في ذلك كله ولم يكن سائر الصحة يفعلون ذلك لئلا يعبده الناس تشريعاً فيكون جنابة على الدين فالزيادة فيه كالنقص منه وهي تتضمن تكذيب قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وجوب تبليغ دعوة الإسلام ورسالة محمد ﷺ لجميع البشر

ومما يدخل في أحكام رسالته ﷺ للناس كافة أن الله تعالى لا يقبل إيمان أحد بلغته دعوته على وجهها الصحيح إلا بالإيمان به واتباعه ، وأنه يجب على

أُمتُهُ أُمّة الإِجابة وهم الذين اهتدوا بما جاء به من الإِيمان والإِسلام ، أن يبلغوا دعوتَهُ لجميع الناس من جميع الأمم ، على الوجه الذى يحرك إلى النظر ، ويجب أن يكون القائلون بذلك منهم جماعات تتعاون عليه إذ لا يغنى الأفراد غناء الجماعات سواء أ كانت الدعوة إلى أصل الإِيمان الاجمالى الذى هو بدء الدعوة - أم إلى الشرائع التفصيلية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويشمل ذلك كله قوله تعالى (٣ : ١٠٤) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقد ذكرنا فى تفسيرها ما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام من كون الراجح المختار أن قوله تعالى (ولتكن منكم أمة) تجريد كقول القائل : ليكن لى منك صديق . أى لتكن صديقاً لى ، وأنه يجب على جميع المسلمين أن يكونوا دعاة إلى الخير الأعظم الذى هداهم الله إليه ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، كل على قدر حاله واستطاعته كما كان المسلمون فى المصدر الأول ، وأنه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تعد لها عدتها وأن هذا متعين على الوجه الآخر فى الآية وهو جعل منكم للتبعض الخ (راجع ص ٢٧ - ٤٥ ج ٤ تفسير وكذا ص ٢٨ منه)

وتبليغ الدعوة إلى الإسلام على الوجه الذى تقوم به الحجة يختلف باختلاف الزمان والمكان والأفراد والأقوام ، فقد كان مشركو العرب فى عصر البعثة يؤمنون بأن الله تعالى هو رب العالمين وخالق الخلق ومدبر أموره وأنما كانوا يشركون بعبادته غيره من الملائكة والجن والأصنام زاعمين أنهم يقر بربهم إليه رافق ويشفعون لهم عنده فيقضى لهم حاجهم من جلب خير ودفع ضرر بوساطتهم ، وكانوا يشكرون البعث والحياة بعد هذه الحياة الدنيا وينكرون الرسالة والوحى من الله لبعض البشر فكان النبي ﷺ يدعوهم أولاً إلى التوحيد الذى هو عنوان الإسلام وباب الدخول فيه لأنه الركن الأعظم ، ثم أنه كان يقيم لهم الحجج والبراهين على توحيد الألوهية وهو أفراد الله وحده بالعبادة وعلى حقية الرسالة والبعث والجزاء مع دفع ما عندهم من الشبهات على ذلك كآثره مضاف فى سورة الأنعام التى هى أجمع سورة فى القرآن لذلك وكذا فى غير هاتين السورتين المسكية . وبلى ذلك دعوتهم إلى أصول الشريعة وقواعدها السكينة فى الآداب والفضائل والحلال والحرام ثم إلى الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد . وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانوا يؤمنون بالله وبالوحى

والرسل والبعث والجزاء ، ولكن دخلت على أكثرهم الوثنية القديمة بجميع أصولها وفروعها ولاسيما النصارى الذين أقاموا عقيدتهم على أساس التثليث المعروف عن قدماء المصريين والهنود وغيرهم من الوثنيين ، وكان اليهود يزعمون أن النبوة والرسالة محصورة في بنى إسرائيل لا يمكن أن يبعث الله رسولا من غيرهم ، وكانت التوراة قد فقدت في غزو البابليين لهم . ثم كذب بعضهم لهم توراة بعد عدة قرون هي عبارة عن تاريخ ديني مشتمل على قصص الأنبياء إلى عهد موسى وهارون وعلى ما تذكر الكتاب من شريعة التوراة مع تحريف وأغلاط كثيرة ، وكان الإنجيل الذى جاء به عيسى عليه السلام من وعظ وتعليم وإشارة قد ادعاه كثيرون فظهر في العصر الأول بعده زهاء سبعين إنجيلا اختار الجمهور الذى جمع شمله الملك قسطنطين - الوثنى الذى تنصر سياسة - أربعة منها فيها كثير من الخلاف والتعارض ، وذلك بعد المسيح بثلاثة قرون وفشا فيهم منذ عهد هذا الملك الوثنى المنتصر عبادة السيدة مريم عليها السلام وغيرها من الصالحين حتى صارت الكنائس النصرانية كلها كل الأوثان مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة — فكانت دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الاسلام وحججه عليهم التى أنزلها الله عليه في القرآن تختلف من بعض الوجوه عن دعوة المشركين الأصليين كما تراه مبسوطا في السور الطول الأربع الأولى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة — ففي الجزء الأول من البقرة من القرآن ، يوجه أكثر الكلام إلى اليهود وذكرت فيه النصارى بالعرض — وأوائل سورة آل عمران نزلت في حجاج نصارى نجران . وفي أواخر النساء كلام في أهل الكتاب أكثره في النصارى — وجل سورة المائدة في أهل الكتاب عامة والنصارى خاصة وأما هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة ، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتوكلون فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة عند الأقدمين ، وحدثت للناس آراء ومذاهب في الحياة فيها الحسن والقبيح ، والنافع والضار ، بل منها ما قد يقضى إلى فساد العالم وتقويض دعائم العمران . ومثارد ذلك كله ذبوع التعاليم المادية وفوضى الآداب وتدهور الأخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل ، وقد ظهر هذا الفساد في أفضع صورة في حرب المدينة الكبرى وما ولدته من تفاقم شره

٣٩٠ أدلة كون القرآن عربياً ووجوب معرفة لغته على المسلمين (تفسير . ج ٩)

المستعمرين وشركهم وفظائهم في الشرق ، وانتشار البلشفية ومفاسدها في البلاد الروسية وغيرها ، وبث دعوتها في العالم - فصار من الواجب مراعاة ذلك في الدعوة إلى الدين والاحتجاج له ورد الشبه التي توجه إليه . وقد ذكرت في تفسير آية سورة آل عمران المشار إليها أنفاً (أى ١٠٤:٣) حاجة الداعي إلى الاسلام في هذا الزمان إلى أحد عشر علماً منها السياسة ولغات الأقسام الذين توجه إليهم الدعوة وأثرت هنالك إلى مقالة كنت كتبتها قبل ذلك في المنار في الدعوة وطريقها وآدابها

اللغة العربية لغة الإسلام

ومما يدخل في بحث اتباعه صلوات الله وسلامه عليه تعلم لغته التي هي لغة الكتاب الإلهي الذي أوحاه الله تعالى إليه وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعمده به وأن يتلوه في الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل في معانيه ، وذلك ينوقف على اتقان لغته وهي العربية . فالسالمون يملعون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى إذا ما هدى الله من شاء منهم ودخل في الاسلام علموه أحكامه ولغته ، وكذلك كان يفعل الخلفاء الفاتحون في خير القرون وما بعدها إلى أن تغلبت الأعاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة إلى الاسلام وضعف العلم بالعربية إلى أن قضى عليها الترك وحرمتها حكومتهم عليهم في هذا الزمان ، لتقطع كل صلة لهم بدين القرآن ، وقد فصلنا هذه المباحث في مجلة المنار تفصيلاً

ومما نشرناه في هذا الموضوع مقال في لغة الاسلام نشرناه أولاً في بعض الجرائد اليومية وفيه تصريح للامام الشافعي رضي الله عنه بوجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين في رسالته في أصول الفقه ، ذلك بأنه يبين أن القرآن كله نزل بلسان العرب ليس فيه شيء إلا بلسانهم ثم قال مانصه . « فان قال قائل : ما الحاجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلط فيه غيره ؟ فالجواب فيه كتاب الله ، قال تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)

« فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة ؟ (قيل) فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا

لسانه ، أو ما يطبقونه منه . ويحتمل أن يكون بعث بالسنتهم ^(١) ؟ فان قال قائل .
فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟؟

قال الشافعي رحمه الله تعالى . فالدلالة على ذلك بينة من كتاب الله عز وجل
في غير موضع ، فاذا كانت الالسنه مختلفه بإلايفه بعضهم عن بعض فلا بد أن
يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع وأولى
الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ﷺ ، ولا يجوز - والله تعالى أعلم - أن
يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان
تبع لسانه وكل أهل دين قبله فعليه اتباع دينه ، وقديين الله تعالى ذلك في غير
آية من كتابه . قال الله عز ذكره (وانه لتنزىل رب العالمين * نزل به الروح الأمين *
على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكماً
عربياً) وقال (وكذلك أوحينا اليك قرآننا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال
تعالى (حم والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)

قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأقام حجته بأن كتابه عربى في كل آية ذكرناها ،
ثم أكد ذلك بأن نبي جل وعز عنه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه
فقال تبارك وتعالى (ولقد تعلم أنهم يقولون : إنما يملئه بشر . لسان الذى يلحدون
اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا
فصلت آياته ؟ أأعجمى وعربى ؟)

قال الشافعي رحمه الله تعالى : وعرفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال
تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه) الآية ، وقال هو الذى
بعث في الأميين رسولا منهم (الآية) ، وكان مما عرف الله تعالى نبيه ﷺ من انعامه
أن قال (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه بكتابه وقال (وإنذر
عشيرتك الأقربين) وقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة

وهي بلده وبلد قومه ، فجعلهم في كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن يندروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتى البيت ومأمر بآتيانه ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعاً

« قال الشافعي رحمه الله : وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل لغة لسان العرب وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها . ومن علمها انتفت عنه شبهة التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو إدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه ، وترك موضع حظه ، فكان يجمع مع النصيحة لهم قياماً بإيضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله وطاعة الله جامعة للخير » اهـ ثم ذيلنا هذا النقل بما نذكر هنا ملخصه ببعض تصرف وهو :

هذا ما قاله الإمام الشافعي في رسالة الأصول الشهيرة المطبوعة بمصر بنصها ، ولا تحسبن أن هذا مذهب له خالفه فيه غيره من أئمة المسلمين ، كلا أنه إجماع لا اختلاف فيه ، وقد اشتهرت رسالته هذه في جميع أقطار الإسلام إذ كانت هي أول ما كتب في أصول الفقه ، وقد خالفه بعض المجتهدين في بعض مسائل الأصول دون هذه المسألة فلم يخالفوه ولم يناقشه أحد فيها ، ولا فيما أورده من الأدلة عليها ، وأوضح الأدلة على هذا إجماع المسلمين سلفاً وخلفاً على التعبد بتلاوة القرآن العربي وأذكار الصلاة والحج وغيرهما بالعربية ، لم يشذ عن هذا سني ولا شيعي ولا أباضي ولا خارجي ولا معتزلي نعم إن المسلمين قد قصروا في دراسة هذه اللغة بعد ضعف الخلافة الإسلامية وتقلب الأعاجم ففعلوا بذلك بعض ما أمرهم الله تعالى به من تدبر القرآن والعبرة والاتعاظ

بآياته وفهم عقائده وفقه أحكامه ، ولكن روى قول شاذ عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى يجوز أداء بعض أذكار الصلاة والتلاوة فيها بغير العربية لمن تعذر عليه تعلم ما يجب منهما أى من الأفراد لضعف في لفظه وفهمه ، وقد صح عنه أيضاً أنه رجع عن هذا القول ، على أنه مقيد بالضرورة الشخصية ، ولم يقل هو ولا غيره باطلاق ذلك وأنه يسمع أى شعب أعجمي أن يستغنى في دينه عن لغة كتابه وسنته ، والدليل على هذا أن جميع مقلديه من الأعاجم لا يزالون يقرؤون القرآن وأذكار الصلاة والحج وغيرها بالعربية وكذلك خطبة صلاة الجمعة والعديد من إلاما شذت به الحكومة الكالية التركية فأمرت الخطباء بأن يخطبوا بالتركية تمهيداً للصلاة بالخلم ربة الإسلام وقد بلغنا أن جماعة المصلين من الترك لما سمعوا خطبة الجمعة بالتركية نسكروها ونفروا منها واتخذوا خطبائها سخرياً لأن للعربية سلطاناً على أرواحهم يخشعون لها وإن لم يفهموا كل عباراتها ولا أنهم اعتادوا أن يسمعوها بنغم خاص وأداء خاص لا تقبله اللغة التركية كالعربية .

وايست عبادات الإسلام وحدها هي التي تتوقف على العربية بل معرفة أحكام المعاملات تتوقف عليها أيضاً فان أحكام الشريعة بجميع أنواعها حتى المدنية والسياسية متوقفة على الاجتهاد المعبر عنه في عرف هذا العصر بالتشريع ، وقد أجمع علماء الاصول من جميع المذاهب الإسلامية على توقف الاجتهاد في الشرع واستنباط الأحكام على معرفة اللغة العربية معرفة تمكن صاحبها من فهم أحكام القرآن والسنة ، وقد وضعنا هذه المسألة وبيننا وجه الحاجة اليها في هذا العصر في كتاب (الخلافة - أو الامامة العظمى) فراجع فيه

وجلة القول : أن إقامة دين الإسلام متوقفة على لغة كتابه المنزل وسنة نبيه المرسل ، سواء في ذلك هدايته الروحية ، ورابطته الاجتماعية ، وحكومته العادلة المدنية ، وأن المسلمين لم يكونوا في عصر من العصور أحوج إلى الوحدة المفروضة عليهم المتوقفة على هذه اللغة منهم في هذا العصر الذي تمزقوا فيه كل ممزق ، فأصبحوا أكلة لمنهموى الاستعمار ومستعبدى الامم والشعوب ، وصدق فيهم قول النبي ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الامم كأن تداعى الأكلة إلى قصعتها » الحديث

بحث ترجمة القرآن

سيقول بعض الجاهلين لحقيقة الإسلام وكونه ديناً روحانياً مديناً سياسياً ،
و بعض أولى العصبية الجنسية الجاهلية : إن مقتضى ما ذكرت أنه لا يمكن إقامة
دين الإسلام كما يجب إلا باللغة العربية ، فلماذا لا يجوز على شعوب المسلمين ما جاز
على شعوب النصارى مثلاً من ترجمة كتبهم المقدسة بلغاتهم المختلفة مع بقائهم على
دين النصرانية و ملة المسيح عليه السلام ؟

ونقول (أولاً) إن المسألة عندنا مسألة نقل واتباع لا مسألة رأي ، وقد علمت أن
أئمتنا مجمعون على ما ذكرنا (وثانياً) أننا نحن المسلمين لا نعتقد أن النصارى على ملة
المسيح عليه السلام ولا يصح أن يزيد على ذلك اعتقادنا هذا في صحيفة عمومية ^(١) وثالثاً
إن ترجمة القرآن المعجز للبشر ترجمة تؤدي معانيه تأدية تامة كما أنزلها الله تعالى و يبق
بها معجزاً وآية - معتدرة ، وقد بينا هذا بالأيضاح في مجلدتنا (المنار) ولا محل له هنا
(ورابعاً) إذا فرضنا أن ترجمة الكتاب والسنة لا تخل بفهم أصول الدين وفروعه وتشريعه
أفلا تخل بما هو موضوع هذا المقال من وجوب وحدتهم وتعارفهم وتعاونهم - وتوقف
ذلك على لغة واحدة ضروري - فإذا لم تكن لغة جميع أفراد شعوبهم فلنكن مما يتقنه
طوائف رجال الدين ودعاة الوحدة والاتفاق منهم ؟ بلى بلى اهـ

﴿ تفصيل القول في ترجمة القرآن ﴾

كتبنا في فاتحة المجلد ٢٦ من المنار مقالاً في مسألة ترجمة القرآن
نذكر هنا منه ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الز تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون *
(سورة يوسف ١٢ : ٢٠١)

(١) المراد بها جريدة الاهرام التي نشرنا فيها هذا المقال

وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يُحدثُ لهم ذكرًا * (سورة طه ٢٠: ١١٣)

ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين * (الاحقاف ٢٦: ١٢)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلمهم يتقون * (سورة الزمر ٣٩: ٢٦ و ٢٧)

حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * (سورة فصلت ٤١: ١-٣)

حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكمكم * (الزخرف ٤٣: ١-٤)

وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير (سورة الشورى ٤٢: ٧)

وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لى زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل * ولو أنزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (سورة الشعراء ٢٦: ١٩٢-١٩٩)

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين * (سورة النحل ١٦: ١٠٢ و ١٠٣)

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عى ، أولئك ينادون من مكان بعيد * (سورة فصلت ٤١ : ٤٤)

وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مآلك من الله من ولى ولا وائى * (سورة الرعد ١٣: ٣٧)

﴿ أما بعد ﴾ فهذه آيات محكمات هن أم الكتاب فى هذا الباب ، تتجاوزن جميع القلة

إلى جمع الكثرة وعدون إشارات الإيجاز وحدود المساواة إلى باحة الإطناب ، ينطقن بنصوص صريحة لا تحتل التأويل ، ولا تقبل التبديل ولا التحويل ، بأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي جعله آخر كتبه ، على خاتم أنبيائه ورسله . قرآننا عربيا ، وأنه هو الذي جعله قرآننا عربيا ، وأنه هو الذي أوحاه قرآننا عربيا . وأنه هو الذي فصل آياته قرآننا عربيا ، وأن الروح الأمين ، نزل به على قلب خاتم النبيين . بلسان عربي مبين : وأنه ضرب فيه للناس من كل مثل ، والمراد بالناس أمة الدعوة من جميع الملل والنحل ، حال كونه قرآننا عربيا غير ذي عوج ، وأنه أمر خاتم رسله أن ينذر به (أم القرى) ومن حولها من جميع الوردى ، وأنه على إنزاله إياه قرآننا عربيا للأنذار والذكرى ، والوعيد والبشرى ، لعلمهم يعقلون ولعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ، أنزله حكما عربيا ، وأمر من أنزله عليه أن يحكم بين جميع الناس بما أراه الله فيه من الحق والعدل ، الذي جعله فيه حقا مشاعا لا هوادة فيه ولا محابة لقراءة ولا فضل ، فقال (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصما) اقرأ الآيات (من سورة النساء ١٠٤ : ١١٤) بطولها . وراجع سبب نزولها ، فلم من هذه الآيات المحكمة أن القرآن هداية دينية عربية ، وأنه حكومة دينية مدنية عربية ، عربية اللسان ، عامة لجميع شعوب نوع الانسان .

وصلوات الله وتحياته المباركة الطيبة على محمد النبي العربي الأمين ، الذي جعله سيد ولد آدم وفضله على جميع النبيين والمرسلين ، بإكمال دينه بلسانه وعلى لسانه وإرساله لجميع العالمين ، وجعل هداية رسالته باقية إلى يوم الدين ، بقوله سمعت رحمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * ٢١ : ١٠٦) وقوله تبارك اسمي (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * ٢٥ : ١) وقوله تعالى جده (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ٣٤ : ٣٨) وقوله جل جلاله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما * ٣٣ : ٤٠) وقوله عم نواله فيما أنزله عليه في حجة الوداع يوم الحج الأكبر (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً * ٥ : ٤)

وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه دعوة ربه كما أمر ، فبدأ بأمر القرى ثم بما حولها من

جزيرة العرب وشعوب العجم ، باللسان العربى الذى قضى الله أن يوحد به السنة جميع الأمم ، فيجعلهم أمة واحدة بالمقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة ، ليكونوا بنعمته إخوانا لامثار بينهم للعداوات التى تفرق بين الناس بعصبيات الأنساب والأقوام والأوطان والألسنة ، فكتب ﷺ كتبه إلى قيصر الروم وكبرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية ككتبه إلى ملوك العرب وأمرائهم ، وبلغ أصحابه ما أمر الله به أمته من تعميم الدعوة ، وبشرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب ، فصعد الصحابة والتابعون هديهم ، وجميع دول الإسلام من بعدهم ، بما أمروا به من نشر هذا الدين بلغته ، فى كلا قسمى شريعته عبادته وحكومته .

فكان الإسلام ينتشر فى شعوب الأعاجم من قارات الأرض الثلاث (آسية وأفريقية وأوربة) بلغته العربية ، فيقبل الداخلون فيه على تعلم هذه اللغة بباعث العقيدة ، وضرورة إقامة الفريضة ، ولا سيما فريضة الصلاة التى هى عماد الدين ، وأعظم أركانه بعد التصريح بالشهادتين ، اللتين هما عنوان الدخول فيه ، على أنهما من أعمال الصلاة أيضا ، فكان تعلم العربية من ضروريات الإسلام ، عند جميع تلك الشعوب والأقوام ، بالاجماع العلمى العملى ، التبعيدى والسياسى ، الا ما كان من تقصير دولة الترك العثمانين ، بعدم جعل العربية لغة رسمية للدواوين ، كسلفهم من السلجوقيين والبوبيين ، حتى بعد تنحلهم للخلافة الإسلامية ، ورفع ألويتهم على مهد الإسلام من البلاد الحجازية ، فأل ذلك إلى التعارض والتعاضد بين العصبية التركية اللغوية ورابطة الإسلام ، فالتفرق والتقاتل بين الترك والعرب فإلغاء الخلافة العثمانية فاسقاط دولة آل عثمان ، وتأليف جمهورية تركية العصبية والثرية والتعليم ، أوربية العادات والتقنين والتشريع ، وإبطال ما كان فى الدولة من المصالح الإسلامية ، كشيخة الإسلام والأوقاف والمدارس الدينية والمحاكم الشرعية وصرحوا بأن حكومتهم هذه مدنية غربية لادينية وأنهم فصلوا بين الدين والدولة فصلا تاما كما فعلت الشعوب الافريقية ، على أنهم لما وضعوا قانون هذه الجمهورية قبل التجروء على كل ما ذكر ، وضعوا فى موادها الدين الرسمى للدولة هو الاسلام مراعاة للشعب التركى المسلم ، كما وضعوا فيه مواد أخرى تنافى الإسلام من استقلال المجلس الوطنى المنتخب بالتشريع بلا قيد ولا شرط ، ومن إباحة الردة واستحلال ما حرم الشرع ، وظهر أثر

ذلك بالقول والفعل ، كالظن الصريح في الدين والاستمراء به حتى في الصحف العامة وكاباحة الزنا والسكر المسلمين والمسلحات ، وبروز النساء التركيات في معاهد الفسق ومحافل الرقص كاسيات عاريات ، مائلات بميلات ، إلى غير ذلك من منافيات الدين ، ولكن هذا كله لم يرو غليل العصبية اللغوية التورانية ، ولم يذهب بحقدتها على الرابطة الاسلامية ، وآدابها الدينية العربية ، بل كان من كيدها لها السعى لازالة كل ما هو عربي من نفس الشعب التركي ولسانه ، وعقله ووجدانه ، ليسل عليهم سبيلهم من الاسلام ، بمعونة التربية الجديدة والتعليم العام ، بل عمدوا إلى هذه الشجرة الطيبة الثابت أصلها ، الراسخ في أرض الحق والعدل والفضل عرقها ، الممتد في أعلى السماء فرعها ، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، عمدوا إليها لاجتناث أصلها واقتلاع جذورها بعد ما كان من التجاء عودها ، وامتلأخ أملودها ، وخضد شوكتها وعضد خصلتها بعد أن نعموا بضعة قرون بثمرتها ، وإنما تلك الشجرة الطيبة هي القرآن الكريم الحكيم الجيد العربي المبين ، هي الزيتون المباركة الموصوفة بأنها لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، فإذا مسته نار الإيمان بحوارتها اشتعل نورا على نور (يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)

وإنما أعنى بقطع هذه الشجرة المباركة من أرض الشعب التركي محاولة حرمانه منه ، ذلك بأنهم ترجموا القرآن بالتركية لاليفهمه الترك ، فان تفاسيره بلغتهم كثيرة وكان من مقاصد ابطال المدارس الدينية ابطال دراستها (أى التفاسير حتى التركية) وحظر مدارس كتب السنة وكتب الفقه ونحوها ، لأنها مشحونة بآيات القرآن العربية ، وبالأحاديث النبوية العربية ، وبآثار السلف الصالح العربية وبالحكم والأمثال وشواهد اللغة العربية ، وهم يريدون محو كل ما هو عربي من اللغة التركية ، ومن أنفس الأمة التركية ، حتى إنهم ألفوا جمعية خاصة لما عبروا عنه « بتطهير اللغة التركية » من اللغة العربية ، واقترح بعضهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية ، وإذا طال أميد نفوذ الملاحدة في هذا الشعب الاسلامي الكريم فانهم سيفقدون هذا الاقتراح قطعاً كما نفذوا غيره حتى استبدال قرآن تركي بلغة بعض ملاحدة التورانيين ، بالقرآن الذي نزل به الروح الأمين ، على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربي مبين ،

المتعبد بألفاظه العربية بإجماع المسلمين ، والمعجز ببلاغته العربية لجميع العالمين ،
وكونه حجة الله تعالى عليهم إلى يوم الدين .

أرأيت أيها القارىء هذا الخطب العظيم ؟ أرأيت هذا البلاء المبين ؟ أرأيت
هذه الجرأة على رب العالمين ؟ أرأيت هذه الصدمة لدين الله القويم ؟ أرأيت هذا
الشنآن والاحتقار لإجماع المسلمين ؟ ورفض ماجروا عليه مدة ثلاثة عشر قرناً
ونصف ؟ ثم أرأيت بعد هذا كله ما كان من تأثير ذلك في مصر أعرق بلاد الإسلام
في الفنون العربية ، والعلوم الإسلامية .

لقد كان من تأثير ذلك ما هو أقوى البراهين ، على فوضى العلم والدين ،
واختلال المنطق وفساد التعليم ، والجهل الفاضح بضروريات الإسلام وشؤون
المسلمين ، لقد كان أثر ذلك الجدال والمراء ، وتعارض الآراء والأهواء ، وتسويد
الصحائف المنشورة ، بمثل ما شوهوها به في مسألة الخلافة ، وقد كان يجب أن
تكون مسألة القرآن أبعد عن أهواء الخلاف ، للنصوص الكثيرة الصريحة فيها ،
وإجماع السلف والخلف بالعلم والعمل عليها ، وعدم شذوذ أصحاب المذاهب والفرق
حتى المبتدعة عنها ، فقد كثرت الخلاف والتفرق في الدين ، وتعددت الأحزاب
والشيعة في المسلمين ، على ماورد في النهى عن ذلك والوعيد عليه في الآيات
الصريحة ، والأحاديث الصحيحة ، وارتد بعض الفرق عن الدين ، بضروب من
فاسد التأويل ، وسخافات من أباطيل التحريف ، كما فعل زنادقة الباطنية وغيرهم ،
قبل أن يقولوا ويصرحوا بكفرهم ، ولم تقم فرقة تنتمى إلى الإسلام بترجمة القرآن
ولا ضلت طائفة بترجمة أذكار الصلاة والأذان ، لأجل الاستغناء بها في التعبد
لله ، عن اللفظ المنزل من عند الله ، وإنما قصارى ما وقع من الخلاف فيما حول ذلك
من فروع المسألة ، ومن تصوير الفقهاء للوقائع النادرة ، أنه إذا أسلم أعجمي مثلاً
وأردنا تعليمه الصلاة فلم يستطع لسانه أن ينطق بألفاظ الفاتحة فهل يصلى بعمانيها
من لغته ، أم يستبدل بها بعض الأذكار العربية المأثورة مؤقتاً ريثما يتعلم القرآن كما
ورد في بعض الأحاديث ، أم يصلى بترجمة الفاتحة بلغته ؟ نقل القول الأخير عن أبي

حنيفة وحده مع مخالفة جميع أصحابه له ، ونقل عنه أنه رجع عنه إلى الاجماع ، وما ينقل عن أحد من المسلمين أنه عمل به ﴿ على أنه لاجحة في عمل أحد ولا في قوله ، غير المعصوم ﴾ فكان هذا الاجماع العام المطلق مما يؤيد حفظ الله تعالى للقرآن ، وأراد ملاحدة الترك أن يبطلوه في هذا الزمان (يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون *) (سورة الصف : ٦١ : ٩ و ١٠)

منشأ فكرة ترجمة القرآن وسببها

لقد كان ضعف الخلافة القرشية بجول الخلفاء وترفعهم وفسقهم سبباً لتفريق المسلمين فتخاذلهم فضمعهم ، إذ كان سبباً لتأسيس عدة دول اسلامية تتنازع السلطة - ولضعف اللغة العربية وترك الأعاجم لها ، فاضطرارهم إلى ترجمة بعض الكتب الدينية وتدريس العربية منها بالترجمة فالشعور بالحاجة إلى ترجمة القرآن نفسه بلغاتهم لأجل فهمه بالأجمال ، ثم بالحاجة إلى ترجمته بسائر اللغات لأجل الدعوة بترجمته إلى الإسلام ، ولما انفردت دولة الترك العثمانيين دون سائر دول الأعاجم الإسلامية بجعل لغتهم رسمية لها ، ثم بادعاء منصب الخلافة لسلطانها ، اقتضى ذلك تعمد هذه الدولة لأضعاف الأمة العربية ولمعاداتها ، ولتفضيل لغة أبناء جنسهم ، على لغة كتاب ربهم وسنة رسولهم ، ثم لتفضيل رابطة جنسهم ولغتهم على رابطة دينهم ، ثم للاستغناء عن هذه بتلك ومن ثم صارت جامعة اللغة والقومية معارضة للجامعة الإسلامية وسبباً لمعاداتها . ثم تجدد لدعاة العصبية الجنسية التركية سبب آخر لترجمة القرآن وهو التهديد به إلى المروق من الإسلام ، ولم يفعل هذا إلا الترك الذين نالوا بالإسلام دون غيره ما نالوا من العز والملك الكبير

إن ملاحدة الترك ودعاة العصبية الجنسية منهم قد بشوا في قومهم فكرة الاستغناء عن القرآن المنزل من الله تعالى باللسان العربي بترجمته باللسان التركي قبل عهد الحرية الدستورية بسنين . وقد أنكرنا هذا عليهم قولاً وكتابة ، وأول من صمغنا منه هذا الرأي محمد عبيد الله أفندي الذي صار بعد الدستور معوقاً

وأشأ في الاستانة جريدة عربية باللغة العربية لأجل خداع العرب وإضلالم . سمعت هذا الرأي الفاسد منه في مصر ورددت عليه فيه . ثم سمعته في الاستانة من غيره أيضاً وأنكرته عليهم ، وقد ذكرته في مواضع من مجلد المنار الثالث عشر (منها) قولنا في (الفتوى ٢٧ ص ٣٤٣ ج ٥ م ١٣ الذي صدر في سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٢٧) في سياق نخطه محمد عبيد الله أفندي في ادعائه أن الإسلام نشر بالاكرام عليه بالسيف

« ليست هذه المسألة هي التي شذ فيها وحدها هذا الرجل ، فإن له شذوذاً في مسائل أخرى دينية وتاريخية كادعائه أن نبوة النبي ﷺ ما تمت ولا تتم إلا بترجمة القرآن إلى جميع اللغات ، وكادعائه أن غير العرب من المسلمين يمكنهم الاستغناء في دينهم عن معرفة اللغة العربية ، وعن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى آية العالمين ، معجزاً للبشر على مر السنين ، بترجمته إلى التركية والفارسية وغيرها من اللغات وإن كان المترجم يترجم حسب فهمه ، فيختلف مع غيره ، فيكون لكل أهل لغة قرآن ، وإن كانت الترجمة لا يمكن أن يتحقق فيها الإعجاز كالقرآن المنزل من عند الله تعالى ؛ ولا يصح التعبد بتلاوتها ، ولا يتحقق فيها غير ذلك من خصائص القرآن ، وقد سبق لي مناظرة معه في هذه المسألة بمصر منذ سنين ٥

ومنها — ما ذكرته في (ج ٧ منه ص ٥٤٩) في سياق مكرر مع طلست بك (باشا) ناظر الداخلية بإساره في الاستانة : ذكر لي فيه أن هذا الرجل سينشئ جريدة عربية لأجل التآلف بين العرب والترك ، فذكرت له أنه يخشى أن يكون تأثيرها زيادة الشقاق لما هو معروف به من كراهة العرب ، وزعمه إمكان استغناء الترك عن لغتهم وعن قرآنهم العربي بترجمته بالتركية الخ وكذلك كان ومنها — قولنا في مناجاة الله تعالى (في ص ٣٨٤ منه) : اللهم إنك تعلم أن من هؤلاء (أي المفسدين) من يفوق سهام كيدهم ومكرهم للأمة العربية التي شرفتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسلك ، وخير كتبك المنزلة هداية خلقك ، وخطبت سلفها الصالح بقولك الحق (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الخ « تفسير القرآن الحكيم » « ٢١٥ » « الجزء التاسع »

« اللهم إنهم حسدوها أن جعلت كتابك عربياً مبيناً ، فهم يريدون ترجمته ليكون عرضة لتعريف المخرفين ، واختلاف المتفقين ، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه ، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه ، اللهم إنه حبلك المتبين الذي أمرتنا أن نعتصم به ، ولا نتفرق عنه بقولك (١٠٣ : ٣) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهو بيناتك التي قلت فيها (١٠٥ : ٣) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)

« اللهم إنهم يزعمون أن رسالة خاتم رسلك ما تمت إلى الآن ، وأنها لا تتم إلا بترجمة القرآن ، وأنت قلت وقولك الحق (٥ : ٣) اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليهم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)

ومنها - قولنا في آخر الفتوى ٣٢ منه (ص ٥٧١) في سياق الدعوة إلى الاهتمام بالكتاب والسنة : ولا يتم هذا الاهتمام إلا بال العناية باللغة العربية ، ولا شيء أضر على الإسلام في هذا العصر ممن يدعو إلى ترجمة القرآن إلى اللغات المختلفة ، ليستغنى المسلمون بالترجمة عن القرآن المنزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين . فالغاية من هذه المفسدة إذا وقعت (لاصحح الله) أن يكون الأعاجم من المسلمين عرضة لترك الدين . وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى .
وقد راجت دعوة ملاحدة الترك إلى الاستغناء عن كتاب الله المنزل بعد قبض ملاحدة جمعية الاتحاد والترقي على أعنة الدولة العثمانية تمهيداً منهم لما نفذوا أندادهم الكماليون من بعدهم من نبذ الدولة التركية لأحكام الإسلام ، وسعيها لسل الشعب التركي منه أيضاً

وقد كان مما نشر الاتحاديون من الكتب الممهدة لهذا السبيل كتاب (قوم جديد) الذي انتقدناه ونشرنا ترجمة بعض مسائله في المجلد السابع عشر من المآذر (سنة ١٣٣٥) والمراد بكلمة قوم جديد انشاء شعب تركي غير مسلم . ومما قلناه في آخر مقال طويل منه (ص ١٦٠ ج ٢ م ١٧) عنوانه (مفسد المتفرجين . في أمر الاجتماع والدين) مانصه :

« يرى هؤلاء العاملون أنه ليس في طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد

بالسرعة التي يبعثون من وراء هذا العمل إلا حاجة الترك إلى اللغة العربية لأجل الدين . ويرون أن هذا الدين ولغته مما يعيق تكوين أمة تركية محضة على الطراز الأفريقي الفرنسي ، فاجتهدوا في إزالة هذا المانع بمزيلين .

(أحدهما) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك إلى الاستغناء عن القرآن العربي بما سموه القرآن التركي . وإذا استغنوا عن القرآن يستغنوا بالأولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية .

(الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً للثانية بالأولى ...

(وذكرنا من هذه الكتب كتاب قوم جديد ، وأشرنا إلى بعض مفاسده) ثم نشرنا نموذجاً من كتاب (قوم جديد) هذا في (ص ٥٣٩ - ٥٤٤ منه) أوله قوله في (ص ١٤ منه) : يجب تعطيل جميع المساجد والتكايا الموجودة في الآستانة ماعدا الجوامع التي بناها السلاطين^(١) وتخصيص نفقاتها بالشئون الحربية والعسكرية ، كما ورد في الآيات الكريمة والأعمال النبوية ، ويليه (?) قوله في ص ١٥ بفرضية ترجمة القرآن .

ومنه ما ذكره من صفات من ساهم (قوم عتيق) من تمسكهم بالصوم والصلاة والحج والزكاة ، والعمل بكتب فقه الأئمة الأربعة التي وصفها بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق ، وزعم أن العمل بها غير جائز — ثم قال في صفات (جديد) مانعه : « وأما القوم الجديد فإنهم لا يبالون بمثل هذه الخرافات القديمة ، بل

استخرجوا من الأحكام القرآنية والحديثية الأركان الدينية الآتية (١) العقل (٢) كلمة الشهادة (٣) الأخلاق الحسنة (٤) الجهاد مالا وبدناً والحرب (٥) السعي لأعداد لوازم الحرب ... الخ . ثم بسطنا هذه المسائل من وسائل ومقاصد في المجلد التاسع عشر . وقد صدق كل ما قلناه وأرتأيناه من مقاصد ملاحدة الترك ما فعلته الحكومة الكالية من إلغاء الأحكام الشرعية كلها ، وجعل جميع سياستها وأحكامها حتى الشخصية مدنية أوربية ، وإلغاء المحاكم

(١) استغناها لأنه ليس عندهم من آثار العمران التركية سواها لا لأنهم مساجد

الشرعية ، والأوقاف الاسلامية ، والمدارس الدينية - دع إلغاء ما عمل باسم الدين من المبتدعات كتنكيا أصحاب الطرق مقلدة المتصوفة الخ . صدقوا بالفعل كل ما قلناه من مقاصدهم ، وكان بعض المسلمين الجاهلين بحال الدولة التركية وتأثير التفرنج فيها يفكرون علينا ما نقوله عن علم وخبرة وغيره على الاسلام ظنا منهم أنه إضمااف للدلة حامية الإسلام ، وإنما كان حرصاً على تقوية الدلة بالاسلام وتقوية الإسلام بالدلة ، لأننا نعلم ما لا يعلمون من إفضاء هذه الضلالات والعصبية الجنسية إلى إضاعة هؤلاء المتعصبين المفتونين للاسلام والدلة مسا - وكذلك كان . وقد كان بعض الترك الروسين استفتانا في مسألة الترجمة قبل أن نعلم بهذا الغرض الفاسد فأفتيناه فيها لذاتها إذ لم يكن يخطر ببالنا أن أحداً من المسلمين يتوسل بذلك إلى إخراج شعب اسلامي من الاسلام - وهذا نص السؤال والجواب

﴿ فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن ﴾

نشرت في ص ٢٦٨ - ٢٧٤ م ١١ ج ٤ منه المؤرخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٢٦

(س ١) من الشيخ أحسن شاه أفندي أحمد (من روسيا)

حضرة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو أن تعيروا جانبا الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت أفندي من علماء الترك العثمانيين في كتابه

« بإشراق نبوت » ما ترجمته :

إن ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التي دارت

بشأن ترجمة هذا الكتاب المجيد لم ترس على نتيجة ، وذلك لوجوه (الأول)

أن ترجمته بالتام غير ممكنة لإيجازه من جهة البلاغة (والوجه الثاني) أن فيه كثيراً

من الكلمات لا يوجد لها مقابل في اللغة التي يترجم إليها ، فيضطر المترجم إلى

الإتيان بما يدل عليها مع شيء من التغيير . ثم إذا نقلت هذه الترجمة إلى

لغة أخرى يحدث فيها شيء من التغيير أيضاً وعلم جراً ، فيخشى من هذا أن يفتح

طريقاً لتجرى بف القرآن وتغييره (الوجه الثالث) أن كلمات الكتب السماوية

يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب ، فابداها بالترجمة يسد هذا الطريق ، مثل ذلك أن سمدي جلي كعب في حاشيته على البيضاوى عند تفسير سورة الفاتحة أنه إذا أخرجت الحروف المسكرة من سورة الفاتحة التي هي أول القرآن وسورة الناس التي هي آخر سورة تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين قال : وفي ذلك إشارة إلى مدة سنى النبوة المحمدية — فإذا ترجم القرآن لا يبقى في الترجمة مثل هذه الفوائد التي هي من جملة معجزاته انتهى «من بإشأ صدق نبوت» أما أداؤنا معشر الترك الروسيين ، فانهم مصررون على ترجمته ويقولون : لا معنى للقول بأنه لا يجوز ترجمة القرآن إلا بإيجاب بقائه غير مفهوم ، فلذا يذهبون إلى وجوب ترجمته ، وهو الآن يترجم في مدينة قران ، وتطبع ترجمته تدريجاً ، وكذلك تشبث بترجمته إلى اللسان التركي زين العابدين حاجي الباكوى أحد فدائية الفقهاء ، فنرجو من حضرة الأستاذ التدبر في هذه المسألة

حرره الامام الحقيير أحسن شاه أحمد

السكراتب الدينى السماوى

(جواب المنازله) إن من تقصير المسلمين في نشر دينهم أن لا يبينوا معانى القرآن لأهل كل لغة بلغتهم ، ولو بترجمة بعضه ^(١) لأجل دعوة من ليس من أمته اليه ، وإرشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة . وإن من زلزال المسلمين في دينهم أن يتفرقوا إلى أئمة تسكون رابطة كل أمة منها جنسية نسبية أو لغوية أو قانونية ، ويهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على خاتم رسله ، المعجز بأساوبه وبلاغته وهدايته ، المتعبد بتلاوته ، اكتفاء بأفراد من كل جنس بترجمونه لهم بلغتهم بحسب ما يفهم المترجم

هذا الزلزال أضر من آثار جهاد أوروبا السياسى والمدنى للمسلمين . زين لنا أن نتفرق وننقسم إلى أجناس ، ظاننا كل جنس منا أن في ذلك حياته ، وما ذلك إلا موت للجميع . ولا نطيل في هذه المسألة هنا ، وليكن لنا نذ كر شيئاً مما يخطر في البال من مفاصد هجر المسلمين للقرآن المنزل (بلسان عربى مبين) — استغناء

(١) أقصد بالترجمة هنا المعنوية التفسيرية لا اللفظية الحرفية .

عنه بترجمة أعمجية يفهم عنها تفسيره بلغتهم ، مع المحافظة على نصه المتواتر المحفوظ من التحريف والتبديل ، مع مراعاة الاختصار فنقول :

(١) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الأصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية ، والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن ، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين ، وحيفئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن ، وإنما هي فهم رجل للقرآن بخطئه في فهمه ويصيب ، ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذى ننكره

(٢) إن القرآن هو أساس الدين الإسلامى ، بل هو الدين كله ، إذ السنة ليست ديناً إلا من حيث أنها مبينة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم مافهمه مترجم القرآن لهم ، لأنفس القرآن المنزل من الله تعالى على رسوله محمد ﷺ والاجتهاد بالقياس انما هو فرع عن النص ، والترجمة ليست نصاً من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لا بد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستنداً . فعلى هذا لا يسلم لمن يعمولون ترجمة القرآن قرأنا شىء من أصول الاسلام

(٣) ان القرآن منع التقليد فى الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه ، فهو إذاً خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها

(٤) يلزم من هذا حرمان المقتصرين على هذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين فى قوله (١٢ : ١٠٨) قل هذه سبلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وأمثالها من الآيات التى تجعل من مزايا المسلم استعمال عقله وفهمه فيما أنزل الله (١)

(٥) كما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم ، لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

(٦) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه فى فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجليل الأول الذى ظهر فيه الاسلام يكون مأجورا بالعمل بما يفهمه من القرآن

(١) أعني كقوله تعالى فى أول سورة الاعراف (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاما تذكرون) والمنزل اليها من ربه هو القرآن العربى كما صرح به الآيات : فاتباع الترجمة مخالف لسكل من الأمر والنهى فى هذه الآية

و إن أخطأ في فهمه ، لأنه بذل جهده في الاهتداء بما أنزله الله هداية له . كما يعلم ذلك من معاملة النبي ﷺ لأصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم إذ عذر المختلفين في فهم العمل بها ، ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيهِ عن صلاة العصر إلا في بني قريظة ، ولذلك شواهد أخرى ولا أخال مسلماً يجعل لعبارة ، ترجم القرآن هذه المزية (٧) إن القرآن ينبوع للهداية والمعارف الالهية ، لا تخلق جدته ، ولا تنفأ تنجد هدايته ، وتفويض للقارئ على حسب استعداده حكيمته ، فر بما ظهر للمتأخر من حكمه وأسراره ما لم يظهر لمن قبله ، تصديقاً لعموم حديث « قَرُبَّ مبلغ أوعى من سامع » و ترجمته تبطل هذه المزية ، إذ تفيد القارئ بالمعنى الذي صورته المترجم بحسب فهمه ؛ مثال ذلك أن المترجم قد يجعل قوله تعالى (١٥ : ٢٢) وأرسلنا الرياح لواقح من الحجاز بالاستعارة أى إن اتصال الريح بالسحاب و حدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للأنثى و حدوث الولد بعد ذلك كما فهم بعض المفسرين . فاذا هو جرى على ذلك بأن فرضنا أنه لا يوجد في اللغة التي يترجم بها لفظ يقوم مقام (لواقح) العربي في احتمال حقيقته وبجازه إذا أطلق فإن القارئ يتقيدون بهذا الفهم ، ويمتنع عليهم أن يفهموا من العبارة ما هي حقيقة فيه ، وهو كون الرياح لواقح بالنقل . إذ هي تحمل مادة القاح من ذكور الشجر إلى إناثه ، فإن لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية ، فإن هناك أمثلة أخرى ، وحسبنا أن يكون هذا موضعاً . والترجمة تقف بنا عند حد من الفهم يعوزنا معه الترقى المطلوب

(٨) ذكر الغزالي في كتاب « إلهام العوام عن علم السكّام » أن ترجمة آيات الصفات الالهية غير جائزة ، واستبدل على ذلك بما هو واضح جداً . وقد ذكرنا عبارته في تفسير (٣ : ٦٦) هو الذي أنزل عليك الكتاب ، أنه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وبين أن الخطأ في ذلك مدرجة للكفر (١)

(٩) ذكر الغزالي في الاستدلال على ما تقدم أن من الألفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها — أى ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذي

يقوله المترجم في مثل هذه الألفاظ ، وهو إن شرحها بحسب فهمه ، بما يقع قارئه ترجمته في اعتقاد ما لم يرد القرآن ؟

(١٠) قد ذكر ذلك أيضاً : أن من الألفاظ العربية ما لها فارسية تطابقها « لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها لها » فإذا أطلق المترجم اللفظ الفارسي يكون هنا مؤدياً المعنى الحقيقي لللفظ العربي . وربما كان مراد الله هو المعنى المجازي ، ومثل الفرس غيرهم من الأعاجم . وهذا المقام من مولات الأقدام إذا كان الكلام عن الله عز وجل وصفاته وأفعاله (١١) ذكر أيضاً في هذا المقام . أن من هذه الألفاظ ما يكون مشتركاً في العربية ، ولا يكون في العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من معني المشترك ، ولا يخفى ما فيه ، وقد مرّ نظيره آنفاً .

(١٢) من المقرر عند العلماء أنه إذا ظهر دليل قطعي على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فانه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لاسيما في الآيات المتشابهة والألفاظ المشتركة

(١٣) إن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة ، وإذا فات يفتوت بقوة غير كثير ، فبما طالمنا كان جاذباً إلى الاسلام ، حتى قال أحد فلاسفة أوروبا وهو فرنسي نسيب اسمه : إن مجداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع إلى الإيمان به ، فكان تأثيره أشد من تأثير ما ينقل عن غيره من الأنبياء من المعجزات . وحضر الدكتور فارس افندي فمر مرة الاحتفال السنوي لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة ، فافتتح الاحتفال بتليذ براءة آيات من القرآن ، فقال لي الدكتور فارس افندي : إن لهذه القراءة تأثيراً عظيماً في النفس . ثم لما كتب خير الاحتفال في جريدته (المقطم) كتب ذلك . فإذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى في نفس غير المؤمن به ، فكيف نخرم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

(١٤) إذا ترجم التركي والفارسي والهندي والصيني إلخ القرآن ، فلا بد أن يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل ما بين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى ^(١) . وقد رأينا ما استخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كننا نقرؤها ونحمد الله تعالى أن حفظ كتابنا من مثلها ، فكيف نختارها بعد ذلك لأنفسنا ؟

(١٥) أن القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ ، بل هو الآية الباقية من آيات النبيين . وإنما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التغير والتبدل ، والتحريف والتضخيف ، بالنص الذي نقلناه عن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك . هذا ما نراه لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أعجمي بدل القرآن العربي ، وإذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض — وإنما ذكر هكذا لزيادة الإيضاح — فإن عنك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البين ، بل منها ما تركناه مع تذكره . وأما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم إيجاب بقاءه غير مفهوم فهو ممنوعة ، فالتنا نقول : إن فهمه سهل ، ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه حجة على غيره فكيف يجعله ديناً لشعب برمته ؟ وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين - درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاتحة وبعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم فهم تفسيرها ، وتقرأ أمامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها ، بلغتهم كما جرى عليه كثير من الأعاجم حتى يبلاد الصين - درجة عليا المشتغلين بالعلم وهؤلاء يجب أن يتقنوا لغته ويستقلوا بفهمه مستعنيين بكلام المفسرين غير عقلين لأحد منهم .

أن الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة السكرام قد فهموا أن الإسلام لغة خاصة به لا بد أن تكون عامة بين أهلها ليفهموا كتابه الذي

(١) بل يكون الخلاف عندنا أشد اعجز جميع البشر عن ترجمة القرآن دون التوراة والإنجيل .

يدنون به ويهتدون بهديه ، ويعبدون الله بتلاوته ، ولنتحقق بينهم الوحدة المشار إليها بقوله فيه (٩٢: ٢١) ان هذه أمتكم أمة واحدة) ويكونوا جديرين بأن يعتصموا به وهو حبل الله فلا يتفرقوا ، ولتكمل فيهم اخوة الإسلام التي حتمها عليهم بقوله (١٠ : ٤٩) إنما المؤمنون اخوة) ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا أساتذة للتعليم ، واستمرت الحال على ذلك في زمن الأمويين في الشرق والغرب وفي أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الأوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم في ممالك تمتد من القاموس المحيط الغربي (الأتلاتيك) إلى بلاد الهند ، فهل كان هذا إلا خيراً عظيماً تأخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض ، وضياء ونوراً لأهلها ؟ .

ثم هنا المأمون في الشرق هفوة سياسية حركت العصبيّة الجنسية في الفرس فأثسوا يراجعون إلى لغتهم ويعودون إلى جذسيتهم ، وجاء الأتراك ففعلوا بالعصبيّة الجنسية ما فعلوا ، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الإسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس إلى إيجاد قرآن أعجمي للأعاجم وإبقاء القرآن العربي المنزل خاصاً بالعرب ، بل بقي الدين والعلم عربيين وراء إمامهما الذي هو القرآن . فالواجب على دعاة الإصلاح في الإسلام الآن أن يجتهدوا في إعادة الوحدة الإسلامية إلى ما كانت عليه في الصدر الأول خير قرون الإسلام ، وأن يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية في التعليم ، فيجعلوا تعلم العربية إجبارياً في جميع مدارس المسلمين ، ويجيوا العلم بالإسلام بطريقة استقلالية لا يتقيدون فيها بأراء المؤلفين في القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر في أحوالها المدنية والسياسية . ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أوربا يعاونونها على تقطيع بقية ما ترك الزمان من الروابط الإسلامية بتقوية العصبية الجنسية حتى صار بعضهم يحاول إغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل ! : ألا إنها فتنة في الأرض وفساد كبير وفق الله المسلمين شرها . فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون

تفسيرهم لهم بلغتهم مع بقاءه إماماً لهم ، ودون ترجمته لدعوة غيرهم به إلى الاسلام مع أن المترجم بين المعنى الذى يفهمه هو . انتهت الفتوى

وسلخص هذه الفتوى أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية منعذرة ويترتب عليه مفسدات كثيرة ، فهو محظور لا يبيحه الإسلام لأنه جناية عليه وعلى أهله . ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآناً ولا كتاب الله ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى فيقال قال الله كذا لأن كتاب الله وقرآنه عربى بالنص القطعى والاجماع الشرعى من سلف أهل الملة كلهم وخلفها لا الإجماع الأصولى المختلف فيه ، ولأنها ليس لها شيء من خصائص القرآن اللفظية ولا المعنوية كالإيجاز ، وهى لابد أن تكون مخالفة له فى المعنى كخالفاتها فى اللفظ فاسنادها إليه تعالى كذب عليه وكفر بكتابه . بل أجمع المسلمون على أنه لا يجوز إبدال لفظ من ألفاظ المصحف بلفظ آخر يرادفه من اللغة العربية ككلمتى « شك ، وريب » فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وأما الترجمة المعنوية التى هى عبارة عن تفسير ما يحتاج إلى تفسير منه بلفظ أخرى فغير محرم ، وإنما تنبع فيه المصلحة الشرعية بقدرها

﴿ أقوال الفقهاء فى المسألة ﴾

﴿ ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية ﴾^(١)

المعول عليه عند الأئمة وسائر العلماء أنه لا يجوز كتابة القرآن ولا قراءته ولا ترجمته بغير العربية مطلقاً ، إلا فيما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من جواز قراءة القرآن بالفارسية فى خصوص الصلاة ، وإليك بعض النصوص فى ذلك :

قال شيخ الاسلام أبوا الحسن المرغينانى الحنفى فى التمجيس : ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالاجماع ، لأنه يؤدى إلى الاختلال بحفظ القرآن ، لأننا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فانه دلالة على النبوة ، ولأنه يؤدى إلى التهاون بأمر القرآن (هـ) وقال فى معراج الدراية : من تعدد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو

(١) نقلناه فى الفعول من رسالة الأستاذ الشيخ محمد حسين العدوى أحد كبار علماء الأزهر

مجنون أو زنديق ، والمجنون يداوى ، والزنديق يقتل ، وروى ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخارى اهـ

وفي الدراية : ان القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً بالإجماع ، وقد أنزل حجة على النبوة ، وعلماً على الهدى ، والهدى بمعناه ، والحجة بنظامه . وكما ان الاخلال بالمعنى يستقط حكم القراءة ، كذلك الاخلال بالنظم ، ولأن حفظ القرآن واجب في الجملة ليكون حجة على الحكم ، ولا قراءة تجب إلا في الصلاة ، فلم أنها متعلقة بعين ما أنزل ليقع الحفظ بها اهـ

وروى عن الإمام أبي حنيفة كافي الهداية وغيرها : جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً ، وعن الصحابين : إذا كان لا يحسن العربية ، أما إذا كان يحسنها فلا يجوز ، وتفسد صلاته إذا قرأ بغير العربية

وروى أبو بكر الرازى : رجوع الإمام إلى قولهما وعليه الاعتماد - وقال الامام الزاهدى فى الجامع الصغير : ان ما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من أن القراءة بالفارسية تفسد الصلاة لمن قدر على العربية ، أما عند المعجز فلا فساد (محله) إذا قرأ بالفارسية كل لفظ بما هو فى معناه من غير أن يزيد فيه شيئاً . أما إذا قرأ على سبيل التفسير فتفسد صلاته بالإجماع اهـ

وهو تقييد حسن ، لأنه حينئذ يكون متكاملاً بكلام غير القرآن من كلام الناس وهو مفسد للصلاة .

وأصل الاختلاف فى ذلك كما فى بدائع الصنائع وأحكام القرآن لحجة الإسلام الجصاص قوله تعالى (فاقروا ما تيسر من القرآن) حيث أمر بالقراءة ، والأمر للوجوب ، ولا موضع لوجوب القراءة غير الصلاة ، فوجب أن يكون المراد القراءة فى الصلاة ، فذهب الصحابان إلى أنه إذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية ، فقد قرأ ما ليس بقرآن ، فقد خرج عن عهدته الأمر : لأن الفارسية ليس قرآناً ، والقرآن هو المنزل بلسان العرب ، قال تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) وأيضاً فالقرآن هو المعجز ، والاعجاز من جهة اللفظ يزول بزوال النظم العربى ، فلا يكون الفارسى قرآناً لعدم الاعجاز ، ولهذا لم تحرم قراءته على

الجنب والحائض ، غير أنه إذا كان لا يحسن العربية ، فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الإمكان اهـ - والمراد مطلق المعنى ، وإلا فمعنى النظم المعجز لا تؤديه الترجمة كما هو ظاهر

ولا يعني لنا الآن بيان وجه استدلال الإمام بالآية على ما ذهب إليه بعد أن صح رجوعه إلى قول الصاحبين

فظهر أن قول الثلاثة بجواز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة لمن لا يحسنها ليس مبنيًا أن الترجمة تصير قرآنًا عند المعجز عن أدائه بالعربية ، فيفرض عليه ذلك في هذه الحالة ، بل المفروض عليه حينئذ تعلم العربي ، لأنه القرآن المأمور به في الصلاة ، وإنما هو مبني على الاكتفاء بالمعنى في حقه لمجزه ، ولأنه الميسور له من معنى القرآن الذي هو مجموع النظم والمعنى المأمور به في الصلاة . ولما كان أداء المفروض موقوفًا على النظم العربي ، وليس ذلك ميسورًا له أتى بالترجمة بدلًا عنه ليعتوم مقامه في أداء المعنى المفروض ، مع أنها ليست قرآنًا ، لأن القرآن هو كلام الله ، المنزل بلغة العرب ، والترجمة ليست كذلك — وفي الدراية : قراءة غير العربي تسمى قرآنًا مجازًا . ألا ترى أنه يصح نفي القرآن عنه فيقال : ليس بقرآن وإنما هو ترجمته ، وإنما جوازناه للمجاز إذا لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالإتيان به أولى من الترك مطلقًا ، إذ التكليف بحسب الوسع اهـ

وظاهر أن مسألة القراءة في الصلاة شيء ، ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقًا شيء آخر . والكلام في الثاني دون الأول ، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثاني ، حتى ينسب إلى الإمام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة ، وكتابتها بغير اللغة العربية ، وكيف ذلك وقد أجمعت كتبهم على أن الخلاف في خصوص الصلاة . وأصله أن الأمر بالقراءة إنما هو في الصلاة دون غيرها كما أطبقوا على أنه المراد في قوله تعالى (فاقروا ما تيسر من القرآن) والقرآن المسروق هو اللفظ المنزل بلغة العرب خاصة

وفي شرح أصول البزدوى للإمام عبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي :

والقرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً في قول عامة العلماء ، وهو الصحيح من قول أبي حنيفة ، إلا أنه لم يحمل النظم ركناً لازماً في جواز الصلاة خاصة ، وإنما هو لازم فيها سواء من الأحكام الأخرى ، كوجوب الاعتقاد ، وحرمة كتابة المصحف بالفارسية ، وحرمة المداومة والاعتقاد على القراءة بها اهـ

وقد نقل أن الامام رجع عن هذا القول في الصلاة أيضاً إلى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقاً ، فيكون النظم ركناً لازماً عنده في كل حالة كما ذكره العلامة الألوسي في تفسيره عند قوله (وإنه لفي زبر الأولين) بناء على عود الضمير إلى القرآن باعتبار معناه. وفي رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية. وفي أخرى إنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة للعاجز عن العربية . وقد صح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى ؛ فان الظاهر عود الضمير في الآية على القرآن بتقديم مضاف أى وإن ذكر القرآن لفي الكتب المتقدمة . وهذا كما يقال إن فلاناً في دفتر الأمير اهـ ملخصاً

ومن هذا يعلم ما في استدلال بعضهم بقول الامام على جواز ترجمة القرآن بأى لغة خارج الصلاة ودخلها للقادر والعاجز ، لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقاً ، وعلى رواية رجوعه الى قول صاحبيه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ، ولا للقادر في الصلاة ، وعلى رواية الثقات عنه : لا تجوز مطلقاً بغير العربية في الصلاة وغيرها للقادر والعاجز . والمعول عليه رأيه الأخير الذى صح رجوعه إليه كما هو رأى الجماعة ، فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقاً ؟ اهـ (ص ٣١-٣٦)

ثم قال في فصل آخر (ص ٣٩)

« ومذهب الشافعية عدم جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً سواء كان بحسن العربية أو لا يحسنها ، وفي فتاوى شيخ الاسلام ابن حجر ^(١) من أئمة

(١) يريد أحمد بن حجر الهيتمي الفقيه ولم يلقب بشيخ الاسلام وإنما لقب به سميه الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني وهو شافعى أيضاً

الشافعية - وقد سئل هل تحرم كتابة القرآن بالعجمية كقراءته ؟ فأجاب بقوله : قضية ما في المجموع عن الأصحاب التحريم . ووجهه بما لا يخرج عما قدمناه فراجع ، « وقال الإمام الزركشي من أئمة الشافعية رحمه الله : الأقرب المنع من كتابة القرآن بالفارسية كما تحرم قراءته بغير لغة العرب ، وفي شرح العباب أن كتابة القرآن العظيم بالمعجمي تصرف في اللفظ المعجز الذي حصل به التحدى بما لم يرد بل بما يؤم عدم الاعجاز بل بالكافة لأن الألفاظ العجمية فيها تقديم المضاف إليه على المضاف ، وذلك مما يخل بالنظم ويشوش الفهم ، وقد صرحوا بأن الترتيب مناط الاعجاز . وهو ظاهر في حرمة تقديم آية على آية بمعنى أو كلمة على كلمة كما يحرم ذلك قراءة اهـ

« بل نصوا على أن في ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعات التناسيب فيما بينها من الصفات من وجوه الاعجاز مالا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله فضلا عما في ترتيب الكلمات والجل من اللطائف والأسرار مما لا يحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان

« ومع اتفاقهم على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية اختلفوا فيما إذا كتب بغيرها : هل يحرم مسه وحمله للحائض والجنب ؟ ذهب الجمهور إلى الجواز لأنه ليس بقرآن وتتل العلامة الشوبري عن الشافعية أن القرآن إذا كتب بغير العربية يحرم مسه وحمله للحائض والجنب إذ لا يخرج بذلك عن كونه قرآنا والالم تحرم كتابته اهـ ولعل المراد به أنه لم يخرج بذلك عن كونه متضمنا معنى القرآن بقدر ما نسمعه أوضاع اللغة المكتوب بها وإن خرج عن نظمه وأسلوبه ، وإعطائها حكم القرآن حملا ومسا عندهم إنما هو احترام لهذا القدر وإلحاق لنقوش الرسم المعجمي بالرسم المخطوط العربي مع مراعاة جانب المعنى في الجملة

« ولم يلاحظ . مثل ذلك في التفسير مع أن نظم القرآن موجود فيه متخلل بين سطوره لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل نظراً إلى أن المجموع المركب من القرآن وغيره لا يطلق عليه اسم القرآن ولا ترجمته بل يسمى تفسيراً فقط ، والغالب أن تكون ألفاظه أكثر من ألفاظ القرآن فروعى جانبها في الحكم كما روعى في التسمية ،

والكتابة بغير العربية وإن لم يكن نظم القرآن موجوداً فيها بذاته ولا هي دالة عليه بهيئته ولكن لوضع نقشه مكان النقش الدال عليه وإقامته مقامه نزل منزلته « والحاصل أن الرسوم الكتابية لما كانت كلها من وضع البشر لا فرق بين عربي وغيره أعطيت حكماً واحداً خلاصتها بخلاف الألفاظ فإن نظم القرآن من وضع الله تعالى وما عدها من صنع البشر ، فلذلك لم ينزل غير النظم المعجز منزله قراءة وتعبداً ، ونزل الرسم غير العربي منزلة العربي خلاصتها عند هذه الطائفة « ومذهب الحنابلة أن الصلاة تفسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند المعجز وعدمه وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقاً

« ومذهب المالكية أنه لا تجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ولذلك أوجبوا تعلم الفاتحة على من لا يحسن قراءتها في الصلاة بالعربية أن أمكن وإلا أثم من يحسنها فإن لم يكن فالحتماسة وطها وسقوط القيام لها وقيل يجب قيامه بقدر ما يصبر من المذكر

« إذا علمت هذا فالعمل عليه عند جميع الأئمة أنه لا تجوز كتابة القرآن ولا قراءته بغير العربية للعاجز أو قادر لا في الصلاة ولا خارجها إلا ما تقدم عن السادة الحنفية في خصوص الصلاة للعاجز عن العربية وقد علمت ما فيه وتصحيح الثقات رجوع الإمام عنه

« ومن ذلك تعلم ما في قول صاحب الكافي من علماء الحنفية (أن اعتاد القراءة بالفارسية أو أراد أن يكتب مصحفاً بها يمنع وإن فعل في آية أو آيتين لا فإن كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز) اهـ

« فإنه إن أراد بالترجمة الترجمة الحرفية للقرآن فقد علمت أنها لا تجوز مطلقاً ذكر معها تفسير أو لم يذكر لأنها تحريف وتغيير للنظم لا يدفعه اقتران التفسير به وإن أراد الترجمة التفسيرية فهذه جائزة مطلقاً بالشرط الذي بيناه وليست ترجمة القرآن ، على أن نصوص الفقهاء من الحنفية وغيرهم تخالفه ولذلك أفتى صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر بمنع ترجمة القرآن ووجوب مضادة المصحف المشتمل على الترجمة الحرفية وإن كان معها ترجمة

تفسيرية (١)

« وما ينوم من جواز الترجمة الحرفية أخذنا من ظاهر قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فليس بصحيح لأن المعنى كما ذكره الألوسي وغيره أن المشرك إذا طلب الأمان بمداقضاء الأجل المضروب يؤن حتى يتدبر الأمر ويتمظ بما يدعى إليه من هدى الإسلام ، فإن كان من العرب تقل عليه آيات الله وكلامه لأنه من أعرف الناس بدلالاتها وأعلامهم ببراعة أسلوحيها وبلاغته نظمها ، وكثير منهم كانوا إذا سمعوا القرآن خروا له سجدا وهم صاغرون ، وآمنوا به وهم لا عجزاه مذعنون ، وإن كان من غير العرب الذين لا يعرفون اللغة العربية يبين له ما يرشده للحق ويهديه إلى الصراط المستقيم لا بخصوص كلام الله تعالى واقتصر في الآية على ذكر السماع لأنها مسوقة لبيان حال مشركي العرب وهم من أهل اللسن والبلاغة ، وإن كان لمعظها يتناولهم وغيرهم من المشركين والمراد حتى ينصاعوا لطاعة الله ورسوله.

« وقد علمت مما ساف حكم ترجمة كتبه ﷺ وأن بعضها إلى الكفار مشتمة على بعض الآيات القرآنية لا ينهض دليلا على جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم لجواز أن يكون ترجمة ما وقع فيها من نحو الآية والآيتين ترجمة تفسيرية لاحرفية ولو سلم أنها حرفية فهي لم تذكر في الكتب على أنها من نظم القرآن ولا قصد بها تلاوته بل سبقت الدعوة إلى حكمها ضمن كتبه عليه الصلاة والسلام اهـ

(١) يعني الترجمة الانكليزية الحديثة لبعض النصوص المطبوعة مع المصحف الشريف فقد جاءت نسخ منها إلى مصر ، فمالت الحكومة مشيخة الأزهر عنها فأقضى شيخ الأزهر بما ذكر فتمت الحكومة إدخال الترجمة إلى الديار المصرية ، وسبق مثل هذا في بيروت ، فقد أرسل إليها بعض النسخ من هذه المصاحف المطبوعة مع الترجمة الانكليزية فأرسلتم إدارا الجرك إلى مفتي بيروت حسب النظام المتبع فأقضى بمنعها فندمت

﴿ شبهات من أباح ترجمة القرآن في هذا الزمان ﴾

قد كان مما نشكو من فوضى العلم والدين في هذا الزمان : أن بعض الناس كتبوا مقالات في الجرائد خالفوا فيها جماعة المسلمين منذ ظهر الاسلام إلى اليوم فزعموا أن ترجمة القرآن مباحة : وجاءوا بشبهات يمتحنون بها على رأيهم ، بعضها آراء لهم ، وبعضها أقوال من الكتب لم يفهموها ، فهي لا تدل على زعمهم ، ولو دلت عليها لم تكن حجة ، لأنها كأرائهم ، وما كان لأحد أن ينقض برأيه بناء ورفع سمكه القرآن ، وأجمعت الأمة قولاً وعملاً

(الشبهة الأولى) ما استدلل به بعض الحنفية لإمامهم على قوله الذي كان خطر له ، ثم رجع عنه لظهور بطلانه له ، كما أنه لم يتابعه عليه أصحابه ، ولا عمل به أحد من أتباعه . أعني ما سبقت الإشارة إليه مراراً من جواز قراءة العاجز عن النطق بالعربية لما عجز عنه من القرآن في الصلاة بالفارسية ، أعني بما استدلل به بقوله تعالى في سورة الشعراء (وإنه لفي زبر الأولين) قال الزمخشري في كشفه في تفسيرها وإن القرآن - يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها ، وبه يحتاج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة حيث قيل : (وإنه لفي زبر الأولين لكون معانيه فيها . ونقله عنه آخرون كصاحب التفسيرات الأحمدي . وصاحب فتح البيان ، ونقله عنهم في هذه الأيام بعض الأزهريين في الجرائد عند ما دار الجدل في حكم ترجمة القرآن باللغات الأجنبية وأدعى أن الزمخشري فهم هذا من الآية

ونقول في رد هذه الشبهة (أولاً) إن الزمخشري لم يفهم هذا من الآية ، بل فهم غيره ، ونقله بصيغة التريض والتضعيف « قيل » ، وإنما الذي فهمه واعتمده ما قبله ، ولعله لولا عادة المنتسبين إلى مذهب مجتهد الحكاية كل ما يؤيد قوله من قوى وضعيف لم ينقله ولو بصيغة التريض ، وله كثير من النقول الضعيفة التي لا يحمل تبعها لإشارته إلى ضعفها

(ثانياً) أن سبب اشارته إلى ضعفه هو أن تفسير المعاني بما ذكره ظاهر البطلان لا يمكن أن يريده الامام أبو حنيفة ، ولأن دونه في علم اللغة والدين ، أعنى أن تكون معانيه هي مدلول كلمة القرآن كله أو بعضه ، بأن تكون سورة الفاتحة الواجبة في الصلاة — وهي موضوع مسألة أبي حنيفة قبل كل شيء — موجودة في التوراة بهذا النظم والترتيب ؛ ولكن باللفظ عبرانية ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان القرآن ترجمة للتوراة ، وصح أن يقال : إنه هو التوراة ، ولا فطيل في بيان وجوه فساد هذا القول وبطلانه ، وما كان يترتب عليه لو كان مراداً من الأباطيل كاحتجاج اليهود وغيرهم على النبي ﷺ بأنه لم يأت بكتاب جديد من عند الله بل بترجمة بعض التوراة .

(ثالثاً) إن فرضنا أن هذا مراد في بعض القرآن كقصة موسى التي في سورة الشعراء أو مطلقاً دون الفاتحة ، ومثل قصة بدر وأحد ، وأن من قرأ قصة موسى في سورة الشعراء يصح أن يقول : قرأت التوراة مترجمة بالعربية ، فإن هذا على كونه — ليس بصحيح أيضاً على حقيقته — لا يدل على جواز ترجمة القرآن كله كما أن الذي يقرأ القصة في سفر الخروج من التوراة لا يصح أن يقول : قرأت القرآن ، الذي هو موضوع اختلاف . وإنما قصارى ما يدل عليه أن تجوز قراءة عبارة التوراة الموافقة للقرآن في الصلاة ، وأن يقاس عليها جواز ترجمتها بالفارسية مثلاً ، ولم يقل بالأصل أبو حنيفة ولا غيره من علماء المسلمين حتى يصح قياسهم عليه . وهذا مجال واسع للتجهيل والسخرية بمن يتهوكون مثل هذا التهوك الذي نحن بصدده ، وينشرونه على الناس في مسألة عظيمة كهذه فنتركه عفواً عنهم .

(رابعاً) اتفق السلف والخلف من علماء التفسير على أن الكلام في الآية يقدر فيه مضاف قبل ضمير القرآن ومضاف قبل زبر الأولين — كما قال ابن جرير — والمعنى وإن ذكره أو خبره أو دليل صدقه — مثلاً — لثابت في بعض زبر الأولين . ولهم في الضمير قولان (أحدهما) أنه القرآن — وهو المتبادر من السياق قبله — والثاني أنه النبي (ص) كما قال (بجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل)

(خامساً) ان الذى يوجد من معانى القرآن فى كتب الرسل الأولين قسماً (أحدهما) عام يوجد فيها كلها ، وهو أصول الدين الإلهى المطلق من الايمان بالله تعالى وعبادته وحده ، والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح وما يقابل ذلك من الزجر عن الشرك والمعاصى والردائل — ويصح حل الآية عليه على حد قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) الخ (والثانى) خاص وهو الأقرب إلى السياق سابقه ولاحقه ، وهو أن المراد مافى هذه السورة وأمثالها من قصة موسى وكذا غيره من الرسل عليهم السلام التى كانت مجهولة عند النبي ﷺ وقومه وأهل بلده خاصة ، ولذلك قال بعدها (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل) كما قال عقب قصة موسى فى سورة القصص مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم محتجاً على صدق ما جاء به (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) الآيات

فهل يصح الذى علم أو فهم أن يقول فى الآية إنها تدل على جواز ترجمة القرآن بالفارسية أو غيرها ، وان الترجمة مع هذا تسمى قرآناً ، وكلام الله ، ويستعبد بها ، خلافاً لنصوص القرآن القطعية ، ولاجتماع الأمة منذ وجد الاسلام ، إلى اليوم ؟؟ لك أن تقول : إن فوضى العلم والدين : يصح معها ما هو أبعد من هذا عن العلم والفهم ، كما صح لعالم أزهرى أن يقول : إن الزمخشري زجح القول الذى رأيت أنه حكاه حكاية بصيغة التضعيف ، وأنه ليس فى سياق الآية ولا فى قواعد اللغة ما يمنع هذا التفسير . وقد علمت قطعاً أن سياق الآية والمتبادر من اللغة يمنع ذلك !!!

﴿ الشبهة الثانية ﴾ قول هذا الأزهرى « وإن رجعنا إلى قول الفقهاء — لأن الجواز وعدمه من مباهتهم — رأينا الإمام الشافعى روى عنه فى الأم أن الأعجمي أن يتعلق بالقرآن مترجماً إلى غير العربية فى الصلاة ، وأن ما ينطق به إذا أراد القراءة به صحت صلاته ، وعند ما ينطق به قراءة وقرآناً . وأنه يجوز وجود جماعة تصلى فى مسجد يقرأ الإمام فى تلك الصلاة بلسان أعجمي ، ويقرأ المؤمنون به بلسان أعجمي ، كذلك أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية » اهـ بالامعجب وبالفوضى ! الامام الشافعى يميز للأعجمي أن يقرأ القرآن فى

الصلاة مترجماً إلى غير العربية ويسمى الترجمة قرآناً؟ الإمام الشافعي يجوز إقامة صلاة الجماعة العامة في المسجد بإمام يقرأ بلسان أعجمي ، وجاعة يقرؤون بلسان أعجمي ، سواء في ذلك أم القرآن وغيرها من السور؟ وماذا بقي ؟ إذا كان الشافعي يميز قراءة القرآن في الصلاة باللسان الأعجمي للإمام وللجماعة وللأفراد بمثل هذا الإطلاق الذي حكاه هذا العالم الأزهرى عن الأم ، فمعنى ذلك البيان المفصل الذي أورده في رسالته في الأصول في إثبات كون القرآن عربياً ، وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العربية ليقرأ بها في الصلاة كما أنزله الله الخ ؟ ؟ .

(والجواب) عن هذه الشبهة أن صاحبها تقول على الشافعي ما لم يقل ، على أنه كان قد نقل بعض عبارته بتصرف ، ثم فسرها بما نقلناه عنه ، فقص في النقل ، وأخطأ في الفهم ، ولأنهم بتعمد القول على الإمام الشافعي ، وهذا نص عبارة الأم : « فان أم أعجمي أو لحن أو فصح بأمر القرآن . أو لحن لحناً لا يحيل معنى شيء منها أجزأته وأجزائهم ، وإن لحن فيها لحناً يحيل معنى شيء منها لم تجز من خلفه صلاتهم ، وأجزأته إذا لم يحسن غيره ، كما يجوز به أن يصل بلا قراءة إذا لم يحسن القراءة . ومثل هذا إن لفظ منها بشيء بالأعجمية وهو لا يحسن غيره أجزأته صلاته ، ولم تجز من خلفه ، قرؤا معه أو لم يقرؤا ، وإذا ائتموا به فأت أقاماً معاً أم القرآن أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غيرها أجزأته ومن خلفه صلاتهم إذا كان أراد القراءة لما نطق به من محجمة ولحن . فان أراد به كلاماً غير القراءة فسدت صلاته ، فان ائتموا به فسدت صلاتهم » اهـ .

ذكرت هذه الأحكام في الأم في فصل عنوانه (إمامة الأعجمي) والأعجمي كالأعجم من في لسانه لكنة وفهاة ، سواء كان عربياً أو أعجمياً ، وضده الفصح الجليد النطق كما في المصباح وغيره . وحكم الأعجمي أنه يغتفر له ما ذكر آناً من اللحن في الصلاة منفرداً وإماماً أو منفرداً فقط ، كما يغتفر ترك القراءة فيها مطلقاً لمن لا يحسنها . وقوله الأخير الذي لم يفهمه المناقل فكان محل الشبهة وهو « وإذا ائتموا به » الخ ، معناه أن الأعجمي الذي لا يحسن القراءة إذا أم مثله

فأقاماً معاً أم القرآن أى أحسن كل من الإمام والمأموم قراءة الفاتحة ، أو لحناً جميعاً في غير الفاتحة ، أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غير الفاتحة كانت صلاة كل منهما صحيحة ، لأن اللحن والعجمة والرطانة الأعجمية في غير الفاتحة لا تبطل الامانة ولا الصلاة ، إذ ركن القراءة في الصلاة هو الفاتحة ، وبما عداه من القرآن فهو مستحب لا فرض ولا واجب — وليس عند الشافعي في الصلاة واجب غير فرض — والمفروض أن ما ذكر من النطق بالأعجمية أو باللسان الأعجمي في غير الفاتحة سببه المعجز عن القراءة الفصيحة لا التلاعب ولا قصد غير القراءة ، وإلا بطلت صلاتهما .

ولا يدخل في هذا الباب شيء من تهمد توحمة القرآن والاستغناء بالعجمي المترجم به عن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى ، وتسميته قرآناً . كيف وقد صرح الشافعي في الرسالة بوجوب قراءة القرآن في الصلاة وغيرها بالعربية كما أنزله الله تعالى ، وبوجوب أداء سائر الأذكار المأمور بها بالعربية أيضاً . وبوجوب تعلم العربية على كل مسلم لذلك . وهذا نص عبارته (كما في ص ٩ من الطبعة الأميرية التي مع كتاب الأم له) :

« فعمل كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وينلو به كتاب الله تعالى ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » الخ .

هذا نص الشافعي بعد أن أطال في كون كل ما في القرآن عربى ، وكتب مذهبه منققة في المسألة كسائر كتب المسلمين وأتباعه أشدّهم فيها — أليس من العجيب مع هذا أن يتجرأ عالم أزهري فيعزو إلى زواية الأم عن الشافعي ما يأتى على إطلاقه .

(١) إن للأعجمي أن ينطق بالقرآن ، ترجأ إلى غير العربية في الصلاة .

(٢) وإن ما ينطق به إذا أراد القراءة به صحت صلاته وعدّ ما ينطق

قراءة وقرأنا .

(٣ و ٤) وإله يجوز وجود جماعة تصلى في مسجد يقرأ الإمام في تلك الصلاة

بلسان أعجمي أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية
 أين ذكر الشافعي الترجمة وأباحها للأعجمي ؟ اللهم هذا افتراء عليه
 أين أجاز الشافعي إقامة الجماعة في مسجد يقرأ إمامه فيها الفاتحة وغيرها بلسان
 أعجمي الخ ؟ وعبارته المنقولة عنه أنفاً صريحة في كون عجز الأعجمي عن الإفصاح
 ولو ببعض الفاتحة عذراً له دون من يصلى خلفه ، فأنهم لا تصح صلاتهم معه .
 وعدم الإفصاح بالألفاظ العربية شيء والترجمة بلسان أعجمي شيء آخر
 وجملته القول أن عبارة الإمام الشافعي في هذا المقام خاصة بمن لا يحسن
 النطق بالقرآن ، وما يعذره وما لا يعذره هو ومن يأتيه به ، ومثل هذا العجز معهود
 في كل زمان نسمعه بأذاننا ممن يتعلمون لغة غير لغتهم ولا يتقنونها من العرب
 أو العجم ، فهم بحروفهم ويلحنون ويخلطون ألفاظاً من اللغة التي يجيدونها باللغة
 التي لا يجيدونها بغير اختيار . ونعيد القول ونؤكد به بأن تعمد ترجمة القرآن
 والقراءة به لا تدخل في شيء من كلام الامام ، ولم تخطر ببال أحد من اتباعه في
 مذهبه عندما شرحوا كلامه ، وفصلوا أحكامه ، ولا تخطر ببال أي قارئ له يفهم ما يقرأ
 ﴿ الشبهة الثالثة ﴾ ان الدلائل على وجوب فهم القرآن في الصلاة وتدبره فيها
 وفي خارجها صريحة والآيات الواردة فيها محكمة ، ولا يتم أداء هذا الواجب إلا
 بترجمة القرآن بلغات جميع الشعوب المعجمة التي تدين بالإسلام . وما لا يتم
 الواجب إلا به فهو واجب .

والجواب عن هذه الشبهة من وجوب (أحدهما) ان الفهم والتدبر وما يراد
 بهما من الخشوع والاعتبار إنما يتم بتعلم المسلمين لغة الكتاب الالهي لا بتحويل
 الكتاب الالهي إلى لغاتهم كلها كما فصله الإمام الشافعي في رسالة الأصول وأقره
 جميع المسلمين لسبق الاجماع وسريان العمل على ذلك في الصدر الأول . ويؤكد
 أن ترجمة القرآن ترجمة صحيحة تؤدي مافيه من المعاني والتأثير كما أراد الله تعالى
 متعذرة ومستلزمة لتغيير كلام الله ، وهذا دليل وسند الاجماع على تحريره ما
 فتعين أن يكون المسلمون تابعين لما أنزل الله تعالى دون أن يكون ما أنزله تعالى
 تابعاً للغاتهم . ولا يعقل أن يؤثر المؤمن بالله وبكتابه ورسوله افة قومه على لغة

كتاب الله ورسوله ، ولهذا كان قدماء العجم من المسلمين يزاحمون العرب بالمناكب في تلقى العربية من أهراق البادية وفي جميع علومها وفنونها وآدابها كلوم الشريعة نفسها ، وذلك أن إيمانهم كان برهائيا وجدانيا ، وما أحدث التنافس بين لغة الدين الذي عليه مدار سعادة الدارين ولغة الآباء من العجم إلا بعض زنادقة الفرس الأولين وملاحدة الترك المتأخرين . وأما قدماء مسلمي الترك الذين أعرضوا عن العربية وفنونها فكانت آفتهم الجهل ، فالخوف من عودة السلطان والسيادة إلى العرب — وهذا هو الذي أعدم لقبول دسائس الافرنج بالدعوة إلى عصبية الجنس واللغة التي قوضت سلطنتهم (امبراطوريتهم) العظمى بحملهم

﴿ ثانيهما ﴾ أن مالا بد منه من التلاوة في الصلاة وهو الفاتحة وبعض الآيات أو السور القصيرة يمكن أن يفسر لكل مسلم بحفظه تفسيراً يمكن به من فهم معناه والاعتبار به ، فهو لا يتوقف على ترجمته وتسمينها كلام الله كذباً على الله وخلافاً لنص كتاب الله واجماع المسلمين — فضلاً عن ترجمة جميع القرآن كذلك ﴿ الشبهة الرابعة ﴾ مسألة تبليغ الدعوة إلى الإسلام وقد بينا بطلانها من قبل ، ونزيد هنا بيانا فنقول :

لئن كان اطلاع بعض الأفراد من أعاجم الشرق والغرب على ترجمة القرآن سبباً لاسلامهم ، فعلته أنهم عرفوا منها أصول الإسلام ومقاصده كلها أو بعضها ، وذلك كاف لتفضيله على غيره من الأديان كلها ، ولم يكن سببه ترجمته كتأثير أصله المعجز للبشر ، في إقناع العقول ، وهداية القلوب ، الذي كان سبب اهتداء العرب ، وقلب طباعهم ، وجمع كلمتهم ، وارتفاع رايهم ، وخضوع الأمم والشعوب لهم . ولو بلغت هذه الأصول والمقاصد للأعاجم بلغاتهم بأسلوب آخر بأن يذكر كل أصل في فصل خاص مع الشواهد عليه من القرآن والسنة ، ببيان مآلها وخصمها بالتفسير ، وإقامة الأدلة عليه من النقل والعقل — لكان يكون ذلك أقرب إلى الإقناع ، وأشد تأثيراً في هداية المستعد للإسلام . فان هذه هي الطريقة المثلى للدعوة ، وهي التي جرى عليها مسلمو خير القرون ، وشهد لهم بذلك أصدق الشهود ، وأبعدها عن النجس والطعن — وهي

سيرتهم الفضلى في فتوحهم ، وعدهم المطلق في أحكامهم ، وصلاحهم وإصلاحهم في أعمالهم ، وبذلك انتشر الاسلام في الشرق والغرب ، وساد أهل الأمم والشعوب بسره لم يعرف لها نظير في التاريخ

فإسلام الأمة العربية كان بتأثير هداية القرآن وهدى النبي ﷺ وجهاده به كما قال تعالى (إن هذا القرآن يهدي للقى هدى أقوم) (يهدي به من أتبع رضوانه سبل السلام) وقال للنبيه (وجاهدكم به جهاداً كبيراً) وقد كان كل ما كان من اضطهاد رؤساء قومه المعاندين له ﷺ لأجل صده عن تبليغ القرآن للعرب ، لجزمهم بما يكون من جذبهم به الى اتباعه كما قل لهم عنه أبو لب في أول العهد بتبليغهم الدعوة : خذوا على يدي ، قبل أن تجتمع العرب عليه . ولم يكن ﷺ يطلب منهم ثم من كل من كان يعرض نفسه عليهم في الموسم في الموسم إلا حمايته ليبلغ دعوة ربه . ولما أسلم من أسلم من الانصار في موسم الحج سراً ، واشتروا الدعوة في عاصمتهم يثرب ، وصار لهم قوة يحمونه بها من قريش . هاجر إليهم فما زالت قريش تقاتله إلى أن رضى منهم بعد استكمال قوته أن يصالحهم في الحديبية بالشروط التي يرضونها مع كراهة أصحابه كلهم لها في مقابلة الشرط الوحيد الذي كان هو أهم المهمات عنده عليه صلوات الله وسلامه . وهو حرية الاختلاط والاجتماع بينه وبين سائر العرب ، اعلمه بأن سماعهم للقرآن ولا سيما منه كفى لإسلام السواد الأعظم منهم ، وكذلك كان

وكذلك ما فعل خلفاؤه وأصحابه المهادون المهديون من العجائب في نشر الإسلام وفتح الاقطار ، وتل عروش أعظم دول الأرض قوة وعظمة ونظاما وتشريعا وحضارة ، وتبديل ممالكهم وشعوبها بذلك كله ما هو خير منه — ما فعلوا ذلك كله إلا بتأثير القرآن

وأما انتشار الاسلام في الأعاجم فقد كان بقبائح الصحابة ثم من تبعهم في هديهم من السرب فالعجم للدعوة ، وكان برهانهم عليها من أحوالهم الصالحة وسيرتهم الحسنى أقوى تأثيرا في تلك الشعوب من أقوالهم التي كانت تنقل إليها بالترجمة . ولم ينتشر الاسلام في شعب منها بترجمة القرآن بلغته ، وقراءتهم لترجمته ، وإنما

كانت درجة الهدى والعلم والعمل ترتفع فيهم بقدر تدبرهم له بعد تعلم لغته ، فكان من متقني لغة القرآن من الموالى كبار الأئمة المجتهدين من أهل الحديث وأهل الرأي ، وجهابذة علوم اللغة وفنونها ، وأفراد العباد ، وتوابغ الأدباء ، وفخوة الشعراء .

وقد كان إيمانهم الصحيح بتلك الدعوة المثلى هو الذى حملهم على طلب لغة الدين (العربية) من غير إلزام حاكم ، ولا نظام تعليم إجبارى تؤسس له المدارس . وقد ترجم القرآن في هذه القرون الأخيرة بأشهر لغات الشعوب الكبيرة من عربية وشرقية ، فكانت ترجمته مئارا للشبهات وسببا لمطاعين ، أكثر مما كانت سببا للاهتداء إلى الاسلام .

(فان قيل) إن مئار الشبهات لم يكن من الترجمة بل من الخطأ فيها ، وذلك يتلافى بالترجمة الصحيحة التى ندعوا اليها ، وإن سبب الطعن لم يكن إلا سوء قصد من أعداء الاسلام من دعاة النصرانية أو الملاحدة ، وهؤلاء يطعنون فى القرآن العربى المنزل أيضا

(قلت) إني على علمي بهذا أقول إن الترجمة أكبر عون على الأمرين ، فان الذى يطعن فى القرآن المنزل إما أن يكون ضعيفا فى اللغة العربية أو حاذقا لها راسخا فيها . فالأول شبيه بمن يحاول فهم القرآن من الترجمة أكثر مما يؤتى من جهله باللغة ، وأما الثانى فهو يتسكف الطعن تكلفا يكابر به وجدانه ، ويغالب ذوقه وبيانه ، فيجنى طمعه ضعيفا سخيفا ، ويكون الرد عليه سهل المسلك . واضح المنهج ، وقلمه يكون الدافع عن الترجمة كذلك وإن كانت صحيحة ، ولن تكون صحيحة إلا فى بعض الجلى أو الآيات القصيرة . دون السور والآيات الطويلة . بل بعض المفردات تستعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى تؤدى المراد منها وأنه لا يوجد فى كل لغة من هذه المفردات التى لا يوجد لها مرادف فى لغة أخرى . وفى كلام بعض العارفين باللغة العربية وغيرها من اللغات المشهورة ما يدل على أن العربية أغناها بهذه المفردات ، دعى ما لها من الخصائص فى فنون الحجاز والكفايات .

تَعْدُرُ تَرْجُمَةُ الْقُرْآنِ

قد تكرر في كلامنا الجزم بتعدُر ترجمة القرآن ، والمسلم الصحيح الإسلام لا يحتاج إلى دليل على هذا لأنه يؤمن بأن القرآن معجز للبشر بأسلوبه ونظمه العربي المنزل ، كما أنه معجز بهدايته وإصلاحه للبشر ، وقد تحدى النبي ﷺ العرب بهذه الاعجاز وتحدى المسلمون به من بعدهم فثبت عجز الجميع عن الاتيان بمثله ، وصدق قوله عز وجل (١٧ : ٨٩ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) والترجمة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مثل الأصل ، فالآية نص قطعي على عجز الانس والجن عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم عوناً ومساعداً لبعض ، فكيف يمكن أن يأتي بمثله فرد أو جماعة ؟

وإن الذين يريدون ترجمته من الترك لصرف قومهم بها عن الكتاب المنزل من عند الله ليسوا بمؤمنين به ، فتقوم عليهم هذه الحجة ، وإن كثيراً من المسلمين المقلدين الذين يجهلون كثيراً من أصول الاسلام وفروعه لينخدعون بشبهات القائلين بترجمة الكلام الالهي باللغات المختلفة ، ولا يدرون أنه غير ممكن ولا أنه غير جائز ، وإذا قد بينا للفريقين عدم جوازه وما يترتب عليها من المفاسد بالادلة المقنعة وجب أن نبين لها الدلائل على عدم إمكانها من جهة اللغة ، ولا تقتصر على بيانها من جهة الشرع فقط

وقد علم أنسا نعتي بالترجمة حقيقة معناها والمراد منها الذي هو محل النزاع وهو التعبير عن الآيات العربية بما يؤدي معانيها وتأثيرها من لغة أخرى وإن توفية هذا الموضوع حقه تقتضي تأليف كتاب مستقل ، ولسكننا نكتفي بقليل من الشواهد تغني عن الكثير ، ونبدأ بالمفردات ونشئ بالجل ثم نمزجها بكلمة في الأساليب

أما المفردات فلما حقيقة وإما مجاز وإما كناية وكل منها إما لغوي سبق به استعمال العرب ، وإما شرعي أو مما انفرد به التنزيل ، ومنها المشترك الذي وضع لعدة معان في اللغة تعرف المراد منها بالقرائن . ومن علماء اللغة والأصول من أثبت

أن اللفظ قد يستعمل في حقيقة ومجازه والمشارك في معنييه أو معانيه إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وقد جرى على هذا الجمع شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسيره وتبعناه فيه . ثم إن هذه المفردات تنقسم إلى أسماء وأفعال وجروف معان ، وكل منها أقسام لكل منها مواقع في الاستعمال .

ومن المعلوم بالقطع لدى العارفين باللغات المتعددة أنه لا يمكن أن تتفق لغتان من لغات العالم في جميع مفرداتها ، ولا في طرق دلالتها ، وإذا فرض اتفاق لغتين في حقيقة لفظ واحد ومجازه وكنايته بحيث يترجم أحدهما بالآخر مها يكن المراد منه التشكك فلن يمكن مثل هذا في الأوضاع الجديدة الشرعية والعرفية ، كالألفاظ الموضوعية في القرآن لصفات الله تعالى وغير ذلك من عالم الغيب أو لبعض العبادات . ولذلك ذهب بعض علماء اللغات وعلماء الاجتماع إلى استحالة قيام لغة مقام أخرى في آدابها ومعارفها ومعانيها العقلية والشعرية

مثال ذلك : الأسماء الموضوعية ليوم القيامة وهي كثيرة وكل لفظ منها له معنى تدل عليه مادته العربية ، وهذا المعنى مراد لتحقيقه في ذلك اليوم ، كالواقعة والقارعة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية الخ وقد أقت الحجة على طيب تترك في التسطنطية بهذه الألفاظ ، إذ زعم أنه يترجم القرآن المجيد — وهو لا يحسن التعبير عن مراده باللغة العربية كما يجب — قلت له : لكم أن تفسروه بالتركية كما فعل بعض علمائكم من قبل . وأما الترجمة فهي مما يتعذر على أهل اللغات التي هي أغنى من لغتكم وأوسع وإن أنقنوا العربية . . . ثم سألته : كيف تترجم هذه المفردات المفردة الموضوعية ليوم القيامة ؟ قال إنه يترجمها بيوم القيامة . قلت إذا تفوت المعاني الاشتقاقية المقصودة بالذات من هذه الأسماء وهي بيان صفات ذلك اليوم مبدأ وغاية وما يقع فيه ، وما فيها من الوعظ والنشر المؤثرة في الخوف والرجاء ، والرادعة عن المعاصي . وإذا ترجمت بمعناها الاشتقاق لم يفهم منها أن المراد بها صفة يوم القيامة ، فإن القارعة اسم فاعل يوصف به في الحقيقة امرأة تفرع أحدا بالقرعة ، وفي المجاز داهية تفرغ القلوب بأهوالها ، والفرع في أهل اللغة ضرب شيء على شيء . — كما قال الراغب — وأخص منها (الصاخة) وهي الضربة ذات الصوت

الشديد يصيح المسامع أى يقرعها حتى يصمها أو يكاد ، أو الذى يضطرها إلى
الاصاخة والاصفاة

وإذا أنت فسررت الكلمة بيوم القيامة ، ووصفته بالقارعة فى سورتها ،
وبالصاخة فى سورة (عبس وتولى) تكون قد انفلتت من مأزق الترجمة إلى سعة
التفسير ، وحينئذ قد تكون عرضة لغلط فى التفسير يضيع به شئ من مراد الله تعالى
من هذه الألفاظ . وإذا كان قد وقع فى هذا بعض المفسرين بالعربية ، فالمرجم
بلغة غير العربية أولى بالغلط ، فإن بعض المفسرين قال : إن المراد بالقارعة
الداحية التى تفرع القلوب . وهذا التفسير مردود بدلالة القرآن نفسه ، فإن الله
تعالى يقول فى شرح هذا القرع (٥٢ : ١ - ٢ إذا وقعت الواقعة * ليس
لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجَّت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً *
فكانت هباء منبهاً) فهذا عين المراد من قوله تعالى (القارعة ما القارعة ؟
وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال
كالهين المنفوش) .

وبوضح هذا من نظريات الهيئة الفلكية ماذهب إليه بعض الفلكيين من أن
خراب هذا العالم لا يتصور إلا بدنو بعض النجوم ذوات الأذئاب من الأرض
وصدمه أو قرعه لها قرعة شديدة على نسبة قوة الجذب ، تبس به الجبال أى تنفتت
حتى تكون هباء منبهاً فى الفضاء ، وحينئذ يبطل نظام الجاذبية العامة ، فنبتائر
الكواكب وتتصادم كما قال تعالى فى وصف ذلك اليوم (وإذا الكواكب انتثرت)
فانطباع الآيات المختلفة الواردة فى وصف يوم القيامة من السور المتفرقة على هذه
النظرية الفلكية التى لم تكن فى عصر التنزيل معروفة للعرب ولا لغربهم من علماء
الفلك على الطريق القديم ، قد تعد فى هذا العصر من معجزات القرآن وعجائبه ،
وفاقاً لما ورد فى وصفه من الإنتر (ولا تنهى عجبائه) ولكنه لا يظهر من ترجمة
القرآن الحرفية ، فيكون قصورها وعدم موافقتها للأصل من طرق متعددة

فلما سمع منى ذلك الطبيب التركى المنفور هذا الشرح بهت ولم يحرج جواباً
- على أننا رأينا فى الصحف أن الذين شرعوا يترجمون القرآن فى هذه الأيام قد
فسروا (يوم الدين) فى الفاتحة بيوم القيامة ، والدين الجزاء على الأعمال ،

وذكره مقصود بالذات ، وله من التأخير ما ليس ليوم القيامة ، فانه يذكر التالى
للمفتحة فى الصلاة وغيرها بأن الله سبحانه على أعماله ويجزيه بها « إن خيراً
لخير ، وإن شراً فشر »

وأذكر من مفردات الأفعال دلالة صيغها من نحو التكلف والتكثير
والمشاركة والمطاوعة الخ ومن مفردات حروف المعاني والأدوات الفروق فى العطف
ونكت وضع بعضها فى موضع الآخر كقوله فى سورة الأنعام (٦ : ١١) قل سيروا فى
الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقوله فى سورة العنكبوت (٢٩ : ٢٠) قل
سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) فعطف النظر فى الأول بتم
المفيدة للتراخي ، وفى الثانى بالغاء المفيدة للتعقيب . فهل يوجد فى سائر اللغات مثل
هذا العطف الذى تقتضيه المعاني ، كما بيناه فى تفسير الآية الأولى مع مقارنات
أخرى (ص ٣٢١ ج ٧ تفسير) وله نظائر أخرى فى تفسيرنا

وأذكر من معاني الأدوات ما حققه الامام عبد القاهر الجرجاني من الفرق بين
الحصر بآما والحصر بحرفى النفي والاثبات كقوله : ما هو إلا كذا . وهو أن
موضوع « إنما » على أن نجىء خبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما نزل هذه
المنزلة ، وأن الخبر بالنفي والاثبات يكون للأمر ، يشكره المخاطب ويشك فيه وقد
وقد ذكرنا هذه القاعدة بالأثلة فى تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ١٤٥) قل
لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً
أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به) وبيننا سبب حصر هذا
المعنى بآما فى سورتي النحل والبقرة وأن الجمع بينهما هو أن آية الأنعام هى أول
ما نزل فى هذا الحصر ، فكان لما ينكره المشركون ويجمله المسلمون ، وأن آية
النحل والبقرة نزلتا بعد ذلك فكانت فى معنى صار معروفاً . فهل يوجد مثل
هذا الفرق فى الأدوات فى اللغة التركية وغيرها ؟ وهل يفهم المترجمون هذه الدقائق
فى الكتاب الالهى فيراعونها فى ترجمتهم ، إن كانت لغتهم تساعد على ذلك ؟
ومن هذا الباب : الفرق بين إن وإذا الشرطيتين ذكرنى به قولى الآن « إن

كانت لغتهم تساعدهم على ذلك « وهو أن الأصل في شرط «إن» أن يكون مما يجبهه مخاطب أو ينكره أو يشك فيه أو ما ينزل هذه المنزلة ، وأن شرط «إذا» بخلافه كما هو مقرر في علمي المعاني والنحو بأمثلته .

وأما الجمل فأكتفى منها بإيراد شاهد واحد، وهي الجملة المفيدة بالحال والفرق فيها بين الحال المفردة وجملة الحال ويترتب على ذلك أحكام شرعية كما بيناه في تفسير قوله تعالى من سورة النساء (يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغسلوا ٤: ٤٣) فقوله تعالى (وأنتم سكارى) جملة حالية مقيدة للنهي وقوله (جنباً) حال مفردة مقيدة له أيضاً، ولكن الأولى تنفيذ النهي عن السكر قبل الصلاة لئلا يأتي وقت الصلاة في حال السكر فيضطر السكران إلى ترك الصلاة أو إلى أدائها وهو سكران وهو المنهي عنه في الآية . وأما الثانية فلا تدل على ترك أسباب الجنابة قبل وقت الصلاة ولا في وقتها إلا أن يعلم أنه لا يتمكّن من فعل الطهارة وأداء الصلاة قبل ذهاب الوقت . ومثاله ما قاله الفقهاء في النذر وهو أن من قال : لله على أن أعتكف صائماً واجب عليه أن يصوم لأجل الاعتكاف ولا يجوز له أن يعتكف في رمضان ، ومن قال : لله على أن أعتكف وأنا صائم لا يلزمه صوم لأجل الاعتكاف بل يجوز له أن يعتكف في رمضان . ويراجع وجه كل منهما في تفسير الآية (ص ١١٥ ج ٥ تفسير) فهل يفهم مترجم القرآن بالتركية مثل هذه الدقائق ؟ وهل تساعده لغته على مراعاتها إن كان يفهمها ؟ أم يحتاج إلى شرح وتفسير لبيانها فكأن مفسراً لا مترجماً ؟ .

هذا شاهد من شواهد دقة التعبير في الأحكام الشرعية العملية . وأما دقة التعبير ، وبلاغته في الوصف المفيد للوعظة والتأثير ، فمن عجائب شواهد وصف الظالمين يوم القيامة في قوله تعالى من سورة إبراهيم (٤٢ و ٤٣) إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مطعون مقلعون رؤسهم لا يرعد إليهم طرفهم * وأفلتتهم هواء) شخوص الأبصار عبارة عن ارتفاعها وكون أجفانها مفتوحة ساكنة لا تطرف (ومطعون) من أطح البعير إذا صوب عنقه ومد بصره ، وقبل الاطماع أن تقبل ببهرك على المرتى تدعيم النظر إليه لا تلتفت إلى غيره ، ويأتي بمعنى الاسراع . و (مقلعون رؤسهم)

وعوسهم) من أقنع البعير رأسه إلى الخوض ليشرب إذا رفته ، وقيل إنه يكون رفقا وخفضا فهو من أسماء الأضداد ، وقوله (لا يرتد إليهم طرفهم) معناه أن لهم في شخوص الأبطال وإعطاعها مع امتداد الأعناق ونصويها إلى ما تنظر إليه شغلا شاغلا لها أن ترجع إليهم فتسكون طوع إرادتهم بوجهونها حيث شاءوا بل هم في هول وكره لا مشيئة ولا سلطان لهم معها على أبصارهم ، بل عيونهم ممدودة مفتوحة لا تطوف ولا تتحرك ولا تتوجه إلى شيء آخر بتصويب ولا تصعيد . ثم بين علة هذا وسببه في النفس فقال (وأفتدتهم هوا) أي غلاء خاوية من العقل فاقدة للقوة والإرادة .

لعمري الحق إذا تصور من يفهم هذا الوصف حق الفهم قوما هذه حالهم في ذلك اليوم حتى كأنه يراهم ليأخذن الرعب بمخنفه ، وليست تحوذن الذعر على شعوره وإدراكه ، ولا سيما إذا كان من العرب الخلفاء أو الأعراب الأقحاح .

وأذكر من الكنيات مثل الرفث وإفضاء الزوج إلى الزوج وقوله تعالى (فلما تغشاها حملت حملا خفيفا) وقوله تعالى (أو لامستم النساء) وقوله (نسأوك حرث لـكم) وقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) فإذا فرضنا أن في اللغة التركية وغيرها لفظاً بمعنى التفتش الدال على الستر ولفظاً بمعنى الحرث وهو الزرع - لأن معانيهما كاللمس والملازمة مشتركة بين الشعوب - فهل تستعمل هذه الألفاظ وما في معناها في لغاتهم كناية عن الوظيفة الزوجية السرية كما تستعمل في العربية ؟

وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم ، والقاموس المحيط الأعظم فإنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية ، وذلك أنه يمزج فنون الكلام ، وينظم مقاصد الهداية والإرشاد ، على اختلاف أنواعها ، وتباين موضوعاتها ، مزجاً متلائماً ، ونظماً متناسباً متناسقاً ، موافقاً للذوق السليم ، مطابقاً لنكت البلاغة . فالعقائد النبوية ، والدلائل العلمية والعقلية ، والأخبار الغيبية ، والسنن الكونية والاجتماعية ، والمواظبات الأخلاقية والأدبية ، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية ، وقصص الأنبياء ، ووصف الأرض والسماء ، وما فيهما من جواهر وأحياء ، وما بينهما من هواء وهباء ، تراه كله في السورة الواحدة ، ونرى الكثير منه في آية واحدة ، بعبارة بدیعة مؤثرة ، ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة ، وينقلب

فيها القلب من موعظة إلى موعظة ، مع منتهى الأحكام والمناسبة ، بحيث لا تمل تلاوته ، ولا تفتأ تتجدد هدايته ، حتى إن بعض الأدباء وأهل الذوق في اللغة العربية من غير المسلمين يترددون في ليالي رمضان على بيوت معارفهم من المسلمين ، ليسمعوا القرآن ، ويمتدعوا قلوبهم وأذواقهم بسماع ترتيله ، بذلك النظم الذي ليس بشعرولا سمع ، ولا كلام مرسل ، بل هو نظم خاص ، قابل للأداء بالنغمات المختلفة المؤثرة على تفاوت آياته وفواصله في الطول والقصر ، فلا ية قد تكون كلمة مفردة أو كلمتين وجملة أو جملتين ، أو جملاً قليلة أو كثيرة ، وكلها مخالفة لساير أساليب الكلام العربي المنشور والمنظوم ، ولكل نوع منها تأثير غريب في ترتيلها وتجويدها ، بالأصوات الملائمة لمعانيها

صليت الفجر مرة في أهل بيتي بسورة القمر ، وتلوحتها بصوت خاشع صاعد مناسب لزواجرها ونذرهما ، فقالت لي الوالدة : إن هذه النذر تقصم الظهر ، وصارت تسميها سورة النذر . وقالت مثل هذا القول مرة أخرى في سورة (ق) فهل يتصور مثل هذا التأثير للترجمة التركية أو غيرها من لغات الأعاجم في أنفس أهلها كما يؤثر في أنفسهم مادون القرآن من كلام بلغاتهم ؟ كلا

نموذج من ترجمة تركية

إنني بعد كتابة ما ذكر تذكرت أن عند بعض معارف ترجمة تركية للقرآن فاستعرتهم منه ، فإذا هي ترجمة جميل بن سعيد - وسيأتي ذكرها - وإذا فهم من النص والحذف والخطأ فوق ما كنت أظن ، ويظن أنه أخذها من الترجمة الفرنسية لأنه هو لا يعرف العربية ، وهذه جرأة قبيحة لا تصدر عن رجل يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، وتدل على سوء نية هؤلاء الناس في الترجمة وكون غرضهم منها العبث بدين الإسلام وتغيير الترك منه ، وفتح أبواب الطعن لهم فيه . وقد راجعنا فيها ما ذكرنا من أسماء يوم القيامة فوجدناه يذكر أفاضها العربية ويفسرهما بيوم القيامة . وأما كنيات الوقاع لحذف منها قوله تعالى (فلما انفشاهن) واكتفى بكلمة بما يدل على الحمل .

وترجم الملامسة بما معناه وإذا وجدتم بالمناسبات الجنسية مع النساء فمتظفوا

وفيه ما فيه . وأما الحُرث فترجمه بكلمة « تارالا » وهي الأرض المعدة لزراعة الحبوب دون المشجرة ، ومن المعلوم أن الكناية تجامع الحقيقة ، فاحلال الرفث إلى النساء في ليالى رمضان يدل بمفهومه على حظر الرفث بالقول على الصائم وهو المعنى الحقيقي للكلمة كما يدل على تحريم الفعل المسكن عنه . والترجمة التركية لا تفيد الدالتين وترجم قوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الخ بما معناه : لا تصلوا في حال سكركم بل انتظروا أن تهيئوا إلى حال يمكنكم أن تفهموا فيها ما تقولون - ولا تعبدوا في حال كونكم جنبا بل انتظروا الغسل . وهذه ترجمة تفسيرية باطلة من وجوه كما يرى القارئ وليس فيها تفريق بين الحالين ولا بين الحاكين .

وأما قوله تعالى في الظالمين (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) مطعون . مقتضى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) فقد ترجمه بما معناه الخرف : يحلهم الله إلى يوم يمطفون فيه أنظارهم إلى السماء بصورة كاملة ، وستبقى قلوبهم فارغة وأنظارهم ثابتة ، وهم يسرعون بعجلة رفعت رءوسهم اه فراذ على الأصل توجيه النظر إلى السماء وقوله بصورة كاملة أراد به تفسير شخوص البصر وهو لا يؤدي معناه ولا يصور ذلك الوصف البليغ المؤثر للأبصار الشاحصة ، والرءوس المقنعة ، والأعناق المطمعة ، بل لم يذكر الرءوس والأعناق ألبتة . وإذا كان بهذه الدركة من المعجز مع استعانتها بالألفاظ العربية فكيف تكون ترجمتهم لكتاب الله تعالى إذا حاولوا أن تكون تركية خالصة خالية من الألفاظ العربية كما يطلب غلاة غوانهم ؟

هذا وإن في هذه الترجمة من الغلط وتحريف المعاني والزيادة والنقصان ما لا يعقل له المطلع عليه سبباً إلا تعديلاً اضلالاً ، لأن الجهل وحده لا يبيط بهذا المترجم إلى هذا الدرك الأسفل مع ادعائه الوقوف عند حدود التعبير عن مدلول اللفظ العربي بلفظ تركي ، كوظيفة مترجمي المحاكم القضائية .

فمن التحريف النخل الدال على سوء النية ترجمة قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا القومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة) (سورة يونس آية ٨٧) اتفق مفسرو السلف والخلف على أن معنى اتخاذ بيوتهم قبلة أن يصلوا فيها .

فكأنه قال أجعلوها مساجد ، وهو الصحيح - أو أن يوجهوها إلى القبيلة - قيل هي الكعبة ، وقيل بيت المقدس إلا ما ذكره بعضهم من احتمال جعلها متقابلة متقاربه ولكن المترجم التركي ترجعها بقوله

« قومكم يحبون مصرده خانه لرايشا ايديكز . ويوتلريني قبلة طرفنه توجيه ايديكز » أي أنشئوا في مصر بيوتاً لقومكم ووجهوا أصنامها لجهة القبلة (؟؟) فما قول العالم الاسلامي في ترجمة للقرآن تعلم الترك ان الله تعالى أجاز لبنى اسرائيل اتخاذ الاصنام . والعياذ بالله تعالى .

وليس هذا هو الغلط الوحيد في ترجمة هذه الآية الكرمة بل هو الاخفش وفيها أيضاً انه ترجم تبوأ البيوت بإنشاء البيوت وهو غلط وإنما معناه سكنها ومن الحذف والاسقاط انه أسقط من ترجمة سورة البقرة قوله تعالى (ثم استوي إلى السماء (١ : ٢٨) وأسقط ذكر المن والمسلوى من الآية ٥٤ منها - وأسقط وصف القرآن بالقيم من أول سورة الكهف والأمر بالسجود والاقتراب من آخر سورة العلق ... وغير ذلك مما يشق إحصاؤه

نعم قد بلغنا ان رئيس الأمور الدينية في الجمهورية التركية قد أعلن ان هذه الترجمة ملوثة بالأغلاط فلا يجوز الاعتماد عليها . ولكن هذه الحكومة لم تجمع نسخها وتمنع استعمالها وطبعها فهي منتشرة، وبلغنا انها ألغت لجنة لترجمة القرآن أي مسلم يعتمد عليها وعلى لجنتها في عمل بعده المسلمون العارفون بالاسلام جنابة عليه وهدماً له ؟

صفة ترجمات القرآن التركية

وقد نشرت جريدة الأخبار المصرية رسالة لمراسلها من الاسكندرية^(١) في هذا الموضوع جاء فيها بعد الموافقة على ترجمة الترك للقرآن وتحييدها ما نصه :

« كان أول مترجم للقرآن الكريم زكي افندي مغامز ، وهو مسيحي سوري وقد اطلعنا على ترجمته صدقة قبل طبعها ، فأبدينا رأينا في الحال ، وكنا السبب في عدم طبعها ، ثم قام على أثر ذلك الشيخ محسن قاني (هو حسين كاظم بك)

(١) هو عمر رضا افندي المصري من محرري الجرائد التركية

أحد أعلام تركيا في الأدب والفضل ، وتصدى لترجمة القرآن الكريم مع جماعة من زملائه ، وقد رأيناه لا يودى المعانى حقها ، لا يودىها في أحسن صورة يمكن أن تؤدى بها في اللغة التركية ، ولذلك فإننا ^(١) انتقدناه مرارا .

ثم قام بعدها جميل سعيد بك حفيد كمال باشا ناظر المعارف الأسبق ، فترجم القرآن . لقد كان المنتظر أن تكون الترجمة الثانية أحسن وأكمل من الأولى إنما لم يتحقق ذلك الأمل ، ولذلك فإننا ^(٢) قد انتقدنا جميل بك أمر انتقاده، ولم نترك له أى منفذ للتخلص ، وقد أراد حضرته أن يهيننا على انتقاداتنا بتخفيف أهمية أخطائه فلم يفلح في ذلك ، بل كان جوابه أعدل شاهد على أنه غير كفء للعمل الذى أراد أن يقوم به . والأدهى من ذلك أننا عند انتقاداتنا ظننا أنه ترجم القرآن من لغة من لغات أوروبا ، لا من أصله العربى ، واستدلنا على ذلك ببعض الدلائل ، فلم يستطع أن يهيننا على ذلك ببنت شفة ، ولذلك فإننا ^(٣) في مقالتنا الثانية شدنا عليه الحملة لآخر درجة ، وقلنا له : إنه فضح الشعب التركى باقتراف هذه الجريمة المدهشة ، لأن الشعب التركى شعب مسلم منذ عشرات القرون ، شعب يخدم المدنية الاسلامية ، ويتولى زعامة الأمم الاسلامية منذ قرون ، شعب يفهم القرآن الكريم من أصله العربى منذ قرون شعب أنجب المثات من العلماء الذين فسروا القرآن ، وتبحروا في جميع العلوم المستفادة منه . فعار أن يقرأ ترجمة القرآن في هذا القرن من لغة مبشر متعصب ! وقد أخرجنا لذلك المترجم كثيراً من أخطائه التى لم يستطع أن يرد عليها ، وعدا هذا فان رئاسة الأمور الدينية في أقرة لم تتأخر مطلقاً في القيام بواجبها ، بل إنها عند انتشار كل ترجمة من هذه التراجم حذرت الناس منها ونهتهم إلى ما فيها من التعريفات . وبذلك قضت على تلك الكتب بما تستحقها . المراد منه .

(١) هذا التعبير أى تأخير الفاء وجعل ما قبلها متعلقاً بما بعدها مما فشا في الجرائد

وهو خطأ صوابه هنا: فلذلك انتقدناه الخ (٢ و ٣) تراجع الحاشية السابقة .

وجاء في جريدة الأهرام في ٢٩ رمضان سنة ١٣٤٢ مائه :

ترجمة القرآن بالتركية

أقدم فريق من الترك أخيراً على تنفيذ الفكرة التي طامسوا تنفيذها ، وهي أن يترجموا القرآن بالتركية ، ويستغنوا به عن النظم العربي المبين ، فشرع مصطفى أفندي العيشاني وزير الحفانية السابق ، والشيخ محسن فاني ، ومصطفى بك ، وسيف الدين بك في نشر الترجمة التركية بأقلامهم ، وقد أنشأت مجلة (سبيل الرشاد) التركية مقالة علمية جلية في انتقاد هذه الترجمة ، وبين مواطن الخلل فيها ، وقدمت لذلك نموذجاً من الغلطات الموجودة في ترجمة (سورة الفاتحة) فقط ، فبلغت ست غلطات لا يجوز التسامح في واحدة منها . فمن ذلك خطأهم في وضع لفظ يدل على المعنى المندمج في حرف (أل) من (الحد) وحشوم لفظاً زائداً في ترجمة (الرحمن الرحيم) وتقول المجلة التركية إنهم قطعوا بذلك نظم الكلمات القدسية ، بل سحقوا ما فيها من الدرر ، وترجموا وغيروا لفظ (يوم الدين) بلفظ (يوم القيامة) وقد أبانت المجلة التركية الفروق العظيمة بين اللفظين وزادوا في الفاتحة نداء « يا الله » مرتين بلا لزوم . وبذلك حوّلوا بلاغة القرآن وإيجازه إلى شكل غير لطيف ، وترجموا كلمة (إهدنا) بلفظ « أرنا » قالت المجلة : وبذلك نحوا نحو مذهب المعتزلة ، ولا ندرى أقصدوا ذلك أم هي رمية من غير رام ؟ وحرفوا نظم (صراط الذين أنعمت عليهم) فجعلوا « الصراط » في الترجمة مفعول الانعام ، وهو مفعول الهداية ، فجاءت ترجمتهم هكذا : « الصراط الذي أنعمته على غير المفضوب عليهم ولا الضالين »

قالت مجلة (سبيل الرشاد) : والحق أن جرأة أناس هذا مبلغ علمهم بلفة القرآن ، على أن يترجموا القرآن لما يدعو إلى الأسف ، وإنه لانم عظيم ، قالت : ورجاؤنا إليهم أن يستغفروا الله عما ارتكبوا من الانم العظيم ، وأن يتوبوا إليه ، ويتحوّلوا عن هذا العمل السقيم الذي حاولوه .

وتقول : بلغنا أنهم لم يتوبوا وأنهم مأمورون بذلك من حكومة انقرة ، وإن ترجمتهم ستكون الرسمية والله أعلم

قد علم مما تقدم أن كل ترجمة حاولها الترك قاصرة عن أداء معاني القرآن الظاهرة التي يفهمها كل قارئ. يسهل التعبير عنها بكل لغة ، دع ما أشرنا إليه من المعاني الدقيقة ، والأوصاف الممتازة في البلاغة ، وأسماء الله تعالى وصفاته وعلم الغيب ، والتعبير عنها بالمفردات والجل والأساليب الخاصة باللغة العربية دون لغات العجم ولا سيما التركية الفقيرة ، وهذا يفتح أبوابا واسعة للشبهات والمطاعن فيه ويسد أبوابا واسعة لقضوب من التفسير والتأويل الدافعة لها ، وضروب من المعارف هي من أعظم الآيات البينات له . وقد علمنا أن الترك خطر وأتعليم اللغة العربية وفنونها والعلوم الشرعية في بلادهم . فعلى هذا لا يجد قارئ ترجمتهم التركية للقرآن في الأجيال الآتية مرجعا لتفسير هذه الترجمة إذا هو استشكل أو طعن له أخذ في شيء منها وأضرب لذلك من المثل قوله تعالى (والتين والزيتون) الذي سأل عنه مصطفى كمال باشا بعض علمائهم ، فأجابه بأن الجواب لا يمكن بيانه في أقل من نصف ساعة ، فجزأ به الباشا ، وأراد أن يجعله مثلا في الجهل ، وهو أجدر بهذا الوصف في هذا المقام لتوهمه أنه يكفي في الجواب أن يذكر له مرادف التين بالتركية وهو «انجير» وذلك العالم يعذر إذا اعتقد أن هذا الرجل الكبير في مقامه وفي معارفه العسكرية لا يُعقل أن يسأل عن تفسير بعض المفردات العربية بما يقابلها في التركية ، واعتقد أنه إنما يريد بالسؤال معنى إقسام الله تعالى ببعض الشجر والبقاع والبلاد وحكته ، كما إذا سأل هذا الفقيه من الباشا عما يسميه رجال الحرب «خط الرجعة» مثلا ، فانه لا يمكن أن يريد بذلك تفسير كلمة خط وكلمة الرجعة لغة

ولعل ذلك العالم كان يعتقد أن الباشا لم يسأل هذا السؤال إلا وهو منسكر لورود القسم بالتين والزيتون كما يؤخذ من كلام له كثير نقله عنه ، وهو احتقار التعاليم والنظم التي وضعت في صدر الاسلام ، وزعمه أنها وضعت لقوم منخطين في الحضارة والفنون ، فلا يليق أتباعها في هذا العصر الذي ارتقت فيه الصناعات والفنون والمعارف المادية ، واستباح المتفرون فيه الرذائل باسم المدنية ، فأراد أن يزيل من فكره هذه الشبهات الجهلية ، ويبين له معنى صيغة القسم عند العرب وهو تأكيد الكلام وحكمة ما في القرآن من الإقسام بال مخلوقات ، كالذكر بما فيها من الآيات ، ومناسبة

كل قسم منه لما أقسم به عليه لتوكيده ، كالأقسام بالنجم على هداية النبي ﷺ ورشاده ، لأن كلامهما يهتدى به ، ثم الانتقال من ذلك إلى ماورد في التفسير المأثور متناسبا لذلك ، ولا بأس ببيان ذلك وإن طال الاستطراد إزالة لشبهة مصطفى كال باشا وأمثاله لئلا يكون تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة فقول :

إن الجمع في قوله تعالى (والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين) بين نوعين من الشجر وموقعين من بقاع الأرض لم يكن إلا للمناسبة جامعة بينهما كما هو المعهود في التنزيل ، وفيما دونه من كلام البلغاء أيضاً ، ولما كان من المعلوم قطعاً أن طور سينين (أى سيناء) مهبط الوحي على موسى ﷺ ومظهر نبوته — وأن البلد الأمين (مكة) مهبط الوحي على محمد ﷺ ومظهر نبوته — ترجح أن يكون المراد بالتين والزيتون الكناية عن مظهرين من مظاهر النبوة والدين ، كما يكنى بالإهرام أو أبي الهول عن حضارة الفراعنة ، وبشجر الأرض عن جبل لبنان مثلاً .

وإذا رجعنا للتفسير المأثور عن السلف في ذلك نرى فيه عن ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس (رض) قولين (أحدهما) ما رواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم وهو أن المراد بالتين مسجد نوح (عليه السلام) الذي بناه على الجودي — أى حيث استوت سفينته بعد الطوفان ، والزيتون بيت المقدس وطور سينين مسجد الطور والبلد الأمين مكة (ثانيها) ما رواه عنه الأخير من أن المراد بالتين والزيتون المسجد الحرام والمسجد الأقصى حيث أسرى بالنبي ﷺ الخ : ويقوى الأول تعدد رواته وموافقة التاريخ له كما بينه شيخنا الأستاذ الإمام من وجه آخر في تفسير السورة من جزمه فانه قال بعد حكاية أشهر أقوال المفسرين ما نصه :

« وقال قليل من المفسرين إن الأقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون قالوا : لكثرة فوائدهما ، ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد غير مفهومة ، ولهذا رجح أنهم ما موضعان ، وقد يرجح أنهم النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكرنا ، بل لما يذكر أن به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر . قال صاحب هذا القول

إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثه النبي ﷺ : فالنئين إشارة إلى عهد الانسان الأول فانه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها يورق التين ، وعند ما بدت له ولزوجته سواتهما طغفا يخصفان عليهما من ورق التين . والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحا في سفينته واستقرت السفينة نظر نوح إلى ماحوله فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتي اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيرا آخر فرجع اليه بحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسرّ وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمّر . ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة في الأرض التي يحيى عمرانها بالطوفان ، فمهر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة ، وهي من أكبر ما يذكر به من الحوادث . وطورسينين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى ﷺ جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع ، ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين ، وحجب نوره بالبدع وإخفاء معناه بالتأويل وإحداث ما ليس منه بسبيل ، فنّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من أطوار الانسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة ، واليه أشار بذكر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما ستري . اه المراد منه

ومن هذا الشرح تعلم أن ذلك العالم التركي على علم لا يشاركه مصطفى كمال باشا في شيء منه ، وأنه مصيب في تقدير زمن الجواب بنصف ساعة كما تعلم أن الترجمة التركية لن تكون إلا قاصرة عن احتمال مثل هذا التفسير ، وانها تمهيد للاضلال والتكفير سبحانه الله ! أنشك في كون مراد ملاحدة الترك بترجمة القرآن التوسل بها

إلى الطعن فيه والتشكيك في كونه كلام الله عز وجل ، وإقامة الشبهات على بطلان دين الاسلام ، وترك المسلم منهم في ظلمات لا يبصر فيها بصيصاً من النور يهتدى به إلى الدفاع عن دينه ؟ أنشك في هذا بعد اقدامهم على إبطال التشريع الاسلامي من حكومتهم حتى في الأحكام الشخصية من زواج وطلاق وإرث تفضيلاً للتشريع الأوربي عليه على اختلافه ، وإبطال التعليم الاسلامي من بلادهم واضطهاد علماء الدين حتى في ملابسهم ، فقد أكرههم على لبس الزي الخاص بغير المسلمين كغيرهم ، ولم يبالوا بمراعاة وجدان أحد ولا اعتقاده في أن ذلك معصية لله تعالى بل هو آية الردة عن دينه . فعلوا هذا والسواد الأعظم من الشعب التركي يدين الله بالاسلام وجدانا وتسليماً يحمله على الفضائل ويزعه عن الرذائل ، ولعلماء الدين احترام عنده ، ثم لم يستطع أحد منهم أن يدافع عن دين الشعب بكلمة مع كون مادة القانون الأساسي للجمهورية التركية الناطقة بأن دين الدولة هو الإسلام لما تنسخ كما نسخت أحكام الإسلام نفسها ، ذلك بأن من عارض الحكومة في عمل من أعمالها هذه يساق إلى محكمة خاصة تسمى محكمة الاستقلال مفوضة بأن تحكم بالقتل للدفاع عن هذه الحكومة اللادينية من غير استناد إلى شرع منزل ولا قانون مدون ، ويكون حكمها نهائياً لا استئناف له ولا مراجعة فيه ، وقد قتل كثير من العلماء والأتقياء المعارضة في وضع القلنسوة الافرنجية (البرنيطة) موضع العمامة واستبدالها بها ؟

هذا ما يجري اليوم فإذا يكون في الغد إذا لم يجد المسلم التركي بين يديه في بلاده من كتب دينه إلا ترجمة للقرآن بالصفة التي عرفت أغلاطها وقصورها ؟ نعم إن هؤلاء الملاحدة أنفسهم سيفسرونها له بما يزيده بعداً عن الإسلام وبعده للكفر به وعداوته وعداوة أهله ، ان طال أمر استبدالهم فيه

لا نقل : وما يمنع بقية أهل الدين منهم أن يفسروها له بالتركية تفسيراً يصحح الاغلاط ويدفع الشبهات ؟ فان الذين منعوا ما علمت يمنعون هذا أيضاً وينشرون تفاسير ملاحدتهم المؤيدة لفرضهم وهم يستمدونهم من خصوم الإسلام كدعاة النصرانية وشياطين السياسة الأوربية ، وملاحدة المادية دع ما عليه عليهم الجهل أو السكفر أذكر مثالا واحداً من ذلك قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

بمغنى من عالم عربى أقام فى الآستانة سنين كثيرة يخالط علماءها عن عالم تركى أعرفه وكنت أعدده من أفضل علمائها الجامعين بين العلم والدين ومعرفة حال العصر أنه يشتغل بترجمة القرآن ، وأنه يقول بقول الباطنية الأولين : فى هذه الآية وهو أن العبادة من صلاة وصيام لم تفرض إلا على من لم يصلوا فى العلم إلى درجة اليقين ، ومن وصل إلى هذه الدرجة ترتفع عنه العبادة بنهى هذه الآية من القرآن . ويكفى هذا التأويل لإبطال جميع عبادات الإسلام . فان اليقين أمر يمكن لكل أحد أن يدعيه ، ويمكن اضلال جماهير الناس بالوصول إليه ، وفى التحكم فيما يطلب اليقين فيه

ونقول فى إبطال هذه الضلالة (أولا) : إنها طعن صريح فى النبى الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بأنه لم يكن على يقين فى دينه وعلمه بالله عز وجل ، فان الخطاب له ﷺ فى الآية ، وهو المعنى به أولا وبالذات وان كان الحكم عاما . وذلك بالتبع لما قبله من الامتنان عليه بآياته السبع المثانى والقرآن العظيم ، وأمره بالتبليغ والصدع به وتهوين أمر المشركين عليه وإثباته بكفايته تعالى أمر المستهزئين منهم بعد هذا قال (١٥ : ٩٤ - ٩٩ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقد ورد فى التفسير المأثور أن المراد باليقين الموت ، وان المعنى : واعبد ربك مادمت حيا . ونقلوا شواهد له من الاستعمال . وفسروا به قوله تعالى حكاية عن أهل النار (٧٤ : ٤٦ و ٤٧ وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أنايا اليقين *)

(ثانيا) إن أصل اليقين شرط فى صحة الإيمان والإيمان الصحيح شرط فى صحة العبادة ، فاليقين فى الإسلام مبدأ لا غاية ، والحنفية الذين تلقى هذا التركى الدين على مذهبهم يقولون : ان الإيمان لا يقبل الزيادة ولا نقصان ، لأن التصديق إذا لم يكن يقينا لا يكون إيمانا ، وليس فوق اليقين غاية تكون هى الزيادة . وفى هذا البحث نظر ليس هذا محله

(ثالثا) ان اليقين الذى ينتهى إليه تصديق الانسان فى الدين أو غيره لا يصح التعبير عنه بالاثبات ونحوه كالحجى لأنه يكون فى نفسه وعقله ، وانما يعبر

به عما يرد على الإنسان من الخارج بذاته أو بأسبابه كالموت والعلم الخبى ، أو المنتزع من المعلوم الخارجى ، دون نتيجة القياس العقلى . فقوله تعالى (حتى يأتىك اليقين) كقوله (ويأتىه الموت من كل مكان) وقوله (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) وقوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت) .

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد للدفاع عن القرآن فى تفسيره ، فهو أفضل ما يدافع به عنه ، بل هو من مقاصد التفسير لامن الاستطراد الأجنبى عنه . وما ضعف اهتمام الناس بالقرآن الا بخلو تفسيره من تطبيق عقائده وأحكامه على أحوال الناس ودفع الشبهات التى تصدهم عنه .

(١٥٨) وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

بين تعالى فى الاستطراد الخاص بنبوة خاتم الرسل ﷺ كتابة رحمته للذين يتبعونه من قوم موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال فى متبعيه (أولئك هم المفلحون) أى دون غيرهم من الذين كفروا به ولم يتبعوا النور الذى أنزل معه بعد بعثته وبلغ دعوته ، وذلك لا ينافى كون المتبعين لموسى حق الاتباع قبل بعثته ﷺ على هدى وحق وعدل وأنهم من المفلحين ، فان ما أفادته جملة (أولئك هم المفلحون) من الحصر اضافى للاحقيقى كما أشرنا إليه آنفاً وبيناه فى تفسير تلك الآية . ولذلك بين سبحانه فى هذه الآية حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع ، عاطفاً إياهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين ﷺ فقال :

﴿ وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ أى ومن قوم موسى (أيضاً) جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاءهم به من عند الله تعالى ويعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس ، لا يتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشى ، فالظاهر المتبادر أن هؤلاء ممن كانوا فى عصره وبعد عصره حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة بعد السبى ، فان الأمم العظيمة لا تخلو من أهل

الحق والعدل . وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله فى الحكم على الأمم ، كقوله (٣ : ٧٥) ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) وقيل فى وجه التناسب والاتصال : إنه ذكر هؤلاء من قومه فى مقابل متخذى المجمل للدلالة على أنهم كانوا بعض قومه لا كلهم ، وهو جائز على بعد يقدر يقدر بعد هذه الآية عن قصة المجمل ، وما قلناه أظهر .

(فان قيل) إن قوله « يهدون ويضلون » للحال المفيد الاستمرار (قلنا) إن أمثاله مما حكى فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، ووجهه ان التعبير لتصوير الماضى فى صورة الحاضر ، وما هنا يشمل أهل الحق من قوم موسى إلى زمن نزول هذه السورة ممن لم تكن بلغتهم دعوة النبى الامى خاتم النبیین ﷺ وهم الذين كانوا كلما بلغت أحداً منهم الدعوة قبلها وأسلم ، وقد ورد فى وصفهم آيات صريحة وحمل بعضهم هذه الآية التى نفسرها عليهم وحدهم .

قالوا : ان المراد بهؤلاء الأمة من آمن بالنبي ﷺ من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه . ونقول انه نزل فى هؤلاء آيات صريحة كقوله فى آخر سورة آل عمران (٣ : ١٩٩) وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) وهذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها ليست صريحة فى هذا ، بل السياق ينافية لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به ﷺ فالمتبادر فيها أنها فى خواص قوم موسى فى عهد موسى وبعد عهده ومنهم النبيون والربانيون والقضاة العادلون ، كما يعلم بالقطع من آيات أخرى . فالآيات فى الخيار من أهل الكتاب ثلاثة أنواع (١) الصريحة فى الذين ادركوا النبي ﷺ وآمنوا قبل إيمانهم أو بعده كقوله تعالى فى سورة البقرة (١٣١) الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) وقوله فى سورة القصص (٢٨ : ٥٢ - ٥٥) الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * إلى قوله — أولئك يؤتون أجراً مرتين - الآيات) ومثلهن فى سورة الانعام والبرعدوالاسراء والقصص والعنكبوت الخ (٢) الصريحة فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ثم فى

عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التي نحن بصدد تفسيرها (٣) المحتملة للقسمين كقوله تعالى (٣: ١١٣-١١٥) من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله) الخ فراجع تفسيرهن (في ص ٢٠-٨٣ ج ٤ تفسير) وفي تفسير الأمة هنا خرافات اسرائيلية ذكر بعضها ابن جرير عن ابن جريج انه قال : بلغني كذا ، وذكر أن سبطا من بني اسرائيل ساروا في نفق من الأرض فخرجوا من وراء الصين الخ . وذكر عن ابن عباس ما يؤيد هذا بدون سند . وابن جريج على سعة علمه وروايته وعبادته شر المدلسين تدليسا لأنه لا يدلس عن ثقة وأمة الجرح والتعديل لا يعتدون بشيء يرويه بغير تحديث ، ونقل هذه الخرافة كثيرون ، وزادوا فيها ما عزوه إلى غيره أيضا وبحثوا فيها مباحث ، ولا يستحق شيء من ذلك أن يحكى .

(١٥٩) وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ النَّسَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

هذا سياق آخر من أخبار قوم موسى عليه السلام عطف على ما قبله لمشاركته إياه في كل ما يقصده من العظات والعبر . قال تعالى :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ أى وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهودون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون - كما سيأتى بعد بضع آيات - قطعناهم فجعلناهم اثنتى عشرة قطعة أى فرقة تسمى أسباطا أى أئمة وحجاعات يمتساز كل منها بنظام خاص في معيشتها وبعض شئونها كما يأتى قريبا في مشارب ما هم . والمشهور من معنى السبط - بكسر السين - أنه ولد الولد

مطلقاً ، وقد يخص بولد البنت . وأسباط بني اسرائيل سلاسل أولاده العشرة - أي ماعدا لاوى - وسلاسل ولدى ابنه يوسف وهما (افرام ومفسى) وأما سلالة لاوى ، فنيطت بها خدمة الدين في جميع الأسباط ولم يحمل سبطاً مستقلاً . وقد تقدم تفصيل ذلك ^(١) فالأسباط بيان للفرق والقطع التي هي أقسام بني اسرائيل ليعلم أنها سميت بذلك ، كما سميت الفرق في العرب بالقبائل ، والأمم بيان المراد من معنى الأسباط الاصطلاحى . والأمة الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، وتقدم بيان ذلك أيضاً .

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ تقدم في سورة البقرة مثل هذا مع تفسيره وهو (وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) فأفاد ما هنا أن قومه استسقوه ، وما هنالك أنه استسقى ربه لقومه ، وكلاهما قد حصل . والاستسقاء طلب الماء للسقيا ، وتعريف الحجر في هاتين السورتين المكية (الأعراف) والمدنية (البقرة) لتعظيم جرمه ، وقد عبر عنه في التوراة بالصخر - أو تعظيم شأنه ، أو كليهما ، وكلاهما عظيم ، وقد يكون للعهد كما تدل عليه عبارة التوراة ، إذ عينت مكانه من جبل حوريب . والانبجاس والانفجار واحد . يقال : يجسه أى فتحه فانبجس وبجسه (بالتشديد) فتبجس ، كما يقال : فجره (كنصره) إذا شقه فانفجر ، وفجره (بالتشديد) فتفجر - وزعم الطبرسى أن الانبجاس خروج الماء بقلّة ، والانفجار خروجه بكثرة ، وأنه عبر بهما لإفادة أنه خرج أولاً قليلاً ثم كثر . وأدق منه قول الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شئ ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شئ واسع ، فاستعمل حيث ضاق الحجر للفظان - أى وهو حجر موسى - وقال (وفجرنا خلالها نهراً) (وفجرنا الأرض عيوناً) ولم يقل بجسنا اه

أقول : ولكن رواية اللغة فسروا أحدهما بالآخر ، وذكرنا من الشواهد علمية

ما يدل على الكثرة . قال في اللسان : البجس انشقاق في قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء ، فإن لم ينبع فليس بانبعجاس وأنشد * وكيف غرني دالج تبعجاساً*^(١) والسحاب يتبعجس بالمطر ، والانبجاس عام ، والنبوع العين خاصة ، ويجست الماء فانبجس أى فجرته فانبجر ، ويجس بنفسه يجس ، يتعدى ولا يتعدى . وسحاب يجس ، وتبعس أى انفجر اه وفي الأساس : انبعس الماء من السحاب والعين : انفجر ، وتبعس : تفجر الخ ... وسحاب يجس وبجسها الله . قال ابن مقبل :

له قائد دهم الرباب وخلفه روايا يبعسن الغمام الكنهورا^(٢)

وحاصل المعنى : وأوحينا الى موسى حين استسقاء قومه فاستسقى ربه لهم (كما في آية البقرة) بأن اضرب بعصاك الحجر فضر به فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد أسباطهم ~~قد علم كل أناس مشربهم~~ أى قد عرف أناس كل سبط المكان الذى يشربون منه ، إذ خص كل منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها لما في ذلك من النظام ، واتقاء ضرر الزحام . وفي أول سفر العدد من التوراة : أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بني اسرائيل كان يزيد على ستائة ألف من ابن عشرين فما فوقه ، فعلى هذا يكون عدد الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً لا يقل عن ألفى ألف (مليونين) وللهو رخ النقاد الحكم ابن خلدون تشكيك معروف فيما قاله المؤرخون تبعاً للتوراة في كثرة هذا العدد من وجوه كثيرة ، فصلها في أول مقدمة تاريخه ، ولكن لا يمكن الشك في أنهم كانوا ألوفاً كثيرة أو عشرات الألوف فإذا لم يكن لهم في سيناء موارد للماء غير تلك العيون التى انفجرت من صخر في جبل (حوريب) متصل به ، فلا بد أن تكون مساحة ذلك الصخر واسعة جداً ، وأن يكون السهل أمامه أفيح ليسع الألوف من الأسباط يردون ويصدرون . وقد اختلف

(١) أى وكفت وسالت كوكيف دلوى مائع من البئر وهو الدلج . فالوكيف مصدر كالوكف والوكوف (٢) الرباب السحاب ، والكنهور كسفرجل السحاب المتراكم ، والروايا الابل التى تحمل الماء . والكلام في وصف سحاب ماطر ، يقول : ينزله قائداً من السحاب السود ، وخلفه سحائب ثقال من حمل الماء كالروايا يبعسن أى يفجرن الغمام المتراكم بالوابل المدرار

علماء أهل الكتاب في مدلول لفظ (حوريب) الذي أمر الله موسى أن يذهب إلى صخر فيه فيجده — أى الرب — عنده أو عليه ، وأن يضربه بعصاه فينفجر منه الماء هل هو جبل سيناء نفسه أم بين اللفظين عموم وخصوص — ويزعم بعضهم أنه الصخر المذكور في الوادى الذى يسمى (وادى الالباء) ويعين بعض الرهبان مكانه ولا يعيننا شيء مما ذكر إلا أننا نجزم بأن ما في كتب التفسير عندنا من صفة ذلك الحجر وحجمه وشكله ككونه كراش الشاة أو أكبر وكونه يوضع في الجوالق أو يجعل على ثور أو حمار — كل ذلك من الخرافات الاسرائيلية التي كانوا يتلقونها بالقبول أيها أغرب. وقد نقل ابن كثير على احتراسه كثيرا منها

وفي عرائس المجالس عن وهب بن منبه أن موسى كان يقرع لهم أقرب حجر فينفجر منه عيون ... فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى الله إليه بأن يكلم الحجارة فتطيعه ، فقالوا : كيف بنا إذا مضينا إلى الأرض التي ليس فيها حجارة ؟ فأمر الله موسى أن يحمل معه حجرا فحيثما نزل ألقاه الخ وهذا من الخرافات التي اختلقها وعب ، ليس لها أصل عند اليهود ولا عند المسلمين. ولولا جنون الرواة بكل ما يقال عن بنى اسرائيل لما قبلوا من مثله أن يشرب مئات الألوف أو الملايين من حجر صغير يحمل كائبلوا من مزاعمه أن رأس الرجل من قوم هود عليه السلام كان كالقبة العظيمة ١١ وقد عدوه مع أمثال هذه الخرافات ثقة في الرواية (١)

﴿ وظلنا عليهم الغمام ﴾ الغمام السحاب أو الأبيض أو الرقيق منه أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفتح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، وتسمى السحابة ظلة بالضم ككل ما أظلك من فوق. ولولا كثرة السحاب في التيه لأحرقهم الشمس إذ لم يكن هنالك شجر يستظلون به

﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ المن مادة يبيض تنزل من السماء (الجو) كالطل حلاوة الطعم تشبه العسل ، وإذا جفت تكون كالصمغ ، وقد كثر نزوله على بنى اسرائيل في التيه ، وهو موصوف في التوراة بأن طعمه كطعم قطاف بالزيت ، ومنظره

كقطر المقل ، وعبر عنه فيها بخبر السماء . وقد كان يقوم مقام الخبز . ويقول كثير من المفسرين انه هو المعروف عند الأطباء بالترنجيبين . وقال (الدكتور بوست) في قاموس الكتاب المقدس : لا يجوز أن يشتبه بين هذا المن والمن الطبي الذي هو عصير منعقد من شجرة الدردار ولا هو أيضاً - المن الذي يتكون من شجرة الطرفاء . وعمل ذلك بقوله (١) إن الاسرائيليين لم يروه قبل رحلتهم (٢) لا يوجد المن العربي إلا تحت الطرفاء وفي أول الصيف فقط (٣) يمكن حفظه مدة طويلة ولا يدود (٤) لا يمكن طحنه أو دقه (٥) يتكوّن المن كل يوم من أيام الأسبوع مدة الفصل ٥ . وفي قوله نظر لاحاجة إلى شرحه ، وهو يريد به إثبات ماقله من أن هذا المن كان « عجيبة » أي معجزة أو كرامة لأوصى عليه السلام . ونحن لا ننكر ما آتى الله كليمه من الآيات البينات والحجج على قومه لاصلاحهم . وقد كان أفسدهم استعباد المصريين لهم ويكفي أن تكون المعجزة في نزولها بتلك الكثرة التي كانت تكفي تلك الألوف وتقوم عندهم مقام الخبز كما اعترف به هوفى (السلوى) فقد وافق غيره في أنها هي طير السمان المعروف وقال : إنها كانت تهاجر من أفريقيا (ولاسيا مصر) فنصل إلى سيناء تعبئة فتقع على الأرض أو تسف فتؤخذ بإليد . وقيل طير تشبه السمان ولكنها أكبر منها .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ هنا قول مقدر يكثر مثله في التنزيل وكلام العرب أي وقلنا لهم — أو أنزلنا ماذا كر عليهم قائلين : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فوضع هذا الوصف المن والسلوى موضع الضمير اتعظيم شأن المن بهما . وإسناد الرزق إلى ضمير جمع العظمة تأكيداً للتشبيه والتذكير بما يجب من شكره تعالى على ذلك . ويقدر مثل هذا في آية البقرة المدنية ، وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل المجاورين للنبي ﷺ في المدينة ولئن بلغه من غيرهم ، فإن الخطاب لهم هنالك إنما كان بما وقع لأجدادهم فهو بمعنى الحكاية في آية الأعراف إلا أن الكلام هنا كان موجهاً أولاً إلى المشركين لأن السورة مكية ، ولذلك اتحد عجز الآية في السورتين وهو :

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذي لا يبدله تأثير أحد بظلم ولا غيره فكبروا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرها آنا بعد أن . وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين في القرآن بالاجمال وفي التوراة بالتفصيل . فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمة الله تعالى يضرهم ولا يضره تعالى كما في الحديث القدسي الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضى الله عنه مرفوعا « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » . (ومنه) « يا عبادى إنكم لن تباعوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلفوا نفعى فتتفعونى » ولا يدخل فى معنى القصر أنهم لا يظلمون الناس فانه لم يكن معهم أحد فى التيه فينقى عنهم ظلمه ولما اتصلوا بالناس بعد الخروج منه وكان منهم العادلون ومنهم الظالمون ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم . وإن كان ظلمه لنفسه مما يجعل أنه ظلم لها لأنه يتجلى له فى صورة المنفعة ، وإنما تكون عاقبته المضرة ، وهكذا شأن جميع الظالمين والجرمين . ينوون بظلمهم وإجرامهم نفع أنفسهم جهالة منهم . ولا يزال طوائف من بنى إسرائيل يقدمون على ضروب من ظلم الناس يقصدون بها نفع أنفسهم وقومهم ، وهى تنذر بخطر كبير ، وشر مستطير ، كالفتنة التى أثاروها فى بلاد الروسية بتعاليم الاشتراكية المسرفة المعبر عنها بالبلشمية ، ومحاولة انتزاع فلسطين من الأمة العربية ، وهذا مما يدخل فى مضمون التحدى والاستمرار على الظلم المعبر عنه بجملة (كانوا أنفسهم يظلمون) إذ هى تفيد أن هذا صار دأبا وعادة لهم

(١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَازُونَ يَظْلَمُونَ

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة وبين ما هنا وما هنالك فروق في التعبير نبينها هنا فنقول

(٢١) قال تعالى هنا ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُم ﴾ لأن القصة خطاب وجه أولاً إلى أهل مكة ، فالحكاية فيه عن بنى إسرائيل حكاية عن غائب والأصل أن يذكر ضميره فيه ولذلك قال « لهم » في سورة البقرة « وَإِذْ قُلْنَا » والمعنى واحد إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى ، وقد روعى هنالك السياق في خطاب بنى إسرائيل إذ قبلها « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ . . . وَإِذْ وَاغْدْنَا مُوسَى . . . » فناسب أن يقول « وَإِذْ قُلْنَا » ولم يقل فيها « لكم » كما قال هنا « لهم » لأن القول كان لأجداد المخاطبين من ألوف السنين لا لهم أنفسهم ، ولم يقل « لهم » أيضاً لأن السياق لم يكن حكاية عن غائب مجهول يحتاج إلى تعيينه ، بل هو تذكير الخلف بما تقوم به عليهم الحجة من شؤون السلف ، لأنهم وارثوا أخلاقهم وغرائزهم وعاداتهم ، فهو إذن مشترك بين الخلف الحاضر ، والسلف الغابر ، وزيادة « لهم » تليق بالغائب وحده فتكون حكايته لبنى إسرائيل كحكايته لعرب مكة وغيرهم ، فتأمل

(٣) قال ههنا ﴿ اسْكُبُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ وفي سورة البقرة « ادخلوا » والفائدة ههنا أنهم لأن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس . وتظهر فائدة اختلاف التعبير في الفعلين بما يليهما من العطف عليهما وهو

(٤) قال ههنا ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ وفي سورة البقرة « فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا » فعطف الأمر بالأكل هنالك بالفاء لأن بدوه يكون عقب الدخول كأكل الفواكه والتمرات التي كانت توجد في كل ناحية من القرية - والسكنى أمر ممتد يكون الأكل في أثناءه لاعتقابه ، بل لا يقال عقب السكنى إلا فيمن يترك هذه السكنى ، ولذلك عطف عليه هنا بالوار التي تفيد الجمع بين الأمرين مطلقاً بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب . وقد وصف هنالك الأكل بالرغد وهو الواسع المعنى والتبشير به يناسب حال الدخول ، إذ الأمر لدى الداخل مجهول .

(٦) قال ههنا ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ وقدم هنالك ما آخر

هنا وآخر ما قدمه أى في الذكر ، وهو لا يدل على طلب ترتيب بين الأمرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً ، ولكن لو كان التعبير في الموضعين واحداً لزم منه أن المقدم في الذكر أرجح أو أهم ولو في الجملة كما هي القاعدة في التقديم لذاته . فكان الاختلاف دالاً على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه . لأن المراد منها لا يقتضى ترتيباً بين مادات عليه كلمة (حطة) وهو الدعاء بأن تحط عنهم أوزارهم وخطاياهم كفولك اللهم غفراً^(١) وبين دخول باب القرية في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتدنيس الرؤوس شكراً لجلاله على نواله ، كما فعل النبي الأعظم ﷺ لما دخل مكة فاتحاً

(٧) قال ههنا ﴿ تغفر لكم خطيئاتكم ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (تغفر) بالثاء والغاء المفتوحة ورفع (خطيئاتكم) وهو يناسب (وإذا قيل لهم) وقرأ الجمهور تغفر بالنون وكسر الغاء ونصب «خطيئاتكم» بكسر ثائها وهو يناسب ما بعده وهو كون «سنزید» للمتكلم المعظم . والمعنى فيهما واحد ، لأن المخاطب الذي يغفر الذنوب واحد . وقرأ ابن عامر (خطيئكم) بالافراد . وهو بمعنى الجمع لأنه مضاف فيفيد العموم ، ولعل فيه إشارة إلى خطيئة خاصة مشتركة . وقرأ أبو عمرو خطاياكم) وبها قرأ الجمهور في آية البقرة ، مع اختلافهم في فعل المغفرة كما هنا وكتاية الكاهنيتين في المصحف الامام تحتمل كل ما ذكر في السكاهنيتين ، وفائدة الاختلاف لفظية وهي التوسع في القراءة ، وقال القطب الشيرازي إن فائدة الاختلاف بين قراءتي الافراد والجمع للمخطيئة أن هذه الذنوب تغفر لهم إذا فعلوا ما أمروا به من قول وفعل سواء كانت قليلة قليلة أو كثيرة

(٨) قال ههنا ﴿ سنزید المحسنين ﴾ بدون واو على الاستئناف النبائي وهو جواب سؤال كأنه قيل: وماذا بعد المغفرة؟ أى سنزید المحسنين في عملهم جزاء حسناً على

(١) قالوا رفعت كلمة حطة مع كونها في موضع نصب بمعنى حط عنا خطايانا حطة - للدلالة على معنى الثبات والاستقرار . والتقدير حاجتنا حطة ، وهو أحسن من تقدير مسألتنا حطة كما قدروا ، أى حاجتنا أن تحط عنا ذنوبنا حطاً خاصاً أو تاماً فإن كلمة حطة بكسر الحاء تدل على هيئة الحط ونوعه

احسانهم . وفي سورة البقرة (وسنزيد بالعطف والمعنى واحد . وقد يكون طرح الواو أدل على كون هذه الزيادة تفضل محض ليس مشاركة المغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بمحط الأوزار

(٩) قال ههنا ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ وفيه زيادة (منهم) على مثله من سورة البقرة وسببها ما تقدم نظيره في قوله تعالى (وإذا قيل لهم) الخ من الحاجة إلى ذكر ضمير المحكي عنهم لربط الكلام ، وهذه الحاجة منتفية في سورة البقرة كما علمت من الفرق السابع آنفاً ، وليس لزيادة البيان كما قيل ، بل هو الأصل ههنا ولا حاجة إليه هنالك وإن كان حكاية عن الغائبين لأنه لم يخرج عن سياق مخاطبة خلفهم الحاضرين .

وأما معنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم فقد تقدم بيانه في تفسير آية البقرة وملخصه أنهم عصوا بالقول والفعل . وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتل الاجتهاد ولا التأول ، فلم يراعوا ظاهر مدلول لفظه ، ولا نحوه والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منهم غير الذي قيل لهم ، ولو قال فبدلوا قولاً بقول ، أو فبدلوا ما قيل لهم ، لم يدل على هذا المعنى كله .

ولا ثقة لنا بشيء مما روى في هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية ، فكله من الاسرائيليات الوضعية ، كما قاله الاستاذ الإمام هنالك . وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعاً كحديث أبي هريرة المرفوع في الصحيحين وغيرهما « قيل لبنى اسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حطه ، حبة في شعرة » وفي رواية شهيرة رواه البخاري في تفسير السورتين من طريق هام بن منبه أخى وهب وهما صاحبها الغرائب في الاسرائيليات . ولم يصرح أبو هريرة بسماع هذا من النبي ﷺ فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه ، وهذا مدرك عدم اعتماد الاستاذ رحمه الله تعالى على مثل هذا من الاسرائيليات وإن صح سنده ولكن قلما يوجد في الصحيح المرفوع شيء يقتضى الطعن في سندها .

(١٠ - ١٢) قال ههنا ﴿ فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾

وقال هنالك (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) فالاختلاف في ثلاثة مواضع (أولها) بين الإرسال والانزال وهو لنظي إذ الإرسال من فوق عين الانزال (ثانيها) بين المضر « عليهم » والمظهر (على الذين ظلموا) والمراد منهما أن ذلك الرجز عذاب كان خاصاً بالذين ظلموا الاعاماً فحسن أن يقول في آية الأعراف « عليهم » لتصريحه بسببية الظلم بعده ولو قال « فأرسلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون » لسكان تكرار التعليل بالظلم منافياً للبلاغة ، وهذا التكرار منتف في آية البقرة لأن التعليل فيها بالفسق لا الظلم (ثالثها) بين يظلمون ويفسقون وفائدته بيان أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير ، وبين الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة ولو في غير الظلم للنفس أو للناس . وحسن أن تكون هذه الزيادة في آية البقرة لأنها نزلت آخراً . والرجز العذاب الذي تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم كما تقدم تحقيقه في تفسير الآية (١٣٣) من هذه السورة وذكرنا فيها قول المفسرين إن الرجز الذي أرسله الله على الظالمين في قصة دخول القرية هو الطاعون وأنه جائز ولكن لم يثبت بنقل صحيح ، وقد عزاه بعض المفسرين إلى وهب بن منبه إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة ، لا نار يخشع شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع . والعبرة في هذه القصة أن نتق الظلم والفسق . ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم . ومنه السياق الآتي

(١٦٢) وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مَعَذِرُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
(١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

هذه الآيات تفصيل لقوله تعالى في سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) إلى آخر الآيتين وقد تقدم تفسيرها ، ولا أعلم للقصة ذكراً من كتب اليهود المقدسة ولكنها كانت معروفة عندهم ، ولولا ذلك لبهتوا النبي ﷺ في المدينة عند ما نزل عليه (ولقد علمتم) أو لما آمن من آمن به من علمائهم إذا كانوا لا يعلمون ما حكى لهم عن الله تعالى أنهم يعلمونه مؤكداً بلام القسم ، وإذا قل غير المسلم المؤمن : أنه اطلع على القصة في بعض كتبهم المقدسة أو التاريخية غير المقدسة أو سمعه من بعضهم قلنا أولاً : ان آيات سورة الاعراف هذه نزلت بمكة في أوائل الاسلام ، ولم يكن النبي ﷺ لقي أحداً من اليهود - ومن المعلوم قطعاً انه كان أميناً لم يقرأ الكتب كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لا رتاب المبطلون) الخ . وثانياً : انه ﷺ لم يكن يصدقهم بعد معاشرتهم في المدينة بكل ما يحكون عن كتبهم بل كذبهم عن الله تعالى في كثير منها ، ولم يكن يصدقهم في كل ما يقولونه غير منقول عن كتبهم بالأولى : وهاك تفسير الآيات بمداول ألفاظها ، ولا نعتمد على شيء من الروايات فيها .

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والسؤال فيه للقرير المتضمن للتقرير ، والادلال بعلم ماضيهم . والمعنى واسأل بني إسرائيل عن أهل المدينة التي كانت حاضرة البحر أي قرية منه ، رابكة لشاطئه ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ أي أسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعدون في السبت ، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ﴿ إذ تأنيهم جنتهم ﴾ أي سحهم - ولا يزال أهل الحجاز يسمون السمكة حوتاً

كبيرة كانت أو صغيرة ، وأهل سورية يخصوص السمكة الكبيرة باسم الحوت — وقد أضيفت الحيتان إليهم لما كان من ابتلائهم بها ، واحتياهم على صيدها ، وكانت تأتيمهم ﴿ يوم سبتهم ﴾ أى تعظيمهم للسبت ، فهو مصدر سببت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿ شرعا ﴾ أى ظاهرة على وجه الماء كما روى عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه ظاهرة من كل مكان — وهى جمع شاريع ، كالركم السجد جمع الرامع والساجد ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيمهم ﴾ أى ولا تأتيمهم يوم لا يعظمون السبت فعلا وتركوا . قيل إنها اعتادت أن لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت ، فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى في الأيام التى لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغرام ذلك بالاحتيايل على صيدها ففعلوا .

﴿ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أى مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم أى نختبرهم أو نعاملهم معاملة الختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم ، واعتدائهم حدود شرعه .

﴿ وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ أى واسألم عن حال أهل تلك القرية في الوقت الذى قالت أمة وجاعة منهم كيت وكيت تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يمدون في السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التى أشير إليها في الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ، ووعظوهم ليكفوا عنه وهى التى أشير إليها في هذه الآية . وفرقة اللاتين الواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاستئصال ، أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المعق مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة — وأيا ما كان المراد فأوهنا هى المأنة للخلو من وقوع أحد الجزاءين ، لا المأنة لجمعهما ، فهى لا تنفى اجتماعهما . وفي الآية من الإيجاز البالغ ما لا يوجد نظيره في غير القرآن .

﴿ قالوا : معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ أى قال الواعظون للآمين :
نعظمهم وعظ عنذرتهم به إلى ربكم عن السكوت على المنكر وقد أمرنا بالتناهى عنه،
ورجاء فى انتفاعهم بالموعظة ، وحملها لهم على اتقاء الاعتداء الذى اقترفوه . أى
فنحن لم نياس من رجوعهم إلى الحق يأسكم

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أى فلما نسي العادون المذنبون ، ما ذكرهم
ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمسمى فى
كونه لا تأثير له ﴿ أنجيننا الذين ينهون عن سوء ﴾ أى عن العمل الذى تسوء
عاقبته أى أنجيناهم من العقاب الذى استحقه فاعلوا السوء بظلمهم ﴿ وأخذنا الذين
ظلموا ﴾ وحدهم ﴿ بمذاب بئيس ﴾ أى شديد من البأس وهو الشدة ، أو البؤس
وهو المكروه أو الفقر ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أى بسبب فسقهم المستمر ،
لا بظلمهم فى الاعتداء فى السبت فقط . وذلك أن وصفهم بأنهم ظلموا تعليل
لأخذهم بمذاب بئيس ، على قاعدة كون بناء الحكم أو الجزاء على المشتق يدل على أن
المشتق منه علة له ، ولكن الله تعالى لا يؤاخذ كل ظالم فى الدنيا بكل ظلم يقع منه
ولو كان قليلا فى الصفة أو العدد - وإن شئت قلت فى الكيف أو الكم - بدليل
قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة) وقوله (ويعفو
عن كثير) وإنما يؤاخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب
التي يظهر أثرها فيها بالاصرار والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا فى هؤلاء
اليهود قوله تعالى (بما كانوا يفسقون) وإنما يكون العقاب على بعض الذنوب دون
بعض فى الدنيا خاصة بالأفراد أو الجماعات الصغيرة من المذنبين كأهل هذه القرية
الذين كانوا بعض أهل قرية من أمة كبيرة ، وأما الأمم الكبيرة فهى التى تصدق
عليها سنن الله فى عقاب الأمم إذا غلب عليهم الفسق والظلم كقوله تعالى (واتقوا
فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة) إلا أن يقال إن الفاسقين من أهل تلك
القرية كانوا أقل من الفريقين الآخرين . وقد عاقب الله بنى إسرائيل كافة
بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلبهم ملكهم ، عند ما عم فسقهم ، ولم يدفع

ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم ، إذا لم يكونوا يخلون منهم .
والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذي نهوهم عن
عمل السوء وارتكاب المنكر ، وسكنت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين
وعظمهم وإنكارهم ، فتأمل : أنها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر بل أنكرت على
الذين نهوا ، وقيل : بل نجت ، لأنها كانت منكورة للمنكر مستقبحة له ، ولذلك
لم تفعله ، وإنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي ، وجزمها بأن القوم قد استحقوا
عقاب الله بأصرارهم فلا يفيدهم الوعظ ، وروى هذا عن ابن عباس كما روى عنه
أنه كان متردداً في هذه الفرقة حتى أقنعه تلميذه عكرمة بنجاتها . وقد رجح
الزحخشري وغيره هذا قال :

(فإن قلت) الأمة الذين قالوا : لم تعظون ؟ من أي الفريقين هم ؟ أم فريق
الناجين أم الممذبين (قلت) من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما
قالوا بما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً
صحيحاً لهم بحال القوم ، وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه ،
سقط عنه النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو
ذهبت إلى المكسين القاعدين على المآصر ، والجلادين المرتبين للتعذيب ،
لتمظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للنهائي بك .
وأما الآخرون فأنما لم يعرضوا عنه إما لأن يأسهم لم يستحکم كما استحکم يأس
الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حصرهم ، وجدّم في أمرهم ، كما
وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله (فلعلك باخع نفسك) اه
أقول : إن ما ذكره من سقوط النهي عن المنكر أو وجوب تركه في حالة اليأس
من تأثيره مرجوح ولا سيما إذا أخذ على إطلاقه ، وإنما هو شأن أضعف الإيمان
في حديث « من رأى منكراً فليغيره بيده » ، فإن لم يستطع قبل سانه ، فإن لم يستطع
فبقلمه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد
الخدري (رض) وإنما تكون هذه الحالة أضعف الإيمان عند عدم استطاعة ما قبلها ،
فإن استطاع النهي وسكت عنه لم يكن له عذر مطلقاً ، ولذلك اختلف في هؤلاء الساكتين .

المحتملة حالهم للعذر وعدمه ، واليأس قلما ينشأ إلا من ضعف في النفس أو الإيمان ، وكثير من مكاس وجلاذ ومدمن خمر تاب وأناب ، والمحققون لم يجمعوا احتمال الأذى ولا يقينه . موجباً لترك النهي عن المنكر ولا لتفضيله على الفعل بل قالوا في هذه الحالة بالجواز ، واستدلوا على تفضيل النهي بحديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم

وفي بئس عدة قرأت أخرى بين متواترة وشاذة ، تنخرج على الخلاف في أصل صيغته ، وعلى لغات العرب في التصرف في المهموز : فقرأها أبو بكر على خلاف عنه بيئس بوزن ضيغم — وابن عامر بكسر الباء وسكون الهمزة بناء على أنه أصله بيئس بوزن حذر فنقلت حركة الهمزة إلى الفاء للتخفيف ككبد في كبد ، ونافع بييس على قلب الهمزة ياء كذئب وذئب ، أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً ، ومن الشواذ بييس كريس على قلب الهمزة ياء وإدغامها ، وبييس كهيئ على تخفيف المشددة ، وبأئس بوزن فاعل

﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ أي فلما عتوا عن أمر ربهم عتوا إياه واستكبار عن ترك ما نهوا عنه الواعظون ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ هذا القول للتكوين أي تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين أي صاغرين أذلاء فكانوا كذلك قيل : إن هذا بيان وتفصيل للعذاب البيئس في الآية السابقة ، وقيل : هو عذاب آخر ، وإن الله عاقبهم أولاً بالبؤس والشقاء في المعيشة ، لأن من الناس من لا يريبه ويهذهبه إلا الشدة والبؤس ، كما إن منهم من يريبه ويهذهبه الرخاء والنعمة ، وبكل يبتلى الله عباده ويمتحنهم كما قال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال في بني إسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) ولكن هؤلاء القوم لم يزدتهم البؤس والسوء إلا عتوا وإصراراً على الفسق والظلم فقدم عليهم ربهم بذنوبهم ، ومسحهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل ، أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها ، وإفسادها لما اتصل اليه أيديها ، والأول قول الجمهور والثاني قول مجاهد : قال مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمْ الْأَصْلَحُونَ وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ ، وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) خَلَفَ مِنْ بَدَمِ خَلْفٍ وَرَثَا أَلْكَتِبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

هذه الآيات خاتمة قصة بنى إسرائيل في هذه السورة ، وما سياتى من نبأ الذى آتاه الله آياته فانسلك منها مثل عام ليس فيه مايدل على أنه كان منهم كما روى عن بعض المفسرين فهو لايدخل فى قصتهم ، ومناسبة هذه لما قبلها مباشرة أنها بيان لجريان سنة الله العامة فى عقاب الأمم وانطباقها على اليهود عامة ، بعد بيان عقابه تعالى لطائفة منهم قال عز وجل :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾
 تأذن صيغة تفعل من الايدان ، وهو الاعلام الذى يبلغ فيدرك بالأذان ، ويتضمن هنا تأكيد القسم ، ومعنى العهد المكتوب بالقرآن ، بدليل مجيء لام القسم ونون التوكيد فى جوابه ، والمعنى : واذكر أيها الرسول الخاتم العالم إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضى فى علمه وكتب على نفسه ، وفانما لما أقام عليه نظام الاجتماع البشرى من سننه ليبعثن ويسلطن عليهم إلى يوم القيامة من

يسومهم سوء العذاب ، أى يريده ويوقعه بهم ، عقاباً على ظلمهم وفسقهم وفسادهم ، وهو مجاز من سوم الشيء ، كما يقال سامه خسفاً . وسوء العذاب ما يسوء صاحبه ويذله ، وهو هنا سلب الملك ، وإخضاع القهر .

ومصداق هذا وتفصيله على ماقررنا قوله تعالى فى أول سورة الاسراء (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً --- إلى قوله --- ويتبرأوا ما علواً تنبيهاً) ثم قال (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) الآية أى وإن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الافساد، عدنا إلى التعميد والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى اقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلى ، وقهروهم واستذلوهم ، ثم جاء الاسلام فماداه منهم الذين كانوا هاربوا من الذل والنكال ولبوا إلى بلاد العرب فماشوا فيها أعزاه آمنين ، ولم يقوا للنبي ﷺ بما عاهدكم عليه إذ آمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم ، وقتل بعضاً ، وأجلى عمر من بقى منهم ثم فتح عمر سورية بعضها بالمصلح كبيت المقدس ، وبعضها عنوة ، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطنة الاسلام العادلة ، ولسكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال . وقد بينا حقيقة حالهم ، وما يحارلونه من استعادة ملكهم فى هذا الزمان فى غير هذا الموضع من هذا التفسير ، وفى مواضع من المنار ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ للآم التى تنسق عن أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترقيها ففسقوا فيها — فحق عليها القول — فدمرناها تدميراً) أى أمرناهم بالحق والعادل ، والرحمة والفضل ، فعصوا وفسقوا عن الأمر ، وأفسدوا وظلموا فى الأرض ، فحق عليهم القول ، بمقتضى سنته تعالى فى الخلق ، فحل بهم الهلاك على الفور .

﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب هرب الذنب ، وأصلح ما كان أفسد فى

الأرض ، قبل أن يحق عليه القول (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وهذا كما قال في اليهود بعد ذكر إفسادهم مرتين (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) وقلمنا ذكر الله عذاب الفاسقين المفسدين ، إلا وقرنه بذكر المغفرة والرحمة للناثقين المحسنين ، حتى لا ييأس صالح مصلح من رحمته بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغتراراً بكرمه وعفوه وهو مصر على ذنبه ، ثم بين تعالى كيف كان بدء إذلال اليهود بإزالة وحدتهم ، وتمزيق جامعهم

فقال ﴿ وقطعناهم في الأرض أئماً ﴾ أي وفرقناهم في الأرض حال كونهم أئماً بالتقدير ، أو صيرناهم أئماً متقطعة ، بعد أن كانوا أئمة متحدة ﴿ منهم الصالحون ﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى إلى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ ومنهم الذين ذلك ﴾ ومنهم ناس دون وصف الصلاح لم يبلغوه ، وهم درجات أو دركات ، منهم الغلاة في الكفر والفسق ، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ومنهم السامعون للكذب الآكولون للسلبة ، إلى غير ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة في كل عصر ، ففسد بالتدريج لادفعة واحدة كما نراه في أئمتنا الإسلامية

﴿ وبلوناهم بالحسنات والنسيئات لعلهم يرجعون ﴾ أي امتحنناهم ، وبلونا سرائرهم واستعدادهم ، بالثبوت التي نحسن ، وتقربها الأعين ، وبالنقم التي تسوء صاحبها ، وربما حسنت بالصبر والإنابة عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنوبهم ، وينيبوا إلى ربهم ، فيعود برحمته وفضله عليهم .

﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أي خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح ، والبر والفاجر ، خلف سوء وبدل شر ، قيل : إن الخلف بسكون اللام يغلب في الأشرار ، وإئماً يقال في الاختيار خلف بالتحريك كساف ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ الذي هو التوراة عنهم ، وقامت الحجة به عليهم ،

فإذا كان شأنهم ؟ الجواب ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى ، أى هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا ، والمراد به ما كانوا يأكلونه من السحت والرشى ، والاتجار بالدين والحباية في الحكم والفتوى ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ أى سيغفر الله لنا ، ولا يؤاخذنا بما أذنبنا ، فأننا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أنباؤه وأحباؤه ومباهذه الأقوال إلا أمانى ، وغرور وأوهام ، قال ابن كثير ، وقال مجاهد : هم النصارى ، وقد يكون أعم من ذلك اه وكل من القولين ينافية مقتضى السياق ، فأوائل

النصارى كانوا صالحين ، وسابق الكلام ولا حقه في اليهود وحدهم ﴿ وإن يأثمهم عرض مثله يأخذوه ﴾ أى يقولون ذلك والحال أنهم مصرون على ذنبهم إن يأثمهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أو بالباطل يأخذوه لا يتعففون عنه وإنما وعد الله في كتبه بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندماً وخوفاً من الله ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، كما تكرر في القرآن ، ومنه في سياق قصة موسى مع بنى إسرائيل خطاباً لهم من سورة طه (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)

وقد رد الله تعالى عليهم زعمهم بقوله ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ الاستغفار للنقير ، أى قد أخذ عهد الله وميثاقه في كتابه بأن لا يقولوا عليه غير الحق الذى بينه فيه ، فما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع اصرارهم على ذنوبهم على خلاف ما في الكتاب ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أى من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والسكذب على الله كقولهم إنه سيغفر لهم وغير ذلك ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في العمل بكتابه كما في آخر سفر تثنية الاشتراع

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟ ﴾ أى والدار الآخرة وما أعد الله فيها للذين يتقون الرذائل والمعاصى خير من الحطام الفانى من عرض

الدنيا بالرشوة والسحت وغير ذلك ، أفلا تعلمون ذلك وهو ظاهر جلي لا يخفى على عقل لم يطعمه الطعم الباطل ، في الخطام العاجل ، فترجعون الخير على الشر ، والنعيم العظيم الدائم ، على المتاع الحقير الزائل ، وقد علم من الآية ان الطمع في متاع الدنيا هو الذي استحوذ على بني اسرائيل فأفسد عليهم أمرهم ، ولا يزال هذا التفاني فيه أخص صفاتهم ،

وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين ، حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم ، والقرآن الحكيم ، ودرسوا مافيه ، غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل ، وعرضها الدنيء ، والغرور بالنسبة إلى الاسلام والتعلى بلمتبه ، والتعمل بأمانى المغفرة مع الإصرار على الذنب والاعتكال على المكفرات والشفاعات ، وهم يقرؤن مافى الكتاب من النهي عن الاماني والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وان يرضى الله عن فاسق ولا منافق (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) بل ما قص الله علينا مثل هذه الايات من أخبار بني اسرائيل إلا لنعبر بأحوالهم وننتق الذنوب التي أخذهم بها ، ولكننا مع هذا كله اتبعنا سننهم شبيهاً بشبر وذراعاً بذراع ، الا اننا نحمد الله ان هذا الاتباع فينا غير عام ، وانه لا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق بطعن فيها الجماهير الذين صاروا لاسلام فيهم غريباً ، وقد شرحنا ذلك مراراً بل صرحت الايات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب في أمانيتهم وفي فسقهم كقوله تعالى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به) الخ وقوله (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قرأ (تعلمون) بالناء فافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص قليل إن الخطاب به لليهود المحكي عنهم بطريق الالتفات ، وقيل بل هو خطاب لهذه الأمة لاعتبار بحالهم ، وتجنب ما كان سبباً لسوء حالهم ، من الإصرار

على سوء أحوالهم ، وقرأ الآخرون (يعقلون) على الأصل في الحكاية عن الغائبين ، ولو صح ما قيل من أن هذه الآيات نزلت وحدها في المدينة لصح أن يقال إن الخطاب موجه إلى اليهود المجاورين لها ، لأنهم آخر ذلك الخلف ، الذي نزل فيه هذا الوصف في ذلك الوقت .

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة أنا لانضيع أجر المصلحين ﴾
قرأ الجمهور يمسكون بتشديد السين من مسك تسميكا بمعنى تمسك تمسكا ، ومثله قدم بمعنى تقدم ، ومنه (لا تقدسوا بين يدي الله ورسوله) وقرأ أبو بكر وحدها يمسكون بالتخفيف من الإمساك . — أي والذين يستمسكون بمعرفة الكتاب الوفي ويعتصمون بحبله في جميع أحوالهم وأوقاتهم ، وأقاموا الصلاة التي هي عماد الدين في أوقاتها ﴿ أنا لانضيع أجر المصلحين ﴾ أنا لا نضيع أجرهم لأنهم هم المصلحون . والله لا يضيع أجر المصلحين ، فهو خبر قرين بالدليل ، ومثله قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لانضيع أجر من أحسن عملا)

﴿ وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ لعل حكمة ختم قصة بني اسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير بيده عالم في انزال الكتاب عليهم في إرباب عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه ، فإن في تلك العاقبة إشارة إلى هذه العاقبة ، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم فانه رفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم ، فلا غرو إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب ، والانس بالذنوب ، وقد تقدم في معنى هذه الآية آيتان من سورة البقرة وأشير إليه في سورة النساء . وذكرنا آية الاعراف هذه في سياق تفسير آية البقرة الأولى . والمعنى وإذا ذكر أيتها الرسول النبي الأمي إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل جبل الطور أي رفعناه كما عبر به في الآيات الأخرى وهو المروى عن ابن عباس — أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم . ظلل لهم — كما يقال نتق السماء إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة : قال الجمهور انه اقتلعه وجعله فوقهم (فان قيل) لو كان الأمر كذلك لسكان ظلة بالفعل

«تفسير القرآن الحكيم» ٥٥٥ «الجزء التاسع»

لا كالظلة ، فان الظلة كل ما أظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة وجودهم في سمنحه واستظلّاهم به (قلنا) إنه وإن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الاول إنما كان لاختقهم لا لإظلالهم وأما ظنهم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزله واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم وكما رأوا من آياته ما هو أدل على قدرته تعالى من ذلك

﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقلنا لهم في تلك الحالة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة وعزم على احتمال مشاقه ﴿واذكروا ما فيه لكم تنقون﴾ أي واذكروا ما فيه من الأحكام وأوامرها ونواهيها ، أو اعملوا به لئلا تنسوه — فان ذلك يعدم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجد وقوة العزم في إقامة الدين يهذب النفس ويزكيها ، والتهاون والاعراض فيه يدسبها ويقويها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره ، في إثريان هدايته لهم بارسال الرسل وانزال الكتب في قصة بني إسرائيل ، فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة ، أو سياق سياق على ، قال تعالى

﴿واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقري لهيكل الانسان الذي هو قوام بنيته ، ومركز النخاع الشوكي

الذى عليه مدار حياته ، فيصح أن يعبر به عن جملة وجوده الجسدى الحيوانى ، والذرية سلالة الانسان من الذكور والإناث . قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب (ذرياتهم) بالجمع والباقون بالافراد ومعناها واحد فان المفرد المضاف يعيد العموم ، ورسمها فى المصحف الامام واحد ، وقوله (من ظهورهم) بدل من بنى آدم بمعناه والجمهور على انه بدل البعض من الكل ، وهو الظاهر إذا لم يرد بهذا البعض ذلك الكل ، وقال أبو البقاء هو بدل اشتمال .

والمعنى واذكر أيها الرسول فى اثر ذكر أخذ ميثاق الوحي على بنى اسرائيل خاصة ، ما أخذته الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشرية ، إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا بعد بطن ، فخلقهم الله على فطرة الاسلام ، وأودع فى أنفسهم غريزة الايمان ، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لابد له من فاعل ، وكل حادث لابد له من محدث ، وأن فوق العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات ، والمثل والمعلولات ، سلطانا أعلى على جميع الكائنات ، هو الأول والآخر هو المستحق للعبادة وحده ، - وقد بسطنا هذه

المسألة - وهذا معنى قوله تعالى ﴿ واشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ﴾ أى أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداد عقله قائلا قول إرادة وتكوين ، لا قول وحى وتلقين ، ألست بربكم ؟ فقالوا كذلك بلمغة الاستعداد ولسان الحال ، لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا . فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها فأتينا أتينتا طائعتين) وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى فى عرف علماء البلاغة بالتمثيل ، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهد فى القرآن وكلام البلقاء كثيرة .

بين سبحانه سبب هذا الاشهاد وعلة فقال :

﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أى فعلنا هذا منصرا لاعتمادكم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا : إذا أقمتم أشركتكم به . إنا كنا

غافلين عن هذا التوحيد الربوبية وما يستلزمه من توحيد الالهية بعبادة الرب وحده والمراد أنه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل .

﴿أَوْ تَقُولُوا : إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿أَقْتَهْلِكُنَا بما فعل المبطلون﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم ، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل ، بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل .

﴿وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم ، والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والمنكرات التى تنفر منها الفطرة السليمة ، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة ، وإنما يعذرون بخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لا يعرف إلا منهم . وهو أكثر العبادات التفصيلية .

هذا ما يتبادر إلى الفهم من الآيات لذاتها ولكن ورد فى أخذ الذرية من بنى آدم واشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار لا يمكن أن تعرف إلا من خبر الوحى . وقد كانت موضوع بحث ومناقشة بين علماء المعقول والمنقول فنورد أمثل ما قالوه فيها . قال الامام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

« يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى (فآفَاقُكُمْ وَجْهًا لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جماع هل تحسون فيها من جدعاء » . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ

عليه وسلم « يقول الله : إني خلقت عبادي جنفاً فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن ابن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ماقتلوا المقاتلة ، فبلغ رسول الله ﷺ فاشد عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية » ؟ فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنما ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فلا تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقد رواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به ، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس ابن عبيد عن الحسن قال : حدثني الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتميزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم ، قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقال الرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفنديا به ؟ قال : فيقول نعم : فيقول قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة به

﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير —

يعني — ابن حازم عن كاثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم فبلا قال : ألسنت بربكم ؟

قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلون أو نلوا — الى قوله — المبطلون » وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم عن صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به ، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به ، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كاثوم بن جبير به وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكاثوم بن جبير هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث عن كاثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، كذا رواه اسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كاثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلى بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ، وكذا رواه الدوفي وعلى بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي حمزة الضبي عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء . وقال أيضا : حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة ابن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جويرير : مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن مئة أيام قال : فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في الحدة فأبرز وجهه وحل عنه عقده . فان ابني مجلس ومسئول ، ففعلت الذي به أمر ، فلما فرغت قلت یرحلك الله عم يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وتكفل لهم بالأرزاق ثم أحادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول ، على الفطرة . فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي ظبية عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) قال « أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم : أأست بربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » أحمد بن أبي ظبية هذا هو أبو محمد الجرجاني قاضي قوس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سنده وقال : أبو حاتم الرازي يكتب حديثه ، وقال ابن عدي : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله ، وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام أحمد : حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا اسحق بن مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم ؟ قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خالفت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال : يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن الثعنبي والنسائي عن قتبية ، والترمذي عن اسحق بن موسى عن معن ، وابن أبي حاتم عن يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب ، وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد ابن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب

الزبيرى كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذى : وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة ، وهذا الذى قاله أبو حاتم رواه أبو داود فى سننه عن محمد بن مسفى عن بقيق عن عمرو بن جهم القرشى عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجوفى عن نعيم ابن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فذكره . وقال الحافظ الدارقطنى : وقد تابع عمرو بن جهم بن زيد بن سنان أبو فروة الراوى ، وقولها أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم (قلت) الظاهر أن الإمام مالك إنما أسقط ذكر نعيم ابن ربيعة عمداً لما جهل حال نعيم ولم يعرفه ، فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث ، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيه ، ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات ، ويقطع كثيراً من الموصولات والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجالاً منهم فأعجبه وبص عينيه قال : أى رب من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونهى آدم فأنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به وقال : صحيح على

شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجنم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تذكر نعمتي وقال آدم : يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم

﴿ حديث آخر ﴾ قال عبد الرحمن بن قتادة النصري عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله ابتداء الأعمال أم قد قضى القضاء قال : فقال رسول الله ﷺ « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه

﴿ حديث آخر ﴾ روى جعفر بن الزبير — وهو ضعيف — عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه ، وأهل الشمال بشماله ، فقال يا أصحاب اليمين فقالوا ليك ومنه عليك قال ألسنت بر بكم قالوا بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه

﴿ أثر آخر ﴾ قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجعلهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم (ألسنت بر بكم قالوا بلى) الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أبائكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم تعلم بهذا أعلموا أنه لا إله غيري ،

ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئا ، وأني سأرسل لكم رسلا لينذروكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى ، قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لارب لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الفنى والفقر وحسن الصورة ودون ذلك فقال يا رب لو سويت بين عبادك قال انى أحببت ان أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوصا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله) الآية . ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية . رواه عبد الله بن الامام أحمد فى مسند أبيه ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم من رواية أبى جعفر الرازى به . وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها وبالله المستعان

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربه فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبيرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس — وفى حديث عبيد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لامرفوعان كما تقدم ، ومن ثم قال قائلون من السلف واختلف إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الاسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا : ولهذا قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهر ذرياتهم أى جعل نسلمهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربك ؟ قالوا بلى) أى أوجدكم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالوا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية . وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين

أن يعبروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك كقوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وأنكم من كل ما سألتوه) قالوا وما يدل على أن الاشهاد حجة عليهم فى الاثراء ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فان قيل اخبار الرسول ﷺ به كافى فى وجوده ، الجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال (أن يقولوا) أى لننلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى عن التوحيد غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك

آباءنا الآية ١ هـ كلام ابن كثير .
وقد بسط العلامة ابن القيم هذه المسألة فى كتاب الروح فى سياق البحث فى خلق الأرواح قبل الاجساد — فذكر الروايات المرفوعة والموقوفة والاثار فيها مما قيل من الجرح والتعديل فى أصانيدهم قال ١ —

وهما أربع مقامات (أحدها) ان الله سبحانه استخرج صورهم وأماهم ، فيزقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم (والثانى) ان الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم برؤوبيتهم واستشهد عليهم ملائكتهم (الثالث) ان هذا هو تفسير قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) (الرابع) انه أنزل تلك الأرواح كلها بعد إخراجها من مكان وفراغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

(فأما المقام الأول) فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة (وأما المقام الثانى) فأما أخذه من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا انه تفسيرها ، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر . قال أبو اسحق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال النار التى أخرجها فوما تعقل به كما قال (قالت نمل يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع داود الجبال تسبيح معه والطير . وقال ابن الانبارى : مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية ان الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلا

أولاده وهم في صور الذرء فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجهل عقلا حين خوطب ، وكافعل ذلك بالبعير لما سجد ، والنحلة التي سمعت وانتادت حين دعيت

وقال الجرجاني : ليس يثبت قول النبي ﷺ « أن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته » وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية للذرية بعضهم من بعض . وقوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن الميثاق المأخوذ عليهم ، فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق قال : وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة أشهدوا فقالوا أشهدنا . قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد أن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب والعقاب ، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم . قال : وكان اسحق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى ، وذكر أنه قول أبي هريرة قال اسحق : وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجاني : واحتجوا بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قبلوا في سبيل الله أمواتا بل أولئك أحياء) والأجساد قد بليت وضلت في الأرض ، والأرواح تزرق وتفرح ، وهي التي تلذ وتألم ، وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر ، وبين ذلك في الأحلام موجود ، أن الإنسان يصبح وأثرلذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد قال : وحاصل الفائدة في هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل

منفوس ممن يبلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذهم عليه ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسائل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمشكلات المنقولة اليهم اخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحدا منهم بالطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآثارهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين ادركوا الأمر

والنهي وحجب عنا علم ما سبدره في غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجهز في حكمه ، وحكيم لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين

﴿ فصل ﴾

ونازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الآية وقالوا معنى قوله (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفة في أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه باريه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريد هم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفره وكما تقول قد شهدت جوارحي بقولك تريد قد عرفته فسكان جوارحي لو استشهدت وفي سببها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا إعلامه وتبيينه أيضاً (شهد الله أنه لا إله إلا هو) يريد أعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكماء وغيرهم ، هذا كلام ابن الأنباري وزاد الجرجاني بيانا لهذا القول فقال حاكياً عن أصحابه إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كائن كالسكان إذ علمه بكونه مانع من غير كونه تابع في مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد ، وقع الواقع اسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله (ونادى أصحاب النار) ونادى أصحاب الجنة — ونادى أصحاب الاعراف) قال فيسكون تأويل قوله (وإذا أخذ ربك) وإذا يأخذ ربك وكذلك قوله (وأشهدهم على أنفسهم) أى ويشهدهم بما ركب فيه من العقل الذي يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب وكل من ولد وبلغ الخلق ، وعقل الضر والنفع ، وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من

العقل ، وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه ، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه ، وإذا لم يجوز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثلته ، وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا إذا حزن به أمر يفرغ إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بأصبعه علماً منه بأن خالقه تعالى فوقه وإذا كان العقل الذي منه الفهم والإفهام مؤدياً إلى معرفة ما ذكرنا ودالاً عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل فيه السبب والأداة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) قال واحتجوا بقوله ﷺ « رفع القلم عن ثلاثة عن العصى حتى يحتمل ، وعن الجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يفتبه »

وقوله عز وجل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ثم قال (وحملها الإنسان) الأمانة هن عهد وميثاق فامتناع السموات والأرض والجبال عن حمل الأمانة خلوصاً من العقل الذي يكون به الفهم والإفهام وحمل الإنسان إياها لمسكان العقل فيه قال وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله

ضمن القنان لفقمس بئياتها إن القنان لفقمس لا يأتلى

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقمس وضمانه لهم أنهم كانوا إذا حزمهم أمر من هزيمة أو خوف جئوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة كأجارف الجولان هللى ربه وجوران منها خاشع متضائل

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التي إلى جانبها وقال هذا القائل إن في قوله تعالى (إن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلاً على هذا التأويل لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين والغفلة ههنا لا تخلو من أحد وجهين إما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق فاما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه أنه أخذ

عليهم عهداً وميثاقاً بمعرفه البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالأطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد ما أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغاً يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه فحق تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال وقوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذي يؤاخذون به أنفسهم أن يكون منهم أو من آبائهم ، فإن كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ وثبت الحجة عليهم إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره ، وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على أن لا تزر وازرة وزر أخرى كما قال عز وجل في الكتاب وليس هذا بمخالف لما روى عن النبي ﷺ « إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد » لأنه ﷺ اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضي من اللفظ موضع المستقبل ، قال وهذا شبيه بقصة قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ما أنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذه من أمهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للأمم (أأقرتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به إقراراً منهم : قلت : وشبيه به أيضاً قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) فهذا ميثاقه الذي أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لسنم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فهذا عهده إليهم على السنة رسله ومثله قوله تعالى لبني إسرائيل (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) ومثله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)

وقوله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَغَيْبِ بْنِ سَرِيحٍ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أمهم بعد انذارهم وهذا الميثاق الذي ألعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى (فَمَا نَقْضُومَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) فإِنَّمَا عَاقِبَتُهُمْ بِنَقْضِهِمِ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رَسُولِهِ وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ وَنَظِيرُهَا فِي سُورَةِ مَدَنِيَّةٍ خَاطِبٌ بِالتَّذْكِيرِ هَذَا الْمِيثَاقَ فِيهَا أَهْلَ السِّكِّتَابِ فَإِنَّهُ مِيثَاقُ أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ . وَلَمَّا كَانَتْ آيَةُ الْاَعْرَافِ هَذِهِ فِي سُورَةِ مَكِّيَّةٍ ذَكَرَ فِيهَا الْمِيثَاقَ وَالْاَشْهَادَ الْعَامَّ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقْرَبُوا بِرَبِّهِمْ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَبَطْلَانِ الشِّرْكِ وَهُوَ مِيثَاقُ وَاشْهَادُ تَقْوَمُ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَيَنْقَطِعُ بِهِ الْعَذْرُ وَتَحُلُّ بِهِ الْعُقُوبَةُ وَيَسْتَحِقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الْاِهْلَاقَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ عَافِينَ بِهِ وَذَلِكَ بِمَا فَطَرَهُ عَلَيْهِ مِنْ الْاِقْرَارِ بِرَبِّهِ وَبَيْتِهِ وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطَرُهُمْ وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْهُ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ يَتَذَكَّرُونَ بِمَا فِي فِطْرَتِهِمْ وَعَقُولِهِمْ وَيَعْرِفُونَ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ وَنَظَّمَ الْآيَةَ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ وَجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ قَالَ : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَمْ يَقُلْ آدَمَ وَبَنُو آدَمَ (الثَّانِي) أَنَّهُ قَالَ مِنْ ظُهُورِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ ظُهُورُهُمْ ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ وَهُوَ أَحْسَنُ وَ (الثَّالِثُ) أَنَّهُ قَالَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ ذُرِّيَّتَهُ (الرَّابِعُ) أَنَّهُ قَالَ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَيْ جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِلْمَآشَاهِدِ بِهِ وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ لَا يَذْكُرُ شَهَادَةَ قَبْلُهَا (الْخَامِسُ) أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَخْبَرَ أَنْ حِكْمَةَ هَذَا الْاَشْهَادِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَثَلَا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (إِنَّا كُنَّا مِنْ هَذَا غَافِلِينَ) وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرَّسْلِ وَالْفُطْرَةِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى رَسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَثَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسْلِ (السَّادِسُ) تَذَكُّيرُهُمْ بِذَلِكَ لَثَلَا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ مَعْلُومٌ إِنَّهُمْ غَافِلُونَ بِالْاِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صِلْبِ آدَمَ كَلَامُهُمْ وَأَشْهَادُهُمْ

جميعاً ذلك الوقت ، فهذا لا يذكره أحد منهم (السابع) قوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين في هذا التعريف والاشهاد (إحدهما) أن لا يدعوا الغفلة (والثانية) أن لا يدعوا التقليد فالغافل لاشعوره ، والمقلد متبع في تقليده لغيره (الثامن) قوله تعالى (أفنتلسمكنا بما فعل المبطلون) أى لو عندهم ببحر وجودهم وشركهم لقالوا ذلك وهو سبحانه إنما يهلككم لحاقفة رسوله وتكذيبهم ، ولو أهلككم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسول لأهلككم بما فعل المبطلون ، أو أهلككم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه . وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون وإنما يهلككم بعد الإعذار والإنذار (التاسع) أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه ، واحتج عليهم بهذا الاشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (واتن سألهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فأنى يؤفكون؟) أى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم وهذا كثير في القرآن ، فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكريتهم بها رسوله بقوله تعالى (أفنى الله شك فاطر السموات والأرض؟) فالله تعالى إنما ذكرهم على السنة رسوله بهذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيمانهم ولا أقام به عليهم حجة (العاشر) أنه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لدلوها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فانها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) أى مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات (لعلمهم يرجعون) من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان ، وهذه الآيات التي فصلها هي التي بينها في كتابه من أنواع مخلوقاته وهي آيات أفعية ونفسية ، آيات في نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات في الأقطار والنواحي مما يمجده الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسوله وعلى المعاد والقيامة ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه

ربه ونخالقه ومبدعه ، وانه مر بوب مخلوق مصنوع حادث بعد ان لم يكن ، ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه ، فلا بد له من موجد أو جده . ليس كمثل شيء ، وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة . وهذه الآية وهي قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » ولقوله تعالى (فأنم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه) ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كالزحشرى ، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزي والواحدى والماوردى وغيرهم . قال الحسن بن يحيى الجرجاني : فان اعترض معترض في هذا الفصل بحديث يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم في ظهره » وقال ان هذا مانع من جواز التأويل الذى ذهب إليه لامتناع ردهم في الظهر ، ان كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتام العقل . قيل له : ان معنى ثم ردهم في ظهره : ثم يردهم في ظهره ، كما قلنا ان معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوقاتهم لأنهم إذا ماتوا ردوا إلى الأرض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها : فاذا ردوا فيها فقد ردوا في آدم وفي ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها رد بعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم إليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) ولم يذكر آدم في القصة إنما هو هنا مضاف إليه لتعريف ذريته انهم أولاده ، وفي الحديث انه مسح ظهره فلا يمكن رد ما جاء في القرآن وما جاء في الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذى ذكرناه . قال الجرجاني وأنا أقول : ونحن إلى ما روى في الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أميل وله أقبل وبه آنس . والله ولى التوفيق لما هو أولى وأهدى .

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجارى ومجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم) مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم و«إذ» يقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى (قالوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته، ثم ابتداء عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقال «شهدنا» يعنى نشهد . قال الخطيئة :

شهد الخطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالمدر

بمعنى يشهد الخطيئة، يقول تعالى نشهد إنكم ستقولون يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمواخذة بالكفر، ثم أضاف اليه خبراً آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى وإو الذوق مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (إنا أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أى أنهم أشركوا وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبانا فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم، والذنب في ذلك لهم (قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أنتهلكنا بما فعل المبطلون) أى حملهم إيانا على الشرك فتكون القصة الأولى خبراً عن جميع الخلقين بأخذ الميثاق عليهم. والقصة الثانية خبراً عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار، وقل فيما ادعاه المخالف إنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر، لاختلاف ألفاظهما فيهما قولاً يجب قبوله بالنظر والنظر إلى تأويلها مخالفتها فقال : إن الخبر عن رسول الله ﷺ أن الله مسح ظهر آدم أفاد زيادة خبر كان في القصة التى ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها، ولو أخبر ﷺ بسوى هذه الزيادة التى أخبر بها، فما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذى أخذ فيه العهد مما لم يضمه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت . بل كان زيادة في الفائدة وكذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضاً كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر مرة

أنه خلق من تراب ، ومرة أنه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضا في الأحوال المختلفة لأن الصلصال غير الحماة ، والحماة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال فقوله سبحانه وتعالى (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) وقوله ﷺ «إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته» معنى واحد في الأصل إلا أن قوله ﷺ «مسح ظهر آدم» زيادة في الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم ، كما ذكر تعالى لآنا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه ، لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ، ثم الثاني من صلب الأول ، ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر ﷺ أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته ، إذ الأصل والفرع شيء واحد ، وفيه أيضا أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كقوله عز وجل (فظلت أعناقهم لهم خاضعين) والخبر في الظاهر عن الأعناق والذمت للأسماء المكنية فيها وهو مضاف إليها كما كان آدم مضافا إليه هناك ، وليست جميعا بالمقصودين في الظاهر بالخبر ، ولا يحتمل أن يكون قوله (خاضعين) للأعناق لأن وجه جمعها خاضعات ، ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته * كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكور وقوله شرقت أنت لإضافة الصدر إلى القناة اهـ

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَحَ مِنْهَا فٱتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَشَآءُ كَمَثَلِ ٱلْكَلبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلَهِثْ

أَوْ تَنَزَّاهُمْ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا يَا بَنِي آدَمَ قَاتِلُوا قَاتِلُوا الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مِثْلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا يَا بَنِي آدَمَ وَانْقَسَمَ كَانُوا يَظَاهِمُونَ (١٧٧)

هذا مثل ضربه الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها وأحكامها ، قادراً على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفاً لعلمه تمام المخالفة ، فسلبها لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبهه الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض (ويسمى هذا الجلد المسلخ) أو كان في التباين بين عمله وعمله كالنسلخ من العلم التارك له ، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه والثعبان يتجرد من جلده حتى لا يبقى له به صلة ، على حد قول الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فأصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه على إيضاها بالحجج والدلائل كالعلم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه ، لأن كلا منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص وهناك تفسير الآيات بما يدل عليه نظمها العربي ، ويتلوه ماورد من الروايات فيها

ونظرة فيه ~~و~~ وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياته فأنسلخ منها ~~في~~ التلاوة القراءة وإلقاء الكلام الذي يعاد ويكرر للاعتبار به ، والضمير في عليهم للناس المخاطبين بالدعوة وأولهم كفار مكة . والسورة مكية ، وقيل لليهود لأن المثل تابع لقصة موسى في السورة ، والنبأ الخبر الذي له شأن ، وهذا الذي آتاه الله آياته من مبهمات القرآن لم يبين الله ولا رسوله في حديث صحيح عنه اسمه ولا جنسه ولا وطنه لأن هذه الأشياء لا دخل لها فيما أنزل الله تعالى الآيات لبيانه . وأنسلخه منها

تجرده وانسلاله منها وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لاهتمامه ولا اعتبار ولا عمل والتعبير بالانسلخ المستعمل عند العرب في خروج الحيات والثعابين أحياناً من جلودها يدل على أنه كان متمكناً منها ظاهراً لا باطناً

﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ أى فترتب على انسلخه منها باختياريه أن لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته ، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين أى الفاسدين المفسدين

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجات الكمال والعرقان ، التى تقرر فيها العلوم بالأعمال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) — انعلنا ، بأن نحلق له الهداية خلقاً ، ونحمله عليها طوعاً أو كرهاً ، فان ذلك لا يعجزنا ، وإما هو مخالف لسنتنا .

﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ أى ولكنه اختار لنفسه التسفل المنافى لتلك الرفعة بأن أخلد ومال إلى الأرض وزينتها وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية ، فلم يرفع إلى العالم العلوى رأساً ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية الخالدة عزماً ، واتبع هواه في ذلك فلم يراع فيه الاهتمام بشئ مما آتينا من آياتنا ، وقد مضت سنتنا في خلق نوع الانسان بأن يكون مختاراً في عمله ، المستمند له في أصل فطرته ، ليكون الجزاء عليه بحسبه ، وأن نبثليه ونبثحه بما خلقنا في هذه الأرض من الزينة والمستلزمات (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) ونولى كل انسان منهم ما نولى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً)

وقد مضت سنتنا أيضاً بأن اتبع الانسان لهواه بتجريه وتشبيه ما تميل إليه نفسه في كل عمل من أعماله دون ما فيه المصلحة والفائدة له من حيث هو جسد

وروح ، يضلّه عن سبيل الله الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ويتعسف به في سبيل الشيطان المردية المهلكة قال تعالى لخليفته داود عليه السلام (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال تعالى في أول ما أوحاه إلى كليمه موسى عليه السلام بعد ذكر الساعة (فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) وقال جل جلاله لخاتم أنبيائه عليه صلواته وسلامه (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) والآيات في ذم الهوى والنهي عنه كثيرة وحسبك منها قوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)

وحاصل معنى الشرط والاستدراك : أن من شأن من أوتى آيات الله تعالى أن ترتقى نفسه ، وترتفع في مراقي الكمال درجته لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى ، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية « وإنما لكل امرئ ما نوى » وأما من لم ينو ذلك ولم تتوجه إليه نفسه وإنما تلقى الآيات الإلهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك في نفسه ما يصرفه عن الاهتمام بها فلن يستفيد منها ، وأسرع به أن يفسخ منها ، فهو يقول : لو شئنا لرفعناه بها لأنها في نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضى والمانع وهو إخلاده إلى الأرض واتباع هواه

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثما يقتضى

فقلت : لما لم يكن عاملا تعارض المسافع والمقتضى

﴿ مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ اللهم بالفتح والهمات بالضم : النفس الشديد مع إخراج اللسان ، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والاعياء أو العطش ، وأما الكلب فيلهث في كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته وادعأ آمناً ، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته هذه وهي أخس أحواله وأقبحها ، والمراد والله أعلم - أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه في أسوأ حال ، خلافا لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال ، فهو في هم دائم مما شأنه أن يهتم به ، وما شأنه أن لا يهتم به من صفات الأمور وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الأهواء

وصغار الهمم تراه كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنون به وبمحاملهم همه حقيراً لا يتعب ولا يعبى ، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة وقضى أرباً

فما قضى منها أحد لبائته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى ذلك الأمر البعيد الشاؤ فى الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين ، والمقلدين الجاهلين ، كذبوا لظنهم أن الإيمان بها يسليهم ما يفخرون به من العزة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدهم فى ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتهون من لذاتهم ، فلهذا الظن الباطل لم ينظروا فى الآيات نظراً تفكر واستقلال ، وتبصر واستدلال ، بل نظروا إليها - لافيتها - من جهة واحدة وهى أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافاً بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ، ويحرمهم التمتع بمحظوظهم وأهوائهم

فكان مثلهم مثل الذى أوتى الآيات فانسلخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من إنسان حرم الانتفاع بغوايه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات فى العلم والعمل ، وكأين من إنسان استعمل حواسه فى الضر ، وعقله وذكاؤه فى الشر ، وما ظفهم الله واسكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أى فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات فى مبدأ أمره وغايته ، ومعناه وصورته ، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم ، على التفكر والتأمل ، فإذا هم تفكروا فى ذلك تفكروا فى المخرج منه ، ونظروا فى الآيات ، وما فيها من البينات ، بعين العقل والبصيرة ، لابين الهوى والمداوة ، ولا طريق لهدايتهم خير هذه ، والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الأمثال فى تأثير الكلام ، وكونه أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة ، ويدل على تعظيم شأن التفكر ،

وكونه مبدأ العلم وطريق الحق ، ولذلك حث الله عليه في مواضع من كتابه ، وبين أن الآيات والدلائل إنما تساق إلى المتفكرين لأنهم هم الذين يعقلونها ويتفكرون بها

وقد تكرر قوله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) في عدة سور من القرآن ، وقد قال تعالى ضارباً مثلاً للحياة الدنيا والغرور بها يناسب سياقنا هذا (١٠ : ٢٤) إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقد قال بعض علماء الغرب : إن الفارق الحقيقي بين الإنسان المدني ، والإنسان الوحشي هو التفكير اهـ . فيقدر التفكير في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله وآياته في النفس والآفاق ، وسننه وحكمه في البشر وسائر المخلوقات ، يكون ارتقاء الناس في العلوم والأعمال ، من دنيوية ودنيوية

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أى ساء مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا في الامثال ، وقبححت صفتهم في الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الاعراض عن التفكير في الآيات ، ومن النظر إليها نظر العدو الشانيء يظلمون أحداً وانما يظلمون أنفسهم وحدها بجرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة

هذه مافهمته من معنى الآيات كسبته (بمكة المكرمة) وليس عندي شيء من كتب التفسير أستعين به على الفهم ، وكنت قرأت تفسيرها في بعض الكتب ولكن لم يبق منه في ذهني إلا تنازع الأشعرية والمعتزلة في تفسير (ولو شئنا لرفعنهن) هل يدل على مشيئة الله تعالى لضلال الرجل أم لا ، ولا شك في أن الله يفعل ما يشاء ، وأن كل شيء يقع بمشيئته ، ولكن مشيئته تجري في العالم بمقتضى سننه وتقديره — وإلا ماورد في الروايات المأثورة من قصة الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلك منها ، وأن أ كثرها على أنه من بنى إسرائيل وأن اسمه (بلعام) واسم

أبيه (باعورا) وهذا مما تلقاه أولئك المفسرون من الاسرائيليات وصار ينقله بعضهم عن بعض لثقتهم بالراوى لكونه ممن اغتروا بصلاحهم ككعب الأحبار ووهب بن منبه . وهاك خلاصة تلك الروايات . منقولة عن الدر المنثور للحافظ السيوطي

قال رحمه الله تعالى

قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية أخرج القرطبي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والفسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبز ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن طريق ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء وفي لفظ بلعام بن عامر الذي أوتى الاسم كان في بني إسرائيل

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية ، قال : رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يملكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إني إن دعوت الله أن يزد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخ مما كان فيه وفي قوله (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) قال : إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه) الآية ، قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت اجعل لي منها واحدة ، قال : فلك واحدة فما الذي تريدن ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أبجل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أبجل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهن مثلها رغبت

عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان
لجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها
فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليه ، فدعا الله فمادت كما كانت ، فذهبت
الدعوات الثلاث وسميت البسوس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ، هو رجل يدعى بلعم
من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير
وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو
(وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو أمية بن أبي الصلت
الثقي ، وفي أفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت ، وأخرج ابن عساکر عن
سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فقال لها « هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ »
قالت نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا فارعة ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه
الله آياته فانسلخ منها »

وأخرج ابن عساکر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غايقتنا من رأس نجرانا

قال : ثم خرج أمية إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام
أمية بالبحرين ثمانين سنة ، ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة
من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم
يس والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها وثب أمية بجرجليه فتبعته قریش تقول :
ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أنه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في
أمره ، ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلي
بدر ترك الاسلام ورجع إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله (وائل عليهم
نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساکر عن نافع
ابن عاصم بن عروة بن مسعود قال : أتى لقي حليمة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ

رجل من القوم الآية التي في الاعراف (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فقال : أتدرون من هو ؟ فقال بعضهم هو صفي بن الراهب ، وقال بعضهم هو بلعلم رجل من بني إسرائيل ، فقال لا ، فقالوا من هو ؟ قال أمية بن أبي الصلت وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس : هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعلم بن باعورا ، وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذي بنى له مسجده الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبي الصلت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو صفي بن الراهب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هو نبي في بني إسرائيل يعني بلعلم أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فانسلخ منها) قال نزع منه العلم . وفي قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لرفعنا الله بعلمه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : بعث نبي الله موسى بلعام بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله وكان محاب الدعوة ، وكان من علماء بني إسرائيل فكان موسى يقدمه في الشدائد فأقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه . فأنزله الله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) قال كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هذا مثل ضرب به الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لو شئنا لرفعناه بإيتائه الهدى ، فلم يكن للشيطان عليه سبيل ، ولكن الله يبتلي من يشاء من عباده (ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه) قال أبي أن يصحب الهدى ، فشله (كمثل الكلب) الآية ، قال هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه

آياتنا فانسلخ منها) قال أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لدفعنا عنه بها، ولكنه أخذ إلى الأرض قال سكن (إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) إن تطرده بدايتك ورجليك وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (ولكنه أخذ إلى الأرض) قال ركن ، نزع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (إن تحمل عليه) قال : إن تسع عليه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله إن تحمل عليه يلهث قال الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له ، مثل الذي يترك الهدى ، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع كان ضالا قبل أو بعد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المعتمر قال : سئل أبوا المعتمر عن هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فحدث عن سيار: أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان قد أوتى النبوة وكان بحساب الدعوة ، ثم إن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام ، فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا : ادع الله على هذا الرجل ، قال حتى أوامر ربي فأمر في الدعاء عليهم فقبل له لا تدع عليهم ، فان فيهم عبادي ، وفيهم نبيهم . فقال لقومه : قد أمرت في الدعاء عليهم وإني قد نهيت ، قال فأهدوا إليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع الله عليهم ، فقال حتى أوامر فأمر فلم يحار اليه شيء ، فقال قد أمرت فلم يحار إلى شيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى فأخذ يدعو عليهم فاذا دعا جرى على لسانه الدعاء على قومه ، فاذا أرسل أن يفتح على قومه جرى على لسانه أن يفتح على موسى وجيشه ، فقالوا ما نراك إلا تدعوا علينا . قال : ما يجري على لساني إلا هكذا ، ولو دعوت عليهم ما استجيب لي ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاككم ان الله ينفذ الزنا ، وإن هم وقموا بالزنا هلكوا فأخرجوا النساء فاتهم قوم مسافرون فعمى أن يزنا فيهلكوا

فأخرجوا النساء تستقبلهم فوقعوا بالزنا فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (راتل عليهم نيا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : كان اسمه بلعام وكان يحسن اسما من أساء الله فغزاهم موسى في سبعين ألفاً ، فجاءه قومه فقالوا : ادع الله عليهم ، وكانوا إذا غزاهم أحد أتوه فدعا عليهم فهلكوا ، وكان لا يدعو حتى ينام فينظر ما يؤمر به في منامه ، فنام ، فقيل له ادع الله لهم ولا تدع عليهم ، فاستيقظ فأبى أن يدعو عليهم ، فقال لهم زينوا لهم النساء فانهم إذا رأوهن لم يصبروا) حتى يصيبوا من الذنوب فنهوا عنهم اهـ ذلك ما لخصه السيوطي عن رواية التفسير المأثور ، وكاه مما اتخذ به بعض الصحابة والتابعين من الاسرائيليات ان صحت الروايات عنهم ، وبعضها قوى السند . وقد أورد الحافظ ابن عساكر في تاريخه جل هذه الروايات وزاد عليها وانتقد بعضها ، وذكر أن من روايتها كعب الأخبار ووهب بن منبه ، ومما عزاه إلى رواية وهب وفيه مخالفة لسيره أن قصة بلعام كانت في قتال فرعون من الفراعنة لامة موسى بعد وفاته وان بلعام من أنبياء بني إسرائيل ، وذكر عنه رواية أخرى وقال بعد سياق طويل للقصة لاجابه إلى نقله مانعه :

« وحكى هذه القصة عن كعب وفيها ان معسكر موسى عليه السلام كان بأرض كنعان من الشام بين أريحا وبين الأردن وجبل البلقاء والتيه فيما بين هذه المواضع ، ثم ساق القصة على نمط ما تقدم إلا أن فيها بدل « اندلع لسانه » وجاءته لمعة فأخذت بعصره فمعى .

« وحكى عن وهب انه قال : ان بلعام أخذ أسيرا فأبى به إلى موسى فقتله (قال) وهكذا كانت سنتهم انهم يقتلون الأسرى (قال) فقله تعالى (فانسلخ منها) يقول الاسم الأعظم الذي أعطاه الله عز وجل إياه

وروى محمد بن اسحق عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال « كان مثل بلعام بن باعورا في بني اسرائيل كمثل أمية بن أبي الصلت في هذه الأمة » (قال ابن عساكر) قلت : والحديث موقوف على ابن المسيب ، فنأمل (??) (قال) « وأقول : في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد من التوراة ذكر بلعام

وقصته مطولة وهي أشبه برواية وهب ، غير أن الذين دونوا التوراة الموجودة اليوم برهوا ببلعام فقالوا إنه ذهب إلى منزله ولم يدع على بنى إسرائيل ولم يصبه شيء ، فان كانت الآيات نزلت في حكاية بلعام فيكون القرآن قد أظهر ما كتبه التوراتيون وأظهر ما خباؤه ويكون هذا من جملة المعجزات الدالة على أن القرآن من عند الله تعالى وإن كانت في غيره فالله أعلم بمن نزلت . على أن الصحيح أن الآيات شاملة لكل من كانت هذه صفته من كل من آتاه الله الآيات التي هي الحجج التي جاء بها الأنبياء ثم انه انسلخ منها — إلى أن قال — والصواب في تفسير هذه الآية : أنه لا يخص منه شيء إذا كان لا دلالة على خصوصه من خبر ولا عقل .

اه المراد من كلام ابن عساكر

أقول : ان هذا الحافظ كان مطلقاً على التوراة التي في أيدي أهل الكتاب وهي عين التي بين أيدينا منها إلا ما في اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق، وهي وان كان فيها اختلاف في المعاني فان يصل الى الحد الذي في روايات وهب وكعب وغيرهما من رواة الاسرائيليات الكاذبة . وابن عساكر يرجح قول وهب على ما في التوراة لأنه ثقة عنده في الرواية ويعد روايته دليلاً على معجزة القرآن ، ولو ذكر القرآن ان الرجل الذي آتاه الله آياته هو بلعام هذا أو لو صح هذا في خبر مستند متصل عن النبي ﷺ لكان صحيحاً ، ولكن يجب أن نعلم من أين جاء وهب بهذه القصة ، وهو لم يكن الا روائياً لما عند أهل الكتاب ومقاله مخالف لما عندهم ؟

وقصة بلعام مفصلة في الفصول ٢٢ - ٢٤ من سفر العدد وفيها أنها وقعت في « عربات موآب من عبر أردن أريحا » من أرض مدين كما تقول (أو مديان كما يقولون) وأن بالاق بن صفور (بكسر الصاد المهملة وتشديد الغاء) ملك الموآبين طلب من بلعام بن بعور أن يلعن بنى إسرائيل لينصره الله عليهم ووعدته بمال كثير ، فأوحى الله الى بلعام أن لا يفعل فلم يفعل

وفي قاموس الكتاب المقدس الدكتور بوست أن بلعام هذا من قرية فتور من بين النهرين قال « وكان نبيا مشهوراً في جيله ، والظاهر انه كان موحداً يعبد

الله (١١) وليس ذلك بعجيب لانه من وطن ابراهيم الخليل حيث يظن ان جرثومة تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد ما بين النهرين في أيام ذلك الرجل ، وقد ذاع صيت هذا النبي بين أهل ذلك الزمان فعلا شأنه وصارت الناس تقصده من جميع أنحاء البلاد ليتنبأ لهم عن أمور مختصة بهم أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبهه . ثم ذكر حكاية ملك موآب معه ، فعلى ذلك يكون بعلام عراقيًا لا اسرائيليًا ولا موآبيًا

وذكر البستاني في دائرة المعارف العربية ملخص قصة بعلام ثم قال: وبعض مفسري الكتاب المقدس المدققين ذهب الى ان قصة بعلام المدرجة في سفر العدد من الاصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة الخ فتأمل

وجملة القول : أن هذه الروايات الاسرائيلية لا يعتد بشيء منها ، ولا قيمة لأسانيدها ، لان من ينتهي اليه السند قد اغتر ببعض ملقى الاسرائيليات حتمًا ، وقد رأينا شيخ المفسرين ابن جرير لم يعتد بها. ونرجو وقد راجعنا أشهر المدينا من كتب التفسير - أن يكون ما بيننا به معنى الآيات أصحابها وأكبرها فائدة

وأكبر وجوه العبرة فيها ما نراه من حال علماء الدنيا اللابسين لباس علماء الدين الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات الله والاخلاد الى الأرض واتباع أهوائهم وتقانيهم في إرضاء الحكام ، وان كانوا مرتدين ، والعوام وان كانوا مبتدعة خرافيين ، وهم فتنة للنابتة العصرية تصدهم عن الاسلام ، وللعوام في الثبات على الخرافات والاهام ، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاهها فيما لا يطلب الا من الله تعالى ، والطواف بها والنذر لها وغير ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(١٧٨) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٩) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

هاتان الآيتان مقررتان لمضمون المثل في الآيات قبلها ، وهو أن أسباب الهدى والضلال إنما ينتهى كل نوع منها بالمرء المستعد إلى كل من الغائتين والعرضة لسلوك كل من النجدين ، بتقدير الله والسير على سننه في استعمال مواهب وهداياته الفطرية ، من العقل والحواس في أحد السبيلين (إما هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وقد أجمل تعالى هذا المعنى في الآية الأولى وفصله في الثانية بإيجاز بديع فقال ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ﴾ أى من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلوك سبيل الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة وأرشاد الدين فهو المهتدى الشاكر نعمه تعالى الفائز بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ ومن يضلل فالولئك هم الخاسرون ﴾ أى ومن يخذله بالخرمان من هذا التوفيق فيتمتع هو به وشيطانه في ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته تعالى وشكر نعمه فهو الضال السكفور الخاسر لسعادة الدنيا والآخرة — لأنه يخسر بذلك مواهب نفسه التى كان بها إنسانا مستعدا للسعادة فتفترقه هذه السعادة قوتا إضافيا في الدنيا وحقيقيا في الآخرة .

وفي الآية من محاسن البديع الاحتباك وهو حذف الفوز والفلاح من الجملة الأولى للعلم به من إثبات نظيره ومقابله وهو الخسران في الجملة الثانية ، وحذف الضال من الجملة الثانية لإثبات مقابله وهو المهتدى في الجملة الأولى . وإفراد المهتدى في الأولى مراعاة للفظ (من) وجمع الخاسرين في الثانية مراعاة لمعناها فلها من صيغ العموم . وحكمة إفراد الأول الإشارة به إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيعان المشر للعمل الصالح ، وحكمة جمع الثاني الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلا في تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام (١٥٣: ٦) وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وتفسير قوله تعالى من سورة البقرة (٢ : ٢٥٧) الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية ^(١).

ثم فصل تعالى ما فى هذه الآية من الاجمال بقوله ﴿ ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والانس لم يلقوا ولا يفقهون بها ﴾

(الذره) فسروه بالخلق ، وذرأنا خلقنا كما قال ابن عباس وغيره وهو تفسير مراد ولكل مادة معنى خاص وقد تقدم معنى مادة خلق وسنعيده . وقال الراغب : الذره إظهار الله تعالى ما أبداه . يقال ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم وذكر هذه الآية وغيرها وقال : وقرئ تذرؤه الرياح . وفى اللسان بعد تفسير الذره بالخلق والاستشهاد بالآية : وقال عز وجل (خلق لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذكركم فيه) قال أبو اسحاق : المعنى يذكركم به أى يكثركم بجملة منكم ومن الأنعام أزواجا . ثم قال « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ » وكان الذره مختص بخلق الذرية . وفى حديث عمر (رض) كتب إلى خالد « واني لأظنكم آل المغيرة ذره النار » يعنى خلقها الذين خلقوا لها ، و يروى ذره النار ، يعنى الذين يفرقون فيها ، من ذرت الريح التراب إذا فرقته اه المراد منه . وفى الأساس : ذرأنا الأرض وذرناها ، وذرأ الله الخلق وبرأ الخ فاذا تأملت مع هذه الأقوال استعمال القرآن لهذا الحرف فى النبات والحيوان والانس خاصة علمت أن الذره فى أصل اللغة بمعنى بث الأشياء وبذرهما وتفريقها وتكثيرها وإن اسنادها إلى الله تعالى بمعنى خلق ذلك أى إيجادها ، كما أن أصل معنى الخلق التقدير ، ويسند إلى الله تعالى بمعنى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لأجزاء . ولهذا عطف الذره والبرء على الخلق فى حديث الدعاء المتقدم .

(والجن) الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بحواس البشر ، ولعل تقديمهم هنا فى الذكر على الانس أنهم أكثر أهل جهنم لأنهم أجدر وأعرق فى الصفات الآتية التى هى سبب استحقاقها ، وكون خلق أصل نوعهم وأوله من

مارج من نار ، لا يقضى عدم تألمهم من النار كما قد يتوهم ، فان بين حقيقة نوع البشر وحقيقة الطين الذى خلق أبوم منه بونا عظيما يقاس عليه الجن .

(والقلوب) جمع قلب وهو يطلق فى اللغة العربية على المضغة الصنوبرية الشكل التى فى الجانب الأيسر من جسد الانسان ، إذا كان موضوع الكلام جسد الانسان ، ويطلق عند الكلام فى نفس الانسان وإدراكه وعلمه وشعوره وتأثير ذلك فى أعماله على الصفة النفسية واللطيفة الروحية التى هى محل الحكم فى أنواع المدركات ، والشعور الوجدانى للهؤلاء والملائكة ، أعنى أنه يطلق بمعنى العقل وبمعنى الوجدان الروحى ، الذى يعبر عنه فى عرف هذا العصر بالضمير وهو تعبير صحيح . واشتقاق العقل من عقل البعير لمنعه من السير ، وفى معنى القلب اللب الذى هو جوهر الشئ . ويكثر فى التنزيل . ومنه التهمة وجمعها تهمة ، ومنه قوله تعالى فى سورة طه (٢٠ : ١٢٨) ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

ومن استعماله فى معنى العقل قوله تعالى فى سورة الحج (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيرا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ فانها لا تعى الابصار ولكن تعى القلوب التى فى الصدور) وهى بمعنى الآية التى نفسرها وحذف منها (أو أعين يبصرون بها) استغناء عنه بدلالة ما بعده عليه ، والآيات المبصرة بالاعين فى السياحة فى الأرض أكثر من المسموعة ، ومن استعماله فى معنى الوجدان النفسى قوله تعالى فى سورة الزمر (٣٩ : ٤٥) وإذا ذكر الله وحده اثمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) وقوله فى سورة آل عمران والافتل (٣ : ٥١ : ٨ : ١٢) سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وقوله فى النساء (٧٩ : ٨) قلوب يومئذ واجفة) فالاشمئزاز والرعب والوجيف شعور وجدانى ، لاحكم عقلى ، وقد يستعمل فى المعنيين معاً ، والاقرب ان منه فقه القلوب هنا فان الفقه لا يحصل إلا بنوع من الادراك يصحبه وجدان يبعث على العمل ، كما يعلم مما ذكره فى تحقيق معناه وقد يتعارض مقتضى العقل والوجدان ، كوجدان اللذة والألم والحب والبغض التى تحمل على أعمال مخالفة لحكم العقل فى المنافع والمضار .

وسبب استعمال القلب بمعنى الوجدان الحسى والمعنوى وهو الضمير ما يشعر

به المرء من انقباض أو انشراح عند الخوف والاشمئزاز أو السرور والابتهاج ، ولذلك قال النبي ﷺ لو ابصرت حين جاء يسأله عن البر والاثم وقد علم ﷺ ذلك قبل السؤال « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » رواه الامام أحمد والدرامي باسناد حسن ومسلم مختصراً . ثم توسعوا في استعماله فاستعملوه بمعنى الادراك العقلي المؤثر في النفس لا مطابق التصور والتصديق . فهو لا يضاف كونه مذكورهما الدماغ ، على ان الاستعمالات اللغوية ، لا يجب أن توافق الحقائق العلمية .

(والفقه) قد فسروه بالعلم بالشئ والفهم له - وكذا بالنظنة كما في جل المعاجم أو كلها ، وقالوا : فقه (كعلم وفهم وزنا ومعنى) وقالوا فقه (ككرم وضخم) ففاهة أى صار الفقه وصفاً وسجية له ، وقال الراغب ، الفقه هو التوصل بعلم شاعداً إلى علم غائب . قال السيوطي بعد نقله : فهو أخص من العلم .

وقال ابن الأثير في النهاية إن اشتقاقه من الشق والفتح . أى هذا معناه الأصلى فهو كالفقء بالهمزة ، وهى تتعاقب مع الهاء لاتحاد مخرجيهما ، وذكر الحكيم الترمذى هذا واستعمل به على أن الفقه بالشئ هو معرفة باطنه والوصول إلى اعماقه ، فمن لا يعرف من الأمور إلا ظواهرها لا يسمى فقيهاً . وذكر أصحاب المعاجم أن اسم الفقه غلب على علم فروع الشريعة ، أى من العبادات والمعاملات وهو اصطلاح حادث لا يفسر به ماورد في الكتاب والسنة من هذه المادة ، والتحقيق أنهم لم يكونوا يسمون كل من يعرف هذه الفروع فقيهاً كما ترى من عبارة الغزالي الآتية ولغيره ما هو أوضح منها ، فقد اشترطوا فيه معرفتها بدلائلها .

وذكر الغزالي في (بيان ما يدل من ألفاظ العلوم) أن لفظ الفقه تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع القريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها . . . (قال) ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الاحاطة بمخاطرة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب وبذلك عليه قوله تعالى (ليتفقهوا في الدين) وليتذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) وما يحصل

به الإنذار والتحذير هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعناق والامان والسلم والاحارة ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام بقوى القلب وبتزع الخشية منه ، كما نشاهد الآن من المتجردين له : وقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) وأراد به معاني الإيمان دون الفتوى كما روى عن أبي حنيفة تفسيره بمعرفة النفس مالها وما عليها .

وأقول : ذكرت هذه المادة في عشرين موضعاً من القرآن تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم ، والتعمق في العلم ، الذي يقترب عليه الانتفاع به ، وأظهره نفي الفقه عن الكفار والمنافقين ، لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفي فقهه عنهم ، وفاتتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم المتمكن من النفس ومنه قول قوم شعيب لنبيهم (٩١ : ١١) ما نفقه كثيراً مما تقول) وإن تراءى لغير الفقيه أنه ليس منه ، فأنهم كانوا يفهمون كل ما يقول فيها سطحياً ساذجاً لأنه يكلمهم بلغتهم ، ولكن لم يكونوا يبلغون ما في أعماق بعض الحكم والمواعظ من الغايات البعيدة لعدم تصديقهم إياه ، وعدم احترامهم له ، ولأنه مخالف لتقاليدهم وأهوائهم الصادقة لهم عن التفكير فيه والاعتبار به . وأما الموضع العشرون فهو قوله تعالى لحكايه عن نبيه موسى (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) وهو لا يشاق ما ذكر لأن فصاحة لسان الداعية إلى الدين والواعظ المنذر تعين على تدبير ما يقول وفقهه إذا تمهد بهذا فقهه تعالى (واقصد ذراًنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها) معناه : نقسم أننا قد خلقنا وبثنا في العالم كثيراً من الجن والإنس لأجل سكنى جهنم والمقام فيها ، أي كما ذرأنا للجنة مثل ذلك ، وهو مقتضى استعداد الفريقين (فمنهم شقى وسعيد) (فريق في الجنة وفريق في السعير) وإذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة ، ومصاصتهم المؤهلة لذلك ؟

(الجواب) : ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها الخ أي لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتزكى به أنفسهم من توحيد الله المظهر لها من الخرافات والأوهام ، ومن المهانة والصفار ، فإن من يعبد الله تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تعلموا نفسه ، وتسموا بمعرفة ربه رب

العالمين ، ومدير السكون بتقديره وسننه ، فلا تذلل نفسه بدعاء غيره ، والخوف منه ، والرجاء فيه ، والاتكال عليه ، بل يطلب كل ما يحتاج إليه من ربه وحده ، فإن كان مما أقدر الله تعالى عليه خلقه بأعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه ، مراعيًا في طلبه ما علمه من مقادير الخلق وسننه ، وذلك عين الطلب من الله تعالى ولا سيما في نظر العالم بما ذكر ، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم من سببه ، وإقداره على ما لا يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه ، أو إيصاله إليه ، ممن أعطاهم من أسبابه ما لم يعطيه ، كالأطباء مداواة الأمراض ، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال ، والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الاشكال ، ولا يتوجه مثل هذا العارف الموحد في طلب شيء إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة ، والوسائل المعقولة المجربة ، كالرقى والتشريحات ، والتنجيس والطلسمات ، والعزائم والتبخيرات ^(١) ولا كرامات الصالحين من الأحياء والأموات ، ذع التقرب إليهم بما يعد من العبادات ، كالدعاء الذي هو

(١) الرقى بالضم جمع رقية (كعرق جمع عرق) وهي ما يقرأ على المدبوغ أو المريض ليبرأ أو يخف ألمه ، ومنه ما يفيد ولا سيما أصحاب الامزجة العصبية الذين يؤثر فيهم الوهم والاعتقاد ، وهي جائزة لذلك إذا كان المقروء حقا كالقرآن وذكر الله ، ومحرم إذا كان فيه شيء منسك أو مجبول . ولما كان الانتفاع بالرقية غير مطرد جعل النبي ﷺ الاسترقاء مانعا من دخول الجنة بغير حساب ومنافيا للتوكل على الله تعالى . بخلاف التداوى . والتشر ما يكتب للمريض ويحرق أو يشرب ماؤد بعد أن يذاب ليشفي ، وقد حرّمها الفقهاء بالمجبول . والتنجيس ما يعلق على الأطفال وغيرهم من عظم وخرز وغير ذلك لمنع تأثير العين وإلزام الشياطين ، والطلسمات جمع طلسم بكسر الطاء وتشديد اللام والأشهر بفتح فسكسر وجمعه طلاسم ، وهو خرافة يكتبون لها أرقاما في أشكال هندسة للتأثير الحارق للعادة ، والعزائم أقسام يقسم بها على الجن لتخرج من المصروع أو لتجمل على عمل آخر ويحرقون في أثناء تلاوتها البخور ، وكل هذا من أعمال السحر القديمة خلط بها سحرة المسلمين ومشعوذهم أسماء الله تعالى . قال ابن حجر الهيتمي - بعد الجزم بتحريم العزائم المقروءة والمكتوبة أن كان فيها اسم لا يعرف معناه وكذلك الرقية - قال مانصه : وماعدا ذلك من التبخيرات والتدخينات ونحوهما مما اعتاد السحرة والفجرة - الحرام الصرف بل الكبير بل الكفر بتفصيله المشهور عندنا ، ومطلقا عند مالك وغيره اهـ

مع العبادة والركن الأعظم فيها كما ورد في الحديث والله تعالى يقول (فلا تدعوا مع الله أحدا) ويقول (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) وتنسون ما تشركون) ويقول (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) ويقول (أنخشوهم ٧ فإله أحق أن تخشوه) ويقول (فلا تخشوهم واخشوني) الخ ويقول (وعلى الله فتوكوا) ويقول (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات ، والحرص على أعمال الخيرات ، وإن شئت فقل : واجتناب الرذائل ، والتحلي بالفضائل — مناط سعادة الدنيا ، وبها مع الإيمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة ، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلاً وتركاً ، وسراً وجهاً ، إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، ولذلك ترى أعلمهم بصفات النفس البشرية وأخلاقها ، وقوانين التربية الصورية وآدابها ، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالاسراف في الشهوات ، والاحتيال على كثرة المقتنيات ، والتعالي على الاقران واللذات ، فيجترحون فواحش الزنا واللواط ، ويقترفون جريمتي الرشوة والقمار ، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار ، ومنهم أكثر الخونة أعوان الأجانب على استعباد أمتهن ، وأمنلاك أوطانهم ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية ، واللذات المعنوية ، والسعادة الأبدية (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية في الأنفس والافاق ، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات ، وأظهر آياته العلمية الباقية إلى آخر الزمان ، ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الأمي ﷺ كالعلوم الإلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية ، وأخبار الغيب الماضية والآتية ، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات ، ويتكلمون لها غرائب التأويلات ، ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات (٦ : ٦٦ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم سيعاً ويدقيق بعضكم بأس بعض . أنظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون)^(١) وقال (٩٨ : ٦) وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد

(١) راجع تفسيرها في ص ٩٠ ج ٧ تفسير وتطبيقها على حالهم في الحرب العظمى

فصلنا الآيات لقوم يفتقون) وقال في عدم فقههم للقرآن (٦ : ٢٦) ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين) وهذه الآية جمعت حرمانهم هداية القلوب والاسماع والابصار فهي شاهد لكل ما جاء في الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، ومثلها في سورتي الاسراء (١٧ : ٤٥ و ٤٦) والكهف (١٨ : ٥٥) ولكن الشاهد فيهما على نفى هداية القلوب والاسماع فقط ، إذ هو المناسب للموضوع

ذلك بأن لم يلقوا بالافتقار بها أسباب النصر على الاعداء من روحية وعقلية ، واجتماعية وآلية ، التي نصر الله بها المؤمنين على الكافرين في عهد الرسول ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين والمحدثين في الاسلام ، وجعل العشرة منهم أهلاً لغلب المائة في طور القوة ، والمائة أهلاً لغلب المائتين في طور الضعف ، وعمل ذلك بأن الكفار قوم لا يفقهون (الانفال : ٨ : ٦٦) وقال في سورة الحشر (٥٩ : ١٣) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أفتقه من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية وأكل اتصافها ، وتعتماً بشمرها . فأي هذا الايمان ، من مسلمى هذا الزمان ؟ ذلك بأن لم يلقوا بالافتقار بها سنن الله تعالى في الاجتماع ، وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات ، ولا سيما في عهد النبوة وزمن المعجزات ، ولا يفقهون بها إدالة الله لأهل الحق من أهل الباطل ، بل يحكون في ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر ، دون ما وراءها من الفقه الباطن ، كما حكاه الله تعالى عن المشافقين في آخر سورة التوبة من كونهم لا يزدادون ينزل سور القرآن إلا رجساً أى خبثاً ونفاقاً ، وكونهم يفتنون ويمتنعون مراراً ، ولا يفقهون ذلك توبة ولا اذكراً ، حتى إذا ما أنزلت سورة فروا من سماها فراراً ، لا يخافون أن يراهم الله ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) وما حكاه تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم إذ وهموا

أنهم يفتقرون المؤمنين من الأنصار بترك الإنفاق على إخوانهم المهاجرين ، وأن ذلك كاف في انفصاضهم من حول الرسول ﷺ (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) أى لا يفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفالاتهم ، ولا يفقهون أن سبب إنفاق الأنصار الأبرار رضوان الله تعالى عليهم هو الإيمان الصادق الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته ، فلا يؤثر فيهم قولهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله . إلا احتقارهم لهم على نفقاتهم ، وثباتهم هم على إنفاقهم . لا يفقهون هذا ولا ذاك لأنهم محرومون من وجدان الإيمان ، وإشارة ما عند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع

وجملة القول : أن في الفقاعة عن قلوب الخلق لجهنم يشمل كل ما ذكرنا ، وما في معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس . ومن العبرة فيه : أن الذين يدعون الإيمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر . ولا يعلمون أن من فقهه فهو الخلق للجنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لا يفقهه مخلوق لجهنم ، بل صار كثير ممن لا يوصفون بإيمان ولا إسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضها في القرآن مالا يفهمون كأسباب النصر في الحرب ولذلك نراهم ينصرون فيها على هؤلاء . والله تعالى يقول للمؤمنين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويقول فيهم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وليس المعنى أنه ينصركم بخوارق العادات ، بل إنهم بمقتضى الإيمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية . وقفاة الأمر تقتضى العمل بموجبه ، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين ، وأن لدى أعدائهم من العلم وأخلاق الإيمان أكثر مما عندهم ، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الإيمان الاسلامي السكامل . ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الإسلام ، ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر ، والترقى في معارج العمران — (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) حقيقة الإسلام ، ولا يدرون ما الكتاب

وما الإيمان ، فالقرآن حجة عليهم : وهم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن .

وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) أبلغ من أن يقال : ليس لهم قلوب يفقهون بها لأن إثبات خلق القلوب لهم ، هو موضع قيام الحجة عليهم ، والتعبير الآخر يصدق بأمرين : بعدم وجود القلوب لهم بالمرّة ، وبوجود قلوب لا يفقهون بها ، وفي الحالة الأولى لا تقوم عليهم حجة لأنهم لم يؤتوا آلة التكليف وهو العقل والوجدان . فلا تكون العبارة نصّاً في قيام الحجة لاحتمالها عدم التكليف . وإنما قال (لا يفقهون بها) ولم يقل « لا تفقه » لبيان أنهم هم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور واكتناء الحقائق ، ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعده وهو :

﴿ ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها ﴾ ومعنى الجملتين يفهم إجمالاً مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلاً ، أي ولم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه ، فبهتدوا بكل منها ما فيه إلى سعادتهم في دنياهم وآخرتهم . وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر في آياته تعالى في الأنفس والآفاق وفي تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر ، فإن الآذان قد خلقت للانسان ليستفيد من كل ما يسمع ، لا من القرآن فقط ، كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك على كاله بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له . قال تعالى في آخر سورة الم السجدة (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ؟ * أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم . أفلا يبصرون ؟) فهذان مثلان للآيات البصرية والسمعية وأمثالهما كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئاً منها ، وليس الفقه عندهم إلا تقليد علماء فروع الأحكام العملية فيما كتبوه منها ، وقد يكون في حكايتها دون العمل بها !!

وفي معنى ما هنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى في الذين علم الله رسوخهم في الكفر وثباتهم عليه من سورة البقرة (٢ : ٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم اتقانهم بواهب القلوب والاسماع والأبصار التي هي آلات العلم والعرفان ، وطرق الهدى والإيمان . وقوله في المنافقين بتشبيه أبلغ (٢ : ١٧) صم بكم عى فهم لا يرجعون) ومثله المثل (٢ : ١٦٦) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عى فهم لا يملكون) وقوله فيهم من سورة النحل (١٦ : ١٠٨) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الجاثية (٥٥ : ٢٢) أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) وقوله في سورة الأحقاف بعد ذكر هلاك عاد (٤٦ : ٢٥) ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقوله تعالى في سورة الأنفال (٨ : ١٩) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (٢٠) ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢) ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أي ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال أنه قد علم أنهم لا خير فيهم لتولوا عن الاستجابة وهم معرضون .

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة كالتشبيه والتشليل والاحتجاج ، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار ، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين ، ولأجل العظة والذكى للمؤمنين ، كما نرى في آيات الأنفال ، ومع هذا التكرار البالغ حد الإعجاز في البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالاً من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق ، لأنهم من أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته تعالى في أعضاء الإنسان ومشاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسية

وأياته في الجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار، والغازات التي تُتركب منها هذه المواد وغيرها، وسنن النور والكهرباء، والهيئة الفلسفية، ومن أصاب منهم حظاً من هذه العلوم فاعلم أخذته عن الافرنج أو تلاميذهم المتفرجين فكان مقلداً فيه لم يستقلاً، ولم يتجاوز طريقهم في البحث عن منافع هذه الأشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مبدئاً عالماً حكماً، مريداً قديراً رحماً، يحب أن يعبد وحده، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد، وأن تكون معرفته والرفق عنده ورجاء اقائه في الآخرة تنتهي كل غاية من الحياة، ونوقصد أولئك العلماء هذا من العلم لأصابوه فان الأمور بمقاصدها، وإنما الأعمال بالنيات، ولكنهم غفلوا عنه، لتعلق إرادتهم بما دونه ولهذا كان علمهم على سمته ناقصاً أقبح نقص، وكان الانتفاع به مشوباً بضرر عظيم باستعمال ما عدهم اليه العلم من خواص الأشياء في الحرب والآلات القتال، التي تدمر العمران وتسحق الآلاف السكينة من البشر في وقت قصير -- وهذا يصدق على هؤلاء العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها، وآثروا الجهل على العلم بها، من قوله عز وجل :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل من أي أولئك الموصوفين بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبق وغنم، في كونهم لاحظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بعيشتهم في هذه الحياة الدنيا، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام، لأن هذه لا تجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزواتها، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي، ويقتصر في حقوق الزوجية، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهانية، فيجنى على شخصه وعلى نوعه بالنفريط كما يجنى عليها عبيد اللذات بالافراط، ذم الحنابة على الأخلاق

والآداب وعلى الأمم والشعوب ، وهداية الإسلام تحظر هذا وذلك وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه ، وتحرم الاسراف في كل شيء . فلو اهتدى الناس بالقرآن في فقه أسرار الخلق ومنافعه لجمعوا بها بين ارتقايتهم في معاشهم ، واستعدادهم لمعادهم ، واتقوا هذا الإسراف في الشهوات والتنازع عليها الذي أفسد مدنية الإفرنج بما يشكو منه جميع حكامهم ويجزمون بأنه لا بد أن يقضى عليهم .

أولئك هم الغافلون أي أولئك الموصوفون بكل ماذكرهم ، الغافلون التامو الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً ، أو خيراها وأكملهما وأدومهما وهي الثانية ، فهم طبقات على درجات في الغفلة ، الغافلون عن أنفسهم ، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم في أفضل ما خلقت لأجله من معرفة الله تعالى ، الغافلون عن آيات الله في الأنفس والآفاق التي تهدي إلى معرفة العبد نفسه وربّه ، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية ، وحياتهم القومية ، وحياتهم المالية ، الذين يعدون كالأنعام من وجه آخر غير الذي تقدم من بحفاة سنن الفطرة ، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الأمم والدول واستخير غيرهم لهم كما يستخر الأنعام في سبيل معيشتهم .

فالقسم الأول من الغافلين هم الذين قال الله تعالى فيهم في أوائل سورة يونس بعد التذكير بخلق السموات والأرض واستوائه على عرشه وتدبيره أمر العالم ، وكونه يبدئ الخلق ثم يعيده . والاعادة في العادة أهون من البدء . والتذكير بآياته في جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل ليعلم منها عدد السنين والحساب . وآياته في اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والأرض . قال بعد ذلك (١٠ : ٦) إن الدين لا يرجو لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك ما أراهم النار بما كانوا يكسبون) فهذا نص في أن النار مأوى الغافلين عن هذه الآيات أي عن دلالتها على وجود خالقها ومدبر النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم في طور آخر لا يتعاضى على قدرته ، وهو من مقتضى علمه وحكمته ، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة ، وكون النعم الروحاني بلفائه عز وجل في دار الكرامة أسمى أنواع النعم . وإن كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر

العلماء بسنن الله تعالى وحكمه في خالق العالم العلوي والعالم السفلي ، بل حجة الله على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر ، لأنهم لو فطنوا لدلائلها على ما ذكر وفقوه كما يجب لكانوا أسعد في هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومقاسدها مما هم عليه الآن ، ولا استعدادوا بذلك لسعادة الآخرة أكل استعداد .

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى في أول سورة الروم (٣٠ : ٦) يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فانظر إلى بلاغة القرآن في إعادة ضمير (هم) وهم لنا كبد الذي اقتضاه وصفهم بالعم الذي من شأن صاحبه عدم الغفلة تلك الصفات هي صفات من خلقوا لسكنى الجحيم ، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم ، فأهل النار ينص كتاب الله تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فهم حقائق الأمور ، ولا يستمعون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية ، وفقه آياته التنزيلية ، وهما سبب كمال الإيمان ، والباعث النفسى على كمال الاسلام والاحسان ، ولن ترى في كتب التفسير الكثيرة من نبه قراء كتاب الله تعالى إلى هذه المعاني الهادية إلى سبيله وصراطه المستقيم ، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجوراً ، فإذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك إن الله تعالى خلق للنار خلقاً هم على الكفر والمهوى مجبورون ، لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما من شأنه أن يفهم ، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الخلق ودلائله دخولا أولياً . ولهم أعين لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولياً . ولهم آذان لا يسمعون بها شيئاً من المسموعات ، فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ما سلف «ام ماخصاً من روح المعاني ، وما زاد عليه فيه فكلام في الاعراب ونكت التعبير وتحقيق المعنى الجبر عند بعض المتكلمين وهو زبدة ما في كتب التفسير . وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين ، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين ، وإن كانوا يجولون حقائق هذه الأمور ويصرون على المجبور ، إتكالاً على شفاعة أهل القبور ، الذين يدعونهم مع الله أو من دون الله لمهمات الأمور ، ويندبحون لهم النساك ويتذرون لهم النذور ،

وهي عبادات لغير الله يخرجون بها من حظيرة الإيمان ، والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى الذى يترتب عليه الأعمال المزيكية للنفس فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها أنه تعالى ذرأهم لجنهم لذواتهم فان ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى في أسباب الهدى بل قال إنهم لم يستعملوها في ذلك (٦٧: ١٠، ١١) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) ولكن الجدل في المذاهب هو الذى أوهمهم . ونحمد الله تعالى أن هداانا إلى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن ، وسنن الله تعالى في الانسان والاكوان ، وهو مالم نطعم على مثله ، ولأما يحوم حوله لإنسان . واتمحدث بنعمة الله ، مما أمر به الله ، فالحمد لله تم الحمد لله .

(١٨٠) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

بين الله تعالى لنا في الآية السابقة حال الخليوتين لجنهم في عدم استعمال عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بآيات الله والنقطة في تزكية أنفسهم بالعلم الصحيح الذى يترتب عليه العمل الصالح ، وأن ذلك الإهمال أعقبتهم الغفلة التامة عن أنفسهم وما فيه صلاحها من ذكر الله تعالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال — وقفى على ذلك في هذه الآية بدواء هذه الغفلة وأقرب الوسائل للمخرج منها إلى ضدها فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ الأسماء جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط ، أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقاً ، كالرحمن الرحيم الخالق الرازق ، أو مصدرأً ، كالرب والسلام والعدل . والحسنى جمع أحسن ، والمعنى

والله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات ، فادعوه
 أى سمّوه واذكروه ونادوه بها ، لجرد الثناء وعند السؤال وطلب الحاجات ، فمن
 الذكر لحض النساء آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ الخ وآخر
 سورة الحشر ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾
 هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار
 المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء
 الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿وقد ورد فى السنة
 الدعاء بهذه الآيات وأن يقول قبلها «أعوذ بالله السميع العليم» من الشيطان
 الرجيم — ثلاث مرات﴾ رواه الترمذى والدارى وابن السني من حديث
 معقل بن يسار .

والذكر لحض فرائد كثيرة فى تغذية الإيمان وسراقة الله تعالى وحبه والخشوع
 له والرغبة فيما عنده واحتقار مصائب الدنيا وقلة المبالاة والتألم لما يفوت المؤمن
 من نعيمها ، ولذلك ورد فى الحديث الصحيح «من نزل به غم أو كرب أو أمر
 مهم فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا
 الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم» رواه الشيخان والترمذى والنسائى
 ومن الذكر بصيغة النداء ما رواه الترمذى أنه ﷺ سمع رجلاً وهو يقول :
 «يا ذا الجلال والإكرام فقال : قد استجيب لك فسل» وروى الحاكم فى المستدرک
 من حديث أنس (رض) قال : قال رسول الله ﷺ لعاطمة : «ما يمنعك أن تسمى
 ما أوصيك به ؟ أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حى يا قيوم برحمتك
 أستغيث ، أصلح شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين» وقال هذا حديث
 صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الحافظ الذهبى على ذلك .

والأدعية بأسماء الله تعالى نداء أو غير نداء كثيرة تراجع فى كتاب الأذكار
 للنووى ، وكتاب الحصن الحصين لابن الحزرى وغيرهما من كتب السنة .
 وأسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى بدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها
 على ما يطلق منها على المخلوقين ، كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم .
 وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ

« إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » هذا لفظ البخارى فى كتاب الشروط وكتاب التوحيد ومسلم فى الذكر . قال مسلم : وزادهمام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « إنه وتر يحب الوتر » وفى الرواية الأخرى له « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر » (قال) وفى رواية ابن أبى عمر « من أحصاها » له ورواه البخارى فى كتاب الدعوات بلفظ « لله تعالى تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحدة من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وقوله « إلا واحدة » بالتأنيث وجهه ابن مالك بأنه أنث باعتبار التسمية أو الصفة أو الكلمة .

ورواه الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم وسردا فيه الاسماء التسعة والتسعين ، ورواه غيرها أيضاً من طريقه وفى سرد الأسماء اختلاف فى الروايات وقد اختلف المحدثون فى سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج فى الحديث من بعض الرواة ؟ والراجح أنه مدرج لا مرفوع ، ولم يخرج الشيخان لتفرد الوليد به والاختلاف عليه فيه وتدليس واحتمال الإدراج كما قال الحافظ فى الفتح ، وروى من طريق أخرى أضعف من هذه . وهذا سرد الأسماء فى أمثل الطرق عن الوليد من جامع الترمذى كما قال الحافظ :

هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحسك العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوي المتين ، الولي الحميد ، المحصى المبدى المعيد ، المحيى المميت ، الحى القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد الصمد ، القادر المقدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالى المتعالى ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال

والا کرام ، المقسط الجامع ، الغنی المغنی المانع ، الضار النافع ، النور الهادی ،
البديع الوارث ، الرشید الصبور ،

أورد هذه الأسماء الحافظ ابن حجر فی الفتح وذكر اختلاف الروایات فیها
وانكار بعض كبار العلماء لرفعها ، كابن حزم والداودي والقاضي أبي بكر بن العربي ،
والأقوال فی حصرها ومأخذها ثم قال :

« وإذا تقرر رجحان أن سرد الأسماء ليس رفوعاً فقد اعتني جماعة بتنبهها
من القرآن من غير تنقيد بعدد ، فروينا في كتاب المائتين لأبي عثمان الصابوني بسنده
إلى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الأسماء من القرآن ، وكذا أخرج أبو نعیم
عن الطبرانی عن أحمد بن عمر ، والخلال عن ابن أبي عمير ، وحدثنا محمد بن جعفر
ابن محمد بن علي بن الحسين قال : سألت جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنى
فقال : هي في القرآن ، وروينا في فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرح عن
حيان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث ، يعني حديث « إن لله تسعة وتسعين
اسماً » قال فوجدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فابطأ ، فأتينا أبا يزيد فأخرجها
لنا ، فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال : نعم هي هذه

« وهذا سياق ما ذكره جعفر وأبو زيد قالوا : في الفاتحة خمسة : الله ، رب ،
الرحمن الرحيم مالك ، وفي البقرة : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، علي ، عظيم ،
تواب ، بصير ، ولي ؛ واسم ، كاف ، رؤف ، بديع ، شاکر ، واحد ، سمیع ، قابض ،
باسط ، حي ، قيوم ، غني ، حميد ، غفور ، حلیم . وزاد جعفر : إله قريب مجيب ،
عزيز نصير ، قوي شديد ، سريع خبير ، قال وفي آل عمران . وهاب ، قائم . زاد
جعفر الصادق : باعث منعم متفضل ، وفي النساء : رقيب حسيب شهيد مقيت
وكيل ، زاد جعفر : علي كبير . وزاد سفيان : عفو . وفي الانعام : فاطر قاهر ، زاد جعفر :
ميت غفور برهان : وزاد سفيان : لطيف خبير قادر ، وفي الأعراف : محي ممت .
وفي الأنفال : نعم المولى ونعم النصير ، وفي هود : حفيظ . مجيد ودود ، فعال
لما يريد ، زاد سفيان : قريب مجيب ، وفي الرعد : كبير متعال ، وفي ابراهيم : منان
زاد جعفر : صادق وارث ، وفي الحجر : خلاق ، وفي مريم : صادق وارث ، زاد

جعفر : فرد ، وفي طه عند جعفر وحده : غفار ، وفي المؤمنين : كريم ، وفي النور :
 حق مبين ، زاد سفيان : نور ، وفي الفرقان : هاد ، وفي سبأ : فتاح وفي الزمر .
 عالم ، عند جعفر وحده . وفي المؤمن : غافر قابل ذو الطول ، زاد سفيان : شديد ،
 وزاد جعفر : رفيع ، وفي الذاريات : رزاق ذو القوة المتين ، بالناء ، وفي الطور :
 بر ، وفي اقتربت : مقتدر . زاد جعفر : مليك ، وفي الرحمن ، ذو الجلال والاكرام :
 زاد جعفر (رب المشرقين ورب المغربين) باق معين ، وفي الحديد : أول آخر
 ظاهر باطن . وفي الحشر : قدوس سلام مؤمن مهيمن عز زجبار منكبر خالق باري .
 مصور ، زاد جعفر : ملك ، وفي البروج : مبدئ معيد ، وفي النجم : وتر .
 عند جعفر وحده ، وفي الاخلاص : أحد صمد : هذا آخر ما روينا عن جعفر
 وأبي زيد وتقرير سفيان من تتبع الاسماء من القرآن ، وفيها اختلاف شديد وتكرار
 وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم وهي : صادق منعم متفضل منان مبدئ معيد
 باعث قابض برهان معين مميت باق

« ووقفت في كتاب المقصد الاسنى لأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الزاهد أنه
 تتبع الاسماء من القرآن فناملته فوجدته كرر أسماء وذكر كما لم أره فيه بصيغة
 الاسم : الصادق والكاشف والمام ، وذكر من المضاف : الفالق من قوله (فالق
 الحب والنوى) وكان يلزمه أن يذكر القابل من قوله (قابل التوب)

« وقد تتبع ما بقي من الاسماء مما ورد في القرآن بصيغة الاسم مما لم يذكر في
 رواية الترمذي ، وهي الرب الإله المحيط ، القدير الكافي ، الشاكر الشديد ، القائم
 الحاكم ، الفاطر الغافر القاهر ، المولى النصير ، الغالب الخالق ، الرفيع المليك ،
 الكفيل الخلاق - الاكرم الأعلى ، المبين - بالوحدة ، الحفي - بالحاء المهملة والقاء -
 القريب ، الاحد الحافظ . فهذه سبعة وعشرون اسما إذا انضمت إلى الاسماء التي وقعت
 في رواية الترمذي مما وقعت في القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون وكلها
 في القرآن لكن بعضها بإضافة كالشديد (من شديد العقاب) والرفيع من (رفيع الدرجات
 والقائم من قوله (قائم على كل نفس بما كسبت) والفاطر من (فاطر السموات) والقاهر من
 (وهو القاهر فوق عباده) والمولى والنصير من (نعم المولى ونعم النصير) والعالم من (عالم

الغيب) والخالق من قوله (خالق كل شيء) والغافر من (غافر الذنب) والغالب من (والله غالب على أمره) والرفيع من (رفيع الدرجات) والحافظ من قوله (فأله خير حافظا) ومن قوله (ولمآله لحافظون) وقد وقع نحو ذلك من الأسماء التي في رواية الترمذي وهي الحجي من قوله (لحجي الموتي) والمالك من قوله (مالك الملك) والنور من قوله (نور السموات والأرض) والمبدع من قوله (بديع السموات والأرض) والجامع من قوله (جامع الناس) والحكم من قوله (أفغير الله أبتغي حكما) والوارث من قوله (ونحن الوارثون) والاسماء التي تقابل هذه مما وقع في رواية الترمذي مما لم تقع في القرآن بصيغة الاسم، وهي سبعة وعشرون اسما: القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، العدل الجليل، الباعث المحض، المبدئ المعيد المميت، الواجد المسجد، المقدم المؤخر، الوالي ذو الجلال والإكرام، المقسط المغني، المانع المضار، النافع الباقي، الرشيد الصبور.

« فإذا اقتصر من رواية الترمذي على ما عدا هذه الأسماء وأبدلت بالسبعة والعشرين التي ذكرتها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسما وكلها في القرآن واردة بصيغة الاسم ومواضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله « الحفي » فإنه في سورة صريم في قول إبراهيم (مسأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) وقل من نبه على ذلك « ولا يبقى بعد ذلك إلا النظر في الأسماء المشتقة من صفة واحدة مثل: القدير والمقتدر والقادر، والغفور والغفار والغافر، والعلى والأعلى والمتعال، والمالك والملك، والكريم والاکرم، والقاهر والقهار، والخالق والخلق، والشاكر والشكور، والعالم والعليم، فإما أن يقال: لا يمنع ذلك من عدها فإن فيها التغاير في الجملة فإن بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ليست فيه، وقد وقع الاتفاق على أن الرحمن الرحيم اسمان مع كونهما مشتقين من صفة واحدة، ولو منع من عد ذلك للزم أن لا يعد ما يشترك الاسمان فيه مثلا من حيث المعنى مثل الخالق البارئ المصور لكنها عادت لآثارها واشتركت في معنى الإيجاد والاختراع فهي مغايرة من جهة أخرى وهي أن الخالق بمقتدر القدرة

على الایجاد^(١) والباری یفید الموجد لجوهر المخلوق ، والمصور یفید خالق الصورة في تلك الذات المخلوقة ، وإذا كان ذلك لا يمنع المغایرة لم یمنع عدها اسماء مع ورودها والعلم عند الله تعالى . وهذا سردها لتحتفظ ولو كان في ذلك اعادة ولكنه یفتقر لهذا القصد « الله الرحمن الرحیم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، الغفار القهار ، الثواب الوهاب ، الخلاق الرزاق الفتح ، العالم الحليم العظيم ، الواسع الحكيم ، الحي القيوم ، السميع البصير ، اللطيف الخبير ، العلي الكبير ، المحيط القدیر ، المولی النصیر ، الکریم الرقیب ، القریب المجیب ، الوکیل الحسیب ، الحفیظ المقیث ، الودود المجید ، الوارث الشہید ، الولی الحمید ، الحق المبین ، القوی المتین ، الغنی المملک الشدید ، القادر المقندر ، القاهر الکافی ، الشاکر المستعان ، الظاهر البدیع الخافر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، السکفیل الغالب ، الحکیم العالم الرفیع ، الحافظ المنتقم ، القائم المحیی ، الجامع المملک المتعالی ، النور الهادی ، الغفور الشکور ، السفو الرؤف ، الاکرم الاعلی ، البر الحفی ، الرب الیله ، الواحد الأحد الصمد ، الذی لم یلد ولم یولد ولم یکن له کفواً أحد » .

ثم قال الحافظ : وقد اختلف فی هذا العدد هل المراد به حصر الاسماء الحسنی فی هذه العنة أو أنها أكثر من ذلك ، ولكن اختلفت هذه لأن من أحصاها دخل الجنة ، فذهب الجمهور إلى الثاني ، ونقل النووي اتفاق العلماء علیه ، فقال ليس فی الحديث حصر أسماء الله تعالى ، وليس معناه انه ليس له اسم غیر هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث ان هذه الاسماء من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الاخبار عن دخول الجنة بأحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ويؤيده قوله ﷺ فی حديث ابن مسعود الذی أخرجه أحمد وصححه ابن حبان « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فی كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فی علم الغیب عندك » وعندما لك عن كعب الاخبار فی دعاء « وأمالك بأسمائك

(١) أصل معنى الخلق التقدير ، فالأولى أن يقال : ان الخالق هو الموجد للأشياء

الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم » وأورد الطبري عن قتادة نحوه من حديث عائشة أنها دعت بحضرة النبي ﷺ بنحو ذلك ، وسبأني في الكلام على الاسم الأعظم . وقال الخطابي : في هذا الحديث اثبات هذه الأسماء المحصورة بهذا العدد ، وليس فيه منع فاعداها من الزيادة ، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معاني . وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله « من أحصاها » لا قوله « لله » وهو كقولك لزيد ألف درهم أعدها للصدقة ، وعمرو مائة ثوب من زارد ألبسه إياها . وقال القرطبي في الميهم نحو ذلك ، ونقل ابن بطلال عن القاضي أبي بكر بن الطيب قال : ليس في الحديث دليل على أنه ليس لله من الأسماء إلا هذه العدة ، وإنما معني الحديث أن من أحصاها دخل الجنة . ويدل على عدم الحصر أن أكثرها صفات وصفات الله لا نتناهى ، وقيل إن المراد الدعاء بهذه الأسماء لأن الحديث مبني على قوله (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) فذكر النبي ﷺ أنها تسمة وتسمعون فيدعى بها ولا يدعى بغيرها حكام ابن بطلال عن المهلب . وفيه نظر لأنه ثبت في أخبار صحيحة الدعاء بكثير من الأسماء التي لم ترد في القرآن ، كما في حديث ابن عباس في قيام الليل « أنت المقدم وأنت المؤخر » وغير ذلك . وقال الفخر الرازي : لما كانت الأسماء من الصفات وهي اما ثبوتية حقيقية كالحي ، أو اضافية كالعظيم واما سلبية كالقدوس ، واما من حقيقية و اضافية كالقدير ، أو من سلبية و اضافية كالأول والآخر ، وإمام من حقيقية و اضافية وسلبية كالملك والتلوب غير متناهية ، لأنه عالم بلا نهاية قادر على مالا نهاية له ، فلا يمنع أن يكون له من ^(١) ذلك اسم فيلزم أن لانهاية لأسمائه ، وحكي القاضي أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم . قال ابن العربي : وهذا قليل فيها ، ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم ، استأثر بعلم ألف منها وأعلم الملائكة بالبقية ، والأنبياء بألفين منها ، وسائر الناس بألف . وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ^(٢) واستدل بعضهم بهذا القول لأنه ثبت في نفس حديث الباب أنه وترىجب الوتر الرواية

(١) المقام يقتضى أن يقول من كل ذلك .

(٢) وكذا ما قبلها .

التي سردت في الأسماء لم يعهد فيها الوتر ، فدل على أن له أسماء آخر غير التسعة والتسعين
وتعقبه من ذهب الى الحصر في التسعة والتسعين ، كابن حزم بأن الخبر الوارد لم يثبت
دفعه ، وإنما هو مدرج كاتقدمت الإشارة اليه ، واستدل أيضا على عدم الحصر بأنه
مفهوم عدد وهو ضعيف ، وابن حزم ممن ذهب الى الحصر في العدد المذكور وهو
لا يقول بالمفهوم أصلا ، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ «إلا واحدا» قال : لأنه لو
جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة اسم فيبطل
قوله «مائة إلا واحد» وهذا الذي قبله ليس بحجة على ما تقدم لأن الحصر المذكور
عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً على
ذلك خطأ ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد ، واحتج بقوله تعالى (والله
الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) وقد قال أهل التفسير : من
الإلحاد في أسمائه تسمية بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة ، وقد ذكر منها في
آخر سورة الحشر عدة وختم ذلك بأن قل (له الأسماء الحسنى) قال وما يتخيل من
الزيادة في العدد المذكور لعله مكرر معنى وإن تغاير لفظا ، كالغافر والغفار والغفور
مثلا فيكون المعداد من ذلك واحدا فقط ، فاذا اعتبرت ذلك جمعت الأسماء الواردة
نصا في القرآن وفي الصحيح من الحديث لم تزد على العدد المذكور ، وقال غيره : المراد
بالأسماء الحسنى في قوله تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ما جاء في الحديث
« إن لله تسعة وتسعين اسما » فان ثبت الخبر الوارد في تعيينها وجب المصير اليه وإلا
فليتبع من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، فان التعريف في الأسماء للعهد فلا بد
من المعهود ، فانه أمر بالدعاء بها ونهى عن الدعاء بغيرها فلا بد من وجود المأمور به
(قلت) والحوالة على الكتاب العزيز أقرب . وقد حصل بحمد الله تتبعها كما قدمته
وبقي أن يعتمد الى ما تكرر لفظا ومعنى من القرآن فيقتصر عليه ويتبع من
الأحاديث الصحيحة تكلمة العدة المذكورة فهو ناطق آخر من التتبع عسى الله أن يعين
عليه بحوله وقوته آمين . اهـ (فتح) والمتبادر من الحديث أنه جملتان فالأسماء الشرعية
في الاسلام ٩٩ وكان الحافظ أجدر العلماء بما رجاه في آخر كلامه

﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم﴾ أى ادعوه بها أيها المؤمنون واتركوا وأهملوا بلا مبالاة جميع الذين يلحدون في أسمائهم بالليل بالناظها أو معانيها عن منهج الحق الوسط، إلى بنيات الطريق ومتفرق السبل، من تحريف أو تأويل، أو تشبيه أو تعطيل، أو شرك أو تكذيب، أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال، ذروا هؤلاء الملحدون ولا تقالوا بهم، وكأن قائلا يقول: ولماذا نذرهم في خوضهم بعمهون؟ فأجاب بقوله تعالى ﴿سبجزون ما كانوا يعملون﴾ أى سبلمون جزاء عملهم عن قريب، بعضهم في الدنيا قبل الآخرة، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة، إلا من تاب منهم قبل الموت.

وإنما فصل هذا التفسير الإجمالى بعض التفصيل لفظا ومعنى فتقول :
«ذروا» أمر لم يرد في اللغة استعمال ماضيه ولا مصدره وهو يعنى الترك والإهمال فهو يوزن. ودع الشيء يدعه ودعاء ومعناه . إلا أن هذا قد استعمل ماضيه ومصدره قليلا ، وذلك لم يستعمل منه إلا المضارع « يذر » والأمر « ذر » وتعدد ذكرها في التنزيل . وزعم الراغب في مفرداته أن معناه قذف الشيء لقلة الاعتماد به . وأورد من الشواهد عليه من القرآن ما هو ظاهر فيه ، وأشار إلى شاهد واحد يخالفه في الظاهر ووعد ببيان دخوله في موضع آخر، ولعله يعنى تفسيره للقرآن، وهو قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) ولم يقل : ويتركون ويخلفون ولعله أجاب عنه بأن المراد : ويتركون أزواجا عن عرضة الإهمال ، وعدم الاتفاق هليهن فليوصوا هن ، وإلا كانوا هم المهملين هن ، والقاذفين بهن في ببدأ الإهمال والحاجة . ويرد عليه أيضا قوله تعالى حكاية عن المخلفين في سورة الفتح (ذرونا تتبعكم) وكل ما عده من استعمال القرآن لهذه الكلمة يظهر فيه معنى الترك لعدم المبالاة والاهتمام . لا القذف كما عبر به ، ومنه قوله تعالى في ناقة صالح حكاية عنه (فذرهما تأكل في أرض الله) وأظهر منه قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) (أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض) (رب لا تنذر على الأرض) (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) (وتذرون الآخرة)

(ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (فذرهم وما يفترون) (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) الخ

وأما الإلهاد فمعناه العام الميل والازرار عن الوسط حساً أو معنى ، والأول الأصل فيه كأمثاله . ومنه لحد القبر للميت وهو ما يحفر في جانب القبر من جهة القبلة مائلاً عن وسطه ويسوى ببناء ونحوه ويوضع فيه الميت ، ويقابله الضريح أو الشق وهو وضعه في وسط القبر (واللحد أفضل في الشرع) يقال : لحد القبر وألحده ، ولحد للميت وألحده ، أى جعل له لحداً ، ومن كلامهم : ألحد السهم الهدف : أى مال في أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ولما كان « خيار الأمور أوساطها » كان الانحراف عن الوسط مذموماً ، ومنه أخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى بالإلهاد وصحى ذروه الملاحدة والملاحدون .

قال الراغب : اللحد حفرة مائلة عن الوسط وقد لحد القبر حفرة وألحده وقد لحدت الميت وألحدته : جعلته في اللحد ، ويسمى اللحد ملحداً وهو اسم موضع من ألحدته . ولحد بلسانه إلى كذا مال . قال تعالى (لسان الذي يكحدون إليه) من لحد وقرى (يكحدون) من ألحد ^(١) وألحد فلان : مال عن الحق ، والإلهاد ضربان : إلهاد إلى الشرك بالله ، وإلهاد إلى الشرك بالأسباب ^(٢) فالأول يناق الإيمان ويبطله ، والثاني يؤمن عراه ولا يبطله . ومن هذا النوع قوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وقوله (الذين يلحدون في أسمائه) والإلهاد في أسمائه على وجهين : أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، والثاني أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به اهـ

(١) الآية رد على بعض كفار قريش الذين قالوا إن النبی ﷺ يلهمه بشر يعنون رومياً كان بمكة يصنع السيوف ، ورأوه ﷺ يقف عنده يتأمل صنعته قال تعالى (لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فاستعمال الإلهاد فيه على القاعدة لأنهم مالوا فيه إلى الباطل (٢) هو النظر إلى الأسباب مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيرها . ويخفى الإنسان ذلك ، أو يعتقد إنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى وهو شرك جلي ، والظاهر أن الراغب أراد بهذا النوع المعاصي كالظلم في الحرم عن قولهم : المعاصي يريد الكفر

أقول : قرأ حمزة (يلحدون) بفتح الياء هنا وفي قوله تعالى في فصلت (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) من لحد والباقون بعضهم من ألحد ومعناها واحد كما علمت ، وأخطأ من زعم أن الأول لا يكاد يسمع .

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) الإلحاد التكذيب وقال في تفسيره هنا : اعتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وعن الأعمش أنه قرأ «يلحدون» بفتح الياء من اللحد وفسره بقوله : يدخلون فيها ما ليس منها ، وعن قتادة في تفسيره روايتان إحداها يشركون ، والثانية : يكذبون في أسمائه ، وبمخلص هذه الروايات : أن من الإلحاد في أسمائه تعالى التكذيب بها وإنكار معانيها ونحوها بالتأويل ونحوه ، وتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه ، وبما لا يليق بكماله وجلاله ، وإشراك غيره به فيها — وهذان قسمان : إشراك في التسمية ، وهو يقصر على الأسماء الدالة على معنى الألوهية والربوبية وخصائصها ، وإشراك في المعاني وهي قسمان : معان خاصة بالألوهية والربوبية ، ومعان غير خاصة في نفسها ، وإنما الخاص به تعالى كإلهها ، وهو معنى كونها الحسنى كما يدل عليه تقديم الخبر في قوله «ولله الأسماء الحسنى» أي له وحده دون غيره كما تقدم . فالإلحاد في أسمائه الحسنى أقسام

(١) التغير فيها بوضعها لغيره مما عبيد من دونه كما ورد في «اللات والعزى» وتقدم قريباً ، قيل و «مناة» من اسمه تعالى المنان فان صحح كان دليلاً على أن العرب كانت قبل الإسلام تطلق هذا الاسم على الله تعالى وهو ليس في القرآن ولا في رواية الترمذي لأسمائه تعالى ، ولكن ورد في بعض الأحاديث وأما لفظ «اللات» فالظاهر أنهم أشوا به اسم الجلالة «والعزى» مؤنث الاعز كالفضلى مؤنث الأفضل ، والحسنى مؤنث الأحسن .

(٢) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله ﷺ قال بعضهم : أو أجمع عليه المسلمون فإنه كما قيل لا بد له من مستند منها ومنه «واجب الوجود والواجب» - لكن يحتاج هذا إلى قرينة لأن استعماله في كل واجب عقلي وكل واجب شرعي هو الأكثر - (قال) «والقديم والصانع» وقيل هما سموغان «وأقول : إن الواجب وواجب الوجود والصانع من اصطلاح المتكلمين

لا يثبت كونها من أسماء الله تعالى بالإجماع الذي قالوا إنه لا بد له مستند من الكتاب أو السنة عند أهلها ، وللصانع مأخذ من قوله تعالى في سورة النمل (صنع الله الذي أتقن كل شيء) عند من يقول بجواز مثله وهو ضعيف ، ويقضى أن يكون من أسمائه المتقن أيضا ، والتحقيق أن باب الاخبار عنه تعالى بأفعاله أوسع من باب إطلاق الأسماء عليه ، فإن الاسم في الأصل مادل على الذات ولا يعتبر فيه اتصاف المسمى بمعنى الاسم إن كان له معنى غير العلمية كزيد وحارث وفضل ، وما أطلق لأجل معناه فقط يسمى وصفا ونعتا كالحارث بوصف به من يجرث الأرض ، والظالم لمن يجور في فعله أو حكمه ، وقد يقصد بالإسم العلم الوصف مع العلمية من باب التفاضل أو المدح فان لمع عند الإطلاق أدخلوا عليه الألف واللام فقالوا الحارث والفضل وإلا فلا ، وهذا مما عني لاقياسي في العربية . ومنه أسماء الله المنقولة عن اسم فاعل كالخالق والرازق والمؤمن والمهيمن أو صفة مشبهة كالرحمن الرحيم ، أو مصدر كالسلام والعدل فكلمها يراعى فيها المعنى الوصفي فتسمى صفات والدلالة على الذات المتصفة بمدلوله الوصفي فتسمى أسماء

ويقتصر فيها كلها على التوقيف وليس منه الواجب والصانع والموجود ولكن يجوز الاخبار بهذه الصفات عنه تعالى ، فيقال إن الله موجود وواجب وهو صانع كل شيء والمتقن لكل ما خلقه ، ولا يقال في الدعاء والنداء يا واجب أو يا صانع اغفر لي مثلا ، بهذا القدر يصح كلام المتكلمين ، ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من كل ما أخبر به عن نفسه ولو بصيغة اسم الفاعل ، فلم يقل أحد باطلاق اسم الزارع عليه تعالى من قوله (أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ولا الماكر من قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ولا الخادع أو الخادع من (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولكن عدوا منها بعض الصفات المضافة كالتقدم في الشدائد والرفع والقائم والفاطر ، والفرق بين الفريقين أن هذه ذكرت في سياق الثناء على الله تعالى ، وأما تلك فذكرت في سياق الاحتجاج أو من باب المشاكلة ، واسم الصفة لا بد أن يدل على السكال بمجرد إطلاقه وليس هذا منه

وقد اتفق أهل الحق على أن أسماء وصفاته تعالى توقيفية ونصوا على إثبات

كل ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفاته ، وإخباراً عنه ، وعلى منع كل ما دل على منعه ، ومنه كل ما يسمى إلهاداً في أسمائه ؛ وكل ما أومئ نصاً أو كان منافياً للكمال ولوصف الحسنى . وقد منع جمهور أهل السنة كل ما لم يأذن به الشارع مطلقاً ، وجوز المعتزلة ما صح معناه ودل الدليل على اتصافه به ولم يوهم إطلاقه نصاً ، والفلاسفة أوسع حرية في هذا الإطلاق . ومنه قول ابن سينا : مدير الكل أنت القصد والغرض وأنت عن كل ما قد فاتنا عوض من كان في قلبه مثقال خردلة سوى جلالك ، فأعلم أنه مرض وقد عدوا عليه من إساءة الأدب قوله لخالقه : فأعلم

ذكر ذلك السفاريني في شرح عقيدته الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ثم قال : ومال إليه - أي قول المعتزلة بالجواز - بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني وتوقف إمام الحرمين الجويني ، وفصل الغزالي فجوز إطلاق الصفة وهي ما دل على معنى زائد على الذات ومنع إطلاق الاسم وهو ما دل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد « أنها توقيفية » بأنه لا يجوز أن يسمى النبي ﷺ بما ليس من أسمائه فالباري أولى . وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم مختص بلفظهم كقولهم (خدای) وشاع من غير تكبر ، ورد بأنه لو ثبت لسكان كافياً في الأذان الشرعي ، ونقل الألوسي في تفسيره سياق السفاريني إلى احتجاج المعتزلة بعدم انكار أحد من المسلمين على إطلاق الفرس (خدا) وزاد عليه اسم (تکرى) وهو تركي وكافه نون في النطق ؛ وقال إنهم ادعوا أن هذا إجماع ، وأنه لو ثبت لكان كافياً في الأذان الشرعي .

وأقول : إن لفظي خدا وتكرى هما الاسم العلم لرب العالمين وخالق الخلق ، وذلك من قبيل الترجمة للاسم الجلالة (الله) وليس من إطلاق اسم جديد عليه فيحتاج إلى نص أو دليل شرعي ، ومثله ترجمة ما يمكن ترجمته من الأسماء والصفات وهو المشترك في اللغات ولا سيما الراقية منها ؛ كالفارسية فهو جائز بخلاف ترجمة ما لا يوجد له مرادف في غير العربية ، كالرحمن والقيوم - كما نعتد - ومنع الغزالي في كتاب إلجام العوام ترجمة صفات الله في الكلام على التشابهات منها لما فيها من

خطر مخالفة مراده تعالى وقال أن بعضها لامرأف له في غير العربية وبعضها مرأف في الحقيقة دون الجواز كاليد فهي تطلق في العربية على الجارحة من أعضاء الانسان، ولها عدة معان مجازية كالنعمة والقدرة والتصرف مثلاً وقد أضيف إليه تعالى في مواضع قد تختلف معانيها كقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم بيده الملك) (بيدك الخير) (لما خلقت بيدي) (بل يدها مبسوطتان) فلا يمكن وضع كلمة ترجمة يد بالفارسية لتفسير هذه الآيات كلها. اهـ بالمعنى، وقد أوردت لفظه في تفسير الآيات المتشابهات من أول سورة آل عمران

ثم إن الألوسي نقل موافقة القاضي الباقلاني للمعتزلة وذكر أن إمام الحرمين اعترضه بأنه قول بالقياس وهو حجة في العمليات دون الدلهمات والأسماء والصفات منها (قال) وروى بعضهم عنه التوقف. ثم ذكر قول الغزالي المتقدم وذكر أنه احتج له بإباحة الصديق واستحبابه، والصفة لتضمنها النسبة الخبرية راجعة إليه وهي لا تتوقف إلا على تحقيق معناها، بخلاف الاسم فإنه لا يتضمن النسبة الخبرية وأنه ليس إلا للابوين أو من يجري مجراهما (قال الألوسي) وأجيب بأن ذلك حيث لا مانع من استعمال اللفظ الدال على تلك النسبة — والخطر قائم — وأين التراب من رب الأرباب ؟ اهـ

وأقول : مثال ما ذكره وصفه تعالى بالعقل بناء على أنه هو الكمال في غرائز البشر ولم يرد به الشرع. ويدل على منعه من جهة النظر أيضاً أن معنى العقل في اللغة العربية يدخل فيه مادات عليه مادته وهي عقل البعير، أي ربط ذراعه ووظيفته وشدها بالعقال (وهو بالكسر الحبل الذي يعقل به البعير وغيره) لمنعه من المشي، وذلك أن عقل الانسان من شأنه أن يعقله أي يمنعه مما لا ينبغي له، وهذا المعنى لا يليق بالبارئ سبحانه وتعالى، فقاعدة الغزالي في الصفات تقتضي تحكيم رأى كل أحد في وصف خالقه بما يراه هو حسناً أو كلاً. وقد يكون في رأى غيره ممن هم أعلم منه غير حسن ولا كلاً، وهذا ظاهر عقلاً لا نقلاً فالحق أن لا يتناقض عليه المؤمنون من الصفات إلا ما أذن به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ (٣) ترك تسميته بما سمي به نفسه أو وصفه بما وصفها به ومثله أسناد ما أسنده

تعالى إلى نفسه من الأفعال — بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى أو أنه يوم نقصاً في حقه عز وجل ، كأن هؤلاء الملمحين أعلم منه تباركت اسماءه وجلت صفاته ، وأعلم من رسوله صلواته عليه وسلامه — بما يليق به وما لا يليق به ، وبما يوم نقص التشبيه أو غير التشبيه ، كامتناع بعض المبتدعة من ذكر بعض الآيات والأحاديث في صفات الله تعالى التي زعموا وجوب تأويلها في عقائدهم ودروسهم وعدم ذكرها في مجالسهم إلا مقرونة بالتأويل وادعاء أن معناها غير مراد . وقد غلبا بعض الأشعرية في القرون الوسطى في التأويل غلبوا الجهمية والمعتزلة أو أشد ، حتى إن منهم من أغروا السلاطين بسجن شيخ الإسلام ابن تيمية لذكر هذه الآيات والأحاديث في كتبه ودروسه ، كصفه علو الله تعالى على خلقه ، ومنها اسم العلي والمتعال ، ومنها آيات الاستواء على العرش وأحاديث النزول من السماء ، وانتهى بهم الأمر إلى أن يطلبوا منه التوبة من ذكر هذه الآيات والأحاديث للعلامة وإن يتعهد بذلك كتابة (١) وهذا من أعاجيب تعصب المذاهب والغرور في تحكيم العقل أي الآراء النظرية في النصوص . وإن ادعاء أن بعض كلام الله وحديث رسوله مما يجب كتمانته واستبدال نظريات بعض المتأخرين أمثالهم به لمطعن كبير في الدين ، وفي سلف الأمة الصالحين . وهذا النوع من الاحاد هو غير التأويل للاسماء والصفات وهو القسم الآتي من الاحاد فيها

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضروب من التأويل ، تنقص التشبيه أو التعطيل ، فالمشبهة ذهبت إلى جعل الرب القدوس الذي ليس كمثل شيء كرجل من خلقه ، زاعمة أنه وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب . والجهمية ذهبت إلى تأويل جميع صفات الله تعالى حتى جعلته كالعدم . وأهل السنة والجماعة الذين قال الله تعالى فيهم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) هم الذين جمعوا بين العقل والنقل في تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله . وبين وصفه بما وصف به نفسه وتسميته بما سمي به نفسه وإسناد ما أسنده إلى نفسه من الأفعال ، كالاستواء على العرش والعلو على الخلق وغير ذلك . أثبتوا

له كل ذلك مع كمال التنزيه، فقالوا : إن له رحمة ليست كرحمة المخلوق ، وغضبا لا يشبه غضب المخلوق ، واستواء على عرشه ليس كاستواء الملوك المخلوقين على عروشهم ، وأنه تعالى علمنا بما بين إنا من أسمائه وصفاته وأفعاله كل ما أوجب علينا أن نعلمه من عظمته وكماله وجلاله وجهاله وأفعاله ، ولا يمكن بيان ذلك لنا إلا بالألفاظ التي نستعملها في شؤون أنفسنا ، وعلمنا مع ذلك أنه ليس كمثل شيء ، فعصمنا بهذا التنزيه ، أن يضلنا الاشتراك اللفظي فقع في التشبيه .

(٥) اشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن : ورب العالمين — وما في معناه من الإضافات كرب السماء والأرض ، والسموات والأرض ، أو رب الكعبة ، أو رب البيت — إذا أريد به الكعبة . قال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) وأما إذا أضيف لفظ رب إلى بيت آخر من بيوت الناس في كلام يعينه فلا بأس ، كأن تقول وأنت في بيت أحد الناس وقد حضرت الصلاة : الامامة حق رب البيت ، أو ليؤمننا رب البيت . أو تقول لمن أراد أن يجلس في كرسي صاحب البيت أو على الحشية الخاصة به : هذه تكربة وب البيت ، وقد نهينا عن الجلوس عليها بدون إذنه . وقالوا : إن كلمة الرب معرفة خاصة به تعالى . ويترجح هذا القول حيث لا قرينة تصرف اللفظ إلى غيره .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث « لله تسعة وتسعون اسما » من الفتح بحث انعقاد اليمين بجميع هذه الأسماء عند الحنفية والمالكية وابن حزم مطلقاً ثم قال : والمعروف عند الشافعية والحنابلة وغيرهم من العلماء أن الأسماء ثلاثة أقسام (أحدها) ما يختص بالله تعالى : كاسم الجلالة والرحمن ورب العالمين فهذا ينعقد اليمين به إذا أطلق ولو نوى به غيره (ثانيها) ما يطلق عليه وعلى غيره ولكن الغالب إطلاقه عليه وأن يقيد في حق غيره بضرب من التقييد كالجبار والحق والرب ونحوها ، فالحلف به يمين ، فإن نوى به غير الله فليس بيمين (ثالثها) ما يطلق في حق الله وحق غيره على حد سواء ، كالحي والمؤمن ، فإن نوى به غير الله أو أطلق فليس بيمين ، وإن نوى الله تعالى فوجهان . صحح النووي أنه يمين ، وكذا في المحرر ، وخالف في الشرحين فصحح أنه ليس بيمين ، واختلف الحنابلة فقال

القاضي أبو يعلى ليس بيمين ، وقال المجد ابن تيمية في الحرر : إنها يمين اه
 (٦) اشراك غيره تعالى في معاني أسمائه الخاصة مع تغيير اللفظ كإطلاق لفظ
 (الوسيلة) على بعض الصالحين بمعنى أنه يدعى من دون الله أو مع الله سبحانه
 لقضاء الحاجات ، ورفع الكربات ، وكفاية المهمات ، من غير طريق الأسباب
 والعادات ، كطلب ذلك من الأموات ، فلفظ الوسيلة هنا بمعنى (الإله) إذ
 معناه المعبود ، والدعاء مخ العبادة وأعظم أركانها كما بينا صراحاً ، أو (الرب)
 المدير للأمر على الإطلاق — فهذا الحاد في معاني أسماء الله تعالى لا في ألفاظها
 (٧) اشراك غيره في كمال أسمائه التسام الذي وصفه لأجله بالحسنى ، كمن
 يزعم أو يعتقد أن لغيره تعالى رحمة كرحمة ورأفة أو غير ذلك من معاني أسمائه
 كالجيب مثلاً ، قال تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي
 إذا دعان) وقال تعالى حكاية عن رسوله صالح عليه السلام (إن ربي قريب مجيب)
 وأن بعض الذين يدعون غير الله من الموتى يعتقدون أنهم أقرب وأسرع في
 إجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين الشركين : شرك دعاء غير الله مع
 اعتقاد إجابته لدعاء — والله يقول (٢٧ : ٢٣) أمن يجيب المضطر إذا دعاه
 ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟) أي لا يجيب المضطر إلا
 الله ، فهو الإله المستحق للعبادة وحده ، والكفرية بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة
 الإجابة . وقد سمعت امرأة مصرية تدعو وتستغيث في أمرأتهما : يا متبولى !
 يا متبولى ... ! فقلت لها بعد أن هدأ روعها لماذا تدعين المتبولى ولا تدعين الله
 تعالى ؟ قالت : المتبولى ما يستغاث — أي لا يهلك ولا يتأخر في إجابة من دعاه
 واستغاث به . وذكر حكاية متناقلة بين أمثالها وهي : أن رجلاً كان قد سرق
 صمكة فسيخ وأكلها ، فخلفه صاحبها يميناً بالمتبولى ، فخلف به فقياه الفسيخة ، ومثل
 هذه الحكايات يتعبر أمثال هؤلاء على الخائف بالله تعالى كذباً ولا يتجرؤون على الخلف
 بمعتقدهم . وهذا نوع آخر من تفضيلهم إياهم على رب العالمين ، وهو من إلحاد الشرك
 الصريح ويزعمون معه أنهم من المسلمين ، ويتأول لهم علماء الجود المضلين ، وينزفون
 من أنسرك عليهم بقلب رهابيين ، ويعتقون هذا اللقب وإن صار بمعنى الموحدين :

(١٨١) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٢)
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٣)
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا؟ مَا بِصَاحِبِهِمْ
مِنْ حِنَّةٍ . إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٥) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى
أَنْ يَكُونُوا قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ؟ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟
(١٨٦) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ؛ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

بعد الانتهاء من قصة موسى مع قومه التى ختمت بها قصص الرسل من هذه
السورة بين الله تعالى لنا فى بضع آيات منها شيئا من شؤون البشر العامة فى الايمان
والشرك والهدى والضلال ، وما لفساد الفطرة واهمال مواهبها من العقل والحواس
من سوء المآل ، وارشدنا فى آخرها الى ما يصلح فساد الفطرة من دعائه باسمائه
الحسنى ، والى ما للحجاد فيها من سوء الجزاء فى العقبى . ثم قفى على هذه البضع
الآيات بوضع آيات أخرى فى شأن الامة المحمدية بدأها بوصف أمة الاجابة ،
وتنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلت بتنفيذ ما عرض لهم من الشبهة ،
فالارشاد الى التفكير الموصول الى فقه الامور وما فى حقائقها من العبرة ، وإلى النظر
الهادى إلى مآخذ البرهان والحجة ، لمعرفة صدق الرسول وما فى القرآن من الهداية
والعلم والحكمة ، فالوعظة الحسنة المؤثرة فى النفس المستعدة بالتذكير بقرب الأجل ،
والاحتياط للقاء الله عز وجل ، وختمها ببيان عدم الطمع فى هداية من قضت سنة
الله بضلالاته ، وتركه يعمه فى طغيانه . قال تعالى

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة
(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ) وكلاهما تفصيل لاجمال قوله تعالى
(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) الخ بدأه ببيان حال من أضلهم وهم الذين أهملوا
« تفسير القرآن الحكيم » ٢٩٥ « الجزء التاسع »

استعمال قلوبهم وأبصارهم واسماهم في فقه آيات الله ، وانهم كثيرون ، ولكنه ما سماهم أمة ، لانهم لا يجمعهم في الضلال جامعة ، ولان الباطل كثير وسبله متفرقة . ثم ذكر هنا حال من هداهم الله تعالى وهو أنهم أمة أى جماعة كبيرة ، مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق وبه دون غيره يعدلون ، فسيبلهم واحدة لان الحق واحد لا يتعدد ، هؤلاء هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وقد تقدم تفسير هذا التركيب في قوله تعالى من هذه السورة (٧ : ١٥٨) ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فليراجع فهو قريب ^(١) فهاتان الآيتان متقابلتان اقرب الشبه بين أمة موسى وأمة محمد عليهما الصلاة والسلام كقرب الشبه بينهما وقد تقدم بيانه أيضاً ^(٢) وانما قال (ومن خلقنا) إلح لمناسبة قوله في مقابله (ولقد ذرأنا) أى خلقنا ، فهناك يقول ذرأنا لجنهم من صفتهم كذا ، وهنا يقول ومن خلقنا أى للجنة أمة صفتهم كذا وكذا .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله تعالى (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق) قال ذكر لنا أن النبي ﷺ قال « هذه أمتي ، بالحق يحكمون ويقضون ، يأخذون ويعطون » وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأها « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها) ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) » وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : لتفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة : يقول الله (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هي التي تنجو من هذه الامة . اهـ . ومعلوم ان الشق الاول من هذا الاثر مرفوع الى النبي ﷺ فذكره على رضى الله عنه ليفسر به الفرقة الناجية . وقد فسرها النبي ﷺ في بعض الروايات بانها هي التي تستقيم على ما كان عليه ﷺ هو وأصحابه ، ومعنى التفسيرين واحد في مآلها والمراد منه أمة الاجابة لدعوته ﷺ

ثم ذكر حال المكذبين من أمة الدعوة فقال :

والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (الاستدراج مأخوذ من الدرج مصدر درج ، أو من الدرجة وهي المرقاة ، يقال درج الكتاب والثوب وأدرجه إذا طواه . ويعبر بالدرج وهو المصدر عن المدرج أي المطوى ، ويقال درج فلان بمعنى مات ، وهذه آثار قوم درجوا أي انقضوا ، جملة الراغب مجازاً بالاستعارة ، ولكن الزخشري ذكره في حقيقة الأساس وقل واستدرجه . رقا من درجة إلى درجة ، وقيل استدعى هلكته ، من درج إذا مات . وقل الراغب في « سنستدرجهم » من الآية : قيل معناه سنطويهم طي الكتاب عبارة عن إخفائهم نحو (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وقيل معناه سنأخذهم درجة بعد درجة وذلك إندازهم من الشيء شيئاً فشيئاً كالمراق والمنازل في ارتقائها ونزولها .

أقول : والمراد على هذا أنهم يسترسلون في غيهم وضلالهم ، من حيث لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم ، بل لهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل ، والمصارعة بين الضار والنافع ، وكون الحق يدمغ الباطل ، وما ينفع الناس يصبر ما يضرهم ، كما قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقوله تعالى (فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

وأما المعنى على القول الأول فهو انذار لهم بهذه العاقبة وهو أن الله تعالى سيأخذهم بالعقاب وينصر رسوله عليهم ، ولكن بالتدرج وكذلك كان .

والجمع بين معني الاستدراج جائز هنا لظهوره فيمن نزل فيهم أولاً وبالذات وهم كفار قريش الجاحدون والمبالغون في عداوة النبي ﷺ فقد كانوا مفتقرين بكبرتهم وثروتهم لا يعتمدون به ولا يغيروا من آمن به أولاً وأكثرهم من الضعفاء الفقراء فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتلهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غروراً ظهورهم في آخر معركة أحد وقل قئدهم أبوسفیان يوم بيوم بدر — إلى أن كان الفتح الأعظم ، فهنا كله استدراج بمعنى التنقل في مدارج الغرور ، وبمعنى أخذ الله إياهم وإظهار رسوله ﷺ ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنن الله تعالى في هذا ولا ذاك .

وقد فسر السدي الاستدراج بالمعنى الثاني فجعله خاصاً بأخذهم في غزوة بدر

وفسر بعض المتقدمين الاستدراج بمعناه العام في اللغة كأغترار العصاة بالنعم التي تنسيهم التوبة وتلهيهم عن شكر النعم ، واقتصارهم عليه غفلة عن سبب النزول ومن أنزل فيهم . فهو كقوله تعالى في سورة القلم (٦٨ : ٤٤) قدرني ومن يكذب بهذا الحديث مستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقفي عليها بمنزل ما هنا - والسورتان مكيتان - وهو قوله تعالى :

﴿ وأملئ لهم إن كيدى متين ﴾ الاملاء الامداد في الزمن والامهال والتأخير مشتق من الملة والملازة ، وهي الطائفة الطويلة من الزمن ، والموان الليل والنهار قال الراغب وحقيقته تكررها وامتدادها ، يقال أملئ له إذا أمهلته طويلاً . وأملئ للبعير إذا أرحى له الزمام ووسع له في القيد ليتسع له المرعى . (واهجرني ملياً) أى زمتنا طويلاً . والملا بالقصر المفازة الواسعة الممتدة ، وأما الاملاء للكاتب بمعنى تلمينه ما يكتب فأصله أملل . فهو ليس من هذه المادة

والكيد كالمكر هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد له بمظهره فلا يفتن له حتى ينتهي إلى ما يسوءه من خبئه وغايته ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه الحمود الذي يقصد به المصلحة ، ككيد يوسف لأخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، ولذلك أسند وأضيف إلى الله عز وجل في مثل هذين الموضعين . والجمهور على أن إضافة الكيد والمكر أو إسنادهما إليه تعالى في القرآن من باب المشاكلة أو تناول بمعنى العقاب والجزاء وما يشاهد أدق ، والمبين القوى الشديد ومعنى الآية : وأمهل هؤلاء المكيدين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سلقى في نظام الاجتماع للبشر كيداً لهم ومكرّاً بهم ، لاحقاً فيهم ونصراً لهم ، (٢٣ : ٥٥) قدرهم في غمرتهم حتى حين ٥٦ أبحسون أن مانعهم به من مال وبنين ٥٧ نسارع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون) وان تسأل عن كيدى فهو قوى متين . قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » فمعنى هذا الإملاء أن سنة الله تعالى في الأمم والأفراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق ، فالخذلان إذا بغى وظلم ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب ظلمه يزداد

بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيستمرسل في ظلمه إلى أن تحبى به عاقبه
 ذلك بأخذ الحسكام له أو بتورطه في مهلكة أخرى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى
 وقد قلنا في أوائل هذا التفسير عن شيخنا الأستاذ الامام أن عذاب الأمم
 في الدنيا مطرد ، وأما عذاب الأفراد فقد يتخلف ويرجأ إلى الآخرة . وحققنا في
 مواضع أخرى أن عقاب الأمم وبعض عقاب الأفراد أثر طبيعي لذنوبهم ، فالأمم
 والشعوب الباغية الظالمة لابد أن يزول سلطانها وتدول دولتها ، والسكران والزناة
 لا يسلطان من الأمراض التي سببها السكر والزنا . والمقامر قلما يموت إلا فقيراً . ومداخن
 وقد سردنا الشواهد في مواضع أخرى على عقاب الأمم من الآيات التي
 صدقها شواهد التاريخ الماضي والحاضر وستصدقها في المستقبل ، وما كانت
 الحرب الأخيرة العظمى إلا بعض عقاب الله تعالى للذين صلوا نارها بغيرهم . فسوقهم ،
 وسيرون ما هو شر منها إذا لم يرجعوا عن غيرهم .

بعد هذا أرشدكم إلى المخرج من أكبر شبهة لهم على الرسالة فقال عز وجل
 ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ الجنة بالكسر النوع الخاص من
 الجنون ، فهو اسم هيئة ، واسم للجن أيضا ولا يصح هنا إلا بتقدير مضاف ، أي
 من من جنة — وقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أول رسله إلى قوم مشركين أنهم
 اتهموه بالجنون فقالوا بعد قولهم انه بشر مثلهم يريد أن يفضل عليهم (٢٥: ٢٣)
 ان هو إلا رجل به جنة فترى بصوا به حتى حين) وفي سورة القمر عنهم (٩: ٥٣) كذبت
 قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدا وقالوا مجنون وازدجر) وفي سورة الشعراء حكاية عن
 فرعون لعنه الله في موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم (٢٦: ٢٦) قال إن رسولكم
 الذي أرسل إليكم لمجنون) وقال تعالى عنه في سورة الداريات (٥١ : ٣٩) فتولى
 بركنه وقال ساحر أو مجنون) ثم بين تعالى في هذه السورة أن جميع الكفار كانوا
 يقولون هذا القول في رسالهم فقال (٥٢) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول
 إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٣) أتوا صدرا .. بل هم قوم طاغون .

وفي معنى آية الاعراف في خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات (منها) قوله
 تعالى في كفار مكة من سورة المؤمنين (٢٣: ٦٩) أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات

آبائهم الأولين ؟ (٧٠) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ (٧١) أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرتهم للحق كارهون (ومثله في سورة سبأ ٧: ٣٤ وقال الذين كفروا هل نذللكم على رجل يبذؤكم بما مرقم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ (٨) أفترى على الله كذبا ، أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) ثم قال فيها (٤٦ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا : ما بصاحبكم من جنة ، أن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) وهذه شبيهة بآية الاعراف . وفي أول سورة الحجر (١٥ : ٦) وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (٧) لو ما نأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) وفي سورة الصافات (٣٧ : ٣٥) ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وفي سورة الطور من الرد عليهم (٥٢ : ٢٧) قد ذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ومثله (٦٨ : ١) ن والقلم وما يسطرون (٢) ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وفي آخرها (٥١) ويقولون إنه لمجنون (٥٢) وما هو إلا ذكر العالمين) وفي سورة التكويد بعد وصف ملك الوحي (٨١ : ٢٢) وما صاحبكم بمجنون) روى أبناء حميد وجريرو والمنذر وأبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا فدعا قريشاً فخذاً فخذاً : يا بني فلان يا بني فلان يحذركم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال فائلمهم : أن صاحبكم هذا المجنون . بات يهوت (أي يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله (أولم يتفكروا ما بصاحبكم من جنة)

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون لأنهم ادعوا أن الله تعالى خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشرًا كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الانسانية ، كما علم من نشأتهم ومعيشتهم ، ولأنهم ادعوا ما لا يعهد له عندهم نظير ، وليس مما تصل إليه عقولهم بالتفكير ، وهو أن الناس يبعثون بعد الموت والبلى خلقاً جديداً ، ولأن كلا منهم كان يدعى أن الناس مخطئون وهو المصيب ، وضالون وهو المهتدي ، وخاسرون وهو المفلح ، إلا من اتبعه منهم - ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والندور لها تقرب

المتوسلين بها إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، وأثبتوا أن الشفاعة لله وحده لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، من رضى له لمن رضى عنه ، فلا استقلال لهؤلاء الآلهة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم - وشرعوا أنه لا يدعى مع الله أحد من ملك كريم ، ولا صالح عظيم ، فضلاً عن صورهم وتماثيلهم المذكورة بهم ، وقبورهم المشرفة برفائهم ، مع أن المذهب العاصى لا يليق به في رأى المشركين أن يدعو الله تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدنيه بالذنوب ، فيحتاج إلى من يقر به إليه من أولئك الطاهرين ، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم إلا بإذن وزرائهم وحجابههم . ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين ، حتى من أشرك من أهل السكتاب والمسلمين ، الذين خالفوا نصوص الكتب الإلهية وسنة الرسل إلى أعمال الوثنيين . ولا يرون بأساً في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين ، بالملوك الظالمين المستبدين .

وأما معنى الآية بالاستغفار فيسهل للانكار والتوبيخ وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول كما تقدم في أمثاله والتقدير : أ كذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته ، وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية ربه ، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك - فان حذف معمول التفكير يؤذن بسوء ما يدل عليه المقام مما تقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني - ألا فليتفكروا ، فالقمام مقام تفكير وتأمل ، انهم ان تفكروا أو شك أن يعرفوا الحق ، وما الحق ؟ (ما بصاحبهم من جنة) جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نفيًا وإثباتًا ، فهي نافية لما رموه به من الجنون ، كقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وقوله (وما صاحبكم بمجنون) ومثلها آية سبأ (ثم تفكروا : ما بصاحبكم من جنة) ولذلك ختمنا بنفي كل صفة عنه في موضوع رسالته إلا كونه منذراً مبلفاً عن ربه ، فقال هناك ان هو إلا نذير مبين * الانذار تعليم وإرشاد مقترن بالخوف من مخالفته أى ليس بمجنون ، ليس إلا منذراً مبيناً ومبلفاً عن الله مبيناً ، يندرهم ما يحل بهم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم لما يحبيكم في الدنيا يجمع كلنكم ، واصلاح أفرادكم ومجتمعكم والسيادة على غيركم ، ويحببكم في الآخرة بلفاء ربكم . وقال هناك (ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

وقد عبر عنه في هاتين الآيتين وفي آية التذكير بالصاحب لم لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكير في سيرته الشريفة المعلقة ليعلموا أن الشذوذ وبجافة المعقول ليس من دأبه ولا مما عهد عنه ، وكذلك الكذب كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد قال تعالى في أولئك الزعماء (فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

وقد بينا في تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشرأ مع الرد عليها^(١) كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها^(٢)

ولو تفكر مشركو مكة في نشأة النبي ﷺ وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أمانته وصدقه من صبوته إلى أن اكتمل ، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله بعبادته وحده ومن كون حكمته في خلقه السموات والأرض بالحق تقتضي تنزيهه عن العبث (ومنه) أن يكون هذا الانسان السميع البصير العاقل البصير عن حقائق الأشياء من ماض وحاضر وآت ، ينتهي وجوده بالعدم المحض الذي هو في نفسه محال ، ثم لو تفكروا في سوء حالهم الدينية (كعبادة الأصنام) والأدبية والمدنية والاجتماعية وما دعاهم إليه من اصلاحها كلها — لعلموا ان هذا الاصلاح الديني والأدبي والاجتماعي والسياسي لا يشر إلا السيادة والسعادة ، وأنه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا إليه ، بل إذا كان فيه شيء غير معقول فهو أنه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالی والاصلاح الكامل من رأى محدين عبد الله الأسمى الناشئ بين الأميين — ولأن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر في أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذي بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة ولا ارتجل خطبة — وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعوا إليه القرآن ، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يتأتى أن تأتي فجأة من ذي عزلة لم يناظر ولم يناظر ولم يجادل أحداً فيما مضى من عمره كمحمد بن عبد الله — فإذا تفكروا في هذا كله جزموا بأن هذا كله وحى من الله تعالى

(١) راجع ص ٢٠٩ و ٣١٥ من ج ٧ تفسير وص ٢٧٨ و ٢٩٥ ج ٨ منه

(٢) راجع ص ٣٥٧ ج ٧ تفسير وص ٢٨٣ و ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ منه

ألقاه في روعه ونزل من لدنه على روحه، وعلموا أن استبعادهم لذلك جهل منهم، فأنه تعالى القادر على كل شيء يختص برحمته من يشاء. لهذا حثهم على التفكير في هذا المقام من هذه السورة وغيرها، وذكر بعدها كونه نذيراً مبيناً، ونذيراً بين يدي عذاب شديد.

ثم إنه دعاهم بعد هذا إلى النظر والاستدلال العقلي فقال :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ؟ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴾ الملكوت الملك العظيم كاتدل عليه صيغة (فعلوت) والمراد بملكوت السموات والأرض مجموع العالم لأن الاستدلال به على قدرة الله تعالى وصفاته ووحدانيته أظهر، فإن العالم في جلته لا يمكن أن يكون قديماً أزلياً ولا نزاع بين علماء الكون في إمكانه ولا في حدوث كل شيء منه وإنما يختلفون في مصدره وممّ وجده. وهو لا يمكن أن يكون من عدم محض. لأن العدم المحض لا حقيقة له في الخارج بل هو أمر فرضي، فلا يعقل أن يصدر عنه وجود. ولا يمكن أن يكون بعضه قد أوجد البعض الآخر، وهذا يدهي ولذلك لم يقل به أحد، فلا بد إذاً من أن يكون صادراً عن وجود آخر غيره، وهو الله واجب الوجود. ثم إن هذا النظام العام في الملكوت الأعظم يدل على أن مصدره واحد وتدبيره راجع إلى علم عليم واحد وحكمة حكيم واحد، سبحانه وتعالى (أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا يوقنون)

ومعنى الآية : أكذبوا الرسول المشهور بالأمانة والصدق، وقالوا : إنه لمجنون وهو المعروف عندهم بالبرية والعقل، حتى جعلوا تحكيمة في تنازعهم على رفع الحجر الأسود هو الحكم الفصل. ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال في مجموع ملكوت السموات والأرض على عظمته، والنظام العام الذي قام بملكته، وما خلق الله من شيء في كل منهما وإن دق وصغر، وخفي وأستر، ففي كل شيء من خلقه له آية تدل على علمه وقدرته، ومشيتته وحكمته، وفضله ورحمته، وكونه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا يترك الناس سدى، تدل على ذلك بوجود ذلك الشيء بعد أن لم يكن، وبترجيح كل وصف من أوصافه على ما يقابله، وبما فيها من فائدة ومنفعة، فكيف بالملكوت الأعظم في

بجلته ، والنظام البديع الذي قام هو به ؟ أكذبوا وقالوا ما قالوا ولم ينظروا في العالم الأكبر ، ولا في ذرات العالم الأصغر ، نظر تأمل واعتبار ، وتفكر واستدلال ، ولا فيما حسنى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلمهم ، وتقدمهم على الله تعالى بسوء عملهم فأجل الافراد مهما يطل فهو قصير ، ومهما يبعد أجلمهم فيه فهو في الحق الواقع قريب ولو نظروا في المملوكات أو في شئ ما منه ، واعتبروا بخلق الله تعالى إياه ، لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولو نظروا في توقع قرب أجلمهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من العقل والروية أن يقبلوا إنذاره ﷺ لهم لأن خيرته لهم في الدنيا ظاهرة لم يكونوا ينكرونها ، وأما خيرته في الآخرة فهي أعظم إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء ، وهو صدق وحق ، وإن صح إنكارهم له — وما هو بصحيح — فلا ضرر عليهم من الاحتياط له ، كما قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات ، قلت : إليك إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فأنحسر عليكما فالجنون إذاً من يترك ما فيه سعادة الدنيا باعتراقه ، وسعادة الآخرة ولو على احتمال لا ضرر في تخلفه ، لامن يدعو إلى السعادتين ، أو إلى شيئين يجزئون بأن أحدهما نافع قطعاً والآخر إما نافع وإما غير ضار ، هذا مادعاهم إليه صاحبهم بكتاب ربهم مؤيداً بالبراهين العقلية والعلمية ، لعلهم يعقلون ويعلمون .

﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ وردت هذه الآية بنصها في آخر سورة المرسلات (٧٧) التي أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء وتهديد المكذبين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها . وورد في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الجاثية (٤٥) بعد التذكير بآيات الله للمؤمنين وآياته لقوم يوقنون وآياته لقوم يعقلون قوله : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعده الله وآياته يؤمنون ؟) والحديث في الجميع كلام الله الذي هو القرآن ، يدل عليه هنا قوله تعالى في رسوله (إن هو إلا نذير مبين) وفي آية المرسلات القرينة في تهديد المكذبين له . وفي آية الجاثية افتتاح السورة بذكر الكتاب فيكون معناها فبأى حديث بعده كتاب

الله المذكور في الآية الأولى وآياته المشار إليها بعدها يؤمنون ؟
والمراد أن محمداً رسول الله ﷺ نذير مبين عن الله تعالى وإنما أنذر الناس
بهذا الحديث أي القرآن كما أمره أن يقول (٦ : ١٩) وأوحى إلى هذا القرآن
لأنذركم به (ومن باغ) وهو أكمل كتب الله بيانا ، وأقواها برهاناً ، وأقهرها
سلطاناً ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في إيمانه بغيره ، ومن لم يرو ظلمه الماء النفاخ
المبرد فأى تنبيه برويته ؟ ومن لم يبصر في نور النهار في أى نور يبصر ؟ ثم قال تعالى
﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ هذا استئناف بياني مقرر لجملة هذا السياق ،
ومعنى الجملة المراد أن الله تعالى قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية وإنما
جعله هدى للمتقين وللجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أكمل الرسل
وأقواها برهاناً في حاله وعقله وأخلاقه وكونه أمياً — فمن فقد الاستعداد للإيمان
والهدى بهذا الكتاب ، على ظهور آياته وقوة بيناته ، وبهذا الرسول المتحدى به —
فهو الذي أضله الله ، أى قضت سنته في نظام خلق الإنسان ، وارتباط المسببات
في أعماله بالأسباب ، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال ، وإذا كان ضلاله بمقتضى
سنة الله ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير سنته ولا تبديلها
﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أى وهو تعالى يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم
كالشيء الملقى الذي لا يبالي به حالة كونهم يعمهون فيه أى يترددون تردد الحيرة والغمة
لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، وفي هذا بيان لسبب ضلالهم من كسبهم ، وهو
الطغيان أى تجاوز الحد في الباطل والشر من الكفر والظلم والفجور الذي ينتهي
بالعمه ، وهو التردد في الحيرة والارتباك في الغمة ، وقد روعي في أفراد الضمير
أولاً لفظ من « يضل » وفي جمعه آخرها معناها وهو الجمع ، وظاهره كثرة
وقد علم مما قرأناه أن إسناد الاضلال إلى الله تعالى ليس معناه أنه أجبرهم
على الضلال إجباراً ، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطراراً لا اختياراً
بل معناه أنهم مارسوا الكفر والاضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه
في الطغيان ، ففقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضاعفها من الهدى والإيمان
وقرأ حمزة والكسائي يذرهم باسكان الراء ، فقل هو للتخفيف وقيل للاعراب
بالعطف على جواب الشرط ، وقرأه بعض القراء بالمتون على الالتفات

﴿ تحقيق معنى الفكر والتفكير والنظر العقلي ﴾

من تحقيق المباحث اللفظية في الآيات كلتا الفكر والنظر العقلي وقديريهما بالتفكير في موضوع استنباطه كون النبي ﷺ ليس بمنجونا كازعم بعض غواثهم ، وبالنظر في جملة المملوكات وجزئياته في موضوع الإيمان بما جاء به الرسول من كتاب الله تعالى ، فتبين ذلك بما تظهر به نكتة الفرق بين التعبيرين ، ويشجلي تفسير الآيتين الفكر بالتفكير عبارة عن التأمل في المعاني وتدبرها وهو إسم من فكر يفكر فكرا (من باب ضرب) وفكر بالتشديد وتفكر ، ومثله الفكرة والفكري . وفسرناه أيضاً بأعمال الخاطر وإجابته في الأمور ، وقال الراغب : الفكرة مطرقة للعالم إلى المعلوم . والتفكير جولان تلك القوة بحسب نظر العقل ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روي « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » إذ كان منزها أن يوصف بصورة . ثم أورد الشواهد من الآيات ومنها آية الاعراف هذه . ثم نقل عن بعض الأدباء أن الفكر مقلوب عن الفك ولكنه يستعمل في المعاني ، وهو فك الأمور وبحسب طلبها للوصول إلى حقيقتها . وقال علماء المنطق : الفكر ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي ، وهو ينافي الحكم على ظواهر الأشياء أوفيهما بادى الرأي من غير تحييص ولا تقدير ، واستعمال القرآن للتفكير والتفكير يدل على أنهما في العقلية المحضة أوفى العقلية التي مبادئها حسيات ، فالإنسان يفكر فيما ينبغي أن يقوله في المواقف التي تميز الأقوال ، وفيما ينبغي أن يفعله حيث تنتقد الأفعال ، ويفكر في أقوال الناس وأفعالهم ، ويفكر في الأمور الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية ، ويفكر أيضاً في المبصرات كالسموعات والمعقولات ، وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله ودلائل وجوده ووحدانيته وحكمته ورحمته

وأما النظر فقد قال الراغب في تعريفه : هو تفليص البصر أو البصيرة في إدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرؤية ، يقال : نظرت فلم تنظر ، أي لم تتأمل ولم تتروى ، وقوله تعالى

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض) أى تأملوا . واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة ، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة . اهـ وقد اختلف علماء المعقول من المناطق والمتكلمين في الفكر والنظر، هل هما مترادفان أو أحدهما أخص من الآخر؟ ولهم كلام طويل في ذلك أكثره اصطلاحى غير مقيد باستعمال اللغة . واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلى مبدأ من مبادئ الفكر والتفكير ، كما أن مبدأه هو النظر الحسى فى الغالب كقوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ؟) الخ وقوله (أفلم ينظروا إلى السماء ففوتهم كيف بنيناها ؟) الخ ومنه النظر فى عاقبة الأمم بروية آثارها فى عدة آيات والشواهد على ذلك فى التنزيل صروفة فلا تطيل فى سردها . والآيات التى نحن بصدد تفسيرها جمعت بين المبدأ الحسى وهو ملكوت السموات والأرض والمبدأ الفكرى وهو اقتراب الأجل ، وهما وما فى معناهما يدلان على بناء الدين الإسلامى على قاعدة: النظر العقلى والتفكير اللذين يمتاز بهما الأفراد والأمم بعضها على بعض والله أعلم وأحكم

(١٨٧) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ : أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ؛ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً . يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ؛ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنها ارشاد إلى النظر والتفكير فى أمر الساعة التى ينتهى بها أجل جميع الناس ، فى أثر الإرشاد إلى النظر والتفكير فى اقتراب أجل من كانوا فى عصر التنزيل وعهد نزول هذه السورة منهم ، وبعبارة أخرى أنها كلام فى الساعة العامة ، وبعد الكلام فى الساعة الخاصة . قال تعالى :

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها) الساعة فى اللغة جزء قليل غير معين من الزمان ، وتسمى ساعة زمانية ، ومنه قوله تعالى فى أوائل هذه السورة (٣٣

لا يستأخرون عنه ساعة) وفي اصطلاح الفلكيين جزء من ٢٤ جزءاً متساوية من اليوم واللييلة ، وهى تنقسم إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية - وقد صار هذا التقسيم عرفاً عاماً فى جميع البلاد الحضريّة يضبط بأكّة تسمى الساعة ، وكان معروفاً عند العرب ، وثبتت فى الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » يعنى نهارها . وفى لسان العرب : الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار والجميع ساعات وساع وجاءنا بعد سوع من الليل وبعد سواع أى بعد هذه منه أو بعد ساعة . والساعة الوقت الحاضر ، وقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يعنى بالساعة الوقت الذى تقوم فيه القيامة فلذلك ترك أن يعرف أى ساعة هى . فان سميت القيامة ساعة فعلى هذا . والساعة القيامة . وقال الزجاج اسم للوقت الذى يصعق فيه العباد والوقت الذى يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التى ذكرها الله عز وجل فقال (إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون)

ثم ذكر أنه تكرر ذكرها فى القرآن والحديث وإنما تطلق فى الاصل بمعنىين وهما ما ذكرنا أولاً من الساعة الزمانية والساعة الفلكية ، وقال فى المعنى الأول : يقال جلست عندك ساعة من النهار أى وقتاً قليلاً منه ثم استعير لاسم يوم القيامة . قال الزجاج : معنى الساعة فى كل القرآن الوقت الذى تقوم فيه القيامة يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، فلهذا الوقت الذى تقوم فيه سماها ساعة اه أقول : الصواب أنها استعملت فى القرآن منكرة بمعنى الساعة الزمانية ومعرفة بالالف واللام العهدية بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب هذا العالم وموت أهل الارض ، وجمع بينهما فى قوله تعالى (٣٠ : ٥٤ و ٥٥) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة) وقيل ان هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة والغالب فى استعمال القرآن التعبير بيوم القامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون بعد الموت الذى يكون فيه الحساب وما يتلوّه من الجزاء . والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الاحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضاً ، فالساعة هى المبدأ والقيامة هى الغاية ، فى الأولى

الموت والهلاك ، وفي الآخرة البعث والجزاء . و بعض التعبيرات في كل منها يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب ، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية . وحمل بعض المفسرين الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهي ساعة موته ، وزاد بعضهم القيامة الوسطى وهي هلاك الجيل أو القرن ، وفسروا به حديث « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة » رواه البخاري من حديث أبي هريرة . وقد يراد بالساعة هنا ساعة زوال الدولة لأن هذا من شؤونها واستدلوا عليه بحديث « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً . وفي حديث عائشة من صحيح مسلم : كان الأعراب يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال « إن يمش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » ومثله من حديث أنس عنده أيضاً وهو أصرح من حديث أبي هريرة لإضافة الساعة إليهم . قال الداودي : هذا الجواب من معارضة الكلام فانه لو قال لهم : لا أدري - ابتداء مع ما هم فيه من الجفاء وقبل تمكن الإيمان في قلوبهم - لارتابوا فعدل إلى إعلامهم بالوقت الذي يفرضونهم فيه . وقال الكرمانى : إن هذا الجواب من الأسلوب الحكيم ، أى دعوا السؤال عن وقت القيامة السكبرى فانها لا يعلمها إلا الله ، واسألوا عن الوقت الذى يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم لأن معرفتكم بتمشككم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته لأن أحدكم لا يدري من الذى يسبق الآخر اه وقال ابن الجوزى : كان النبي ﷺ يتكلم بأشياء على سبيل القياس وهو دليل معمول به ، فكأنه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) حمل ذلك على أنها لا تزيد على ماضى قرن واحد ، ومن ثم قال في الدجال « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال في حياته . قال وفيه وجه آخر وذكر مثل ما تقدم عن الداودي ورجحه الحافظ في الفتح .

ومما اختلفوا في تفسير الساعة فيه بالوجوه الثلاثة المذكورة قوله تعالى (٦ : ٣١) قد خسروا الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) وقوله تعالى (٦ : ٤٠) قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير

الله تدعون إن كنتم صادقين ؟) ويراجع تفسيرهما في الجزء السابع .

وحيث يذكر قيام الساعة كآيات سورة الرءم الثلاث (١٠ و ١٢ و ٥٣) وآية سورة غافر (٤٠ - ٤٦) ويوم تقوم الساعة : أدخلوا آل فرعون أشد العذب) فالتبادر منه غايتها يوم البعث والنساب والجزاء . - وحيث يذكر التكذيب بها أو الماراة فيها ، فالمراد المسمى العام لكل ما وعد الله به وأوعد من أمر مبدئها وغايتها وحيث يذكر اقتراب الساعة أو مجيئها وإثباتها ولا سيما إذا قرن بيقنة فالتبادر منه مبدأ القيامة وخراب العالم الذي نعيش فيه ، ومن هذا القبيل السؤال عنها فإن السؤال يكون عن أول الأمر المنتظر في الغالب ، ومنه آية الأعراف التي نحن بسدد تفسيرها فقلوه تعالى ﴿ إيان مرساها ﴾ معناه يسألونك أيها الرسول عن الساعة فائلين إيان مرساها ؟ أي متى إرساؤها وحصولها واستقرارها - أو يسألونك عنها من حيث زمن مجيئها وثبوتها بالوقوع والحصول . فإيان ظرف زمان ، ومرساها مصدر معناه إرساؤها يقال رسا الشيء يرسو ثبت ، وأرساه غيره ، ومنه ارساء السفينة وإيقافها بالمرسة التي تلقى في البحر فتمنعها من الجريان ، قال تعالى (باسم الله مجراها ومرساها) وقال (والجبال أرساها) .

وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الارساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان أو الميدان والاضطراب نكتة دقيقة هي في أعلى درج البلاغة ، وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بمن فيها من العوالم المتحركة المضطربة ، فمعبر بأرسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها ، والساعة زمن وهو أمر مقدر ، لاجسم ساثر أو مسير ، وما يقع فيها ويعبر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال ، لارسواً ولا إرساء ، وهو أمر مستقبل للاحاصل ، ومتوقع لا واقع ، وقوله تعالى (٥٢ : ٦) ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) معناه انه سيقع حتماً ، ولذلك علق به بيان ما يقع فيه بقوله (٨) يوم تمشي السماء مورداً ٩ وتسير الجبال سيرا ١٠ فويل يومئذ للمكذبين) فلم يبق لارساتها معنى الا ارساء حركة هذا العالم فيها . وانه لتعبير بليغ ، لم يمهده في كلام

البلغاء نظير، ولم أر أحدا نبه لهذا . وذكر الساعة أولا والاستفهام عن زمن وقوعها ثانيا على قاعدة تقديم الأهم، وهو المقصود بالذات .

قيل : إن المراد بالسائلين هنا اليهود سألوهم عنها امتحانا قالوا إن كان نبيا فإنه لا يعين لها زمنا لأن الله تعالى لم يطلع على ذلك أحدا من رسله ، وقيل قریش ويرجحه أن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود، وصيغة « يسألونك » المتبادر منها الحال لا الاستقبال البعيد. وفي آية الأحزاب (٣٣: ٦٣) يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تسكون قريبا) وهذه مدنية قال ابن كثير بعد ترجيح كون السائلين من قریش : وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتبكيذيا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (٤٢ : ١٦) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون في الساعة في ضلال بعيد) وقوله (أيان مرساها) قال علي بن طلحة عن ابن عباس : منتهاها . أى متى عطلها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة اهـ

وقيل إنما علمها عند ربى ﴿ قل أيها النذير إن علم الساعة عند ربى وحده ليس عندى ولا عند غيرى من الخلق شيء منه - وهذا يدل عليه لفظ « إنما » من الحصر كما قال تعالى في الآية التي فسر بها النبي ﷺ مفاتيح الغيب (٣١ : ٣٤) إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) أى عنده لا عند أحد سواه - ومثله قوله تعالى (٤١ : ٤٦) إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أمثالها) الآية أى يرد إليه وحده لا إلى غيره . وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم الله تعالى بالساعة بآية الأعراف آيتان : آية الأحزاب (٣٣ : ٦٣) وذكرناها آنفا - وآية وأخر النازعات وما بعدها : (٧٩ : ٤٢) يسألونك عن الساعة أيان مرساها ٤٣ فم أنت من ذكرها ٤٤ إلى ربك منتهاها ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إلى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه منتهى أمر الساعة الذي يسألونك عنه ، وإنما أنت منذر لأهل الإيمان الذين يخشونها ويستعدون لها لا تعدو وظيفة الإنذار والتعليم والإرشاد .

فهذه الآيات كآية الأعراف سؤالاً وجواباً فالسؤال عن الساعة من حيث إرساؤها ومنتهى أمرها، والجواب رد ذلك إلى الرب مضافاً إلى ضحير رسوله فما أخبره به في قوله (إلى ربك منتهاها) هو ما أمره أن يحجب به في قوله (قل إنما علمها عند ربى) وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب ، لا يكون للعبد ، فهو تعالى قد ربه ليكون متذكراً ومبشراً ، لا للاخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها، والالذار إنما يباط بالادلام بالساعة وأهوالها ، والنار وسلاسلها وأغلالها، ولا تتم الفائدة منه إلا بإيهام وقتها . لينعش أهل كل زمن أتيانها فيه . والإعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة بل فيه مفاسد أخرى ، فلو قال الرسول للناس إن الساعة تأتي بعد أنى سنة من يومنا هذا ، مثلاً - وألفاسنة في تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجلا قريباً لرأى المكذبين يستهزئون بهذا الخبر ويلجئون في تكذيبه ، والمرتابين يزغادون ارتباباً ، حتى إذا ما قرب الأجل وقع المؤمنون في حجب عظيم ينقص عليهم حياتهم ، ويوقع الشلل في أعضائهم ، والتشنج في أعصابهم ، حتى لا يستطيعون عملاً ولا يسبقون طعاماً ولا شراباً ، ومنهم من يخرج من ماله وما يملكه ، من حيث يكون الكافرون آمنين ، يستخرون من المؤمنين ، وقد وقع في أوربة أن أخبر بعض رجال الكنيسة الذين كان يقلدهم الجمهور بأن القيامة تقوم في سنة كذا فهاجت القلوب واختلت الأعمال ، وأهدل أمر العيال ، ووقف المصدقون ما يملكون على الكنائس والأديار ولم تهدأ الأنفس ويشوب إليها رشدها إلا بعد ظهور كذب النبأ بمنحى أجله دون وقوعه ، فالحكمة البالغة إذاً في إيهام أمر الساعة العامة للعالم ، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس ، أو بالأعم والأجيال ، وجعلها من الغيب الذى استأثر الله تعالى به ، على ما سئد كرى إيضاحه ، فلذلك قال بعد حصر أمرها في علمه

﴿ لا يعلمها لوقتها إلا هو ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذى يكون إرساؤها فيه ، يقال : جلا لى الأمر وانجلي ، وجلاه نالان تجلية بمعنى كشفه وأظهره أتم الاظهار . واللام الداخلة على وقتها تسبى لام التوقيت كقولهم : وكتب هذا الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو بقين من صفر . والمعنى لا يكشف حجاب اغفاء عنها ولا يظهرها في وقتها المحسوس عند الرب تعالى إلا هو ، فلا

(الأعراف : ص ٧) ثقل أمر الساعة في السموات والأرض وإتيانها بغتة ٤٣٧

وساطة بينه وبين عبادته في إظهارها ولا الإعلام بميقاتها ، وإنما وساطة الرسل عليهم السلام في الإنذار بها .

وتقوى على هذا الإيثاس من علم أمرها والإنباء بوقت وقوعها بقوله في تعظيم شأنها وممر إخفاء وقتها ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ أي ثقل وقعها وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلها من الملائكة والأنس والجن لأن الله تعالى نبأهم بأحوالها ، ولم يشعروا بميقاتها . فوم يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجئهم وقوعه .
روى عن قتادة في تفسيره الجلاء أنه قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون . وقال السدي : خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل . فهذا القولان تفسير لثقلها بقلد العلم بها فان الجهول ثقل على النفس ولا سيما إذا كان عظيماً ، وروى عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (إذا الشمس كورت) و (إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت) و (إذا رجفت الأرض رجاً ﴾ و بست الجبال بساً ﴾ فكانت هباء منبثاً) وغير ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها . وعن ابن عباس في ثقلها : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وليس كل رواية وجه صحيح ، والمتبادر من الجملة ما ذكرناه أولاً وهو يتفق مع جملة هذه الروايات .

﴿ لا تأتكم إلا بغتة ﴾ أي فجأة على حين غفلة ، من غير توقع ولا انتظار ، ولا إشماع ولا إنذار . وقد تكرر هذا القول في التنزيل ، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحاحيين واللفظ للبخاري « ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان توبهما بينهما فلا يتوبانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ^(١) فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يكيط حوضه فلا يسقي فيه ^(٢) ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكله إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم المعتادة . وأبلغ من هذا قوله تعالى في أول سورة الحجج (٢٢ : ١) يأياها الناس اتقوا ربكم إن ذللة الساعة شيء عظيم ٢ يوم

١ « اللقحة اللقحة ذات الدبر » ٢ « يلميط حوضه بالضم من الألط » ملاح حجارته

بالطمان أو شبيهه كإطاصي أو بك الماء . يحفظه ، وإثلاثي منه لاط بالوط

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن حذاب الله شديد)

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ، ويتحروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصي ، ولا يجعلوا حظه من أمر الساعة الجدل . والقيل والقال . وإننا نرى بعض المتأخرين قد شغلوا المسلمين عن ذلك بمبحث افتجره بعض الغلاة وهو أن النبي ﷺ لم يبق طول عمره لا يعلم متى تقوم الساعة كأنه عليه آيات القرآن الكثيرة بل أعلمه الله تعالى به ، بل زعم أنه أعلمه على كل ما في علمه ، فصارع علمه كعلم ربه أي صار نداً وشريكاً لله تعالى في صفة العلم المحيط بالغيوب التي لا نهاية لها ، ومن أصول التوحيد أنه تعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفة من صفاته ، والرسول عبد الله لا يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله تعالى إليه لأداء وظيفة التبليغ وستزداد علماً ببطالان هذا الغلو خاصة في تفسير الآية التالية . ولكن الغلاة يرون من التقصير في مدح النبي ﷺ وتعظيمه أن تكون صفاته دون صفات ربه وإلهه وخالق الخلق أجمعين . فسكذبوا كلام الله تعالى وشبهوا به بعض عبيده لإرضاء لغوهم ، ومثل هذا الغلو لم يعرف عن أحد من سلف هذه الأمة ، ولو أراد الله تعالى أن يعلم رسوله ﷺ بوقت قيام الساعة بعد كل ما أنزله عليه في إختفائها واستئثاره بعلمه لما أكده كل هذا التأكيد في هذه السورة وغيرها كقوله عز وجل :

﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ الخ . يسألونك هذا السؤال كأنك حفي مبالغ في سؤال ربك عنها — أو يسألونك عنها كأنك حفي بهم — فعنها متعلق بيسألونك وجملة « كأنك حفي » معترضة . قال في مجاز الاساس : أحفي في السؤال : ألحف . . . وهو حفي عن الأمر : بليغ في السؤال عنه (كأنك حفي عنها) وقال الأعشى :

فان تسألني عني ، فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا واستحققته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة . وحفي بي فلان ، وحفي بي

حفاوة ، إذا تلطف بك ، بالغ في إكرامك اه . أقول : ومنه قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام (إنه كان بي حفيًا)

وفي تفسير ابن كثير : عن العوفي عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول : كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن عهداً حفي بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا رسولا . وقال قتادة : قالت قریش لمحمد ﷺ إن يبنوا بينك قرابة فأئثر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل (يسألونك كأنك حفي عنها) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدی ، هذا قول ، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره (يسألونك كأنك حفي عنها) قال : استخفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها . وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، قال إنما علمها عند الله . وقال معمر عن بعضهم (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها وقد أخفى الله علمها عن خلقه وقوا (إن الله عنده علم الساعة) الآية قال ابن كثير : وهذا القول أدرج في المعنى من الأول والله أعلم ، ولهذا قال :

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ هذا تكرار للجواب في أثر تكرار السؤال المبالغة في التأكيد والإيضاح من العلم بوقت مجيئها ، وتخطئة من يسألون عنه ، وقد ذكر هنا اسم الجلالة للإشعار بأنه ما استأثر به لعله لذاته ، كما أشعر بمقابلته بأنه من شئون ربوبيته ، وكل منهما مما يستحيل على خلقه ﴿واسكن أكنس الناس لا يعلمون﴾ اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ، ولا أدب السؤال ، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام ، وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها في كتاب الله تعالى وبالسماح من رسوله ﷺ كالذين حضروا تمثيل جبريل عليه السلام بصفة رجل وسأله النبي ﷺ عن الإيمان والاسلام والاحسان ثم عن الساعة . وقول النبي ﷺ له عند السؤال الأخير عما المسؤل عنها بأعلم من السائل . يعني أننا سواء في هذا الأمر لا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة .

فصل فيما ورد في قرب الساعة وأشراطها وما قيل في عمر الدنيا

إن ماورد في بعض الأحاديث من قرب قيام الساعة حتى يقبض من القرآن كآية الأحزاب التي ذكرت قريبا ومثلها آية الشورى (١٧:٤٣) وما يدريك لعل الساعة قريب () وفي معناها قوله تعالى في سياق الرد على منكرى البعث والامامة (٥١:١٧) ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا () وفي التعبير عن قربه بلعل وعسى مايناسب عدم إطلاع الله لرسوله على وقته . ولا شك أن قرب ذلك اليوم الذي مقداره من بعده إلى غاية خمسون ألف سنة مناسب له ، ولما تقدم من عمر الدنيا ربقى منه . فالقرب والبعد من الأمور النسبية والمراد قريبا بالنسبة إلى ماضى من عمر الدنيا ولا يسلمه إلا الله تعالى .

وما جاء في الآثار من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة مأخوذ من الأما إنييلات التي كان بينها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى دوزمه مرفوعا ، وقد اغتر بها من لا ينظرون في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها حتى استنبط بعضهم منها ما بقى من عمر الدنيا . والجلال السيوطي في هذا رسالة في ذلك قد عدها عليه الزمان ، كما هدم أمثالها من التخرصات والأوهام ، وما بث في الأسر إنييلات من السكيد للإسلام قال السيد الألوسي في اثر تفسير الآية : « وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك » فانه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن اخفاء الأجل الخاص للانسان كذلك . ولو قيل بأن الحكمة التكميلية تقتضى ذلك أيضا لم يبعد . وظاهر الآيات (١) أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها . نعم علم ﷺ قربها على الاجمال ، وأخبر ﷺ به ، فقد أخرج الفردني ومحمد عن أنس مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشهر بالسبابة والوصف (٢) وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا « إنما أهلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وجاء في غير ما أثر أن عمر الدنيا سبعة

(١) الصواب أن نعوض الآيات قطعية في ذلك (٢) الحديث رواه الشيخان أيضا وكأنه غفل عنه .

آلاف سنة ، وأنه عليه الصلاة والسلام بحث في أواخر الألف السادسة ، ومعظم الملة في الألف السابعة .

« وأخرج الجلال السيوطي عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وذكر أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، واستدل على ذلك بأخبار وآثار ذكرها في رسالته المسماة (بالكشف ، عن مجاوزة هذه الأمة الألف) وسمى بعضهم لذلك هذه الألف الثانية بالخضرة لأن نصفها دنيا ، ونصفها الآخر أخرى ، وإذا لم يظهر المهدي على رأس المائة التي نحن فيها ينهدم جميع ما بناء فيها كما لا يخفى ، وكأني بك تراه منهدما اهـ

أقول: نقلت هذا لأن كثيراً من الناس يرجعون إلى هذا التفسير في مثل هذا البحث ، فاحسبت أن يعرف رأيه في المسألة من لم يطالع عليه ، وقد مضت المائة التي كان فيها مؤلفه بإسماها وذهبها وهي المائة الثالثة عشرة من الهجرة ثم مضى زهاء نصف المائة التي بعدها وهي الرابعة عشرة إذ نكتب هذا البحث في سنة ١٣٤٥ ولم يظهر المهدي فأنهدهم والله الحمد ما بناء السيوطي عفا الله تعالى عنه من الأوهام التي جمعها كحاطب ليل ، ولم يعرج في مباحثها على ما كتبه أستاذنا الأكبر الحافظ ابن حجر في نقد رواياتنا . ونحن نورد هنا ما كتبه الحافظ في شرحه لحديث « بعثت أنا والساعة كهاتين » من شرحه للبخاري ، ثم نقف عليه بما يقتضيه المقام بدأ الحافظ شرحه لمعنى الحديث بأقوال محقق العلماء في معنى التشبيه بالاصبعين هل المراد به قرب أحدهما من الأخرى أم التفاوت الذي بينهما في الطول ؟ وما المراد به ؟ والأرجح المختار عندنا من هذه الأقوال أنه ليس بينه ﷺ وبين الساعة أي آخر فهي تليه . ثم قال « ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) ونعم ذلك لأن علم قريبا لا يستلزم علم وقت مجيئها معينا ، وقيل معنى الحديث ليس بيني وبين القيامة شيء هي التي تليها كما تلي السبابة الوسطى . وعلى هذا فلا تضام بين ما دل عليه الحديث وبين قوله تعالى عن الساعة (لا يعلمها إلا هو) اهـ

أقول إن جملة (لا يعلمها إلا هو) قد وردت في قوله تعالى من سورة الانعام (٦: ٢٩) وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) لا في الساعة ولكن ورد في الصحيح تفسير

مفاتيح الغيب بآية آخر سورة لقمان (٣١: ٣٤) أن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الخ فعبارة صحيحة المعنى لا اللفظ ولعله أراد ذلك . ثم قال رحمه الله وأما به :

« وقال القاضي عياض : حاول بعضهم في تأويله أن نسبة ما بين الأصبعين كنسبة ما بقي من الدنيا بالنسبة إلى ماضى وأن جملتها سبعة آلاف سنة واستند إلى أخبار لا تصح ، وذكر ما أخرجه أبو داود في تأخير هذه الأمة نصف يوم وفسره بخمسمائة سنة ، فيؤخذ من ذلك أن الذي بقي نصف سبع وهو قريب مما بين السبابة والوسطى في الطول (قال) وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ، ولو كان هذا ثابتاً لم يقع خلافه

« قلت : قد انضاف إلى ذلك منذ عهد عياض إلى هذا الحين ثلاثمائة سنة^(١) وقال ابن العربي^(٢) قيل : الوسطى تزيد على السبابة نصف سبعها وكلنا الباقي من الدنيا من البعثة إلى قيام الساعة ؟ قال وهذا بعيد ولا يعلم مقدار الدنيا فكيف يتحصل لنا نصف سبع أمد مجهول ؟ فالصواب الاعراض عن ذلك

« قلت : السابق إلى ذلك أبو جعفر بن جرير الطبري فإنه أورد في مقدمة تاريخه عن ابن عباس قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة وقدمه ستة آلاف ومائة سنة ، وأورده من طريق يحيى بن يعقوب عن حماد بن أبي سليمان عن سعيد بن جبيرة عنه ويحيى هو أبو طالب القاضي الانصاري ، قال البخاري منكر الحديث . وشيخه هو فقيه الكوفة وفيه مقال ، ثم أورد الطبري عن كعب الاحبار قال : الدنيا ستة آلاف سنة ، وعن وهب بن منبه مثله ، أراد أن الذي مضى منها خمسة آلاف وستمائة سنة ثم زيفها ورجح ما جاء عن ابن عباس أنها سبعة آلاف . ثم أورد حديث ابن عمر الذي في الصحيحين مرفوعاً « ما أجلكم في أجل من كان قبلكم إلا من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ومن طريق مغيرة بن حكيم عن ابن عمر يلفظ « ما بقي لأمتي من الدنيا إلا كقدار ما إذا صليت العصر » ومن طريق

(١) كان عياض في القرن السادس وابن حجر في القرن التاسع وقد تم كتابه فتح الباري سنة ٨٤٢ وكانت وفاة عياض سنة ٥٤٤ ووفاته هو ٨٥٢ رحمه الله تعالى ورحمنا (٢) هو القاضي أبو بكر المفسر الفقيه المالكي لا ابن عربي الحائمي الصوفي

بجاهد عن ابن عمر « كنا عند النبي ﷺ والشمس على قبة عات مرتفعة بعد العصر فقال : ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من هذا النهار مما مضى منه » وهو عند أحمد بسند حسن ثم أورد حديث أنس « خطبنا رسول الله ﷺ يوماً وقد كادت الشمس تغيب » فذكر نحوه الحديث الأول عن ابن عمر ومن حديث أبي سعيد بمعناه قال عند غروب الشمس « إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كبقية يومكم هذا فيما مضى منه » وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً وفيه على بن زيد بن جده عن وهو ضعيف وحديث أنس أخرجه أيضاً وفيه موسى بن خاف^(١) ثم جمع بينهما بما حاصله : أنه حمل قوله « بعد صلاة العصر » على ما إذا صليت في وسط من وقتها.

« قلت : وهو بعيد من لفظ أنس وأبي سعيد . وحديث ابن عمر صحيح متفق عليه ، فالصواب الاعتماد عليه . وله محالان أحدهما أن المراد بالتشبيه القريب ولا يراد حقيقة المقدار فيه مجتمع مع حديث أنس وأبي سعيد على تقدير ثبوتهما والثاني أن يحمل على ظاهره فيقدم حديث ابن عمر لصحته ويكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريباً . ثم أيد الطبري كلامه بحديث الباب وحديث أبي ثعلبة الذي أخرجه أبو داود ومحمد الحاكم ولفظه « والله لا تعجز هذه الأمة من نصف يوم » ورواته ثقات ولكن رجح البخاري وقفه ، وعند أبي داود أيضاً من حديث سعيد بن أبي وقاص بلفظ « إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند يوم أن يؤخرهم نصف يوم ، قيل لسعد : كم نصف يوم ؟ قال خمسمائة سنة » ورواته مؤثقون إلا أن فيها انقطاعاً ، قال الطبري : ونصف اليوم خمسمائة سنة أخذنا من قوله تعالى (وإن يوماً عند ربك كألف سنة) فاذا انضم إلى قول ابن عباس إن الدنيا سبعة آلاف سنة توافقت الأخبار فيكون الماضي إلى وقت الحديث المذكور ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة تقريباً ، وقد أورد السهيلي كلام الطبري وأيده بما وقع عنده في حديث المستورد وأكده بحديث ابن زمل رفعه « والدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها »

« قلت : وهذا الحديث إنما هو عن ابن زمل وسنده ضعيف جداً أخرجه ابن السكن في الصحابة وقال إسناده مجهول وليس بمعروف في الصحابة وابن قتيبة

(١) لم يقل الحافظ فيه شيئاً وقد وثقه بعضهم وضعفه ابن معين وقال ابن حبان :

في غريب الحديث وذكره في الصحابة أيضاً ابن منده وغيره وسماه بعضهم عبد الله وبعضهم الضحاك ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال ابن الأثير ألفاظه مصنوعة ، ثم بين السهيلي أنه ليس في حديث نصف يوم ما يفي الزيادة على الخمسة قال: وقد جاء بيان ذلك فيما رواه جعفر بن عبد الواحد بلفظ «إن أحسنت أمي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة هو ذلك ألف سنة» وإن أساءت فنصف يوم» قال وليس في قوله «بعثت أنا والساعة كهاتين» ما يقطع به على صحة التأويل الماضي بل قد قيل في تأويله إنه ليس بينه وبين الساعة شيء مع التقريب لجيئها ثم جوز أن يكون في عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر ما يوافق حديث ابن زمل وذكر أن عددها تسعمائة وثلاثة .

«قلت : وهو مبني على طريقة المغاربة في عدد الحروف وأما المشاركة فينتص العدد عندهم مائتين وعشرة ، فإن السنين عند المغاربة بثلاثمائة والصاد بستين وأما المشاركة فالسنين عندهم ستون والصاد تسعون فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعين ، وقد مضت وزيادة عليها مائة وخمسة وأربعون سنة ، فالحل على ذلك من هذه الخيفية باطل ، وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد بالإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فانه لا أصل له في الشريعة وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي ، وهو من مشايخ السهيلي في فوائد رحلته ما نصه : ومن الباطل الحروف المقطعة في أوائل السور وقد تحصل لي فيها عشرون فولا وأزيد ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يضل فيها إلى فهمي إلا أني أقول - فذكر ما لم يخص أنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدولاً متداولاً بينهم لمكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم (ص وحج فصلت) وغيرهما فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشويقهم إلى عثرة وحرقهم على زلة ، فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار فيه (١)

(١) تقول: لو كان لها مدولاً متداولاً لعرف وتقل ، ويسكن في سبب سكوت العرب عن إنكارها علمهم أنها ذكرت لأئمة كالثنية واستصفاء السمع وتوجيه الذهن لما يذكر بعدها كما شرحناه في أول تفسير هذه السورة . وأما عدد أبي جاد فليس بلغوى ولا شرعى بل هو اصطلاح يهودي

« قبان : وأما عدد الحروف بخصوصه فأنما جاء عن بعض اليهود كما سلكه ابن أسحق في السيرة النبوية عن أبي ياسر بن أخطب وغيره أنهم حملوا الحروف التي في أوائل السور على هذا الحساب واستقصروا المدة أول ما نزل « الم والراء » فأنه كذا بعد ذلك (المص وطسم) وغير ذلك قالوا ألست علينا الأسر . وعلى تقدير أن يكون ذلك مراداً فليحمل على جميع الحروف الواردة ولا يمحذف المكرر فإنه ما من حرف منها إلا وله سر يخصه ، أو يقتصر على حذف المكرر من أسماء السور ولو تكررت الحروف فيها فإن السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة وعدد حروف الجميع ثمانية وسبعون حرفاً . وهي الم ستة حم ستة ال خمسة طسم اثنتان المص الم ركيعص طه طس يس ص ق ن فاذا حذف ما كرر من السور وهي خمس من : الم وخمس من حم وأربع من الرو واجدة من طسم بقى أربع عشرة سورة عند حروفها ثمانية وثلاثون حرفاً فاذا حسب عددها بالجل الم في بلغت ألفين وستة وأربعة وخمسين وأما بالجل الم شرق فتبلغ ألفاً وسبعمئة وأربعة وخمسين . ولم أذكر ذلك ليعتمد عليه إلا لابين أن الذي جنح إليه السهيلي لا ينبغي الإعتماد عليه لشدة التخالف فيه .

« وفي الجملة فأقول ما يعتمد في ذلك ما دل عليه حديث ابن عمر الذي أشرت إليه قبل ، وقد أخرج من مصر في الجامع عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال معمر بن باعني عن عكرمة في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال « الدنيا من أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسون ألف سنة لا يدري كم مضى ولا كم بقى إلا الله تعالى ، وقد حمل بعض شراح المسابيح حديث « أن تعجز هذه الأمة أن يؤخرها نصف يوم » على حال يوم القيامة وزيفه الطيبي فأصاب .

وأما زيادة جعفر فهي موضوعة لأنها لا تعرف إلا من جهته وهو مشهور بوضع الحديث وقد كذبه الأئمة مع أنه لم يسبق منه بذلك فالحجب من السهيلي كيف سكنت عنه مع معرفته بحاله . والله المستعان اه سياق الحافظ ابن حجر كله .

(يقول محمد رشيد) أما زيادة جعفر أي ابن عبد الواحد على حديث ابن زعل في عمر الدنيا فهو ما ذكره من حديث اليوم ونصف اليوم في عمر هذه الأمة

فهو موضوع جمع السيوطي بيده وبين حديث ابن زمل المجهول الذي حكم ابن الجوزي بوضعه ومزجها بسائر الروايات في المسألة ولا يصح منها شيء يؤيد مراده فكان رسالته كلها مستنبطة من الخبرين الموضوعين أي المكذوبين علي رسول الله ﷺ ، فتأمل هداك الله تعالى ما يفعل الغرور بظواهر الروايات حتى في أنفس المشتغلين بالحديث كالسيوطي الذي عد من الحفاظ وأنكر ذلك زميلة السخاوي وكلاهما من تلاميذ الحفاظ ابن حجر

وقد علم مما ذكره الحفاظ هنا أن بطلي الاسرائيليات وينبوعى الخرافات كعب الأحبار وروى ابن منبه قد بشا في هذه الأمة خرافة تحديد عمر الدنيا وليس أصله من مخترعائه ما فهو موجود في كتب اليهود حتى فيما يسمونه التوراة ولكنه فيها سبعة آلاف فجعله ستة آلاف غشا للمسلمين ، وما يدرينا أن كل تلك الروايات أو الموقوفة منها ترجع إليهما . فإن الصحابة (رض) لم يكونوا يذكرون ما يستمع بعضهم من بعض ومن التابعين على سبيل الرواية والنقل بل يذكرونه بالتأنيبات من غير عزو غالباً ، وكثير من التابعين كذلك بل أكثر ما روى عن أبي هريرة من الأحاديث المرفوعة لم يسمعه منه ﷺ ولذلك روى أكثره عنه بالمنعنة أو بقوله قال رسول الله ﷺ وأقله بلفظ سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا ، وقد روى عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين ، وثبت أنه روى عن كعب الأحبار ومن هنا نجزم بأن موقوفات الصحابة التي لا مجال فيها للاجتهاد والرأى لا يكون لها قوة المرفوع كما قال المحدثون إلا إذا كانت ليست من قبيل الاسرائيليات

وقد تكلم في مسألة قرب الساعة بعد السيوطي كثيرون ولم يعضم فيها مصنفات كهجة الناظرين والاشاعة ومنهم العلامة السفاريني في كتبه والسيد ابن الأمير النجدي والسيد أبو الطيب صدوق حسن خان في كتبه ومنها كتاب (الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة) وكان معاصراً للسيد محمود الألوسي صاحب تفسير (روح المعاني) وقد نقل عن ابن الأمير وعن الحفاظ ابن حجر ، وقد لخص ابن الأمير كلام ابن جرير وما أورده عليه ابن حجر ، ثم أورد خلاصة كلام السيوطي ورده وذكر أن الحق الواقع بخالفه وهو ما أشار إليه الألوسي بعده إشارة — وهناك ما نقله

عند صاحب الإذاعة السيد أبو الطيب صديق حسن خان المعاصر للأتومي في هذا عقب ما نقله من تعقيب الحافظ علي ابن جرير قال :

(قلت) لما تقارب انقراض القرن التاسع ذكر الحافظ السيوطي أنه وصل إليه رجل في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة في شهر ربيع الأول ومعه ورقة حاصل ما فيها الاعتماد على حديث أنه لا يلبث النبي ﷺ في قبره ألف سنة وأنه أفنى بعض العلماء اعتماداً على هذا الحديث بأن في المائة العاشرة خروج المهدي والدجال ونزول عيسى وسائر الآيات من أشراط الساعة ، ثم قال السيوطي : على أن هذا الحديث باطل ، وأطال الكلام في صدر رسالته التي سماها (الكشف في مجازة هذه الأمة الألف) ثم ذكر أن الذي دلت عليه الآثار أن هذه الأمة تزيد مدة بقائها في الدنيا على ألف سنة ، وأنها لا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، ثم اعتمد ما ذكره ابن جرير أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، قال (ذلك لانه ورد من طرق أن مدة الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة سبعة آلاف سنة ، وأن النبي ﷺ يبعث في آخر الألف السادس وسائق ما قدمناه من أدلة ابن جرير ، بل قال وصحاح ابن جرير هذا الأصل وعقده بابا انتهى .

« قال السيد الأمير (قات) وما كان للسيوطي أن يعرض عن تعقبات الحافظ ابن حجر ، بل كان يتعين عليه ذكرها وإقرارها أو ردها ، فإن تركها لها يوم الناظر في كلامه وسكوته على تصحيح ابن جرير ليس كذلك كما عرفت (١) .

« ثم استند السيوطي في جزمه ببقاء الأمة بعد الألف أقل من خمسمائة سنة إلى آثار ذكرها ، منها ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال « يبقى الناس بعد طواف الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة » وإلى أنه يلبث عيسى عليه السلام أربعين سنة بعد قتله الدجال ثم يستخلف رجل من نعيم يبقى ثلاث سنين وإلى أنه يبقى الناس بعد إرسال الله رجلاً يقبض روح كل مؤمن مائة سنة لا يعرفون

(١) لا بد أن يكون قد سقط من هذا النقل شيء والمعنى أن هذا الترك والسكوت يوم الناظر فيهما أن نقد الحافظ لكلام ابن جرير في غير محله والأمر ليس كذلك .

ديناً من الأديان ، وإلى أن بين الفختين أربعين عاماً ، وإلى أنه ينزل عيسى على رأس مائة سنة فهذه مائة سنة وثلاث وستون سنة ، ونحن الآن في القرن الثاني عشر ويضاف إليه مائتان وثلاث وستون سنة فيكون الجميع ١٤٦٠ وعلى قوله إنه لا يباغ خمسمائة سنة بعد الألف يكون منتهى بناء الأمة بعد الألف ٤٦٣ سنة ويخرج منه أن خروج الدجال أعادنا الله من فتنته قبل انحرام هذه المائة التي نحن فيها وهي المائة الثانية عشرة من الهجرة النبوية انتهى ، وقد توفي ابن الأمير سنة ١١٨٢ .

قال صاحب الإذاعة : « أقول : وقد مضى إلى الآن على الألف نحو من ثلاثمائة سنة ولم يظهر المهدي ولم ينزل عيسى ولم يخرج الدجال فدل على أن هذا الحساب ليس صحيح .

» ثم قال السيد العلامة (قلت) وقد أخرج مسلم والحاكم عن ابن عمر ، رُفِعَا « يخرج الدجال فيمكث في أمي أربعين » انتهى ، هكنا لم يتميز العدد بشيء ولا بالأيام ، ولا بالشهور ، ولا بالسنين ، ولو كانت سنين لكان ظهوره من رأس ستين من هذا القرن ، إلا أنه قد ثبت عند أحمد وابن خزيمة وأبي يعلى والحاكم تعيين الأربعين بلييلة ، فهي أربعون يوماً ، وقال « يوم منها كالسنة ، ويوم كالشهر ، ويوم كالجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » وعلى هذا يكون خروجه في سنة تسع وتسعين من هذا القرن الذي نحن فيه ، وإنما قلنا ذلك لئتم نزول عيسى في رأسها ويبقى عيسى من القرن الثالث عشر أربعين سنة وخليفته ثلاث سنين ، ثم تطلع الشمس من مغربها ويبقى الناس مائة وعشرين بعد طلوعها ، ويحتمل أن المائة التي يبقى الناس فيها لا يعرفون ديناً هي من هذه المائة والعشرين . هذا خلاصة كلام السيوطي في رسالة الكشف ، وفيه ما عرفت ، واستدل على ما ذكره بآثار عن السلف كأنه يقول إنها لا تقال من قبل الرأي فلها حكم الرفع .

(ثم قال) وإذا أحطت علما بجميع ماسقناه علمت بأن القول بتعيين مدة الدين من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه ، وغاية ما فيه آثار عن السلف وإن كانت لا تقال إلا عن توقيف فاعلموا بأخوثة عن أهل الكتاب وفي أسانيد ما مقال ، وقد علم تغييرهم لما لديهم عن الله تعالى وعن رسوله وأهل

الكتاب هم القائلون (إن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ونقل عنهم المفسرون أنهم قالوا إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنهم يعذبون بكل ألف عام يوما من هذه الأيام ، وأنه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عباس أن يهودا كانوا يقولون : مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا من أيام الدنيا في النار ، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب فأمر الله تعالى (وقالوا إن تمسنا النار إلا أياما معدودة — الى قوله تعالى — هم فيها خالدون) انتهى وأكملهم الله فيما قالوه

«واعلم هذا الذي نقله عن السلف من الآثار التي سقناها وساقها ابن جرير والسيوطي في رسالة الكشف مأخوذة من أهل الكتاب إذ لم يثبت بنص نبوي عنه ﷺ بأن مدة الدنيا كذا على أن تلك الآثار القاضية بأن مدتها سبعة آلاف سنة معارضة لما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فلا هي الدنيا أو لها إلى آخرها يوم مقداره خمسين ألف سنة يوم القيامة انتهى . فهذه الآثار متعارضة كما ترى ، وإنما ثبت عنه ﷺ أن بعثته مع آتى قيام الساعة انتهى غلام السيد العلامة محمد بن اسماعيل الأمير رحمه الله

(قال صاحب الإذاعة) «وقد قال الشيخ مرعي في بهجة الناظرين بعد ذكر قول السيوطي في رسالة الكشف مانصه : وهذا مردود لأن كل من يتكلم بشيء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان انتهى .

«وقال في الإشاعة^(١) بعد ذكر قول السيوطي : الذي فهم من الأحاديث أن المهدي يمكث في الأرض أربعين سنة وأن عيسى يمكث بعد الدجال أربعين سنة كما رواه الحاكم عن ابن مسعود ، فإنه ظاهر في الأربعين بعد الدجال وأن بعد عيسى يتولى أمراء منهم القحطاني يتولى إحدى وعشرين سنة ، وإيفرض لبعثتهم الى طلوع الشمس من المغرب عشرين سنة أيضا إن لم يكن أكثر ، فهذه مائة وعشرون سنة ، وهو أن الدجال يمكث أربعين ، فإن لم تكن سنين فلا أقل من مقدار سنين لأن أيامه طوال وأن بعد طلوع الشمس من مغربها يمكث الناس مائة وعشرين سنة وفي رواية أن

الشرار بعد الخیار عشرون ومائة سنة، ورد أيضاً أن المؤمنين يتمتعون بعد ظهورها أربعين سنة ثم يسرع فيهم الموت، فهذه ثلثمائة وعشرون سنة. وقدمضى بعد الألف قريب من ثمانين، فهذه أربعة وإلى تمام هذه المائة تبلغ أربع مائة وثلاثين. وقد مر عن السيوطي أنها لا تبلغ خمسمائة بل أخذ بعضهم من قوله تعالى (فول ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) وقوله (لأناتيكم إلا بغتة) أن الساعة تقوم سنة ١٤٠٧ فان عدد حروف «بغتة» ١٤٠٧ والعلم عند الله، فيحتمل خروج المهدي على رأس هذه المائة ويحتمل أن يتأخر المائة الثانية، ولا يقوتها قطعاً، وإذا تأخر فلا بد أن يبعث الله على رأس هذه المائة من يجدد للأمة أمر دينها، كما ورد في حديث مشهور. وهذه كلها مضافات ورد بها آحاد الأخبار بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف مع شواهد وبعضها بغير شواهد، وغاية ما ثبت بالأخبار الصحيحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت التواتر المعنوي وجود الآيات العظام التي أولها خروج المهدي وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد فاطمة بلاء الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأنه يقاتل الروم في الملحمة ويفتح القسطنطينية، ويخرج الدجال في زمته وينزل عيسى ويصلي خلفه وما سوى ذلك كله أمور مظنونة أو مشكوكه والله أعلم انتهى

(أقول) قد علمت من هذه النقول أنه ليس في عمر الدنيا حديث مرفوع صحيح ولا حسن وأن الروايات فيه إما ضعيفة وإما موضوعة، وأن الراجح أن كل ما ورد فيها من مرفوع وموقوف ومن الآثار فهو من الاسرائيليات التي بنى فيها الأئمة كتب الأخبار وذهب بن منبه وأمثالها، ولو فطن الحافظ ابن حجر لدسائسهما وخطأ من عدلها من رجال الجرح والتعديل لطفاه تلبسهما عليهم لكان تحقيقه لهذا البحث أثم وأكل وقد أشار إلى ذلك حكيم الاسلام الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته عند الكلام في ابتداء الدول والأمم وما بقي من الدنيا قال «فكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بنى اسرائيل مثل كتب الأخبار وذهب بن منبه وأمثالها. وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات مجتمعة» ثم ذكر مباحث السهيلي في كلام الطبري وغير ذلك مما يغني عنه ما تقدم وذكر أيضاً كلام الصوفية في ذلك وظهور كذب الجميع

(الاعراف، ص ٧) كلام ابن حزم في طول عمر الدنيا وجهل من حذره ٤٨١

وكذلك الامام أبو محمد علي بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) لم يعبا بشيء من هذه الروايات في هذه المسألة على طول باعسه وسعة حفظه للأثار وقد سبق القاضي عياضا والقاضي أبابكر بن العربي وابن خلدون في رفضه لما قيل في عمر الدنيا وعجبت كيف غفل الحافظ عن إيراد مقاله في هذه المسألة على سعة اطلاعه. قال بعد ذكر ما كان يقول اليهود والنصارى في بدء الخليقة مانصه:

« وأما نحن - يعني المسلمين - فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح ، بل صح عنه ﷺ خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وقال رسول الله ﷺ « ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود ، أو الشجرة السوداء في الثور الأبيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر - علم أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله . وكذلك قوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى ، وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لأحد سواه - فصيح أنه ﷺ إنما عنى شدة القرب لافضل الوسطى على السبابة إذ لو أراد ذلك لأخذت نسبة ما بين الأصبعين ونسب من طول الأصبع - فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة وهذا باطل ، وأيضا فكان تكون نسبته ﷺ إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشجرة في الثور كذبا ، ومعاذ الله من ذلك ، فصيح أنه ﷺ إنما أراد شدة القرب . وله ﷺ منذ بعث أربعمائة عام ونيف ، والله تعالى أعلم بما بقى للدنيا . فاذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ما سلف لقلته وتغايته بالإضافة إلى ما مضى فهو الذي قاله ﷺ من أننا فيمن مضى كالشجرة في الثور أو الرقة في ذراع الحمار اه كلام ابن حزم

وأقول : هذا كلام الأئمة المحققين فالذين حاولوا تحديد عمر الدنيا ومعرفة وقت قيام الساعة ارضاء لشهوة الاتيان بما يهيم جميع الناس لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة الناطقة بأن الساعة من علم الغيب الذي استأثر الله

تعالى به وأنها تأت بهم بغنة وهم لا يشعرون - أى على غير انتظار من أحد منهم ولا أدنى علم وهذا البلاء كله من دسائس رواة الاسرائيليات وتليبسهم على المسلمين باظهار الإسلام والصالح والتقوى، ومن وضع بعض الاصطلاحات العلمية في غير موضعها ككون كثرة الروايات الضعيفة يقوى بعضها بعضاً فان هذا انما يصح في المسائل التي لا يحتمل إرجاعها إلى مصدر واحد يعنى بنشرها والدعوة إليها، كسألة المهدي المنتظر الذي هو أساس مذهب سياسي كسى ثوب الدين، ألم تر أن رواياته لا تخلو أسانيداً من شيعي، وان الزنادقة كانوا يبشرون الدعوة إلى ذلك تمهيداً لسلب سلطان العرب وإعادة ملك الفرس ؟ وككون كلام الصحابي فيما لا يحل الرأي والاجتهاد فيه له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ، يجب تقييد هذا فيما لا يحتمل أن يكون من الاسرائيليات وهو ما أشار إليه العلامة المجتهد محمد بن اسماعيل الأمير في موضوعنا هذا كما رأيت آنفاً .

هذا وإن لم تقدمي أم الحضارة الأولين من الهنود والصينيين وغيرهم أقوالاً في عمر الدنيا وتاريخ البشر الماضي تذكر فيه الأرقام بألوف السنين وألوف الألوف وقد بنى بعضه على روايات مأثورة عن قدمائهم وبعضه على اصطلاحات فلكية وأوهام تنجمية لا تنفيذ علماء صحيحاً .

وأما علماء الكون في هذا العصر فلمهم منهج في عمر الأرض الماضي ومنهج آخر في تاريخ البشر وآثارهم في القرون الحالية : منهجان علميان مبنيان على ما عرف بالحفر من طبقات الأرض وما كشف من آثار أعمال البشر ومن عظام موتاهم ورفائهم ، وهم يجهزون أن عمر الدنيا الماضي يعد بألوف الألوف من السنين وقد وجدت آثار للبشر فيها منذ مئات الألوف منها ، وذلك ينقض ما في سفر التكوين في المسألتين ، ولكنه لا ينقض من القرآن كلمة ولا حرفاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وكذلك أحاديث الرسول القطعية أو الصحيحة الصريحة القريبة من القطعية ، التي لاشبهة فيها للدسائس الاسرائيلية ، ولا للمكايد الفارسية المجوسية ، واننا نتم هذا البحث به صل وجيز في أشراف الساعة وأماراتها لأننا ألمانا في هذا الفصل بذكر أعمها ، وفيها من الشبهات ما في مسألة عمر الدنيا وقيام الساعة التي هي أماراتها فتقول :

أشراط الساعة وأمارتها

إن للساعة أشراطاً ثبتت في الكتاب والسنة قال تعالى (٤٧: ٢٠) فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ فأنسى لهم إذا جاءهم ذكراهم) (الأشراط جمع شرط بفتح السين كاسباب جمع سبب وهي العلامات والأمارات الدالة على قربها وأعظمها بشعة خاتم النبيين ، بآخر هداية الوحي الإلهي للناس أجمعين ، لأن بعثته ﷺ قد كمل بها الدين ، كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وبكمله تكمل الحياة البشرية الروحية ، وينلونها كمال الحياة البشرية المادية ، وما بعد السكال إلا الزوال ، لأن البقاء في هذا العالم محال ، وقد ورد أن نبينا ﷺ نبي الساعة وتقدم حديث الصحيحين « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقد وردت أحاديث أخرى في أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهورات المادية تتنازع مع الهداية الروحية ، فيكون لها الغلب زمناً ثم تنتصر الهداية الروحية زمناً قصيراً ، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر ، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق ، ولكن في هذه الأحاديث اختلافاً وتعارضاً وما ينافي حكمة الله تعالى في إخفائها وعدم اطلاع الخلق على وقتها وبعضها ظاهر في قرب قيام ساعة دولة العرب أو دولة الإسلام

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في إقبال الدنيا وسعتها من أمارات الساعة حديث جبريل الذي رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب (رض) وفيه أن جبريل عليه السلام لما جاء في صفة رجل غريب وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ليعلم الصحابة (رض) كيف يسألون عن دينهم - ثم سأله عن الساعة قال « فأخبرني عن الساعة ؟ قال ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرني عن أمارتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » وروى هذا السؤال وحده ابن أبي شعبة والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة قال « كان النبي ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت

الحفاة العراة رعاء الشاء رموس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها » قيل معنى ولادة الأمة ربها كثرة السرارى وأولاد السبايا - وكان لهذا طور عظيم في الفتوحات الإسلامية - وقيل معناه أن الملوك والأمراء يكونون من أولاد السرارى لامن أولاد بنات البيوتات العربية في حسن التربية وعلو الأخلاق ، والمراد بصيرورة رعاء (بالهمزة) أى رعاء الغنم وأهل البداوة من أصحاب الثروة والبذخ والقصور العالية أن يكون من هذه الطبقة رؤساء للناس كما في حديث أبى هريرة وهذا قد ظهر أيضاً في أمتنا وفي غيرها من الأمم ، وصار بعض تسود هذه الطبقة وأمثالهم في هذا العصر معدوداً في مثاقبه بعد فساد تربية كثير من أسر الأشراف والنبلاء واستعلائهم على الناس بالباطل ، وكان هذا من أمارات زوال الدولة العربية أو الإسلامية فهو يظهر في علامات الساعة الخاصة لا العامة وأجمع الأحاديث الصحيحة السند فيما يكون قبل الساعة مارواه البخارى من حديث أبى هريرة ، وروى هو وغيره ما ذكر فيه في أحاديث أخرى مفصلة وهذا نصه عن أبى هريرة مرفوعاً (*)

« لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتها واحدة ^(١) وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول

(*) في هذا الحديث أحد عشر شرطاً أوردها البيهقي في البعث في سبعة أحاديث أدمج في الثالث منها قبض العلم وكثرة الزلازل وتقارب الزمان وكثر الهرج فأول كل حديث منها « لا تقوم الساعة حتى » يكون كذا - فاذا عدت « حتى » في هذا الحديث وجدها سبعة - ولذلك قال : أخرج البخارى هذه الأحاديث السبعة عن أبى اليمان عن شعيب الخ واستشكل الحفاظ في القتح عدها سبعة وهو لا منه عن إدماج ٤ أشراط في حديث واحد . ومعنى كلام البيهقي أن ما هنا سبعة أحاديث متفرقة جمعها البخارى في واحد

(١) المراد بالفئتين فئة على الامام الحق وفئة معاوية الباغية - وهذا أول أشراط قيام ساعة لدولة العربية أو الإسلامية المقيدة بالشورى ونصوص الكتاب والسنة

الله^(٢) وحق يقبض العلم^(٣) وتكثر الزلازل^(٤) ويتقارب الزمان^(٥) وتظهر

(٢) من هؤلاء الدجالين في المتأخرين الباب والبهاء الإيرانيان - على أن الثاني ادعى الألوهية - ومسيح الهند القادياني الدجال وأتباعه لا يزالون يدعون النبوة . وفي حديث ثوبان الجزم بعدد الثلاثين مع زيادة « وأنا خاتم النبيين لأنبي بعدى » قال الحافظ أخرجه أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان وهو طرف من حديث أخرجه مسلم ولم يسق جميعه . وذكر روايات أخرى منها حديث عبد الله بن عمرو عن عند أحمد وأبي يعلى وفيه زيادة « قلت ما آياتهم ؟ قال : يأتونكم بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها سنتكم فإذا رأيتهم فاجتنبوهم »

(٣) حديث قبض العلم مفصل في حديث عبد الله بن عمرو في الصحيحين مرفوعاً « أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم - وفي رواية : لم يبق عالماً - اتخذ الناس رؤساء جهلاً لا فصلوا فافقتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » والمراد علم الدين والهداية لا علوم الدنيا والغواية . (٤) في حديث سلمة بن نفيل عند أحمد « وبين يدي الساعة سنوات الزلازل » فيظهر منه أنها تكثر قبيل الساعة بسنوات قليلة عما يهد الناس في كل زمان ، ولا فهي دائماً كثيرة في مجموع الأرض . وللأساعة نفسها زلزلة عظيمة تتقدم الصاخة التي هي الطامة الكبرى . اقرأ (١ : ٢٢) إن زلزلة الساعة شيء عظيم (الخ : ١ : ٩٩) إذا زلزلت الأرض زلزالها (الخ)

(٥) ذكر تقارب الزمان واقترابه في عدة أحاديث في الصحيح وغيرهما مجملًا وأخرج الترمذي من حديث أنس وأحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كشهر والشهر كالجمعة والجمعة كالיום واليوم كاحتراق السمكة » وقد اختلفوا في معنى ذلك هو حسي أو معنوي ؟ وهل المراد الزمان نفسه أو أهله ؟ فقيل إن المراد به استلذاذ العيش ووفرة النعيم حتى لا يشعر الناس بالزمان كما قال الشاعر * وعمر النسر معكم بعض يوم * وقيل المراد به نزع البركة منه وقيل تقارب أهله في قلة الدين الخ ما قالوا ، ويرى بعض أهل هذا الزمان أن المراد قد يكون ما هو حاصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير براً وبحراً وجواً - وهذا أظهر من كل ما قالوه ، وأليق بكونه إخباراً عن غيب لا بحال للرأى فيه ولا يعرف إلا بوحي من الله تعالى وما قالوه يختلف

الفتن^(٦) ويكثر الهرج وهو القتل^(٧) وحتى يكثُر فيكم المال فيفيض حتى يُهمَّ

باختلاف الناس في كل زمان ، فترى مثل القاضي عياض والنووي يرجحان أن معنى الحديث نزع البركة من الزمان ويوافقهما على ذلك الحافظ ابن حجر فيقولون أن الانتفاع باليوم قد صار بمقدار الانتفاع بالساعة . وهو وهم ظاهر ، ونحن نقول أن بعض ما يعمل الآن في ساعة واحدة لم يكن يمكن عمله في يوم وما يعمل في يوم واحد كان يحتاج فيه إلى اسبوع الخ ولو كانت البواخر والقطارات الحديدية والطيارات في عصر الذين كانوا يرحلون من قطر إلى قطر لتلقى الحديث لتيسر لمثل البخاري أن يتلقى في سنة واحدة ما تلقاه في سنين أو عمره كله

(٦-٧) ظهور الفتن وكثرة القتل قد وقع في كل عصر في البلاد الإسلامية وغيرها ، فلا يمكن عدّها من العلامات التي تكون بين يدي الساعة إلا أن أريد بها ساعة ملك الأمة العربية أو الإسلامية فالأمر حينئذ يكون ظاهراً ويكون المراد به ما فصل في أحاديث أخرى كاعتداء الترك وقنابلهم للعرب وسلبهم لمسكهم وأخراجهم من عراقهم وفي ذلك عدة أحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد ومن أصرحها حديث معاوية عند أبي يعلى مرفوعاً « أن الترك تجلّ العرب حتى تلمحها بمنابت الشيخ » يعني بوادي جزيرة العرب — وحديث « أن بني قنطوره أول من يسلب امتي مسلحهم » رواه الطبراني عنه أيضاً قال الحافظ : وكأنّه يريد بقوله « امتي » أمة الدّسب لأمة الدعوة — يعني العرب والله أعلم اهـ وورد أن من اشراط الساعة فتح القسطنطينية وهو في الصحاح قال شيخ شيوخنا العلامة الشيخ محمود نشابة: معناه أن العرب يفتحونها من أشقياء الترك ولم يكن الشيخ من أهل السياسة ولا كان في زمانه شيء من التعادى بينهم وبين العرب ، دعنا فاعلمناه الحكومة التركية في هذا الزمان ، من ترك شرعية الاسلام، وكان مسلمو الترك يحملون الأحاديث على فتح السلطان محمد لها ولكنها صريحة في أن فتحها ينالوه في عهده ظهور الدجال وإذا حمل الهرج وكثرة القتل على ما حدث في هذا الزمان من الفتن ومن كثرة القتل بما استحدثت من آلات الحرب النارية بحيث يقتل في يوم واحد ما لم يكن يمكن حدوثه في سنة أو سنين قبلها لكان أبلغ في الإخبار بالغيب فقد هلك في الحرب الأوروبية الأخيرة زهاء عشرة آلاف الف (١٠ ملايين) في أربع سنين ولم يقع مثل ذلك في عدة قرون قبل هذه الآلات الحديثة.

رب المال من يقبل صدقته^(٨) وحتى يتطاول الناس في البنيان^(٩) وحتى يمر الرجل بقر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه^(١٠) وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)^(١١) ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلميط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها « وتقدم تفسير هذه الجمل الأخيرة .

وفي الأحاديث اشراط وأمارات أخرى بعضها صار عادياً وبعضها غريب ويقول علماءنا أن منه ما وقع ، وباقيه يتوقع ، وفيها تعارض وتناقض ومشكلات حار العلماء في الجمع بينها وإنني أتكلم عنه كلاماً إجمالياً عاماً ، وأبسط الكلام في أهمها بسطاً خاصاً ، ولا سيما أحاديث الدجال والمهدي ، فألق له السمع ووجه إليه النظر ، فهو يحل العبرة لمن اعتبر .

(٨) كثرة المال فسرت بما حدث للمسلمين من الثروة في الفتوحات من عهد الصحابة ويصح تخصيص كثرة بهم إذا كان المراد بالساعة ساعتهم فإن كثرة المال كانت سبباً للترف الذي كان سبباً لزوال ملكهم كغيرهم . وإذا أريد بالساعة العامة فيمكن أن يكون المراد ما ترى مقدماته من كثرة الثروة العامة في العالم .

(٩) التطاول في البنيان تقدم ذكره في حديث جبريل وهو ما حصل منذ قرون كثيرة ويقال فيه ما قلناه فيما قبله ، وقد وصل التطاول فيه الآن إلى أن صارت المباني تناطح السحاب ، ولا يمكن الصعود إليها إلا بالمعارج والمصاعد الكهروبايائية فإذا كانت في مصر لا تزيد على بضعة طبقات في أميركا قد صار البناء الواحد مؤلفاً من عشرات من الطبقات فهذا هو التطاول الذي لم يمهده له نظير من قبل .

(١٠) تمنى الموت حصل ويحصل في أوقات الضيق والبلاء من كل زمان ولا يكون من اشراط الساعة العامة إلا إذا صار عاماً فهو بهذا المعنى من الاشراط المستقبلية (١١) طلوع الشمس من مغربها هو أعظم الاشراط الكبرى بين يدي الساعة وقد تقدم تفصيل القول فيه في تفسير الآية ١٥٩ من أواخر سورة الانعام فيراجع

﴿ نظرة في أشراط الساعة وتقاسيمها ومشكلاتها ﴾

اعلم أيها المسلم الذي يجب أن يكون على بصيرة من دينه أن في روايات الفتن وأشراط الساعة من المشكلات والتعارض ما ينبغي لك أن تعرفه ولو إجمالاً حتى لا تكون مقلداً لمن يظنون أن كل ما يعتمد أصحاب النقل حق ، ولأنهم يظنون أن كل ما يقوله أصحاب النظريات العقلية حق ، فإن الله تعالى يقول (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية ، وقال خاتم رساله ﷺ (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) واني أبين فيه ما يطمئن به قلب القانع بالاجمال ، ويفتح باب التحقيق لطالب التفصيل ، فأقول :

ان العلماء جعلوا ما روي من اشراط الساعة وأماراتها ثلاثة أقسام : ما وقع بالفعل منذ قرون خلت إلى زمن كل من تكلم في ذلك منهم ، وقد عدوه عداً — وما وقع بمضه وهو لا يزال في ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبهن بالرجال والكفر والشرك حتى في بلاد العرب . وما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى — ومن الأولى قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية .

وتنقسم باعتبار آخر إلى ما عهد ويعهد مثله في سلك الأمم من الفتن والفتنال وسعة الدنيا وضيقها ، وقيام الدول وسقوطها ، والفسق من زنا ولواط وسكر ، الخ والابوة والزلازل ، وهذا لا يشعر جماهير الناس بأن له علاقة ما بقيام الساعة الكبرى ، وإلى ما هو غريب غير مألوف كظهور أجوج وأجوج والدجال والمهدي والمسيح وطولوع الشمس من مغربها ، وأما الزلازل والخسوف وظهور النجوم ذوات الاذئاب أو الاذيال ، فقد صارت من الأمور المعتادة المعروفة بين الناس .

وباعتبار ثالث إلى ما هو علامة على قيام ساعة الجليل أو الدولة كذهاب الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله ، وما هو آية على قرب الساعة العامة الكبرى . ويرد من الاشكال على ما ذكر أن ماورد من الاشراط الصغرى المعتاد مثلها التي تقع عادة بالتدرج لا يذكر قيام الساعة ولا تحصل به الفائدة التي من أجلها

أخبر الشارع بقرب قيام الساعة — وأن ماورد من الاشراف الكبرى الخارقة للعادة يضم العالم به في مأمن من قيام الساعة قبل وقوعها كلها فهو مانع من حصول تلك الفائدة ، فالمسلمون المنتظرون لها يعلمون أن لها أشرافاً تقع بالتدرج فهم آمنون من مجيئها بغثة في كل زمن ، وإنما ينتظرون قبلها ظهور الدجال والمهدي والمسيح عليه السلام وأجوج وأجوج ، وهذا الاعتقاد لا يفيد الناس موعظة ولا خشية ، ولا استعداداً لذلك اليوم أو لتلك الساعة ، فما فائدة العلم به إذا ؟ وهل من الحكمة أن تكون فائدتها محصورة في وقوع الرعب في قلوب الذين يشاهدون هذه الآيات الكبرى ولا سيما آخر آية منها ؟ وكيف يتفق هذا وماورد من كون كل رسول كان يخوف قومه وينذرهم الساعة والدجال قبلها ؟ وكيف وقع هذا منهم ولم يصدقوا الواقع ومثله لا يكون بمحض الرأي ؟ وهل كان نبينا ﷺ يريد بالأخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة مدة قرون كثيرة إلى أن تظهر هذه الاشراف ؟ أم كان يتوقع ظهورها بعده في قرنه أو فيما يقرب منه كغيره من الرسل بدليل ماورد من تميز ظهور الدجال في زمنه ، وتصديقه ما حكاه تميم الداري من خبر الجساسة وكون الدجال محبوباً في جزيرة ؟

الاشكال والاشتباه في روايات الدجال

قد تقدم مقالنا ابن الجوزي من كونه ﷺ كان يقدر في هذه المسائل تقديراً ، إذ لم يوح الله تعالى إليه أخبارها تفصيلاً ، وعدم ذلك ماورد في احتمال ظهور الدجال في زمنه وقال النووي في شرح أحاديث ابن صياد من صحيح مسلم : قال العلماء وقصته مشكلة وأمره مشتبه : . . . وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره ، وإنما أوحى إليه بصفت الدجال وكان في ابن صياد قرأتين محتملة ، فذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ولهذا قال لعمر « إن يكن هو فلن تستطيع قتله » اه ولا بأس ببيان ما أشار إليه النووي من الاشكال والاشتباه بشيء من التفصيل

إن أحاديث الدجال مشكلة من وجوه (أحدها) ما ذكرناه آنفاً من مناقها لحكمة إنذار القرآن الناس بقرب قيام الساعة وإتيانها بغثة

(ثانيها) ماذا ذكر فيها من الخوارق التي تضاهي أكبر الآيات التي أيد الله بها أولى العزم من المسلمين أو تفوقها ، وتعد شبهة عليها كما قال بعض علماء الكلام وعند بعض المحدثين ذلك من بدعهم ، ومن المعلوم أن الله ما آتاهم هذه الآيات إلا لهداية خلقه ، التي هي مقتضى سبق رحمته لغضبه ، فكيف يؤتي الدجال أكبر الخوارق لفتنه السواد الأعظم من عباده ؟ فإن من تلك الروايات أنه يظهر على الأرض كلها في أربعين يوماً إلا مكة والمدينة ، وقد روى أبو نعيم في الحلية عن حسان ابن عطية من ثقات التابعين أنه لا ينجو من فتنة الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة . قال الحافظ في الفتح وهذا لا يقال من قبل الرأي فيحتمل أن يكون مرفوعاً أرسله ، ويحتمل أن يكون أخذه عن بعض أهل الكتاب اه وهو الصحيح المختار عندي

(ثالثها) وهو من متعلقات ما قبله أن ما عزي إليه من الخوارق مخالف لسنة الله تعالى في خلقه وقد ثبت بنصوص القرآن القطعية أنه لا تبديل لسنة تعالى ولا تحويل . وهذه الروايات المضطربة المتعارضة لا تصلح لتخصيص هذه النصوص القطعية ولا لمعارضتها

(رابعها) اشتغال بعض هذه الأحاديث على مخالفة بعض القطعيات الأخرى من الدين كتخلف أخبار الرسل أو كونها عبثاً وإقرارهم على الباطل وهو محال في حقهم (خامسها) أنها متعارضة تعارضاً كثيراً يوجب تساقطها كما ترى فيما يلي

فإن ذلك التعارض أن بعضها يصرح بأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى من المحتمل ظهور الدجال في زمنه وأنه يكفي المسلمين حينئذ شره ، وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية (ومنه) أنه كان يشك في ابن صياد من يهود المدينة هل هو الدجال أم لا ؟ وأنه وصف صلى الله عليه وسلم الدجال بصفات لا تنطبق على ابن صياد كما قال ابن صياد نفسه لابي سعيد الخدري (رض)

ومن التعارض أيضاً أنه يصرح في بعض الروايات بأنه يكون معه (أي الدجال) جبل أو جبال من خبز ونهر أو أنهار من ماء وعسل ، كما زواه أحمد والبيهقي في البعث عن رجل من الأنصار وعن جابر بن عبد الله بسند رجاله ثقات مع

مارواه الشيخان واللفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبه قال « ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته وإنه قال لي : ما يضرك منه ؟ قلت لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء . قال « بل هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية مسلم « يقولون إن معه جبال خبز ولحم ونهر من ماء » وقد أولوا هذا لتصحيح ذلك ، ويتأمل قول جابر « يقولون إن معه كذا وكذا » ولم يقل : إنك قلت هذا ومن التعارض أيضا ما ورد من اختلاف الروايات في المسكان الذي يخرج منه ، ففي بعض الروايات أنه يخرج من قبل المشرق على الإيهام . وفي حديث النواس بن سمعان عند مسلم أنه يخرج من خلة بين الشام والعراق . وفي رواية أخرى لمسلم أنه يخرج من أصفهان ، وفي حديث الجساسة عنده أنه محبوب من بدير أو قصر في جزيرة في بحر الشام - أي البحر المتوسط وهو في الشمال - أو بحر اليمين وهو في الجنوب وأنه يخرج منها ، وروى أحمد والحاكم أنه يخرج من خراسان . وقد حاول شراح الصحيحين وغيرهم الجمع بين الروايات المتعارضة في كل مسألة فجاؤوا بأجوبة متكلفة ردها المحققون كلها أو أكثرها ، وفيها من المشكلات غير ما أشرنا إليه ، ولا سيما الروايات في ابن صياد وما كان من حلف عمر بن الخطاب (رض) عند النبي ﷺ إنه هو الدجال وإقراره ﷺ بإياه على ذلك ومتابعة جابر ابن عبد الله بإياه على هذا الحلف كما في الصحيحين عنه .

وقد أجاب بعضهم عن الأخير بأن هذا التقرير قد نقضه النصريح منه (ص) لعمر بخلافه حين قال له « دعني أضرب عنقه فقال إن يكن هو فلن تسلط عليه » الخ الحديث وهو في الصحيح ، وقد رد الحافظ ابن حجر بعض تأويلات الحافظ البيهقي في مولد ابن صياد وصفاته وفي إقرار النبي (ص) لعمر على حلفه ، وعدة قصة تميم الداري مرجحة لكونه غير ابن صياد ، وكون عمر كان يحلف حلفه قبل سماعه لهذه القصة — لهذا أخص هذا الحديث بشيء من التفصيل فأقول : إن فيه عدة مباحث (١) كان تميم الداري من عرب فلسطين (سورية) وقد وصف بأنه كان راهب زمانه وقد جاءه هو وأخوه نعيم المدينة في آخر عهد النبي (ص) سنة تسع من الهجرة وأسلموا وحدث هو النبي ﷺ بحكاية الجساسة الغريبة ، وذكروا أنه كان

بعد إسلامه من العباد ومن القصاصين ولم يذكر لأحد شبهة فيه بل عدوا من مناقبه أن النبي ﷺ روى عنه ، وستعلم ما فيه ، فهذه مقدمة .

(٢) راوية الحديث عنه في صحيح مسلم بطوله ومشكلاته هي فاطمة بنت قيس من المهاجرات وقالت « إن النبي ﷺ جمع الناس في المسجد رجالا ونساء وحديثهم على المنبر بما سمعهم من تميم من هذه الحكاية » وقد رواه عنها الشعبي وحده ، وهو على جلالته قد روى عن كثير من الصحابة الذين لم يروهم ولم يسمع منهم ، ولكن المحدثين أثبتوا على مراسيلهم على أنه صرح بالسماع منها ، وسيأتي من رواه غيرها وغيره (٣) من علل هذا الحديث إذاً أنه من الأحاديث التي تتوفر الدواعي على نقلها بالتواتر

لغرابته بموضوعه ولا اهتمام النبي (ص) به ووجهه الناس له وتحدثه به على المنبر واستشهاده بقول تميم على ما كان حديثهم به قبل إسلامه ، ولسماع جمهور الصحابة له منه (ص) فن غير المعقول أن لا يروى إلا آحاديا ويؤيده امتناع البخاري عن إخرجه في صحيحه لشدة تجرئه ، وقد أجاب الحافظ في الفتح عند شرح حديث جابر في ابن صياد من كتاب الاعتصام عن هذا الاعلال بقوله : ولشدة التباس الأمر في ذلك - أي الاختلاف بينه وبين حديث ابن صياد - سلك البخاري مسلك الترجيح فاقصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم ، وقد توهم بعضهم أنه غريب فرد وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر - أما أبو هريرة فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن الحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله ، وأخرجه أبو داود مختصراً وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة قال الشعبي : فلقيت الحرز فذكره ، وأخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن أبي هريرة .. وأما حديث عائشة فهو في الرواية المذكورة عن الشعبي قال : ثم لقيت القاسم بن محمد فقال أشهد على عائشة حدثتني كما حدثتك فاطمة بنت قيس ، وأما حديث جابر فأخرجه أبو داود بسند حسن من رواية أبي سلمة عن جابر وذكر لفظه .

أقول : إن ما ذكره الحافظ لا ينبغي كون الحديث من الآحاد والمقام مقام التواتر لما ذكرناه من أسباب توفر الدواعي ، ولا ينبغي أيضاً كونه غريباً أيضاً وإن لم يكن فرداً فقد انحصرت الإسنائد لروايته في الشعبي وفي فاطمة بنت قيس . وأما ما رواه

أبو داود من طريق الوليد بن عبد الله بن جميع عن ابن أبي سلمة عن جابر فهو على كونه ليس من الصحيح مختصراً وليس فيه إسناد الحكاية إلى تميم الداري بل لا يزيد لفظ المرفوع فيه عن هذه الجملة «بينما أناس يسرون في البحر فنفد طعامهم فرفعت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز فلقيتهم الجساسة» قال أبو الوليد بن عبد الله فقلت لأبي سلمة وما الجساسة؟ قال امرأة تجر شعر جلدها ورأسها قالت في هذا القصر - فذكر الحديث - وسأل عن نخل بيسان وعن عين زغر؛ قال هو المسيح . فقال لي ابن أبي سلمة أن في هذا الحديث شيئاً ما حفظته ، قال شهد جابر أنه هو ابن صائد وفي نسخة - ابن صياد - فقلت أنه قد مات قال وإن مات . قلت فانه قد أسلم قال وإن أسلم . قلت فانه قد دخل المدينة قال وإن دخل المدينة اهـ سياق أبي داود بحروفه

أقول : وهو لا يقوى تلك الروايات وليس فيه شيء من مشكلاتها المعنوية وغرائبها بل قواه الحافظ بها فجعله حسناً لأجلها وهو يعلم أن الوليد بن عبد الله ابن جميع (بالتصغير) الزهري راويه عن أبي سلمة ضعيف وإن روى عنه مسلم فقد قال هو نفسه (أي الحافظ) في تهذيب التهذيب فيما زاده على أصله أن ابن حبان ذكره في الضعفاء وقال أنه ينفرد عن الإثبات بما لا يشبه حديث الثقات فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به ، وذكر عن الحاكم أنه لو لم يخرج له مسلم لكان أولى اهـ وفي رواية أبي داود عن فاطمة مخالفة لرواية مسلم من وجه آخر لا غرض لنا في ذكره إذ لا نريد استقصاء كل ما في هذه الأحاديث من التعارض والخلاف .

(٤٥٥) من الاشكال المعنوي في هذه الحكاية أن تيمماً وأصحابه الثلاثين كانوا من عرب الشام والمتبادر أنهم ركبوا سفينتهم من بعض نفورهم في البحر المتوسط وقد ذكرت فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال بعد أن سرد للناس الحكاية «فانه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه - أي الدجال - وعن المدينة ومكة . ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن - لا بل من قبل المشرق . ما هو من قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ، ما هو؟ وأوماً بيده إلى المشرق . قالت فحفظت هذا من حديث رسول الله ﷺ اهـ »

فان صح الحديث رواية فهذا التردد من النبي ﷺ في مكان الجزيرة التي ذكرها تميم الداري في أى البحرين هي؟ ثم اضرا به عنهما وجزمه بأنه في جهة المشرق الخ إشكال آخر في متنه ينظر إلى اختلاف الروايات الأخرى في مكان الدجال بعين، وينظر إلى اختلاف الروايات في ابن صياد بالعين الأخرى، وينظر بالعينين كليهما إلى سبب هذا التردد ومنافاته لأن يكون كلامه صلوات الله وسلامه عليه في أمر الدجال عن وحي من الله تعالى وسأنتكلم في سببه في هذا البحث على تقدير صحة الرواية ثم أبى هذه الجزيرة التي رفا إليها تميم وأصحابه في سفينتهم؟ إنها في بحر الشام أو بحر اليمن كما في اللفظ المرفوع - إن صح الحديث - أى الجهة المقابلة لسواحل سورية من البحر المتوسط، أو الجهة المجاورة لشواطئ اليمن من البحر الأحمر، وكل من البحرين قد مسح به البحارة في هذه الأزمنة مسحاً، وجابوا سطوحها طولاً وعرضاً، وقاسوا مياههما عمقاً حقيقاً، وعرفوا جزائرهما فرداً فرداً، فلو كان في أحدهما جزيرة فيها دير أو قصر حبس فيه الدجال وله جساسة فيها تقابل الناس وتنقل إليه الأخبار، لعرف ذلك كله كل الناس، وما قاله شارح المشارق من تنقل الدجال في البحرين أو من الجانب الشامي إلى الجانب اليمني بناء على زعمه أن البحر واحد - وما قاله الحافظ من انتقاله إلى اصفهان ليخرج منها مع سبعين ألفاً من يهودها - كلاهما من الدعوى التي لا أصل لها من النقل، ولان المقبول في نظر العقل، وإنما يستنبطونها للجمع بين الروايات المتعارضة التي يعز عليهم أن يرجعوها إلى قاعدتهم، تعارضت فتساقطت « حتى إن الحافظ رضى لنفسه في هذا الجمع أن يقر قول من قال إن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن ذهب إلى اصفهان الخ وهو يحفظ تلك الروايات الكثيرة في ولادته بالمدينة ونشأته فيها، ثم اسلامه وحججه ثم موته فيها، على انه يحفظ بعض الروايات المضعفة لهذا (٦) في الألفاظ المرفوعة من حكاية الجساسة أن النبي ﷺ لم يقر تماماً على كل ما حكاها، بل على بعضه وهو قوله « فانه أعجبني من حديث تميم انه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه (أى عن الدجال) وعن المدينة ومكة « أى أنه لا يدخلهما. وقوله بعده « ألا انه في بحر الشام أو اليمن، لا بل من قبل المشرق « الخ ما تقدم

آناً وترجيح جميع العلماء روايات جهة المشرق دليل على أنه ليس في بحر الشام ولا بحر اليمن لأن الشام في جهة الشمال من المدينة واليمن في جهة الجنوب منها فلا شيء منهما بمشرق . قال الطيبي : لما تيقن عليه السلام بالوحي أنه من قبل المشرق نفى الأولين ، وظاهر العبارة يدل على أن النبي ﷺ صدق تماماً في أول الأمر ولذلك قال « ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن » بالتأكيد بأن والبدء بأداة الاستفتاح « ألا » ثم كوشف في موقفه بأنه ليس في هذا ولا ذاك ، بل في جهة المشرق

(٧) همنا بجيء اشكال آخر وهو أن نفى النبي ﷺ لبعض قول تميم يبهال الثمة به كاه ، ويحصر عجه ﷺ في شيء واحد منه لا يعرف بالرأى وهو موافقته لما سبق إخباره به ﷺ من ظهور الدجال وكونه لا يدخل مكة ولا المدينة . وإن بقي الإعجاب مما ذكر منه في محله ، وقد يتفصون من هذا بأن الدجال كان قبل اسلام تميم وحديثه قد خرج من تلك الجزيرة التي رآه فيها فذهب إلى اصبهان أو غيرها من المشرق ، ويرده أن ما نقله عنه تميم صريح فيما ينافي ذلك وهو أن وثاقه الشديد إنما يحل عند الاذن له في الخروج وأنه صار قريباً بعد ظهور العلامات التي ذكرها قال : اني أنا المسيح وانى أوشك ان يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان على الخ فعطفه الخروج على الاذن بالفاء والسير على الخروج بالفاء نص في أنهما على التعقيب لافاصل بين هذه ولا تلك ، والأقرب إلى الخروج من كل هذه المشكلات أن تكون الرواية مصنوعة

(٨) ننقل من هذه المبحث إلى مبحث قوى الصلة به وهو إذا لم نعد مافيه من نفى النبي ﷺ لما أثبتته تميم من وجود الدجال في أحد البحرين وفاقاً للعلامة الطيبي الشهير — فهل يجب أن تكون حكايته ﷺ لما حدثه به تميم تصديقاً له ؟ وهل كان ﷺ معصوماً من تصديق كل كاذب في خبر فيعده تصديقه لحكاية تميم دليلاً على صدقه فيها ؟ ويعد ما يرد عليها من إشكال وارداً على حديث له حكم المرفوع ؟ وفي منعه إقراره ﷺ لعمر على حلفه بأن ابن صياد هو الدجال كما تقدم إن ما قالوه في العصمة لا يدخل فيه هذا فالجمع عليه هو العصمة في التبليغ عن

الله تعالى وعن تعمد عصيانه بعد النبوة . قال السفاريني في شرح عقيدته . قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى وليسوا معصومين في غير ذلك . وقال ابن عقيل في الارشاد : إنهم عليهم السلام لم يعصموا في الأفعال ، بل في نفس الاداء . قال ولا يجوز عليهم الكذب في الأقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى . وقال الحافظ العراقي : النبي ﷺ معصوم من تعمد الذنب بعد النبوة بالاجماع ، ولا يعتمد بخلاف بعض الطوائج والحشوية الذين نقل عنهم تجويز ذلك إلخ اهـ ملخصاً وتصديق الكاذب لا يعد ذنباً . وقد ثبت أنه ﷺ كان يصدق بعض ما يفتره المنافقون حتى يخبره الله بما كان من المصلحة اخباره به منه كما وقع في غزوة تبوك وغيرها وصدق بعض أزواجه في القصة المشار إليها في سورة التحريم حتى أخبره تعالى به وبأن من أسر إليها الحديث أفشته وذلك قوله تعالى (قالت من أنباك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير) وتكرر في حديث أهل الافك وضاق صدره به زمناً حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . فعلى هذا لا يكون ذكره ﷺ لقصة تميم في حكم المرفوع الذي يقوله هو ﷺ كما أن ما يقوله ﷺ برأيه وظنه لا يدخل في عموم ما هو معصوم منه وهو تعمد الكذب كما قال ﷺ في مسألة تلقيح النخل « إنما ظننت ظناً فلاتواخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وقال فيها أيضاً « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فأتوا أنا بشر » رواهما مسلم في صحيحه .

وقال المحقق ابن دقيق العيد في مسألة تقريره ﷺ من أوائل شرح الامام : إذا أخبر في حضرة النبي ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي فهل يكون سكوته ﷺ دليلاً على مطابقة ما في الواقع كما وقع لعمر في حلفه على أن ابن صياد هو الدجال فلم ينكر عليه ، فهل يدل عدم انكاره على أن ابن صياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ويستند إلى حلف عمر ، أو لا يدل ؟ فيه نظر ، والاقترب عندي أنه لا يدل لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على

باطل وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة الخ . نقله عنه الحافظ في الفتح ملخصاً

(٩) إن في روايات هذا الحكاية اختلافات أخرى كقوله في أطولها عن نعيم « أنه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من نلم وجذام فلبس بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة » وقوله في رواية أخرى « حدثني نعيم الداري أن أناساً من قومه كانوا في البحر في سفينة لهم فانكسرت بهم فركب بعضهم على لوح من ألواح السفينة فخرجوا إلى سفينة في البحر » وفي رواية « إن بني عم نعيم الداري ركبوا في البحر » وفي رواية « أنه ركب البحر فتاهت به سفينة فسقط إلى جزير فخرج إليها يلتئم المساء فلقى انساناً يبحر شهراً » وهذه الروايات كلها في صحيح مسلم والاختلافات فيها متعددة كما ترى ، وفي سائر الروايات ما يزيد على ذلك

وجملة القول في حديث الجساسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والاشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع ، وأنه على تقدير صحته ليس له كاه حكم المرفوع ، وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال المشكلة التي انتقدها الحافظ في الفتح من جهة صناعة علم أصول الحديث وأعراض المتن أو مخالفتها للواقع ، وعد من علل بعضها احتمال كونها من الاسرائيليات . فقد ذكر ما أخرجه نعيم بن حماد شيخ البخاري في كتاب الفتن من طريق جبير بن نفير وشرح بن عبيد وعمر بن الأسود وكثير بن مرة قالوا جميعاً « الدجال ليس هو بالإنسان وإنما هو شيطان متوق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن لا يعلم من أوثقه سليمان النبي أو غيره ؟ فإذا آن ظهره فك الله عنه كل عام حلقة ، فإذا برز آتته أنان عرض ما بين أذنيها إلى بعون ذراعاً فيضع على ظهرها منبراً من نحاس ويقعد عليه ويتبعه قبائل الجن يخرجون له خزائن الأرض »

قال الحافظ بعد إيراد هذا : (قلت) ولا يمكن معه كون ابن صياد هو الدجال ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب . وأخرج نعيم أيضاً من طريق كتب الأخبار أن الدجال تله أمه بقوص من أرض « تفسير القرآن الحكيم » « ٣٢ » « الجزء التاسع »

كشف له وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان يظهر للناس خوارق كثيرة وغرائب يفتن بها خلق كثير ، وأنه من اليهود ، وأن المسلمين يقاتلونه ويقاتلون اليهود في هذه البلاد المقدسة وينتصرون عليهم ، وقد كشف له ذلك مجلًا غير مفصل ولا يوحى به عن الله تعالى — كما كشف له غير ذلك من الدين — فذكره فتناقله الرواة بالمعنى فأخطأ كثير منهم ، وتعمد الذين كانوا يثبتون الأسرائيليات الدس في رواياته . ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك والله أعلم .

﴿ التعارض والإشكالات في أحاديث المهدي ﴾

وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر ، والجمع بين الروايات فيه أعسر ، والمنكرون لها أكثر ، والشبهة فيها أظهر ، ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتهما في صحيحهما . وقد كانت أكبر مشاركات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ، ومن أعيان الولاية وأولياء الشيطان . لدعوى المهدي في الشرق والغرب ، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب ، وبالبدع والافساد في الأرض ، حتى خرج ألوف الألوف عن هداية السنة النبوية ، ومروق بعضهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية

وقد كان من حق تصديق الجماهير من المتأخرين بخروج مهدي ي مجدد الإسلام وينشر العدل في جميع الأنام ، أن يحملهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبة قوية تنهض بزعامته ، وتساعد على إقامة أركان إمامته ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل تركوا ما يجب للحياة البيضاء ، وحفظ سلطان الله بجمع كلمة الأمة ، وباعداد ما استطاعوا من حول وقوة ، فانسكوا وتواكلوا ، وتنازعوا وتخاذلوا ، ولم يعظم مانزع من ملكهم ، ومناسلب من مجدهم ، انكالا على قرب ظهور المهدي ، كأنه هو المعيد المبدي ، فهو الذي سيرد إليهم ملكهم ، وي مجدد لهم مجدهم ، ويعيد لهم عدل شرعهم ، وينتقم لهم من أعدائهم ولكنه يفعل ذلك بالكرامات وما يؤيد به من خوارق العادات لا بالبواريد أو البتديات الصارخات ولا بالمداغ الصاخات . ولا باللبابات المدمرات ، ولا بأساطيل البحار

السباحات والقواصات ، ولا أساطيل المناطيد والطائرات ، ولا بالغازات الخائفات . وقد كانت الحرب بين خاتم النبيين والمشركون سجالا . وكان المؤمنون ينفرون معه خفايا وثقلا ، فهل يكون المهدي أهدي منه أفعالا ، وأحسن حالا وما لا ؟ كلا

وقد جاءهم النذير ، ابن خلدون الشهير ، فصاح فيهم إن الله تعالى سننا في الأمم والدول والعمران ، مطردة في كل زمان ومكان ، كما ثبت في مصحف القرآن . ومصحف الأكران ؛ ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية ، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من قریش والعنزة النبوية ؛ فان صحت أخبار هذا المهدي فلن يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية ، ولو سمعوا وعقلوا ؛ لسعوا وعملوا ، ولكن استعبدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله تعالى رحمة لهم ، تجاء ما كان في أخباره من القن والنقم فيهم ، وربما أغناهم عن بعض ما يرجون من زعامته إن لم يقنعهم عنه كله

كانت اليهود اغترت مثلنا بظواهر ما في كتب أنبيائهم من الأنبياء بظهور مسيح فيهم يعيد لهم ما فقدوا من ملك داود وسليمان ، فأتسكلوا على ما فهم أخبارهم منها بمحض التقليد الأصم الذي لا يسمع ، الأعمى الذي لا يبصر ، ومضت القرون في إثر القرون وهم لا يزدادون إلا تفرقا وضعفا ، فلما عرفت أجيالهم الأخيرة سنن الله تعالى في العمران طفقوا يستعدون لاستعادة ذلك الملك والسلطان ، بالسمي إلى إنشاء وطن يهودي خاص بهم يقيمون فيه قواعد العمران ، بإرشاد العلوم والفنون العصرية ، التي يتعلمونها بما يحبون من لغتهم العبرانية ، وقد أنشأوا لذلك مصرا ماليا خاصا ، وما زالوا يجمعون لأجله الإعانات بالآلاف وألوف الألوف من الدنانير ، حتى أنهم استمالوا لمساعدتهم في هذا العهد ، أقوى دول الأرض

هذا — والمسلمون لا يزالون يتسكلون على ظهور المهدي ، ويزعم دهاؤهم أنه سينقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلا ، وهم يتلون قوله تعالى (٣٥ : ٤٣) فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، وإن تجد لسنة الله تمويلا . فاذا كان من أشراط الساعة آيات ، وكان زمنها زمن خوارق عادات . فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم ، وإقامة لشرعهم ، وعزة وسلطان في أرضهم ؟

على أنهم أنشؤا في العصور الأولى عصبيات لأجل المهدي ولكنها جاهلية ، بل أنشؤا المهدي المنتظر (عج) نفسه لأجل تلك العصبيات الفارسية المجوسية ، التي كانت تسعى لإزالة ملك الأمة العربية ، وفساد دينهم الذي أعطاهم الملك والقوة ، ولأجل ذلك كثر الاختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأخبار ، جولة واسعة في تلميق تلك الأخبار .
الاختلاف والاضطراب في أحاديث المهدي :

(منها) أن أشهر الروايات في اسمه واسم أبيه عند أهل السنة أنه محمد بن عبد الله وفي رواية : أحمد بن عبد الله ، والشيعية الإمامية متفقون على أنه محمد بن الحسن العسكري وهما الحادي عشر والثاني عشر من أئمتهم المعصومين ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون : أنه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة (مر من رأى) التي تسمى الآن « سامرا » سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين ، وأنه لا يزال في السرداب حياً ، وقد رفع إليه بعض علمائهم المتأخرون أسئلة شرعية في رقع كانوا يلقبونها ، وزعموا أنهم كانوا يحدون فتاواه مدونة فيها ١١ ومسائل هذه الرقع عندهم أصح المسائل والأحكام ١١ وهم كلما ذكروه يقرنون اسمه بحرفي العين والجيم هكذا (عيج) وهما مقتطعتان من جملة : عجل الله خلاصه

وزعمت الكيسانية أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان يفيضان ماء وعسلا ومعه أربعون من أصحابه . فقولهم فيه كقول الإمامية في المهدي ابن الحسن العسكري ، ورضوى بفتح الراء جبل جهنم من أرض الحجاز على مسيرة يوم من ينبع وسبع مراحل من المدينة المنورة . ويقال إن السنوسية يعتقدون أن شيخهم المهدي السنوسي هو الإمام المنتظر . ومنهم من يقول إنه اختفى ، وقد بلغنا أنهم كانوا إذا سئلوا عن موته يقولون : الحى يموت . ولا يقولون أنه قد مات .

وروى عن كعب الأخبار أنه قال : إنما سمي بالمهدي لأنه يهدي إلى أمر خفي وسيخرج التوراة والإنجيل من أرض يقال لها انطاكية ، وفي رواية أخرى عنه إنما سمي بالمهدي لأنه يهدي إلى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام ويدعو

إليها اليهود فيسلم على تلك الكتب جماعة كثيرة. رواها أبو نعيم في كتاب الفتن وروى مثل ذلك عن أبي عمرو الداني ، وإنما هو مأخوذ من تضليلات كعب الأخبار والمشهور في نسبه : أنه علوي فاطمي من ولد الحسن ، وفي بعض الروايات من ولد الحسين ، وهو يوافق قول الشيعة الإمامية ، وهنالك عدة أحاديث مصرحة بأنه من ولد العباس (منها) ما رواه الرافعي عن ابن عباس أنه عليه السلام قال للعباس « ألا أبشرك يا عم ؟ إن من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدي في آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفى نيران الضلالة ، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم » ومن حديث ابن عباس ذكر عنه مرفوعاً أيضاً « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثاً) يا عم أما علمت أن المهدي من ولدك موقفاً مرضياً » قال ابن حجر : رجاله ثقات ، وفي معناه أحاديث أخرى لأبي هريرة وأم سلمة وعلي وفي حديثه التصريح بأن المراد بالمهدي ثالث خلفاء بني العباس .

وفي معناه حديث أبي هريرة المعروف عندهم بحديث الرايات وذكره ابن خلدون من حديث ابن مسعود مرفوعاً « إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيملكون من بعدى بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود » الخ وهو من طريق يزيد بن أبي زياد وهو من شيعة الكوفة ضعفاء الأكثرون وروى له مسلم مقروناً بغيره وقال شعبة فيه : كان رفيعاً ، أي يرفع إلى النبي عليه السلام الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة ، وصرحوا بضعف حديثه هذا . وهنالك أحاديث أخرى في نسبة المهدي إلى العباس . وعن ابن عباس عند البيهقي وأبي نعيم والطبيب البغدادي روايات في التصريح بأن المهدي المنتظر هو العباسي ، وذكر قبله السفاح والمنصور . وأهل الرواية يتكلمون الجعم بين هذه الروايات وما يعارضها باحتمال أن يكون لسكن من العباس والحسن والحسين فيه ولادة بعضها من جهة الأب وبعضها من جهة الأم ، قاله ابن حجر في القول المختصر ، وتبعه الشوكافي وغيره ، ولكن ألفاظ الأحاديث لا تتفق مع هذا الجعم ، على أنه لم يرد في أم المهدي شيء من هذه الروايات على كثرتها .

وسبب هذا الاختلاف أن الشيعة كانوا يسعون لجعل الخلافة في آل الرسول عليه السلام

من ذرية علي رضوان الله عليهم ، ويضعون الأحاديث تمهيداً لذلك ، ففطن لهذا الأمر العباسيون فاستألموا بعضهم ، ورأى أبو مسلم الخراساني وعصبيته أن آل علي يغلب عليهم الزهد ، وأن بني العباس كبنى أمية في الطمع في الملك ، فعمل لهم توسلاً بهم إلى تحويل عصبية الخلافة إلى الفرس ، تمهيداً لإعادة الملك والجوسية ، وحينئذ وضعت أحاديث المهدي مشيرة إلى العباسيين مصرحة بشارتهم (السواد) وأشهرها حديث ثوبان المرفوع في سنن ابن ماجه « يقتل عند كنزكم هذا ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا تصير إلى أحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم — ثم ذكراً لا أحفظه — فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي » قال السندي في حاشيته على ابن ماجه : وفي مجمع الزوائد هذا إسناد صحيح رجاله ثقات . روى الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين اهـ فهو مثال لأصح ما روي في المهدي ولكن في إسناده عبد الرزاق ابن همام الصنعاني الشهير وهو معروف بالتشيع وعمى في آخر عمره فخلط وكان من مشايخه عمه وهب بن منبه وناهيك به — وفي سنده إلى ثوبان أبو قلابة وسفيان الثوري وهما مدلسان وقد عنعننا في هذا الحديث ولم يقلوا إنيهما سمعاه . فإذا أضفت إلى هذا طعن الطاعنين في عبد الرزاق ومنهم ابن عدى القائل : إنه حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ، وما هو أعظم من ذلك من رمى بعضهم إياه بالكذب على مكانته من هذا الفن — وإذا تذكرت مع هذا أن أحاديث الفتن والساعة عامة ، وأحاديث المهدي خاصة ، وأنها كانت مهب رياح الأهواء والبدع ، وميدان فرسان الأحزاب والشيع ، — تبين لك أين تضع هذه الرواية منها

ولما انقضى أمر بني العباس وكانت الأحاديث قد دونت لم يسمع القائلين بظهور المهدي إلا أن يقولوا : إن الرايات السود المروية فيها غير رايات بني العباس على أن خصومهم كانوا قد رووا في معارضتها روايات ناطقة بأن رايات المهدي تكون صفراء ، وروايات في أن ظهوره من المغرب لا من المشرق

قال محمد بن الصامت قلت للحسين بن علي رضي الله عنهما : أما من علامة بين يدي هذا الأمر ؟ — يعني ظهور المهدي — قال : بلى . قلت وما هي ؟ قال هلاك بني

العباس وخروج السفيناني والخسف بالببغاء . قلت جعلني الله فداك ، أخاف أن يطول هذا الأمر . فقال : إنما هو كنظام سلك يتبع بعضه بعضاً ، ورووا عن أمير المؤمنين على رضي الله عنه وكرم وجهه قال : تكون في الشام رجفة يهلك فيها أكثر من مئة ألف يجعلها الله رحمة للمؤمنين ، وعذاباً على المنافقين ، فان كان كذلك فانظروا إلى أصحاب البراذن الشهب والرايات الصفر تقبل من المغرب حتى تحل بالشام ، وذلك عند الجوع الأكبر ، والموت الآخر ، فاذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها (حرسا) فاذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس حتى يستوى على منبر دمشق ، فاذا كان ذلك كله فانظروا خروج المهدي . انتهى الأثر المروي عن أمير المؤمنين ، ونحن نعلم أن ابن آكلة الأكباد لقب معاوية لأن أمه أخرجت قلب حمزة سيد الشهداء رضوان الله عليه يوم قتل في أحد فضغته ، وكانت هذه الرواية قد وضعت فيما يظهر بعد أمير المؤمنين للتبشير بانتقام المهدي من معاوية ثم حملوها على السفيناني الذي كثرت الروايات في خروجه قبل المهدي وقالوا إنه من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفينان ، وأنه أحد الخوارج الذين يتقدمونه بل شرهم ، والآخرون هم الملقبون بالأبقع والأصهب والأعرج والكندي والجرمي والقحطاني ، ولغارس ميدان الخرافات الاسرائيلية كتب الأخبار تفصيلات لخروج هؤلاء ، هي كالتفسير للأثر العلوي الموضوع تراجع في فوائد الفكر للشبخ مرعي وعقائد السفاريني وغيرها

فهذا نموذج من تعارض الروايات وتناقضها في المهدي ولو ذكرنا ما في كتب الشيعة والمتصوفة في ذلك لجئنا بالعجب العجيب ، ونحيط القول فيها لا يتم إلا بسفر مستغنى

خلاصة القول في أشرط الساعة

وجلة القول في أحاديث الفتن ، وأشرط الساعة ، وأماراتها وسبب الاختلاف والتعارض فيها يختصر في المسائل الآتية :

(١) إن النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب كما يأتي في الآية التالية بل هو معلوم من الدين بالضرورة ، وإنما أعلمه الله تعالى ببعض الغيوب بما أنزله عليه في كتابه وهو قسمان ، صريح كأخبار الملائكة والساعة والجنة والنار ، ومستقبط من بيان سنن الله تعالى المنصوصة فيه كقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة) وقوله (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فكان يفهم منها ﷺ ما لا يفهم غيره من الصحابة فمن دونهم علماً وفهماً كما روى عن الزبير (رض) من عدة طرق في آية (واتقوا فتنة) أنهم قرءوها على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يعلمون أنها تقع منهم حيث وقعت في فتنة قتل عثمان وفي يوم الجمل ، والروايات عن الزبير أوردها الحافظ في أول شرح كتاب الفتن من البخاري

(٢) إن الله تعالى أعلمه ببعض ما يقع في المستقبل بغير القرآن من الوحي كسؤاله لربه أن لا يجعل بأس منه بينهم فلم يخطه ذلك وأعلمه أن سنته في خلقه لا تتبدل أى وأن هذا منها. راجع تفسيرنا لقوله تعالى (٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) إلخ ولم يكن ﷺ يعلم أن ذلك من سنته تعالى قبل إعلامه . (٣) انه كان يتمثل له بعض أمور المستقبل كأنه يراه كما تمثلت له الجنة والنار في عرض الحائط ، وكما تمثل له في أثناء حفر الخندق ما يفتح الله لأصحابه من الممالك ، وكما تمثل له الفتن وهو مشرف على أطم من أطام المدينة فقال كفى الصيحين «هل ترون ما أرى ؟ قالوا لا ، قال : طأني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر » وظهر هذا في فتنة قتل عثمان (رض) ومثله حديث الفتن من قبل المشرق وكشفه هذا حق وهو ما يسميه أهل الكتاب : نبوءات ، وقد ظهر منه شيء كثير كالشمس

(٤) إنه ﷺ لم يكن يخبر أصحابه بكل ما يطلع الله عليه من ذلك بل بما كان يرى المصلحة في إخبارهم به موعظة وتحذيراً ، وكان يخص بعض أصحابه ببعضها كما روى في مناقب حذيفة (رض) وما كان كل من سمع منه شيئاً منها يفهم مراده كله ، وإذا كانوا لم يفهموا تأويل بعض آيات القرآن في سنن الله العامة حق الفهم التفصيلي كما تقدم أنفاً عن الزبير (رض) وإذا كان منهم من لم يفهم بعض آيات الأحكام الظاهرة كقوله تعالى (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فلأن يخفى عليهم تأويل ما يخص به بعض الأفراد وهو مما لم يؤمر بتبليغه للناس كافة - لأنه ليس من أصول الدين ولا من فروعه - أولى . وخفاء ذلك على من

بعدم أولى إلا من يقع تأويله في عهدهم كوصفه ﷺ النساء المنتهكتات في هذا العصر بالكسائيات العازيات الخ

(٥) لاشك في أن أكثر الأحاديث قد روى بالمعنى كما هو معلوم واتفق عليه العلماء ، ويدل عليه اختلاف رواة الصحاح في ألفاظ الحديث الواحد حتى المختصر منها ، وما دخل على بعض الأحاديث من المدرجات وهي ما يدرج في اللفظ المرفوع من كلام الرواة . فعلى هذا كان يروى كل أحد ما فهمه ، وربما وقع في فهمه خطأ لأن هذه أمور غيبية ، وربما فسر بعض ما فهمه بألفاظ يزيد بها ، وإذا كان النبي ﷺ لم يطلع الله تعالى على كل ما أطلع الله عليه من هذه المغيبات بالتفصيل ، وكان يجتهد في بعضها ويقدر ويأخذ بالقرآن كما قال النووي وابن الجوزي في تجويزه ﷺ أن يكون ابن صياد اليهودي المعاصر له هو الدجال المنتظر ، وكذا تجويزه أن يظهر في زمنه وهو حتى فهل من الغرابة أن يقع الخلط والتعارض فيما روى عنه بالمعنى بقدر فهم الرواة ؟

(٦) إن العابثين بالاسلام ومحاولي افساد المسلمين وازالة ملكهم من زنادقة اليهود والفرس وغيرهم من أهل الابتداع وأهل العصبية العلوية والاموية والعباسية قد وضعوا أحاديث كثيرة افتروها ، وزادوا في بعض الآثار المروية دسائس دسوها ، وراج كثير منها باظهار روايتها للصلاح والتقوى ، ولم يعرف بعض الاحاديث الموضوعية إلا باعتراف من تاب إلى الله من واضعها ، ولقد كان الاستاذ الامام يقول إن الاسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن ، ولم يكن يتق إلا بأقل القليل مما روى في الصحاح من أحاديث الفتن

(٧) إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يروون عن كل مسلم ، وما كل مسلم مؤمن صادق ، وما كانوا يفرقون في الاداء بين ما سمعوه من النبي ﷺ أو من غيره وما بلغهم عنه بمثل سمعت وحدثني وأخبرني ، ومثل : عن النبي ﷺ أنه قال أو قال رسول الله ﷺ ، كما فعل المحدثون من بعد عند وضع مصطلح الحديث ، وقد ثبت أن الصحابة (رض) كان يروى بعضهم عن بعض وعن التابعين حتى عن كعب الأحبار وأمثاله ، والقاعدة عند أهل السنة أن جميع الصحابة عدول فلا يخل جهل اسم راو منهم بصحة السند ، وهي قاعدة أغلبية لا مطردة فقد كان في عهد النبي

ﷺ مناققون قال تعالى فيهم (٩ : ١٠٢) ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم) مردوا عليه أحكموه وصقلوه أو صقلوا فيه حتى لم يعد يظهر في سيامهم وفجوى كلامهم كالذين قال الله فيهم منهم (٤٧ : ٣١) ولو نشاء لأريناكم فلعرقهم بسيامهم ولنعرقهم في لحن القول)

ولكن البلية في الرواية عن مثل كعب الاحبار . ومن روى عنه أبو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه ، ومنهم المدلسون كقنادة ، وكذا غيره من كبار المفسرين كابن جرير

فكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية، أو يخالف لسنة الله تعالى في الخلق ، أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية ، أو للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينية ، فهو مظنة لما ذكرنا في هذه التنبيهات ، وسبق لنا بيان أكثرها في الكلام على حديث طلوع الشمس من مغربها في تفسير (١٨٥:٦) من أواخر سورة الانعام (ص ٢٠٩ ج ٨ تفسير) فن صدق رواية مما ذكر ولم يجد فيها إشكالا فالأصل فيها الصدق ، ومن ارتاب في كل شيء منها أو أورد عليه بعض المرتابين أو المشككين إشكالا في متونها ، فليحمله على ما ذكرنا من عدم الثقة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات ، أو خطأ الرواية بالمعنى ، أو غير ذلك مما أشرنا اليه ، وإذا لم يكن شيء منها ثابتا بالتواتر القطعي فلا يصح أن يجعل شبهة على صدق الرسول ﷺ المعلوم بالقطع ، ولا على غير ذلك من القطعيات . وامل الله تعالى يبارك لنا في العمر ووفقنا الصرف معظمه في خدمة الكتاب والسنة ، فنضع لاحاديث الفتن وآيات الساعة مصنفنا خاصا بها ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير

(١٨٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ؛

وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ؛

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة

والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية ، وهدمها لقواعد الشرك ومبادئ الوثنية من أساسها . ومناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أمر خاتم رساله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده وأمرها بيده وحده — وأمرهم في هذه أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله تعالى وحده ، وأن علم الغيب كله عنده ، وأن نفى كلامهما عن نفسه ﷺ وذلك أن الذين كانوا يسألونه ﷺ عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضى علم الساعة وغيرها من علم الغيب ، وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالاسلام أن الرسول قد يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرر عن نفسه وعن محب أو يشاء ، أو منع النفع وإحداث الضرر عن يكره أو بمن يشاء . فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضى ذلك ، وإنما وظيفة الرسول التعليم والإرشاد ، لا الخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك بمعامله الله بوجهه ، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن الله تعالى بشر كسائر الناس (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما أمركم الله به) قال عز وجل :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾ أى قل أيها الرسول للناس فيما تبليغه من أمر دينهم : إننى لا أملك لنفسي — أى ولا لغيري بالآولى — جلب نفع ما فى وقت ما ، ولا دفع ضرر ما فى وقت ما ، فوقع كل نفع والضرر نكرتين منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة ، ونفى عموم الفعل يقتضى نفى عموم الأوقات له . ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل إنسان سليم الأعضاء من نفع نفسه وغيره فى بعض الأمور الكسبية ودفع بعض الضرر عنها ، ولذلك حرمت التشريعة الضرر والضرار

وبحجابه عن هذا الاشكال من وجهين (أحدهما) أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا مستقلا بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتعليم الرب الخلاق جلست قدرته وهو المراد بالاستثناء أى لا أملك منهما ﷻ إلا ما شاء الله ﷻ من نفع أقدرنى على جلبه ، وضرر أقدرنى على منعه ، وسخر لى أسبابهما ، أو لإوقات

مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك ، فالعنى المراد على هذا هو بيان عجز الخلق الذاتي وكون كل شيء أوتيه فهو بعشيئة الله تعالى لا يستقل العبد بشيء منه استقلالاً مطلقاً ، ولا هو يملكه بذاته لذاته ؛ بل بعشيئة الله تعالى ، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله بخصوص لعمومه بمقيد لاطلاقه

(الثانى) أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفماً ولا ضرراً لنفسه عنطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الأولى ، مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشريته وما أقدره الله تعالى عليه بمقتضى سنته فى عالم الأسباب والمسببات ، كما أنه لا يملك شيئاً من علم الغيب الذى هو شأن الخالق دون الخلق كما يأتى بيانه فى تفسير الجملة التالية والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكداً لعمومه ، أى لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كان ، فهو كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله) وقوله حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً) وقوله فى خطاب كليمه موسى عليه السلام (إني لا يخاف لدى المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء) الآية .

وهذا الوجه هو المختار عندنا لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووقفهم لطاعته وولايته من الأنبياء ومن دون الأنبياء من الصالحين فجعلهم شركاء الله تعالى فيما يرجوه عبادته من نفع يسوقه إليهم ، وما يخشونه من شر يمسهم فيدعونهم ليكشفه عنهم ، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالاً ، وإما إشراكاً ، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف فى خلقه بما هو فوق الأسباب التى منحها الله تعالى لسائر الناس فصاروا يستقلون بالنفع والضرر منعاً ، وإيجاباً وسلماً ، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبى الأعلى الذى هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره ، ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند الله تعالى كوزراء الملوك وحجابه ووسطاء بينهم وبين من لم يصل إلى رتبتهم ، فالملك المستبد بسلطانه يعطى هذا ويعفو عن ذنب هذا بواسطة هؤلاء الوزراء والحجابه المقربين عنده ، وكذلك رب العالمين يعطى ويمنع ويفر ويرحم وينقم بواسطة أنبيائه وأوليائه برعهم ، فهم شفعاء للناس عنده تعالى

يقر بونهم اليه زانفي كما حكاها التنزيل عن المشركين ، وبيناه في مواضع من هذا التفسير (١)
 وفي مثل هذا التشبيه الوثني وتشميل تصرف الرب العظيم الغني عن عباده
 بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يحتاجون إلى وزراءهم وبطانهم في حمله
 على ما ينبغي له فيهم - قال الله تعالى (فلا تضر بوا الله الأمثال) وبين في هذه
 الآية وأمثالها أن رسل الله تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون الله تعالى في صفة
 من صفاته ، ولا تأثير لأحد منهم في علمه ولا في مشيئته ، لأنها كاملة أولية
 لا يطرأ عليها تغير ، وأن الرسالة التي اختصهم الله تعالى بها لا يدخل في معناها
 إقذارهم على النفع والضرر بساططان فوق الأسباب المسخرة لساكن البشر ولا منحهم
 علم الغيب ، وإنما هي تبليغ وحى الله تعالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم
 ودليلنا على اختيار هذا الوجه : أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود
 فيما يرجون من نفع ويخافون من ضرر ، فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب
 المستحق للعبادة هو من يملك الضرر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالأسباب العادية
 كقوله تعالى (٥ : ٧٩ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً)
 وقوله في عجل بنى إسرائيل (٢٠ : ٨٩ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك
 لهم ضرراً ولا نفعاً ؟) وقوله (٤٨ : ١١ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم
 ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟) وقوله (١٣ : ١٧ قل من رب السموات والأرض ؟
 قل الله ، قل أفأخذكم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟)
 وقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون
 لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً) الآية

فلما كان ملك الضرر والنفع بهذا الإطلاق خاصاً برب العباد وخالقهم ، وكان
 طلب النفع أو كشف الضرر عبادة لا يجوز أن توجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله
 تعالى عظيماً عليهم - أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه
 ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً ، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في توكيده
 فقال تعالى في سورة يونس (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء

الله) الآية ، وقال في سورة الجن (٢٠: ٧٢) قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً وهذه الآية أبلغ وأشمل مما في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بخذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين ، وهما ضدهما بدلالتهما عليهما ، والتقدير : لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا رشداً ولا غواية — فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلاً عليه بانتفاء أظهر منافع القرينة فقال

﴿ ولو كنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾ الخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوءهم ويضرهم ، ويراد بهما هنا الجنس الذي يصدق به بعض أفرادهم وهو الخير الذي يمكن تداركه وتحصيله ، والسوء الذي يمكن الاستعداد لدفعه بعلم ما يأتي به الغد . والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب ، كأنه يقول : لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أعلم الغيب ، ولو كنتم أعلم الغيب — وأقر به ما يقع في مستقبل أيام في الدنيا — لاستكثرت من الخير كالمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة ما يكون في المستقبل من عسرة وغلاء مثلاً وتغير الأحوال ، ولما مسنى السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب ، كشدة الحاجة مثلاً ، ومن أمثلته في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدى لأحلت » رواه الشيخان وغيرهما — يعني لو أنه علم ﷺ ما يحصل من أفرادهم دون أصحابه بسوقه الهدى إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عرفة دونه ، إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدى لما ساق الهدى ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج . ومن أمثلته في الإدارة وسياسة الحرب ما عاتبه الله تعالى عليه من الاعراض عن الأعمى والتصدى للاغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر ، ومن الأذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة ، ولم أر أحداً نبه على هذا النوع من المفسرين .

وفيه وجه آخر أنه مستأنف غير معطوف على ما قبله ، ومعناه : وما مسنى الجنون كما زعم الجاهلون ، فيكون حاصل معنى الآية نفي رفعه إلى رتبة الربوبية الذي افتتن بمثله الغلاة ، ونفي وضعه في أدنى مرتبة البشرية الذي زعمته القواة المعتاة .

وبيان حقيقة أمره ، وما رفع الله تعالى من قدره ، بجمله فوق جميع البشر بوحيه ، ووساطته بينه وبين خلقه ، لكن في التبليغ والارشاد ، لا في انطاق والايجاد ، ولا في تدبير أمور العباد ، فان هذا شأن الربوبية ، وانما هو صلوات الله عليه وسلامه في أعلى مقام العبودية .

ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيرها في أخرى : تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيرها وتقديم الضر عليه في آية سورة يونس المذكورة آنفا . والفرق الحسن لذلك أن آية الاعراف جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها ؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وعموم علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها ، فاقضى ذلك البدء بتقريب ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه ، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمننا وعظم شأن لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يحسه من سوء فيه كالأمثلة التي ذكرناها .

وأما آية سورة يونس فقد وردت في سياق تمارى التكفار فيما أوعدهم الله من العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستمعوا لهم إياهم كما ومبالغة في الجحود ، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضراً كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعاً ، كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب لهم في الدنيا ، فقد أمره الله تعالى أن يبلغهم أن أمر عذابهم تعجيلاً أو تأخيراً لله تعالى وحده ، كما أمره أن يتقى عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات ، ومن ذلك ما ذكره تعالى من مقترحاتهم في سورة الاسراء من تفجير ينبوع في مكة وإيجاد جنة تنفجر الأنهار خلالها فجيراً — أو إسقاط السماء عليهم كسفاً — وهو من العذاب — الخ ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يحجهم عن ذلك بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ؟) وقال تعالى في هذه السورة أيضاً (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلاً) أي موكلأ بأمر ثوابهم وعقابهم منفذاً له ، وقال تعالى في سورة الرعد (وإما نرينك بعض

الذي نعدم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)
وهناك ما ورد في التفسير المأثور في الآية عن تفسير الحافظ بن كثير قال :
« أمره الله تعالى أن ينفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب
المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (علم
الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية ، وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت
من الخير) قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن مجاهد (ولو كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعمات عملا صالحا ،
وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج ، وفيه نظر لأن عمل
رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفي رواية كان إذا عمل عملا أثبتته فجميع عمله كان
على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم إلا أن
يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم
« والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب
لاستكثرت من الخير) أي من المال ، وفي رواية لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح
فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر . وقال ابن جرير وقال آخرون :
معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من المحصية ، ولوقت
الغلاء من الرخص . وقال عبيد الله بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال
لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون وأتقيه . « اه وما قلناه أعم وأصح
هذا وإننا قد بينا في تفسير (٦ : ٥ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله
ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي) أن الغيب قيمان
حقيق لا يعلمه إلا الله وإضافي يعلمه بعض الخلق دين بعض ، وأن هذه الآية
تنفى قدرة الرسول على التصرف في خلق الله تعالى بما هو فوق كسب البشر ،
وتنفى عنه علم الغيب بهذا المعنى ، إلا ما أعلمه الله تعالى به بوحيه لتعلقه بوظيفة الرسالة
كالملائكة والحساب والثواب والعقاب — وأن ما يطلع الله عليه الرسل من ذلك
لا يكون من علمهم السكبي ، بل يدخل في معنى الاجماع على أن النبوة غير مكتسبة
(تفسير القرآن الحكيم) (٣٣) (الجزء التاسع)

أوردنا هنالك قوله تعالى في ذلك من سورة الجن (٧٢ : ٢٧) علم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول — إلى قوله — ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم (الآية) ، واستطردنا إلى تفنيد ما يدعيه بعض مشايخ طرق الصوفية أو يدعى لهم من علم الغيب والتصرف في ملك الله أحياءاً أو أمواتاً بما أغنى عن إعادته هنا ^(١) ثم أطلنا البحث في علم الغيب في تفسير (٥٩ : ٦) وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو (الآية) ، وتكلمنا فيه عن الكشف وغير ذلك من معرفة بعض الأمور المستقبلية المتعلقة بمسألة الغيب الاضافي أو التي لا يصح أن تسمى غيباً لأن لها أسباباً فطرية ^(٢) . وفي الكلام على أشرار الساعة الذي مر بك قريباً بحث فيما أطلع الله عليه رسوله بمادون الوحي من بعض الحوادث المستقبلية كتتمثل الأشياء له تمثلاً متفاوتاً في الوضوح . وهو لا يعارض هذه الآية كما علمت

﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا بيان مستأنف لتعليل ما تقدم من نفى امتياز عليه السلام على البشر بملك النفع والضرم غير طرق الأسباب وسنن الله في الخلق . ونفى امتيازهم عليهم بعلم الغيب ، عللها ببيان حصر امتيازهم عليهم بالتبليغ عن الله عز وجل . والتبليغ قسمان : قسم مقترن بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي وهو الإنذار ، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الإيمان والطاعة ، وهو البشارة أو التبشير ، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الإطلاق والآيات فيه كثيرة ، ويوجه أيضاً إلى من يؤمن وإلى من يصر على كفره وإجرامه مطلقاً ، وإذا ذكر الفريقان جميعاً في سياق واحد يخص الكافرون بالإنذار والمؤمنون الصالحون بالتبشير ، وقد ذكر في أول سورة الكهف الإنذار المطلق بالقرآن ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات وإنذار متخذ الولد لله تعالى من الكافرين . ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى في آخر سورة مريم (لبشرب به المتقين وتنذر به قوماً لئلاً) وفي معناها آيات أخرى في المقابلة كما نرى في أوائل سورتي البقرة والاسراء ، ولكن بدون ذكر لفظ الإنذار . والتبشير لا يوجه إلى الكافرين والجرمين بلقبهم إلا بأسلوب التهكم كقوله تعالى

(فبشرهم بعذاب أليم) على القول المشهور الذى عليه الجمهور ، وأما الانذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله فى سورة طاهر (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وقوله فى سورة يس (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم)

بناء على هذا قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (لقوم يؤمنون) متعلق بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بانذاره فيزيدهم خشية الله واتقاء لما يسخطه ، وبتبشيرهم فيزدادون شكراً له بعبادته وإقامته سننه . وقال بعضهم إنه متعلق بالثانى المتصل به ، ويدل على حذف مقابله فيما قبله . والتقدير : ما أنا إلا نذير للكافرين و بشير المؤمنين ، ووجه أن المقام مقام التبليغ ، وهنالك وجه ثالث وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصلها بهم ، والانذار عام لهم ولغيرهم ، وقد عرف وجهه مما فصلناه

وقد ورد فى مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالانذار والتبشير بلفظيهما معاً أو بأحدهما و بلفظ التبليغ الجامع لهما آيات كثيرة بعضها بالاثبات بعد النفى كما هنا وبعضها بانها ، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية الدلالة ، ومع هذا التكرار والتوكيد كله يأتى غلاة الإطراء للرسول ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توهمها إلا أن يشركهم مع الله سبحانه وتعالى فى صفات ربوبيته وأفعاله قال تعالى فى سورة سبأ (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال فى سورتي الاسراء والفرقان (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) وقال فى سورتي الانعام والكهف (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) وقال فى سورة النحل (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) وفى سورة يس حكاية عن الرسل (وما علينا إلا البلاغ المبين) وفى سورتي النور والعنكبوت (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)

فإن قيل : إن الحصر فى هذه الآيات وأمثالها إضافى فإن من وظائف الرسل بيان الوحي والحكم بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وقال عز وجل (وأنزلنا إليك الذكركلتبين للناس ما نزل إليهم) والبيان يكون بالأفعال كالأقوال بل الأفعال أقوى دلالة وأعصى على تأويل المحرفين . وكما قد

أمر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه ، أمر بالتأسي به في هديه وسنته (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) قلنا : إن هذا لا ينافي الحصر الحقيقي لأن التبليغ للدين الله وشرعه لا يتم إلا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه فهو ، داخل في التبليغ وبيان الوحي .
وجملة القول : أن الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون ، لا يشاركونه في صفاته ولا في أفعاله ، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره ، وهم بشر كسائر الناس لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وخواصهم ، وإنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالاته لعباده ، وبما زكاهم وعصمهم فأعلمهم لأن يكونوا أسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاءوا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق .

(١٨٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا صَلِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٩٠) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١) أَلَيْسَ لَكُمْ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٣) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُواكُمْ ؛ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ

افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما أنزل الله . والنهي عن اتباع أولياء من دونه ، وتلاوة التذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين ، والعداوة بينه وبين الشيطان ، ثم اختتمت بهذه المعاني ، وهو التذكير بالنشأة الأولى والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان ، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن ، قال تعالى

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ أى خلقكم من جنس واحد أو حقيقة واحدة صورها بشرا سوريا ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سكونا زوجيا، أى جعل لها زوجا من جنسها فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) كما أنه خلق من كل جنس وكل نوع من الأحياء زوجين اثنين قال عز وجل (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وإنا نشاهد أن كل خلية من الخلايا التى ينمى بها الجسم الحى تنطوى على نوييتين ذكر وأنثى يقتربان فيولد بينهما خلية أخرى ، وهلم جرا ، ونعلم أيضا كيف يتكون فى الأرحام كل من الزوجين كما قال تعالى (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى) ولكننا لا ندري كيف ازدوجت النفس الأولى بعد وحدتها فسكانت ذكرا وأنثى ، قال تعالى (ما أشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وفى التوراة التى عند أهل الكتاب أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم وقد أمرنا نبينا ﷺ أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم وأى فيما لا نص فيه عندنا لاحتماله ، فنحن نعمل بأمره ﷺ فى هذا الخبر ، وإن حمل عليه بعض المفسرين وغيرهم حديث « استوصوا بالنساء فان المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » رواه الشيخان من حديث أبى هريرة مرفوعا . فان المتبادر منه الذى اعتمدته الشراح فى تفسيرهم ان المراد بخلافها منه أنها ذات أعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل كما يشير اليه ما رواه ابن حبان عن أبى هريرة « أن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وقال الحافظ فى شرحه من الفتح: قيل فيه إشارة الى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل من ضلعه القصير أخرجه ابن اسحاق وزاد اليسرى من قبل أن يدخل الجنة وجعل مكانه لحم ، ومعنى خلقت أى أخرجت كما تخرج النخلة من النواة اه فتأمل جعل الحافظ المسألة من باب الإشارة وحكايته لها بصيغة التضعيف ، وما ذكره من تفسيرها الغريب بتشبيه خلق الإنسان بخلق النباتات ، وظاهره أنه لم يطلع على سعة حفظه على قول لمن لم يعتد بأقوالهم من علماء السلف ومحققى الخلف فى المسألة ، ونذكر أن الله تعالى خاطب الناس فى عصر

التنزيل بمثل ما حكاه لهم في هذه الآية عن نشأة جنسهم في كونه تعالى خلق لهم أزواجا من أنفسهم فقال في بيان آياته من سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهذا المعنى عام لا خاص بالإنسان الأول .

عبر التنزيل عن ميل الزوج الجنسى إلى جنسه هنا وفي سورة الروم بالسكون وذلك أن المرأة إذا بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا خاصا لا يسكن إلا إذا اقترن بزوجة من جنسه واتحد ذلك الاقتران والاتحاد الذى لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به ، ولذلك قال بعده ﴿ فلما تغشاها ﴾ الخ الغشاء غطاء الشيء الذى يسترد من فوقه ، والغاشية الظلة تظله من سحابة وغيرها (والليل إذا يغشى) أى يحجب الأشياء ويسترها بظلامه ، وتغشاها أتاها كغشيها ويريد ما تعطيه صيغة التفعّل من جهد ، وهو كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية تشير إلى أن مقتضى الفطرة وأدب البشرية فيها السترو لفظ النفس مؤنث فأنث فى أول الآية ، ولفظ الزوج يطلق على الذكر والأنثى ولهذا ذكر هنا فاعل النعشى وأنث مفعوله . أى فلما تغشى الزوج الذى هو الذكر الزوج التى هى الأنثى ﴿ حملت حملا خفيفا ﴾ أى علقت منه وهو الحمل ، والحمل بالفتح يطلق على المصدر وعلى المحمول والمشهور أنه خاص بما كان فى بطن أو على شجرة وأن ما حمل على ظهر ونحوه يسمى حملا بكسر الحاء . والحمل هاهنا يحتمل المعنيين ، وهو يكون فى أول العهد خفيفا لانكاد المرأة تشعر به . وقد تستبدل عليه بارتفاع حيضتها ﴿ فرت به ﴾ أى فضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق كما قاله الزمخشري أو استمرت فى أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئقال ﴿ فلما أثقلت ﴾ أى حال وقت ثقل حملها وقرب وضعها ﴿ دعوا الله

رهبما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴾ أى توجهوا إلى الله تعالى رهبما يدعوانه فيما انحصر ههما فيه بمد تمام الحمل على سلامة بأن يعطيها ولدا صالحا أى سويا تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال البشرية النافعة — ولا ينبغي أن يدعو العبد غير

ربه ، فيما لا يملك هو ولا غيره من العبيد أسبابه ، دعواه مخلصين مقسمين له على ما وطنا عليه أنفسهم من الشكر له على هذه النعمة فائدين لئن أعطيتنا ولدنا لخالنا لنتكون من القائمين لك بحق الشكر قولاً وعملاً واعتقاداً وإخلاصاً ، كما يدل عليه الوصف المعروف

﴿ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ أى فلما أعطاهما ولدا صالحا لا نقص في خلقه ، ولا فساد في تركيبه ، جعلا له شركاء في إعطائه أو فيما أعطاه بأن كان سبباً لوقوع الشرك منهما أو ظهور ما هو راسخ في أنفسهما منه ، وستبين معناه وقرأ نافع وأبو بكر (جعلا له شركاء) أى شركة أو ذوى شرك ، فالعنى واحد .

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أى تعالى شأنه عن شركهم ، فانه هو معطي النسل بما خلقه لكل من الزوجين من أعضاء ، وقدر لها في العلوق والوضع من أسباب ، لا فعل لغيره في ذلك ألبتة . وجمع الضمير هنا بعد تثنيته الأفعال قبله لأن المراد فيه بالزوجين الجنس لا فردين معينين . وقال الزمخشري : ان الضمير في (آتيتنا) و (لتكونن) لهما ولكل من يقتاسل من ذريتهما ، والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفى والجلي في هذا الشأن وأمثاله ، والجنس يصدق ببعض أنواعه وببعض أفراد

فقال الشرك الخفى في انعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب في سلامة الحامل من الأمراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع ، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه ، وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض ، كقولهم : لولا أن فعلنا كذا لكان كذا ، ولولا فلان أو فلانة من طيب أو مرشد أو قاتلة لهلك الولد أو لاجهضت أمه إجهاضاً ، أو جاءت بسقط لم يستهل ، أو مات عقب اسقاطه لعدم استعداده للحياة . وينسون في هذه الأحوال فضل الله تعالى عليهم بما من به من العافية والتوفيق وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم ، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها — ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم ، أو نعمة يدفعها الله تعالى عنهم ، وهذا الشرك ليس خروجاً من الملة ، والسكنة نقص في شكر المنعم ، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب الله تعالى وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره ، وإبشارهم لهم على

طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام ، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا نقض له ، وغفلة عنه لا جحد به .

ومثال الشرك الجلى : إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعونهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين ، أو الأنبياء والمرسلين ، أو ما يذكر بهم أو يمثلهم من القبور أو الأصنام والتماثيل ، يقولون : لولا سيدي فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب ، أو لسكان كذا وكذا بما فكره ، يعتقدون ان لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب المذكورة عن القسم الأول كما تقدم شرحه مراراً أقربها ما في تفسير الآية السابقة

﴿ فتمتعالى الله عما يشركون ﴾ أى وارتفع مجده ، وتعالى جده ، تنزهاً عن شرك هؤلاء الأغبياء أو عن شركائهم أن يكون لهم تصرف في خلقه ، أو تأثير في صفاته وأفعاله . كنت قرأت منذ سنين جل ما قال المفسرون في تفسير هذه الآيات من كتبهم التى بين أيدينا من مآثور وغيره ، وما أوردوه فيها من الاشكال ، وما لهم في الجواب عنه والتفصى منه من أقوال ، ولما أردت كتابة تفسيرها الآن لم أجد مما فى ذهنى منه شيئاً مرضياً يطمئن به قلبى ، فتوجهت إلى الله تعالى وفكرت فى معناها الذى يعطيه الأسلوب العربى وينطبق على سنة الله فى البشر ، وفى بيان كتابه لحقائق أحوالهم ، فكرت فى ذلك قبل النوم وأنا فى فراشى ، ثم كتبت ما تقدم فى آخر النهار ، ثم بحثت فيما عندى من كتب التفسير لأكتب خلاصة ما قيل فيها ، وانظر فيما عساه يؤيده ، وأجيب عما ربما يفنده ، فاذا أنا بصاحب الانتصاف يقول بعد ذكر ما نقلناه آنفاً من كلمة الزمخشري فى ضميرى الجمع ما نصه : وأسلم من هذين التفسيرين أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى والله أعلم : خلقكم جنساً واحداً وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما تفشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم كقوله تعالى (ويقول الإنسان إن إذا مامت لسوف أخرج حياً) (قتل الإنسان ما أكفره) (إن الإنسان لفى خسر) إهـ

وأما الاشكال الذي أشرنا إليه فهو ماروي عن بعض الصحابة والتابعين وفي حديث مرفوع أيضاً من أن الآية في آدم وحواء فقد أخرج احمد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وغيرهم من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً قال « لما ولدت حواء طاف به إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعماش ، فكان ذلك من وحي الشيطان » وهو على كثرة مخرجه غريب وضعيف كما سيأتي ، وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية ، تشهد عليها بأنها من الدسائس الإسرائيلية ، وهذه الآثار يعدها بعض العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة لأنها لا تنقل بالرأى ، والذي نعتقه وجربنا عليه في التفسير أن كل ما هو منها مظنة للأسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الاحبار وذهب بن منبه فهي لا يوفق بها ، فإن كانت مع ذلك مشتملة على ما ينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا ببطلانها وكونها دسيسة إسرائيلية ، ومنها ما نحن فيه لأن فيه طعنًا صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك ، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكلف آخرون في تأويلها بما تنكره اللغة . وقد اعتمد بعض المتأخرين كصاحب فتح البيان وصاحب روح المعاني الأخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التي فيها ما ليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح ، وظننا أنه حجة ووصفاء تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن والصحيح ، وما هو بحسن ولا صحيح ، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كذلك الآثار .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب في الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدكم ، وأن المراد بجعل زوجها منها أنها قرشية أو عربية لما روي أنها من خزاعة لأم قريش ، وأن المراد بشركها تسمية أبنائها الأربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار — يعني دار الندوة — وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لأنضيع الوقت بذكرها . وإنما الذي يصح أن يذكر ويبين بطلانه فهو الروايات التي اتخذ بها ولا يزال ينخدع بها الكثيرون وعمدتنا في تمحيصها وبيان عللها الحافظ ابن كثير فقد قال في تفسيره ما نصه :

« ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك

ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة : قال الامام أحمد في مسنده : حدثنا
عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ
قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث
فعاث ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن
بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ، ورواه الترمذي في تفسيره
هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب
لا نعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه
ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال هذا حديث
صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن
أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعاً ، وكذا
رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن
ابراهيم به مرفوعاً (قلت) وشاذ هو هلال وشاذ لقبه ، والغرض أن هذا الحديث
معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن ابراهيم هذا هو المصري وقد وثقه
ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به ^(١) ولكن رواه ابن مردويه من
حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً قاله أعلم (الثاني) أنه قد
روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى
حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمي عن عبد الأعلى بن
الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن
الحسن نفسه فسر : الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل
هنا . قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن
(جعلناه شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا في يعض أهل الملل ولم يكن بآدم ،
وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن نور عن معمر قال : قال الحسن عني
بها خربة آدم ومن أشرك منهم بعد . يعني جعلناه شركاء فيما آتاهما ، وحدثنا

(١) وقال أحمد وابن عدي وابن حبان : إنه يروى عن قتادة أحاديث منكورة
لا يوافق عليها ، وقال الدارقطني : ويترك حديثه وقال البزار ليس بالحافظ

بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهو دوا ونصروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لاسيما مع تقواه لله وروعه فهذا يدل على أنه وقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، ألا إننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم .

«فأما الآثار فقال محمد بن اسحاق بن يسار عن دأود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدونهم ويسمونهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيديهم الموت ، فأتاها إبليس فقال : إنكما لو سميتاه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث فففيه أنزل الله يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — لمي قوله — جعلاً له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الآية : وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فرت به) شكت أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) فأتاها الشيطان فقال: هل تدري أن ما يولد لكما ، أم هل تدري أن ما يكون أبهيمه أم لا ؟ وزين لها الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فمات فقال لها الشيطان إنكما إن لم تسمياهن بي لم يخرجن سوياً ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله (فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها) الآية . وقال عبد الله ابن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : (فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها) قال : قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها آدم حملت فأتاها إبليس لعنه الله فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشق ولا فعلن ولا فعلن — يخوفهما — فسمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثانية فأتاها أيضاً فقال :

أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعا فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاها أيضاً فذكر لها فادر كهما حب الولد فسماها عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى (جعلناه شركاء فيما آتاهما) رواد ابن أبي حاتم . « وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كجهاذ وسعيد بن جبير

وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فان ابن عباس رواد عن أبي بن كعب كما رواد ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها : أطيعيني ويسم لك ولدك سمية عبد الحارث ، فلم تفعل فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : إن تطيعيني يسلم وإلا فانه يكون بهيمة . ففهيها فأطاعا .

« وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبرهم على ثلاثة فمنها ما علمنا محتمة بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج » وهو الذى لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثانى أو الثالث ؟ فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابى أو تابعى فانه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون) ثم قال : فذكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ، ومعلوم أن المصابيح هى النجوم التى زينت بها السماء

ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصاييح إلى جنسه ولهذا
نظائر في القرآن والله أعلم. اهـ سياق ابن كثير. وقد أصاب كنه الحقيقة في قوله
إن هذه الآثار مأخوذة من الاسرائيليات؛ ولما كانت طعنا في عقيدة أبونا آدم
وحواء عليهما السلام بما تبطله عقائد الإسلام، وجب الجزم بطلانها وتكذيبهم فيها.

ثم بين تعالى سخافة عقولهم وأفن آرائهم بهذا الشرك فقال ﴿أيشركون
مالا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾ الاستفهام للانكار والتجهيل، أى يشركون به
سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولأولادهم، وليسكل شيء مالا يخلق شيئا من الأشياء
مهما يكن حقيراً، كقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا
ولو اجتمعوا له) وليس قصارى أمرهم أن الخلق لا يقع منهم، بل هو يقع عليهم،
فهم يخلقون آنا بعد آن، ولا يليق بسلیم العقل أن يجعل الخلق العاجز شريكا
للخالق القادر والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام والتمثيل كافة،
ومنهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم ومن يجيء بعدهم، فقوله
(مالا يخلق شيئا) يراد به أصنامهم لأن «ما» لما لا يعقل ولفظها مفرد وهو من
صيغ العموم فأفرد الضمير في «يخلق» مراعاة للفظ ثم جمع في «يخلقون» مراعاة
للمعنى، وجعله ضمير العقلاء من قبيل الحكاية لاعتقادهم، والتعبير بفعل المضارع
«يخلقون» لتصوير حدوث خلقهم، وكون مثله مما يتجدد فيهم وفي أمثالهم من
المشركين، وهذا أسوأ فسادهم في الشرك

﴿ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾ أى وهم على كونهم
مخلوقين غير خالقين لشيء لا يستطيعون لعبادتهم نصراً على أعدائهم، ولا يستطيعون
لأنفسهم نصراً على من يعتدى عليها بإهانة لها، أو أخذ شيء من طيبها أو حليها، كما
قال (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) أى
فهم يحتاجون إليكم في تكريمهم، وأنتم لا تحتاجون إليهم، بل أنتم الذين تدفون
عنهم وتنصرونهم بالنضال دونهم ﴿وإن تدعوم إلى الهدى لا يقبعمكم﴾
قرأ نافع «لا يقبعمكم» بالتخفيف والباقيون بالتشديد أى وإن تدعوم إلى

ما هو الهدى والرشاد في نفسه لا يتبعوكم ، فلا هم ينفعونكم ولا هم ينتفعون منكم
أو المعنى وإن تدعوهم إلى إفادتهم لا يستجيبون لكم ﴿ سواء عليكم أَدْعَوْتُهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ أى مستو عندهم دعاؤكم وإياهم وبقاؤكم على صمتكم ، ولعله لم
يقُل : صمتهم ، أو تصمتون ، لأن إشرارهم بهم كان قد وهن بحيث لم يكونوا
يدعونهم عند الاضطراب وكوارث الخطوب بل يدعون الله وحده ، وإنما كانوا
يتحدثون بتقاليدهم الوثنية فيهم والرجاء بشفاعتهم في أوقات الرخاء ، التى لا يشعر
فيها الانسان بالحاجة إلى الدعاء (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين
فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ومنه الدعاء بالولد الصالح عند قرب وضع
الحامل ، والشرك بعد وجود الولد الصالح ، فالتعبير بالوصف « صامتون » لافتادة
كون إحداث الدعاء واستصحاب الحال الثابتة قبله واستمرارها سواء ، وهى تصدق
بنفى شعورهم بالحاجة إلى دعائهم وعدم خطورهم بالبال عند الشدائد ، والشعور
بحاجة المخلوق إلى الرب الخالق ، ولو قال : « أم صمتهم » أو « أم أنتم تصمتون » لما كانت
المقابلة بين وجود وعدم ، وإيجاب وسلب ، لأنه يصدق بتكليف الصمت وكف النفس
عن دعائهم ولولا التجربة مع الشعور بالحاجة إلى الدعاء والأول أبغى في المراد من
كون وجود هذه الأصنام وعدمها سواء ، ومن كون دعائها مساويا لترك الدعاء ،
ولو مع انصراف القلب عنها ، ولو كانت وسائل تشفع عند الله وتقرب إليه زلفى كما
كان يقول أولو الوثنية الكاسية الحالية ، أو تنفع وتضر بنفسها أو بما أعطاه الله تعالى
من التصرف فى الكون باستقلالها كما يعتقد أصحاب الوثنية العارية العاطلة - السكان
الاعراض عن دعائها ضارا بهم ، أو مضيعا بعض المنافع عليهم

وقد يظن من أشرك بعض الأولياء مع الله تعالى هذا النوع من
الاشراك أن هذا التوبيخ لا يوجه إليهم ، وإن هذه الحججة لا تقوم عليهم ، لأن أولئك
كانوا يدعون جماداً أو شجراً لا يعقل ، وهم يدعون أولياء وصلحاء ، لأمواتهم حكم
الشهداء فى الحياة ، وهم يقصدون قبورهم ويعظمونها ، لأن لأرواحهم اتصالاً بها ، وإنما
جاءت هذه التفوقة من جهلهم بأن أكثر هذه الأصنام لم تنصب إلا للتذكير بأناس
من الأولياء الصالحين ، كما رواه البخارى عن ابن عباس فى أصنام قوم نوح التى انتقلت

إلى العرب وقد كانت اللات صخرة لرجل يلت عليها السويق ويطعمه الناس .
فالأصنام والتماثيل والقبور التي تعظم تعظيماً دينياً لم يأذن به الله كلها سواء في كونها
وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح ، وكانوا هم المقصودين بالدعاء لما تخيلوا فيهم
من التأثير في إرادة الله ، أو التصرف الغيبي في ملك الله ، وهو أخش الشرك بالله ،
على أنه لا فرق في المسألة بين إشرارك الصنم والون ، وإشراك الولي أو النبي أو الملك فاقراً
الآيات في اتخاذ الولد لله من الملائكة والمسيح في سورة الأنبياء (٢٦: ٢١ - ٢٩)

(١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلَيْسَتْ جَبِيئُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آَعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٦)
إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ السَّكِّتُ بِهِ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨)
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

عنه الآيات تسعة لما قبلها من آيات التوحيد مقررّة ومؤكدة لمضمونها ، لأن
توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أس الاسلام ، ولا يتقرر في الأذهان ، ويثبت
في الجنان ، ويكمل بالوجدان ، إلا بتكرار الآيات فيه نفياً وإثباتاً لمضمون كلمة
(لا إله إلا الله) * إن الذين تدعون من دون الله عباد أَمْثَالِكُمْ * الدعاء مخ
العبادة وركنها الأعظم فلا يصح توحيد أحد لله إلا بدعائه وحده وعدم دعاء أحد معه
كما قال (فلا تدعوا مع الله أحداً) والمفسرون يقولون إن الدعاء في مثل هذه الآيات
معناه العبادة من باب تسمية الكل باسم الجزء ، فصاروا يفسرون « تدعون »
بتعبدون فضلاً بعض العوام من القارئین وغيرهم في هذا التعبير وظنوا أن المرء
لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله ، وأنه

لا ينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه أو يدعى من دونه بقصد التوسل إليه والاستشفاع لديه ، إذا كان لا يصلح ولا يصوم له ، وقال بعضهم : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، فيكون الإنكار فيه خاصاً بتسميتهم لأصنامهم وغيرهم من معبوداتهم آلهة ، وكل من هذا وذلك ضرب من ضروب الاحتمالات اللفظية التي يتعلق بها من أشرك بالله جاهلاً بمعنى الشرك ، من يدعون الموتى من الصالحين لدفع الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، من غير طريق الأسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم ، ولكنهم لا يسمونهم آلهة ، وهذا هو الشرك الأكبر الذي نعى على المشركين من قبلهم لا مجرد التسمية التي لا تكون بدونه صحيحة .

والحق الذي لا ممتل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع ، الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطاناً يمكنه به أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو بحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله يقول تعالى : إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد الله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسفنه في خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون في اتخاذ الأسباب له . وإعمايدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق الرب الخالق المسخر للأسباب الذي تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها

وهذه المماثلة إنما تظهر فيمن يدعى من دون الله تعالى من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحاء ، دون ما اتخذهم تذكيراً بهم من التماثيل أو القبور أو الأصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلاً بما كانت اتخذت لأجله ، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لأجله ، كأنه يقول : إن قصارى أمرها أن تكون من الأحياء العقلاء أمثالكم ، فكيف ترفعونها عن هذه المثلية ، إلى مقام الربوبية ؟

﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم ﴾ إن كنتم صادقين ﴿ أى إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرّون على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية من نفع أو ضرر

بدوااتهم فادعهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم ، أو ايجملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منهم ان كنتم صادقين في قولكم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقولكم (ما نعبدكم الا ليقربونا إلى الله زلفى) ثم بين لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالا لهم ، فقال :

﴿ ألم أر أن رجل يمشون بها ، أم لم أيد يبطشون بها ، أم لم أعين يبصرون بها أم لم أذن يسمعون بها ؟ ﴾ هذا تقرير موجه إلى الوجدان ، في إثر احتجاج وجه قبله إلى الجنان ، والاستفهام فيه للانكار ، وهو خاص بالاصنام والأوثان ، ومعناه أنهم لفقدهم لجوارح الكسب ، التي ينط بها في عالم الأسباب النفع والضر ، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ، وليس لهم أذان يسمعون بها أقوالكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فأنتم تفضلونهم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق ، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم ؟ وما أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول وتعللون ذلك بأنه بشر مثلكم ، فيقول بعضكم لبعض (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) وثان أعطتم بشرا مثلكم انكم إذا خلصتمون (أفتأبون قبول الحق والخير من مثلكم ، وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم ، وهو لا يستدلكم بإدعاء أنه ربكم أو إلهكم ، ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية ، مع انحطاطه وتسفله عن هذه المثلية ؟

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدهون فلا تنظرون ﴾ أى قل أيها الرسول هؤلاء المرؤذين بمقولههم ، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذوهم أولياء ، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعاونوا على كيدى جميعاً ، وأجمعوا مكرهم الخفى لايقاع الضر في سريعا ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبار . وحكمة مطالبتهم بهذا ان العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدان ، حتى ينضاهل دونهما كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على (تفسير القرآن الحكيم) (٣٤) (الجزء التاسع)

بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع ، وتقرب من الله وتشفع ، فطالبهم بأمر على يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، ويمتلخ الشهادة من خبايا صدورهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الداعي إلى الكفر بها ، وإثباته المعجز لها ، وبذل الجهد فيما ينسبون إليها من التأثير الباطن ، والتدبير الكامن ، الذي هو عندهم أمر غيبي ، يدخل في معنى الكيد الخفي . فإن كان لها شيء ما من السلطان الغيبي في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهوره ، فإن لم يظهر لإبطال عبادتها وتعظيمها ، ونصر عابديها ومعظمي شأنها ، فمضى يظهر وينتفعون به ؟ وهم منكرون للبعث ، وكل ما يرجونه أو يخافونه منها فهو خاص بما يكون في هذه الأرض ؟

﴿ أن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ هذا تعليل جزؤه - ﷺ بما ذكر من عجز هذه المعبودات وتحقير أمرها وأمر عابديها على ما كان من ضعفه بمكة عند نزول هذه السورة . يقول إن ناصري ومتولي أمري هو الله الذي نزل على هذا الكتاب الناطق بوحدانيته في ربو بيته ، وبما يجب من عبادته ودعائه في المهمات والمهمات وحده ، وبأن عبادة غيره باطلة ، وإن دعاء هذه الأوثان هزؤ باطل ، وسخف لا يرضاه لنفسه إلا جاهل سافل ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم الذين صالحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السالمة من الخرافات والأوهام ، والأعمال التي تصلح بها الأفراد وشؤون الجماعات ، فينصرفون على الخرافيين الفاسدى العقائد والمفسدين في الأعمال (فاما الزيد فيذهب جهنم وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال)

﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أى وأما الذين تدعونهم لنصركم وغير النصير من منافعكم ودفع الضر عنكم ، فهم عاجزون لا يستطيعون أن ينصروكم ، ولا أن ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم ، أو يسلبهم شيئاً ما وضع من الطيب أو الحلى عليهم ، وقد كسر إبراهيم ﷺ الأصنام فجعلهم جذاذاً فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن

يَنْتَقِمُوا مِنْهُ لَهَا . وَرَوَى عَنْ مَعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجَوْحِ وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رض) وَكَانَا شَابِئِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ أَسْلَمَا لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ «أَنْهُمَا كَانَا يَمْدُونِ فِي اللَّيْلِ عَلَى أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ يَكْسِرَانَهَا وَيَتَخَذْنَاهَا حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ لِيَعْتَبِرَ قَوْمُهُمَا بِذَلِكَ ، وَكَانَ لَعَمْرُؤُا بْنُ الْجَوْحِ وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ - صَمٌّ يَعْبِدُهُ فَكَانَا يَجِئَانِ فِي اللَّيْلِ فَيَنْكَسِرَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ وَيُلْطَخَانِهِ بِالْعَذْرَةِ فَيَجِيءُ فَيَرَى مَا صَنَعَ بِهِ فَيَغْسِلُهُ وَيَطْبِئُهُ وَيَضَعُ عِنْدَهُ سَيْفًا وَيَقُولُ لَهُ : اتَّصِرْ حَتَّى أَخْذَاهُ مَرَّةً فَقَرَأَهُ مَعَ كَلْبٍ مَيِّتٍ وَدَلِيَاهُ بِجَبَلٍ فِي بَثَرٍ فَلَمَّا رَأَاهُ كَذَلِكَ عَلِمَ بِطُلَانِ عِبَادَتِهِ وَأَسْلَمَ وَفِيهِ يَقُولُ :

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلهًا مُسْتَدْتٌ لَمْ تَكِ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ

وَبَعْدَ أَنْ نَفَى قَدَرَتَهُمْ عَلَى الْفَتْحِ ، قَفَى عَلَيْهِ بَنَى قَدَرَتَهُمْ عَلَى الْإِشْرَادِ إِلَيْهِ فَقَالَ

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾ أَيُّ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَهْدُوَكُمْ إِلَى مَا تَنْتَصِرُونَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ أَوْ جَلِيَّةٍ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ مُطْلَقًا ، فَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ ؟ عَلَى أَنَّهُمْ لَوْ سَمِعُوا لَمَّا اسْتَجَابُوا لَعَجَزَ عَنْ الْفِعْلِ ، كَقَدَمِ السَّمْعِ ،

﴿ وَتَرَامُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ أَيُّ وَهُمْ فَاقْدُرُونَ لِحَاسَةِ الْبَصَرِ كَقَدَمِ لِحَاسَةِ السَّمْعِ ، وَتَرَامُ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِمَا وَضَعَهُمْ مِنَ الْأَعْيُنِ الصَّنَاعِيَّةِ ، وَالْحَقِيقِ الرَّجَاجِيَّةِ أَوْ الْجَوْهَرِيَّةِ ، وَجَعَلَهَا مُوجَّهَةً إِلَى الدَّخْلِ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا لِأَنَّ الْأَبْصَارَ لَا يَحْصُلُ بِالصَّنَاعَةِ ، بَلْ هُوَ مِنْ خَوَاصِ الْحَيَاةِ الَّتِي اسْتَأْنَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعَاءَ وَلَا نِدَاءَ مِنْ عَابِدِهِمْ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَا يَبْصُرُونَ حَالَهُ وَحَالَ خَصْمِهِ ، فَاتَى بِرَجَى مِنْهُمْ نَصْرَهُ وَشَدَّ أَرْزَهُ ؟ .

وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرٌ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَهُوَ أَنَّ الْخُطَابَ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالرُّسُولَ فِي مَقْدَمِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْأَصْنَامِ قَدْ تَمَّ فِيمَا قَبْلُهَا وَاعَادَ الْكَلَامَ فِي عَابِدِيهَا ، أَيُّ وَإِنْ تَدْعُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ الْأَغْيَاءَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لَمْ يَعْلَوْا هَذِهِ الْحُجُجَ وَالْبَرَاهِينَ ، إِلَى هُدَى اللَّهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِسْلَامُ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَتَكُمْ سَمَاعَ قَوْمٍ وَاعْتِبَارَ ، وَتَرَامُ أَيُّهَا الرُّسُولُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ مَا أُوتِيتَ مِنْ سَمْتِ الْجَلَالِ وَالْوَقَارِ ، الَّذِي يُمِيزُ بِهِ صَاحِبَ الْبَصِيرَةِ بَيْنَ أَوْلَى الْجَدِّ وَالْعَزَمِ ، وَالصَّدْقِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَبَيْنَ

أهل العيب والهمز . ولقد كان بعض ذوى الفطرة السليمة ينظر إلى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسياه في وجهه أنه حُرّ صادق ، غير مخادع ولا مُمادق ، فيقول والله ما هذا الوجه وجه كاذب .

وما زال من المهود بين الناس أن أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضاً بذلك من أول العهد بالتلاقى بما يتوسمون من ملامح الوجه ومعارفه ثم من موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع ثم بكل ذلك بالمعايشة . كما يعرفون حال الاشرار والمنافقين بذلك (ولو نشاء لأريناكم فلمعرفة قههم بسيماهم لتعرف قههم في لحن القول) بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى عقائل قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثته ، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره ، بعد أن رفضت أناساً من كبراء قريش خطبوها بعد موت زوجها الأول ، ثم كانت أول من جزم برسالته عند ما حدثها بأول مارآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام بحسن فراسته فيه فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يترث أن اجاب الدعوة منذ شرح الصدر قريير العين ، لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا إليها . وأمثلة هذا كثيرة في كل زمان . وكان أظهرها في قرننا هذا تعلق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغانى من أول ليلة رآه فيها ولزاهه إلى أن فارق هذه الديار ، فلم يعرفه حق المعرفة غيره على كثرة المكبرين له والمعجبين به ، وقد كان الكثيرون من أهل الأزهر يعرفون منه ويصدقون عنه ، فأين هم وأين آثارهم في العلم أو الدين ؟ فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى (وترأهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) على الوجه الأخير في تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا . ثم اقروا في معناه قوله تعالى (١٠ : ٤٢) ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟)

(١٩٩) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع ، وهي التي تلى في

المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد ، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بابلغ التوكيد ، فقوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية (الأصل الأول) العفو وهو يطلق في اللغة على خالص الشيء ، وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه ، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون إخفاء ومبالغة في الطلب ، وهذه المعاني متقاربة وهي وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشيء كعفت الرياح الديار والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، شعاني العفو الوجودية والعدمية أو الموجبة والسالبة كلها إحسان ورفق ، وقد ورد عن مفسري السلف في تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع إلى هذه المعاني ، فرواية العوفي عن ابن عباس في تفسير (خذ العفو) خذ ماعفالك من أموالهم - أي مافضل وما أتوك به من شيء - وكان هذا قبل أن تنزل براءة بقرائض الصدقات وتفصيلها ، وبذلك قال السدي وزعم أنها نسخت بآية الزكاة - وفي رواية الضحاك عنه : أفنق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير . وفي عدة روايات عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله بن الزبير أن معناه خذ العفو من أخلاق الناس ومثله وفي رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك ، وبه قال مجاهد ، وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لأن العفو بهذا المعنى لا يبر عنه بالأخذ لأنه أمر عديم هو بالاعطاء أشبه ، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن الزمخشري ما شاء في تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة فقال والعفو ضد الجهد أي خذ ماعفالك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقمهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى ينفروا كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا » قال :

خذني العفو مني تستدبني مودتي ولا تنطقني في سورتني حين أغضب

وقيل خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة . فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعا أو كرهاه نقول : وبقيت الآية محكمة في صدقة التطوع

والجختار عندنا أن العفو يشمل هذا وذلك فالمراد به أن من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في تفسير آية الوضوء من سورة المائدة ^(١) وقد خالف هذه القاعدة الأساسية أهل الفقه المقلوب فعملوا العسر والحرج من أهم قواعد الدين وأصول الشرع فعلا لتسمية وقد صح في الأحاديث «أن النبي ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما» وتري هؤلاء لا يخير أحدهم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ولا سيما العسر على الأمة بأسرها ، وأما فتاوى الأفراد فقد قال بعض المصنفين منهم في المسألة فيها قولان مصححان : نحن مع الدرهم قلة وكثرة لا يعنى في الفتوى بأحدهما

(الأصل الثاني) الأمر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف وفي اللسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد المنكر قال : والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد المنكر ، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتيسأ به ^(٢) وتطمئن اليه (قال) وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان إلى الناس وكل ما ندب اليه ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكروه ، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم ، والمنكر ضد ذلك جميعه ام

والقول الجامع أن العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول ، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذي يتفرون منه لقبحه أو ضرره ويذمونه ويذمون أهله . والأمر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع بقيت لنا أن العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامي وهو مبنى على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تنوأت عليه من الأمور النافعة في مصالحها حتى ان كتاب الله عز وجل قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبايعته ﷺ للنساء قال عز وجل في سورة الممتحنة (٦٠ : ١٢) يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنبن ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك

في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم (ومن المعلوم أن عقد المبايعة أعظم العقود في الأمم والدول ، فتقيد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على أن التزام المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه ومن المعلوم في السنة أن مبايعته ﷺ للرجال كانت مبينة على أصل مبايعته للنساء المنصوص في هذه الآية .

وقال ﷺ « إنما الطاعة في المعروف » وهو في مواضع من الصحيح

وقد تقدم من هذه السورة (الأعراف) وصف النبي ﷺ في بشارة التوراة والإنجيل بأنه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وورد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان في السورة المسماة باسمه وهي مكة كالأعراف ثم تكرر ذكر المعروف في السور المدنية وأكثرها في بيان الأحكام الشرعية العملية وذلك في عشرات من الآيات بعضها في صفة الأمة الإسلامية وحكومتها وأكثرها في الأحكام الزوجية والمالية . فمن النوع الأول قوله تعالى في تعليل الإذن للمسلمين بالقتال من سورة الحج فذكر من صفات المأذون لهم به أنهم ظلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق لأجل توحيد الله تعالى ثم قال (٢٢: ٤١) الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأُمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران (٣ : ١٠٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقوله بعدها (١٠٩) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقوله عز وجل في سورة التوبة (٩ : ٧١) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية . ثم قوله في صفاتهم منها (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) فهذه الآيات أصول لا مندوحة للأمة عن التزامها في آدابها وتشريعاتها

ومن النوع الثاني وهو ماورد في الأحكام الفرعية قوله تعالى في الحقوق الزوجية من سورة البقرة (٢ : ٢٢٨) ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل بها الإسلام جميع الشرائع والقوانين

في العدل والمصلحة ولم تنل النساء مثله في أمة من الأمم. ومنها قوله في أحكام الطلاق (٢٢٩) فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقوله بعده (٢٣١) فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) - ومثلها في سورة الطلاق - وقوله بعدها في المطلقات الرجعيات (٢٣٢) فلا تمضوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف) وقوله بعدها فيهن إذا كن مرضعات (٢٣٣) وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف - إلى قوله فيهن إذا أراد الزوجان الفصال عن تراض منهما وتشاور - وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف) وقوله في الآية التي بعدها في معتدات الوفاة (٢٣٤) فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وقوله بعد آية أخرى في المطلقات (٢٣٦) ومتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله بعد أربع آيات أخرى (٢٤١) وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وكقوله في معاشررة الأزواج من سورة النساء (١٩:٤) وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فمضى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وهناك آيات أخرى في العفو عن القصاص وفي الوصية للوالدين والأقربين وفي أكل الوصي من مال اليتيم قيدت بالمعروف

فأنت ترى أن المعروف في هذه الآيات معتبر في هذه الأحكام المهمة وأن المعروف فيها هو المعهود بين الناس في المعاملات والعادات، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والأوقات، فتجديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس مخالف لنص كتاب الله تعالى - ولشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة في المعروف، منها أنه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والأمرأة ما جرى العرف به، وأنه إذا كان من المعروف عن بعض البيوت أنهم لا يزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهن كان هذا كالشرط فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن

فإن قلت: إن بعض العلماء قالوا: إن المراد بالعرف والمعروف في الآيات هو المنصوص في الشرع، كقول صاحب لباب التأويل في قوله (وامرأ بالمعروف) - وأمر بكل ما أمرك الله به وعرفته بالوحي، فالجواب أن مثل هذا القول يخالف لما

ذكرنا وما لم نذكر من أقوال السلف والخلف ولا يمكن أن يراد من كل آية ولا من مجموع الآيات المتقدمة وما يحتمله منها كآيات الأمر والنهي المدنية لا بد أن يكون اللفظ فيها عاماً يشمل المعروف في الشرع وفي العادات والمعاملات ولا يظهر هذا في آية الاعراف التي هي الأصل الأول لأنها الأولى في الموضوع ، ولم يكن قد نزل قبلها أحكام يفسر بها العرف ويحال عليها فيه — فاقاله صاحب لباب التأويل هو من قشره لا من لبابه ، وأول ما يرد عليه أنه إذا كان المراد من العرف المعروف بالوحي يقال فيه أنه لم يكن قبل الأمر به معروفًا وبعد الأمر به صار من قبيل تحصيل الحاصل .

نعم إن ما يتقرر بنص الشرع يصير من جملة المعروف الذي هو ضد المجهول كما أنه يكون بالضرورة من المعروف الذي هو ضد المنكر . ويبقى تحكيم العرف والمعروف بالمعنى اللغوي العام معتبراً فيما لا نص فيه بخصوصه والامانة فيه عرف غير معارض بنص ، ولا يستقيم نظام الأمة على أساس ثابت إذا كان أمر العرف والمعروف فيها فوضي وغير مقيد بأصول وأحكام وفصائل ثابتة ، فلا بد من شيء ثابت وهو ما لا يختلف فيه المصالح والمنافع باختلاف الزمان والمكان وأحوال المعيشة ، ولا بد من شيء يحكم فيه العرف وهو ما يقابله ، ولذلك جاء الشرع الحكيم بهما معاً ، ولا يضر مع هذا اختلاف الناس فيما يعرفون وينكرون فليكن المعروف كما قال الجصاص من أئمة الحنفية : ما يستحسن في العقل فعلة ولا تنكره العقول الصحيحة فيكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة إذ لا يمكن أن يستنكر المؤمن ما جاء عن الله ورسوله نصاً حتماً لا اجتهد فيه ، وليكن للجماعة بعده رأى فيما يعرفون وينكرون ، ويستحسنون ويستنجسون ، يكون عمدتهم فيه جمهور العقلاء والعلماء وأهل الأدب والفضيلة في كل عصر .

(الأمر الثالث) الاعراض عن الجاهلين وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولا علاج أوقى لا ذام من الاعراض عنهم ، وشرم في هذا العصر مرتزة صحف الأخبار المنشرة ، فإن سفهاء هاهم شر من سفهاء الشراء في العصور السابقة ، وقد قل سفه الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر مشهور

من القذع والبذاء في الهجوم شيئاً مما نعهد في الصحف التي يعبرون عنها بالساقطة ،
وكم من صحيفة قائمة فاهضة بالثروة ، ثمر من ساقطة بالقلّة . وانما يجب الاعراض عن
السفهاء لأنهم لا يطلبون الحق إذا فقدوه ، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم إذا
وجدوه ، ولا يرعون عهداً ، ولا يحفظون وداً ، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل
مدده ، فإذا انقطع عاد الشكر كفرأ ، واستحال المدح ذماً

أكثر ما كتب المفسرون في هذه الآية ما دلّت عليه من الآداب ، وأقله
ما اشتملت عليه من أصول الأحكام ، وروى عن جدنا الإمام جعفر الصادق
رضي الله عنه أنه قال : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، ووجوه
بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوى الانسانية ، عقلية وشهوية وغضبية ، فالعقلية
الحكمة ومنها الأمر بالمعروف ، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو ، والغضبية الشجاعة
ومنها الإعراض عن الجاهلين . وروى الطبري مرسلًا وابن مردويه موصولًا من
حديث جابر وغيره لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف) سأل النبي ﷺ جبريل
عنها فقال « لا أعلم حق أسأل ثم رجعت فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ،
وتعطى من حرملك ، وتعفو عمن ظلمك » اهـ من فتح الباري ومراد الامام أعلى
وأشمل من ذلك وفهمه أبعداً وأوسع من فهم من علله أو فسر كما علمت من تفسيرها في الجملة
وذكر ابن كثير أن بعض الحكماء أخذ هذا المعنى فسبك في بيتين فيها جناس فقال :

خذ العفو وأمر بالعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولن في الكلام لكل الأنام فمن حسن من ذوى الجاهلين

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن : قال علماؤنا هذه الآية
من ثلاث كلمات ، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، حتى لم
يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها ،
وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الاسلام الثلاثة : فقوله (خذ العفو) تولى بالبيان
جانب اللين ، ونفى الحرج في الأخذ والاعطاء والتكليف ، وقوله (وأمر بالعرف)
تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنهما ما عرف حكمه ، واستقر في الشريعة
موضعه ، واتفقت القلوب على علمه ، وقوله (وأعرض عن الجاهلين) تناول

جانب الصفع بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره . ولو شرحنا ذلك على التفصيل لسكان أسفاراً . أم ومن مباحث البلاغة في الآية أن ما جمعت هذه الكلمات الثلاث من المعاني العالية هو من إعجاز إيجاز القرآن ، الذي لا مطلق في مثله لانس ولا جان . والله أعلم

(٢٠٠) وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ

بين الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآيات أفضل ما يعامل البشر به بعضهم بعضاً من الوصايا الثلاث التي لا يمكن شرح التعامل بها تفصيلاً إلا بسفر كبير ، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد اليهم سبيلاً - ثم قفى عليها بهذه الثلاث الآيات في الوصية باتقاء إفساد الشيطان أي جنسه لجنس البشر ، والمراد هنا شياطين الجن المستترة ، فالتناسب القريب بينهما وبين ما قبلهن المقابلة بين معاملة البشر ومعاملة الجن ، ومن فروعه التناسب بين الجاهلين أي السفهاء الذين أمرت الآية السابقة بالاعراض عنهم اتقاء لشرمهم ، وبين الشياطين التي أمرت هذه الآيات بالاستعاذة بالله منهم اتقاء لشرمهم ، وبعبارة أخرى: اتقاء شر شياطين الانس وشياطين الجن ، فان الشيطان هو الشرير المفسد من الفريقين كما تقدم في سورة الأنعام ، ومن فسر آيات (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) الخ بما مر من أن شرك الابوين فيما آتاها الله من الولد الصالح كان باغواء الشيطان يرجعون اليه في التناسب بين الآيات ، ويقولون إن الآية بينت لنا أن وسوسة الشيطان لأبويننا كانت سبب ما وقع لهما من الشرك فيما آتاها من الولد - والأولى الرجوع للتناسب في هذه المسألة إلى ما بين في أوائل السورة من خلق آدم وحواء . وسوسة الشيطان لهما - وما بين في خواتيمها من الارشاد إلى اتقاء نزع الشيطان ومسه وهو ما أشرنا اليه في بدء سياق هذه الخاتمة

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ قال الراجب النزغ دخول في أمر لإفساده : واستشهد له بقول يوسف عليه السلام (من بعد أن نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) وفي الأساس : نزعه مثل نفسه إذا طمعه ونخسه . ومن المجاز : نزعه الشيطان - كأنه ينخسه ليحسه على المعاصي . ونزغ بين الناس - أفسد بينهم بالحث على الشر اه فالنزغ كالنسخ والنخس والنخز والنزغ والتكرز والوكز والهمز ألفاظ متقاربة المعنى ، وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد كالابرة والمهماز والرمح أو ما يشبه المحدد كالاصبع ، والمراد من نزغ الشيطان إثارته داعية الشر والفساد في النفس بداعية غضب أو شهوة حيوانية أوه عنوية بحيث تنقجم صاحبها إلى العمل بتأثيرها كالتنخس الدابة بالمهماز لتسرع وغلب استعماله في الشر فقط ، وانما قال (ينزغك) (ينزغ) والمراد نازغ لأن اسناد الفعل إلى المصدر أبلغ ، والشيطان تقدم الكلام فيه وفي الجن مراراً أو سمها ماورد في تفسير قوله تعالى (٦ : ٦٨) وإما يفسنك الشيطان (الآية ^(١)) وتفسير قوله تعالى (٦ : ٧١) كالذي استهوته الشياطين في الأرض (الآية ^(٢)) وكتابهما من سورة الانعام وتفسير قصة آدم من هذه السورة والذي يناسب منها ما هنا وهو إغواء الناس بالسوسة قوله تعالى حكاية عن الشيطان (١٥ : ٧) قال فيما أغويتني (الخ ^(٣)) وقوله تعالى (٧ : ٢٦) يا بني آدم لا يفتنك الشيطان (الخ ^(٤)) وملخص ما يجب اعتقاده انه ثبت في وحى الله تعالى إلى رساله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان لا تدركه حواسنا له أثر في أنفسنا فهو يتصل بها ويقوى داعية الشر فيها بما سماه الوحى وسواساً ونزغاً ومساء ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وقد شبهنا تأثير هذه الشياطين الخفية في الأرواح بتأثير النسم الخفية المادية المسماة بالبكتيريا والميكروبات في الأجساد ، فقدمرت القرون التي لا يحصيها إلا رب العالمين والناس يجهلون هذه النسم الخفية ويجهلون فعلها لعجز الأبصار عن ادراكها بنفسها وعن رؤية فعلها لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر إلى أن اخترعت في هذا العصر المرايا والنظارات المكبرة التي ترى الجسم أضعاف

(١) راجع ص ٥٠٧ - ٥١٦ ج ٧ تفسير (٢) ص ٥٢٤ - ٥٦٩ منه

(٣) راجع ص ٣٣٧ - ٣٤٤ ج ٨ تفسير (٤) ص ٣٦١ - ٣٧٢ منه

أضاعف جرمه فيها رؤيت وعلم ما يحدث بسببها في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة من التحول والتغير كالاختار والفساد وغيرها ومن الأمراض المعدية في الإنسان والحيوان كما فصلناه من قبل .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسم الأمراض بأجسادنا أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نفعل غنمها ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة من الاعتدال ، فيبادر إلى علاجه — فتق فطنا نعمل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل عاجلناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج في هذه الآية وهو قوله عز وجل

﴿ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾ أى فاجأ إلى الله وتوجه إليه ليعينك من شر هذا النزغ ، فلا يحملنك على ما يزعجك إليه من الشر ، الجأ إلى الله بقلبك ، وعبر عن ذلك بلسانك ، فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه تعالى سميع لما تقول عليم بما تتوجه إليه ، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر . ومن الجرب أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان ، يصرف عن القلب وسوسة الشيطان ، (١٦ : ٩٨) فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (الخ .

والخطاب في هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع والتأديب موجه إلى كل مكلف يبلغه وأولهم الرسول ﷺ ، ومن المفسرين من يقول انه هنا للنبي ﷺ والمراد أمته . وقد تقدم الخلاف في ذلك في تفسير (٦ : ٦٨) وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان الآية فقد اختلف مفسروها في ترجيح توجيه الخطاب فيها . وذكرنا هنالك آية الأعراف هذه وأن ظاهر السياق فيها أن الخطاب للنبي ﷺ وإن كان يأتي فيه الوجوه الأخرى في مثلها ، ولكن نزغ الشيطان أقوى من انسائه ومن مسه المبين في الآية التالية فالخيار عندى الآن عصمته ﷺ منه وذكرت في الكلام هنالك حديث عائشة وابن مسعود في صحيح مسلم « ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وهو سياق طويل براجع هنالك .

وقد ورد في سورة حم السجدة (فصلت) مثل هذه الآية بعد آية في معنى قوله (وأعرض عن الجاهلين) في آخر الآية التي قبلها ، ولكن بتعريف (السميع العليم) وقال صاحب المدة في الفرق بينهما مانصه :

قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم) وقال في سورة حم السجدة (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) للسائل أن يسأل فيقول : لأي معنى جاء في الآية من سورة الاعراف سميع عليم على لفظ النكرة وفي سورة حم السجدة معرفتين بالالف واللام مؤكداً ؟ (والجواب) أن يقال : إن الأول وقع في فاصلة ما قبلها من الفواصل أفعال جماعية أو أسماء مأخوذة من الأفعال من نحو قوله (فتعالى الله عما يشركون) وبعبارة يخلقون ، وينصرون ، ويبصرون ، والجاهلين ، فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل أعني النكرة ، وكان المعنى استعذ بالله انه يسمع استعذتك ويعلم استعذرتك ، والتي في سورة حم السجدة قبلها فواصل يسلك بها طريق الأسماء وهي ما في قوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فقوله (ولي حميم) ليس من الأسماء التي يراد بها الأفعال وكذلك قوله (انه للذو حظ عظيم) ليس في الحظ معنى فعل ، فأخرج (سميع عليم) بعد الفواصل التي هي على سنن الأسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذي يؤدي معنى الفعل ، فكأنه قال انه هو الذي لا يخفى عليه مسموع ولا معلوم . فليس القصد الاخبار عن الفعل كما كان في الأولى أنه يسمع الدعاء ويعلم الاخلاص ، فهذا فرق ما بين المسكانيين اه فأنمله فانه دقيق جداً . ثم بين تعالى وجه سلامة من يستعذ من وسوسة الشيطان لازالة جهل من لم يعلمه أو من لم يفقهه فقال :

(ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) الطوف والطواف والطيف بالشئ الاستدارة به أو حوله ، فهو واوي يأتي يقال طاف يطوف ويطيف بالشئ (كقال وباع) وطاف الخيال يطيف طيفاً : جاء في النوم ، ويطيف الخيال ما يرى في النوم من مثال الشخص وأصله طيف بالقتل يدفو كيت

وميت ، وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو والنكسائي ويعقوب هنا « إذا مسهم طيف »
والباقون « إذا مسهم طائف » والمعنى واحد ، ورسحه في المصحف الامام (طف)
كرسم (ملك) في سورة الفاتحة فتؤدى قراءة وزن فاعل من السكامة بين عمدا الحرف
الأول . والمس في أصل اللغة كاللمس ومما يفترقان فيه أن المس يقال في كل
ما ينال الانسان من شر وأذى بخلاف اللس ، فقد ذكر في التنزيل مس الضر
والضراء والبأساء والسوء والشر والعذاب والكبر والفرح واللغوب والشيطان
وطائف الشيطان ، ولم يذكر فيه مس الخير والنفع إلا في قوله في سورة المعارج
(إن الانسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً *
إلا المصلين) فقد ذكر الخير هنا في مقابلة الشر ولكن المقام مقام منع الخير
لأفعله ، واستعمل المس والمسيس بمعنى الوقوع وهو مجاز مشهور كاستعماله في الجنون مجازاً
ومعنى الآية « إن الذين اتقوا » وهم خيار المؤمنين الذين وصفوا في أول
سورة البقرة « إذا مسهم » أى ألم أو اتصل بهم طيف أو « طائف من الشيطان »
ليحملهم بسوسته على المعصية ، أو ينزع بينهم لايقاع البغضاء والتفرقة « تذكروا »
أن هذا من عدوهم الشيطان وإغوائه ، وما أمر الله تعالى به في هذه الحال من
الاستعاذة به والاتجاه إليه في الحفظ منه ، وقال بعضهم : تذكروا ما أمر الله تعالى
به ونهى عنه ، وقال آخرون : تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن ،
وجزى ثوابه لمن عصى الشيطان وأطاع الرحمن ، وقال بعضهم : تذكروا وعده
ووعيده . وما ل الأقوال كلها واحد ، وهو يعمها - كما تفيد قاعدة حذف المفعول -
« فإذا هم مبصرون » أى فإذا هم أولو بصيرة وعلم رباً بأنفسهم أن تطيع الشيطان ،
فهو إنما تأخذ وسوسته الغافلين عن أنفسهم لايحاسبونها على خواطرها ، الغافلين عن
ربهم لا يراقبونه في أهوائها وأعمالها ، ولا شئ أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى
بالقلب ، ومراقبته في السر والظهر ، فذكر الله تعالى بأى نوع من أنواعه يقوى في النفس
حب الحق ودواعي الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر ، حتى لا يكون
للشيطان مدخل إليها ، فهو إنما يزين لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأى نوع
منها . فان وجد بالغفلة مدخلا إلى قلب المؤمن المتقى لا يلبث أن يشعر به لأنه غريب

عن نفسه ، ومتى شعر ذكراً فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب

فمثل المؤمن المتقي في عدم تمكن الشيطان من إغوائه وإن تمكن من مسه كمثل المرأة الصحيح المزاج القوى الجسم النظيف الثوب والبدن والمكان لا نجد جنة الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه وإصابته بالأمراض فهي أظلم بعيدة عنه فإن مسه شيء منها بدخوله في معدته أو دمه فسكت بها نسم الصحة والعافية فحالت دون فتكها به - وهو ما يسمى في عرف الطب المناعة - وكذلك يكون قوى الروح بالإيمان والتقوى غير مستعد لتأثير الشيطان في نفسه ، فهو يطوف بها يراقب غفلتها وعروض بعض الأهواء النفسية لها من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، فهي عرضت افتقرتها ، فلا لبس النفس وقواها فيها ، كما تلبس الحشرات القدرة أو جنة الأمراض الخفية ما يعرض من القدر للنظيف والضعف للقوى ، فإذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، وإذا تداركها نجح من ضررها ويحسن أن يعبر عن هذا بالحصانة ، فيقال : مناعة جسمية وحصانة نفسية أو روحية .

ذكرنا في الكلام على الشيطان من أوائل سورة البقرة أن الإنسان يشعر بقدر علمه بتنازع دواعي الخير والشر والحق والباطل في نفسه ، وأن الداعية الحق والخير ملكا يقويها ، والداعية الباطل والشر شيطاناً يقويها ، وأن النبي ﷺ بين هذا بقوله « إن للشيطان لمةً بآدم وللملك لمةً ، فأما لمة الشيطان فأبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك . ومن وجد الأخرى فليمتوذم من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدم الفقر ويأمركم بالفحشاء) رواه الترمذي والنسائي في الكبير وابن حبان عن ابن مسعود وعلم عليه السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ؛ ولكن الترمذي قال حسن غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص . وذكرنا هنالك بعض كلام الامام الغزالي في هذا المقام وله فيه تفصيل حسن طويل في كتاب شرح عجائب القلب وغيره من الأحياء والمحقق ابن القيم كتاب خاص في ذلك اسمه (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) فمن قرأ أمثال هذه الكتب ، كان من وسوسة الشيطان على خبئر

وما زال الصالحون المنقون يراقبون خواطرهم ويجاهدون الوسواس الذى يلم بها ، ولم حكايات فى ذلك غريبة . حدثنى الشيخ عبد الغنى الراقى النقيب الصوفى أنه دخل فى أيام سلوكه وهو فى ميعة شبابه بستانا فى طرابلس يعمل فيه نساء من نصارى لبنان فإذا بشابة جميلة منهن فى مكان خلوة فترغ الشيطان بينه وبينها حتى هم بمباشرتها فتذكر قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فتردد وانكش ثم ساورته ثورة الغلة تهون له الأمر ، ولج به الوسواس : هلم هلم ، فقوى سلطان الآية فى قلبه حتى صار قلبه يتلو بصوت يسمعه بأذنيه (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) قال فجعلت أقول بيدي فوق صدرى هكذا - يعنى يسمح كمن ينحى عنه شيئا - أحاول أسكت قلبى فلم أستطع إسكاته ، فتوليت عن المرأة وحفظنى الله بذكر الآية من الفاحشة وله الحمد وأقول : تحديداً بنعمة الله تعالى ان الشيطان لم يبلغ منى غرة يدعونى فيها إلى الفاحشة قط ، فما ذكرته فى متصورتى فى سياق حادثة امتحان امتحننى الله تعالى بها ، قد استمر بفضل الله تعالى من سن الشباب إلى سن الشيخوخة وأسأله بفضل حسن الخاتمة . وذلك قولى فى فتاة بارعة الجمال طلبت منى أن أضع يدي على صدرها أرقيه

ورب ملء خبيصة الحشا بهنانة ترون بالحاظ اللائى

رقرقة شف زجاج وجهها عن ذوب ياقوت وراه جرى

خاشعة الاحاظ والطرف أمت تلمس الدعاء منى والرقي

أواه يامولاي صدرى ضاق عن قلبي وما يفيض عنه من جوى

فضع عليه يدك التى بما بارك فيها الله تبرى الضى

أنت فتى خاف مقام ربه مازال ينهى نفسه عن الهوى

لم يقترب فاحشة قط ولم يعزم ولا هم بها ولا نوى

بغرة منها وحسن نية فى منزل تشبه أقصى ما شئى

مما يعنيه به شيطانه من حيث لا يطعم منه فى خنا

لكنه استعصم راويا لها ما أمر الله به وما شئى

(وما أبرئ نفسي) مما دون كياثر الانم والفواحش وهو اللثم (إن النفس لأماة بالسوء إلا مارحم ربي إن ربي غفور رحيم) ولا أعتد من اللثم حضور المراقص النسائية وملاهيها ، فأحمد الله تعالى أن نفسي لم تطالبني بحضورها يومئذ ، ولم يجد شيطان الجن من نفسي ميلا إليها فيزنيها لي بوسوسته ، ولكن دعاني إليها بعض شياطين الإنس لأجل اختبارها . والنهي عنها على معرفة فأبيت وقلت للداعي حسبك من شر سماعه ، على أنني رأيت نموذجاً من أهونها عرضاً لا قصداً إليها ، وذلك في بعض ملاهى تمثيل القصص التاريخية أو الوصفية في ليلة خيرية ، ولم أكن أعلم باستحداث ذلك فيها ، وأحمد الله تعالى أنني متتها على غرابة الصنعة والزينة فيها ، وخرجت من المسكان وآليت أن لأعود إليه ، فقد صارت هذه الأماكن بؤر فساد ، وكان فيها شيء من الأدب والعبرة وتعمير العوام على اللغة العربية الصحيحة التي تقرب من الفصحى في الجملة ، ولم يكن يرى الناس فيها من منكرات الزنى أكثر مما يرى في الأسواق والشوارع ، فأصبحت كالخمر إثمها أكبر من نفعها .

قد يقول من يظنون أن يوسف الصديق عليه السلام هم بالفاحشة : إنك قد فضلت نفسك عليه بزعمك أنك لم تهم وهو قديم ، وأقول : أنه اختلف الحال والداعية فانه عليه السلام لم يهم بالفاحشة ، وإنما همت امرأة العزيز وهو بالانتقام ، وهو بطشها به بالقتل أو الضرب ، ودفاعه عن نفسه بالفعل ، وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشرى وشواهد تقع دائماً ، والعبارة تدل عليه دون الأول ، فانه لا يقال هم بالشخص في مقام الخلاف والمقاضبة إلا إذا أريد لهم بالضرب أو ما هو مثله أو فوقه من الإيذاء ، ولا يقال ان المرأة همت بالرجل بالمعنى الآخر لأن الهم يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهى فى المباشرة مواتية لأعمالها وما استبقا الباب إلا وهو فار من ثورة غضبها وهى مواتية له تريد البطش به لاهانتها إيها بمخالفتها وهو غلامها ، بعد أن ابتدأت نفسها ببذلها له . وما معنى قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) إلا عصمته من البطش بها دفاعاً عن نفسه وهو السوء ، وعصمته مما دعته إليه وهو الفحشاء ، ولولا الروايات الإسرائيلية فى القصة لما خطر ببال المفسرين الراسخين فى ذوق اللغة العربية غير

هذا المعنى ، وكلفتهم تلك الروايات عما هو أوضح منها ، فتأولوا وتسكفوا
لتصحيح حل الكلام عليها ؟ وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه
الشيطان يزين لكل أحد من الناس ما هو مستعد له وقرىب من أخلاقه وآرائه
التي تربى عليها ، ومناسب لحاله وشعوره الذي يكون غالباً عليه ، فإذا أراد الصلاة فى
الليل وهو فى حال نعاس أو فتور زين له النوم وترك الصلاة إلى وقت اليقظة
والنشاط لأجل إقامتها كما يرضى الله تعالى ؟ فإذا خالفه وشرع فى الصلاة زين له
برسوسه العجلة والاختصار ، وقراءة السور القصار ، أو قراءة السورة من متوسط
المفصل فى ركعتين أو أكثر ، وإذا وجد منه جداً ونشاطاً فيها فقد زين له المبالغة
فى التطويل ليسرع إليه الملل ، و « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » كما رواه
الشيخان فى صحيحيهما من حديث عائشة . وإذا كانت تربته الدينية منفرة من
الكبر ، أغراه بمقدماتها وسائلها من الصغائر ، وربما أفتاه بقوله تعالى (إن
تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً) وليس
المُرَاد بهذا أن يحتقر الإنسان الصغائر وينعمدها ويواطب عليها كالمستحل لها ، فإن
مثل هذا قلما يسلّم من التدرج منها إلى الكبائر . ولكن المراد به اللهم وهو ما يلزم المرء
إذا ما عرض له ولا يتعمق فيه ولا يصر عليه ، بل يلوم نفسه عليه ويتوب منه ،
(وقد بينت هذا المعنى فى الكلام على التوبة من تفسير سور النساء - ج ٤) فإذا
تاب تنتقل نفسه به من دركة (النفس الامارة بالسوء) إلى درجة (النفس اللوامة)
ولا يزال يجاهدها فى مثله إلى أن يرتقى إلى درجة (النفس المطمئنة) فإذا هو
أطاع النفس الامارة بالسوء قانها تهبط به إلى دركة الفحش والفجور ، وربما تهوى به
إلى استحلال المعاصى وهو من الكفر ، كمن يدمن النظر بشهوة إلى بعض الحسان
فينقل من النظر إلى المغازلة ، ومن المغازلة إلى المهارلة ، ومن المهارلة إلى الملاعبة
والمباغلة ، ومنها إلى المفاعلة . قال الشاعر العربى :

فلما رأته رأيت ثم أقبلت تهازلنى والهزل داعية العهر
وقال شاعر مصر فى التنقل من كل حالة إلى ما بعدها :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقد استفتاني شاب مصري افتتن بفتاة شغفته حباً فكان يخلو بها لما في مصر في هذا العهد من إباحة ذلك عند الكثيرين - فيتداعبان حتى يخشى على نفسه الفضيحة للكبرى ، ثم يتفارقان فيندم ويتوب ، ويعزم أن لا يعود ، حتى إذا مازارته نقص العزم ، ثم يفارقهافيبرمه ويؤكد به باليمين ، ثم تغلبه على أمره فينكث ما أبرم ، ويبحث بما أقسم ، حتى قال أخيراً : لئن عدت لا كونن بريئاً من دين الاسلام ، ولكنه عاد مغلوباً على أمره ، لا يملك تجاه سحر فائننه شيئاً من قوة ارادته ، فعظم هذا الحنث العظيم عليه ، وجاءني مستفتياً فيما وقع فيه وما يجب عليه ، فوعظته وأرشدته بما ألهمني الله تعالى ولم يعد إلي بعد ذلك ، فلا أدري كيف انتهت فتنته ، وقد حدث هذا منذ بضع عشرة سنة هبطت بها البلاد المصرية إلى الدركات السفلى من الإباحة الراجح أن هذا الشاب من أحد البيوت التي لا تزال فيها بقية من التربية الدينية ، وأخلاق العفة والحياء الموروثة ، وهذه التربية وهذه الأخلاق التي كان بها الشعب ذا وجود ممتاز مستقل في نفسه ، فطفق دعاة الحاد والزندقة وإباحة الشهوات يهدمونها باسم التجديد المدني ، والتقليد الأوربي ، ومنه وجوب السفور الذي يعنون به إباحة اختلاط النساء بالرجال ، ومعاشرة الفتيان للفتيات بحجة التمهيد للزواج عن تعارف وحب واختيار ... وقد تفاقمت استباحة التمثك والفجور في هذه السنين إلى حد ينذر بهلاك هذه الأمة ، فالنساء يرقصن مع الرجال كاسيات عاريات ، ويسبحن معهن في شواطئ البحار ، وقلما تماشر الفتاة العذراء شاباً ، ولو بقصد الزواج عن تعارف وحب واختيار ، إلا وينتهي هذا الاختيار بفضيحة الافتراء ، ثم لا يكون الزواج مضموناً ، وإذا وقع لا يكون الوفاق غالباً ، ولا حب شهوة الصبا دائماً ، بل يصير الاختيار لسكل منهما عادة من العادات ، والتنقل من حبيب إلى آخر من أفتن اللذات ، وإن الله يبيغض الدواقين والدواقات وقد استفتاني رجل في امرأة مسلمة متزوجة تختلف إلى بيت رجل غير مسلم ولا وطني تزوره بعد العصر في شهر رمضان ثلاثة أيام في الاسبوع ، فتمكث معه الى قرب المغرب : هل يجوز له أو يجب عليه ايذات يعلمها بذلك ، وذكر ان سبب افتتان هذه المرأة الحبيثة بهذا الرجل الخبيث انها عرفتة عاملاً في صيدلية

قصدها مرة لشراء دواء منها فتصباها حتى صارت تختلف إلى الصيدلية لأدنى حاجة ثم اغير حاجة الخ

فسدت العقائد والأخلاق وتركت العبادات ، وأبيحت الأعراض واستبيحت المحرمات ، وعبد الشيطان في معصية الرحمن ، وتوجد جمعيات من الرجال ومن النساء يزينون للناس كل هذه الفضائح والقبائح باسم التجديد والتمدن ، ولهم جرائد تنشر دعاية الإلحاد والزندقة ، والإباحة المطلقة ، لإلزام بعض قيود قانون العقوبات في الظاهر دون الباطن . وإذا أنذرهم منذر ، وحذروهم من طاعة الشيطان محذر ، قالوا : وما الشيطان ؟ وما الدليل على وجود الشيطان ؟ فان قلت لهم : إن أطباء الأرواح وأساة أمراض الاجتماع ، قد حذرونا بأمر الله خالق ما يرى وما لا يرى من نزغ الشيطان وتزيينه للفسوق والعصيان ، كما يحذرننا أطباء الأجساد من « ميكروبات » الأمراض فهل من مقتضى العقل أن نرد كلام هؤلاء الأطباء بحجة أننا لم نر تلك الميكروبات المرضية ، وأن لا نقبل كلامهم ولا نستعمل أدويتهم إلا بعد رؤية مارأوا ، واختبار ما اختبروا ؟ ألم يعم الدليل على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام في التبليغ عن وحى الله عز وجل ؟ بلى وقد ثبت بالتجربة والاختبار أن من اتبعهم صحت عقائدهم واستقامت أخلاقهم ، وصلحت أعمالهم ، وحفظت صحتهم وأعراضهم وأموالهم ، فتجربة معالجتهم لأمراض الأنفس والأرواح ، أثبتت من تجربة معالجة الأطباء لأمراض الأجساد . وقد ثبت بالملاحظة والاختبار أيضاً أن هؤلاء الماديين المنكرين لوجود الشياطين هم أشد فساداً وإفساداً ومنهم : سكيرون ، مقامرون ، زناة لوطيون ، كذابون منافقون ، مرتشون سراقون (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) وحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولنصفى إليهم أفتدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقتفون)

وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى في هذا السياق ﴿ وإخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون ﴾ النفي الفساد . والمد والإمداد الزيادة في الشيء من جنسه . وقد قرأ نافع يمدونهم بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والجمهور بفتح الياء وضم

الميم من المدّ وقريء في الشواذ بما دونهم بصيغة المشاركة، وإنما المستعمل في القرآن في الخلق والتكوين كقوله تعالى (وهو الذي مدّ الأرض) (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل) (والبحر يمدّ من بعده سبعة أبحر) وفي مدّ الناس فيما بينهم ويضمر كقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) (وعمد له من العذاب مداً) (وهمد في طغيانهم يعمهون) وأما الأمداد فعلى يمدد وينفع كقوله تعالى (أمدكم بأنعام وبنين) (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً) (كلّاً بمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) ومنه إمداد النبي ﷺ والمؤمنين بالملائكة يشبهون قلوبهم في غزوة بدر، وحملت قراءة فأنفع عنا على التهكم والإقصار التقصير وأقصر عن الأمر تركه وكف عنه وهو قادر عليه

والمعنى مع سابقه: أن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلدين والخطوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تذكروا تأبصروا فحذروا وسلموا وإن زلوا تابوا وأتابوا وأن إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين يتمكن الشياطين من أعوانهم فيسدونهم في غيهم وفسادهم لأنهم لا يدركون الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم بالتزويج إلى الشر والباطل والفساد في الأرض ولا يستعيذون به سبحانه من نزع الشيطان ومسه فيمضوا ويمتقوا - إنما لا لهم لا يؤمنون بالله وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر - ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم، فلذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي. وفي هذا التفسير عود الضمير إلى الشيطان بالجمع لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم، وهو استعمال عربي معروف، ومنه (والذين كفروا أوليسواهم الطاغوت) وقيل إن الضمير يعود على الجاهلدين، أي وإخوان أولئك الجاهلدين من الإنس وهم شياطينهم يمدونهم في غيهم وفسادهم فيكونون أعواناً لشياطين الجن في ذلك كما بيّناه في تفسير الآية التي قبل هذه.

(٢٠٣) وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الاجتهاد، افتعال واختصاص من الجباية . يقال جبي العامل المال يجبيه وجباه يجبيوه . إذا جمعه للسلطان القيم على بيت مال الأمة . و : اجتباه إذا جمعه واصطفاه لنفسه أو اختاره لها ، وفي الكشف اجتبي الشيء بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعوا . أو جبي إليه فاجتباه أى أخذه ، كقولك جلبت إليه العروس فاجتلبها . والآية هنا آية القرآن كما روى عن ابن عباس ، أو المعجزة المقترحة من قبل المشركين كما روى عن مجاهد وقتادة .

والمعنى وإذا لم تأتكم أيها الرسول بآية قرآنية بأن تراخي نزول الوحي زماناً ما قالوا : أولا افتملت نظمها وتاليفها واخترعتها من تلقاء نفسك؟ وإذا لم تأتكم بآية مما اقترحوا عليكم قالوا : هلا جياها الله لك بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا؟ ﴿ قل إنما

أتبع ما يوحى إلى من ربي ﴾ فما أنا بمبتدع ولا مجتنب لشيء من آيات القرآن بعلى وبلاخى ، بل أنا عاجز عن مثله كعجزكم وعجز سائر الانس والجن وفي معناه (١٠ : ١٥) وإذا قتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : أئت بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى . أوما أنا بقادر على إيجاد الآية الكونية ولا بمعنت على الله فى طلبها وإنما أنا متبع لما يوحى إلى فضلاً من ربي على أن جعلنى المبلغ عنه . وما على إلا البلاغ المبين ،

﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أى هذا القرآن الذى أوحاه إلى بصائر وحجج ناهضة من ربكم يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق إذ هى أدل عليه مما تطلبون من الآيات الكونية لأنها تدل عليه مباشرة ^(١) . وقد سبق فى سورة الانعام تفسير قوله تعالى (٦ : ١٠٤) قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه

ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴿ فيراجع لزيادة البيان ^(٢) ﴾ وهدى ورحمة

تقوم يؤمنون ﴾ أى وهو هدى كامل يهتدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ورحمة فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به : كما قال تعالى فى سورة الانعام أيضاً (٦ : ١٥٤) وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) أن تقولوا إنما

أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة (الآية ^(١)) قيل : أن قوله تعالى «لقوم يؤمنون» متعلق بالثلاثة وقيل بالهدى والرحمة لأن البصيرة قد يتأملها العاقل فيؤمن

(٢٠٤) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لِمَلَكِكُمْ تَرْحَمُونَ
(٢٠٥) وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٦) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن ، والحصانة من نزغ الشيطان ، وهي الاستماع له إذا قرئ ، والانصات مدة القراءة . والاستماع أبلغ من السمع ولأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لادراكه ، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد ، والانصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلا عن الاحاطة بكل ما يقرأ . فمن استمع وانصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر ، وهو الذي يرجى أن يرحم . والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قرئ ، قيل مطلقاً سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارجها ، وهو مروي عن الحسن البصري ، وعليه أهل الظاهر ، وخصه الجمهور بقراءة الرسول ﷺ في عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، وزعم بعضهم أن الآية نزلت في خطبة الجمعة وهو غلط فإن الآية مكية وصلاة الجمعة شرعت بعد الهجرة ، وقال بعضهم إن الأمر للندب لا للوجوب ولكن روى أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فحرم بنزولها الكلام فيها وحكى ابن المنذر الإجماع على عدم وجوب الاستماع والانصات في غير الصلاة والخطبة . وذلك أن إيجابهما على كل من يسمع أحداً يقرأ فيه حرج عظيم لأنه يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه ، والمشتغل بالحكم حكمه ، والمبتاعان مساوئيهما وتعاقدهما

وكل ذى شغل يشغله . فأما قراءة النبي ﷺ فكان بعضها تبليغاً للتزليل وبعضها وعظاً وإرشاداً فلا يسمع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ، وهذا شأن المصلى مع امامه وخطيبه ، إذا هو موضوع الصلاة والواجب فيها ، ولهذا استدلووا بالآية على امتناع القراءة خلف الإمام في الصلاة الجهرية ، واستثنى بعضهم الفاتحة لما ورد في الأحاديث الصحيحة من أن الصلاة لا تجزى بدونها جمعاً بين النصوص . وورد في السنة سكوت الامام بقدر ما يقرأ المأموم الفاتحة . على أنه إذا قرأ الفاتحة مع الإمام أو بعده آية آية لا يعد غير مستمع للقرآن ولا غير منصت ، وقد بينا تحقيق الحق في قراءة الفاتحة للمأموم كغيره في منتهات تفسيرها من الجزء الأول .

ومن فروع طلب الاستماع والانصات أن القارئ لا يطلب منه ترك قراءته الاستماع لقارئ آخر بل يختار لنفسه ما يراه خيراً لها من الأمرين ، فقد يخشع بعض الناس بقراءة نفسه ، ويخشع آخر بالاستماع من غيره ، أو من بعض القراء دون بعض ، وإذا تعدد القراء في مكان استمع كل حاضر لمن كان أقرب إليه أو لمن يرى قراءته أشد تأثيراً في نفسه . وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن بمصر كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة مكروه كراهة شديدة ، وتكون على أشدها لمن كانوا على مقربة من التالي وأما تعمد الاعراض عن السماع للقرآن فلا يكاد يفعله مؤمن به ، وكذلك رفع الصوت بالكلام على صوت القارئ عمداً ، فإذا كان الله تعالى قد أدب المؤمنين مع رسوله ﷺ بقوله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) فرفع أصواتهم على صوت التالي لكلامه عز وجل أولى بأن ينهى عنه ، والأدب معه فوق الأدب مع كلام النبي ﷺ بالضرورة . وقد كان الصحابة وغيرهم من فصحاء العرب يعبرون عن سماع القرآن بقولهم : سمعت الله تعالى يقول كذا . ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، فإن كان في المجلس كثير من الناس يستمعون وينصتون ، فشد بعضهم بمنجاة صاحبه بالجنب من غير تهويل

على القارىء ولا على المستمعين كان الخطب في هذا حيناً لا يقتضى ترك القراءة ولا ينافى الاستماع

ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته ، وأن يتأدب في مجلس التلاوة ، وملاك هذا الأدب للقارىء أن لا يكون منه ولا من غيره ولا من حال المسكين ما يبعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافياً للأدب ، وقد ذكر الفقهاء في المسألة آداباً وأحكاماً قد يختلف بعضها باختلاف الاعتقاد والعرف ، وصرحوا بقراءة القرآن في كل حال من قيام وقعود واضطجاع ومشى وركوب ، فلا تكره في الطريق نصاً ولا مع حدث أصغر ونجاسة بدن وثوب ولكن يمسك عن القراءة في حال الحدث ، ويستحب الوضوء لها استحباباً ، ولا سيما للقارىء في المصحف ، وتكره مع الجنابة جهرًا لأنه بدعة ، وفي المواضع القدرة بأن يجلس فيها للقراءة ، وأما من مر بمكان منها وهو يقرأ فلا يطلب منه ترك القراءة وكذلك من عرض له الجلوس في بعض الملاهي غير المباحة لا يكرهه التلاوة سرًا وصرحوا بأنه لا يكره له أن يتلو في بيته إذا كانت زوجته غير مستورة عورة الصلاة وتستحب القراءة بالترتيل والتغنى بالنغم المفيد للتأثير والخشوع من غير تكلف ضاعى . وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن — زاد غيره في رواية — يجهر به » رواه الشيخان وأذن هنا بمعنى استمع أو سمع . ومصدره بفتحين وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقى عن فضالة بن عبيد مرفوعاً « الله أشد أذاناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » والقينة الأمة المغنية ، وروى البخارى عن أبى هريرة مرفوعاً : « ليس منامن لم يتغن بالقرآن » ويستحب البكاء مع القراءة والخشوع وإلا فالتمسكى والتخشع ، وأن يستعين بالله قبلها ويدعو الله في أثنائها بحسب معانى الآيات كسؤال الرحمة عند ذكرها والاستعاذة من العذاب عند ذكره . وكان أنس (رض) يجمع أهله وولده عند ختم القرآن فاستحبوا الاقتداء به .

واعلم أن قوة الدين وكال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن

وإسماعه مع التدبير بنية الاهتمام به والعمل بأمره ونهيهِ . فالإيمان الإذعان الصحيح يزداد ويقوى وينبى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي . والفساد بقدر تدبير القرآن ، وينتقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبيره ، وما آمن أكثر العرب إلا بإسماعه وفهمه ، ولا فتحوا الأقطار ، ومضروا الأمصار ، واتسع عمرانهم ، وعظم سلطانهم ، إلا بتأثير هدايته ، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنه من قراءة القرآن على الناس (وقالوا لا نسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون) وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبير القرآن ، وجعله كالرق والتماويل التي تتخذ للتبرك أو شفاء أمراض الأبدان . وبطل فائدة الصلاة ، وهي عماد الدين . بتلاوة القرآن مع التدبير والتخضع ، فإذا زال منها هذا صارت عادة قبلية الفاسدة . والآيات الدالة على ذلك فيه كثيرة تقدم بعضها في تفسيرها ، فمن التطويل في غير محله إيراد شيء منها هنا .

وإنني أختم هذا البحث بأول حديث عائشة (رض) الطويل في الهجرة من رواية صحيح البخاري للاستهانة به على ما كان من تأثير سماع القرآن عند مشركي العرب قال : حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة (رض) زوج النبي ﷺ قالت لم أعتل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشيية . فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغداز لقيه ابن الدغنة (١) وهو سيد القارة . فقال أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبداً ربي ، قال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جوار . ارجع وأعبداً ربك بذلك .

(١) تعنى بإتلاء المسلمين اضطهاد المشركين لهم لإرجاعهم عن الإسلام بالقوة والفر ، ولفظ «الدغنة» يضبطه المحدثون بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون وتشديد ما والتغويين بضمهما وتشديد النون .

فرجع وأرتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعملن به ، فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعملن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتعذف ^(١) عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفرغ ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجراً أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فانا قد كرهنا أن نخفرك ولينا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر ، فقال قد علمت الذي عاقبت لك عليه ، فاما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي فاني لأحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقت له ، فقال أبو بكر : فاني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل اه المراد منه

بعد الأمر بالاستماع والاصغاء لتلاوة القرآن ، في سياق حصانة النفس من مس الشيطان ، أمرنا تعالى بالذكر العام الشامل للقرآن تلاوة وتدبراً ولغيره فان كل نوع من أنواع ذكره تعالى حصن للنفس وتزكية لها فقال

(١) وفي رواية « يتعصف » والمراد يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض حتى كأن كل أحد يقذف غيره ، وتقذف الركاب تراميها وقد أخطأ من قال إن هذه الرواية لا معنى لها فالتعذف هنا أظهر من القصف وهو الكسر — وكأنا يتعصف بعضهم بعضاً . وفي الأساس : وتعصف القوم : لجوا في خصومة أو وعيد

﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول﴾ قال ابن جرير: إن الأمر بالذكر هنا موجه إلى مستمع القرآن أمر بأن يتدبر في نفسه ما يسمع. وقال عطية العوفي إن المراد بالذكر هنا الدعاء - والجهور على أنه أمر عام كما تقدم وأن الخطاب فيه للنبي ﷺ ومن اتبعه. والتضرع إظهار الضراعة. وهي الدلة والضعف والخضوع بكثرة وشدة عناية. والخيفة حالة الخوف والخشية - أي واذكر ربك الذي خلقك ورباك بنعمه في نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآياته وآلائه وقضله عليك وحاجتك إليه متضرعا له خائفا منه، راجيا نعمه - واذكر بلسانك مع ذكره في نفسك ذكرا دون الجهر برفع الصوت من القول، وفوق التخافت والسر، بل ذكرا قصداً وسطاً - كما قال في آخر سورة الاسراء (ولا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) ولا تحصل فائدة الذكر باللسان إلا مع ذكر القلب، وهو ملاحظة معاني القول، وكأني من ذي ورد يذكر الله ذكراً كثيراً بعد بالسبحه منه المئين أو الألوف ثم لا يفيد كل ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له، بل هو عادة تقارنها عادات أخرى منكورة شرعا. وما ذلك إلا أنه ذكر لسانی محض لاحظ فيه للقلب. ذكر النفس وحده ينفع دائماً وذكر اللسان وحده قلما ينفع وقد يكون في بعض الأحوال ذنباً. والأكمل الجمع بين ذكر اللسان والقلب.

وبعد أن بين تعالى صفة الذكر والذاكر بين وقته فقال ﴿بالغدو والأصال﴾ الغدو مصدر غدا يغدوا - كملا يملو علوا - أي ذهب غدوة وهو أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ثم توسع فيه حتى استعمل بمعنى الذهاب مطلقاً - ويقال به الراح وهو الرجوع - ومنه (غدوها شهر ورواحها شهر) والأصال جمع أصيل وهو العشي من وقت العصر إلى غروب الشمس، فهو كقوله تعالى في سورة الأحزاب (٣٣: ٣١) يأيتها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا) وقوله في سورة الدهر أو الانسان (٧٦: ٢٥) واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وقوله في سورة آل عمران (٣: ٦١) وسبح بالعشي والابكار) وخص هذان الوقتان بالذكر لأنهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا بأن يراقبه تعالى

ولا ينساه فيما بينهما ، وأهم الذكر فيهما صلانا النجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد كما ورد في الصحيح ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكره تعالى في سائر الأوقات وإنما يتسامح بقلة الذكر فيما بين البكرة والأصيل لأنه وقت العمل للمعاش فمن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه ، وضعف إيمانه ، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه ، ولله قدر القائل إذا مرضنا تدأونا بذكركم ونترك الذكر أحيانا فننتكس

ثم عزز عز وجل هذا الأمر وهذا النهي بما يمد خير أسوة للإنسان ، وهو

التشبه والمشاركة للملائكة الرحمن ، فقال ﴿ أن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي أن ملائكة الله المقربين الذين هم عنده كحمة عرشه والخافين به ومن شاء قدس وتعالى بهذه العندية الشريفة التي لا يعلمها سواهم أعلى مقامها من الموكلين بالخلق والتدبير نظامها كالسحاب والمطر والريح والجنة والنار - أن هؤلاء المقربين العالمين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون الذين عد بعضهم السجود لله تعالى حطة وضعة لا تحتمل ﴿ ويسبحونه ﴾ أي يترنمون عن كل مالا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله وجماله من اتخاذ الند والشريك والظهير والمساعد على الخلق والتدبير كما يفعل الذين اتخذوا من دونه شفعاء أندادا لله يحبونهم كحب الله ويعبدونهم مع الله ﴿ وله يسجدون ﴾ أي وله وحده يصاون ويسجدون فلا يشركون معه أحدا ، فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته وأقرب المقربين عنده تبارك اسمه وتعالى جده .

وقد شرع الله تعالى لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاما للمشركين واقتداء بالملائكة العالمين ، ومثلها آيات أخرى بمعناها في الجملة ، وهذه هي الأولى في ترتيب المصحف . ونسأله تعالى أن يجعلنا من خير الذاكرين له ، الشاكرين لنعمه المسبحين بحمده ، الساجدين له دون سائر خلقه ، وأن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه إنه على كل شيء قدير

خلاصة سورة الاعراف

وهي تدخل في ستة أبواب

(أولها) توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً ، وصفاته وشؤون ربوبيته .

(ثانيها) الوحي والكتب والرسالة والرسول .

(ثالثها) الآخرة والبعث والجزاء .

(رابعها) أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة .

(خامسها) آيات الله وسننه في الخلق والتكوين .

(سادسها) سنن الله تعالى في الاجتماع وال عمران البشري وشؤون الأمم ، المعبر

عنه في عرف عصرنا بعلم الاجتماع .

الباب الأول

توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً وصفاته وشؤون ربوبيته

﴿ وفيه ١٢ أصلاً ﴾

(١) دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة وكون الإخلال

بذلك شركاً وكفراً بالله تعالى . قال تعالى في الآية ٢٨ (وأقيموا وجوهكم عند

كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أي بأن لا تشبهه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره

في الدعاء ولا في غيره من دينكم ، كاللوجه إلى الأنبياء والصالحين أو ما يذكر بهم

كقبورهم ، فذلك شرك يتنافى خلوصه له ، قل أو أكثر ، سمى شركاً أو سمى توسلاً

وتبركاً (راجع ص ٣٧٥ ج ٨ تفسير) وقال تعالى في بيان حال المشركين عند موتهم

من الآية ٣٧ (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أين ما كنتم تدعون من

دون الله ؟ قالوا ضلوا عننا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) راجع ص ٤١٣

منه ، وأمرنا تعالى في الآية ٥٤ بأن ندعوه تضرعاً وخفية - ونهانا عن الاعتداء

في الدعاء وفي آية ٥٥ بأن ندعوه خوفاً وطمعاً ، وفي الأول صفة دعاء الاخلاص اللسانية ، وفي الثاني صفته القلبية (راجع ص ٤٥٦ و ٤٦٢ منه)

ومن الامر بعبادة الله وحده وترك عبادة غيره ماحكام عن تبليغ الرسل لأقوامهم ، فدل على أنه أصل دينه على السنة جميع رسله . قال تعالى (٤٨) ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ومثله عن رسوله هود عليه السلام في الآية ٦٤ مع حكاية قول قومه له (٦٩) قالوا أجبتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟) ومثله ماحكام عن رسوله صالح عليه السلام في الآية ٧٢ وما حكام عن رسوله شعيب عليه السلام في الآية ٨٤ .

ومن بيان بطلان عبادة غير الله تعالى ونزغات الوثنية في اتخاذ الآلهة اتخذاً ما ورد في الآيات ١٣٨ — ١٤٠ من طلب بنى اسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً كالقوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ورد موسى (ع . م) عليهم فراجع تفسيرها (في ص ١٠٧ — ١١٥ ج ٩) وفيه بيان خطأ الرازي في فهم معنى الإله لجره على اصطلاح المتكلمين .

(٢) إنكار الشرك وإقامة الحجة على أهله وإثبات التوحيد وكونه مقتضى الفطرة في الآيات ١٧٢ و ١٧٣ في أخذ الرب الميثاق من ذرية بنى آدم واشهادهم على أنفسهم أنه ربهم ، وراجع تفسيرهما (من ص ٣٨٥ — ٤٠٤ ج ٩)

(٣) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع أولياء من دونه في العقائد ولا العبادات ، ولا التحليل والتحريم الديني ، وهو نص قوله تعالى في الآية الثانية (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) لا أولياء يتولون التشريع لكم بما ذكر كالذين (اتخذوا أحبارهم ورجالهم أرباباً من دون الله) يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم كما فسر الحديث المرفوع . ولا أولياء يتولون أموركم فيما عدا ما سخره الله لكم من الأسباب وهذا عين توحيد الربوبية . واتباع رسوله ﷺ لا يدخل في عموم النهي هنا فإنه تعالى أمر باتباعه في الآية ١٥٨ من هذه السورة وفي غيرها وجعل طاعته فيما أرسله به وحياً وبياناً للوحي عين طاعته كما في سورة النساء فلا يكون ولياً من دونه بل من عنده كما بيناه

في تفسير الآية (يراجع ص ٣٠٦ - ٣١٠ ج ٨ تفسير)

(٤) حظر القول على الله بغير علم بتشريع أو غيره . وذلك قوله تعالى في الرد على المشركين من الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله تعالى في آخر أصول الحرمات في الآية ٣٣ (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون؟) وقد بينا في تفسيرها مقاصد هذه الجريمة الشريكة (ص ٣٩٨ - ٤٠١ ج ٨ تفسير) ومنه يعلم خطأ الذين أنكروا الحسن والقبح في الأشياء مطلقا والذين حكموا العقل في التشريع الديني (٥) كون جميع ما يشرعه الله تعالى حسنا في نفسه وتنزيهه عن الأمر بالقبح وهو نص قوله تعالى في الآية ٢٧ (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) وقوله في الآية ٢٣ (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الخ فإن الفواحش ما ظهر قبحه وعظم ، والآنم ما يضر ، والبنى تجاوز حدود الحق والعدل ، والشرك بالله بغير سلطان أي برهان جهل ، والقول على الله بغير علم جهل وتمعد على حقوق الرب تعالى ، وكل ذلك قبيح في نظر العقل ، وبعضه قبيح في الحس أيضا ، فكل ما أمر الله تعالى به فهو حسن في نفسه ، وإن خفي حسن بعضه على بعض ضعفاء الناظرين ، وكل ما نهى عنه فهو قبيح في نفسه وإن جهل قبحه بعض الغاوين ، ولكن العقل على إدراكه لذلك لا يستقل بمعرفة كل حسن وكل قبيح بالاحاطة والتحديد ، بل تصده عن كثير من المحاسن والقبايح الثقايد والعادات وضعف النظر والبحث

(٦) استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه ، وهو في الآية ٤٣ وفي تفسيرها

تحقيق الحق في مذهب السلف (وهو في ص ٤٥١ ج ٨ تفسير)

(٨٧) تكليم الرب لموسى عليه السلام ومسألة رؤيته سبحانه وتعالى وبيان ذلك في تفسير قوله تعالى (١٤٣) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال : إن تراني (الخ وتفسيرها) (في ص ١٢٢ - ١٩٢ ج ٩ تفسير) وفيه من التحقيق والحكم في مسائل الخلاف ما لا يجده نظيراً في كتاب لا في أصل المسألتين ولا في متعلقاتهما ، كتجلى الرب سبحانه والحجب بينه وبين خلقه وتجليه

في الصور المختلفة ، ومسائل الأرواح والكشف والرؤيا والعمل النوي والتنويم
المنطاطيسي وأنواع مدركات النفس ومادة الكون الأولى والنور والكهرباء وما
يقال من أنها أصل هذه الكائنات ، والخلاف في إمكان معرفة كنه الخالق وأول
المخلوقات ، ومنها مسائل الكلام ومراتبه ومن ذكر الحرف والصوت في كلامه
تعالى . لتحقيق رجحان مذهب السلف على جميع مذاهب المتكلمين وفلسفتهم
في الكلام والرؤية وسائر صفات الرب سبحانه وتعالى وشؤونه

(٩) هداية الله وإضلاله في آية (١٧٨ من يهدي الله فهو المهتدي) الخ ،
وآية (١٨٦ من يضل الله فلا هادي له) الخ ، وفي تفسيرها تحقيق أن هذا
الاضلال لا يقتضى الاجبار ، وإنما هو مقتضى سنة الله تعالى في خلق الانسان ،
وارتباط المسببات من أعماله بالأسباب ، فليس حجة للمعتزلة ومن شايعهم ولا
للأشعرية والجبورية (راجع ٥٩٤ ج ٩) ومثله قوله تعالى (١٤٦) سأصرف عن آياتي الذين
يتكبرون في الأرض بغير الحق) وكذلك الطمع على القلوب في آتي ١٠٠ و ١٠١
كل ذلك بيان لسنة الله تعالى في طباع البشر وأعمالهم

(١٠) الكلام في رحمة الله تعالى ومغفرته ، ومنه قرب رحمته من المحسنين
في آية ٥٤ وكونه أرحم الراحمين في الآية ١٤١ ورحمته ومغفرته للتائبين في الآية
١٥٣ وكونه خير الغافرين ١٥٥ وسعة رحمته كل شيء ومن يكتبها أي يوجهها لهم ١٥٦
(١١) أسماء الله الحسنى ودعاؤه بها والإلحاد فيها وهو نص الآية ١٨٠ وفي
تفسيرها تحقيق ماورد من هذه الأسماء في القرآن وحديث « إن لله تسعة وتسعين
اسما » الخ (ص ٤٣١ ج ٩)

(١٢) الأمر بذكر الله تضرعاً وخيفة سرّاً وجهراً وكونه غذاء الإيمان وعبادته
وتسبيحه والسجود له وحده وهو في الآيتين اللتين ختم الله بهما السورة ٢٠٤ و ٢٠٥

الباب الثاني

الوحي والكتب والرسالة والرسول وفيه ٣ فصول فيها ٢٤ أصلاً أو مسألة

﴿ ماجاء فيها بشأنه القرآن ﴾

- (١) إنزال القرآن على خاتم الرسل محمد ﷺ للانذار به وذكرى للمؤمنين وهو في الآية الأولى من السورة ، وفيها نهي الرسول أن يكون في صدره حرج منه
- (٢) أمر المؤمنين باتباع المنزل إليهم من ربهم وهو القرآن وأن لا يتبعوا من دونه أولياء وهو الآية الثانية ، وبيان أنهم إذا لم يؤمنوا به فلا يرجى أن يؤمنوا بكتاب غيره ، كما قال في آخر الآية ١٨٥ (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟)
- (٣) وصفه تعالى للقرآن بأنه فصله على علم هدى ورحمة ليؤمنون ، وهو نص الآية ٥١

(٤) بيانه تعالى لما سيكون عند إتيان تأويل القرآن أى ظهور صدقه بوقوع ما أخبر بوقوعه من أمر الغيب ، وهو أن الذين نسوه فلم يؤمنوا به في الدنيا يؤمنون يومئذ ويشهدون لجميع الرسل بأنهم جاءوا بالحق ويتمنون الشفاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون ، وعو في الآية ٥٢

(٥) ولاية الله لرسوله بانزال الكتاب عليه في الآية ١٩٦

(٦) الأمر بالاستماع لقراءة القرآن والانصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به

﴿ ماجاء فيها خاصا بنبينا (ص) ﴾

- (٧) قوله تعالى في الآية الأولى (فلا يكن في صدرك حرج منه) أى الكتاب هو نهي عن ضيق الصدر بعظمة القرآن ، وجلال الأمر الذي أنزل لأجله ، وشدة وقع سلطانه في القلب ، أو عن ضيقه بمشقة الانذار به والتصدى لهداية جميع البشر ، وقد غلب عليهم الشرك والضلال ، أو بما يتوقع من شدة معارضة الكفار وعدوانهم - وقيل هو دعاء ، وقيل هو حكم منه تعالى بضمونه (راجع ص ٣٠٣ ج ٨)

(٨) أمره تعالى له بأن يعتز بأنه هو وليه وناصره وبأنه تعالى يتولى الصالحين فلا خوف على أتباعه من اضطهاد الكفار لهم ، وهو في الآية ١٩٦ وقد ذكرت في مسألة أخرى .

(٩) قوله تعالى في الآية ١٨٤ (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) الآية وهي تفنيد لرمي بعض مشركي مكة إياه ﷺ بالجنون ، يعنى أن التفكير الصحيح في حاله ﷺ من أخلاقه وهديه وسيرته وفيما جاء به من العلم والهدى ينفي أن يكون به ﷺ أدنى من الجنون كما زعموا ، فما عليهم إلا أن يتفكروا (راجع تفسيرها في ص ٤٥٣ ج ٩)

(١٠) بيان أنه ﷺ لم يعط علم الساعة أيان مرساها ومتى تقوم ؟ بل هو من علم الغيب الخاص بالله تعالى وذلك نص الآية ١٨٧

(١١) بيان أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك لنفسه - أى ولا لغيره بالأولى - نفعا ولا ضرا - إلا ما مكنه الله منه بتسخير الأسباب من الأعمال الاختيارية - وبيان أنه لا يعلم الغيب مؤيدا بالدليل الحسى والعقلى ، وذلك قوله تعالى (١٨٨) قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) راجع تفسيرها في صفحة ٥٠٧ - ٥١٦ ج ٩

(١٢) بيان عموم بعثته وشمول رسالته لجميع الأمم والشعوب ومنهم أهل الكتاب والشهادة له في كتبهم يدل عليه في الآية الأولى حذف مفعول (لتندبر به) فهو يدل عن العموم ، وكذلك الخطاب العام بعده في الأمر باتباع الناس ما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن المذكور في الآية الأولى . والنص في إرساله إلى أهل الكتاب قوله تعالى فيمن يكتب لهم رحمته (١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) الخ وقد بينا في تفسيرها نصوص التوراة والانجيل المشار إليها فيها (ص ٢٣٠ - ٢٩٩ ج ٩ تفسير)

وأما النص الصريح في عموم الرسالة فهو قوله تعالى (١٥٨) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الآية ، وكذا كل خطاب خاطب به بنو آدم في الآيات

٢٥ و ٢٦ و ٣١ وما بعدها من آيات التشريع العام ولكن هذا كله مشترك بين أمة خاتم النبيين وأمم الأنبياء قبله ، وأصرح منه في الاشتراك العام ما ترى في أول الكلام في الرسالة العامة

ما ورد في الرسالة العامة والرسل

(١٣) بعثة الرسل الى جميع بنى آدم في قوله تعالى (٣٥) يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي الخ ويدل على إرسالهم إلى الامم المختلفة قوله تعالى (٣ وكم من قرية أهلكناها) الى آخر الآية الخامسة. فلما راد بالقرى الكثيرة أمم الرسل بدليل ما بعده

(١٤) سؤاله الرسل يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة وهو نص الآية الخامسة

(١٥) جزاء بنى آدم على اتباع الرسل وطاعتهم وعلى تكذيبهم إياهم واستكبارهم عن اتباعهم وهو في الآيتين ٣٥ و ٣٦

(١٦) وظيفة الرسل تبليغ رسالات ربهم: بشارة وإنذارا: قولاً وعلاً، وهو صريح في الآيات: ١٨٨ و ٩٣ و ٦٢ و ١٨٨

(١٧) أول ما دعا اليه الرسل توحيد الألوهية بالأمر بعبادة الله وحده ونفى عبادة إله غيره؛ كما هو صريح في الآيات ٨٥ و ٧٠ و ٧٣ و ٨٥

(١٨) بحجى الرسل بالبينات من الله تعالى وهي تشمل الآيات الكونية والحجج العقلية كما ترى في الآيات ١٣ و ٨٥ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨

(١٩) الآيات الكونية التي أيد الله تعالى بها رسله هي حجة لهم على الأمم، وهي غير مقتضية للإيمان اقضاء عقلياً ولا ملمجة اليه طبعاً، ولو كانت مقتضية له قطعاً أو ملمجة اليه طبعاً لما تخلف عنها، ولما كان خلاف مقتضى التكليف المبني على الاختيار، والملمج لا يستحق جزاءً. ونحن نرى في قصة موسى مع فرعون وقومه من هذه السورة وغيرها أن السحرة قد آمنوا إيماناً يقينياً على علم، وأن الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم، ولكن الله تعالى أخبرنا في سورة النمل أنه لما جاءتهم الآية

الكبرى قالوا إنها لسحرمبين (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً (أى عاندوا موسى عليه السلام عناداً يظاهر الكفر بها فى الظاهر مع استيقاتها فى الباطل، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء فى الأرض وهذا وصف فرعون وملئه أى كبار رجال دولته، إذ من المعلوم أن سائر الشعب كان مستذلاً وهو مقلد للرؤساء لجهالة، وقد صدقهم فى قولهم إن موسى ساحر وإن السحرة كانوا متواطئين معه، ولذلك أظهروا الإيمان به لأجل إخراج فرعون ورجال دولته من مصر والتمتع بكبرياء الملك بدلاً منهم. كما تدل عليه آيات أخرى ولو فهم جمهور الشعب من الآيات ما فهموا لآمن كما آمنوا، لأنه لم يكن لديه من عتو العلو والكبرياء ما يصرفه عن الإيمان، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة فى الدولة من سائر الشعب ولكن كرامتهم لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لأصحابها من تركها لأجل الحق. وقد امتاز خاتم النبيين ﷺ بأن جعل الله آية نبوته الكبرى علمية لا صعوبة فى فهم دلالتها على عامى ولا خاصى على أنه أيده فى زمنه بعدة آيات كونية (٢٠) نصيحة الرسل للأمم وأمرهم بالحق والفضيلة ونهيهم عن ضدهما كما فى

الآيات ٦٢ و٦٣ و٦٨ و٧٤ و٧٩ و٨٢ و٨٥ و٨٦ و٩٣

(٢١) شبهة الأمم على الرسل التى أثارها تعجبهم واستنكارهم هى كون مدعى الرسالة رجلاً مثلهم كما فى الآية ٦٣ و٦٩

(٢٢) اتهم الكفار رسل الله بالسحر كما فعل فرعون والملا من قومه باتهام موسى فى الآية ١٠٩ وما يليها من الآيات فى قصة سحرة المصريين مع موسى. وهى شبهة جميع أقوام الرسل على آياتهم من حيث إن كلا منهما أمر غريب لا يعرفون سببه، ومن خطأ المتكلمين التفرقة بين المعجزة والسحر باختلاف حال الأشخاص وقد عقدنا فى تفسير الآيات فصلاً فى حقيقة السحر وأنواعه لا يجد القارىء مثله فى شئ من تفاسيرنا وكتبنا الكلامية «وهو فى ص ٤٥ — ٦٠ ج ٩»

(٢٣) عقاب الأمم على تكذيب الرسل وهو فى الآيات ٦٤ و٧٣ و٧٨ و٨٤

٩١ و٩٢ و٩٣ و١٣٣ و١٣٦ و١٣٧

(٢٤) قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. وهى من آية ٥٩ إلى ٩٣

قصة موسى مع فرعون وقومه وسحرته من آية ١٠٣ إلى ١٣٧ وقصته مع قومه وحدهم من ١٣٨ — ١٧١ وفيها من العبر والفوائد ما ذكر بعضه في أبواب من هذه الخلاصة وبقي ما سبب إنزالها وإنزال غيرها من المقاصد المصرح بها في غير هذه السورة ككونها من أخبار الغيب الماضية الدالة على كون القرآن وحياً من الله تعالى (١١ : ٤٩) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكونها تسلياً للنبي ﷺ عما يلاقى من اعراض المشركين وأذاهم وتثبيتاً لقلبه في النهوض بأعباء الرسالة ، كما قال تعالى (١١ : ١٢٠) وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) - وكونها موعظة وذكرى للمؤمنين ، كما قال تعالى في تممة هذه الآية (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وكونها عبرة عامة للعقلاء من المؤمنين والكافرين المستعدين للاعتبار كما قال تعالى (١٢ : ١١١) لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) وغير ذلك مما سنفصله إن شاء الله تعالى في تفسير سورة هود . فقد طال تفسير هذه السورة جداً .

الباب الثالث

عالم الآخرة والبعث والجزاء

(وفيه ١٢ أصلاً)

(الأصل الأول) البعث والاعادة في الآخرة وهو قوله تعالى في الآية ٢٥ (منها تخرجون) وفي ٢٩ (كما بدأكم تعودون) وفيه دليل على إمكان البعث لأنه كالبعث أو أهون على المبدىء بدهاءة فكيف وهو القادر على كل شيء بدءاً وإعادة على سواء - وفي الآية ٥٧ تشبيه اخراج الموتى باخراج النبات من الأرض الميتة بعد انزال المطر عليها . وهذا التشبيه يتضمن البرهان الواضح على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بعد فناء أجسادهم ، وقد أطننا في تفسيرها الكلام في المسألة

من الجهة العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية والكونية (فتراجع في ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨)
(الأصل الثاني) وزن الأعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين
وخفتها وهو في الآيتين الثامنة والتاسعة

(الأصل الثالث) سؤال الرسل في الآخرة عن التبليغ وأثره وسؤال الأمم
عن إجابة الرسل وهو في الآية السادسة

(الأصل الرابع) كون الجزاء بالعمل وجزاء المكذبين المستكبرين والمجرمين
والظالمين ودخول الأمم من الانس والجن في النار ولعن بعضهم بعضاً، وشكوى
بعضهم من اضلال بعض والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب وتحاورهم في ذلك، راجع
الآيات ٣٦ - ٤١ و ١٤٧ و ١٧٩

(الأصل الخامس) جزاء المتقين المصلحين في الآية ٣٥ وجزاء الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وإبرائهم الجنة وحالم ومقامهم فيها وذلك في الآيتين ٤٢ و ٤٣ -
ومن ذلك نوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق من الآية ٣٢ (قل هي للذين
آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)

(الأصل السادس) إقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار في قوله تعالى (٤٣) وفادى
أصحاب الجنة أصحاب النار أن أن قد وجدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم
حقاً؟ قالوا نعم) الخ وفي تفسيرها بيان لما في صناعات هذا العصر من إزالة الاستبعاد
والاستغراب من تحاور الناس مع بعد المسافات بينهم (راجع ص ٤٢٤ ج ٨ تفسير)

(الأصل السابع) الحجاب بين أهل الجنة وأهل النار بما يذكروهم بضلالهم
وتسليمهم على أهل الجنة وخطابهم لأناس يعرفونهم بسيماهم في النار وهو الاعراف وأهل
في الدنيا وغرورهم بأموالهم الخ وهو في الآيات ٤٦ - ٤٩

(الأصل الثامن) نداء أصحاب النار أصحاب الجنة (أن أفيضوا علينا من
الماء أو بما رزقكم الله) وجواب أهل الجنة لهم في الآية ٤٨

(الأصل التاسع) اعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل وتمنيهم الشفاعة
ليشتقوا لهم، أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذي كانوا يعملون، وحكم الله تعالى
عليهم بأنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون من القول بأن من كانوا

يدعوتهم في الدنيا فيشفعون ثم عند الله . وهو في الآية (٥٣)

(الأصل العاشر) الدعاء بخير الآخرة مع الدنيا وهو ما ورد في دعاء موسى عليه

السلام من قول الله تعالى حكاية عنه (١٥٦) واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة

وفي الآخرة) فهو موافق لما ورد في القرآن تشريعا لهذه الأمة ، فغاية دين الله على

السنة لجميع سعادة الدارين كما نرى بيانه في السنة ٤ من الباب السادس

(الأصل الحادي عشر) صفة أهل جهنم (١٧٩) ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من

الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها) الخ ، وفي تفسيرنا لها من العلم والحكمة مالا

نجد مثله في تفسير ولا في كتاب آخر - فراجع (ص ٤١٨ ج ٩)

(الأصل الثاني عشر) مسألة قيام الساعة وكونها تأتي بوقتة وهي في الآية ٨٧

وفي تفسيرها مباحث مسائل مبتكرة في أشراطها (راجع ص ٤٦١ - ٥٠٧ ج ٩)

الباب الرابع

أصول التشريع وفيه ٩ أصول

(الأصل الأول) بيان أن شارع الدين هو الله تعالى كما في الآية الثانية من

السورة ، وتقدم في الباب الأول من هذه الخلاصة ، وهناك قد ذكر من حيث إنه

حق الرب سبحانه وتعالى ، ويذكر هنا من حيث إنه الأصل الأول من أصول

الأحكام التشريعية . والمراد بشرع الدين والتشريع الديني ما يجب اتباعه وجوبا

دينيا على أنه قرية يثاب فاعله ويعاقب تاركه في الآخرة . وأما التشريع الديني

الذي يحتاج إليه الناس في مصالحهم الدنيوية فقد أذن الله تعالى به في الإسلام

للمرسل ولأولو الأمر من المسلمين ، كما بيناه بالتفصيل لواسع في تفسير قوله تعالى

(٥٩ : ٤) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)

واشترط في هذا الأذن أن يرد ما تنازعوا فيه من شيء إلى الله ورسوله بالرجوع إلى

الكتاب وإلى الرسول في عهده ، وإلى سنته من بعده ، كما هو صريح بقية الآية

مع بيان علته (راجع تفسيرها في ص ١٨٠ - ٢٢٢ ج ٥ تفسير)

(الأصل الثاني) تحريم التقليد في الدين والأخذ فيه بأراء البشر، وهو نص النهي في الآية الثانية معطوفاً على الأمر باتباع ما أنزل إلى الناس من ربهم وهو (ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقد صرح بذلك المفسرون. ومن النصوص في بطلانه الإنكار على احتجاج المشركين به في الآية (٢٨) وإذا فعلوا فاحشة قالو وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية (راجع تفسيرها في ص ٣٧٣ ج ٨) وفي الآية ١٧٣ (الأصل الثالث) تعظيم شأن النظر العقلي والتفكير لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به ومعرفة آيات الله وسننه في خلقه وفضله على عباده، فمن ذلك قوله تعالى في آية ٣٣ (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) السلطان البرهان، فتقييد تحريم الشرك بانتفائه تعظيم لشأنه. ومنه قوله في آخر الآية ١٦٩ (أفلا تعقلون؟) وسيدكر في الأصل الرابع. ومنه قوله تعالى بعد ضرب المثل للمكذابين بآياته من آية ١٧٦ (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) ومنه قوله في الآية ١٨٤ (أولم يتفكروا؟) ما بصاحبهم من جنة) وفي الآية ١٨٥ (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء؟) الخ - والآية الجامعة في هذا المعنى قوله تعالى (١٧٩) ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون) وهي شاملة للنظر العقلي المحض ولكل ما كان مصدره الرؤية والسمع وهما أعم وأكثر مصادر العلم (الأصل الرابع) تعظيم شأن العلم الشامل للعلم العقلي وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة، وما بينه به رسول ﷺ من سنة، والعلم المستفاد من الحس والعقل، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات، ففارق ما قبله. ومن الآيات في ذلك قوله في آخر الآية ٢٧ (أتقولون على الله ما لا تعلمون) وقوله في آخر الآية ٣١ (كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) وهي من النوع الثاني لأن موضوع الآية مسألة الأمر بالأكل من الطيبات وبالزينة والإنكار على من حرهما وهي من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية كما فصلناه في تفسيرها (راجع ٣٠٣ ج ٨) وقوله تعالى في آخر آية ٣٣ التي بين فيها أنواع المحرمات العامة (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما تعلمون) السلطان البرهان - وقوله تعالى

في آخر آية ١٣٠ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وهو في زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ما ينالهم من الحسنات والخيرات فهو حق لهم وأن ما ينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم والعلم المنقّى عنهم هنا هو العلم بسنن الله في طباع البشر والأسباب والمسببات في العالم - وقوله تعالى في حكاية توبيخ موسى (ع . م) لقومه على مطالبهم إياه بأن يجعل لهم إلهاً كالآلهة الذين رأوه يكفنون على أصنام لهم من آخر الآية ١٣٨ (إنكم قوم تجهلون) وما علل به الحكم بجعلهم في الآيتين بعدها، فهذه جامعة لبيان فضل العلم النقي والعلم العقلي وذم الجهل بهما معاً، فإن موسى (ع . م) علل تجهيلهم أولاً بعلة عقلية وثانياً بعلة دينية عقلية . فراجع تفسيرهم في (ص ١٠٥ - ١١٥ ج ٩) وقوله تعالى في الآية ١٦٩ أ لم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه (وهو من العلم النقي ولكنه أيد بالعقل في ختم الآية بقوله (أفلا تعقلون))

فهذه الشواهد على هذا الأصل وما قبله المؤيدة بأضعافها في السور الأخرى تثبت تعظيم القرآن لشأن التفكير والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المنزلة بسننه وآياته في خلقه ونعمه على عباده - وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من عقلية وعقلية وهي حجة على نقص أهل الجهل بها .

(الأصلان الخامس والسادس) أمر الناس بأخذ زينتهم عند كل مسجد وبالأكل والشرب من الطيبات المستلذات ، وإنكار على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وبيان أنها حق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أولاً وبالذات يقيد عدم الاعتداء والامسراف فيها ، وإن شاركهم غيرهم فيها بعموم فضل الله لا باستحقاقهم ، وأنها تكون خالصة لهم في الآخرة ، وذلك نص الآيتين ٣١ و ٣٢ وهذان الأصلان هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء الحضارة بعلومها وفنونها وصناعاتها وإظهارها لما في هذا الكون من سنن الله تعالى وآياته وأسرار صنعه الدالة على توحيده وقدرته وحكمته وإحسانه على عباده - وهما المبتطلان لأساس الديانة البرهمية من جعل مقصد الدين تعذيب النفس وحرمانها من الزينة واللذة ، وقلدهم في ذلك النصارى وابتدعوا الرهبانية لأجله ولم يقفوا عند حد تقليدهم في الدنيا حتى

زعموا أن دار النعيم في الآخرة خالية من اللذات الجسدية وليس فيها إلا النعيم الروحاني ، خلافا لبعض تصريحات الإنجيل من شرب الخمر في الملكوت وكون الصائمين والجيايع والعطاش من أجل البر يشبعون هنالك

ولما كان الغلو في الدين كغيره من أمور البشر يقوى الاستعداد له في بعض الناس من كل أمة بدأ بعض الصحابة المباليغين في العبادة بترك أكل اللحوم وهم بعضهم بالاختصاص ، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وعن المبالغة في العبادة ونزل في شأنهم (لا تحرموا طبيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الآيات من سورة المائدة وهي بمعنى ما هنا ، ولم يمنع ذلك كله بعض مسلمي المتصوفة من الغلو في ترك الزينة والطيبات ، وضار الجاهلون بكنهه الاسلام يعدون الغلو في ذلك هو السكال الدين ، وأهله من أولياء الله المقربين ، وإن كانوا جاهلين خرافيين . ويراجع ما في تفسيرنا للآيتين من الأحكام والحكم والفوائد ، ومنها ما لم يكن يخطر في بال أحد من مفسرين المتقدمين رحمهم الله تعالى (ص ٣٦٩ - ٣٩٤ ج ٨)

(الأصل السابع) هداية الناس بالحق والعدل به وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام في آية ١٥٩ وخيار أمة محمد ﷺ في الآية ١٨١ فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه . والحق هو الأمر الثابت المتحقق في الشرع إن كان شرعياً ، وفي الواقع ونفس الأمر إن كان أمراً وجودياً ، والعدل ما تجرى به الحق من غير ميل إلى طرف من الطرفين أو الأطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به . ويدخل في هذا الأصل الدعوة إلى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوضيحية العامة والخاصة والإصلاح بين الناس

ومنه الأمر بالعدل المطلق في الأحكام والأعمال بقوله (١٨ قل أمر ربّي بالعدل) وهذا هو الأصل العام لجميع الأحكام بين الناس كما قال تعالى في سورة النساء المدنية إذ صار للأمة حكم ودولة (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وفي سورة النساء والمائدة آيات أخرى في وجوب عموم العدل والمساواة فيه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والغني والفقير والقريب والبعيد ، وقد تقدمت مع تفسيرها . فمن تجرى العدل بغير محاباة وعرف مكانه فحكم به كان حاكماً بحكم الله تعالى من غير حاجة إلى

نص خاص في الشريعة به ، فإن وجد النص كانت الثقة بالعدل أتم بل لا حاجة مع النص إلى الاجتهاد كما أن الاجتهاد المخالف للنص الخاص أو للعدل العام باطل .
(الأصل الثامن) حصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله تعالى (٣٣)
قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن
تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (تراجع بيان
وجه الحصر في تفسيرها (ص ٣٩٤ — ٤٠١ ج ٨)

(الأصل التاسع) بيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية الجامعة بأوجز
عبارة معجزة في قوله تعالى (١٩٩) خذ العفو واءمرا بالعرف واعرض عن الجاهلين
فراجع تفسيرها من آخر ص ٥٣٣ — ٥٣٩ ج ٩

الباب الخامس

في آيات الله وسننه في الخلق والتكوين

(وفيه ١٤ أصلا)

(١) خلق الله السموات والأرض في ستة أيام واستواؤه على عرشه ونظام
الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وكون الخلق والأمر له
وحده ، وذلك في الآية ٥٤ وهي تتضمن الترغيب في علمي الفلك والجغرافية
الطبيعية دون علم التنجيم الخرافي ، وقد بلغ أهل الغرب من العلم بذلك ما لو ذكر
أبسطه وأبعده عن الغرابة في غير هذا العصر لقال فيه أذكي العقلاء إنه من هذيان
المجانين ، أو تخيل الحشاشين ، ولا يوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته وسعة
علمه ودقة حكمته من علم الفلك ، وقد كان قوما العرب في عهد حضارتهم الاسلامية
أعلم البشرية ، فصاروا أجهلهم به

(٢) خلق الله الرياح والمطر وأحياء الأرض به وإخراج الثمرات والخصب
وضده وذلك في الآيتين ٥٧ و ٥٨ وذلك يتضمن الترغيب في العلم بسنن الله تعالى
في هذه المخلوقات ، كما قلناه فيما قبله ، لأن في العلم بذلك كله من معرفة آيات الله
و كمال صفاته ما يعطى متأمله اليقين في الإيمان إذا قصده و يندمق عليه نعمه التي من

عليه بها ويمده لشكرها فتجتمع له بذلك سعادة الدارين ، وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا على أكثر خيرات الأرض في بلادهم وبلاد الجاهلين بها الذين أضع الجمل عليهم دنياهم ودينهم بالتبع لها

(٣) خلق الله الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد

الزوجين الذكر والأنثى للتناسل كافي الآية ١٨٩ وفي قصة حنة آدم ومعصيته وتوبته من الآيات ١٩-٢٥ بعض صفات النشأة البشرية واستعدادها وحالها في سكنى الأرض

(٤) تفضيل الله تعالى للإنسان على من في الأرض جميعاً كما أفاده قوله تعالى

(١٠) ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا

بليس لم يكن من الساجدين) وبيان هذه المسألة بالتفصيل في تفسير سورة البقرة

لأنها أوسع تفصيلاً لما تقتضيه قصة آدم المطولة فيها والتصريح فيها بجعل آدم خليفة

في الأرض ، وفي باب التأويل هنالك سبج طويل للاستاذ الامام رحمه الله تعالى

لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم فيراجع في الجزء الأول من هذا التفسير

(٥) خلق بنى آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه

ربهم ، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهن ، وما منحوه من العقل والفكر ، وحجته تعالى

عليهم بذلك كافي الآيتين ١٧٢ و ١٧٣ فيراجع تفسيرهما (في ص ٣٨٦ - ٤٠٤ ج ٩)

وكذا خلقهم مستعدين للشر لا وما يتبعه من الخرافات كافي الآية الثانية منهما والآية ١٩٠

(٦) ضرب المثل لاختلاف استعداد البشر لكل من الخير والشر والبر والإثم وعلامة

كل منها فيهم وكونهم يعرفون بناتهم ، وذلك قوله تعالى (٥٧) والبلد الطيب يخرج نباته

بإذن ربه والذي اخبت لا يخرج إلا نكدا ، وفيه إرشاد إلى طلب معرفة الشيء بأثره ،

ومعرفة الأثر بمصدره ، وفيه دليل على أن في الأشياء خبيثاً وطيباً ، وجيداً ووردياً .

ويؤيده حديث « الناس معادن كعادن الذهب والفضة » الخ وهو في الصحاح وغيرها

(٧) الكلام في إبليس وهو الشيطان وعداوته لآدم وامتناعه من السجود

له ووسوسته له ولزوجه بالاغراء بالمعصية بالأكل من الشجرة وعاقبة ذلك . وهو

في الآيات ٢٠ - ٢٣ وكونه من المنظرين إلى يوم القيامة

(٨) عداوة إبليس والشياطين من نسله لبنى آدم وتزيينهم لهم الشر والباطل

واغرائهم بالفساد والمعاصي وحكمة ذلك ، وهى فى الآيات ١٦ و ١٨ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٧ وتحذيرهم منه فى الآية ٢٦ مع بيان أنه يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ،
(٩) نزع الشيطان للانسان ومقاومته بالاستعاذة بالله تعالى وكون المتقين إذا
مسهم طائف منه تذكروا فإذا هم مبصرون لا تطول غفلتهم فيغفرهم وسواسه ، وذلك
فى الآيتين ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(١٠) بيان أن الشياطين أولياء للمجرمين الذين لا يؤمنون من بنى آدم وهوى
فاصلة الآية ٢٧ وبيان أن اخوان الشياطين من بنى آدم يمكنون الشياطين من أنفسهم
بعدم تقواهم فهم يعدونهم فى الغي ولا يقصرون فيه ، وذلك نص الآية ٢٠٢ .
قد سبق الكلام فى تفسيرنا هذا على مباحث الشياطين والجن فى عدة مواضع
قد أحلنا عليها فى تفسير آيات الاعراف وزدنا على ذلك عقد فصل استطردى فى
حكمة خلق الله تعالى الخلق ، واستعداد الشيطان والبشر للشر . فيراجع فى (ص
٣٤٠ — ٣٤٤ ج ٨) .

(١١)منة الله على البشر بتمكينهم فى الأرض وتسهيل أسباب المعاش لهم كفى الآية ٩
ومن الشكر الواجب له تعالى على ذلك طلب سعة العلم باستعمار الأرض ووسائل المعاش
(١٢) منة الله على البشر بالقياس والزينة كما فى الآية ٢٦ وراجع فى ذلك
الأصلين ٥ و ٦ من الباب الرابع من هذه الخلاصة .

(١٣) صفات شرار البشر المستحقين للجهنم وهم الذين أهملوا استعمال عقولهم
وحواسهم فيما خلقت لأجله من اقتباس من العلم والحكمة . وذلك نص الآية ١٧٩
وذكرت فى أصل الجزاء فى الآخرة (وهو ١١ من الباب الثالث) وفى تعظيم شأن
النظر والتفكر لتحصيل العلم (وهو الأصل ٣ من الباب ٤) .

(١٤) آياته تعالى ونعمه على بنى إسرائيل ، وتراجع فى قصة موسى معهم .



الباب السادس

في سنن الله تعالى في الاجتماع وال عمران البشرى

(وفيه ٧ أصول)

(١) إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها ، كما في الآيتين ٣ و ٤ ومصادقه في خلق آدم الذي هو عنوان البشرية وجعله تعالى المعصية بالآكل من الشجرة ظلماً للنفس في الآية ١٩ واعتراف آدم وحواء في دعاء توبتهما بذلك في قولها (ربنا ظلمنا أنفسنا) وبأن شأن المعصية من الأفراد أن تغفر بالتوبة فيعفى عن عقابها وهو خسران النفس كما في قولها (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وأما خسارة الأمم فهي إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها . وجلة ذلك أن العقوبة أثر طبيعي لازم للعمل ، وأن ذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها في الدنيا قبل الآخرة ، وأما ظلم الأفراد وعقابهم عليه في الآخرة فيراجع في الأصل ٤ من الباب الثالث (٢) بيان أن للأمم آجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التي اقتضتها السنن

الإلهية العامة ، وهو نص الآية ٣٤ وكونها إذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلى غفلة ليلاً أو نهاراً كما يؤخذ من الآيات ٩٤ - ١٠٠ وهذه الآيات وردت في عقاب الأمم التي عانت الرسل وكان عقابها وضعياً لا اجتماعياً - وقد سبق لنا في هذا التفسير أن العقاب الإلهي للأفراد وللأمم نوعان (أحدهما) العقاب بما توعده تعالى به على مخالفة رسله ومعاندتهم ، وهو من قبيل عقاب الحكام لرعاياهم على مخالفة شرائع أمتهم وقوانينها ونظمها (وثانيهما) العقاب الذي هو أثر طبيعي للجرائم ، وهو من قبيل ما يعاقب به المريض على مخالفة أمر طبيبه في معالجته من الحمية والاقتصار على كذا من الغذاء . والتزام كذا من الدواء (راجع ص ٣٠٨ ج ٧ تفسير) .

(٣) ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة وبضدها من الرخاء والنماء تارة أخرى ، فاما أن تعتبر بذلك فيكون تربية لها وإما أن تغنى وتغفل فيكون مهلكة لها كما في الآيات ٩٤ وما بعدها مما تقدم الكلام عليه في السنة الثانية من وجه آخر

(٤) بيان أن الإيمان بما دعا الله اليه والتقوى في العمل بشرعه فعلا وترك سبب اجتماعي طبيعي لسعة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة كما في قوله تعالى (٩٦ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وهو موافق لآيات أخرى في سور أخرى (منها) الآية ٥٢ من سورة هود (١١) والآيات ١٢٣-١٢٧ من سياق بيان سنته تعالى في النشأة البشرية من سورة طه ومثله في الآيات ١٠-١٢ من سورة نوح والآيتين ١٦ و١٧ من سورة الجن بعدها وغيرها ، وقد بينا وجه ذلك في التفسير والمنار ومنه تحديق معنى التقوى واختلافها باختلاف مواضعها من أمور الدين والدنيا في مقالة عنوانها (عاقبة الحرب المدنية) نشرت في (ج ٣١ ص ٣١ من المنار) (٥) استدراجه تعالى المكذبين والمجرمين واملأوه لهم كما في الآيتين ١٨٢ و١٨٣ وهو في معنى ما سبقه من سنة أخذ الله للأمم بذنوبها ومن سنة ابتلائها بالحسنات والسيئات ، فإن من لا يعتبر بذلك ولا يترقب يصر على ذنبه ولا يرجع عنه وذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها - راجع تفسير الآيتين في ص ٤٥١ و٤٤٩ ج ٩ ففيه بيان هذه السنة موضحاً

(٦) سنة الله في ارث الأرض واستخلاف الأمم فيها والاستيلاء والسيادة على الأمم والشعوب . فقد بين الله تعالى لنا في قصة موسى مع قومه أن وطأة فرعون وقومه اشتدت على بني إسرائيل ، وصرح بوجوب الاستمرار على تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم لأجل أن تنقرض الأمة بعد استدلال من يبق من النساء إلى أن ينقرض الرجال وما ازدادوا إلا ذلاً وخنوعاً - وهم مئات الألوف - كما هو شأن الشعوب الجاهلة المستضعفة ، ولكن الله تعالى أمر رسوله موسى أن يخلق ذلك اليأس من قلوبهم بقوة الإيمان بما حكاه عنه بقوله (١١٨) قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أي بين لهم أن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم وإنما هي لله ، وله سبحانه وتعالى سنة في سلمها من قوم وجعلها إرثاً لقوم آخرين بمحض مشيئته وسلطانه ، ومدار هذه السنة على أن العاقبة في التنارع بين الأمم على الأرض التي تعيش فيها أو تستعمرها للمتقين ، أي الذين يتقون أسباب (تفسير القرآن الحكيم) (٣٧) (الجزء التاسع)

الضعف والخذلان والهلاك كاليأس من روح الله والتخاذل والتنازع والفساد في الأرض والظلم والفسق ، ويملكون بضدها ويسأرون ما تقوى به الأمم من الاخلاق والأعمال ، وأعمالها الاستعانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء والصبر على المسكاره معها عظمت ، وهذان الأمران هما أعظم ما تتفاضل به الأمم من القوى المعنوية باتفاق الملاحة والمالين من علماء الاجتماع وقواد الحروب

وقد تذكرت هذه القاعدة في القرآن الحكيم وفي معناها قوله تعالى من سورة الانبياء (٢١ : ١٠٠) ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون (و) أما الصالحون هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العمران ، وهو بمعنى ما يسميه علماء الاجتماع «بقاء الأصلاح أو الأمثال في كل تنازع» ويدل عليه المثل المشهور في سورة الرعد (١٣ : ١٧) أنزل من السماء ماء - إلى قوله - فأما الزبد فذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض (ومن العجيب أن ترى بعض الشعوب الاسلامية المستضعفة في هذا العصر بسيادة الاجانب عليها بأدلة من استقلالها وعزتها بل من حياتها المالية والقومية بما ترى من خفة موازينها ووجهان موازين السائدين عليها في القوى المادية والآلية واستئلال هؤلاء السائدين عليها لها ، جهلا منها بسنة الله تعالى التي بينها في هذه الآية ونفقتا عن كون وجهان قوى فراعون وقومه على بني إسرائيل وقهرهم لهم كأننا فوق وجهان قوى سائدين عليها وقهرهم إياها ، وفي هذا العصر من العبر التاريخية بسقوط بعض الدول القوية مالا يقل عن العبرة بأحداث التاريخ القديم ثم بين لنا تعالى في الآية التالية لتلك الآية (١٢٩) أن موسى عليه السلام شكاه قومه إيداء فرعون وقومه لهم قبل مجيئه وبعده على سواء، فذكر لهم ما عنده من الرجاء بالهلاك ربهم لعدوهم واستخلافهم في الأرض الموعدين بها ليختبرهم فينظر كيف يعملون ، ويكون ثبات ملكهم وسلطانهم على حسب عملهم الذي تصلح به الأرض وأهلها أو تفسد ، وهو ما فصله تعالى لنا بعد ذلك في آيات أخرى منها في إفسادهم قوله تعالى (١٧ : ٤) وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض (إلى تنمة الآية الثامنة

ثم بين لنا تعالى في الآية ١١ من هذا السياق أنه أودعهم الأرض المباركة وكتب كتابه المسقى عليهم بما صبروا ، أي لا يجرده أكلات الله ليسوا به ، فعلم منه بالفعل أن الأمة استضعفتها وما يتن عهدها النظام ، اقرباً فليس لها أن تياس من الحياة . وهو تحقيق لرجاء موسى هنا ولوعده الله إياه بما تسمى سريراً في قوله من سورة القصص (٢٨ : ٥) ويندأن من على الذين استضعفوا في الأرض ونجمهم أمة ونجمهم الوارثين . ولا كن لهم في الأرض) الآية

ترى شعوب المسلمين يجاهلون هذه أسنن الانبياء ، وما ضاع ملكهم وعزمهم إلا بهمملهم الذي كان سبباً لعدم الاعتقاد بها في العمل ، وما كان سبباً لهذا الجهل إلا الأعراف عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المشككون من كتب العقائد المبتدعة على الفوائد الكلامية البديعة وما كتبه النظماء من أحكام الشرائع والمعاملات المدنية والقوبات والحروب وما يتعلق بها ، وهذه السورة الجميلة العجيبة القدر والفائدة (الأعراف) سائبة من هذه الأحكام كلها ، ومن نظريات المشككين والعقائد وفكرهم لها ، وكذلك غيرها من السور لذلك . قبل أنزل الله تعالى هات السور كلها لتعبد بتجويد ألفاظها بدون فهم ، أو لاختلافها رقى وتقدم ، ونسباً لقوله المآثم ؟

وأعجب من هذا كله أن الجهل بلغ بهم بعد ذلك أن ذهب قيسهم فريقتهم لهذا الفريق المثلث الحافظ على كتب النور الوسطى دون مدى السلف ، فحسم يقول إن دين الإسلام هو السبب في جهل المسلمين وضعفهم ولا حياة لما إلا بالقرآن علم الاجتماع وسنن العمران من الأمم غير الإسلامية التي سادت بها العالم وما يؤيدها من الفنون والصناعات ، هؤلاء أجهل بالإسلام من أولئك ، فكتاب الإسلام هو المرشد الأول لسنن الاجتماع والعمران ، ولكن المسلمين تعصروا في طور حياتهم العافية عن تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالحاجة إليه ، وكان حقهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس به علماً لأن كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدنو إليه (٧) إن سنة الله في الأمم التي تراث الأرض من بعد أهلها الأصلاء هي سنته

تعالى في أهلها ، فإذا كان هؤلاء قد ضلوا ضلماً يسبب فسادهم وفسادهم وعزمهم وعلى قلوبهم ، فكذلك يكون شأن الوارثين من بعدهم إذا ساروا سبلهم في

ذلك ، وذلك قوله تعالى (١٠٠) أو لم يهد الذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) وكنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمعنى هذه الآية من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وفساد العقائد والأخلاق وسلب الأموال يتحرون أن يكون ظلمهم دون ظلم حكام أهل البلاد الذين أضاعوها ، وعقولهم تبعث دائماً فى الأسباب التى يحشى أن تكون سبباً لسلبها منهم لأجل اتقاءها ، وآذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر يتعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الظالمين فيها حذراً منهم أن يسلبوهم إياها وقد قلنا فى تفسير هذه الآية : قد كان ينبغى للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التى هلك بها من كان قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم - إلخ ما تراه فى ص ٣٠ و ٣١ ج ٩

هذا ما فتح الله به علينا من أصول وأمّهات هداية هذه السورة الجليلة بمراجعتها المرة بعد المرة ، مروراً على الآيات بالنظر ، ولو أعدنا قراءتها مع قراءة تفسيرها بالتدبر لظهر لنا أكثر من ذلك ، وإنما أردنا التلخيص ، ونسأله تعالى أن يجعلها هى وسائر كتابه المجيد حجة لنا لاعلمينا ، ويوفق أمتنا للرجوع إلى الاهتداء به بالتوبة إليه كما تاب أبوهم وأمهم عليهما السلام

❦ تنبيه ❦

قد وقع خطأ فى عدد آيات هذه السورة بالنسبة إلى عدد المصحف الجديد الذى طبعته الحكومة المصرية والفرق بينهما آية واحدة من أول السورة إذ عدت فيه (المص) آية ولم نعد لها آية ، ثم وافقنا عدده من الآية ١٦٧ إلى آخر السورة . وقد اعتمدنا فى شواهد خلاصة السورة على عدد المصحف لا التفسير لأننا استنبطناها من مراجعة المصحف نفسه غالباً ، فليعلم هذا ويتذكر عند مراجعة شواهد التفسير